تفسیر القرآن الکریم

تألیف

صدر المتألهین

محمد بن ابراهیم صدر الدین الشیرازی

انتشارات بیدار

ایران قم

٢٢٠٠

تفسير القرآن الكريم

سورة البقرة ٣٤ـ٦٥

كت...
مركز تحقيقات...
شماره ثبت:
تاريخ ثبت:

تأليف

صدر المتألهين

محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي

تصحيح محمد خواجوي

انتشارات بيدار

قم



الكتاب : تفسير القرآن الكريم ـ الجزء الثالث

المؤلف : صدرالدين محمد بن ابراهيم الشيرازي

الطبعة : الاولى

التاريخ : ١٣٦٤ هـ ـ ش

ترتيب الحروف : مطبعة بهشت

المطبعة : مطبعة أمير

الناشر : انتشارات بيدار

العدد : ١٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله جلّ اسمه :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

هذه نعمةٌ رابعةٌ من نعم الله في حقّ الإنسان المعدودة في هذه الآيات التي أوليها مافي قوله : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ ـ الآية ـ وثانيتها مافي قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والنعمة الثالثة مافي قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ .

والظرف معطوف على الظرف السابق إن نصبته بمضمر ، وإلاّ فهو معطوف بما يقدّر عاملا فيه على الجملة المتقدّمة ، بل القصّة بأسرها على القصّة الأخرى .

* * *

لمّا أنبأ آدم عليه السلام الملائكة بالأسماء الحسنى بحسب مقامه الجمعي ، وعلّمهم مالم يعلموها ـ إذ لم تعط نشأتهم ذوقاً ووجداناً ـ أمرهم الله بالسجود له عندما سوّاه الله ونفخ فيه من روحه ، وكان الأمر به ايّاهم قبل تسويته ونفخ الروح فيه ، لقوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [١٥/٢٩] وسبب ذلك انّه كان امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله عليهم من جهة استجماع مقامه الجمعي الكمالي لجميع مقامات مظاهر الأسماء .

[معنى السجدة وسبب مسجوديّة آدمٌ]

والسجود في الأصل تذلّل وانقياد مع تَطَأطأ الرأس . يقال : سجَد البعيرُ وأسجَد : طأطأ رأسه لراكبه . قال الشاعر [١] : « وقلنَ له أسجد لليلىٰ فأسجَدا » وقال: «ترى الاكم فيها سجّداً للحوافر» اي تلك الجبال الصغار كانت مذلّلة لحوافر الخيل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [٥٥/٦] .

وفي الشرع وضعُ الجبهةِ على الأرض قصداً للعبادة .

والمراد منه هيهنا إمّا المعنى اللغوي ، وهو التواضع لآدم تحيّةً وتعظيماً له كسجود إخوة يوسف وأبواه له، أو التذلّل والانقياد بالسعي في تحصيل ماينوط به أمورُ معاشهم ويتمّ به أحوالُ كمالهم بحسب معادهم ، لأنّهم وسائطُ تدبيرات هذا العالَم ، وتحريكات الأجرام واستحالاتها وانقلاباتها لأن يَتكوَّن منها الكائناتُ التي غايتُها خِلقَة الإنسان ، لأنّ من أفراده عرفاءُ الرحمن .

وإمّا المعنى الشرعي : فهيهنا يحتمل السجودُ وجوهاً ثلاثة :

إمّا أن يكونَ المسجودُ له هو الله تعالى .

فحينئذ إمّا[أن] جُعل آدمُ قبلةً لسجودهم كالكعبة تفخيماً لشأنه .

وإمّا أن كان آدمُ سبباً لوجوب السجدة ، فكأنّه تعالى لمّا خلقَه بحيث أن كان أنموذجاً للمبدعات كلّها ـ بل للموجودات بأسرها ـ وجعله نسخةً مختصرة لما في العالَم الروحاني والعالَم الجسماني ، وذريعةً للملائكة إلى استيفاء ماقدّر لهم من الكمالات الفعليّة ، وفاضَ عليهم من الإشراقات النوريّة من جهة تحريكاتهم الكليّة ، ووصلة إلي ظهور ماصدَر عنهم من الخيرات وترتّب عليهم من وجود الأكوان الصوريّة والحوادث الأرضيّة بواسطة الحركات السماويّة ، فأمروا بالسجود تذلّلاً

١) قال أبو عبيد: « وأنشدني أعرابي من بني أسد : وقلن . . . » تهذيب اللغة ١٠/ ٥٦٩ .

لما رأوا من عظيم قدرة الله وباهر آياته في نظم العالَم من الأعلىٰ إلى الأسفل، ثمّ من الأسفل إلى الأعلىٰ بواسطة الإنسان الذي به ترتقي سلسة الوجود ـ الهابطِ إلى أسفل السافلين ـ إلى أعلىٰ عليين ، وشكراً لِما أنعم اللهُ عليهم بواسطته .

فاللامُ فيه كاللامِ في قول حسّان في مدح أميرالمؤمنين عليه السلام :

ماكنت أعرف إنَّ الأمْر منصرفٌ * عن هاشم ، ثمّ منها عن أبي حَسَن
أليسَ أوّلَ منْ صَلّىٰ لقبلَتِكُم * وأعرفُ الناس بالقرآن والسنَن

أو في قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ [١٧/٧٨] .

وإما أن يكون المسجود هو الإنسان ، لكن [لا] من حيث هويّته الإمكانيّة ليلزم الإشراك ، بل من حيث بلوغه إلى مقام القرب الإلهي، ورجوعه وحشره إلى الحضرة الإلٰهية ، وفنائه عن ذاته ، وبقائه ببقاء الله لابقاء غيره ، ففي هذا المقام يصير الروح الإنساني كمرآة مصقولة لالون فيه ، انعكس عليه وجه الله الباقي على نهج التجلي ـ لاعلى وجه الحلول والاتحاد ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ فسجودهم لادم عليه السلام من هذه الجهة سجود لله ـ لا له .

ومما يوضح ذلك إنّ كلّ منْ عبَدَاللهَ وسجَدَله لابدّ أنْ يتصوّره في ضميره بوجه من الوجوه ، ويشاهده في باطنه ، إذ العبادةُ والسجدة للمجهول المطلق محال ، ولهذا قد وَرَد في الحديث عنه صلى الله عليه وآله (١) « الإحسانُ أنْ تَعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ » .

ثمّ إنّك كلّما تصوَّرتَه اوتخيّلتَه من الله فهو سبحانه وراء ذلك، فإن نظرتَ إليه بما هو صورةٌ معيَّنة لها صفات معيَّنة امكانيّة أومكانيّة فقد عبَدتَ غيرَالله وسجدتَ لسواه : وإنْ نظَرتَ إلى الحقّ وجعلتَها مرآةً لملاحظة المعبـود الحقيقي ولم تجعَل النظرَ نظرين ـ نظراً إلي المرآة ، ونظراً إلى المرئي ـ فقـد عَبدْتَ اللهَ مخلصاً محسناً .

---

١) الجامع الصغير : ١/١٢٢ .

فإذا جاز أن تكون الصورةُ المعقولة او المتخيّلة وجهاً من وجوه الحق المسجود له فلِمَ لايجوز أن[تكون]الصورة الآدميّة التي هي مظهر أسماء الله الحسنىٰ ومجلىٰ صفاته كلّها مسجوداً للملائكة على وجهٍ لم يكن المنظور إليه والمعبود غير الذات الأحديّة ؟

فصلٌ فيه شرحٌ

[الأقوال في سجود الملائكة لادم]

أجمعَ المسلمون على أنّ السجود بمعنى العبادة لغيرالله كفرٌ ، والكفر لايكون مأموراً به . ثمّ اختلفوا بعد ذلك على ثلاثة أقوال :

الأوّل : إن ذلك السجود كان لله ، وآدمُ عليه السلام كان كالقبلة . واعتُرض عليه بوجهين :

أحدهما إنّ السجدة إذا نُسبتْ إلى ماهو كالقِبْلة عُدّيت بغير اللام فلايقال: صَلّيت للقِبْلة او للمسجد . بل إلى القبْلة ، وفي المسجد . فلو كان آدمُ قِبلةً لهذا السجود لوجب أن يقال : أسجدوا إلى آدم . وإذ ليس فليس .

والثاني : إن قولَ إبليس : « أرأيتك هٰذا الذي كرّمتَ علَيّ » وغير ذلك ممّا صدَرَ منه من الإباء والإستكبار والإغواء لاولاده ، والعداوةِ والبغضاءِ إلى يوم الدين يدلّ علىٰ أنّه أعظم حالاً من الساجد ، ولو كان قِبلةً لَما حصلتْ له هٰذه الدرجة التي انبسطَت شُهرتُها في مجامع القدس ومصاقع الجبروت، وقرعَت أصواتُها السوامع في صوامع الملكوت .

وأيضاً كان محمّد ﷺ يصلّي إلى الكعبة ولم يلزم أن تكون أفضلَ منه(ص)

وأجيب عن الأوّل بتجويز أن يقال : « صلّيتُ للقبلَة » . كما يقال : « صلّيت إلى القبْلة » والاستشهاد عليه بالقرآن والشعر ـ كما مرّ .

وعن الثاني بأنّ ابليس شكى تكريمَه ، وذلك التكريمُ لانسلّم أنّه حصل بمجرّد كونه مسجوداً ، بل لعلّه حصل بذلك مع انضمام أُمور أُخرىٰ .

وكِلا الجوابين لايخلو عن ضعف :

أمّا الأوّل فلاشبهة في ندرة وقوع اللام في مثلها . والظاهر إنها [ليس] بمعنى « إلىٰ » أو « في » .

وأمّا الثاني فإنّ الظاهر الواضح أنّ منشأ عصيان ابليس وتمرّده ، ومبدء كفره وجحوده هو مسجوديّة آدم ، كما دلّ عليه قوله [تعالى]: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [٦١/١٧] وقوله : ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ [٣٣/١٥] .

* * *

القول الثاني : إنّ السجدة كانت له عليه السلام تعظيماً وتحيّة ، كالسلام عليه منهم ، وكانت الأُممُ السالفة يتحيّون ملوكَهم وأنبياءَهم كتحيّةِ المسلمين بعضهم بعضاً .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ [١٠٠/١٢] كانت تحيّة الناس يومئذ سجودٌ بعضهم بعضاً .

وعن صهيب[١] : إنّ معاذ لمّا قدم من اليمن سجَد للنبي ﷺ ، فقال : يامعاذ ماهذا ؟ فقال: إنّاليهود يسجد لعُظمائها ، ورأيتُ النصارىٰ يسجد لقسّيسها وبَطارقتها قلتُ : ماهذا ؟ قالوا : تحيّةُ الانبياء . فقال صلوات الله عليه وآله : «كذبوا على أنبيائهم » .

وعن الثوري[٢] ، عن سماك بن هاني ، قال : دخل الجاثليق على عليّ بن أبيطالب عليه السلام ، فأراد أن يسجدَ له ، فقال له عليّ عليه السلام : اُسجُدْ لله ، ولا تسجد لي ،

١) تفسير الفخر الرازي : ٤٢٧/١ . وجاء مايقرب منه في المسند : ٣٨١/٤ .
٢) الفخر الرازي : ٤٢٧/١ .

فقد قال رسول الله ﷺ : لو أمرت أحداً أن يسجدَ لغير الله ، لأمرْتُ المرأة أن تَسجدَ لزوجها ، لِعظَم حقّه عليها .

* * *

القول الثالث : إن السجود في الآية كان على المعنى الذي له في أصل اللغة ، وهو الانقياد والخضوع .

وقد علمتَ ضعف القول الأوّل ، وأمّا القول الثالث فضعيف أيضاً : لأن السجود لاشك أنّ لفظه في عرف الشرع عبارةٌ عن وضْع الجبهة على الأرض ، فوجب أن يكون في أصل اللغة لذلك ، لأنّ الأصل عدم التغيير .

فإن قلت : السجود عبادةٌ ، والعبادة لغير الله غير جايز .

قلنا : لانسلّم أن السجدة عبادة . لِمَ لايجوز أن يكون في بعض الاوقات أو بحسب بعض العادات سقوط الإنسان على الأرض والصاقه الجبين عليها مفيداً لضرب من التواضع والتعظيم ، وإن لم يكن ذلك عبادة ، وإن كان ذلك فلم يمتنع أن يأمر الله تعالى ملائكته بذلك إظهاراً لرفعته وإشعاراً بكرامته .

وأيضاً ـ السلطان قد يأمر لبعض مقربيه من عبيده أن يخدم ويطيع رجُلاً فقيراً أو ضعيفاً ، وهم يفعلون ذلك ويخدمونه ، ويرجع مافعلوه في الحقيقة إلى خدمة السلطان وطاعته ، فسجود الملائكة لآدم عليه السلام كان في الحقيقة سجوداً لله وطاعة لأمره .

وقد علمت وجهاً آخر ألطف من كلّ ماقيل أو يقال في دفع هذا الإشكال .

فصلٌ

[إبليس من الملائكة أم لا ؟]

اختلفوا في أن إبليس ـ لعنه الله ـ هل كان من الملائكة ، أم لا [1] ؟ فذهب

---

١) معظم ماجاء في هذا الفصل مأخوذ من مجمع البيان : ١ / ٨٢ .

قوم إنّه كان منهم ، وروي عن ابن عبّاس «إنّ من الملائكة ضرباً يتوالدون يقال لهم : « الجنّ » ومنهم إبليس . وهو المرويّ عن ابن مسعود وقتادة ، واختاره الشيخ أبوجعفر الطوسي - قدس الله روحه - قال : « وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام » .

ثم اختلف مَن قال « إنّه كان من الملائكة » فمنهم مَن قال : « إنّه كان خازن طبقات الجنّة » . ومنهم مَن قال : « كان له سلطان سماء الدنيا وسلطان الأرض » . ومنهم من قال : « إنّه كان يسوس مابين السماء والأرض »[١] .

وقال الشيخ المفيد أبوعبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان - قدس الله سره -[٢]: « إنّه كان من الجنّ ، ولم يكن من الملائكة » قال : « وقد جاءت الأخبار بذلك متواترة عن أئمة الهدى ، وهو مذهب الامامية » .

وهو المرويّ عن الحسن البصري ، وهو قول البلخي وغيره .

* * *

واحتجّوا على صحة هذا القول بأشياء :

أحدها قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ [١٨/ ٥٠] .

وثانيها قوله تعالى : ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [٦٦/٦] نفي المعصية عنهم نفياً عامّاً .

وثالثها إن إبليس له نسلٌ وذرية ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ ﴾ [١٨/ ٥٠] قال الحسن : إبليس أبو الجنّ ، كما انّ آدم عليه السلام أبو الإنس[٣] .

وإبليس مخلوقٌ من النار ، والملائكة روحانيّون خُلقوا من الريح في قول

---

١) راجع الدر المنثور : ١/ ٥٠ و ٤/ ٢٢٧ .

٢) أوائل المقالات : ص١٢١ طبعة تبريز ١٣٢٣ هـ ش .

٣) تفسير الطبرى : ١/ ١٧٩ .

بعضهم . ومن النور في قول الحسن ، لايتناسلون ولايطعمون ولايشربون .

ورابعها ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [١/٣٥] ولايجوز على رُسل الله الكفر ولا الفسّق . ولو جاز عليهم الفسّق لجاز عليهم الكذب .

وذكروا في توجيه الاستثناء وجوهاً :

أحدها ماذكره صاحب الكشاف [١] : « إن هذا استثناءٌ متّصل ، لأنّه كان جنّياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم ، فغلّبوا عليه في قوله : ﴿فَسَجَدُوا﴾ ثم استثني منهم استثناء واحد منهم » .

وثانيها إنّه كان مأموراً بالسجود معهم ، فلمّا دخل معهم في الأمر جاز إخراجه بالاستثناء منهم .

وثالثها إن هذا الاستثناء منقطع كقوله : ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [١٥٧/٤] .

ويؤيّد هذا القول ماروواه الشيخ أبو جعفر بن بابويه ـ رحمه الله ـ في كتاب النبوّة باسناده عن ابن أبي عمير، عن جميل بن درّاج ، عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال: سألته عن إبليس ، أكان من الملائكة ، أوكان يلي شيئاً من أمر السماء ؟ فقال : « لم يكن من الملائكة ، ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء ، وكان من الجنّ ، وكان مع الملائكة يرىٰ إنّه منها ، وكان الله سبحانه يعلم إنّه ليس منها ، فلما أمر بالسجود لآدم كان منه الذي كان » وكذا رواه العيّاشي في تفسيره [٢] .

* * *

وأمّا من قال إنّه كان من الملائكة فإنّه احتجّ بأنّه لو كان من غيرهم لمّا كان ملوماً بترك السجود .

---

١) تفسير الكشاف : ٢١٠/١ .

٢) تفسير العياشي : ٣٤/١ .

والجواب : إنّه كان من جملة المأمورين بالسجود وإن لم يكن من جملة الملائكة . دلّ على كونه مأموراً قوله تعالى : ﴿ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [١٢/٧] .

* * *

وهؤلاء الزاعمون إنّه كان من الملائكة **أجابوا عن الاحتجاج الأوّل** - وهو قوله : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ بأنّ الجنّ جنس من الملائكة ، سمّوا بذلك لاجتنانهم عن العيون ، وقد قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[١٥٨/٣٧] أراد بها الملائكة ، لأنّهم قالوا : « الملائكةُ بنات الله » .

* * *

وأجابوا عن الثاني - وهو قوله : ﴿ لَايَعْصُونَ[ٱللَّهَ]مَاأَمَرَهُمْ﴾ بوجهين :

أحدهما بأن من الملائكة من ليس بمعصوم - وإن كان الغالب فيهم العصمة - كما إن من الإنس معصومين ، والغالب فيهم عدم العصمة ؛ ولعلّ ضرباًمن الملائكة لايخالفهم بالذات ، وإنّما يخالفهم بالعوارض والصفات ، كالبررة والفسقةمن الإنس والجنّ يشملهما ، وكان إبليس من هذا الصنف كما قاله ابن عبّاس ، فلذلك صحّ عليه التغيّر من حاله والهبوط عن محله ، كما أشار اليه تعالى بقوله : ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [١٨/ ٥٠] .

والثاني بأنه صفة لخزنة النيران لالجميع الملائكة ، فلا توجب عصمة لغيرهم من الملائكة .

* * *

وأجابوا عن الثالث بأنه يجوز أن يكون الله تعالى ركّب في إبليس شهوة النكاح تغليظاً عليه في التكليف ، وإن لم يكن ذلك في باقي الملائكة ويجوز أن يكون الله لمّا أهبطه إلى الارض تغيّرت حاله عن حال الملائكة .

قالوا : كيف يصحّ ذلك والملائكة خُلقتْ من نور ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [٥٥/١٥] ؟

فأجيب بأنّه كالتمثيل لما ذكر ، فإنّ المراد بالنور الجوهر المضيء ، أوالنار كذلك ، غير أنّ ضوئها مكدّر مغمور بالدخان محذور عنه بسبب مايصحبه من فرط الحرارة والإحراق، فإذا صارت مهذّبة مصفاة كانت محض نور، ومتى نكصتْ عادت الحالةُ الأولىٰ جذعة ، ولا تزال تتزايد حتى ينطفي نورها ويبقي الدخان الصِرْف .

وهذا أشبه بالصواب وأوفق للجمع بين النصوص . وقد مرّ كلام كلّ من الفريقين في الفواتيح مستقصى .

واعلم أن لاشبهة لأحد في أن الملك والشيطان متخالفي اللوازم والآثار الذاتيّة . كيف ! وأحدهما بطباعه ملهم الخيْر والطاعات ؛ والثاني بطباعه موسوس الشرور والمعاصي . واختلاف اللوازم والآثار الذاتيّة دليل اختلاف الملزومات والمؤثّرات بالذات .

نعم ـ كِلا الجنسين متّفقان في أنّهما روحانيان غائبان عن الأبصار والحواسّ لانراهما وقبيلهما إلّا عند تجسّمهما وتمثّلهما بصورة من الصور، بل وجودهما كوجود الموجودات الأخرويّة لاينكشف على أبصارنا إلّا عند غيبوبتنا عن هذا العالَم ـ كما يقع للمكاشفين ـ أو لفساد مزاج البدن بواسطة غلبة اليبوسة على الدماغ يتعطّل بها الحواسّ عن الشواغل ، فتستولي قوّة الخيال على المحاكاة الخياليّة ـ كما للممرورين أو بواسطة تمثّلهما في العين ، او تصوّرهما بصورة محسوسة جسمانيّة .

والظاهر من الأخبار والآثار إن مواطن الملائكة عالَم السموات ودرجاتها على سبيل التعلّق والمباشرة ، وأمّا تعلّقها بعالَم الأرضيّات فعلى سبيل الامداد والاستخدام للقوى الأرضيّة ، وإن مواطن الشياطين والجنّ عالَم الأرضيّات على سبيل التعلّق والمباشرة .

وأما عالَم السماء فلها اجتيازات على نهج العبور والاستراق للسمع ـ دون

الولوج في سموكها - لأنّ عالَم السماء كعالَم قلب المؤمن[بيت معمور] مطهّر بطهارة القدس والتسبيح، وعمارة الذكر والحمد، لايمكن أن يتصرّف فيه إلّا جوهر مقدّس، ولا سبيل للخبيث اللعين إليه إلّا اختلاساً واجتيازاً في بعض الساعات، كأوقات الكسوفات والخسوفات وغيرها استراقاً للسمع.

وبالجملة - موطن الشياطين والجنّ هذا العالَم الطبيعي، وليس لواحد منهم درجة العلم والمعرفة بالمقاصد الكليّة والأمور الإلهيّة سواء كانوا كفّاراً كالشياطين، أولهم ضرباً من الإسلام كطائفة من الجنّ ذُكرت في القرآن.

وأما قولكم «إن الجنّ يطعمون» فقد جاء عن العرب مايدل على أنّهم لايطعمون ولايشربون. أنشد ابن دريد:

ونارٌ قد حضأتُ بعيد وهْنٍ　*　بدارٍ ماأُريدُ به مقاماً
سوى ترحيل راحلةٍ وعين　*　أُكالئُها مخافةَ أنْ تَناما
أتوا ناري فقلتُ: منونَ أنتم ؟　*　فقالوا: الجنّ. قلتُ: عَموا ظلاماً
فقلتُ: إلى الطعامِ. فقال منهم　*　زعيمٌ: يحسدُ الإنسَ الطعاماً
لقد فُضّلتم بالأكل فينا　*　ولكن ذاك يعقبكم سقاماً

فهذا يدل على أنهم لايأكلون ولايشربون لأنّهم روحانيّون، وقدجاء في الأخبار النهي عن التمسّح بالعظم والروث لأنّ ذلك طعامهم[وطعام دوابّهم. وقد قيل: إنّهم يتشمّمون ذلك.

* * *

وأجابوا عن الرابع - وهو قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ بأنّ هذه الآية معارَضة بقوله[تعالى]: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [٢٢/٧٥] لأنّ «مِنْ» للتبعيض.

وكِلا القولين مرويّ عن ابن عبّاس، فروي عنه إنّه قال: إنّ الملائكة

كانت تقاتل الجنّ ، فسُبي إبليس ، فلذلك قال تعالى ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ .

وروى مجاهد وطاوس عنه أيضاً إنه قال [١] « كان إبليس قبل أن يرتكب المعصية ملَكاً من الملائكة اسمه « عَزازيل » وكان من سكّان الأرض . وكان سكّان الأرض من الملائكة يسمّون « الجنّ » ولم يكن من الملائكة أشدّ اجتهاداً ولا أكثر عِلماً منه ، فلمّا تكبّر على الله وأبي السجود لآدم وعصاه لعنَه وجعلَه شيطاناً مَريداً وسمّاه إبليس .

قال الشيخ محي الدين الأعرابي في الباب الحادي والخمسين من الفتوحات المكيّة[٢]: « اعلم إن الجانّ هم أصل العالَم الطبيعي[٣]، ويتخيّل جليسهم بمايُخبرونه من حوادث الأكوان وما يجري في هذا العالَم بما يحصل لهم من استراق السمع من الملأ الأعلى ، فيظنّ جليسهم إن ذلك من كرامة الله به ـ هيهات لما ظنّوا .

ولهذا ماترى أحداً قط جالَسهم فحصل عنده منهم عِلْم بالله جملةً واحدة ، وغاية الرجل الذي تعتني به أرواح الجنّ أن يمنحوه من عِلم خواصّ النبات والأحجار والأسماء والحروف ، فهو علم السيمياء ، فكم يكتسب منه [٤] إلا العِلم الذي ذمّته ألسنة الشرايع الإلهيّة .

ومَن ادّعى صحبتهم وهوصادقٌ في دعواه فاسأله عن مسألة في العِلم الإلهي ماتجد عنده من ذلك ذوقاً أصلا، فرجالُ الله يفرّون من صحبتهم أشدّ فراراً منهم من الناس، فإنّه لابدّ أن تحصّل صحبتُهم في نفس من يصحبهم تكبّراً على الغير وازدراءً بمن ليس له في صحبتهم قَدَمٌ .

وقد رأينا جماعة ممن صحبوهم حقيقةً وظهرتْ لهم براهين على صحّة مادّعوه

---

١) الدر المنثور : ١/ ٥٠ .
٢) الفتوحات المكية : ١/ ٢٧٣ .
٣) المصدر : إن الجانّ هم أجهل العالَم الطبيعي بالله .
٤) المصدر : منهم .

من صحبتهم ، وكانوا أهل جدّ واجتهاد ـ ولكن لم يكن عندهم من جهتهم شمّة من العِلم بالله ورأينا فيهم اغتراراً وتكبّراً ، فمازلنا بهم حتّى حُلنا بينهم وبين صحبتهم لإنصافهم وطلبهم الانس[1] . كما رأينا أيضاً ضدّ ذلك منهم ، فما أفلح ولايفلح مَن كان هذه صفته إذا كان صادقاً ، وأمّا الكاذب فلانشتغل به .

وقال في موضع آخر من هذا الباب [2] : « ومنهم من يُجالسه الروحانيون من الجانّ ، ولكن دون الجماعة في الرتبة إذا لم يكن له حالٌ سوى هذا ، لأنّهم قريب من الانس في الفضول .

والكيّس من الناس من يهرب منهم كما يهرب من الناس ، فإنّ مجالستهم رديّةٌ جدّاً قليلٌ أن تُنتج خيراً ، لأنّ أصلهم نارٌ والنار كثيرة الحركة ، ومن كثُرت حركته كان الفضول أسرع إليه في كلّ شرّ[3]، فهم أشدّ فتنة علي جليسهم من الناس ، فإنّهم قد اجتمعوا في كشف عورات التي ينبغي للعاقل أن يطلع عليه[4]، غير إن الإنس لاتورث مجالسة الإنسان إيّاهم تكبّراً ومجالسة الجنّ ليس كذلك ، فإنّهم بالطبع يورثون في جليسهم التكبّر على الناس وعلى كلّ عبدٍ لله ، ومن تكبّر على غيره فإنّه يمقته الله في نفسه من حيث لايشعر ـ هذا هو المكر الخفي .

وقال أيضاً فيه : « ومنهم من نفس الرحمن عنه بمجالسة الملائكة ، ونعم الجلساء هم ، [هم] أنوار خالصةٌ لافضول عندهم ، وعندهم العِلم الأعلى الذي لامِرية فيه ، فيُرى جليسهم في مزيد علم بالله دائماً مع الانفاس .

---

١) المصدر : الانفس .

٢) الفتوحات المكية : ١ /٢٧٣ .

٣) المصدر : في كل شيء .

٤) المصدر : فانهم قد اجتمعوا مع الناس في كشف عورات الناس التي ينبغي للعاقل أن لايطلع عليها .

فمن ادّعى مجالسة الملأ الأعلى ولم يستفد في نفسه عِلماً بربّه فليس بصحيح الدعوى ، وإنّما هو صاحب خيال فاسد » ـ انتهى كلامه .

تفصيل كلامٍ لتحقيق مقام في المفاضلة بين الملك والبشر

اعلم إنّ الناس اختلفوا في التفاضل بين الملائكة وأخيار البشر على طائفتين وهذا الاختلاف كان مستمرّاً قبل دورة الإسلام وبعده إلى يومنا .

وتحقيق معرفة هذا الأمر لايمكن إلاّ بنور المكاشفة ، وأكثر مايوردونه في هذه الباب كلام أهل الحجاب وسيّما الذين فضّلوا الإنسان على الملك ، لأنّ أكثر مايحتجّون به على ذلك يرجع إلى أُمور عاديّة ومقدّمات جمهوريّة لايمكن التعويل عليها لصاحب البصيرة .

ونحن نذكر أوّلاً ما احتجّ به كلّ طائفه من الذين فضّلوا الملائكة والذين فضّلوا أخيار البشر ـ سواء كانوا قبل الإسلام أو بعده ـ وتقدّم في الذكر كلمات الأوائل وأحوالهم قبل ظهور نور الإسلام ؛ ثمّ نذكر أقوال المتكلّمين الاسلاميّين وما ذكروه من الجانبين نقضاً أو إبراماً ؛ ثمّ مايرد على كلّ كلام اعتراضاً وجواباً ؛ ثمّ نشير إلى سرّ الكلام وأصله ، وروح المقام وفصله ، وذلك في فصول :

الفصل الأوّل[1]

في ذكر أقوال الأوائل

ومعظمها أقوال الصابئة في تفضيل جانب الملائكة ، وأقوال الحنفاء في تفضيل جانب البشر في مقابلة أقوالهم .

---

١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الملل والنحل للشهرستاني : القسم الثاني : أصحاب الروحانيات ملخصاً ٢٠/٧ الى ٤٦ .

والصابئون هم الذين قالوا بنبوّة اغاثاذيمون وهرمس - وهما شيث وإدريس عليهما السلام [1] - ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - ونسبتهم إلى الحنفاء كنسبة فلاسفة الإسلام إلى الصوفيّة بوجه، إلاّ أنهم زادوا على التفضيل للملك على أهل النبوّة عليهم السلام الى حيث تركوا طاعتهم وانقيادهم وجعلوا الملائكة قبلة طاعتهم ومنشأ نجاتهم وهدايتهم، وربما يُسمّون بأصحاب الروحانيّات.

ومذهبهم إن للعالَم صانعاً حكيماً مقدّساً عن سِمات الحدثان، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنّما يُتقرّب إليه بالمتوسّطين المقرّبين لديه وهم الروحانيّون المطهّرون، المقدّسون جوهراً وفعلاً وحالة.

أمّا الجوهر: فهم المطهّرون عن الموادّ الجسمانيّة، المبرّؤن عن القوى الجسدانيّة، المنزّهون عن الحركات والتغيّرات الزمانيّة، قد جبلوا على الطهارة وفطروا على التقديس والتسبيح فنحن نتقرّب إليهم ونتوكّل عليهم، وهم أربابنا وشفعاونا عند ربّ الأرباب.

فالواجب علينا أن نطهّر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعيّة، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القُوىٰ الشهويّة والغضبيّة، حتّى تحصل بيننا وبينهم مناسبة، فيفيض علينا بعض أنوارهم وفضائلهم وعلومهم.

قالوا: والأنبياء أمثالنا في النوع، وأشكالنا في الصورة، يشاركوننا في الحاجة إلى المادّة، يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب، ويساهموننا في الصورة، أناس بشر مثلنا (مثلها (امى)) ، فمن أين لنا طاعتهم، وبأيّة مزيّة لهم لزم متابعتهم؟

وأمّا الفعل: فهم الأسباب المتوسّطون في الإختراع والايجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدء إلى كمال، يستمدّون القوّة

---

١) راجع أخبار الحكماء للقفطي (ص٢) ودانشنامة ايران واسلام (آ: ١٠٤٤).

من الحضرة القدسيّة ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفليّة .

فمنها مدبّرات الكواكب السبعة السيّارةِ في أفلاكها . وهي[١] هياكلُ . فلكل فلك روحاني هيكل جسماني[١] ، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختصّ به نسبةُ الروح إلى الجسد ، فهو ربُّه ومدبّره ومديره .

ففعل الروحانيّات تحريك الأجرام على قدَر مخصوص ليحصل من حركاتها إنفعالات في الطبائع السفليّة والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات ، فيتبعها قُوى جسمانيّة ، ويركّب عليها نفوسٌ روحانيّة ، ثمّ قد تكون التأثيرات كليّة صادرة عن روحاني كلّي ، وقد تكون جزئيّة صادرة عن روحاني جزئي ، فمع جنس المطر ملَكٌ ، ومع كلّ قطرة أيضاً ملَكٌ .

ومنها مدبّرات الآثار العلويّة الظاهرة في الجوّ ممّا يصعد من الأرض ، فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرْد والرياح ، ومما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهُب ، ومايحدث في الجو من الرعْد والبرْق والسحاب والضباب[٢] [والمياه] وقوس قُزح وذوات الأذناب والهالَة والمجرّة ، وما يحدث في الأرض من الزلازل والهدّات والمياه والخسْف ــ إلى غير ذلك .

ومنها متوسّطات القُوى السارية في جميع الموجودات ، ومدبّرات الهداية الشائعة في جميع الكائنات ، حتّى لايُرى موجود مّا خالياً عن قوة وهداية ــ إذا كان قابلا لهما .

وأمّا الأحوال : فأحوال الروحانيّات من الروح والريحان والنعمة واللذّة الدائمة والراحة والبهجة والسرور في جوار ربّ العالمين كيف يخفى ، ثمّ طعامُهم وشرابهم التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد ، وانسهم بذكر الله وطاعته ، فمنْ

(١ــ١) الملل والنحل : وهي هياكلها ، فلكل روحاني هيكل ، ولكل هيكل فلك .
٢) الضبابة وجمعه ضباب : سحابة تغشى الارض .

قائم لايركع ، وراكع لايسجد، وساجد لاينتصب - على حسب مقاماتهم في القرب والمنزلة - لاتتبدّل حالهم لما هم فيه من البهجة والسرور، فمن خاشع بصره لايرفع، ومن ناظر لايغمض ، ومن ساكن لايتحرّك ، ومن متحرّك لايسكن حركة لاتعب فيها ولا إعياء ولا نصَب ، ومن كرّوبيّ في عالَم القبض ، ومن روحاني في عالَم البسط ﴿ لايَعصونَ ٱللهَ ماأَمَرَهُمْ وَيَفْعَلونَ مايُؤْمَرُونَ ﴾ .

* * *

فهذا مذهب الصابئة ، وقد جرَت بينهم وبين الحنفاءِ مناظراتٌ ومفاوضات في المفاضلة بين الروحانيّ المحض والبشريّة النبويّة وذكرها صاحب كتاب الملل والنِحل على شكل سؤال وجواب ، وفيها فوائد لاتُحصى ، فنوردها ملخّصة عن الزوائد ليحيط الناظر بما فيها وعليها .

فصل

فيما ذكره الصابئون في تفضيل الملائكة على الأنبياء وما أجاب به عنها الحنفاء . وهي وجوه :

الأوّل إنّ الروحانيّات أُبدعت إبداعاً لامنْ شيء - لامادة ولاهيولي - وهي كلّها جوهر واحد على سنخ واحد وجواهرها أنوار محضة لاظلام فيها ، وهي من شدّة ضيائها لايُدرك بالحسّ، ولاينالها البصَر، ومن غاية لطافتها لايجاز فيها العقل[1]، ولايجول فيها الخيال .

ونوع الإنسان مركّبٌ عن العناصر الأربعة ، مؤلَّفٌ من مادّة وصورة ، والعناصرُ متضادّة ومزدوجةٌ بطبائعها ، ومن التضادّ يصدر الاختلاف والهرَجُ ، ومن الازدواج يحصل الفساد والمرَجُ ، فما هو مبدَعٌ لامن شيء لايكون كمختَرَعٍ من

---

١) المصدر : يحار فيها العقل .

شيء ، والمادة والهيولي سنخ الشر ومنبع الفساد ، فالمركب منها ومن الصورة كيف يكون كمحض الصورة ؟ والظلام كيف يساوي النور؟ والمحتاج إلى الإزدواج، المضطرّ في هَفْو الاختلاف كيف يرقى إلى درجة المستغني عنها ؟

أجابت الحنفاء عنه : بِمَ عرفتُم وجود هذه الروحانيّات ؟ والحسّ مادلّكم عليه ، والدليل ماأرشدكم إليه ؟

فإن قالوا : عرفنا وجودها وتعرّفنا أحوالها من اغاثاذيمون وهرمس - يعني شيث وإدريس[٣]- .

قال الحنفاء : فقد ناقضْتم مذهبكم في نفي المتوسّط البشري ، فصار نفيُكم إثباتاً وإنكارُكم إقراراً .

ثمّ مَن الذي يسلّم إنّ المبدَع مِن لاشيء أشرف من المخترَع من شيء ؟ بل جانب الروحاني أثر واحد ، وجانب الجسماني أثران : أحدهما نفسُه وروحُه ، والآخر جسمُه وجسدُه . فهو من حيث الروح مبدَع بأمر الباري تعالى ، ومن حيث الجسد مخترَع بخَلقه ، ففيه أثران : أمريٌّ وخَلقيٌّ ، قَوليٌّ وفِعليٌّ . فهذه المرتبة في الخِلقة أفضل .

وإن فاضَلتم بين الروحانيّ المجرَّد والجسمانيّ المجرَّد فالصدْق معكم ، ولكن المفاضلة بين الروحانيّ المجرَّد والمجتمَع من الجهتين،فلا يحكم عاقل بأنّ الفضل هنا للمجرّد .

* * *

الثاني : نوع الإنسان لايخلو من قوّتي الشهوة والغضب ، وهما تنزعان إلى البهيميّة والسبُعيّة ، وتنازعان النفسَ إلى طِباعهما من الحرص والأمل لأحدهما ، والكبر والحسد للآخر ، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة .

فكيف يماثِل مَن هذه صفتُه نوعَ الملائكةِ المطهّرين عنهما وعن لوازمهما

ولواحقهما من النوازع الحيوانيّة والقواطع البشريّة بأسرها ؟ لم يحملهم الغضب على حبّ الجاه والشُهرة ، ولاحمّلهم الشهوة على حبّ المال والثروة ، بل طِباعُهم مجبولةٌ على المحبّة والموافقة ، وجواهرُهم مفطورةٌ على الاتّحاد والأُلفة .

أجابت : بأنّ هذه المغالَطة مِثْل الأُولى حذوَ النعلِ بالنعلِ ، فإنّ [الطرف] البشريّة نفْسَين : نفسٌ حيوانيّة لها قوّتان : شهويّة وغضبيّة . وأُخرى انسانيّة لها قوّتان: عِلميّة وعَمليّة . وبتينك القوّتين لها أن تجمع وتمنع ، وبهاتين القوّتين لها أنْ تُقسّم الأمور وتُفصّل الإجمال (الأحوال ـ اصل)

ثم يعرض على العقل فيختار بقوّته التي هي له كالبصر النافذ من العقائد الحقَّ دون الباطل ، ومن الأقوال الصدقَ دون الكذب ، ومن الأفعال الخيرَ دون الشر .

ويختار بقوّته العمليّة من لوازم القوّة الغضبيّة الشجاعةَ والحميّةَ دون الذلّة والهَوان ، ومن لوازم القوّة الشهويّة التودّدَ والتألّفَ دون الشَرَه والخساسة ، فيكون من أشدّ الناس حميّةً على خصمه وأعداء دينه ، ومن أرحَم الناس تذلّلاً وتواضعاً لوليّه وصديقه، فإذا بلغ هذا الكمال فقد استخدم القوّتين واستعملهما في جانب الخير .

وليس الكمال والشرف في فقدان القوّتين كحكم العنّين والعاجز ، وإنّما الكمال في استخدامهما أوّلاً في جانب الخير ، ثمّ الترقّي إلى إرشاد الخلائق في تزكية النفوس عن العلائق وإطلاقها عن قيد الشهوة والغضَب ، فنفسُ النبيّ ﷺ كنفوس الروحانيّين فطرةً ووصفاً [صفاءً (المصدر)] ـ وبذلك الوجه وقعت الشركة ـ وفضلُها وتقدّمها باستخدام القوى والنفوس التي دونها ، واستعمالها في جانب الخير والنظام ـ وهو الكمال .

* * *

الثالث إنّ الروحانيّات صورٌ مجردة عن المواد ، عاليةٌ عن القوّة والاستعداد ، قدّر لها أشخاصٌ تتعلق بها تصرفاً وتدبيراً ، لاممازجةً ومخالطةً ، والمتوسّط لابدّ أن

يكون كاملا حتى يكمل غيره ، وأما الموجودات البشريّة فهي إمّا صورٌ في موادّ ، أو نفوسٌ متعلقةٌ بها حاصلةٌ من المزاج والامتزاج . والفرض إنّها موجودات بالقوّة لابالفِعل ، ناقصة لاكاملة ، والمخرِج من القوّة الى الفعْل يجب أن يكون أمراً بالفعل غيرمحتاج إلى الخروج ، فإنّ مابالقوّة لايَخرج بذاته من القوّة إلى الفعل - بل بغيره . والروحانيّات هي المحتاجُ إليها في أن يخرج الجسمانيّات إلى الفعل ، فالمحتاجُ إليه كيف يساوي المحتاجَ في درجة الوجود ؟

أجابوا : إن هذا الحكم - وهو كون الروحانيّات بالفعل - غير مسلّم على الاطلاق ، إذ منها ماهو وجوده بالقوّة ، او مافيه وجودٌ بالقوّة ، ويَحتاج إلى مخرِج يُخرجه إلى الفعل ، فإنّ النفسَ لها استعداد القبول [من العقل] عندكم ، والعقلَ له إعداد لكل شيء وفيض عليه ، وأحدهما بالقوّة ، والآخر بالفعل .

وهذا لضرورة الترتيب في الموجودات العلويّة ، فإن مَن لم يثبت الترتيب فيها لم تتمشَّ له قاعدة عقليّة أصلاً فإذا ثبت الترتيب فقد أثبت الكمال في جانب ، والنقصان في جانب ، فليس كل روحانيّ كاملاً من كلّ وجْه ، ولاكلّ جسمانيّ [ناقصاً من كلّ وجه] ، فمن الجسمانيّة أيضاً ماوجوده كامل بالفعل ، وسائر النفوس محتاجة إليه . وذلك أيضاً لضرورة الترتيب في الموجودات السِفليّة .

قالوا : وإذا سلّمتم لنا إن هذا العالَم الجسمانيّ في مقابلة ذلك العالَم الروحانيّ ، وإنّما يختلفان من حيث انّ مافي هذا العالَم من الأعيان فهو آثار ذلك العالَم . وما في ذلك العالَم من الصوَر فهو مُثُل هذا العالَم - والعالَمان متقابلان كالشخص والظلّ - فإذا أثبتّم في ذلك العالَم موجوداً مّابالفعل كاملاً ويصدر عنه سائرُ الموجودات وجوداً ووصولاً إلى الكمال ، فيجب أن تثبتوا في هذا العالَم أيضاً موجوداً مّابالفعل كاملاً تامّاً حتى يصدر عنه سائرُ الموجودات تعلّماً ووصولاً إلى الكمال .

ومن العجب ان عند الصابئة أكثر الروحانيّات قابلة منفعلة وإنّما الفاعل الكامل واحد ، وعن هذا صار بعضهم إلى أن الملائكة أناث كما أخبر التنزيل عنهم به .

وإذا كان كذلك فنقول : في الموجودات السفليّة النفوسُ البشريّة كلّها قابلة الوصول إلى الكمال بالعلم والعمَل ، فيحتاج إلى مخرِج مافيها بالقوّة إلى الفعل ، والمخرج هو النبي ﷺ .

ثمّ كم يكون [1] بين الرسول والروح مناسبة وملاقاة عقليّة ، فيكون الروح الأوّل مصدراً ، والرسول مَظهراً ، ويكون بين الرسول وسائر البشر مناسبة وملاقات حسّية ، فيكون الرسول مؤدّياً والبشر قابلاً .

* * *

أقول : إن لفظ « القوّة » يطلق بالاشتراك اللفظي على ماهو بمعنى الإمكان الاستعدادي والقوّة الانفعاليـّة التجدديّة ، وعلى مايكون بمعنى الإمكان الذاتيّ والاستحقاق الفطريّ · والأوّل لايجامع الفعليّة ، بخلاف الثانية ، فالابداعيات كمالاتها فطريّة والجسمانيات كمالاتها تجدديّة كسبيّة . وأمّا النفس فلها إمكان ذاتيّ في ذاتها،

---

١) أسقط المصنّف سطوراً بين الفقرتين نأتي بشطر منها لاكمال الكلام :

« المعقول لايكون معقولا حتى يثبت له مثال في المحسوس؛ وإلّا كان متخيّلا موهوماً والمحسوس لايكون محسوساً حتى يثبت له مثال في المعقول ؛ وإلّا كان سراباً معدوماً .

واذا ثبت هذه القاعدة فمن أثبت عالماً روحانياً ، وأثبت فيه مدبّراً كاملا من جنسه وجودُه بالفعل ، وفعلُه إخراج الموجودات من القوّة إلى الفعل بفيض الصور عليها على قدْر الاستحقاق، فيلزمه ضرورةً أن يثبت عالَماً جسمانياً ويثبت فيه مدبّراً كاملا من جنسه وجودُه بالفعل ، وفعلُه اخراج الموجودات من القوّة إلى الفعل بفيض الصور عليها على قدْر الاستحقاق ، ويسمى المدبّرُ في ذلك العالَم الروحَ الأوّل على مذهب الصابئة ، والمدبّرُ في هذا العالَم الرسولَ على مذهب الحنفاء ، ثمّ يكون بين الرسول والروح مناسبة و ... »

ولها إمكان استعدادي به تنتقل من حالة إلى أخرى ـ ولكن بحسب تعلّقها إلى المادّة الجسمانيّة ـ .

فالأولى أن يجاب عن استدلال الصابئة من هذا النمط ، على أنّ أشرفَ الروحانيات أشرفُ من الأنبياء ، بأنّ النفوس البشريّة يجوز أن تتدرج في الاستكمال وترتقي إلى جانب علوّ الكمال بعد الهبوط والنقصان ، بحيث تنتهي درجتُهم إلى درجة الروحانيّين ، او أعلى منهم بحسب الفطرة الثانية ، وإن لم تكونوا كذلك في الفطرة الاولى .

هذا إذا كان المراد من الفطرة الأُولى لهذه النفوس مالَها في أول تكوّنها الجسمانيّ ، وإن اريد بها ماعبّر عنها بفطرة الله التي فطَر الناس عليها ، فهي أيضاً غير قاصرة عن درجة فطرة الروحانيّين . وسيأتي لهذا وضوح وانكشاف .

* * *

الرابع أن الروحانيّات نورانيّة علويّة لطيفة ، والجسمانيّات ظلمانيّة [سفليّة] كثيفة . فكيف تتساويان ؟ والاعتبار في الشرف والفضيلة بذوات الأشياء وصفاتها ومراكزها ومحالّها ، فعالَم الروحانيات العِلْو لغاية النور واللطافة ، وعالَم الجسمانيّات السِفْل لغاية الكثافة والظلمة ، والعالَمان متقابلان . والكمال للعلويّ والصفتان متضادتان ، والشرف للنور ـ لا للظلمة ـ .

الجواب : لَسنا نوافقكم أوّلاً : على أن الروحانيّات كلها نوريّة ، ولانساعدكم ثانياً أنّ الشرف للعِلْو ، ولا نسالمكم ثالثاً أن الاعتبار في الشرف بذوات الأشياء .

أمّا بيان الأوّل : فقد حكمتم على الروحانيّات حكم التساوي وما اعتبرتم فيها التضادّ والترتيب ، وإذا كانت الموجودات كلّها على قضيّة الترتيب والتضادّ فلم أغفلتم الحكمتين هيهنا . فإنّ من قال : «الروحاني ماليس بجسماني» فقد أدخل جواهر الشياطين والأبالسة والجنّ في جملة الروحانيّات .

ثمّ من الجنّ مَن هو مسْلِمٌ ، ومنها من هو ظالمٌ ، ومن قال « الروحانيّ هو ـ المخلوقُ [روحاً] » فمِن الأرواح ماهو خيّرٌ ، ومنها ماهو شرّيرٌ؛ والأرواح الخبيثة أضداد للأرواح الطيّبة ؛ فلابدّ إذن من إثباتُ تضادّ وتنافر بين القسمين ، فلِمَ قلتم انها كلّها نورانيّة .

وعندنا ـ معاشر الحنفاء ـ الروحَ هو الحاصلُ بأمرِ الله ، الباقي على مقتضى أمره ، فمَن كان لأمْر الله أطوع ، وبرسالات رُسلُه أصدق ، كانت الروحانيّةُ فيه أكثر والروح عليه أغلَب ومن كان لأمره تعالى أنكَر ، وبشرائعه أكذَب ، كانت الشيطنة عليه أغلب .

هذه قاعدتنا في الروحانيات ، فلاروحانيّة أبلغ في الروحانيات من ذوات الأنبياء ﷺ .

وأما قولكم : « إن الشرف للعِلْو » إن عنيتم به جهة العِلْو فلاشرَف فيه ـ وكم من عال جهة سافل جهة وعلماً وذاتاً وطبيعة . وبالعكس .

وأما قولكم : « إنّ الاعتبار في الشرَف بذوات الأشياء وصفاتها ومحالّها » فليس بحقّ . وهو مذهب اللعين الأوّل ، حيث نظرَ إلى ذاته وذاتِ آدم عليه السلام ففضّل ذاتَه ـ إذهي مخلوقةٌ من النار وهي علويّة نورانيّة ـ على ذاتِ آدم وهومخلوق ن طين ـ وهو سِفليّ ظلمانيّ .

بل عندنا الاعتبار في الشرف بالأمر وقبوله ، ومَن كان أقبَلَ لأمره تعالى ، وأطوعَ لحُكْمه ، وأرضىْ بقضائه فهو أشرف ، ومَن كان على خلاف ذلك فهو أبعد وأخسّ وأخبث .

فأمْر الباري تعالى هو الذي يُعطي الروح : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [٨٥/١٧] وبالروح يحيى الإنسان الحيوة الحقيقيّة ، وبالحيوة يَستفيد العقلَ الغريزي

وبالعقل يُكتسب الفضائل ، ويُجتنب عن الرذائل ، ومن لم يقبل الأمر الإلهي فلاروح له ولاحيوة ولافضيلة ولاشرف .

* * *

أقول : قدرجع هذا الكلام إلى الاعتراف بأنّ الشرف والفضيلة إنّما هوبأمر جوهري ، فإنّ حقيقة الأمر الإلهي الذي بقبوله يصير الإنسان ذا روح وعقل وحيوة دائمة هو الذي به يتجوهر الإنسان تجوهراً روحانيّاً ، ويتذوّت ذاتاً عقليّة دائميّة .

وأمّا خطأ اللعين فليس لأجل حكمه بأنّ النار أشرف من الطين، بل لأجل زعمه أنّ حقيقة الإنسان هي البدن المخلوق من التراب ، أو لأجل توّهمه انّ شرف الذات والصورة تابع لشرف الجسميّة والمادّة فهيهنا مغالطة بأخذمابالعرض مكان مابالذات .

* * *

الوجه الخامس : إنّ الروحانيّات أشرف بقوّتي العلم والعمل من الجسمانيّات. أمّا العلم : فلا ينكر إحاطتهم بمغيبات الأمور عنّا ، واطّلاعهم على مستقبل الأحوال الجارية علينا ، ولأنّ علومهم كليّة وعلوم الجسمانيّات جزئيّة ، وعلومهم فعليّة وعلومها انفعاليّة ،وعلومهم فطريّة وعلومها كسبيّة ، فمن هذه الوجوه تحقّق لهم الشرف عليها .

وأمّا العمليّة : فلاينكر أيضاً عكوفهم على العبادة ، ودوامهم على الطاعة ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٢١/ ٢٠] ولايلحقهم كلال ولاسآمة ، ولايرهقهم ملال ولاندامة . فتحقّق لهم الشرف من هذه الجهة . وكان أمر الجسمانيّات بالخلاف من ذلك .

أجابوا عن هذا بجوابين :

أحدهما التسوية بين الطرفين وإثبات زيادة في جانب الأنبياء . والثاني بيان ثبوت الشرف في غير العلم والعمل .

أمّا الأول : فقالوا : علوم الأنبياء [ﷺ] كليّة وجزئيّة ، وفعليّة وانفعاليّة وفطريّة وكسبيّة . فمن حيث ملاحظة عقولهم عالَم الغيب منصرفةً عن عالَم الشهادة ، تحصل لهم العلوم الكليّة فطرة دفعة واحدة ، ثمّ إذا لاحظوا عالَم الشهادة حصلت لهم العلوم الجزئيّة اكتساباً بالحواسّ على ترتيب وتدريج .

فكما انّ للإنسان علوماً فطريّة ـ هي المعقولات ـ وعلوماً حاصلة بالحواسّ ـ هي الحسّيات والتجربيّات ـ فعالَم المعقولات بالنسبة إلى الأنبياء كعالَم المحسوسات بالنسبة إلى سائر الناس ، فنظريّاتنا فطريّة لهم ، ونظريّاتهم لانصِل إليها قطّ . بل ومحسوساتنا مكتسبة لهم ولنا بكواسب الجوارح .

فأمزجة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ أمزجة نفسانيّة ، [و]نفوسهم نفوس عقليّة ، وعقولهم عقولٌ أمريّة فطريّة . ولووقع حجاب في بعض الأوقات فذاك لموافقتنا ومشاركتنا كي يزكّي هذه العقول ، وتصفّي هذه الأذهان والنفوس وإلاّ فدرجاتهم وراء مايقدّر .

والثاني : إنّهم قالوا : ومن العجَب انّهم لايعجبون بهذا العلْم بل ويؤثرون التسليم على البصيرة ، والعجْز على القدرة ، والتبرّي من الحول والقوّة على الاستقلال، والفطرة على الاكتساب . ولاأدري مايفعل بي ولا بكم على ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [٢٨/٧٨] .

ويعلمون انّ الملائكة والروحانيّات بأسرها وإن علَت إلى غاية قـوّة نظرها وإدراكها [ماأحاطت] (١) بماأحاط به علم الباري جلّ جلاله ، بل لكلّ منهم مطرح نظر ، ومسرَح فكر ، ومجال عقل ، ومنتهى أمل ، ومطار وهم وخيال ، وإنّهم إلى الحدّ الذي انتهى نظرُهم إليه مستبصرون ، وما وراء ذلك الحدّ إلى ماوراء مايتناهي مسلمون مصدقون ، وإنّما كمالهم في التسليم لما لايعلمون ، والتصديق لما يجهلون

١) الاضافة من الملل والنحل .

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ليس كمال حالهم ، بل ﴿سُبْحَانَكَ لاَعِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَاعَلَّمْتَنَا ﴾ هو الكمال . فمن أين لكم انّ الكمال في العلم والعمل لافي التسليم والتوكّل ؟

وإذا كانت غاية العلوم هذهالدرجة ، فجعلت نهاية أقدامالملائكة والروحانيين بداية أقدام السالكين من الأنبياء والمرسلين ﴿قُلْ لاَيَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلاَّٱللَّهُ ﴾ [٦٥/٢٧] ،

فعالَمالروحانيّات بالنسبة إليهم شهادة، وبالنسبةالينا غيب، وعالَمالجسمانيّات بالنسبة إلينا شهادة وبالنسبة إليهم غيب ، والله تعالى هوالذي يعلم السرّ وأخفى .

قالوا : مَن علم انّه لايعلم فقد أحاط بكلّ العلم ، ومَن اعترف بالعجزعن أداء الشكر فقد أدّى كلّ الشكر .

* * *

الوجه السادس : إنّ الروحانيّات لها اختيارات صادرة من الأمرمتوجّهة إلى الخير ، مقصورة على نظام العالَم ، وقوام الكلّ لايشوبها ألبتّة شائبة الشرّ وشائبة الفساد ، بخلاف اختيارات البشر فإنّه متردّد بين طرفي الخير والشرّ .

ولولا رحمة الله في حقّ البعض ـ وإلاّ وضع اختيارهم كان ينزع إلى جانب الشرّ والفساد ، إذكانت قوّتا الشهوة والغضب المركوزتان فيهم تجرّانهم إلىجانبهما وأمّا الروحانيات فلا ينازع اختيارهم إلاّ التوجّه إلى وجه الله وطلب رضاه وامتثال أمره ، لاجرم كلّ اختيار هذا حاله لايتغيّر ولا يتعذّر عليه مايختاره ، وكلّما أراده وقصده وجده مختاره حسب مراده ، وكل اختيار ذلك حاله يتعذّر عليه مايختاره ، فلايوجد المراد ولايحصل المختار.

أجابوا عنها بجوابين :

أحدهما نيابة عن جنس البشر، وهو انّ اختيار الروحانيّات إذاكان مقصوراً

على أحد الطرفين ، محصوراً عليه ، كان في وصفه مجبوراً ، ولاشرف في الجبر ، واختيار البشر مردّد بين طرَفي الخيرو الشر فمن جانب يرى آياتِ الرحمن ، ومن طرف يسمع وساوسَ الشيطان فتميل به تارة دعوة الحقّ إلى امتثال الأمر ، وتميل به طوراً داعية الشهوة إلى اتّباع الهوى .

فإذا أقرّ طوعاً وطبعاً بوحدانيّة الله تعالى واختار من غير جبر واكراه طاعته وصيرّ اختياره المتردّد بين الطرفين مجبوراً تحت أمر الله باختيار من جهته من غير اجبار ، صار هذا الاختيار أشرف وأفضل من الاختيار المجبور فطرة (فطرته (م ن)) ، كالمكره فعله كسباً ، الممنوع عمّا لايحبّ جبراً ، ومن لاشهوة له فلايميل إلى المشتهى كيف يمدح عليه وإنّما المدح ـ كلّ المدح ـ لمن زيّن له المشتهى ونهى النفس عن الهوى .

فتبيّن انّ اختيار البشر أفضل من اختيار الروحانيّات .

والثاني نيابة عن الأنبياء ، وهو انّ اختيار الأنبياء مع ماالله من جنس اختيار البشرمن وجه فهومتوجّه إلى الخير ، مقصور على الصلاح الذي به نظام العالَم وقوام الكلّ ، صادر عن الأمر ، صائر إليه لايتطرّق إلى اختياراتهم ميل إلى الفساد ، بل درجتهم مايبتدر إلى الأوهام ، فإنّ العالي لايريد أمراً لأجل السافل من حيث هو سافل بل إنّما يختار مايختار لنظام كلّي وأمر أعلى من الجزئي .

ثمّ يتضمن ذلك حصول نظام في الجزئي تبعاً ـ لامقصوداً ـ وهذا الاختيار والإرادة على جهة سنّة الله تعالى في اختياره ومشيئته للكائنات لأنّ مشيئته كليّة متعلقة بنظام الكلّ ، غير معلّلة بعلّة ، واختيار الرسول المبعوث من جهتة ينوب عن اختياره ، كما انّ أمره ينوب عن أمره فيسلك سُبل ربه ذللا ، ثمّ يخرج من قبضة اختياره نظام حال وقوام أمر مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس .

ومن أين للروحانيّات هذه المنزلة ؟ وكيف يصلون إلى هذه الدرجة ؟ كيف وكلّ مايذكرونه موهوم ، وكلّ مانذكره [1] فمحقّق بمشاهدة وعيان .

* * *

---

١) المصدر : وكل مايذكره النبي .

الوجه السابع إن الروحانيّين متخصصّون بالهياكل العلويّة مثل زحل والمشتري وسائر الكواكب من السبعة ، وهذه السيّارات كالأبدان والأشخاص بالنسبة إليها ، وكلّ ما يحدث من الموجودات ويعرض من الحودات كلّها مسبّبات هذه الأسباب وآثارهذه العلويّات فيفيض على هذه العلويّات من الروحانيّات تصريفات وتحريكات إلى جهات الخير والنظام ، ويحصل من حركاتها واتّصالاتها تركيبات وتأليفات في هذا العالَم ويحدث في المركبات أحوالٌ ومناسبات . فهم الأسباب الأول ، والكلّ مسبّباتها ، والمسبّب لايساوي السبب ، والجسمانيّون متشخّصون بالأشخاص السفليّة (متشخصون (اصل)) والمتشخّص كيف يماثل الغير المتشخّص .

وإنّما يجب على الأشخاص في أفعالهم وحركاتهم اقتفاء آثار الروحانيّات في أفعالها وحركاتها حتى يُراعى أحوال الهياكل وحركات أفلاكها زماناً ومكاناً ، وبخوراً وتعزيماً ، وتنجيماً ودعاء وحاجة خاصّة بكلّ هيكل ، فيكون تقرباً إلى هيكل من الهياكل تقرّباً إلى الروحاني الخاصّ بـه ، الموكّل عليه ، ومنه تقرّباً إلى ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب حتّى يقضي حاجته ويتمّ مسئلته .

أجابوا بأن قالوا : الآن نزلتم عن نيابة الروحانيّات الصِرفة إلى نيابة هياكلها وتركتم مذهب الصبوة الصِرفة ، فإنّ الهياكل أشخاص الروحانيّيـن ، والأشخاص هياكل الربانيّن ، غير إنكم أثبتّم لكلّ روحانيّ هيكلاً خاصّاً ، له فعل خاصّ لايشاركه فيه غيره .

ونحن نثبت أشخاصاً ورسلاً كراماً تقـع اوضاعهم وأشخاصهم في مقابلة كلّ الكون الروحانيّ والهياكل وحركاتهم في مقابلة حركات جميع الكواكب والأفلاك وشرائعهم مراعات حركات استندت إلى تأييـد الهيّ روحانيّ سماويّ [1] ، موزونة بميزان العدل ، مقدّرة على مقادير الكتاب الأوّل ليقـوم الناس بالقسط ، ليست

---

١) المصدر : ووحي سماوي .

مستخرَجة بالآراء المظلمة ، ولا مستنبطة بالظنون الكاذبة.إن طابقتها على المعقولات تطابقتا ، وإن وافقتها المحسوسات توافقتا .

كيف ـ ونحن ندّعي إن الدينَ الأوّل [1] هو الموجود الأوّل ، والكائنات تقدّرت عليه ، وإن المناهج التقديرات هي الأقدم ، ثم المسالك الخلقيّة والسنن الطبيعية توجّهت إليها ، ولله تعالى سُنّتان في خَلقه وأمْره ، والسُنّة الأمريّة أقدم وأسبق من السُنّة الخلقيّة ، وقد اطّلع خواصّ عباده على السُنّتين ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [٣٥/٤٣] ـ هذا من جهة الخَلق ـ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٣٥/٤٣] ـ هذا من جهة الأمْرِ ـ .

والأنبياء عليهم السلام متوسّطون في تقرير سُنّة الأمْر، والملائكة عليهم السلام متوسّطون في تقرير سُنّة الخلْق ، والأمر أشرَفُ من الخلْق ، فمتوسّط الأمْر أشرفُ من متوسّط الخلْق ، فالأنبياء أفضَل من الملائكة .

وهذا عجيب ؛ حيث صارت الروحانيّات الأمْريّة متوسّطة في الخَلْق ، وصارت الأشخاص الخَلقيّة متوسطين في الأمر ، ليُعلم أن الشرف والكمال في التركيب لافي البساطة ، وأن اليد للجسماني لا للروحاني ، والتوجّه الى التراب أولى من التوجّه إلى السماء ، والسجود لآدم من إبليس أفضل له من التسبيح والتقديس .

وليُعلم أن الكمال في إثبات الرجال ـ لافي تعيين الهياكل والظلال ـ وأنهم هم الآخرون وجوداً وعملاً، والسابقون فضلاً وعلماً ، وأن آخر العمل أول الفكْرة ، وأن الفطرة لمَن له الخمرة ، وأنّ المخلوق بيديه لايكون كالمكوّنِ بحرفَيه ، كما قال تعالى : وَعزّتي وجَلالي لاأجعلُ مَن خلقتُهُ بيديَّ كمَن قلت له «كُنْ»فكان .

* * *

الوجه الثامن : إنّ الناس متماثلين في الحقيقة الإنسانيّة والبشريّة ، ويشملهم

ط: متماثلون

١) المصدر : الدين الإلهي

حدّ واحد وهو« الحيوان الناطق المائت » والنفوس والعقول متساوية في الجوهريّة ، فحدّ النفس بالمعنى الذي يشترك فيه الإنسان والحيوان والنبات إنّه «كمال أوّل لجسم طبيعيّ آليّ ذي حيوة بالقوّة » وبالمعنى الذي يشترك فيه الإنسان والملائكة « إنّه جوهر غيرجسم هو كمال أوّل لجسم له تحرّك بالإختيار عن مبدء نطقيّ عقليّ بالفعل أو بالقوّة » . فالذي هو بالفعل خاصيّة النفس الملكيّة ، والذي هو [لا] بالفعل هو فصل النفس الإنسانيّة .

وأمّا العقل فقوّة أوهيئة لهذه النفس ، مستعدّة لقبول ماهيّات الأشياء ، مجرّدة عن الموادّ ، والناس في ذلك على استواء من القدم ، وإنّما الاختلاف يرجع إلى أحد أمرين : أحدهما اضطراري - وذلك من جهة المزاج والاستعداد - والثاني اختياري ، من حيث الاجتهاد ، المؤثّر في رفع الحجب الماديّة وتصقيل النفس عن الصدأ المانع لارتسام الصور العقليّة ، حتّى لوبلغ الاجتهاد إلى غاية الكمال تساوت الأقدام ، وتشابهت الأحكام ، فلايتفضّل بشرٌ على بشر بالنبوّة ، ولايتحكّم أحدٌ على أحد بالاستتباع .

أجابوا : التماثل والتشابه في الصور البشريّة لامِرية [1] ، وإنّما التنازع بيننا في النفوس والعقول قائمٌ ، فإنّها عندنا على التضادّ والترتيب .

وذلك إن النفس - كما عُلم من كلامكم أيضاً - لفظٌ مشترك يطلق تارةً لمعنى بين الإنسان والحيوان ، وتارةً لمعنى بين الإنسان والملَك - على مساق حدودكمَ - فهلّا زدتم قسماً ثالثاً - وهو النفس النبويّة - حتى يتميّز به عن الملكيّة ، كما يتميّز الملكيّ عن الإنسانيّ ؟ ! فإنّ عندكم المبدء النطقيّ للانسان بالقوّة ، والمبدء العقليّ للملَك بالقوّة [2] ، فقد تغايرا من هذا الوجه ، ومن جهة إنّ الموت الطبيعي يطرء

١) المصدر : مسلّم لامرية فيه .
٢) المصدر : للملك بالفعل .

على الإنسان ، ولايطرء على الملَك ، وذلك تمييز آخر . فليكن في النفس النبويّة مِثل هذا الترتيب .

وأما الكمال الذي تعرّضتم إنّما يكون كمالاً للجسم المختار إذا كان اختيار المحرّك محموداً ، وأمّا إذا كان مذموماً من كلّ وجهٍ صار الكمال نقصاً ، وبذلك يقع التضادّ بين النفس الخيّرة والشريرة ، حتّى يكون إحديهما في جانب الملَكية ، والأُخرى في جانب الشيطنة ، فيحصل التضادّ المذكور، كما حصل الترتيب المذكور.

وأمّا ماذكره المتكلّم الصابيّ من حدّ العقل « إنّه قوّة أو هيئة للنفس مستعدّة لقبول ماهيّات الأشياء مجرّدة عن الموادّ » فغير شامل لجميع العقول عنده ولا عند الحنيف ، بل تعرّض للعقل الهيولاني دون سائر العقول ــ من العقل النظريّ ، والعمليّ ، وما بالملكة ، والذي هو بالفعل ، والذي هو المستفاد ، والذي هو الفعّال للعلوم التفصيلية التي وجودها نفس معقوليّتها ، ولاخلاف بينهم إنّ هذه العقول قد اختلفت حدودها وتباينت فصولها .

فأخبِرني أيُّها الحكيم ــ من أيّ عِداد تعدّ عقلَك أوّلاً ؟ هل ترضى أن يقال لك : « تساوت الأقدام في العقول حتّى يكون عقلك بالفعل والاستفادة ، كعقل غيرك بالقوّة والاستعداد ، بل واستعداد عقلك لقبول المعقولات كاستعداد عقل غبيّ غويّ لايردّ عليه برادّة ولاينفكّ الخيال عن عقله ، كما ينفكّ [1] الحسّ عن خياله .

وإذا كانت الأقدام متساويةً فما هذا الترتيب في الأقسام ؟ وإذا ثبت ترتّباً في العقول فبالحقيقة أن ترتقي في الصعود إلى درجة الاستقلال والإفادة ، وتنزل في الهبوط إلى درجة الاستعداد والاستفادة .

* * *

الوجه التاسع : قالت الصابئة : إذا أبطلتم تساوي العقول والنفوس بإثبات

---

١) المصدر: كما لاينفك .

الترتيب والتضادّ فقد لزم الاتبّاع فأخبرونا مارتبةُ الأنبياء بالنسبة إلى نوع الإنسان ؟ ومارُتبتُهم بالنسبة إلى الملَك والجنّ وسائر الموجودات ؟

ثمّ مامرتبة النبيّ ﷺ عند الباري سبحانه ؟ فإنّ عندنا الروحانيّات أعلى مرتبة من جميع الموجودات ، وهم المقرّبون في الحضرة الإلهية ، والمكرّمون لديه . ونراكم تارةً تقولون : « إن النبيّ ﷺ متعلّم من الروحاني » ونراكم تارةً تقولون : « إنّ الروحانيّ يتعلّم من النبيّ ﷺ » ؟

أجابت الحنفاء بأن الكلام في المراتب صعبٌ ، ومَن لم يصلْ إلى رتبة كيف يمكنه أن يستوفي الكلام [في] أقسامها ، لكنّا نَعرف إن رتبة النبي ﷺ بالنسبة إلينا كرُتبتنا بالنسبة إلى مَن هو دوننا في الجنس ـ كالحيوانات ـ وكما إنّا نَعرف أسامي الموجودات ولايعرفها الحيوانات ، كذلك هم يَعرفون حقائق الأشياء ووجوه المصالح في الحركات وحدودها وأقسامها ، ونحن لانَعرفها .

وكما إن النوع الإنساني يستخدم الحيوانات ويملكها بالتسخير فالأنبياء ملوك الناس بالتدبير ، وكما إن حركات الناس معجزات الحيوان كذلك حركات الأنبياء ﷺ معجزات الناس ، فالحيوانات لايمكنها أن تبلغَ إلى الحركات الفكرية حتى تميّز الحقّ من الباطل ، ولاالحركات القوليّة حتى تميّز الصدق من الكذب ، ولاالحركات الفعليّة حتى تميّز الخير من الشرّ .

فكذلك قياس حركات الأنبياء ﷺ لأنّ منتهى فكرهم لاغاية له وحركات أفكارهم في محالّ القدس ممّا تعجز عنها قوّة البشر حتى يسلم لهم مع الله وقت لايسعهم فيه ملَك مقرّب ولانبيّ مرسل .

وكذلك حركاتهم القوليّة والفعليّة لاتبلغ إلى غاية انتظامها وجريانها على سبق الفطرة حركة كلّ البشر ، وهم في الرُتبة العلياء والدرجة الأُولى من درجات الموجودات كلّها ، قد أحاطوا علماً بما اطّلعهم الربّ تعالى على ذلك دون غيرهم

من الملائكة والروحانيّين، ففي الأوّل يكون حالهم حالَ المتعلّم ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [٥٣/٥] وفي الآخر حالهم حال التعليم ، وذلك في حقّ آدم عليه السلام : ﴿ يَاآدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [٢/٣٣] حين كان الأمر على بدء الظهور والكشف، فانظر كيف يكون الحال في نهاية دور الظهور

وأما إضافتهم إلى جناب القدس فالعبوديّة الخالصة : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ ﴾ [٤٣/٨١] قالوا : « إنّا عبادٌ مربوبون وقولوا في فضلنا ماشئتم » أحقّ الأشياء وأخصّ الأحوال بهم « عبده ورسوله » لاجرم كان أخصّ التعريفات بجلاله تعالى بأشخاصهم : إله إبراهيم . وإله إسمعيل وإسحق . وإله موسى وهرون . وإله عيسى . وإله محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وعليهم .

وكما إن من العبوديّة ماهو عامّ الإضافة ، ومنها ماهو خاصّ الإضافة كذلك التعريف إلى الخلق بالإلهيّة والربوبيّة ، والتجلّي للعباد بالخصوصيّة ماله عموم ﴿ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ ومنه ماله خصوص ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ .

* * *

فهذه نهاية مذهبي الصابئين والحنفاء في باب المفاضلة بين الملائكة والبشر، وفيها فوائد لاتحصى، ولهذا وقع في الرواية هذا التطويل ، وليعذرنا فيه أهل الدراية والتحصيل .

فصل (١)

في أقوال علماء الإسلام القائلين بأنّ الملك أفضلُ من البشر

إعلم إن جماعة من أهل الشريعة كأكثر الأشاعرة موافقاً لمذهب أصحابنا

---

١) هذا الفصل مأخوذ من تفسير الفخر الرازي (١/ ٤٣٠ الى٤٤٢) باضافات من المؤلّف .

الإماميّة كالشيخ المفيد، والسيّد المرتضى، وأبي جعفر الطوسي ـ رضوان الله عليهم ـ احتجّوا بأمر الله للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام على أنّه أفضل منهم ، فذهبوا إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة ، وقالت المعتزلة وأبوبكر الباقلاني من الأشاعرة وأبو عبدالله[1] الحليمي من فقهائهم:« بل الملائكة العلويّة أفضل » ولكلّ من الطائفتين وجوه من الاحتجاج والاستدلال نذكرها تلخيصاً وتهذيباً .

* * *

فحجّة القائلين بأنّ الملائكة أفضل من وجوه :

الأوّل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ إلى قوله : ـ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُون ﴾ [٢١/١٩-٢٠] والاستدلال به من وجهين :

أحدهما أنّ هذه العنديّة معلومٌ أنّها ليست مكانيّة ـ لتعاليه سبحانه عن المكان والجهة ـ فيكون عنديّةً شرفيّة ، ودُنوّاً معنويّاً ، فعلم أنّ للملائكة هذا القرب والشرافة حاصلٌ ـ دون غيرهم ـ .

وقد عورض هذا بقوله في صفة المؤمن بحسب الآخرة : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [٥٤/٥٥] وأما في الدنيا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حكاية عن الله تعالى : « أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي » وهذا أكثر إشعاراً بالتعظيم ، لأنّ كون الله عند أحد أعظم إجلالا من كونه عند الله .

وثانيهما إنه تعالى احتجّ بعدم استكبارهم على أنّ غيرهم وجَب أن لايستكبر وهذا الاستدلال إنّمايتمّ إذا كانوا أفضل من البشر ـ كما لايخفى .

ولأحد أن يقول : لانزاع في أنّ الملك أشدّ قوّة وقدرة من البشر، ويكفي في صحّة الاحتجاج هذا القدْر من التفاوت ، إنّما النزاع في الأفضليّة بمعنى الشرافة والقرب أو كثرة المثوبات .

---

١) الاصل : أبي عبدالله .

الثاني قالوا: عبادات الملائكة أشقّ من عبادات البشر، فيكونون أكثر ثواباً من البشر. أمّا الصُغرى فلوجوه:

أحدها أنّ ميلهم إلى التمرّد أشدّ، لأنّ العبد السليم من الآفات، المستغني عن طلب الحاجات، يكون أميل إلى التنعم والالتذاذ من المنغمر في الحاجات، فيكون كالمضطرّ إلى عبادة مولاه والالتجاء إليه ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [٢٩/٦٥].

ومعلومٌ إن الملائكة سكّان السموات، و هي جنان و بساتين ومواضِع نزهة وهم آمِنون من الفقر والحرص، ثمّ إنّهم مع ذلك أبداً مذْ خُلقوا مشغولون بالعبادةِ خاشعون وجِلون، كأنّهم مسجونون، لايلتفتون إلى نعيم الجنان واللذات، بلْ مقبلون على الطاعات الشاقّة، موصوفون بالخوف الشديد، والفزع العظيم، وكأنّه لايقدر أحدٌ من بني آدم أن يبقى كذلك يوماً واحداً، ويؤيّده قصّة آدم وحواء عليهما السلام، وتناولهما لما نهيا عن أكله.

وأما الكبرى فلِما ورد في الحديث عنه ﷺ [1]: «أفضَلُ الأعمالِ أحمزُها» - أي أشقّها.

وثانيها إنّ انتقال المكلّف من نوع عبادة إلى نوع آخر أروَح له وأسهَل عليه من الإدامة على عملٍ واحد، ولهذا السبب جُعل التصانيف مقسومة [بـ] الابواب والفصول، وجُعل كتاب الله مقسوم الأبواب بالسور والأعشار والأخماس [2]، ثمّ إن الملائكة كلٌّ منهم مواظبٌ على عمل واحد لايعَدل إلى غيره - كما مرّ - فعباداتهم في نهاية المشقّة، فيكون ثوابهم أفضَل، لِما مرّ.

---

١) النهاية لابن الاثير (حمز: ١/٤٤٠): «في حديث ابن عباس: سُئل رسول الله (ص): أي الأعمال أفضل؟ فقال: أحمَزها.

٢) تفسير الفخر الرازي: وجعل كتاب الله مقسوماً بالسور والأحزاب والأعشار والأخماس.

ولقائل أن يقول على الوجهين : هبْ أنّ مشقتهم أكثر ، فلِمَ قلتم : « فيكون ثوابُهم أكثرَ ؟ » وذلك لأنّا نرى بعض المتصوّفة يتحمّلون من المشاقّ والمتاعب في طريق مجاهدتهم مانقطع بأنّ رسول الله ﷺ لم يتحمّل شطر ذلك ، مع أنّا نقطع بأنّ درجتهم لايبلغ جزءاً من ألف جزء من درجة النبي ﷺ . فعُلم أنّ كثرة المشقة في العبادة لاتقتضي زيادة الثواب ، بل مبناها على الدواعي والقصود ، فلعلّ الفعل الواحد يأتي به المكلّفان على السواء ، والثواب لأحدهما أعظم بكثير من الآخر ، لأنّ إخلاص أحدهما أشدّ .

على أنّا لانسلّم أن عبادات الملائكة أشقّ ، وما ذكرتم في بيانه « مِن أن السموات كالبساتين النزهة ، والمواضع الطيّبة ، وأن أسباب التنعّم إذا كانت كثيرة صعب تركُها اشتغالاً بالعبادة » معارَض بأن أسباب البلاء مجتمعة على البشر ، ومع ذلك لايمنعهم ذلك ، ويرضون بقضاء الله ويواظبون على العبادة ، وهذا أدخل في استحقاق الأجر والثواب .

وأمّا قولهم : « المواظبة على نوع واحد شاقّةٌ » معارَض بأنّ الشيء إذا صار عادةً صار كالأمر الطبيعي في نهاية السهولة ، وكان خلافُه صعباً ، ولهذا قيل : «العادةُ كالطبيعة الثانية » ولذلك نهى النبي ﷺ [1] عن الوِصال في الصوم ، وقال أفضلُ الصومِ صومُ داود ؏ ، وهو أن يصوم يوماً ويُفطر يوماً .

أقول : العبادة والتسبيح منهم كالغذاء والتنفّس منا ليس يعود عليهم لأجل ذلك تعب ومشقّة .

الثالث : قالوا : عبادات الملائكة أدوم ، فكانت أفضل : أمّا الأوّل فلقوله : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [٢١/ ٢٠] وأمّا الثاني : فلأنّ الأدوم أشقّ ، والأشقّ أفضل ـ كما مرّ تقريره ـ .

---

١) راجع وسائل الشيعة : كتاب الصوم ، باب تحريم صوم الوصال : ٧/ ٣٨٧ .

وفيه أيضاً ماسبق ، ولأنّه قال ﷺ[1] : « أفضل العبّاد من طال عمره ، وحسن عمله» . وقال عليه وآله السلام [1] : «الشيخ في قومه كالنبي في أمته» وهذا يقتضي أن يكونوا في البشر كالنبي في الأمّة . وذلك يوجب فضلهم على البشر .

ولقائل أن يجيب عنه بالنقض والحلّ :

أمّا النقض : فلأنّ كثيراً من الأنبياء ﷺ كانوا أطول عمراً من محمّد ﷺ ، فلزم أن يكونوا أفضل منه ، وهو باطلٌ بالإتفاق .

أمّا الحلّ : فلأنّ المراد من الحديث الأوّل إنّ العباد إذا كانوا متساويين في الايمان والإخلاص وسائر ماينوط بالعبودية ثمّ كان بعضهم أدوم عبادة فكان أفضل ، دلّ عليه قوله : « وحسن عمله » .

ومن الثاني إنّ الشيخ في قومه إذا كان مثلهم او أزيدَ منهم في رتبة العلم والعمل كان كذلك .

الرابع : إنهم أسبقُ السابقين في كل العبادات ، لاخصْلة من الخصال إلاّ وهم أئمّة متقدمون فيها ، وهم المنشِئون العامرون لمساجد الله ، والممهّدون لطرق الدين، والسبقة في العبادة جهة تفضيل وتعظيم لقوله : ﴿ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [٥٦/١٠] وكذا التمهيد لها ، لقوله ﷺ[2] : « مَن سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فلَه أجْرَها وأجْر مَن عَمِلَ بِها إلى يَومِ القيامَة » فهذا يقتضي أن يكون قد حصل للملائكة من الثواب كلُّ ماحصَل للأنبياء مع زيادة .

أقول : هذا الوجه قويّ جداً ، ولهذا لم يذكر أحدٌ جواباً عنه . والجواب كما يعرفه المحققون ويتحققه المكاشفون إن ذوات الأنبياء ﷺ بما لهم من الزلفى

١) جاء مايقرب منه في الترمذي :كتاب الزهد ، الباب ٢٢و٢١ : ٥٦٥/٤ .

٢) في الجامع الصغير (٤٣/٢) : الشيخ في أهله كالنبي في أمته .

٣) راجع البحار : ١٠٤/٧٧ و١٦٤ و١١٧/٩٣ .

عند الله هي نتائج عبادات الملائكة وجزاء أعمالهم ، وغاية مساعيهم العائدة إليهم ، والغاية أفضل من ذي الغاية كما ثبَت في الحكمة الإلهية .

الخامس : إن الملائكةَ رسلُ الله إلى الأنبياء ﷺ ، والرسولُ أفضل من الأمّة . أمّا الأوّل فلقوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [٥٣/٥] وقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [٢٦/١٩٤] وأمّا الثاني فبالقياس على الأنبياء من البشر ، فإنّهم أفضل من أممهم ، فكذا هيهنا .

ولقائل أن يقول : أفضليّة الأنبياء على أممهم لانسلّم إنّها من جهة الرسالة وتبليغ الأمر، بل لِما عُلم من حالِهم وقربِهم بما أبدوه من المعجزات والكرامات .

بل ربما قيل : إنّ السائس للدواب خادم لها من هذا الوجه ، والخادم ـ بما هو خادمٌ ـ أنقصُ منزلة من مخدومه ، إلاّ انّ لخادم الدابّة جهة إنساني في نفسه بها يكون فضيلته على الدابّة ، فكذا حال النبيّ ﷺ مع الأمّة ، قال ﷺ [1] : « تناكَحوا تناسَلوا ، فإنّي أباهي بكم الأمَم يومَ القيامة » .

السادس : الملائكة أتقىٰ من البشر ، فوجب أن يكونوا أفضل منهم .

أمّا تقواهم ، فلأنّهم مبرّؤن عن الزلّات وعن الميل إليها ، وأمّا الأنبياء فانّهم وإن كانوا معصومين عن الكبائر ـ بل وعن الصغائر أيضاً كما ذهب إليه الإماميّة ـ لكنهم لم يخلوا عن الميل إليها بحسب الطبيعة البشريّة ، فثبَت أنّ تقوى الملائكة أشدّ .

وأمّا كون الأتقىٰ أفضل ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [٤٩/١٣] .

والجواب : لانسلّم إن تقواهم أشدّ ، وذلك لأن التقوى مشتقّ من الوقاية ، وكلّما كان الدواعي والشهوات أكثر كان التقوى عنها أشدّ، ولمّا كان المقتضي للمعصية

---

١) كنز العمال (١٦/٢٧٦) : تناكَحوا تكثروا فاني . . .

في حقّ البشر أكثر فكان تقوى المتّقين منهم أكثر .

فإنْ قيل : لانسلّم عدم الداعية فيهم أصلا ، لكن لاشهوة لهم إلى الأكل والشُرب والمباشرة ، ولهم شهوة التقدّم والرياسة .

قلنا : هذا لايضرّنا ـ لأنّ هذه الشهوة مشتركة بين الفريقين ، وقد حصلت للبشر أنواع أُخر من الشهوات الصارفة عن الطاعات ، كشهوة البطن والفرج وغيرهما فيكون فضيلة التقوى في البشر أشدّ وأقوى .

السابع : قوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٤/١٧٢] وجه الاستدلال به إنّ قوله : ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ خرج مخرّج التأكيد للأوّل ، ومثل هذا التأكيد إنّما يكون بذكر الأفضل ، كما في قولك : « هذه الخشبةُ لايَقدرُ على حملِها العشرةُ ، ولا المأةُ » وكذا في كثير من الأمثلة .

ولقائل أن يقول : هذه الآية إن دلّت فإنّما تدلّ على فضل الملائكة المقرّبين على المسيح عليه السلام ، لاعلى من هو أفضل منه ـ وهو نبيّنا صلى الله عليه وآله وموسى وإبراهيم عليهما السلام ـ وبالجملة ، فلو ثبت إن المسيح أفضل من كلّ الأنبياء عليهم السلام كان مقصودهم حاصلاً ، وإلاّ فلم يحصل .

ثم نقول : قوله: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ليس فيه إلاّ واو العطف التي لمطلق الجمعيّة ، والأمثلة الجزئيّة غير مفيدة في الدعوى الكليّة ، على أنّها معارَضة بأمثلة أُخرى ، كقولك : « ماأعانني عَلى هٰذا الأمْر زيدٌ ولا عمروٌ » فهذا لايُفيد أفضليّة عمروٍ من زيد .

سلّمنا إنّه يفيد التفاوتَ ـ أمّا إنّه من جميع الوجوه ، أو من جهة كثرة الثواب فغير مسلّم . والسنَد إنّ النصارى لمّا شاهَدوا من المسيح إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكمهِ والأبرصِ أخرَجوه من العبوديّة إلى المعبوديّة بسبب هذا القدْر من القُدرة ، فقال تعالى : إنّ عيسى لايستنكف بسبب هذه القدْر [من القُدرة] [1] عن عبوديتي ،

---

١) الاضافة من تفسير الفخر الرازي .

بل ولاالذين هم فوقه في القوّة والقدرة والبطش والاستيلاء على عـالَم السموات والأرضين، فعلى هذا الوجه دلّت الآية على أنّهم أفضل من البشر في القوّة والشدّة ، ـ لافي كثرة الثواب كما هو المقصود .

وهيهنا وجهان آخران في الجواب :

أحدهما : إن الآية دلّت على أنّ مجموعَ الملائكة أفضلُ من المسيح عليه السلام ـ لاكلّ واحد .

وثانيهما : لعلّ خطاب الله كان مع أقوام اعتقدوا فضلَ الملَك على البشر ، فأورد الكلام على حسب معتقدهم ، كما في قوله [تعالى :] ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [٣٠/٢٧]

الثامن : قوله تعالى حكاية عن إبليس : ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [٧/ ٢٠] وهذا وإن كان قول إبليس ـ وهو ليس بحجّة ـ إلاّ إن آدم وحوّاء عليهما السلام لو لم يكونا معتقدين «إن الملَك أفضلُ من البشر» لم يكن إبليس يغترّهما بذلك ، ولاكانا اغترّا بذلك .

والجواب : أوّلاً إنّ آدم عليه السلام لم يكن نبيّاً حينئذ ، فلم يثبت فضلُ الملائكة على الأنبياء من كونهم أنبياء .

وثانياً إن ماذكر لايدلّ على كون الملَك أفضل عاقبةً وأعظم مثوبةً عندالله ، بل أنّ لهم ضروباً من الفضيلة غير ذلك ، ولاشُبهة لاحد في أنّ لهم جهات فضل بالفعل على نوع البشر كالقوّة ، والقُدرة ، والحُسن ، والجَمال ، والصَفاء ، والنقاء من الكدورات المزاجيّة والأمراض والعاهات وغيرهـا ، فلأجلها رغب آدم عليه السلام في أن يكون مثلَهم في العاجِل وإن كان أفضلَ منهم في الآجل .

التاسع : قوله تعالى : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [٦/ ٥٠] لم يرد به نفي الصورة ، إذ لايفيدُ الغرضَ، وإنّما نفى أن يكون له مِثل مالهم من الصفات الكمالية .

والجواب : إن الصدق حاصلُ بنفي المماثلة في الصفات من كلّ الوجوه ، ولادلالة فيه على وقوع التفاوت بينهما في كل الصفات .

العاشر : قوله : ﴿ مَاهٰذَا بَشَراً إِنْ هٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [١٢/٣١] .

والجواب : إن المراد المشابهة في الصورة الظاهرة أو في المجموع من الصورةِ الحسَنة والسيرةِ الكريمة ، ولايلزَم منه أن يكون المشّبه به أقوىٰ في الأخيرة ، سيّما مايكون بمعنى كثرة الثواب .

الحاديعشر : قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [١٧/٧٠] وظاهر إن ماعدا هذا الكثير المفضّل عليه لايمكن أن يكون إلا الملائكة ، لسقوط غير المكلف عن درجة الاعتبار، وانحصار جنس المكلف في أربعة أنواع ، ولاشكّ إن الإنس أفضَل من الجنّ والشياطين ، فلو كان أفضل من الملَك أيضاً لكان أفضل من جميع المخلوقات ، وحينئذ لم يبق للتقييد بالكثير فائدةٌ.فعلم إنّ الملَك أفضل من البشر .

وأجيب عنه بجوابين : أحدهما أنّ في الكلام تمسّكاً بدليل الخطاب ، وهو ضعيفٌ لايعوّل عليه في العقائد الكلّية .

وثانيهما انّه لايلزم منه إلاّ تفضيل الجنس على الجنس لاتفضيل الكلّ على الكلّ .

الثانيعشر : ان الانبياء ﷺ مااستغفروا لاحد الا بدوّوا بالاستغفار لانفسهم ، ثم للمؤمنين . قال آدم : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ [٧/٢٣] وقال نوح : ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤمِنَاً ﴾ [٧١/٢٨] وقال إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [١٤/٤١] وقال موسى : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ [٧/١٥١] وقال تعالى لمحمّد ﷺ وعليهم وآلهم : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤمِنِينَ وَٱلْمُؤمِنَاتِ ﴾ [٤٧/١٩] .

أما الملائكة فلم يستغفروا إلاّ لغيرهم من المؤمنين ،كما حكى الله عنهم بقوله ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [٤٠/٧] وقال : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [٤٠/٧] ولو كانوا محتاجين إلى الإستغفار لبدؤوا أولا لأنفسهم ثم لغيرهم ، لأنّ دفع الضرر عن النفس مقدّم على دفعه عن الغير، لقوله ﷺ[1] « إبدَء بنفسك » فهذا يدل على أنّهم أفضل من البشر .

والجواب ـ بعد تسليم دلالة عدم الاستغفار على عدم الزلّة ـ لانسلّم إن التفاوت في ذلك مناط الأفضلية كما تقدّم ، ومنهم من قال إنّ استغفارهم للبشر كالعذر لما طعنوا فيهم .

الثالث عشر : قوله[تعالى] : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ [٨٢/١٠-١١] وهذا عام للجميع ، فيدخل فيهم الأنبياء ﷺ وغيرهم . وجه دلالته على أفضليّتهم بوجهين :

أحدهما : إنّ الحافظ للشيء يجب أن يكون أبعد من الخطأ والزلّة والمعصية من المحفوظ ، فيكون أفضل .

وثانيهما : إنّه تعالى جعل كتابتهم حجّة للبشر وعليهم في الطاعات والمعاصي، فقولهم أقوى بالقبول من قول البشر، فهذا يدلّ على أنّهم أعظم قدْراً .

وقد أجيب بمنع كِلا الوجهين ، مسنداً بأنّ الملك قد يوكّل بعض عبيده على حفظ ولده ، فلايلزم أن يكون الحافظ أشرف من المحفوظ ، وبأنّ الشاهد قد يكون أدون حالاً من المشهود له وعليه .

أقول : وكِلا المنعين مكابرة في الأفاعيل الذاتيّة الطبيعيّة . قياساً على الأفاعيل الصناعيّة الكسبيّة .

الرابع عشر : قوله[تعالى]: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾

١) الجامع الصغير : ١/٥ .

[٣٨/٧٨] والمقصود من ذكر أحوالهم شرح عظمته تعالى يومَ الآخرة ، ولو كان في الخلق طائفة قيامهم وتضرّعهم أقوى في ذلك من قيامهم لكان [ذكرهم] أولى .

وأجيب بمثل مامرّ مِن أنّ المزيّة لهم من بعض الوجوه لاينافي المفضوليّة من جهة الشرف والمثوبة .

الخامس عشر : قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [٢٨٥/٢] بيّن إنّه لابدّ من صحّة الايمان الإذعان بوجود هذه الأشياء ، ثمّ بدء بنفسه ، وثنّى بالملائكة ، وثلّث بالكتب ، وربّع بالرسل . وكذا في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ ﴾ الآية [١٨/٣] والتقديم في الذكر يدلّ على التقديم في الدرجة .

وأجيب بأنّ هذه الحجّة ضعيفة ، لأنّها منقوضةٌ بكثير من المواضع ، منها تقديم « سورة تبّت » على « سورة التوحيد » .

السادس عشر : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [٥٦/٣٣] فجعل صلواتهم كالتشريف للنبي ، فيكونون أشرف .

وأجيب بأنه منقوض بقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ [٥٦/٣٣] .

السابع عشر: يتكلّم في المفاضلة بين جبرئيل ومحمّد ﷺ ، فيدلّ على تفضيل جبرئيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [٨١/١٩-٢٢] .

وصَف جبرئيل عليه السلام بستّة أوصاف شريفة من أوصاف الكمال . ووصفَ محمّداً ﷺ بصفة واحدة ـ هي عدم آفة الجنون ـ ولو كانا متساويين في الكمال لكان وصفه ﷺ بهذه الصفة الواحدة بعد وصْف جبرئيل بهذه الصفات حطّاً لشأنه ، وتحقيراً لمنصبه ، وإبطالا لحقّه ؛ وهو غير جائز عليه تعالى ، فدلّت الآية على كون جبرئيل أفضل منه ﷺ .

فإن قيل : لِمَ لايجوز أن يكون تلك النعوت لمحمد ﷺ ؟

قلنا : لأنّ قوله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يدفع هذا الإحتمال .

والجواب : إنكم تُوافقونا في أنّ لمحمّد ﷺ فضائل أُخرى لم تذكر في هذا الموضع ، فلِمَ لايجوز أن يكون هو بتلك الفضائل أفضل من جبرئيل ؟ فإنّه تعالى كما وصَف جبرئيل هيهنا بهذه الصفات الستّ وصف محمداً صلوات الله عليه وآله بصفات ستّ في قوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [٤٦/٣٣] .

وبالجملة ـ فافراد أحد الشخصين بالوصف في مقام لايدلّ على انتفاء تلك الاوصاف عن الثاني .

الثامن عشر : المعلّم أعلَم من المتعلّم ، والأعلم أفضل سيّما في العلوم المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته وآياته ، كالعلم بأحوال العرش والكرسي ، والسموات واللوح والقلَم ، والجنّة والنار ، وأصناف الملائكة والجنّ ، وأنواع الحيوانات وغيرها .

ثمّ العلوم قسمان : قسمٌ لايُعرف إلّا بالوحي ، فهو لم يحصل لمحمد ﷺ إلّا من جهة الملك ـ سيّما جبرئيل عليه السلام ـ فيستحيل أن يكون النبيّ ﷺ أفضل من جبرئيل عليه السلام ، بل هو الواسطة بين الله وبينه ﷺ ، ولكونه عالِماً بجميع الشرائع الماضية والحاضرة . وعالِماً ايضاً بشرائع الملائكة وأديانهم وسُننهم فيكون أكثر علماً ، فيكون أفضل ، لقوله تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٩/٣٩] .

وقسمٌ يمكن تحصيلها بالعقل ، فلاشكّ أيضاً إن جبرئيل عليه السلام أعرف فيها ، لطول عمره وكثرة مشاهدته إيّاها ، فكان أفضل فيها .

والجواب : إنّ كون المعلّم ـ من جهة كونه معلّماً ـ أفضل من المتعلّم وقت

التعليم - وإن كان مسلّماً - لكن يجوز أن يصير المتعلّم في مقام آخر، ووقت آخر أعلم وأفضل من المعلّم .

ولا نسلّم أيضاً أن الملائكة أعلم من البشر في معرفة الأشياء وخواصّها ، بدليل استفادتهم علومَ الأسماء من آدم عليه السلام ، كما في قوله تعالى ﴿ يَاآدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ .

ثمّ إنّ سلّمنا مزيد علمهم - ولكن ذلك لايقتضي كثرة الثواب ، لأنّ مبناه على الإخلاص في العمل ، ولانسلّم أنّ اخلاص الملائكة أكثر .

أقول : إنكار أن يكون زيادة العلم المتعلّق بأحوال المبدء والمعاد مقتضية لزيادة الشرف والثواب مكابرةٌ صِرفة ، فإنّ هذا النحو من العلم أينَما تحقّق فهو عين الشرف والثواب ، وكان الإخلاص من لوازمه الضروريّة ، فلاحاجة إلى التقييد بها . والأولى في الجواب الإكتفاء بمنع كون الملائكة أكثرعلْماً فيما يتعلّق بأحوال المبدء والمعاد من الأنبياء عليهم السلام .

التاسع عشر : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ انّي اِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نجْزِيهِ جَهَنَّم ﴾ [٢١/٢٩] دلّت الآية على أنهم بلغوا في الرتبة إلى أنّهم لوخالفوا أمرَ الله لما خالفوه إلّا بادعاء الإلهيّة - لابشيء آخر من متابعة الشهوات - وذلك يدلّ على نهاية جلالتهم .

وأجيب بأنّ علوّ درجتهم في القوّة والجلالة والتبرّي عن آفات الشهوة مسلّم ، لكن الخلاف معَكم في كثرة الثواب .

العشرون : قول النبي صلى الله عليه وآله رواية عن الله تعالى [١] : « وإذا ذكَرَني عَبدٌ في ملَإٍ ذكرته في ملَإٍ خير من ملَائه » وهذا يدلّ على أنّ الملائكة العلويّة أشرف .

وأجيب عنه بوجهين : أحدهما إنّه خبرٌ واحد لايعوّل عليه في الأصول .

---

١) راجع البخاري : كتاب التوحيد : ٩ / ١٤٨ .

وثانيهما : إنّ هذا يدل على أن ملَاء الملائكة أفضل من ملَاء البشر ، وملَاء البشَر ومحتشدهم عبارة عن مجمع العوامّ ـ لاالأنبياء ـ فلايلزم من كون الملائكة أفضل من عوام البشر كونهم أفضل من الأنبياء ﷺ .

أقول : هذا الخبر وإن كان احادياً ، إلاّ إنّه مع انضمام سائرالأخبار والآيات يؤثّر تأثيراً عظيماً في كون الملك أفضل من البشر .

وأيضاً مؤيَّدٌ بما ذكره الشيخ محيي الدين الأعرابي في الفتوحات ، وهو عندنا من أهل المكاشفة :

« إنّي سألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك في الواقعة ، فقال لي: إنّ الملائكةَ أفضلُ.

فقلت : يارسول الله ـ فإن سُئلتُ : « ماالدليل على ذلك ؟ » فما أقول ؟

فأشار إليّ : «أن عِلمتُم أنّي أفضل الناس ، وقد صحّ وثبت عند كم فهوصحيح أنّي قلت عن الله إنّه قال : « من ذكَرني في نفسه ذكَرتُه في نفسي ، ومن ذكَرني في ملَاء ذكرتُه في ملاه خيرٍ منهم » وكمْ ذاكر لله تعالى في ملَاء أنا فيهم ، فذكره الله تعالى في ملاه خيرٍ من ذلك الملاءِ الذي أنا فيهم » .

فما سررت بشيء سروري بهذه المسئلة » ـ انتهى .

ويعلم من كلامه تفضيل آحاد الملائكة على آحاد الأنبياء ، لاالمجموع على المجموع فقط .

* * *

فهذا آخرالكلام في الدلائل النقليّة في ترجيح الملَك وما فيها.وستَمَسع منّا بيان التحقيق في هذه المسئلة ورجحان جانب الأنبياء ﷺ ، على معنى لاينافي أمثال هذه الأخبار والآيات المذكورة .

فصلٌ [١]

في حجّة القائلين بفضل الأنبياء عليهم السلام على الملائكة

وهي من وجوه :

أحدها - وهو العمدة - إنّ الله أمر الملائكة بالسجدة لآدم عليه السلام وثبتَ إنّه لم يكن كالقبلة ، بل كانت السجدة في الحقيقة له ، وهي نهاية التواضع ، وتكليف الأشرف بنهاية التواضع للأدني مستقبحٌ في العقول ، فدلّ ذلك على أنّ آدم أفضل منهم .

وأجيب تارةً بما قال بعض الناس - كما سبق - إنّ المراد من السجود هو التواضع - لاوضع الجبهة على الأرض .

وتارةً - كما سبق إيضاً - بأنّ السجود منهم وإن كان بذلك المعنى لكنّه كان لله ، لا لآدم . وكان آدم كالقبلة للسجود .

وتارةً بأنّ السجود - وإن كان لآدم - لكن مع ذلك لايدلّ على كونه أفضل وأشرف منهم ، وذلك لأنّ الحكمة قد تقتضي ذلك كَسْراً من عُجْب الأشرف وإظهاراً لانقياده وطاعته ، فإنّ للسلطان أن يعظّم أقلّ عبيده ويأمر الأكابر بخدمته - إظهار [اً] لكونهم مطيعين له في كلّ الأمور، منقادين له في جميع الأحوال ، فلِمَ لايجوز أن يكون الأمر هيهنا كذلك ؟

وتارةً بما ذهب إليه أكثرُ المتكلّمين من نفي الداعي وسلب التعليل في فعل الله وعدم الاعتراض عليه في خَلق الكفر والضلالة في الإنسان : وتعذيبه أبد الآباد ، فيجوز عليه تقديم المفضول وترجيح المرجوح ، وعلى هذا الأصل يبنى كثير من قواعدهم ، فليكُن هذا من جملتها .

---

١) راجع تفسير الفخر الرازي : ١/٤٤٦ إلى ٤٥٠ .

أقول : فيه مامرّ مراراً .

وثانيها إنّ آدم عليه السلام كان أعلم ، والأعلم أفضل ـ وقد مرّ بيانه .

وأجيب بعدم تسليمه [ظ : تسليم] كونه أعلم منهم ، غاية الأمر إنّه كان عالِماً بتلك اللغات ، وهم ماعلِموها ، ولعلّهم كانوا عالِمين بسائر الأشياء مع إنّه لم يكن عالِماً بها .

سلّمنا إنّه كان أعلم منهم ـ ولكن لِمَ لايجوز أن يقال،إنّ طاعتهم أكثر إخلاصاً من طاعة آدم عليه السلام ، فلاجرَم كان ثوابهم أكثر .

أقول : قد مرّ إنّ القول منشأه الجهل بمعنى الثواب والمنزلة عند الله ، فإنّ جميع الخيرات والعبادات إذا لم يؤثر في تنوير القلب وإعداده لنـور المعرفة بالله وآياته وأفعاله ، فهي من تفاريع العبث وشُعَب الرفث .

وثالثهـا إن الله تعالى جعل آدم عليه السلام خليفةً في الأرض ، والمراد منه الولاية ، لقوله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [٣٨/٢٦] ومعلوم إن أعلى الناس منصباً عند الملك من كان قائماً مقامه في الولاية والتصرف وخليفة له فدلّ هذا على أنّ آدم أشرف الخلائق .

وهذا متأكّد بقوله : وسخّر لكم مافي البر والبحر [1] ، ثم اكّد هذا التعميم بقوله : ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَافِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [٢/٢٩] فبلغ آدم في منصب الخلافة في[2] أعلى الدرجات .

فالدنيا خلقت متعـةً لبقائه ، والآخرة مملكة لجزائه ، وصارت الشياطين

---

١) الظاهر إنه يشير إلى قوله تعالى « اللهُ الذي سخّر لكُم البَحر . . . »[٤٥/١٢] و : « وسخّرلكُم مَافِي الارْض» [٢٢/٦٥] .

٢) تفسير الفخر الرازي : إلى أعلى الدرجات .

[ملعونين] [١] بسبب التكبّر عليه ، والجنّ رعيته ، والملائكة في طاعته وسجوده والتواضع له ، ثمّ صار بعضهم حافظين له ولذريّته ، وبعضهم منزّلين لرزقه وبعضهم مستغفرين لزلّاته . ثمّ إنّه تعالى يقول مع هذه المناصب الرفيعة ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [٥٠/٣٥] . فاذاً لاغاية لهذا الكمال والجلال .

واجيب عنه بأنّ آدم إنّما جعل خليفة في الأرض ، فهذا يقتضي أن يكون أشرف مافي الأرض من الحيوان والنبات والجماد .

فإن قيل : فلِمَ لم يجعل واحداً من الملائكة خليفة فيها ؟

قلنا : لوجوه : منها إنّ البشر لايطيقون رؤية الملائكة . ومنها إنّ الجنس إلى الجنس أميل . ومنها إنّ الملائكة في نهاية الطهارة والعصمة والبراءة عن النقائص ، وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [٦/٩] .

ورابعها: قوله[تعالى] ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [٣/٣٣] والعالَم عبارةٌ عن كلّ ماسواه كما تقدّم من أنه مشتقّ من العلَم او العلامة ، فمعنى الآية : « إن الله اصطفاهم على كل المخلوقات » والملائكة من المخلوقات : فكانوا أفضل من الملائكة .

واعترض بأنّه منقوض بقوله : ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [٢/١٢٢] فإنّه يستلزم أن يكونوا أفضل من محمّد ﷺ .

وأجيب عنه بأنّ هذا الخطاب كان قبل وجوده ﷺ وجبريل كان موجوداً حينئذ ، فيلزم أن يكون قد اصطفاهم الله على الملائكة ــ دون محمّد ﷺ .

وأيضاً ، فهبْ إن تلك الآية قد دخلها التخصيص لقيام الدلالة ، وأما هيهنا

---

١) الاضافة من تفسير الفخر الرازي .

فلادليل يوجب ترك الظاهر ، فوجب إمضاؤها على ظاهرها في العموم .

وخامسها قوله [تعالى] : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين ﴾ [٢١/١٠٧] والملائكة من جملة العالَمين ، فكان ﷺ رحمةً لهم فوجب أن يكون أفضل منهم .

وأجيب بأنّ كون محمد ﷺ رحمةً لهم لايلزم منه أن يكون أفضل منهم ، كما في قوله : ﴿ فَٱنْظُرْ إِلىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ﴾ [٣٠/٥٠] ولايمتنع أن يكون رحمةً لهم من وجهٍ، وهم يكونون رحمة له من وجه .

وسادسها إن عبادة البشر أشقّ ، فوجب أن يكون أفضل .

بيان كون عبادتهم أشقّ لوجوه : منها كثرة الموانع لهم إلى الطاعات وكثرة الدواعي والأشواق فيهم إلى المعاصي ، والفعل مع المعارض القويّ أشد منه بدون المعارض ، والمبتلى بكثرة الدواعي والشهوات يكون الطاعة عليه أشقّ .

ومنها إن شبهاتهم أكثر ، والحجب بينهم وبين المعبود أكثر ، فاحتاجوا إلى الاستدلال والاجتهاد .

ومنها إنّ الشيطان مسلّط على البشر بالوسوسة ، جارٍ في عروقهم مَجرى الدم ولا سبيل له إلى وسوسة الملائكة ، وذلك منشأ تفاوت عظيم في المشقّة ، وإذا ثبت ذلك فكانوا أكثر ثواباً من الملائكة ، لقوله ﷺ : «أفضلُ العباداتِ أحمزها»[1].

وأجيب بما مرّ من أنّ ملاك الأمر في باب العبادة ومعظمه الإخلاص ، دون المشقّة ، لمانرى من كثرة المشقّة في عبادات جهّال المتصوّفة ، ونسمع من رياضات كفَرة الهند وبعض الملاحدة مع أنا نعلم يقيناً إن منزلتهم خسيسة دنيّة .

وسابعها: إن الله تعالي خلَق الملائكة عقولاً وخلق البهائم شهوات بلا عقول وخلق الآدمي وجمع فيه الأمرين ، فصار الآدمي بسبب العقل فوق البهيمة بدرجة لاحدّ لها ، فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة ، ثمّ وجدنا الآدمي إذا غلب

---

١) راجع ص ٣٨ .

هواه عقله - حتى صار يعمل بهواه دون عقله - فإنّه يصير دون البهائم ، فيجب أن يقال : إنّه إذا غلب عقلُه هواه حتى صار لايعمل شيئاً إلّا بمتقضى عقله وبهداه - لابمتقضى نفسه وهواه - أن يكون فوق الملائكة ، اعتباراً لأحد الطرفين بالآخر .

وأجيب بأنّ هذا جمعٌ بين الطرفين من غير جامع .

وثامنها : إن الملائكة حفَظة ، وبني آدم محفوظون . والمحفوظ أعزّ وأشرف من الحافظ فيجب أن يكون بنو آدم أشرف من الملائكة .

والجواب بالمنع من كلّية هذه الدعوى ، فإنّ الأمير الكبير قد يكون موكّلا على المتهمين من الجُند .

وتاسعها : ماروي إن جبريل عليه السلام أخذ بركاب محمد صلى الله عليه وآله حتى أركبه البُراق ليلة المعراج ، ولما وصل إلى بعض المقامات تخلّف عنه جبرئيل وقال : « لودنوت أنملة لاحترقت » .

وأجيب بأنه خبرٌ واحد .

وعاشرها : رُوي إنه صلى الله عليه وآله قال : « إنّ لي وزيرين في السماء » - وأشار إلى جبريل وميكائيل .

وأجيب بالمنع عن ثبوته وصحته .

فصلٌ (١)

في وجوهٍ عقلية ذكرتْها واعتمدتْ عليها الفلاسفةُ المتأخّرون المتفقون على أن الأرواح السماوية المسمّاة بالملائكة أفضل من الأرواح الناطقة البشرية(١)

وأكثر تلك الوجوه مما مرّ ذكرها في وجوه الصابئة ، ونحن ذاكروها مع

١) راجع تفسير الفخر الرازي : ١ / ٤٤٢ الى ٤٤٦ .

غيرها ، والجوابات المذكورة عنها ، زيادة في الاستيضاح وتتميماً للاستبصار بها وبما فيها .

فالأوّل : إنّ الملائكة بسيطة الذوات مبرّأة عن الشرور والآفات ، والبشر مركّب عن النفس والبدن والنفس مركّبة عن القُوى الكثيرة ، والبدن مركّب من الأجزاء والأعضاء والمركّب معلول للبسيط ، وأسباب العدم له أكثر ، ولذلك كانت الفردانيّة من صفات الربوبيّة .

وعورِض بأنّ المستجمع للروحاني والجسمانيّ [أفضل] .

والثاني : إنّ الجواهر الروحانيّة مبرّأة عن الشهوة والغضب اللذين هما منبع السفاد [ظ : الفساد] وسفك الدماء . والخالي عن الشر مطلقاً أو البعيد عنه أفضل من المبتلى به .

الثالث : إنّها بريئة عن طبيعة القوّة والاستعداد، لأنّ كلّما كان ممكناً لها بحسب أنواعها المنحصرة في اشخاصها فقد خرج إلى الفعل والأنبياء ليسوا كذلك ، ولهذا قال ﷺ : «إنّي لأستغفر الله في اليوم والليلة مأة مرّة»(١). ولاخفاء أن ما بالفعل التامّ الذي خرجت كمالاتها من القوّة إلى الفعل أشرف ممّا بالقوّة .

الرابع : إنّ الروحانيّات أبديّة الوجود، مبرّأة عن التغيّر والفناء ، والنفوس البشريّة ليست كذلك .

الخامس: إنّها نورانيّة ، علويّة ، لطيفة . والنفوس العنصرية ظلمانيّة ، سِفليّة كثيفة . فأين أحدهما من الآخر .

السادس : الأرواح السماويّة تفضل الأرضيّة بقوى العلم والعمل . أمّا العِلْم : فبالإتّفاق على أنّ الأرواح السماويّة يحيطون بالمَغيبات ، ولأنّ علومَهم فطريةٌ كليةٌ دائمةٌ تامّة ، وعلوم البشر بالضدّ من ذلك . وأمّا العمل : فلقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ

---

١) راجع بحار الانوار : ٤٤/٢٧٦ . والجامع الصغير : ١/١٠٤ .

ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [٢١/ ٢٠]٠

السابع : إن الروحانيّات لها قوّة على تقليب الأجسام ، وقواهـم ليست من القوى المزاجيّة حتى يعرضها الكلال واللغوب ، وإنّك ترى الخاصّة اللطيفة من النبات في بدؤ نموّها تفتق الحجر ، وتشقّ الصخرةَ الصمّاء ، وما ذلك إلاّ لقوّة نباتيّة فاضت عليها من الجواهر العلويّة ، فما ظنّكَ بتلك الجواهر أنفسها .

والأرواح السفليّة ليست كذلك ، وما يحكى من قوّة الشياطين على الأمور الصعاب فممنوعٌ . وإن سلـّم ـ فالأرواح العلويّة أقدر، مع إنهم تصرفون قواها إلى مناظِم العالَم السفلي ، لافيما هو شرٌ لهم .

الثامن : إن الملائكة لهم اختيارات فائضةٌ عن أنوارجلال الله متوجهةٌ إلى الخيرات ، واختيارات البشر متردّدة بين جهتي العِلو والسِفل ، والخير والشرّ ، وإنّما يتوجّه بإعانة الملَك ـ على ماورَد في الأخبار من أن لكل إنسان ملَكاً يسددّه ويَهديه .

التاسع : إنّ الأفلاك كالأبدان والكواكب كالقلوب ، والملائكة كالأرواح ، فنسبةُ الأرواح إلى الأرواح كنسبة الأبدان إلى الأبدان ، وكما إن اختلافات أحوال الأفلاك مباديء لحصول الإختلافات في هذا العالَم ، فيجب أن يكون أرواح العالَم العِلوي مستوليةً على أرواح العالَم السِفلي ، بل يكون عللاً ومبادي لها ، فهذه هي الآثار ، وهناك المنابع والمعادن ، فكيف يليق بالعقل ادّعاءَ المساوات ـ فضلاً عن الزيادة ؟ !

العاشر : الروحانيّات الفلكيّـة مبادي لروحانيات هذا العالَم ومعادنها ، منها نزلت ، فتوسّخت بأوضار الجسمانيّات ، ثم تطهّرت بالأخلاق الزكيّة ، وصعدت إلى عالَمها ، ومصدر الشيء ومصعده أشرف . منه المبدء ، وإليه المنتهى .

الحادي عشر : أليست الأنبياء لاينطقون إلاّ عن الوحي ؟ أليست إنّ الملائكة

يعينونهم في المضائق ويهدونهم إلى المصالح ـ كما في قصّة لوط ، وكيوم بدْر وحُنين ، وكما في قصّة نوح من نجر السفينة ـ فمن أين لكم تفضيل الأنبياء ، مع افتقارهم إلى الملائكة في كلّ الأمور ؟

الثاني عشر : القسمة العقليّة ـ بأن الأحياء إمّا خيّرةٌ محضة ، وهم الملائكة. أو شرّيرةٌ محضة ، وهم الشياطين . او خيّرةٌ من وجهٍ شرّيرةٌ من وجه ، وهم البشر ـ يحكم بأفضليّة الملَك .

وكذا التقسيم ـ بالناطق المائت ، وهوالإنسان . والناطق غير المائتِ ، وهو الملَك . والمائتِ غير الناطق ، وهي البهائم ـ يُرشد إلى أنّ الإنسان متوسّطة الرتبة بين الكمال والنقصان . فالقول بأنّه أفضل قلْبُ القسمة العقليّة ونزاعٌ في ترتيب الوجود .

* * *

وأما الجواب عن هذه الوجوه من جانب القائلين بتفضيل الأنبياء صلوات الله عليهم على الملائكة عليهم السلام :

فعورِض الأوّل بأنّ المستجمع للروحاني والجسماني ينبغي أن يكون أفضل مما له طرف الروحاني فقط . ولهذا جُعل أبو البشَر مسجوداً للملائكة .

ورُدّ الثاني بأنّ الخدمةَ مع كثرة العلائق أدلّ على الإخلاص .

وأيضاً من البيّن أنّ درجتَهم حينما قالوا : ﴿ لاْعِلْمَ لَنا اِلاّ ماعَلَّمْتَنا ﴾ أعلى منها حين قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ وما ذلك إلاّ بسبب الانكسار الحاصل من الزلّة ، وهذا في البشر أكثر . ولهذا قال صلى الله عليه وآله حاكياً عن ربّه : « أنينُ المذنِبين أحبُّ إليَّ مِن زَجل المسبّحين » .

ورُدّ الثالث بأنّ بعض الأمور فيها لعلّها بالقوّة ، ولهذا قيل : إنّ تحريكاتها للأفلاك لأجل استخراج التعقّلات من القوّة إلى الفعل ، كالتحريكات العارضة

لأرواحنا الحاملة لقوى الفكر والتخيّل .

أقول : هذا المنع لايجري في الملائكة المقرّبين ، المسمّاة عندهم بالعقول المجرّدة ، وإنّما يجري في النفوس الفلكيّة .

والرابع بأنّه لاقديم في الوجود إلاّ الله .

ولئن سُلّم - إنّها وإن كانت ممكنة الوجود فهي واجبةُ الوجود بمباديها - عورض بما عليه كثير من المحقّقين،إنّ النفوس البشريّة أيضاً أزليّة بمباديها ، وكانت كأظلال تحت العرش يسبّحون بحمد ربّهم ، إلاّ أن المبدء الأوّل أمرَها بالنزول إلى عالَم الأجساد وشبكات الموادّ ، فلمّا تعلّقت بها استحكم إلفها ، فبعث من تلك الظلال أشرفها وأكملها إلى هذا العالَم ليحتالَ في تخليص تلك الأرواح عن هذه الشبكات ، وهذا هو المراد من « باب الحمامة المطوّقة » من كتاب كليلة ودمنة .

والخامس بأن الشرف ليس بالمادّة ، وإنّما هو بالقرب من ربّ العالَميـن والانقياد له .

والسادس بأنّ المواظِب على تناول الأغذية اللطيفة لايلتذّ بها كما يلتذّ المبتلى بالجوع ، فلايكون لذّة الملائكة بالعلْم والعمَل كلذّة البشر،لعروض الفترات لهم في أكثر الأوقات بسبب العلائق الجسمانيّة ، والحجُب الظلمانيّة ، فهذه المزيّة في اللذّة مما يختصّ به [ظ : بها] البشر ، ولذلك قالَت الأطبّاء : إن الحرارة في حمّى الدقّ أشد منها في حمّى الغبّ[1]، لكن الحرارة في الدقّ لما دامت واستقرّت بطل الشعور بها ، فهذه اللذّة لعلّها ليست للملائكة لأجل الاستمرار ، ولا لغير الإنسان لعدم الاستعداد ، فكان الإنسان لها بالمرصاد .

وأجيب عن السابع بأنّه لامانع من أن يتّفق نفسٌ ناطقة مستولية على الأجرام

١) حمّى الدقّ مايقول العامة لها : السخونة الرفيعة . وحمّى الغب التي تنوب يوماً بعد يوم .(منه مدّ ظله).

العنصريّة بالتقليب والتصريف .

وعن الثامن بما يحتمل أن يقال : فيكون إذن أعمالهم أشقّ ، فيكون أجرُهم وجزاؤهم أعظم .

وعن التاسع بأنّ لامؤثّر في الوجود إلاّ الله عندنا .

أقول : القائلون بأن لامؤثّر إلاّ الله ، إمّا الأشاعرة النافين للعلّة والمعلول فلامعنى لهم ومعهم الخوض في المعقولات أصلاً ، وإمّا جماعة من المحقّقين ، القائلين بترتيب الوجود فهذا الجواب لايضرّ، إذ المتقدّم في باب الاستفاضة للوجود خير من المتأخّر فيه .

وعن العاشر بأنّ هذا مبنيّ على عدم حشر الأجساد وبعثها في المعاد ، ودون ذلك خرطُ القتاد .

وعن الحادي عشر بأنّ أوّل الفِكر آخر العمل ، ولا يلزم من كون الشيء واسطة أفضليّته .

وعن الثاني عشر بأنّه كلام إقناعي ، وبما اعتمدوا عليه مراراً من أنّ الكلام في أكثريّة الثواب .

فهذا تمام ماوجدناه من كلام الفريقين في هذا المقام ، ولنُشر إلى طُرف مما هدانا إليه بفضله ربُّنا المفضل المنعام .

فصلٌ

في تحقيق الحقّ في كيفيّة المفاضلة بين الملَك والبَشر

وبيانه متوقّف على ذكر أُصول :

الأوّل : إنّ أُصول الموجودات هي الجواهر ، دون الأعراض . وأصول الجواهر هي المجرّدات التي هي من عالَم الأمر ، دون الماديّات والجسمانيّات

التي هي من عالَم الخَلق . وأُصول المجرّدات هي العقول المسمّاة بالأرواح الكلّيّة ، دون النفوس، سواء كانت سماويّة أو أرضيّة . وأُصول الأرواح الروح الكلّي الذي لا واسطة بينه وبين الحق .

فهذه أُصول الموجودات ، ولا موجود خارج عن هذه الأجناس وما يتفرّع عليها .

الأصل الثاني : إنّ كلّ ماهو أقرب في سلسلة العليّة والمعلوليّة إلى واجب الوجود فهو أشرف وأكرم ، لأن فيض الوجود الفائض منه تعالى على كلّ موجود يصِلُ إليه أوّلاً ، ثمّ يمرّ عنه إلى ماهو أبعد منه ، فلاتصغ إلى قول مَن يقول : « إنّ الخسيسَ أكثرُ ثواباً من الشريف » بل إلى قول مَن يقول : « الخسيسُ يمكن أن يُنتقل جوهره من الخسّة إلى أن يصيرَ أشرفَ من الشريف » .

الأصل الثالث : إن الإنسان وإن كان بحسب صورته البشريّة نوعاً واحداً من جملة أنواع الحيوانات متفق الأشخاص في تمام حقيقتها النوعيّة ، إلاّ إنّه بحسب قوّته النفسانيّة المصوِّرة بالصورة الباطنيّة الأخرويّة قابلٌ لأن يصير أنواعاً كثيرة لحقائق متخالفة ، بعضها من جنس الملَك ، وبعضها من جنس الشيطان ، وبعضها من جنس السبُع ، وبعضها من جنس البهيمة ، وبعضها مما هو أسفل من البهيمة .

وبالجملة ـ مامن نوع من أنواع الموجودات ـ من أعلاها إلى أدناها ـ إلاّ ويمكن أن ينقلب إليه بعضُ الأشخاص الإنسانيّة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [٩٨/٦-٧] .

الأصل الرابع : إن الموجودات كما هي مترتّبة في سلسلة النزول الايجادي الصدوري من الأعلى فالأعلى ، إلى الأدنى فالأدنى ـ وهي المادّة الجسمانيّة ـ كذلك مترتّبة في سلسلة الصعود الإعدادي من الأدنى فالأدنى، إلى الأعلى فالأعلى .

ففي سلسلة الابداع والإفاضة كلّ ماكان أقدم في الوجود فهو أشرف وأفضل وفي سلسلة التكوين والإعداد للغايات كلّ ماهو آخر فهو أشرف ، لأنّ الأكوان الإبداعيّة لكمال وجودها متفضّلة راشحة بالخير الدائم على مادونها ، والأكوان الحادثة متوجّهةٌ في الاستفاضة للخير عمّا فوقها ، سالكةٌ في طلب التمام والكمال إلى غاياتها .

وقد ثبت أنّ للاشياء الطبيعيّة غايات ، ولا يخلو موجود ناقص إلاّ وقد أودع الله فيه قوّة طبيعيّة محرّكة ، أو شوقاً جبلياً يسلك به إلى طلب الكمال ، وتوصِله إلى الغاية والتمام . ولهذا جزَم الحكماءُ الإلهيّون بسَريان نور العشق والشوق إليه تعالى في جميع الموجودات ، مامن موجود إلاّ وهو عاشقٌ له ، أو مشتاق ساكن إليه أو سالك ، والله الباقي وكل شيء هالك .

واعلم إنّ هذه القشور الكثيفة وإن كانت خسيسة في الغاية شبيهة بالعدم لكن إعادة ترتيب الحدوث من هذه الحسّيات الزائلة إلى العقليّات الدائمة ليس بأصعب على مَن له الخَلق والأمر من ابتدائه بالسياق عن العقليّات الدائمة إلى الحسّيات الداثرة ، وليس القشر المتكاثف ـ وإن تناهى في الإظلام والبرد ـ والكثافة بممتنع عن قبول الأثر عن الجوهر اللطيف .

بل الأرض ـ وإن تمكّنت بالاستفالة والاستقلال ، واشتدّت قوّتها بمبالغ الإنزال ، فإنّها بتأثير قوّة الشمس فيها واشراقها عليها تستجلب اللطافة ، وتصير مادّة للغذاءات والأقوات ، منشأ لتوليد النبات .

ولو كان القشر المتكاثف ممتنعاً عوده إلى اللطافة ، أو مصيّرة مادّة لتوليد اللباب فيه أو منه ، لماكان في جوهره وطبيعته قوّة قابلة منفعلة ، بل لم يكن القشور من الحبوب المزروعة ليصير قوّتاً للحيوانات ، ولم يكن الثفل الكدر من الأشياء المأكولة ليصير مادة النبات .

الأصل الخامس : إن الإنسان يختصّ من بين الموجودات بأنّ له أن يتحرّك وينقلب من أدنى الموجودات إلى أعلاها ، ويسلك من بعضها إلى بعض ، ويتبدّل من طورٍ إلى طور ، وهو في الحركة إلى الكمال أبعد مسافة ، وفي السلوك إلى المعاد والمرجع أعظم قوساً للرجوع ، وإنّ ابتداء حركته أدنى وأخسّ من ابتداء حركة غيره ، وانتهاء رجوعه أعلى وأرفع من انتهاء رجوع الكلّ .

فله أن يتصوّر أوّلاً بصورة خسيسة أدنىٰ من كلّ خسيس، ثمّ يأخذ في الاستحالة والانابة والرجوع ، ويتصوّر بصورة شريفة متعاقبة ، حتّى يصير أشرف الشرائف ، وأحسَن الحسنات ، وأفضَل الممكنات ، وسبب ذلك ما نذكره الآن ـ وهو هذا :

الأصل السادس : إعلم إنّ منشأ انتقال الموجود من وجود أدنىٰ إلى وجود أعلى انتقال بحسب انتقال الطباع والغريزة إنّما هو ضعْف الصورة ونقص المادّة وعناية الفاعل . وقد مرّ إنّ جميع الموجودات كلّها طالبةٌ للكمال ، والذي يسكّنها عن طلب كمالٍ أعلى ويوقفها عنه تأكّد مالها من الكمال بالفعل ، فإنّ غلبة مابالفعل مما يبطل الاستعداد لاجل الذي هو بالقوة .

أو لاترى أن أجرام كواكب الأفلاك لتماميّة صورتها لايصير مادةّ لصورة أصلاً ، ولا عنصراً لمركّب سماويّ أو أرضيّ ، ولا أجساد السبع الشداد ممّا يقبل الانصداع ، والانفطار ، ولا الانشقاق والافتراق إلاّ بعد انقضاء الدنيا وبوار العالَم الأدنى ، وحشر الخلائق ، وانتقالها إلى النشأة الآخرة يوم طيّ السموات ، وانشقاق القمر، وانطماس نور الشمس وتكويرها ونثرالكواكب وإظلامها ـ وذلك يومٌ آخرَ ليس من أيام الدنيا .

ولا ـ أيضاً ـ يصير واحدٌ منها موضوعاً لأعراض مختلفة متضادّة ، ولا لصفات متبدّلة مستحيلة ، إلا ماهو أضعف الأعراض من باب الوضع النسبيّ ، فلها قوّة قبول أضعف الأعراض المادّية ، لكون صورتها أقوى الصور الجرميّة .

وإنّ أجرام العناصر لقصور صورتها الطبيعيّة تصير مادّة لصور شي أكمل من صورتها وموضوعة لأعراض قارّة وكيفيات تشتدّ وتضعف فيحصل من موادّها صور معدنيّة ونباتيّة وحيوانيّة .

ونوع الإنسان من جملة أنواع الحيوانات وإن كان متميّزاً عن الكائنات بصورة حيوانيّة شريفة . إلّا إنّها أضعف الصور الحيوانيّة ، وأفراد البشر تكون ضعيفة الحيوانيّة في باب الحسّ والحركة ، لايمكنها الاكتفاء في الملابس بإهاب طبيعيّ يحفظه عن الحرّ والبرد ، ولا في باب إصلاح المطاعِم وإنضاجها بمطبَخ طبيعيّ كالمعدة والكبد بل يحتاج في كلّ ذلك إلى معاونٍ خارجيّ ، وهذا لِضعف قواه الحيوانيّة ، كما قال تعالى : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [٢٨/٤] .

وهذا الضعف هو منشأ الانتقال والارتحال من حالِه الأدني إلى حالٍ أعلى ، وبهذا يستعدّ لأن ينتقل من مقام الحيوانية الحسّية إلى مقام الملكيّة العقليّة وأنت لو تأمّلت في أحوال الموجوادات لوَجدت الجميعَ إمّا واقفةً في مقاماتها التي لها ، أو بطيئة في توجّهها إلى نحو الغاية المطلوبة ، والسالك السريع الحركة نحوها منحصر في بعض أفراد الناس .

أمّا الملائكة المقرّبون ، فلاحاجة لها إلى الاستكمال والحركة نحو الكمال ، لأنّهم دائمة القرب والوصول إلى معبودهم الأعلى ـ جلّ ذكره ـ .

وأمّا الملائكة السماويّة فلكلّ منهم مقامٌ في العبوديّة الدائمة ، لاباعثَ لهم في الخروجِ عمّا هم عليه ، لدوام إشراقاتهم المتوالية ، وقوّة حالاتهم ووفور ابتهاجاتهم ولذّاتهم ، كأحوال أهل الجنة في طبقاتهم ومنازلهم ومقاماتهم .

وأمّا الشياطين فلقوّة ناريّتهم ورسوخ أنانيّتهم وحبّ رياستهم لم ينقادوا للعبوديّة والانكسار ، ولم يتغيّروا عما فطروا عليه من الاستكبار والافتخار .

ويقرب من حالهم أحوال الجنّ ، وإن كان بعضٌ منهم أخياراً مسلمين ، إلّا

أنّهم كلّهم مخلوقون من النار ، والنار أقوى العناصر وأبعدها عن قبول التأثير .

وأما الجمادات التي ليست واقعة في حدود المادّة الإنسانية ، فهي إمّا قويّة الجماديّة كالأحجار واليواقيت فلصلابتها لاتنقلب إلى غيرها . وإمّا أن تكون ملائم الجوهر لصورة أخرى، لكنها مما قبلت صورة صلبة فوقفت عندها ، فهي صعب الانقلاب إلى غيرها وكذا الحكم في سائر النباتات والحيوانات .

وأمّاالإنسان الذي خُلق لبلوغ النهاية فهي أبداً في الحركة والرجوع والإنابة والسلوك ، لكونه مابين صرافة القوّة ومحوضة الفعلية .

والعجب أنّ الذين فضّلوا الملائكةَ على الإنسان - كالصابئة وغيرهم - جعلوا اشتمالَ الإنسان على القوّة والنقصان منشأ انحطاط درجته عن درجة الملائكة ، وهذه الصفة بعينها تصير منشأ لأن يتفضل عليهم ويتجاوز عن مراتبهم .

الأصل السابع : إنّ كلّ مايتعلق بالبدن - سواء كانت صورةً أو نفساً حيوانيّة أو إنسانيّة او فلكية - فهي مصحوبةٌ بالقوّة والاستعداد ، محتاجةٌ إلى جوهر عاقل يكمّلها ويُخرجها من القوّة إلى الفعل ، وكمالُها عبارةٌ عن صيرورتها عقلاً وعاقلاً بالفعل ، ومعقولاً بالفعل ، وكلُّ ماصارت عقلاً بالفعل فيصير كلّ الموجودات .

لأنّ كلّ موجود من شأنه أن يَعقِل فهي إما بتغيُّر من جانب المعقول كالصور المادية المعقولة بالقوّة ، المحتاجة في أن يصير معقولةً بالفعل إلى مغيّرٍ يغيّرها ومجرِّدٍ يجرّدها وينتزعها من المادّة . وإمّا بتغيُّرٍ من جانب العاقل إذا صار عاقلاً بالقوّة ، فيحتاج إلى حركات فكريّة يسافر من بعض الصور الخياليّة إلى بعض ، حتى ينتهي إلى المعقولات الصريحة ، كالعقول القادسة وما فوقها .

فكلّ ماهو كامل بالفعل فلزمه أن لايخلو عنه شيء من المعقولات ، بل يجب أن يكون عقلاً بسيطاً هو صورة الكل في وحدة . ومثل هذا الموجود يجب أن

يكون مكمّلا للنفوس .

ويجب أيضاً أن لايكون المتعلّق بالبدن سبباً قريباً لتكميل النفوس المستعدة إلاّ على سبيل الإعداد والتعليم البشري ، دون الإفاضة والتكميل العقلي ، كالمعلّم من البشر إذا حاوَل التعليم يعدّ نفسَ المتعلّم لأن يَقبل مايُلهمه المعلّم العقليّ الروحانيّ الذي هو عقلٌ بالفعل ، ويفيض عليه من عالَم الغيب كماله الحقيقي .

ولو كان المتعلّق بالبدن مادام كذلك سبباً مفيضاً على النفوس صوَراً عقليّة لكان متساوي النسبة إلى الكلّ ، وكيف يكون مَن تعلّق ببدنٍ خاص وتعمل بتوسّط آلاته وقواه ، متساوي النسبة إلى جميعِ الخلائق أجمعين - حاضرهم وغائبهم ، أوّلهم وآخرهم .

نعَم - انتهاء النفوس الإنسانيّة يكون لامحالة إلى نفسٍ شريفة هي أكملُها وأقبلُها للفيض العِلوي العقليّ، ثمّ الإلهي ؛ بحيث يكون - وهي بعدُ في عالَم البدنِ - صارت متجاوزةً بحسب قوّة انفعاله عن المبادي ، بل عن البادي عن حدود النفوس إلى حدود العقول ، بل إلى الطبقة العالية منهم - لابما هي نفسٌ ، ولا حين ماهي في هذه الحيوة الدنيا - بل من حيث المقام العقلي الذي ستنقلب إليه بعد الخروج عن زيارة هذه المقابِر الحسيّة .

وبالجملة - قد يكون من النفوس الإنسانيّة ماقد انقلبت باطنها إلى رتبة العقول صارت عقولاً بالفعل ، بمعنى أنها متى خرجَت من قالِب هذا الأدنى وصلَت إلى مقامها الأعلى .

ومن هذه العقول الإنسانية ماهو أفضل الأفاضل ، ومقامه أعلى المقامات العقليّة وقوّته القدسية أشرف القوى القدسيّة ، يكاد زيت قوّته القدسية يضيء بنور ربّها ولو لم تمسَسه نارُ العقل الفعّال ، فلما مسّها صار نوراً على نورٍ - يهدي الله لنوره مَن يشاء - كما قال جلّ اسمه : ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [٣٣/٤٥-٤٦] .

الأصل الثامن : إن الموجودات الممكنة الصادرة عن الحقّ لابدّ وأن يقع منها سلسلتان : سلسلةُ البدوِ والصدورِ ، وسلسلةُ العودِ والرجوعِ . ولابدّ أن تكونا متكافئتان عكساً .

أما سلسلةُ البدو فممّا لاشبهة في تحقّقها وحصولها عن المبدء على سُنّةِ الأمر والابداع ، لعدم الباعث على الإمساك والتعطيل ، واستحالة تحقّق المضادّ المدافع للجود ، المانعِ عن الخير والإفاضة ، فيصدر منه الأشرف فالأشرف ، فالترتيب المعنوي فيها يقتضي أن يكون كلّ ماهو أقرب إلى عالَم الصور والقشور والأجسام فهو أبعد من الحقيقة الأحدية والهُوية الصمَديّة ، لأنّ تلك الحقيقة حقيقة الحقائق ومعنى المعاني كلها .

فأوّل ماصدر منه ، أوتجلّى له ، أو ظهر فيه ـ على اختلاف الأعتبارات والاصطلاحات ـ هي العين الواحدة المسمّى عند بعضهم بالعقل الأوّل،المعبّر عنه بالحقيقة المحمديّة ، والإسم الأعظم ، والعقل الكلّي ، وعالَم العقول .

ثمّ النفس الكلّية ، وعالَم النفوس المجرّدة المدركة للحقائق الكلّية بالذات ـ أي بنور العقل الكلّي ـ وللجزئيات بالآلات ـ أي بأنوار الحواسّ . ثمّ النفس الخياليّة المجرّدة عن الأجسام لاعن الأجرام . ثمّ النفس المنطبعة المدركة للجزئيّات بذاتِها المثاليّة . ثمّ قواها المنطبعة . ثمّ النفوس النباتيّة من حيث حقائقها ونوعيّاتها الطبيعيّة ، ثمّ الجواهر المعدنيّة ، من تلك الحيثيّة . ثمّ الصوّرالعنصرية . ثمّ الهيولى التي هي أخسّ الجواهر وأدونها ، ومنها يتصاعد الوجود بعد تنزّلها الأقصى .

وأمّا سلسةُالعود والرجوع إلىالكمال بعدالهبوط إلىأنزلالمنازل والأحوال فوجودهـا أيضاً محقّق لاشبهة [فيه] بناء على ماذكرنا مراراً من أن التوجّه إلى الغايات في جبلّة كل ناقص . وإنّ كلحادث منالحوادث كما لابدّ فيه من فاعل ومادة

وصورة ، كذا لابدّ لصورته من غايةٍ ، والكلام في غايته كالكلام في نفسه ، فلغايته غايةٌ أخرى .

ولاتتسلسل الغايات الذاتية إلى غير النهاية ، بل تنتهي إلى غايةٍ لاغاية لها ، ويجوز في الغايات العرَضية التعاقب الغير المنقطع إلى غاية أخيرةٍ عند جمهور الفلاسفة ، كمايجوز ذلك عندهم في السوابق العرَضية المسمّاة بالمعدّات .

ولكن كلامنا في الغاية الذاتيّة التي وجد الشيء لأجله ، وهي التي تقدمّت على المعلول في التصوّر العلمي ، وتأخّرت عنه في الوجود العيني عندما يقع المعلول تحت الحركة والكون ، أولم يكن التصوّر العلمي له عين وجوده العيني وأمّا فيما ارتفع وجودُه عن عالَم الحركات والانفعالات فالغاية له سابقة عليه علماً وعيناً .

فالموجودات الصوريّة ممّا يجب أن يترتّب ترتّباً ذاتيّاً ، رجوعيّاً غائيّاً على عكس الترتّب الذاتيّ الابتدائيّ الفاعليّ من الأدنىٰ إلى الأعلىٰ ، فالوجودُ [الذي] يتصاعد في الشرف يظهر أولا في المعدن ، ثم في الحيوان ، ثم في الإنسان .

والصورةالإنسانيّة آخرالمعاني الجسمانيّة وأوّل المعاني الروحانيّة ، كالبرزخ الجامع بين العالَمين . وهي باب الله المؤتى منه إلى عالَم القدس والرحمة . وهي آخرباب لسور حاجز بين النار والجنة ، وبعد مرتبة الإنسان البشري مراتب كثيرة في الصعود حتى يبلغ الوجود إلى النهاية .

واعلم [إن] النفوس الإنسانيّة كما إنّها تكون متفاوته في النهاية ، كذلك كانت متفاوته في البداية ، واختلافها من اختلاف معادنها الأصلية « الناسُ معادنُ كمعادنِ الذهبِ والفضّة » كماأخبر عنه سيّد الأنبياء عليه وآله وعليهم السلام والصلوة ، [1] وقد خلق الله في كل نفس معنى مخصوصاً ، وقوّة محرّكة مخصوصة يجرّها إلى معدنها الأصلي ، ولايقف بها دونه . قال تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً

١) المسند : ٢ / ٥٣٩ .

عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [٢١/١٠٤] وقال أيضاً : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾[٢/٦٠] وحركات الجوارح آثار تلك المعاني المحرّكة التي أودعتهـا القدرة في النفوس إتماماً للحكمة وإظهاراً لكمال الرحمة ، فالنفوس التي لاتكون بينها وبين الأوّل تعالى واسطة تنجذب إلى جنابه طبعاً كانجذاب إبرة من حديد إلى مغناطيس غير متناهي [القوّة] . وقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [٥/٥٤]كنايةٌ عن هذا الجذب والانجذاب ،كما أنّ قوله : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [٩/٦٧]كنايةٌ عن الطرد والدفع عن جناب القدس إلى جانب البعد .

وبالجملة نهاية كلّ واحد رجوعه إلى البداية ، وإلى هذا المعنى أشار العارف الربّاني صاحب منازل السائرين ، عبدالله الأنصاري: «إلهي تلطّفتَ لأوليائك فعرفوكَ ، ولولا تلطّفت لأعدائك لما جحدوك » .

فحكم النفوس التي لم تكن بين مصدرها وبين الأوّل تعالى واسطة أن يعرفوها ويصلوا إليها راجعين راضين مرضيّين . وأمّا النفوس التي بينها وبين الأوّل حجُب العزّة ووسائط القدرة فتحشرون إلى طبقات مختلفة المراتب في الصعود والهبوط ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[٦/١٣٢] وربما صارت بعض النفوس أبخس ممّا كانت في أوّل الأمر، فيكون مرجعها إلى المهاوي النازلة ، وليس هذا الموضع محلّ بيانه .

* * *

فاذا تمهدت هذه الأصول فنقول : قد تبيّن وانكشف إن الإنسان يمكن أن يصير في آخر مقاماته أشرف من الملائكة ، إذ كما إنّ للملائكة طبقات متفاوتة في الوجود النزولي ـ وأشرفها طبقة الأرواح المهيّمة التي هي باصطلاح الحكماء تسمّى العقول الفعّالة ، فكذلك للإنسان درجاتٌ متفاوتةٌ في الصعود إلى الله ، وأشرفها وأكملها درجة الأرواح النبويّة التي أيضاً عقول بالفعل ، وعند القيام إلى الله تعالى يكون فعّالة للعلوم العقليّة ، مكملة للنفوس ، شفعاء للخلائق إلى الله تعالى .

وكما إن أوّل الأرواح العقليّة مَن لاواسطة في الشرف بينه وبين الله ، كذلك آخر الأرواح النبويّة من لاواسطة بينه وبين الله ، كما قال ﷺ : « لي معَ اللهِ وقتٌ لايَسعني فيه ملَك مقرّبٌ ولانبيٌّ مرسَل» وهذا لاينافي كون جبرئيل اوغيره من الملائكة معلّماً له في بعض الأحوال ، لما علمت إن الإنسان ذو نشآت متفاوتة .

فجميع ماذكروه من الدلائل الدالّة على تفضيل الملائكة على البشر حقٌ وصدق ، ولاينافي كونه أشرف منهم في آخر أمره ، وحقٌّ المقام أن يقعَ المفاضلةُ بين الملَك وبين آخر مقام الإنسان ، وأن يُعتبر مع كل صنف من الملَك صنفٌ من الناس الذين يكونون بإزائهم ، ويقعون في عالَمهم .

وكما إن الملائكة أنواعٌ كثيرة ـ بعضهم ملائكة العلوم ، وبعضهم ملائكة الأعمال . وملائكة الأعمال بعضهم ملائكة الجنّة والرحمة ، وبعضهم ملائكة النار والعذاب كالزبانية ـ ولكلّ منهم منازل ومراحل كثيرة ـ فكذلك أصناف البشر بعضهم من أهل العلم والمعرفة والقرب ، وبعضهم من أهل العمل . فمنهم مطيعين ، وهم أصحاب الجنّات . ومنهم عاصين ، وهم أهل النار . والكَفَرة بازاء أهل العلم مخلّدةٌ في الجحيم .

فإذا سئل عن التفاضُل بين ملائكة الأعمال وأصحاب الأعمال من البشر فالفضل للملَك ، لأنّهم أقدر على الطاعات . وإذاسُئل عن ملائكة العلوم وأهل الولاية والنبوّة من البشر فالفضل للأنبياء والأولياء ﷺ لكونهم جمعوا بين العلم والعمل ، وكانوا متّصفين بصفات الخلائق كلّها ، متخلّقين بأخلاق الله ، عارفين بجميع الأسماء ، لأنّهم كانوا أوّلا في عالَم المحسوسات والجسمانيّات ، ثمّ في عالَم المتخيّلات والمثاليّات ثمّ في عالَم الحقائق والمعقولات .

فلهم الجامعيّة الكبرى ، فاستحقّوا للخلافةِ الإلهيّة مدّة في عالَم الأرض لقوله : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ . ثمّ في عالَم السماء « لَولَاكَ لَما خَلَقتُ ٱلأفلَاكِ » .

ثمّ في عالَم الأسماء كاسم الله الأعظم الجامع لجميع الأسماء : ﴿مَّنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [٤/٨٠] قوله ﷺ : «مَن أطاعني فقد أطاعَ اللهَ»[1] .

وبالجملة ـ الإنسان الكامل الواصل إلى مقام الملَك مساوٍ معه في الشرف والقُرب ، لكنّه أتمّ كمالاً من الملَك باعتبار جمعيّته واحتوائه على سائر المقامات ومروره عليها .

وأمّا ماذكَره العلّامة القاشاني ـ صاحب الإصطلاحات ـ من «أنّ الملائكة المقربين باعتبار ارتفاع الوسائط بينهم وبين الله يكونون أشرف من الإنسان الكامل وهو أكمل منهم باعتبار الجامعيّة» فليس ببعيد ، وذلك لماثبتَ وتحقّق عندالمعتبرين من الحكماء المتألّهين وانكشف لدى أذواق العرفاء المكاشِفين ، إنّ النفس الإنسانيّة إذا تجاوزتْ عن حدّ العقل الهيولاني وما بالملكة وما بالفِعل تتّحد بالعقل الفعّال ، وتصير هي هو بعينه في المقام الجمعيّ المسمّى عندهم بالعقل البسيط الفعّال للعقول التفصيليّة النفسانيّة .

وهذا الإتّحاد بين العقل الإنساني والعقل الفعّال في المقام الجمعيّ العقلانيّ لاينافي امتيازه عنه بالعادات النفسانيّة ، والأخلاق والملكات الحسنَة البشريّة المكتسبة بواسطة تهذيب القوى وتكميل الذوات ، وتعديل الصفات .

ثمّ العجَب إنّ العقل الفعّال ـ مع كونه فاعِلا مقدّماً مكمّلاً للنفوس محيياً لها باذن الله بالحيوة السرمديّة ـ فهو بعينه غايةٌ أخيرةٌ مترتّبة على استكمالاتها ، وثمرة حاصلةٌ عن شجرة وجودها .

وهذا أمر عجيبٌ غريبٌ ؛ لكنّه حقّ لامِريَة فيه لنا ، وهو مما ساقَنا إليه البرهان ، وأُلهمنا به بفضل الله العظيمِ المنّانِ .

فهذا ماحضَرنا الآن في هذه المسئلة ، ولها زيادة تفصيلٍ ذكرناها في تفسير آية

---

[1] في الاصل : «قوله (ص): مَن يطعِ الرسولَ فقدْ أطاعَ الله» خطأ .

النور [١] ، يظهر لمن أراد ذلك بالمراجعة إليه ـ والله أعلم .

فصلٌ

[مسئلةُ الجبر والتفويض في هذه الآية]

استدلّ القاضي بهذه الآية على بطلان قول المجبرّة من حيث إنّها دالّة أن الشيطان كان قادراً على السجدة ، ولم يسجد من غير عذرٍ من وجوه :

أحدها قوله : ﴿أَبَىٰ﴾ فإنّ مَن لم يقدر على شيء لايقال له : « أباه » . والثاني قوله : ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ ولايقال لمَن لم يقدرعلى الفعل : « انّه استكبر» بل : «لم يفعَل» .

والثالث قوله : ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ ولا يجوز إسناد الكفر إلى أحد من جهة انّه لم يفعل مالم يقدر عليه .

والرابع إنّ إباه واستكباره وكفْره خلْق من الله ، فهوبأن يكون معذوراً أولى من أن يكون مذموماً .

ثمّ قال : « مَن اعتقد مذهباً يُقيم العذر لإبليس فهو خاسر الصفقة » .

وأجاب عنه صاحب التفسير الكبير بالمعارضة بقوله [٢] : « إن كان صدور ذلك الفعل عن قصدٍ وداعيةٍ فمن أين حصَل ذلك القصد ؟ [٣] أوَقَع عن فاعلٍ هو العبدُ أيضاً ـ بقصد آخر وهكذا فيتسلسل إلى لانهاية ، ويسدّ اثبات الصانع . وإن وقَع عن فاعلٍ هو الله فيعود عليك كل ماأوردتَه علينا ـ [٣] وإن قلت : وقعَ ذلك

١) راجع تفسيرآية النور: ٣٩٣ .

٢) تفسيرالفخرالرازي ملخصاً : ١/ ٤٥٠ .

(٣ـ٣) في المصدر كذا : أوَقع لاعن فاعل ، او عن فاعل هو العبد ، اوعن فاعل هو الله ؟ فإن وقع لاعن فاعل كيف يثبت الصانع ، وإن وقع عن العبد فوقوع ذلك القصد عنه إن كان عن قصد آخر فيلزم التسلسل ، وإن كان لاعن قصد فقد وقع الفعل لاعن قصد وسنبطله ، وإن وقع عن فاعل هو الله فحينئذ يلزمك كل ماأوردتَه علينا .

الفعل عنه لاعن قصد ودواع فقد ترجّح الممكن من غير مرجّح ، وهو سدّ باب اثبات الصانع .

وأيضاً فإن كان كذلك كان وقوع ذلك الفعل إتّفاقاً ، والإتفاق لايكون في وُسعه واختياره ، فكيف يؤمر به وينهى عنه ؟ » .

ثمّ قال : « فيا أيُّها القاضي - ماالفائدة بالتمسّك بالأمر والنهي وتكثير الوجوه التي يرجع حاصلُها إلى حرف واحد وهو « وقوعُ الأمر والنهي من الله على العبد » مع إنّ مثل هذا البرهان القاطِع القالِع خلفَك يستأصل عروقَ كلامك ، ولو اجتمع الأوّلون والآخرون على هذا البرهان لَما تخلّصوا إلا بالتزام وقوع الممكن لاعن مرجّح - وحينئذٍ ينسدّ باب اثبات الصانع - أو بالتزام إنّه يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد - وهو جوابنا » .

أقــول : قد مرّ تحقيق هذا المقام مِراراً على وجهٍ لايلزم عنه شيءٌ من المفاسد ولاينافي أصلاً من الأصول والمقاصِد ، فلانعيد الكلام بذكره إذ المستقيم السلوك المهتدي بالنور يكفيه أقلّ من ذلك ، والغويّ المنحرِف المطيع للـوهم لاينتفع بالأكثر منه ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ لَهُ نُورَاً فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [٢٤/ ٤٠] .

فصلٌ

[الكفرُ والايمانُ ، والأقوالُ في كفر إبليس]

وأمّا قوله : ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِين ﴾ فمعناه : كان كافراً في الأصل متظاهراً بصورة الأعمال الحسنة ، متراثياً بالطاعات الظاهرة في مجامع أهل الملكوت ، حتّى أظهر الله ماكمن في باطنه على رؤوس الاشهاد من التمرّد والإباء والعصيان ، والجحود والإنكار لأهل الله ، والطغيان والحسد واللداد ، والتكبرّ والعناد ، كما هو دأب

متابعيه من أهل النفاق ، المغترّين بلامعِ سراب الأعمال الظاهرة في ظلمات الهوى وتيه الجهالة والردى .

* * *

واختلفت الفقهاء في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ على قولين :

أحدهما : إنّ إبليس حين اشتغاله بالعبادة كان منافقاً ، كافراً . واستدلّوا في تقرير هذا القول بدليلين مرّ ذكرهما في المفاتيح .

أحدهما ما نُقل عن شارح الأناجيل الأربعة من شُبهات إبليس السبعة ، على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود . والثاني التمسّك بقول أصحاب الموافاة ، وعليه أكثر أصحابنا الإماميّة من أن الجمع بين الكُفر والايمان في شخص واحدٍ مستحيل ـ ولو في زمانين ـ وذلك لأنّ أحدهما يوجب استحقاق الثواب الدائم والآخر يوجِب استحقاق العقاب الدائم ، والجمع بين الثـواب الدائم والعقاب [الدائم] محال ، فكذا الجمع بين الاستحقاقين معاً محالٌ ، فطريان كلّ منهما إمّا أن يكون مزيلاً للآخر او كاشفاً عن عدمه رأساً .

والأوّل باطل ـ لأنّ القول بالإحباط باطلٌ ـ فبقي الثاني وهو المطلوب فإذا فُرض كون واحدٍ مؤمناً ، ثمّ ظهرَ منه الكفْر بعد ذلك علِم أن المفروض محالٌ ، فإذا كانت الخاتمة لواحد على الكفر علِمنا أنّ الصادر منه أوّلاً لم يكن ايماناً . فهكذا الحال في إبليس .

* * *

أقول : للباحث المتكلّم أن يمنع إنّ مجرد الايمان في أيّ وقت كان يوجب استحقاق الثواب الدائم ، بل بشرط أن يكون مستمرّاً عليه إلى خاتمة العمر . وكذا له أن يمنع أنّ مجرّد الكفْر يوجب ماذكره ، إلّا أن يكون استمراريّاً أو ارتداديّاً عن فطرة .

واعلم إنّه يمكن تصحيح ماذهبتْ إليه أصحاب الموافاة بوجه مناسب لمذهب

الحكماء ، وهو إن الايمان الحقيقي ليس مجرد القول بالشهادتين ، بل عبارةٌ عن اعتقادات مخصوصة يقينيّة، وعلومٌ حقّةٌ برهانيّة او كشفيّة . وقدثبت إنّالعلْم الحاصل للنفس بالبرهان ليس يمكن الزوال عنها . فكلّ من تحلّت نفسه بالايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والرسل والشهداء فلايمكن زوال ايمانه على التحقيق .

وكذا الكفْر الحقيقي عند التحقيق ليس عبارة عن عدم التنطّق بالايمان أوعدم الاعتقاد فقط ، أوخطور صورة باطلة بالبال مقابلةٍ لأصل من الأُصول . بل عبارةٌ عن اعتقاد الشرك مع الرسوخ فيه والجُحود لقول الحقّ وقول الرسول ﷺ وأئمة الدين ﷺ . وإلّافمجرّد الجهل البسيط بأُصول الايمان لايوجب استحقاق العذاب الدائم ، بل يوجبه الجهل المركب المشفوع بهيئة نفسانيّة وملكة ظلمانيّة يتأكد في النفس سدّاً بين يدي القلب ، وغشاوة على البصيرة .

فإذا تقرّر ماذكرناه ظهرّ لقول أصحاب الموافاة وجهٌ صحيحٌ وصورة علميّة يستحسنها ذوق أرباب التحقيق .

* * *

الثاني إن ابليس كان مؤمناً ، ثمّ طرء عليه الكفر .

واعلم إنّ هذا القول مما يستكرهه العارف بآيات رحمة الله وآثار لطفه وعنايته ، ومما يسيء الظنّ بربّ العباد وحكمته وإحكام صُنعه وإتقان فعْله ، فإنّتجويز انّ أحداًكان مؤمناً مخلصاً لله في عبادته سنين متطاولة وأحقاباًكثيرة متمادية ، ثمّ تغيّرَ حالُه وانصرفَ قلبُه عمّا كان مستمرّاً عليه راسخاً فيه في تلك السنين والأحقاب المتطاولة بأدنى شيء ـ يستلزم أن لايبقى لاحد اعتمادٌ على اليقينيّات ، ولا اعتقاد بشيء من الأَصول المثمرة للسعادات ، فيكون كل أصل من الأَصول اليقينيّة ممكن الزوال ، جائز الاضمحلال ، فيكون مدار الإعتقادات على الظنّ والتخمين ، وبناء الأمور على البختِ والاتّفاق .

والحقّ ﴿ انّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٩/١٢٠] و﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [١٤/٢٧] ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [٣٣/٦٢] .

واعلم إنّ الايمان الحقيقي صورةٌ في نفس المؤمن أحكَمُ وأتقنُ من صورة الشمس والقمر ، وصورةُ سائر الأجرام الفلكيّة . بل لانسبة في الإحكام بين صورةِ المؤمن وصورةِ تلك الأجرام العظيمة الراسخة الشامخة ، لأنّ صورتها زائلةٌ منكسفةُ النور يومَ القيامة ، واهيةٌ يومئذٍ وصورةُ المؤمن قائمةٌ عند ربّه مشرقة ضاحكةٌ مستبشرةٌ أبد الآبدين ودهر الداهرين .

ثمّ القائلون بهذا القول اختلفوا في تفسير قوله : ﴿وَكَانَ﴾ فمنهم من قال : وكان في علم الله من الكافرين أي كان الله عالماً في الأزل إنّه سيكفر . فصيغة «كان» باعتبار العلْم ، لاباعتبار المعلوم .

ومنهم مَن قال : إنّه بعد مضي كفره صدقَ عليه إنّه كان من الكافرين في ذلك الوقت ، ومتى صدَق المقيَّد ، صدق المطلَق لأنّه جزء المقيّد ، فصدق عليه إنّه كان من الكافرين .

ومنهم من قال : المراد من «كَانَ» معنى«صَار» أي : صاربعد إبائه عن الإتيان بالسجدة لآدم من الكافرين .

فصلٌ

[إبليس أوّلُ مَن كفَر]

إنّ كلمة «مِنْ» في قوله : ﴿مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ للتبعيض ، فظاهر الكلام يدلّ على وجود قوم آخرين من الكافرين قبل إبليس في ذلك الوقت ، ولهذا وقع الاختلاف في ذلك .

فمنهم مَن قال بأنّه وُجد قبله جمع من الكافرين . ويؤيّده ماروي عن أبي بريدة [١] إنّه قال «إنّ الله تعالى خلقَ خلْقاً من الملائكةِ ، ثمّ قال لهم : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فقالوا : لانفعل ذلك . فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم . وكان إبليسُ من أُولئك الذين أبَوا» .

ومنهم مَن قال : معنى الآية إنّه صار من الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك ـ وهوقول الأصمّ .

ومنهم مَن قال : إنّ هـذا من باب إضافة فردٍ من أفراد الماهيّة إلى تلك الماهيّة ، وصحّة هذه الإضافة لاتقتضي وجود تلك الماهيّة كما إنّالحيوان الذيخلقه اللهُ أوّلاً يصدق عليه إنّه فردٌ من أفراد الحيوان ـ لابمعنى إنّه واحدٌ من الحيوانات الموجودة في خارج الذهن ، بل بمعنى إنّه واحدٌ من أفراد هذه الحقيقة ، أعمّ من أن يكون الأفراد محقّقة أومقدّرة .

والحقّعندنا إنّ إبليس أوّل من كفَر بالله ؛ وأوّل من سنّ كلّ كفْر وبدْعة ومعصية وقعت في العالَم اوسيقَع إلى يوم القيامة ، وهذا رأيُ الأكثرين .

ثمّ إنّه هل هو أكفرُ الكفَرةِ وأعندُ المنافقين ، أم لا ؟ ففيه تأمّل .

ثمّ على تقدير أنّه أكفَرالكفَرة ـ هل هوأشدُّ الكفّار عذاباً يومَ الآخرة ، أم لا ؟ ففيه أيضاً موضع تأملٍ من ذي بصيرة .

[هل العاصي كافرٌ ؟]

واعلم إنّ المعصية عند أصحابنا الإماميّه وعند المعتزلة والأشاعرة لاتوجِب الكفْر ، وأمّاعند الخوارج : فكلّ معصيةٍكفرٌ ، وهم تمسّكوا بهذه الآية ، قالوا : إنّ الله كفَّر إبليس بتلك المعصية الواحدة ، فدلّ على أنّ كلّ معصيةٍكفْرٌ .

---

١) في تفسير الفخر الرازي (١/٤٥٢) : « عن أبي هريرة » . ونسب الطبرى هذا القول إلى ابن عباس (تفسير الطبري : ١/١٨٠) .

وهذا الاستدلال في غاية الضعف . إذعلى تقدير أن يكون منشأ كفْره تلك المعصية لايثبت به مطلوبهم ؛ لأنّه ربما كان لبعض المعاصي خصوصيّة لاتوجد في غيره .

على أنّا نقول : إنّما كفَر لاستقباحه أمر الله إيّاه بالسجود لآدم ، ولاستكباره واعتقاده كونه محقّاً في ذلك التمرّد لأنّه أفضل منه ـ والأفضل لايحسن أن يكون مأموراً بالتخضّع للمفضول والتوسّل ـ واستبداده برأيه واستدلاله على ذلك بقوله : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ جواباً لقوله : ﴿مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَاخَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [٣٨/٧٥] وعمَلِه بقياسِه المغالطي ـ المختلّ الأصل والفرع ـ في مقابلة النصّ .

ثمّ على القول بأنّه «كان كافراً من أوّل الأمر ، منافقاً حين اشتغاله بالعبادة » هذا الاستدلال ساقط رأساً .

* * *

واعلم إنّ من فوائد هذه الآية استقباح الاستكبار ، وأنّه قد يُفضي بصاحبه إلى الكفر ، وكونه علامة لظلمة كامنة في النفس باعثة على الفرقة والإنانيّة .

والحثّ على الطاعة والايتمار ـ وإن لم يعلم سرّالأمر ـ وترك الخوض في البحث .

وأنّ الامر يكون للوجوب .

وأنّ الذي عَلِم الله من حاله إنّه يُتوفّى على الكفر هو الكافر على الحقيقة ـ لأنّ علْم الله بالأشياء هوعين حقائقها ـ لأن العبرة بالخواتيم ، وإن كان بحكم الحال مؤمناً . وهو الموافاة المنسوبة إلى أصحابنا رضوان الله عليهم .

فصلٌ

في أن المأمورين بسجدةِ آدم عليه السلام هل كانوا جميعُ الملائكة ، أم بعضُهم ؟

فالأكثرون على الأوّل ، واستدلّوا بوجهين :

الأوّل : صيغة الجمع المحلّى بلام التعريف تفيد العموم ، سيّما وقد قورِنت بأبلغ تأكيد في قوله : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ .

والثاني : وجود الاستثناء من الجمع دالّ على أنّ ماعدا المستثنى كان داخلاً في الحكم . وقوله : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ دلّ على أنّ الملائكة كلّهم سجدوا لآدم ، فدلّ على أنّهم كلّهم كانوا مأمورين بالسجود .

ومن الناس من أنكر ذلك وقال : «المأمورون بالسجدة هم ملائكةُ الأرض» واستعظموا لأن يكون أكابرُ الملائكةِ مأمورين بسجدة آدم .

والمشهور من آراء الباحثين من الحكماء مثلُ هذا ، لأنّ الملائكة السماويّة ـ وهي الجواهر الروحانيّة المحرّكة للأجرام العالية عندهم ـ يستحيل على أصولهم أن تكون منقادة للنفوس الناطقة الأرضيّة ، فلهذا ذهب أكثرهم على أنّ المراد من الملائكة المأمورين بسجدة آدم هي القوى البشريّة ، المطيعة للنفس الناطقة ، الخادمة إيّاها طبعاً .

أو يكون المراد منها النفس الحيوانيّة والنباتيّة المنقادة للإنسان حيث سخّرها الله له بما اعطاه من قوّة تسخيره إيّاها وتصرّفه فيها لمصالح معاشه ومعاده ، وإليه ذهب صاحب إخوانِ الصفا [١] .

* * *

١) راجع رسائل إخوان الصفا : الرسالة الثامنة من العلوم الناموسيّة : ٢٢٩/٤ . والرسالة السادسة من الجسمانيّات : ١٤٨/٢ .

والحقّ إنّ المأمور بالسجود والانقياد لآدم جميع الملائكة السماويّة والأرضيّة كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ إلاّ انّ الملائكة الأرضيّة في وقت ومقام ، والملائكة السماويّة في وقت ومقام آخر . فإن للإنسان درجات ومقامات بحسب سيره إلى الله .

فما دام كونه في مقام النفسيّة وعدم عروجه إلى عالَم القدس العقلي فلامعنى لكون أكابر الملائكة ـ وهم المحرّكون للأجرام السماويّة ـ مطيعة له ، لأنّهم إنما يطيعون أمرَ الله وعالَم الأمر، ويلتمسون الأنوار العقليّة ويتشوّقون إلى الإتّصال بالملأ الأعلى ، وهم القاعدون في صوامع الجبروت ومصاقع الربوبيّة ومجامع الإلهيّة .

وأما إذا خرج عن مقام النفسيّة إلى مقام العقليّة الصِرْفة ، وخلص عن التلوّنات والتغيّرات إلى المرجع والمآب ، واستقرّ في مقعد من مقاعِد الأنس والرحمة ، منخرطاً في سلك المقرّبين المهيّمين ، فحينئذ يطيع له ملائكة السماء طاعتهم للملاء الأعلى لأنّه صار معهم في مقام الوحدة الجمعيّة والسعادة الكبرى والبَهجة العظمى التي يكلّ اللسان عن وصفها ، ويضيقُ الأسماع والأذهان عن سمْعها وفهمها .

وأمّا الملائكة المهيّمون ـ وهم الذين لاتعلّق لهم بعالَم الأجسام لاستغراقهم بمشاهدة جمال الأحديّة ـ فظاهرُ إنّهم خارجون عن أمر السجدة لغير الله والانقياد لماسواه ، ولا يشكل هذا بعموم قوله ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لأنّ إطلاق الملائكة بناء على أنّه مشتقٌ من«الألوكة» بمعنى الرسالة ـ كما مرّ ـ إنّما شاع على مَن له رسالة من الله إلى خلْقه ، والأرواح المهيّمة مقامُهم فوق ذلك . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ أي الملائكة المرتفعين عن الإلتفات بهذا العالَم مطلقاً ـ والله أعلم بأسرار خلْقه وآثارِ أمره .

قوله جلّ اسمه :

وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

[مقامات الإنسان]

اعلم إنّ للإنسان الكامل درجاتٌ ومقاماتٌ في بدايات أحواله ومبادي وجوده ؛ كما إنّ له درجاتٌ ومقاماتٌ في نهايات أُموره وعوائد بقائه .

فأوّل مقاماته في البداية كونه مقدّراً في علْم الله وفيضه الأقدس أن يكون خليفة لله في الأرض ؛ وهو مقام عينه الثابت الذي قيل : « إنّه غير مجعول » وهو مقام أخذ الميثاق .

ثمّ مقام مسجوديّته للملائكة ؛ وذلك في جنّة الأرواح وعالَم القدس ، وفيه صوَر الأسماء الإلهيّة كلّها .

والمقام الثالث هو أوّل تعلّق روحه بالبدن في عالَم السماء بعد عالَم الأسماء بواسطة لطيفة حيوانيّة متوسّطة بين الروح العقلاني وهذا البدن الكثيف الظلماني . والإنسان بواسطة تلك اللطيفة الحيوانيّة التي تكون على صورته في عالَم الأشباح له أن يدخل دارَ الحيوان وجنّة الأبدان ، فقوله تعالى : ﴿ يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ أشارة إلى هذا المقام .

والمقامُ الرابع هو مرتبة هبوطِهِ إلى عالَم الأرض وتعلّقه بهذا البدن الكثيف الظلماني ، المركّب من الأضداد ، المنشأ للعداوة والفساد والحسد والعناد ، المحجوب عن عالَم المعاد ، وهذا غاية النزول عن الفطرة الأصليّة .

ثمّ يقع بعد ذلك الرجوعُ إلى الفطرة ، والعودُ إلى المبدء بالسّير الرجوعي على عكس السّير النزولي ، وبالخلاص عن هذه القيود ، والتبرّي عن هذا الوجود ، وردُّ الأمانات إلى أهلها ، والخروج عن كلّ حول وقوّة إلى حول الله وقوّته ، ففي هذا الرجوع أيضاً مقامات ودرجات كماهو مذكور في أحوال الآخرة .

[جنّةُ آدم أهي الجنّةُ المَوعودةُ ، أم غيرُها ؟]

واختلفوا في أنّ الجنّةَ التي خرَج منها آدمُ وزوجتُه هي بعينها الجنّة الموعودة ودار الثواب وجنّة الخُلد ؟ أم هي جنّةٌ أخرى غيرها ؟

قال بعضُ العرفاء[1] : الجنّة [2] التي تكون الأرواح فيه (ظ : فيها) بعد المفارقة من النشأة الدنياويّة غير التي بين الأرواح المجرّدة [وبين الأجسام] ، لأنّ تنزّلات الوجود ومعارجه دوريّة . والمرتبة التي قبل النشأة الدنياويّة هي [من] مراتب التنزّلات ولها الأوليّة ، والتي بعدها من مراتب المعارج [و]لها الآخريّة [3] .

وايضاً الصور التي تلحق الأرواح في البرزخ الأخير إنّماهي صوَرُ الأعمال ونتيجة الأفعال السابقة في النشأة الدنياويّة ـ بخلاف صوَر الجنّة الأولى [4] فلايكونَ كلٌّ منهما عين الآخر . لكنّهما تشتركان في كونهما عالَماً حيوانياً وجوهراً نورانياً غير

---

١) القيصري في مقدمة شرحه لفصوص الحكم ، الفصل السادس بتصرفات .

٢) المصدر : البرزخ الذي يكون ...

٣) المصدر : الآخرية .

٤) المصدر : بخلاف صور البرزخ الأول .

متعلّق الوجود بالمادّة الظلمانيّة ، مشتملاً على أمثلة مافي العالَم .

وقد صرّح صاحب الفتوحات المكيّة[1] في الباب الحادي والعشرين وثلاثمأة من كتابه بأنّ هذا البرزخ غير الأوّل . ويسمّى الأول بالغيب الإمكاني . والثاني بالغيب المحالي . لإمكان ظهور مافي الأوّل في الشهادة وامتناع رجوع مافي الثاني إليها إلاّ في الآخرة .

وقليلٌ مَن يكاشفه بخلاف الأوّل . ولذلك يشاهد كبراؤنا[2] ويكاشف البرزخ الأول ، فيعلم مايريد أن يقعَ في العالَم الدنياوي من الحوادث ، ولايقدر على مكاشفة أحوال الموتى » ـ انتهى .

واحتجّوا على المغايرة بينهما أيضاً بوجوه :

أحدها : إنّ هذه الجنّة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنّة الخُلد وكان مَن دخلها لم يخرج منها ، لقوله تعالى: ﴿وَمَاهُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [١٥/٤٨] وقد خرج آدمُ وزوجتُه منها ، فليست هي بجنّة الخلد .

أقول : هذا ضعيفٌ لأنّ ذلك إنّما يكون إذا استقرّ أهل الجنّة فيها للجزاء والثواب والوصول إلى الغاية والنهاية ، فأمّا قبل ذلك فإنّ كلّ شيء هالكٌ إلاّ وجهه .

الثاني : إنّ آدم لو كان في جنّة الخُلد لمّا لحقه الغرورُ من إبليس بقوله : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾[٢٠/١٢٠] ولمّا سمع قوله ﴿ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْتَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ﴾ [٧/٢٠] .

أقول : استحالة ذلك في بداية الأمر وقبل خروج النفس من القوّة إلى الفعل ممنوعٌ ، فإنّ الإنسان مالم يقع في دار التكليف والإبتلاء فهو بعد سريع القبول للوقائع .

---

١) الفتوحات المكية : ٧٨/٣ .

٢) المصدر :كثير منا .

٣) راجع تفسير الفخر الرازي : ٤٥٤/١

الثالث إنّ إبليس لمّا امتنع من السجود لُعِن ، فما كان يقدر مع غضب الله عليه على أن يصلَ إلى جنّة الخُلد .

أقول : كما استحال عقلاً أن يدخل إبليس بعد طرْده ولعْنِه الجنّةَ الآخرة ، كذلك استحال دخوله في الجنّة السابقة ، إلا إنّ العلماء ذكروا كيفيّة دخوله إنّه على سبيل الاختلاس والاجتياز في أوقات قليلة نادرة ، كسارقٍ يريد أن يدخل دار السلاطين ويختطف منها شيئاً ، ولذا قالوا : ويجوز أن يكون وسوسة إبليس من خارج الجنّة من حيث يستمعان كلامَه .

الرابع : إنّ الجنّةَ التي هي دار الثواب لايفني نعيمها ، لقوله تعالى ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ [٣٥/١٣] وقوله : ﴿عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [١٠٨/١١] أي غير مقطوع [فهذه الجنّة لو كانت هي التي دخلها آدم] [١] فلم يخرج منها آدم وزوجته ـ لكنهما قد خرَجا منها .

أقول : هذا كالوجه الأوّل ويرد عليه شبْه مامرّ ، والتحقيق الذي عليه التعويل إنّ الدارين واحدةٌ بالذات ، متغائرةٌ بالاعتبار ، وكذا جميع بدايات المقامات ، بالقياس إلى نظائرها من النهايات ، فعليه يُحمَل أقوال أهل المعرفة واختلافهم .

وأما أهل النكرة والحجاب ، فمنهم من قال : إنّ هذه الجنّة التي خرج منها آدم كانت في الأرض ـ لافي السماء ـ وهو قول أبي القاسم البلخي ، وأبو مسلم الإصفهاني، وبه قال بعض أصحابنا ، فحمَلوا الإهباط على الانتقال من بُقعة ، إلى بُقعة كما في قوله : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ [٦١/٢] .

وربما عيِّن وقيل : « إنّه بُستانٌ كان بأرض فلسطين . أو بين فارس وكرمان ـ خلقَها الله امتحاناً لآدم » وحمل الإهباط على الإنتقال منه إلى أرض الهند .

واستدلّ على ذلك بأنّه لانزاع في أنّ اللهَ خلَق آدم عليه السلام في الأرض ، ولم

---

١) الاضافة من تفسير الرازي .

يذكر في هذه القصّة إنّه نقلّه إلى السماء ولو كان تعالى قد نقلّه إلى السماء لكان [ذلك] أولى [بالذكر] لأنّ نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم ، فدلّ على أنّ ذلك لم يحصل وذلك يوجب انّ المراد من الجنّة التي قال الله : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ ليست في غير الدنيا .

ومنهم من قال : إنّ تلك الجنّة كانت في السماء السابعة . والدليل عليه قوله : ﴿اهْبِطُوا﴾ وهو قول الجبائي . قالوا : «إنّ الإهباط الأوّل كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى . والإهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض » .

ومنهم مَن قال : إنّ هذه الجنّة هي دار الثواب ، بدليل إنّ الألف واللام في لفظ-الجنّة-لا يفيدان العموم ، لأنّ سكون جميع الجنان محال . فلابدّ من صرفهما إلى المعهود السابق إلى الفهم . والجنّة التي هي المعهود المعلوم بين المسلمين هي دار الثواب ، فوجب صرف اللفظ إليها وهو قول المفسّرين ، والحسن البصري ، وعمرو ابن عبيدة ، وواصل بن عطاء وكثير من المعتزلة ، وأصحاب أبي الحسن الأشعري . وهو المختار عند الإمام الرازي في تفسيره الكبير [١] .

ومنهم مَن قال : إنّ الكلّ ممكن، والأدلّة النقليّة ضعيفة ، ومع ضعفها متعارضة فوجب التوقّف وترك القطع .

فصلٌ

في تعيينِ الوقتِ الذي خُلقت زوجةُ آدم (ع)

لاشبهة لأحد في أنّ ذلك كان بعد أن كرّمه الله تعالى بكرامة تعليم الأسماء وأمر الكلّ بالسجود له تعظيماً ، وسجدة الملائكة له انقياداً وتسليماً، وإباء ابليس عنه عناداً واستكباراً وعتوّاً وافتخاراً، وصيرورته ملعوناً طريداً مريداً وقبل هبوطه إلى الارض ،

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٤٥٥ . راجع أيضاً مجمع البيان : ١/٨٥ .

لقوله : ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوجُكَ الْجَنَّةَ﴾ .

فالثابت المحقّق هو إنّ خلقتها كان في مقام الجنّة وهو ميلاد النفوس عند نزوله عن عالَم القدس العقلي إلى النشأة النفسانيّة .

ويؤيّد ماذكرناه مارواه السدّي [١] عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من الصحابة : إن الله تعالى لمّا أخرَج إبليس من الجنّة ، وأسكنَها آدم بقي فيها وحدَه ، ماكان معه مَن يستأنس به ، فخُلقت حوّاء ليسكن إليها .

وروي إنّ الله تعالى ألقى عليه النومَ ، ثمّ أخذ ضِلعاً من أضلاعه من شِقّه الأيسر ، ووضع مكانَه لحماً ، وخلَق حوّاء منه ، فلمّا استيقَظ وجد عند رأسه امرأة قاعدة ، فسألَها : مَن أنت ؟ قالت : امرأة . قال : ولِمَ خُلقتَ ؟ قالت : لتسكنَ إليّ . فقالت الملائكة : ما اسمُها ؟ قال : حوّاء. قالوا : ولِمَ سمّيت حواء ؟ قال : لأنّها خُلقت من شيء حيّ .

فعندها قال الله تعالى : ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوجُكَ الْجَنَّةَ﴾ .

وعن ابن عبّاس ـ أيضاً[٢] ـ قال : « بعثَ الله جنداً من الملائكة فحملُوا آدم وحوّاء عليهما السلام على سرير من ذهب ، كما يحمل الملوك ولباسهما النور ، وعلى كلّ واحد منهما اكليلٌ من ذهب مكلّل بالياقوت واللؤلؤ ، وعلى آدم مِنطقة مكلّلة بالدرّ والياقوت حتى ادخلا الجنّة » .

فهذا الخبر يدلّ على أن حوّاء خلقت قبل ادخال الجنّة ، والخبر الأوّل دلّ على أنّها خُلقت في الجنّة .

ثمّ من الأخبار مايدلّ على أنّهما جميعاً خُلقا في الأرض . ففي كتاب النبوّة[٣]

١) الدر المنثور : ١/ ٥٢ .

٢) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٤٥٤ .

٣) مجمع البيان : ١/ ٨٥ .

« إنّ الله تعالى خلق آدم من الطين، وحوّا من آدم . فهمّة الرجال الماء والطين، وهمّة النساء الرجال » .

ووجه التوفيق بين الكلّ معلوم عند أهل الهداية والمعرفة .

* * *

واعلم إنّ الإتفاق حاصلٌ على أنّ المراد من الزوجة حوّاء وإن لم يتقدّم ذكرُها في هذه السوّرة ، وفي سائر القرآن مايدلّ على ذلك ، فإنّها مخلوقةٌ منه .

ففي سورة النساء : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجَهَا ﴾ [١/٤] وفي الأعراف : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوجَهَا لِيَسْكُنَ إلَيْهَا ﴾ [١٨٩/٧] .

وروي الحسن[١] عن رسول الله ﷺ : «إنّ المرأة خُلقت من ضِلع الرجل ، فإن أردتَ تقويمَها كسرتَها ، وإن تركتَ انتفعتَ بها واستقامت » .

واعلم إنّ كل شهادة مطابقٌ لغيب ، وكما إنّ المرأة هيهنا مخلوقةٌ من الضلع الأيسر للرجل ، او من بقيّة مادّة منويّة فضليّة حصلت هناك منه ، فكذلك في عالم الأرواح حصلت النفس وهي جوهرة انفعاليّة من الجنبة السافلة للعقل ، وهو جوهر فعّال بالفعل ، مخرِج للنفس من القوّة إلى الفعل .

وكما إنّ الرجل إذا تفرّد هيهنا بذاته عمّن يسكن إليها من زوجته يتوحّش ويضطرب حاله في الخلوة والوحدة ـ عناية من الله لتكثير النوع بحصول الأفراد كذلك العقلُ إذا لم يتوجّه إلى تربية النفس والسكون إليها وأراد التفرّد بذاته عن فعله يلزم عليه التعطيل ، ويلحقه الاضطراب في قرب نهار الأحديّة الإلهية قبل أوانه كما يلحق أبصار الخفافيش من نور الشمس عند رفع حجاب الليل ، ويعتريه الذوبان تحت سطوع النور الإلهي الواجبي كذوبان الجميد عند طلوع الشمس عليه من غير حجاب .

---

١) جاء مايقرب منه في الدر المنثور : ١ /٥٢ .

فهذا نكاح معنوي وقع بين العقل والنفس ، والعاقد بينهما هو الله ، وهكذا جرى الإزدواج بين كلّ قوة فاعلة ومادةٍ منفعلة كما بين الطبايع والصور الجسمانيّة وبين موادّها القابلة بحكم النكاح الأوّل ، الساري في جميع الذراري ، ومِن هذا قيل : «كلّ ممكن زوجٌ تركيبي» .

وذكر الشيخ الجليل محمد بن عليّ بن بابويه القمّي ـ رحمهما الله ـ في الفقيه [1] رواية عن زرارة بن أعين ، إنّه قال : سُئل أبوعبدالله عليه السلام عن خَلْق حوّاء ، وقيل له : إن أناساً عندنا يقولون «إن الله عزّوجل خلَق حوّاء من ضلْع آدم الأيسر الأقصى» .

فقال : «سبحان الله وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ مَنْ يقول هذا ؟ ! إن الله تبارك وتعالى لم يكن له القدرةُ مايخلُق لآدم زوجة من غير ضلعِه ؟ ويجعل للمتكلم من أهل التشنيع سبيلاً إلى الكلام أن يقول : «إنّ آدم كان ينكح بعضَه بعضاً» إذا كانت من ضِلْعه ؟ ! مالهؤلاء؛ حكَم اللهُ بيننا وبينهم» .

ثمّ قال عليه السلام : «إنّ الله تعالى لمّا خلَق آدم من طين ، وأمر الملائكةَ فسجدوا له ألقى عليه السُبات . ثمّ ابتدع له حوّاء ، فجعلَها في موضع النقرةِ التي بين وَركيه . ـ وذلك لكي تكون المرأةُ تبعاً للرجل ـ فأقبلتْ تتحرك ، فانتبه لتحرُكِها [فلما انتبه] نوديت أن تنحّي عنه [2] ، فلمّا نظَر إليها نظَر إلى خَلْقٍ حسَنٍ يُشبه صورتَه . فكلّمته بلغته» ـ في حديث طويل في آخره ـ :

«والخبر الذي رُوي إنّ حوّاء خُلقت من ضلع آدم الأيسَر صحيحٌ ، ومعناه من الطينة التي فضلت من ضلعه الأيسر . فلذلك صارت أضلاع الرجل أنقص من أضلاع النساء» .

١) الفقيه : كتاب النكاح ، باب بدء النكاح : ٣/٣٧٩ .

٢) في النسخة : «أن تنحى عنها» خطأ وما أثبتناه مطابق للمصدر .

فصلٌ

قوله [تعالى] : وَقُلْنَا

قال بعض المفسّرين : هذه نون الكبرياء والعظمة ـ لانون الجمع .

وأقول : كأنّه إشارة إلى الجمعيّة الإلهية المحتوية بحسب الأسماء والصفات على جميع العقول والذوات .

و« السُكنَى » من السُكون . لأنها نوعٌ من اللبْثِ والاستقرار .

و﴿أنْتَ﴾ تأكيدٌ للمستكنّ في « اسْكُنْ » ليصحَّ العطف عليه .

و﴿زَوجُكَ﴾ معطوف على موضع أنت . ولو عطف على الضمير المستكنّ لكان يُشبه في الظاهر عطف الإسم على الفعل فأتى بالمنفصل وعطف عليه .

و﴿ رَغَدَاً ﴾ منصوبٌ لأنّه صفة لمصدر محذوف ، كأنّه قال : « أكلاً رغداً » أي: واسعاً كثيراً . ويجوز أن يكون مصدراً وُضع موضع الحال من قوله : ﴿كُلَا﴾ ـ ويقال : قومٌ رَغَدٌ ، ونساءٌ رَغَدٌ ، وعَيشٌ رَغَدٌ ، ورَغيدٌ . فعلى هذا يكون تقديره : « وكُلا منها متوسّعين في العَيْش » .

و﴿حَيْثُ﴾ يُبنى على الضمّ كما تبنى الغايات [١] : لأنّهُ مُنع عن الإضافة إلى مفرد كما مُنعت هي من الاضافة ، فما يأتي بعده جملة اسميّة أوفعليّة في تقدير المضاف إليه . وهو للمكان المبهم ، أي : « أيّ مكانٍ شئتما من الجنّة » على وجه التوسعة البالغة ، من جهة إنّه لم يحظر عليهما بعض الأكل ، ولابعض المواضع ، حتى لايبقى لهما عذر في التناول من شجرةٍ واحدة من أشجارها الكثيرة الفائتة للحصر .

والنكتة في عطف قوله : ﴿كُلا﴾ على قوله : ﴿اسْكُنْ﴾ بالواو هيهنا وبالفاء

---

١) نحو : « مِن قبلُ » و « مِن بعدُ » . (مجمع البيان) .

في الأعراف (١) هي إنّ الفاء للسببيّة ، والواو للجمعيّة فكلّما كان المعطوف عليه شرطاً للمعطوف عُطف بالفاء ، وإن لم يكن شرطاً عُطف بالواو .

ثمّ قول القائل : « اسكُن » قد يكون بمعنى « ادخُل » وقد يكون بمعنى « الزم مكانك الذي دخلته » والأكل مشروط بالأوّل ـ دون الثاني ـ فإذا اريد منه المعنى الأول ينبغي العطف للأكل عليه بالفاء كما في قوله . ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ [٢/٥٨] إذ الأكل في موضع مشروطٌ بالدخول فيه .

وإذا أُريد منه المعنى الثاني فينبغي العطف عليه بالواو المفيد للجمعيّة فقط ـ دون الترتيب ـ إذ الأكل في موضع غير مشروط بالدوام فيه ، فبحسب اختلاف الاعتبارين اختلفت الكلمة العاطفة في السورتين ـ والله أعلم .

فصلٌ

اختلف المفسّرون في هذا الأمر . فقيل : إنّه أمرُ تعبّد . وقيل هو إباحةٌ ، لأنّه ليس فيه مشقّة ، ومالا مشقّة فيه فلا تكليف به .

وأمّا قوله : ﴿وَكُلَا﴾ فهو إباحة بالإتّفاق . وكذا ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ تعبّد بالإتّفاق . وهو مجزوم بالنهي ، والألف ضمير الفاعلين .

وقوله : ﴿فَتَكُونَا﴾ يحتمل أمرين ، أحدهما أن يكون جواباً للنهي ، فيكون منصوباً باضمار « أن » وأن مع الفعل في تأويل المفرد ، فيكون عطفاً على المصدر والتقدير : « لا يكن منكما قربٌ لهذه الشجرة فكونٌ من الظالمين » فالكلام حينئذ جملة واحدة ، لكون المعطوف من جملة المعطوف عليه . وإنّما سمّي جواباً لمشابهة الجزاء بحسب المعنى ، أي : إن تقربا هذه الشجرة تكونا من الظالمين .

والثاني أن يكون معطوفاً على النهي ، فيكون مجزوماً . فالفاء عاطفةٌ جملة على

---

١) يا آدم اسكُن أنتَ وزوجُك الجنةَ فكُلا مِنْ حيثُ شِئتُما [٧/١٩] .

جملة فكأنه قال : « فلاتكونا من الظالمين » .

ومعنى ﴿ وَلَاتَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ : لاتأكلا منها . وهو المروي عن الباقر عليه السلام [1] وحاصله : لاتقرباها بالأكل . ولهذا انّما وقعت المخالفة بالأكل بلاخلاف ـ لابالدنوّ منها ـ ولهذا قال : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ .

واختلف في هذا النهي ، فقيل : إنّه نهي التحريم . وقيل : نهي التنزيه ، دون التحريم . كمن يقول لغيره : « لاتجلس على الطريق » وهومذهب أصحابنا ، وموافقٌ لاصولنا العقليّة ـ كما سيجيء بيانه .

فعندهم إنّ آدم عليه السلام كان مندوباً إلى ترك التناول من الشجرة ، فكان بالتناول منها تاركاً ـ نفلاً وفضلاً ـ ولم يكن آتياً بقبيح وفاعلاً لمحرّم ، لأنّ الأنبياء لايجوز عليهم القبائح ـ صغيرها و كبيرها .

وقالت المعتزلة . كان ذلك صغيرةً من آدم عليه السلام ـ على اختلاف بينهم في أنّه وقع منه على سبيل العمد ، أوالسهو ، أو التأويل .

واستدلّ صاحب مجمع البيان[1] على امتناع مواقعة المعصية على الأنبياء عليهم السلام بأنّ الفعل القبيح مايستحق فاعله الذمّ والعقاب ، والمعاصي كلّها كبائر عندنا ، وإنّما تسمّى صغيرة باضافتها إلى ماهوأكبرعقاباً منها لأن الإحباط قد دلّ الدليل عندنا على بطلانه ، وإذا بطل ذلك فلامعصية إلاّ ويستحق فاعلها الذمّ والعقاب ، وإذا كان الذمّ والعقاب منفيّين عن الأنبياء ، وجب أن ينفى عنهم سائرالذنوب .

ولأنّه لوجاز عليهم لنفرّ عن قبول [قولهم] . والمراد بالتنفير إنّ النفس إلى قبول قول مَن لايجوز عليه شيء من المعاصي أسكَن منها إلى مَن يجوز عليه ذلك ، ولايجوز عليهم كلّ مايكون منفراً عنهم من الخَلق المشوّهة والهيئات المستكرهة .

وإذا صحّ ماذكر علِمنا إنّ مخالفةَ آدم عليه السلام لظاهرالنهي كان على الوجه الذي

---

١) مجمع البيان : ١/٨٥ .

بيّناه هذا كلامه ـ وهو المذكور في الكتب الكلاميّة من قِبَل أصحابنا القائلين بعصمة الأنبياء ﷺ مطلقاً ، وللبحث في بعض مقدّماته مجالٌ .

* * *

وإنّما قلنا إنّه موافقٌ لأصولنا العقليّة من جهة إنّه قد صحّ عندنا إنّ للإنسان نشئات ثلاث بحسب البداية والنهاية : نشأة الروح ، ونشأة النفس ، ونشأة الطبيعة ، وهذه دار التكليف والاختيار ، ودار الإبتلاء والإختبار . ومورد الأمر والنهي التشريعيّين وعليهما مدار الطاعة والعصيان، والعصمة والخذلان، والشكر والكفران .

وأما قَبل هذه النشأة فالأمر فيها أمرُ قضاء وتكوين . والنهيُ فيها نهي إشعار وتحريص ، وليس فيها مجالُ القدرة للعبد والاختيار ، ولا يسَع له التدبيرُ والحزم والاجتهاد ، ولهذا قال بعض أصحاب القلوب ، إنّ سبب النهي هناك هو الدلال الذي تقتضيه غاية الجمال ولو لم يُنه عنها فلعلّه مافرغ لها لكثرة أنواع المرادات النفسانيّة فذِكْرها كان كالتحريص عليها ، فإنّ الإنسان حريصٌ على [ما] مُنع .

واعلم إنّ كل ما [في] هذا العالَم فهو في العالَم الأعلىٰ على وجه ألطف وأصفىٰ فالمعصيةُ هيهنا هي مخالفة الأمر الشرعي المنافية للعصمة الثابتة للأنبياء ﷺ وأما في عالَم الغيب فهي عبارةٌ عن النقيصة الإمكانية المتفاوته كثرةً وقلّةً في الممكنات بحسب مراتب درجاتها عندالله قُرباً وبُعداً فكلّما كان القرب منه تعالى أكثر كان جهات الإمكان أقلّ وكلّما كان البعُد منه أكثر كان تضاعف جهات النقائص والامكانات أوفر . وبالعكس .

وبعض تراكم الإمكان على العقل يوجب نزوله في عالَم النفس كالجنّة ومنازلها وغاية تضاعف الإمكان في النفس توجب تعلّقها بعالَم الأبدان العنصريّة كما إن غاية المعصية ـ وهي الكفر ـ توجِب خلود النفس في دار العذاب .

وايضاً التخاصمُ والتباغُض هيهنا من صفات الحيوانات، يجب تنزيه الملائكة

العلويّة عنه . ولكن ورد في القرآن إن الملأ الأعلى يختصمون ، فيجب حمل الخصومة فيهم على معنى ألطف وأشرف ممّا في الحيوانات، وهو كاختلاف اشراقاتهم العقليّة وتباين تعيّناتهم الوجودية . ومن هذا القبيل صفة التنازع المذكور لأهل الجنان في قوله تعالى . ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [٥٢/٢٣] .

[الشجَرةُ المنهيّة]

ثمّ اختُلف في الشجرة المنهيّ عنها [١] . فعن ابن عبّاس : « هي السُنبلة » ، وعن ابن مسعود والسدّي : « هي الكرْمةُ » . وعن ابن جريح : « التينة » .

وقيل : « هي شجرة الكافور » وهو المرويّ عن عليّ عليه السلام .

وقيل : « هي شجرة العِلم ـ علْم الخير والشر» وعن ابن جذعان « هي شجرة الخُلد التي كانت تأكل منها الملائكة » .

وقال الربيع بن أنس : «كانت شجرة من أكَل منها أحدث ، ولا ينبغي أن يكون في الجنّة حدَث ».

ولكل منها وجه تأويل ، والموافق للحكمة أن يكون فيها إشارةٌ إلى شجرة الطبيعة المتشعّبةِ أفنانها ، المتفنّنة قواها وفروعها ، وهي ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ ﴾ [٣٧/٦٥] .

والحكمة تقتضي أن يخرج الإنسان أوّلاً من الجنان بأكل هذه الشجرة ويسقط من عالَم الفطرة إلى عالَم التركيب والطبيعة ثمّ يأخذ منها زاد الآخرة ويفطم نفسه عن طيّبات الدنيا التي هي خبيثات الآخرة ـ فطام الصغير عن رضعَة أمّه ـ ليلحق بدار الكرامة التي خرج منها .

ومن لم يزهد في الدنيا ولم يفطم نفسه عن تناول الطبيعة ومشتهياتها، فلانصيب

---

١) راجع تفسير الفخر الرازي: ١/٤٥٦. ومجمع البيان ١/٨٥. والدر المنثور: ١/٥٣

له في الاخرة ولاطعام له إلا من الحميم والزقّوم والغِسلين. ويكون غذاء أهل الجحيم في الدار الآخرة من غسالات الطبايع وأكدارها وأوزارها ، كما انّ غذاء أهل الجنة من الصفايا واللطائف ، وغذاء أهل القرب منهم من المعارف الإلهيّة والعلوم الربانيّة .

تأييد استبصاري

[في تأويل معصية آدم]

اعلم انّ للإنسان همّةً عالية وحرصً شديد بحسب الجبلّة ، فلايزال تقول نار طبيعته وجهنم حرصه : « هل من مزيد » ولاتمتلي حتى يضع الجبارُ قدمَه فيها .

ثمّ انّه أُبيح له ولزوجته مشتهيات النفس كلّها ، فيها ماتشتهي الأنفُس وتلذّ الأعين وقيل لهما : « اقتنعا بها ولاتوقدا نارَ الفتنة » وهي نار الطبيعة التي شأنها تحليل الموادّ والتصرّف فيها ، وقد كانت كامنةً في النفس ولم تخرج من الكمون إلى البروز . أوَلاترى إنّ الإنسان اذا أخذ في تناول المطعوم انبعثت من طبيعته حرارة طابخة ونضجت مادة الغذاء ؟ فأصل النار من النفْس ، ثمّ من الطبيعة .

ولاتقربا شجرة الطبيعة السفليّة إن كنتما طالبين للسلامة عن المصيبة والمحنة ، فارغين عن حرقة المحبّة ، وإلّا فتكونا من الظالمين على النفس ـ بتوريطها في ورطات الهلاك التي قَلّت النجاةُ عنها ، وإحراقها بنار المحبّة والمحنة ، والم البُعد والفرقة ، وتعَبِ السفر في الدنيا لربح الآخرة . وقد غرقت في بحارها طوائف كثيرة انكسرت فيها سفائنهم ومراكبهم .

وحمل « الظُلم » على هذا المعنى أوفق بالمحافظة على قاعدة عصمة الأنبياء عليهم [السلام] وكل مذهب أفضى إلى انحفاظ عصمتهم كان أولى . وذلك كما في قولة تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [٧٢/٣٣] وسيأتي بيانه إن شاء الله [تعالى] .

* * *

قال بعض أولى البصائر : إنّه تعالى قد وسّع على آدم عليه السلام أسباب الانبساط أوّلاً ، ثمّ ضيّق عليه الأمر آخراً . وأنشد :

وأدنيتني حتّى إذا مافتنتني * بقولٍ يحلّ العصمَ سهل الأباطح
تجافيتَ عني حين لاليَ حيلة * وغادرتَ ماغادرتَ بين الجوانح

خلقَه بيده ، ونفخ فيه من رُوحه ، وأسجَدله ملائكته ، وأسكنَه الجنةَ في جواره وزوّجه حوّاء . حتّى شاهَد جمال الحقّ في مرآةِ وجهه ، وانبتَ شجرةُ المحبّة بين يديه ـ ثمّ منعه، وكان في ذلك المنع تحريض وتذكيرأيضاً. ثمّ عاتبه بقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ .

وهذا كما أسكرَ موسى عليه السلام بأقداح الكلام ، وأذاقه لذّة شراب السماع ، وقرّبه نجيّاً ، حتّى اشتاق إلى جماله وطمع في وصاله قبل أوانه ، وقال : ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ عاقبه بسطوة ﴿لَن تَرَانِي﴾ [١٤٣/٧] .

وذلك إنّ الولاء والبلاء توأمان ، والمحبّة والمحنة رضيعا لبان ، والمطلوب كلّما كان أدفَع كان أعزّ وأمنعَ ، والجمال لابدّ من الدلال ، وبه يتميّز العاشق الصادق من المدّعي المحتال ، فلمّا ذاقا شجرة الغرام خرجا من دارالسلام ، فما لأهل السلام ودار الغرام ، وأين الفارغ السالي من المحبّ الغالي .

وبالجملة فلما جاء القضاء ضاق الفضاء ، فلم يمس بعد ما كان مسجودُ الملَك محسودَ السِماك إلى السمَك ، مشمولُ الرعايةِ ، موفورُ العناية ، حتّى نزعه لباسَ الأمن والفراغ ، وبدّل باستيناسه الاستيحاش، يدفعونه الملائكةُ بعنفٍ ، أن اخرج من غير مكثٍ ولا بحثٍ .

فأزلّهما يد التقدير بحسن العناية والتدبير ، وكان الشيطان من جملة أسباب التقدير ، فصار هدفَ سهامِ الطعنِ والطرد ، فلمّا وقَعا من القُربه في الغُربة ، ومن الألفة في الكُلفة استوحَشا من كلّ شيء . وهكذا شرطُ المحبّة عداوةُ ماسوى

المحبوب ، فكما انّ ذاته لاتقبل الشركة في التعبّد ، كذلك لاتقبل الشركة في المحبّة » ـ انتهى كلامه .

ويمكن تطبيقه على القوانين البرهانيّة ، وإن كان ظاهره كلمات خطابيّة .

فصل

إنّ الذين جوّزوا الذنوبَ على الأنبياء ﷺ حملوا النهيَ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ على نهي التحريم ـ استدلّوا عليه بوجوه [1] :

الأوّل : إنّ قوله : ﴿ وَلَاتَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [٢/٢٢٢] وقوله : ﴿وَلَاتَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [٦/١٥٢] وكما إنّ هذين للتحريم فكذا الأوّل .

والثاني : قال تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أي : إن أكلتما منها ظلمتما أنفسكما ، ولذلك لما أكلا قالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ .

الثالث : إنّ هذا النهي لوكان نهيَ تنزيهٍ لَمَا استحقّ آدمُ بفعله الإخراجَ من الجنّةِ ، ولَمَا وجبَت التوبةُ عليه .

والجواب عن الأوّل : إنّ النهيَ وإن كان في الأصل للتنزيه اوللقدر المشترك لكنّه قد يجعل للتحريم لدلالةٍ منفصلة .

وعن الثاني : إنّ قوله : ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أي : فتظلما أنفسكما بفعل ماالأولىٰ بكما تركه ، لأنّكما إذا فعلتما ذلك أخرجتما من الجنّة ـ التي لاتظمآن فيها ولا تجوعان ولاتضحيان ولاتعريان ـ إلى موضعٍ ليس لكما فيه شيء من هذا .

وعن الثالث : إنّا لانسلم إنّ الإخراج من الجنّة كان لهذا السبب بل لحكمةٍ سابقة وقعت الإشارة إليها ـ وسيأتي بيانها إن شاء الله تعالى .

---

١) تفسير الفخرالرازي : ١/٤٥٦ .

قوله جلّ اسمه :

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

هذا هو آخر درجات النزول لآدم عليه السلام من عالَم القدس ودار الكرامة ، وذلك إنّ آدم عليه السلام لما كان مستصلحاً لعمارة الدارين ، وأراد الله بحكمته الكاملة منه عمارةَ الدنيا كما أراد منه عمارةَ الآخرة والجنّة ، كوّنه من التراب تكويناً ، وركّبه تركيباً يناسب عالم الحكمة والشهادة ، وهي هذه الدار الدنيا .

وما كانت عمارةُ الدنيا يتأتّى منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضيّة سفليّة بحسب قانون الحكمة ، فمن التراب كوّنه ، وأربعين صباحاً خمّر طينتَه ـ كما ورد في الحديث القدسي [1] ـ ليبعد بالتخمير أربعين صباحاً أربعين حجاباً من الحضرة الإلهيّة ، كلّ حجاب هو معنى مودع فيه يصلح لعمارة الدنيا ، ويتعوّق به عن الحضرة الإلهيّة ومواطن القرب . إذ لو لم يخرج عنها ولم يتنزّل إلى الدنيا لم يصلح لعمارة الدارين جميعاً ولخلافة الله في أرضه ، ثمّ لأن يكون زينةً للعالَم الأعلى وملَكاً في

١) جاء الحديث في احياء علوم الدين (٤/٢٧٧) وقال العراقي في تخريجه : « رواه ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جداً » .

الآخرة ـ ملكاً كبيراً .

فبالتبتّل إلى طاعة الله والرجوع إليه بالعلْم والعمل ، والإقبال عليه والانتزاع عن التوجّه إلى السفليّات يخرج كل وقت عن حجاب أمر مودع فيه عند التركيب ، وعلى قدر زوال كلّ حجاب ينجذب إلى مقام نزل منها ، ويتّخذ منزلاً في القرب من الحضرة الإلهيّة التي هي مجمع الأُنس ومنبع العلوم ، ومصدر الحقائق .

فإذا تمّ السلوك والتبتّل ، وزالت الحجب انصبّت على القلب مياه العلوم والمعارف ، كما في قوله ﷺ (١) : « مَن أخلَصَ لله أربعين صباحاً ظهرتْ مِن قلبه على لسانِه ينابيعُ الحكمةِ » فهذه الأربعين صباحاً في التمحيص والتطهير في مقابلة تلك الأربعين صباحاً في التخمير والتركيب .

ثمّ اعلم إنّ العلوم الحقيقيّة والمعارف هي بعينها أعيان صوريّة في عالَم الحسّ والشهادة انقلبت باكسير نور العظمة الإلهيّة بها ، كما إنّ هذه الصور أُصولها ايضاً أعيان عقليّة وصوَر مفارقة عندالله صارت متمثّلة في هذا العالَم بتقدير الله . فلكلّ غيب شهادة ، ولكلّ ظاهر باطن . فنزولها وصعودها على وفْق هبوط آدم عليه السلام وعُروجه تكميلا للحكمة وإظهاراً للقدرة .

فصل

قال بعضُ الحكماء (٢) في لِميّة إخراج النفوس من جنّة الأرواح لجناية وقعت : إنّ النفوس الجزئيّة لمّا هبطت من العالَم الذي كانت ، وسقطَت عن مراتبها العالية لجناية وقعت من أبيها وأمّها ، غرقت في بحر الهيولى وغاصت في قعر أمواج

---

١) راجع بحارالانوار : ٧٠/٢٤٢ . وعيون الاخبار : ٢/٦٩ ، والكافي : ٢/١٦ .

٢) رسائل اخوان الصفا : الرسالة السابعة من العلوم الناموسيّة والشرعيّة : ٤/١٨٤ . بتصرّفات يسيرة .

الأجسام وقيل لها : ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾[٧٧/ ٣٠] فتفرّقت في‌هيا كل الأجسام وتمزّقت بعد وحدتها وجمعيّتها ؛ وشتّتْ شملُها ، ووقعت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .

وعرَض لها عند ذلك من الأهوال والدهش والمصائب مثلُ ماعرَض لقوم من ركّاب البحر لمّااشتدت بهم الريحُ ، واضطرب بهم البحرُ ، وهاجت بهم الأمواجُ ، وانكسرت منهم السفينةُ ، وغرقوا في بحر الطبيعة ، وغاصوا في ظلمات الماء ، وتفرّقوا في كلّ فجّ عميق من الجزائر والسواحل .

فكما إنّ اولئك القوم في الوقت الذي انكسرت منهم السفينـةُ ــ تراهم بين غائص ، وطافٍ ، أو متعلّق بخشبةٍ او بحبلٍ ، او راكب بعضُهم كتفَ بعض ، كلّ واحد يقول : « نفْسي ، نفْسي » من شدّة الأهوال ، لايفكّر بغيره ، ولم يُرد النجاة إلّالنفْسه ، ولاهمّه سواه ، ولايفكّر فيما كانت فيه ــ فهكذا حال‌النفوس في‌هذا العالَم وكونها مع هذه الأجساد . فمِن هذه الأشياء نسيَت النفوسُ عالَمَها ودارَها الحيواني ولايذكر شيئاً ممّا كانت فيه من أمر عالَمِها ومبدأها ومعادِها ، كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ . [٣٧/١٤-١٥]

ثمّ قال : إنّ النفسَ إذا انتبهتْ مـن نوم الغفلة ورقدَة الجهالة واستبصرت ذاتَها ، وعرفت جوهرَها ، وتحقّقت بغربتها في عالَم الأجسام وغرقِها في بحر الهيولي ، وأسْرِها بالشهوات الطبيعيّة ، وعاينت عالَمَها ، واستبانَ لها فضلُ نعيمها على هذه اللذّات الكدِرة الظلمانيّة وتنسّمت بروح عالَمها وريحانها ؛ اشتاقت إلى هناك وملَت الكونَ مع هذه الأجسام ، وزهدَت في نعيم الدنيا ، وتمنّت الموتَ لهذا الجسد ، والخروج مـن ظلمته ، فيكون مثلُها مثلُ جماعةٍ خرجوا من الحبوس والمطامير مع ضوء الصبح ، فشاهَدوا هذا العالَم دفعة واحدة .

فأمّا النفس الغير المستبصرة فمَثَلُها كمَثَل العميان ـ سواءٌ عندهم ضوءُ النهار وظلمة الليل .

* * *

وسُئل بعضُ الحكماء العارفين : « إنّا من أيّ موضعٍ جئنا إلى هذا العالَم ؟ »

فقال في الجواب : « اعلم إنّا جِئنا إلى هذا العالَم من ذلك العالَم . وحدُّ هذا العالَم من فوقِ فلَك البروج سِدرة المنتهى ، تحتَ الفلَك المستقيم إلى هذه الأرض وحدّ ذلك العالَم من فوق الفلَك المستقيم إلى تحت مرتبة القلَم الإلهي وهو العقل الكلّي . ومجيئنا من ذلك العالَم إنّما هو من الجنّة ، جنّة الله التي هي حظيرة القدس التي بها قدّس المقدّسون ، وتلك هي فوق ذلك العالَم .

فأمّا هذا العالَم فهو دار عمل ، وذلك العالَم دار حساب والجنّة هي دار جزاء المحسنين .

واعلم إنّا جئنا من جنّة القدْس إلى ذلك العالَم ، ومن ذلك العالَم إلى هذا العالَم ، ومن هذا العالَم نذهب إلى فلَك البروج ، ومن [فلَك] البروج نذهب إلى ذلك العالَم الذي هو موضعُ الحساب ، ومن موضعِ الحساب يرجع من أحسن عملُه إلى جنّة الله ، وبقي بقاء سرمديّاً ، ويبقى من أساءَ عملُه تحت ذلّ الطبيعة ونار الجحيم في دار جهنّم ، ﴿مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [١١/١٠٧] .

واحتاجوا إلى العمل من غير إرادةٍ منهم ، لِيَصِلُوا إلى الصوَر الموافقة لأرواحهم من الجنّة ، وهم ينالون من تلك الصوَر التي في الطعام والشراب لذّة ، ويجدون سُكوناً إلى الدنيا تحت الطبع والطبيعة .

وكذلك يكونون في قيد الطبيعة ، يدخلون كارهين من غير إرادةٍ تحت قيد العقل الذي بذره العقل العملي الذي جاء به الرسل ﷺ ممّا يشهد به شرائعُهم حتّى

تستأنسَ النفسُ وتطمئنَّ بتلك الصوَر العمليّة والعقليّة وتجدّبها قراراً ، لأنّ أصلها ايضاً من جنّة الله تعالى وبتلك الاستفادة يُضيء لها طريق الصراط وقت ذهابها إلى معادها ويخف حسابها ، وتثقل موازينها .

فقد تبيّن الآن إنّ البشرَ بتقدير الإبتداء ومقام الإباء فوق العقل و الطبع ، لكنّهم اليـومَ محبوسون تحت الطبيعة مقيّدون بالعقل العملي وخلاصُهم يكون عند إطلاقهم عن وثاقهم وخروجهم عن قيد العقل، وليس يخلصون عن قيد العقل إلّاحين يخرجون من سجن الطبع والطبيعة . وهذه معان منغلقة يفتحها الشرح (ظ : الشرع) للمستحقّين ، وإنّها محرّمة على الجاهلين .

ثمّ سُئل مسئلة ثانية هي : إنّا لأي شيء جئنا إلى هذا العالَم ، بعد أن كنّا مغبوطين ؟

فأجاب : اعلم إنّ مجيئنا إلى هذا العالَم لم يكن باختيارنا وإرادتنا ، لكن بالقهر جئنا ، وبالقهر نمسك، وبالقهر نخرج . وإنّا جئنا للتمحيص والتطهير ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ [١٤١/٣] وطهارة النفس إنّما تكون بالعمل الشرعي والعلْم الإلهي ، وبهذين تتمّ الطهارة والتوجّه إلى المعاد ، وكما إنّ طهارة الجسد يكون بالماء اوبالتراب عند عدم الماء ،كذلك طهارة النفس بالعلْم الذي هو بمنزلة الماء ، والعمل الذي هو بمنزلة التراب ، فكلّ من أتى بالعمل الشرعي حتّى يصلَ إلى العلْم الإلهي ، فيعلم حقيقته ، ويعرف نفسه ، فإنّه يخلص عند مفارقته هذه الدنيا ، التي هي سجنُ المؤمن وجنّة الكافر .

إشارةٌ مشرقيّةٌ

واعلم إنّ حكايةَ هبوطِ العقل الإنساني والنفس الآدميّة من عالَم القدس إلى موطن الطبيعة الجسمانيّة ممّا كثُرت في مرموزات الأنبياء ﷺ ، وإشارات الأولياء والحُكماء .

ففي القرآن المجيد قد ذكر هبوط النفس وصعودها في آيات عديدة ، كقوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [٩٥/٤-٦] وكقوله : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [٢/٣٨] وكقوله : ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [٧/٢٤-٢٥] وكقوله : ﴿ ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ [١٠٢/١-٨] وكقوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ [١٩/٧٢-٧٣] وكقوله : ﴿ كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ [٧/٢٩] وكقوله: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ [٦/٩٤] .

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام : « رحِمَ اللهُ امرءً أعدَّ لنفسه ، واستعدَّ لرمسه ، وعَلِم مِن أينَ ؟ وفي أينَ ؟ وإلى أين ؟ » .

وفي كلامه عليه السلام أيضاً (١) : « وليحضرْ عقلَه ، وليكُن من أبناء الآخرة ، فإنّه منها قدِم ، وإليها ينقلِب » .

وفي كلامه عليه السلام أيضاً (٢) في بيان ماهيّة النفس ومبدأها ومعادها : « إعلم إن الصورةَ الإنسانيّة هي أكبر حجة الله على خلقِه ، وهي الكتاب الذي كتبَه بيده ، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته ، وهي مجموع صور العالَمين ، وهي المختصر من اللوح

---

١) نهج البلاغة : الخطبة رقم : ١٥٢ .

٢) جاء في المجلي لابن أبي جمهور والكلمات المكنونة للفيض (ره) : ١٢٥ . وروى فيه (ص١٦١) عن الصادق (ع) : « إن الصورة الإنسانية هي الطريق المستقيم إلى كل خير . والجسر الممدود بين الجنّة والنار » .

المحفوظ ، وهي الشاهد على كلّ غائِب ، والحجّـة على كل جاحِد ، وهي الطريق المستقيم إلى كلّ خير، وهي الصراط الممدود بين الجنّة والنار » .

وفي كلمات الحكماء الراسخين إشارات لطيفة ، ورموزٌ شريفة إلى هبوط النفس وصعودها ، وحكاياتٌ مرشدة إلى ذلك .

ومنها قصّة سلامان وأبسال التي ذكرت في مقامات العارفين ، ومنها قصّة الحمامة المطوّقة المذكورة في كتاب كليلة ودمنة ، ومنها حكاية الطير المذكورة في رسالة لأبي علي بن سينا ، ومنها حكاية حيّ بن يقظان . يفهم من كلّ منها إنّ للنفس قبل وجودها في هذا العالَم وجوداً سابقاً وفطرة أوّلية أصليّة في المراتب المتقدّمة ، وإنلها بعد هذا الوجود رُجوعاً وعَوداً إلىماهبطَت منه إن لم يعِقها عائقٌ عن الرجوع إلى أصلها .

قال بعض الحكماء مشيراً إلى ذلك ـ : إنّي كنتُ في هورقليا مع الخلّان والرفقاء والإخوان والآباء في فضاء فسيح شديد البهاء كثير الضياء ، أبدَع الله بعلمه القديم صوَر الكائنات في أحسن تقويم ، فيها رياض خُضر كان بينها نسج ديباج من الزهر والنور والزعفران ، فيأواسطها أنهار تجري على حصاة كأنّها الدرّ والياقوت والمرجان، فيها بيوتٌ عالية وقصورٌ شاهقة ، فيها سررٌ مَرفوعة وأكوابٌ موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابيّ مبثوثة يُطاف عليها وِلدان وغِلمان ، وحورٌ حسان لم يطمثهنّ قبلهم إنسٌ ولا جانّ . وقد استعمل أبيالفلاحة فيالأصقاع وتزيين البقاع بالعمارة .

فبعثني يوماً لتعمير قطر ، فإذاً أنا بحمّام كدِر وغارٍ مظلِم منقوش بصورة العالَمين ، استقرّ فيه أبناء الجنّ والشياطين العارفين بعلم السيمياء ، القادرين على إراءة الاشياء لاعلى ماهي عليها .

فشاهدتُ عجائب عديدة وغرائب كثيرة . منها إنّ رجلاً في مزبلةٍ عليها سماد

طريّة ، وجِيَف منتنة ، ويسئل الله أن يُثبته على هذه الحالة أبداً . ومنها إنّ رجلاً ضعيفاً عاجزاً به أوجاع وجراحات لاتُحصى كثرة في خَربة من المغارة المنقوشة يزعم و يدعي أن تلك المخربة عمارات ، وتلك الجراحات وتلك النقوش والصور خدمه و حشمه وهو ملك عظيم قدير ، يعاقِب من يشاء ويرحم على مَن يشاء . فابتليت بصحبتهم طويلاً ، وخرجت عن الفطرة كثيراً .

فنسيت ماكنت عليه ، فحسبت النار نوراً ، والظلَّ حَروراً ، والقبيحَ حسَناً ، والحسَن قبيحاً ، والموتَ حيوةً ، والحيوة موتاً ، والسرابَ شراباً ، والذلّة لذّة ، والراحة جراحةً . حتى نبّهني بعضُ آبائي الكرام الذين زيّنوا حافات تلك الظلام من أنوارهم بمصابيح ، وجعلوها رُجوماً لاولئك الشياطين ، ومَن انتمى إليهم من المَردة المَلاعين ، ووضعوا فيها سَلاليم ليسهل بها الرجوع والعُروج ، ومفاتيح ينفتح بها أبواب الخروج ، فأرسلوا من حَبْل شعاعهم خيوطاً ليعرج بها من مهاوي عالَم الزور والغرور الى معارج عالَم النور والسرور ، وذكروا أُموراً بها يتذكّر معاهد القدس فيجانس الإنس .

فتذكّرت وعلِمت إنّ اولئك الشياطين عارفين بالسيمياء ، قادرين على تغيير حقائق الأشياء في المرائي الموضوعة ، فيخيّلون النور ظلاماً ، والصحّة سقاماً ، فينسون أمر النفس وعهدها القديم ، ويُحيلون بين المرء ومطلوبه . فأعرضت عن هؤلاء وتتبّعت لأنوارهم ، واقتفيتُ لآثارهم ، وتعجّبت من تبدّل الحالات وتغيُّر الخيالات .

وقال بعض آخر : إنّ قطرةً انفصلت من البحر ، او شعلةً انقطعت من النار ، فعادت واتّصلت بما كان ، وطارت بأجنحة الكروبيّين .

[و]منها ماذكره انباذقلس الحكيم ، وهو : إنّ النفس إنّما كانت في المكان العالي الشريف ، فلما أخطأتْ سقطَت إلى هذا العالَم ، وإنّما صارتْ إلى هذا العالَم

فراراً من سخط الله ، لأنّها لمّا انحدرت إلى هذا العالَم صارت غياثاً للأنفُس التي قد اختلطتْ عقولُها ، فصارتْ كالإنسان المجنون . نادىٰ الناس بأعلى صوته وأمرَهم أن يرفضوا هذا العالَم وما فيه ، ويصيروا إلى عالَمهم الأوّل الشريف ، وأمرَهم أن يستغفروا الإله عزّوجلّ لينالوا بذلك الراحةَ والنعمةَ التي كانوا فيها .

ومنها ماقال أفلاطون الربّاني في كتاب له يُدعى « فاذان » : « علّةُ هبوط النفْس إلى هذا العالَم سقوطُ ريشها ، فإذا ارتاشَت ارتفعت إلى عالَمها الأوّل » .

ومنها ماقال هو ـ أيضاً ـ في بعض كتبه الذي يدعي « طيماوس » : إن علّة هبوط النفس إلى هذا العالَم أُمورٌ شتّى . وذلك إنّ منها ماهبطت لخطيئةٍ أخطأها ، وإنّما هبطَت إلى هذا العالَم لتُعاقَب وتُجازي على خطاياها . ومنها ماهبطت لعلّة أخرى » .

غير إنّه اختصرفي قوله وذمّ هبوطَ النفس وسُكناها في هذه الأجسام .

وقال في موضع آخر من طيماوس : إنّ النفْسَ جوهرٌ شريفٌ سعيدٌ ، وإنّما صارت في هذا العالَم من فعل الباري الخير ، فإنّ الباري لما خلَق هذا العالَم أرسَل إليه النفس ، وصيّرها فيه ليكون العالَم حيّاً ذا عقل ، لأنّه لم يكن من الواجب إذا كان هذا العالَم متقناً في غاية الإتقان أن يكون غيرذي عقل، ولم يكن ممكناً أن يكون العالَم ذا عقل وليست له نفْس . فلهذه العلّة أرسَل الباري النفسَ إلى هذا العالَم وأسكنَها فيه . ثمّ أرسل أنفسَنا وأسكنَها في أبداننا ، ليكون هذا العالَم تامّاً كامِلاً ، ولئلّا يكون دون ذلك العالَم في التمام والكمال . فينبغي أن يكون فيالعالَم الحسّي من أجناس الحيوان مافي العالَم العقلي .

ثمّ قال : إنّ هذا العالَم مركّب من هَيولىٰ وصورة ، وإنّما صوّرالهيولي طبيعة هي أشرف من الصوَر، وهي النفسالعقليّة ، وإنّما صارت النفْس تصوّر في الهيولىٰ بما فيها من قوة العقل الشريف وإنّما صار العقل مقوّياً للنفس على تصوير الهيولي

من قِبَل الإنّية الأولى ، التي هي علّة الإنّيات العقليّة والنفسانيّة والهيولانيّة وسائر الأشياء الطبيعية وإنّما صارت الأشياء الطبيعيّة حسَنة بهيّة من أجْل الفاعل الأوّل ، غير أن ذلك الفعل إنّما هو بتوسّط العقل والنفس .

ثمّ قال : إنّ الإنّية الأولىٰ الحقّ هو الخير المحض ، وهو الذي يفيض على العقل الحيوة أوّلاً ، ثمّ على النفس ، ثمّ على الأشياء الطبيعيّة .

ومنها ما قاله أرسطاطاليس ـ وهو المحمود اسمه ونعته في شريعتنا ، حتّى أنّه نُقل عن النبي ﷺ إنّه قال في حقّه : « هو نبيٌّ من الأنبياء جهله قومُه » . وقال لعليّ عليه السلام : « يا أرسطاطاليس هذه الأمّة » . وفي رواية أُخرى : « ياعليّ أنتَ أرسطاطاليس هذه الأمّة وذو قرنَيها » . وبرواية : « أنا ذو قرنَيها » . وقد رُوي إنّه ذُكر في مجلس النبي ﷺ أرسطاطاليس ، فقال ﷺ : « لو عاشَ حتّى عَرف ماجئتُ به لاتّبعني على ديني » ـ فلقد تكلّم في باب النفس الكلّية وهبوطها كلاماً يُشبه الرمز، وهو هذا[1] :

« إنّي رُبما خلوتُ بنفسي ، وخلعتُ بدني جانباً ، وصرتُ كأنّي جوهرٌ مجردٌ بلابدني، فأكون داخلاً في ذاتي[2] راجعاً إليها ، فأراي[2] في ذاتي من الحُسن والبهاء ماأبقي له متعجّباً بهِتاً .

فلما أيقنت بذلك رقيت بذهني من ذلك العالَم إلى [عالَم] العليّة الإلهيّة ، فصِرتُ كأنّي موضوعٌ فيها ، متعلّق بها ، فأكون فوقَ العالَم العقلي كلّه ، فأرى كأني واقفٌ في ذلك الموقف الشريف الإلهي ، فأرى هناك من النور والبهاء ما لايقدر الألسن على صفته ، ولاتعيه الأسماع ، فإذا استغرقني ذلك النور والبهاء ولم أقوِ على

١) اثولوجيا : الميمر الاول، ٢٢ . ونلفت نظر القارىء الكريم إلى ماحقّقه المحققون أخيراً من أنّ اثولوجيا لافلوطين وليس لأرسطو، راجع افلوطين عند العرب : المقدمة .

(٢-٢) المصدر : راجعاً اليها خارجاً من سائر الأشياء فأكون العلمَ والعالِم والمعلومَ جميعاً فأرى . . .

احتماله هبطت من العقل إلى الفكر والرويّة ، فحجبت الفكرةُ عني ذلك النور ، فابقي متعجباً أنيّ كيف انحدرتُ من ذلك الموضعِ الشامخ الإلهي . . . الذي هو علّة كلّ نور وبهاء .

ومن العجب أنّي رأيت ذاتي ممتلئةً نوراً ، وهي في البدن كهيئتها وهي غير خارجة منه [غير أنّي أطلتُ الفكرةَ وأجلتُ الرأيَ فصِرتُ كالمبهوت وتذكّرتُ عند ذلك ارقليطوس ، فإنّه أمر بالطلب والبحث عن جوهر النفس والحرص على الصعود إلى ذلك العالَم الشريف الأعلى] [1] وقال : إنّ مَن حرصَ على ذلك وارتقى إلى العالَم الأعلى جُوزي هناك أحسنَ الجزاء اضطراراً ، فلا ينبغي لأحد أن يفترّ عن الطلب والحِرص في الإرتفاع إلى ذلك العالَم وإن تَعب ونصَب فإنّ أمامَه الراحةُ التي لا تعَبَ بعدها ولا نصَب . وإنّما أراد بقوله هذا تحريضاً على طلَب الأشياء العقليّة لتجدَها كما وجَدَ ، وتُدركَها كما أدرك » .

ولأرسطاطاليس في كتاب المعروف بأثولوجيا ـ معناه معرفة الربوبيّة ـ تصريحاتٌ وإشارات على أنّ صورة الإنسان قبل هذه النشأة الحسّية كانت في العالَم العقلي موجودةً على وجه أعلى وأشرف من هذا الوجود الماديّ الظلمانيّ .

فقال في موضع منه [2]: « إن الإنسان الحسّي صنمٌ للإنسان العقلي، والإنسان العقليّ روحانيّ ، وجميع أعضائه روحانيّةٌ ، ليس موضع العَين غير موضع اليد ، ولا مواضع الأعضاء كلّها مختلفة ، لكنّها كلّها في موضع واحد » .

وقال في موضع آخر منه [3] : « إنّ في الإنسان الجسماني الإنسان النفساني والإنسان العقلي ، ولست أعني انّه « هو هما » لكني أعني انّه يتّصل بهما لأنه صنم

---

١) الاضافة من المصدر .

٢) اثولوجيا : الميمر الخامس : ٦٩ ، وفيه فروق يسيرة .

٣) اثولوجيا : الميمر العاشر : ١٤٦ ، وفيه فروق .

لهما ، وذلك لأنّه يفعل بعض أفاعيل الإنسان العقلي وبعض أفاعيل الإنسان النفساني ففي الإنسان كلمات الإنسان العقلي وكلمات الإنسان النفسي ، فقد جمع الإنسان الجسماني كِلتَي الكلمتين ، إلا انّهما فيه قليلة ضعيفة نزرة ، لأنّه صنمٌ للصنَم .

فقد بانَ إن الإنسان الأوّل حسّاس إلا انّه بنوع أعلى وأشرف من الحسّ الكائن في الإنسان السفلي ، وهو إنّما ينال الحسّ من الإنسان الكائن في العالَم الأعلى العقلي كما بيّناه » ــ انتهى كلامه .

وكلامه في النشآت الثلاث للإنسان يطابق القرآن كما وقعت الإشارة إليه ، فإنّ الإنسان العقلي هو الإنسان التامّ الكامل ، الذي كانت الملائكة كلّهم مأمورين بسجوده وطاعته ، والإنسان النفّسي هو الذي كان في الجنّة قبل هبوطه إلى هذا العالَم لأنّ الجنّة من مسارح النفس ومراتعها ، وفيها ماتشتهي الأنفس وتلذّ الاعيُن والإنسان السفلي هو المخلوط من التراب، المعرَّض للموت والفساد والشرّ والعداوة والخصومة كما في قوله : ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ .

فصلٌ

قوله [تعالى] : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا

الزَلّة ، والخطيئة ، والمَعصية ، والسّيّئة بمعنى واحد بحسب العُرف . وضدّ الخَطيئة : الإصابَة . يقال : « زلّت قدمُه زَلّاً » و« زلّ فيمَقالَتِه زَلّةً » والمَزِلّة : المكان الدَحَض . والأصل في ذلك الزوال . فالزَلّة زوالٌ عن الحق وتحوّلٌ عنه .

قال صاحب الكشاف : « معناه : فأصدر الشيطان زلّتهما عنها ولفظة « عَنْ » في هذه الآية كهي في قوله : ﴿وَمَافَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [١٨/٨٢] » .

ومن [1] قرء : « أزالهما » فهو من الزوال عن المكان .

وقال بعض العلماء : أزلّهما الشيطانُ ، أي : استزلّهما . وهو من قولك : « زلّ في دينه ، أودنياه » نسب الإزلال إلى الشيطان لما وقع بدعائه ووسوسته وإغوائه عنها - أي : عن الجنة وما كانافيه من عظيم الرتبة والمنزلة .

والشيطان المرادبه إبليس . فأخرجهما ممّا كانافيه من النّعمة والدّعة .

ويحتمل أن يكون المراد أخرجهما من الجنّة حتّى أهبطا . او من الطاعة إلى المعصية . وأضاف الإخراج إليه لأنّه كان السبب فيه . كما يقال : « صرَفني فلانٌ عن هذا الأمر » .

* * *

واختُلف في كيفيّة وصول إبليس إلى آدمَ وحواء حتّى وسوَس إليهما - وإبليس كان قد أُخرج من الجنّة حين أبي السجود ، وهما في الجنّة .

فقيل : إنّ آدم كان يَخرج إلى باب الجنّة ، وإبليس لم يكن ممنوعاً من الدنوّ منه . فكان يكلّمه . - عن أبي علي الجبائي .

وقيل : كان إبليس يدنو من السماء فيكلّمها . (ظا: فيكلمهما) .

وقيل : قام عند الباب فنادىٰ .

ورُوي[2] « إنّه أراد الدخول فمنعته الخزَنة ، فدخل في فَم الحيّة حتّى دخلت وهم لايَشعرون» . وهذا يُشبه قول القصّاص . ويحتمل أن يكون الحيّة إشارة إلى بعض قُوى النفس الإنسانية التي بوسيلتها يوقع الشيطانُ الوسوسةَ في قلب الإنسانية ، فكأنّه دخل بوسيلتها في روضة قلبه .

---

١) هذه قراءة حمزة : مجمع البيان : ١/٨٦ .

٢) الرواية عن ابن عباس وابن مسعود ووهب بن منبه ، راجع الدر المنثور : ١/٥٣ وتفسير الطبري : ١/١٩٠ .

وروي أيضاً مايقرب[من] هذا[١]، وهو إنّ إبليس دخل الجنّة في صورة دابّة .

واختلفوا أيضاً إنّ إبليس هل باشر خطابهما ، أويقال إنّه أوصل الوسوسةَ إليهما على لسان بعض أتباعه . وقوله تعالى ﴿وَقَاسَمَهُمَا انّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾ [٧/٢١] وكذا قوله : ﴿فَدَلَّيْهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [٧/٢٢] يقتضي المشافهة .

ودليل الثاني إنّ آدم وحوّاءكانا يعرفانه ، ويعرفان ماعنده من العداوة والحسد فبعيدٌ في العادة أن يقبلا قولَه ، وأن يلتفتا إليه ، فينبغي أن يكون وسوسته بالواسطة .

فصلٌ

قوله : ﴿اهْبِطُوا﴾ خطابٌ للجمع . وفيه وجوه [٢] :

أحدها إنّه خاطَب آدمَ وحواءَ وإبليسَ ، وهو اختيار الزّجّاج ، وبه قال جمع من المفسّرين ، وهذا غير منكَر وإن كان إبليس قد أُخرج قبل ذلك بدلالة قوله : ﴿ فَاْخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [٣٨/٧٧] فجمع الخبر للنبي ﷺ لأنّهم قد اجتمعوا في الهبوط وإن كانت اوقاتهم متفرّقة ، كما يقال : « أُخرِج جميعُ مَن في الحبسِ » وإن أُخرجوا متفرقين .

والثاني : إنّه أراد آدمَ وحواءَوالحيّةَ ـ وفيه بُعدٌ .

والثالث : إنّه أراد آدمَ وحواءَ وذريّتهما . لأنّ الوالدين يدلّان على ذريّتهما وتتعلّق بهما .

والرابع : ـ وهوالأولى ـ أنيكون الخطاب يختص بآدمَ وحواء ، والمراد هما وذريّتهما ، لأنّهما كانا أصلَي الإنس ومستشبعهم،جُعلا كأنهما الإنس كلّهم . والدليل عليه قوله . ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [٢٠/١٢٣] وهو من قبيل

---

١) راجع المصدرين السابقين .

٢) مجمع البيان : ١/ ٨٧ .

قوله : ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٣٨/٢] .

والخامس : إنّ المراد هو آدمُ وحواء فقط ، وخاطَب الإثنين على الجمع كما هو عادة العرب ، وعليه قاعدة علم الميزان ، وذلك لأن الاثنين أوّل الجمع . قال تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[٧٨/٢١] أراد حكم داودَ وسليمانﷺ . وقد تأوّل قوله تعالى : ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [١١/٤] على معنى فإن كان له أخوان .

والسادس : آدمُ وحوّاء والوسوسة ـ عن الحسَن ـ وهذا ضعيف .

[سرّ هبوط آدم]

واعلم إنّ إخراج آدم وحوّاء من الجنّة واهباطهما إلى الأرض لم يكن على وجه العقوبة ، لأنّ الدليل قد دلّ على أنّ الأنبياء لايجوز عليهم مايوجب الذمّ والعقاب لهم عليه . ومن أجاز العقاب للأنبياء ﷺ فقد أساء عليهم الأدب وأعظَمَ الفِرية على الله ، وذلك لأنّ مقامَهم بحسب الباطن عالَم القدس العقلي ومحلّ العصمة عن الشرور والطهارة عن الخبائث الطبيعيّة والأرجاس البدنيّة .

وإنّما أخرج الله آدم من الجنّة لأنّ المصلحة قد اقتضت تناوله من الشجرة ، والحكمةُ الإلهيّة قد قدّرت اهباطَه إلى الأرض وابتلائه بالتكليف والمشقّة تكميلاً للسعادات، وإخراجاً للذريّات من ظَهْره وبثّاً للخيرات ، وانفتاحاً لأبواب البركات ، فإنّ الرحمةَ الإلهيّة لمّا لم يجز وقوفها عند حدّ يبقى ورائها الإمكان الغير المتناهي . لأن قوّته غير متناهية ، وَجُوده غير محصور عند حدّ ليكون الفائض من رحمة وُجُوده قدرٌ متناه .

ثمّ أشرفُ الحوادث البدنيّة هي الأرواح الإنسيّة المتعلّقة بالقوالب البشريّة ولا يمكن خروجُ جميع النفوس الناطقة من القوّة إلى الفعل دفعةً واحدة على سُنّة الإبداع ، لامتناع الأبدان .

فلابدّ من تكثير هذا النوع الإنساني الذي تعلّقت العنايةُ الأوّلية بتدبيرأفرادها وتكثير أفرادها من التوالد والتناسل قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة ، ففي كلّ مدة يفيض من عالَم القدس الإلهي نفوساً إنسانيّة يرجع ماكمُل منها بالعلم والتقوى إلى الوطن الأصلي، والمكان العالي ومالم يكمل يمكث في بعض البرازخ السِفليّة أزماناً طويلة او قصيرة ، وأحقاباً كثيرة أوقليلة بحسب كثرة العوائق والأوزار وقلّتها ، وإذا كان الاعتقاد فاسداً ، والجهل راسخاً ، كان العقاب أبديّاً والخلاص مستحيلاً[1] .

فصلٌ

في بيان عصمة الانبياء عليهم السلام وماذكر فيها على طريقة المتكلّم[2]

لاشبهة في أنّ النبي لابدّ في اثبات نبوّته ورسالته من معجزة تقتضي صدق دعواه للنبوّة ، وما يتعلّق بها من التبليغ وشرعيّة الأحكام ، فما يُتوهّم صدوره عن الأنبياء من القبائح إمّا أن يكون منافياً لما تقتضيه المعجزة كالكذب فيما يتعلّق بالتبليغ أوّلاً . والثاني إمّا أن يكون كفراً ، أو معصية غيره . والثاني إمّا أن يكون كبيرة كالقتل والزنا ، اوصغيرة . والثانية إمّا أن تكون منفرّة كسرقة لقمة ، أو التطفيف بحبّة . اوغير منفرّة ككذبة ، أو همّة بمعصية . كلّ ذلك إمّا عمداً او سهواً . بعد البعثة ، او قبلها .

والجمهور من الاسلاميّين اتّفقوا على وجوب عصمتهم عمّا ينافي مقتضى المعجزة وما يتعلّق بالتبليغ ـ وإلاّ لارتفع الوثوق بالأداء ـ واتّفقوا على أنّ ذلك كما لايجوز عمداً ، لايجوز سهواً . وقد جوّزه القاضي سهواً ـ زعماً منه إنّه لايدخل

---

١) هذا نصّ صريح من المفسّر ـ ره ـ بسرمد العذاب على الكفار الراسخين في الجهل (خواجوي)

٢) راجع الأربعين للفخر الرازي المسئلة الثانية والثلاثون : ٣٢٩ إلى ٣٦٧ .

في التصديق بالمعجزة .

واتفقـوا أيضاً على وجوب عصمتهم عن الكفر ، وقد جوّزه الأزارقة من الخوارج ، بناءً على تجويزهم الذنب ، مع قولهم بأنّ كلّ ذنب كفر . وجوّز بعض فرق الشيعة اظهاره تقيّةً واحترازاً عن إلقاء النفس في المهلكة . ورُدّ بأنّ أولى الأوقات بالتقيّة ابتداء الدعوة ، لضعف الداعي وشوكة المخالف .

وكذا عن تعمّد الكبائر بعد البعثة ، فعند الأشاعرة سمعاً ، وعند غيرهم عقلاً وجوّزه الحشويّة إمّا لعدم دليل الامتناع لهم ، وإمّا لِما سيجيء من شُبَه الوقوع .

وكذا عن الصغائر المنفّرة لإخلالها بالدعوة إلى الاتّباع .

وكذا ذهب كثيرٌ من المعتزلة إلى نفي الكبائر قبل البعثة أيضاً .

وذهب الإماميّة إلى نفي الصغائر قبل البعثة وبعدها مطلقاً لاعمداً ولا سهواً

وذهب الأشاعرة إلى نفي الكبائر بعد البعثة مطلقاً ، والصغائر ـ عمداً لاسهواً ـ لكن لايصرّون ولايقرّون ، بل ينهون وينتهون .

وذهب إمام الحرمين منهم ، وأبوهاشم من المعتزلة إلى تجويز الصغائر عمداً .

* * *

لنا : لوصدر عنهم الذنبُ لزم أمورٌ كلُها فاسدةٌ بالدلائل العقليّة والسمعيّة :

أحدُها حرمة اتّباعهم . لكن النبيّ واجب الاتّباع بالاجماع وبقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [٣/٣١] .

الثاني ردّ شهادتهم . لقوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ الآية [٤٩/٦] لكن التالي منتفٍ ـ للقطع بأنّ من يُردّ شهادتُه في القليل من متاع الدنيا لايستحقّ القبول في أمر الدين القائم إلى يوم الدين .

الثالث وجوب منعهم وزجرهم ، لعموم أدلّة الامر بالمعروف والنهي عن المنكَر . لكنّه منتفٍ لاستلزامه ايذائهم ، وهو محرّم بالاجماع ، وبقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية [٥٧/٣٣] .

الرابع استحقاقهم العذاب والطعن واللعن واللوم والذم لدخولهم تحت قوله: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [٢٣/٧٢] وقوله : ﴿ الا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [١١/١٨] وقوله ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٦١/٢] وقوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [٢/٤٤] لكن كلّ ذلك منتفٍ عنهم بالإجماع . ولكون وقوعها من أعظم المنفّرات .

الخامس عدم نيلهم عهد النبوّة لقوله تعالى : ﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [٢/١٢٤] فإنّ المرادَ به النبوّة ، أو الإمامة دونها .

السادس كونهم غير مخلصين ، لأنّ المذنب قد أغواه الشيطان والمخلص ليس كذلك ، لقوله تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [١٥/٣٩-٤٠] لكنّ اللازم منتفٍ بالاجماع ، [و] بقوله تعالى في إبراهيم وإسحق ويعقوب : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ [٣٨/٤٦] وفي يوسف : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [١٢/٢٤] .

السابع كونهم حزب الشيطان ومتّبعيه ، واللازم قطعيّ البطلان . وذلك لأنّه تعالى قسّم الخَلق صنفين فقال في أحدهما ، ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [٥٨/١٩] وقال في الآخر : ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٥٨/٢٢] ولا خفاء في أنّ حزب الشيطان مَن يفعل ما يرتضيه ـ وهو المعصية .

الثامن عدم كونهم مسارعين في الخيرات ، معدودين عند الله من المُصطَفين الأخيار ، إذ لا خير في الذنب لكن اللازم منتف لقوله تعالى في حقّ بعضهم : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [٣٨/٤٧] ولفظ « الخيرات » للعموم ، فيتناول الكلّ والثاني أيضاً يتناول جميع الأفعال والتروك ،

بدليل جواز الاستثناء فيقال : « فلانٌ من المصطفين الأخيار ، إلاّ في فعْلِه الفلاني » والاستثناء يُخرج من الكلام مالولاه لدخل تحتَه . فثبت إنّهم أخيارٌ في كلّ الأُمور ، وذلك ينافي الذنب عنهم .

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [٢٢/٧٥] وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٣/٣٣] وقال في إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [٢/ ١٣٠] وفي موسى : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [٧/١٤٤] وقال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۞ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۞ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [٣٨/٤٥ – ٤٧] فكلّ هذه الآيات دالّة على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيريّة ، وذلك ينافي صدورَ الذنب عنهم .

التاسع إن النبيّ أفضل من الملَك – كما مرّ – والملائكةُ معصومون عن المعصية ، لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [٦٦/٦] وإذا كان الملَك معصوماً وجب أنْ [يكون] المساوي له في الفضيلة معصوماً – فضلاً عن الأفضل – وذلك لقوله : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٣٨-٢٨] .

والعاشر قوله تعالى في حقّ إبراهيم : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [٢/١٢٤] والإمام مَن يؤتَمّ به ، ولو صدَر عنهم الذنبُ لوجَب الإئتمام بهم في ذلك الذنب ، وذلك تناقضٌ .

* * *

وللمخالف في كل ماذكرناه محلُ بحثٍ وهوإن وجوب الاتّباع والإئتمام إنّما هو متعلّق بالشريعة وتبليغ الأحكام ، وبالجملة فيما ليس بذلّة ولاطبْع . وردّ الشهادة إنّمايكون بكبيرة أوإصرار على صغيرة من غيرإنابة ورجوع . ولزوم الزجر والمنع واستحقاق العذاب واللوم إنّما هوعلى تقدير التعمّد وعدم الإنابة ، ومع ذلك فلايتأدّى

به النبي ، وبمجرد كبيرة سهواً ، أوصغيرة ـ ولو عمْداً ـ لايعدّ المؤمن من الظالمين على الإطلاق ، ولامِن الذين أغواهُم الشيطان ولامِن حزب الشيطان ، سيّما مع الإنابة وعلى تقدير كون الخيرات لعموم كل فعْل وترك مسارعة البعض إليها لاينافي صدورَ ذنب عن آخر ـ سيّما سهواً ومع التوبة .

وبالجملة ـ فدلالة الوجوه على نفي الكبيرة سهواً ، وللصغيرة الغير المنفرّة عمْداً ـ على ماهو المتنازَع فيه ـ محلّ نظر .

* * *

واحتجّ المخالِف بمانُقل من أقاصيص الأنبياء ، وماشهِد به ظاهرُ كتاب الله من نسبة المعصية والذنب إليهم ، ومن توبتهم واستغفارهم ـ وأمثال [ذلك] .

والجواب عنه ـ أمّا إجمالاً ـ فهو إن مانُقل آحاداً فمردود ، وما نُقل متواتراً أو منصوصاً في الكتاب فمحمولٌ إمّا على ترْك الأولى ـ كما عندنا ـ أو على السهو والنسيان ـ كما عند من جوّزهما عليهم ـ أو كونه قبل البعثة ـ كما عند من جوّز المعصية عليهم قبل البعثة ـ أو غيرذلك من المحامل والتأويلات

وأمّاتفصيلاً فهو مذكورٌ في التفاسير وفي الكتب المصنّفة ، وسيأتي ذكرها في تفسير تلك الآيات على الاستقصاء ، ونشير إلى معاقدها هيهنا .

* * *

أمّا ماورَد في قصة آدم فأمران :

أحدهما ماورَد في التنزيل إنّه عَصى وخالَف النهيَ عن أكل الشجرة ، واعترف نفسُه وعوتِب قولاً وفعِلاً ـ أمّا قولاً : فبقوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [٢٢/٧] وأمّا فِعلاً فبنزْع اللباس والاخراج من الجنّة ـ ثمّ تابَ الله عليه واجتباه وبالجملة ففي قصّته سبع دلالات على عدم عصمته :

الأوّل كونه عاصياً ، لقوله : ﴿وَعَصَىٰ﴾ .

والثاني الغيّ لقوله تعالى : ﴿فَغَوَىٰ﴾ [٢٠/١٢١] وهو ضدّ الرشد .

والثالث التوبة . لقوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [٢/٣٧] وهي لايكون إلاّ من الذنب .

الرابع : ارتكابه المنهيّ في قوله : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾[٧/٢٢] .

الخامس : سمّاه ظالماً في قوله : ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢/٣٥] وهوسمّى نفسَه ظالماً في قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [٧/٢٣] والظالمُ ملعونٌ لقوله تعالى : ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [١١/١٨] ومَن استحق اللعن لولا التوبة ـ كان صاحب كبيرة .

السادس : كونه خاسراً لولا مغفرة الله ، لقوله : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٧/٢٣] وذلك يقتضي كونه ذا كبيرة .

السابع : إنّه أُخرج من الجنّة جزاء على ماأقدم عليه من طاعة الشيطان .

ولكلّ من هذه الوجوه جوابٌ تفصيليٌّ سيأتي . والجواب إجمالا من وجوه :

أحدها ـ وهو المختار ـ إنّ النهي للتنزيه ، وإنّما سُمّي ظالماً وخاسِراً لأنّه ظلَم نفسَه وخسر حظَّه بترك ماهو الأولى له . وأمّا إسناد الغيّ والعصيان إليه فسيأتي . وإنّما أمَر بالتوبة تلافياً لما فات عنه ، وجرى عليه ماجرى معاتبةً له على ترك الأولى ، لأنّ مثله عن مثلهم عظيمٌ « حسَناتُ الأبرارِ سَيّئاتُ المُقرَّبين » ووفاءٌ بما قاله للملائكة قبل خَلقه .

وثانيها إنّه فعلَه عن نسيان، لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[٢٠/١١٥] ولكنّه عوتِب بترك التحفّظ عن أسباب النسيان وترك اليقظة ، والتنبّه لاصابة المراد ، ولعلّ النسيان ـ وإن حطّ عن الأمّة ـ لم يحط عن الأنبياء لِعظَم قدْرهم ، كما قال ﷺ[1]:

---

١) الجامع الصغير : ١/٤٢ .

« أشدّ الناس بلاء الأنبياء ، ثمّ الأولياء ، ثمّ الأمثل فالأمثل » .

وثالثها إنّه أدّى فعلُه إلى ماجرى عليه على طريقة السببيّة المقدّرة دون المؤاخذة ، كتناول السمّ على الجاهل بشأنه ، وفيه مصلحة باقية .

لايقال « إنّه باطلٌ ، لقوله تعالى : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا﴾ [٧/٢٠] ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [٧/٢١] الآيتين » لأنّه ليس فيهما مايدلّ على أنّ تناولَه حينما قاله إبليس ، فلعل مقاله أورث فيه ميلاً طبيعياً ، ثمّ إنّه كفّ نفسه عنه مراعاة لحكم الله ، إلى أن نَسي ذلك وزالَ المانع ، فحمَله الطبع عليه بتقدير الله .

ورابعها : قيل إنّه أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأفيه ، فإنّه ظنّ إنّ النهي للتنزيه أو الإشارة إلى عين تلك الشجرة ، وتناولَ من غيرها من نوعها ، وكان المراد بها الإشارة إلى النوع ـ كما رُوي [1] إنّه ﷺ أخذ حريراً وذهباً بيده وقال : هذان محرّمان على ذكور أمّتي ، حِلٌ لاناثها » وإنّما جرىٰ عليه ماجرى تفظيعاً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده .

وثانيهما : قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ [٧/١٨٩ـ١٩٠] قالوا : هذه الكنايات كلّها عائدةٌ إليهما ، فيقتضي صدورَ الشرك عنهما

والجواب أنّه لم يقل أحدٌ في حقّ الأنبياء ﷺ الشرك في الألوهيّة مطلقاً ، فالوجْه أن يقال : لانسلّم إنّ النفس الواحدة هي آدم ، وليس في الآية مايدلّ عليه . بل قيل : الخطاب لقريش ، وهم « آل قُصيّ » . والنفس الواحدة « قُصيّ » . ومعنى ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ جعلها من جنسها زوجة عربيّة قرشيّة . واشراكهما فيما آتاهما الله تسمية أولادهما بعبد مناف ، وعبدالعزّى ، وعبدالدار ، وعبد قصيّ .

أو يقال : إنه على حذف المضاف ، أي جعل أولادَهما شركاء له . بدليل قوله

---

١) راجع بحار الانوار : ٧٧/١٦٦ . (كتاب الروضة : باب ٧) .

﴿ فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٧/١٩٠] .

أو المراد ماوقع له من الميل إلى طاعة الشيطان ووسوسته ـ ميلاً نفسانياً .

وأمّا الشبهة في حقّ نوح عليه السلام هو إنّ قوله تعالى : ﴿ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [١١/٤٦] تكذيب له في قوله : ﴿ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ [١١/٤٥] .

والجواب : إنّه ليس للتكذيب ، بل للتنبيه على أنّ المراد بالأهل في الوعد هو الأهل الصالح . أو المعنى : إنّه ليس من أهل دينك بحسب القرابة المعنوية ، وإن أضفتَه إلى نفسك بحسب البنوّة الصوريّة .

وقيل : إنّه كان ابن امرأته ، فالمعنى : إنّه أجنبيّ منك ، وكنت سمّيته بابنك لاختلاطه بأبنائك ، والأجنبيّ إنّما يعدّ من آل النبي إذا كان له عملٌ صالح ـ وهو عملٌ غيرصالح .

وأمّا الشبهة في حق إبراهيم ـصلوات الله عليه ـ فهو إنه كذب في قوله : ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [٦/٧٦]و﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [٢١/٦٣] و ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [٣٧/٨٩] .

والجواب : إنّ الأول على سبيل الفرض والتقدير ،كما يوضع الحكم الذي يراد ابطاله ، أو على الإستفهام ، أو على أنّه كان في مقام النظروالاستدلال . والثاني على سبيل التعريض والاستهزاء . والثالث على أنّ به مرض الهمّ والحزن منعنادهم أو الحمّى ـ على ماقيل ـ .

وأمّا الشبهة في حقّ يوسف فمن جهة يعقوب الإفراط والمحبّة والحزن الشديد والبكاء .

والجواب : إنّه لامعصية في ميل النفس ، سيّما إلى مَن يَلوح آثارُ الخير والصلاح وأنواع الكمال . ولافي بثّ الشكوى والحزن إلى الله في مصائب يكون من جهة العباد ، سيّما قد قال إنّه كان من خَوف أن يموتَ يوسفُ على غيردين الإسلام .

ومن جهة الإخوة مافعلوا بيوسف وماقالوا من الكذب .

والجواب إنّهم لم يكونوا أنبياء .

ومن جهة يوسف الهمّ المشار إليه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [١٢/٢٤] وجعْل السقاية في رَحل أخيه ، والرضا بسجود إخوته وأبويه .

والجواب : إنّ المراد : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والبرهان هو ماعنده من الصوارف العقليّة الزاجرة للنفس عن فِعل القبيح . أو المراد من « الهمّ » الميل الشهوي الحيواني الموجود في الطبائع البشرية ، ولولا الزاجر الشرعي لَما انتهى عن كلّ مايمكنه من القبائح ، ولولا المعرفة الكاملة للقوّة العقليّة المنوّرة بحقيقة التقوى لوقَع منه فعلُ مالاينبغي أحياناً . وليس المراد الهمّ بالمعصية والقصد إليها .

وقيل : هو من باب المشارفة ، أي : شارَف أن يهمّ . وبالجملة فلادلالة هيهنا على العزم والقصد إلى المعصية ـ فضلاً عمّا يذكره الحشويّة من الحشويّات ـ ولهذا ورَد في هذا المقام من الثناء على يوسف عليه السلام ماورد ، من غير أن يبقى عليه زلّة ، أو يُذكر له استغفار وتوبة .

أما جعْل السقاية في رحْل أخيه : فقد كان بإذنه ورضاه ـ بل بإذن الله ـ ونسبة السرقة إلى إخوته توريةً عمّا كانوا فعَلوا بيوسفَ، وممّايجري مجرى السرقة . أو هو قول المؤذّن .

والسجدة كانت عندهم تحيّة وتكرمة ، كالقيام والمصافحة . أوكانت مجردَ انحناء وتواضع ـ لاوضع الجبهة على الأرض .

وأمّا الشبهة في قصة موسى عليه السلام بقتل القبطيّ وتوبته عنه ، واعترافه بكونه من عمل الشيطان فمحمولٌ عندنا على أنه لترك ماهو الأولى . وقيل إنه كان خطأً وقبل البعثة .

وإذنه للسَحرة في إظهار السِحر بقوله : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ [١٠/٨٠] ليس رضاً به ، بل الغرض إظهار بطلانه أو اظهار معجزته ، ولايتمّ إلاّ به . وقيل :

لم يكن حراماً .

وإلقاء الألواح كان عن دهشة وتحيّر لشدّة غضبه .

والأخذ برأس هرون وجرّه إليه لم يكن على سبيل الايذاء ، بل يدنيه إلى نفسه ليتفحّص منه حقيقةَ الحال ، فخاف هرون أن يحمله بنو اسرائيل على سبيل الايذاء ، ويُفضي إلى شماتة الأعداء ، فلم يثبت بذلك ذنبٌ له ولا لهرون ، فإنّه كان ينهاهم عن عبادة العجل .

وقوله للخضر : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً ﴾ [٧٤/١٨] أي : عجباً . وما فعله الخضر كان بإذن الله تعالى ، فلم يثبت لهما ذنبٌ أصلاً .

وأمّا الشبهة في قصة داود عليه السلام فلم يثبت سوى أنه خطَب امرأة كانت خطَبها اوريا ، فزوّجها أولياؤها داود ـ دون اوريا ـ أو سأل أن ينزل عنها فيطلّقها ، وكان ذلك عادةً في عهده فكان زلّة منه لاستغنائه بتسعة وتسعين .

والخصمان كانا ملَكين أرسلَهما الله إليه لينبّهاه ، فلما تنبّه استغفر ربّه وخرّ راكعاً . وسياق الايات يدل على كرامته عند الله ونزاهته عما ينسب إليه الحشويّة ، إلاّ إنّه بالَغ في التضرّع والتحزّن والبكاء والاستغفار استعظاماً للزلّة بالنظر إلى مالَه من رفيع المنزلة .

وتقرير الملَكين تمثيلٌ وتصويرٌ للقضيّة ، لا إخبار بمضمون الكلام ليلزمَ الكذب ويحتاجَ إلى ماقيل : « إن المتخاصمين كانا لُصّين دخَلا عليه للسرقة ، فلما رآهما اخترَعا الدعوى . أو كانا راعيَي غنم ظلَم أحدُهما الآخر ، والكلام على حقيقته » .

وأمّا الشبهة في قصّة سليمان ـ على نبيّنا وعليه السلام فأمور :

أحدها مايشير إليه بقوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ إلى آخره [٣١/٣٨] وذلك إنّه اشتغل باستعراض الأفراس حتى غربت الشمس ، وغفل عن العصر ـ أو وِرْدٌ كان له وقت العشي ـ فاغتمّ لذلك واستردّ الأفراس فعقرَها .

والجواب إنّ ذلك كان لأجل الاستغراق في الالتفات إلى أسباب الدنيا ، او كان على سبيل النسيان ـ كما قيل ـ وعقّر الجياد وضرّب أعناقها كان لإظهار الندم وقصد التقرّب إلى الله والتصدّق على الفقراء من أحبّ ماله .

على أنّ من المفسّرين مَن قال : المراد حبّه للجهاد وإعلاء كلمة الله ، وضمير ﴿ تَوَارَتْ ﴾ للجياد ـ لا للشمس . وإنّما طفِق مسحاً بالسوق والأعناق تشريفاً لها وامتحاناً ، وإظهاراً لإصلاح آلة الجهاد .

وثانيها ما أُشير إليه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ الآية [٣٨/٣٤] فإن كان ذلك ماروي[١] « إنّه وُلد له إبنٌ ، وكانَ يغذوه في السحابةِ خوفاً من أن يَقتله الشياطين أو يخبله ، فما راعه أن أُلقي على كرسيّه ميتاً فتنبّه لخطائه في ترك التوكّل ، فاستغفر وتاب » فهذا ممّا لا بأس به ، وغايته ترك الأولى ، إذ ليس في التحفّظ ومباشرة الأسباب ترك الامتثال لأمر التوكّل ، على ما قال رسول الله ﷺ [٢] : « إعقله وتوكّل » .

وكذا ما روي [٣] إنّه قال : « لأطوفنّ الليلةَ على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله » ولم يقل : « إن شاء الله » فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشقّ ولد له عينٌ واحدة ، ويدٌ واحدة ، ورِجلٌ واحدة ، فألقته القابلةَ على كرسيّه .

وأما ماروي[٤] من حديث الخاتَم ، والشيطانِ ، وعبادةِ الوثن في بيته ، وجلوس الشيطان على كرسيّه ـ فعلى تقدير صحّته ـ يجوز أن يكون اتّخاذ التماثيل غير محرّم في شريعته ، وعبادة التمثال في بيته غير معلوم الوقوع .

---

١) الكشاف : في تفسير الاية .

٢) الجامع الصغير ، ١/٤٧ : « اعقلها وتوكّل » .

٣) كذا في الكشاف في تفسير الآية وفي الدر المنثور (٥/٣١١) : « بمأة امرأة ... » .

٤) راجع الدرا لمنثور: ٥/٣٠٩ إلى ٣١٣ ، راجع أيضاً الكشاف في تفسير الآية .

وثالثها ما يشعر به قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [٣٨/٣٥] من الحسد، وعدم إرادة الخير للغير.

والجواب: إنّ ذلك لم يكن حسداً، بل طلباً للمعجزة على وفق ما غلب في زمانه ولاقَ بحاله، فإنّهم كانوا يفتخرون بالمُلك والجاه، وهو كان ماشياً في بيت المُلك والنبوّة ووارثاً لهما، أو اظهاراً لإمكان طاعة الله وعبادته مع هذا المُلك العظيم.

وقيل: أراد مُلكاً لا يورَث منه، وهو مُلك الدين ـ لا الدنيا ـ أو مُلكاً لاأسلَبه ولايقوم فيه غيري مقامي، كما وقع ذلك مرّة. وقيل: مُلكاً خفيّاً لاينبغي للناس وهي القناعة. وقيل: كان مُلكاً عظيماً، فخاف أن لايقوم غيرُه بشكره ولا يحافظ فيه على حدود الله.

وأمّا الشبهة في قصة يونس عليه السلام مما يشعر به قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [٢١/٨٧] رزقه فلا يوجب شكّاً في قدرته لأنّ المراد: ذهب مُغاضباً لقومه، فظنّ ـ أي: استيقن ـ أن لّن نّقدِرَعَلَيْه ـ أن لن نَضيق رزقَه. ومنه قوله تعالى ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [٨٩/١٦] أي: ضيق وقتر.

ومعنى الظلم في قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ترك الأفضل. وهو مثل هذه العبارة التي فرغ لها في بطن الحوت. هذا هو المرويّ عن الرضا عليّ بن موسى عليه السلام في الجواب عن سؤال مأمون في هذا الموضع [١].

وأما في حقّ نبيّنا صلى الله عليه وآله فمثل: ﴿اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [٤٠/٥٥] و ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [٩/١١٧] و ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [٤٨/٢] فمحمول على ترك الأفضل.

قال الرضا عليه السلام [١] في جواب مأمون عن قوله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

١) عيون أخبار الرضا (ع): الباب ١٥:١/٢٠١.

ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ : « إنّه لم يكن أحدٌ عند مشركي مكّة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ، لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمأة وستّين صنماً ، فلمّا جاءهم ﷺ بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبُر ذلك عليهم وعظُم ، وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ ﴾ [٣٨/٥-٧] فلمّا فتح الله على نبيّه ﷺ مكّة قال : يا محمد ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدّم وما تأخّر » .

فقال المأمون ـ لمّا سمع هذا الجواب بعد الأجوبة عن سائر السؤالات الموردة على عصمةِ الأنبياء ﷺ : « لقد شفيتَ صدري يابن رسول الله وأوضحتَ لي ما كان ملتبساً ، فجزاك الله عن أنبيائه وعن دين الإسلام خيراً .

وأمّا قوله : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ فمعناه فقدان الشرائع والأحكام . وقيل: إنّه ضلّ في صِباه في بعض شِعاب مكّة ، فردّه أبو جهل إلى عبدالمطلب . وقيل: ضلّ في طريق الشام حين خرج به أبو طالب ـ وبالجملة ـ لادلالة على العصيان والميل عن طريق الحقّ . ولذا قال تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [٥٣/٢] .

وأمّا قوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [٩٤/٢] فهو تمثيل لما كان يثقل عليه مِن حمْل أعباء النبوّة في أوائل البعثة، أو من تهالكه على إسلام أهل العناد وتلهّفه .

وأمّا قولـه : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [٩/٤٣] تلطّفٌ في الخطاب وعتابٌ على ترك الأفضل وإرشادٌ إلى تدبير الحرب والاحتياط .

وأمّا قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٨/٦٧-٦٨] عتابٌ على ترك الأفضل ، وهو أن لا يرضى باختيار أصحابه الفِداء .

وكذا الكلام في قوله : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [٦٦/١] وقوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [٨٠/١-٢] .

وأمّا ما روى إنّه قرء بعد قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [٥٣/١٩/ ٢٠] «تلك الغرانيقُ العُلى. وإنّ شفاعتُها لتُرتجى» فلمّا أخبره جبرئيل بما وقع منه حزن وخاف خوفاً شديداً فنزل قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [٢٢/٥٢] تسليةً له .

فالجواب : إنّه كان من إلقاء الشيطان في خياله ـ لاتعمّداً منه .

وقيل : بل الغرانيق هي الملائكة . وكان هذا قرآناً فنسخ .

وقيل معنى« تمنّى النبيّ » حديث النفس . وكان يوسوس إليه الشيطان غير الهُدى ، فينسخ الله وساوسَه من نفسه ويهديه إلى الصواب .

وأمّا قوله تعالى : ﴿ فَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[٣٣/٣٧] عتابٌ على أنّه أخفى في نفسه عزيمةَ تزويج زينب عند تطليق زيد إيّاها ، خوفاً من طعْن المنافقين ، ولا خفاء في أنّ إخفاء أمر دنيوي خوفاً من طعن أعداء الدين ليس من الصغائر ـ فضلاً عن الكبائر ـ بل غايته له ترك للأولى . وكذا مَيلان القلب ـ لو ثبَت .

وأمّا مثل قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٣٣/١] ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [٦/٥٢] ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [١٠/٩٤] ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [٣٩/٦٥] ﴿ وَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [١٠/٩٤] فجوابه : إنّ الأمر لايقتضي سابقة تركه ، ولا النهي سابقة فعله ولاالشرط وقوع مضمونه .

* * *

فظهَر أنّ جواز الصغيرة على الأنبياء ﷺ عمداً ـ فضلاً عن الكبيرة ـ ممّا

لم يثبت بقاطع . وقد دلّت الدلائل على وجوب عصمتهم.وأمّا وقوعها عنهم سهواً أو نسياناً فهو موضع اجتهاد .

فإن قيل : مابال زلّات الأنبياء ﷺ قد حكيت حيث يُقرء بأعلى الصوت على وجه الزمان ، مع انّ الله غفّار ستّار قد أمَر بالستر على من ارتكب ذنباً ؟

قلنا : ليدل على صدق الأنبياء ﷺ ، وكون مايتلقّون بأمر من الله ، من غير إخفاء لشيء ، وليكون امتحاناً للأمَم كيف بأنبيائهم بعد الاطّلاع على زلّاتهم . وليعلموا انّ الأنبياء ﷺ مع جلالة أقدارهم وكثرة طاعاتهم كيف التجأوا إلى التضرّع والاستغفار في أدنى زلّة وأقلّ تقصير .

فصلٌ

قوله [تعالى] : اهْبِطُوا

اختلفوا في أنّ هذا الأمْر هل هو أمر تعبُّد أو إباحة ؟ والأشبه عند قوم انّه أمْر تكليف، لأنّ فيه مشقّة شديدة ، لأنّ مفارقه ماكانا فيه من الجنّة إلى موضع لايحصل المعيشة فيه إلّا بالمشقّة والكدّ من أشقّ التكاليف . وإذا ثبت هذا فبطل مايظنّ انّ ذلك كان عقوبة ، لأنّ التشديد في التكليف لايكون إلّا لأجل الثواب ، فكيف يكون عقاباً مع مايترتّب عليه من النفع العظيم والثواب الجزيل .

وعند قوم من أهل المعرفة انّ أمر«اهبِطُوا»أمْر تكوين لهما ولذرّيتهما ، وذلك لأنّ الهبوط إلى الدنيا أو الأرض من الجنّة أو السماء ليس واقعاً تحت الاختيار ، وكلّ ماليس للعبد فيه اختيار فلامعنى للتكليف به . وأيضاً قوله : ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حكم يعمّ الناس كلّهم ، معناه ماعليه الناس من التمادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض . والقول بأنّ « الذريّة ماكانوا موجودين في ذلك الوقت فكيف تناولهم الخطاب ؟ » ساقطٌ عند العارف بخطاب الله ، وبأنّ الازمنة كلّها في حكم زمان واحد

عند الله . وبأنّ السامع لأمر التكوين وقول «كُنْ» يسمع الخطاب بسمْع ذاتي عقلي قبل هذا السمع الظاهري .

إشارةٌ مشرقيّةٌ

قد مرّ انّ للانسان نشآت ثلاث بحسب البداية النزولية ، وكذلك بحسب النهاية الصعودية للكمل . وله هبوطان وصعودان . وهذه النشأة الدنيوية آخر منازل الهبوط وأوّل منازل الصعود وهي دار التضادّ والتفاسد ، وعالَم التغالُب والتعادي ، لِضيق عرصَتها الوجوديّة ، وانحصار لذاتها الكونيّة ، وقصور خيراتها من أن يسع للجميع فلذلك ينبعث فيها حبّ التغالُب المؤدّي إلى العداوة . فقوله : ﴿ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ إشارة إلى ماهو من خواصّ هذه النشأة التي هي مهبط آدم وأولاده .

ولهذا احتاج كلّ مَـن في هذا العالَم إلى قـوّة غضبيّة يذبّ بها عن نفسه الآفة والشرّ ، وإلى قوّة شهويّة يجلب بها إلى نفسه النفع والخَير والحكمة في وجودهاتين القوّتين في الحيوان عموماً وفي الإنسان خصوصاً هو ماسبق ذِكره .

وفيه أيضاً إشارة إلى وجوب وجود خليفة من الله في الأرض في حفظ هذا النوع الإنساني ، وعدم جواز أن يُترك الناس وآراؤهم ، إذ لابدّ لهم من الشركة في الماء والطين ـ كما لايخفى ـ ولا يتمّ المشاركة إلاّ بالمعاملة ، ولا المعاملة ـ وهي مُثار الخصومات ومنبت العداوات ـ إلاّ بسنّةٍ وعدل . فإن لم يكن سُنّة سانٍ ، وعدل معدّل منصوبٍ من قِبل الله ، مخصوصٍ بمعجزات وكرامات يدلّ على صدقه حتّى يسمع دعوته ، وينقاد حكمه ، ويتّبع قوله ورأيه ، لأدّت العداوت والخصومات إلى الفساد وسفْك الدماء ، والهرج والمرج .

وقيل : يعني بقوله : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ آدم وذريّته ، وإبليس وذريّته ، ولم يكن من آدم إليه مايوجب عداوته إيّاه ، ولكن حسده الملعون وخالَفه ، فنشأت

بينهما العداوة ثمّ إنّ عداوةَ آدم له ايمان وحِكمة ، للخلاص من شرّه . وعداوة إبليس كفر وحيلة .

وقال الحسن : بين بني آدم وبني إبليس .

وليس ذلك بأمر بل هو تحذيرٌ ، لأنّ الله لايأمر بالعداوة . فالأمر مختصّ بالهبوط، والعداوة تجري مجرى الحال . لأنّ الظاهر يقتضي أنّه أمرَهما بالهبوط في حالة عداوة بعضهم بعضاً .

فصلٌ

قوله [تعالى] : وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

المُستَقَرّ: إمّا بمعنى المصدر، كقوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[٧٥/١٢] أو بمعنى المكان الذي يُستقرّ فيه ، كقوله : ﴿ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ [٢٥/٢٤] وقوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [٦/٩٨] فالأكثر على أنّ المراد هيهنا هو المعنى الثاني ، أي إنّها مستقرّكم حالتي الحيوة الدنيا والموت .

وعن ابن عباس،إنّ المستقرّ هو القبر ، أي يكون قبوركم فيها .

وقيل : الأوّل أولى ، لأنّه تعالى قرَن المتاع به وهو لايليق إلّا بحال الحيوة .

أقول : يحتمل أن يكون المستقرّ للاموات ، والمتاع للأحياء ، وفيه الإشارة إلى حال السائرين إلى الله ، والواقفين في هذا المهبط .

وقوله : ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : إلى يوم القيامة ـ إن أُريد الخطاب للجميع ـ أو إلى ساعة الموت ـ إن أُريد لكلّ واحد ـ فإنّ نسبة يوم القيامة ـ أي الكُبرى ـ إلى الكلّ كنسبة حالة الموت ـ وهي القيامة الصُغرى ـ إلى واحد واحد .

قوله جلّ اسمه :

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

تَلَقَّىٰ : أي قبل وأخذ وتناول آدمُ على سبيل الطاعة من ربّه وربُّ كلّ شيء : كلمات . والمراد فجعلها وسيلة . او سأله بحقّهن .

وإنّما اكتفى لدلالة مابعده عليه . ولأنّ معنى التلقّي يفيد ذلك وينبىء عمّا حذف من الكلام اختصاراً . ولذلك قال : ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ بالفاء الدالّة على الترتيب، لأنّه لم يتُب و[لا] يتوب عليه إلاّ بأن سأل بتلك الكلمات ، وكان الله قد علّمه طريق الإنابة ، وعرّفه وجوب التوبة ، وهداه إلى التوسّل بتلك الكلمات .

وقرء ابن كثير ﴿ آدَمَ ﴾ بالنصب و ﴿كَلِمَاتٌ ﴾ بالرفع ، ومعناه غير ذلك ، وهو أن الكلمات تداركته بالنجاة والرحمة .

ويحتمل أن يقال : إن التلقّي لماكان من المعاني الإضافيّة ـ وكان مَن تلقّى رَجُلاً فتَلاقَيا كلّ واحد صاحبَه ، وأُضيف الاجتماع إليهما معاً ـ صلح أن يشتركا في الوصف بذلك فيقال : كُلّما تلقّيتَه فقد تلقّاكَ ، فجاز أن يقال : « تَلَقّى آدمَ كلماتٌ » أي : أخذها واستقبلها . وجاز بالنصب . اي : جاءتْ من الله وتلقّته كلماتٌ . على مثل قوله : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٢/١٢٤] في قراءة ابن مسعود[1] .

---

١) قراءة إبن مسعود : « الظالمون » الفخر الرازي : ١ / ٤٦٩ .

وتلك الكلمات هي كلمات الله التي لاتبيد ولاتنفد أبداً ، وهي الجواهر العالية الموجودة بأمر الله ، بل هي نفس أوامر الله، وصوَرمافي علْم الله . وبمعرفتها والاتّصال بها والاعتصام بعُراها التي لاانفصام لها نجَت النفس الآدميّة عن عذاب يوم الآخرة .

وفي الأدعيه النبويّة[١] : «أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامّاتِ مِن شرِّ ماذرءَ في الأرضِ ومايَخرجُ منها ، ومايَنزل مِن السماءِ» .

* * *

واختلف في تلك الكلمات ماهي [٢] ؟ فقيل : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ ـ الآية ـ وهو المرويّ عن الحسن وقتادة وعكرمة وسعيد بن جبير ، وإنّ في ذلك اعترافاً بالخطيئة ، فلذلك وقعتْ موضع النَدم و حقيقته الإنابة .

وقيل : هي قوله : « لا إلهَ إلّا أنتَ ، سبحانَك وبحمدِك ربِّ انّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين . اللهم لاإله إلّا أنت سبحانك وبحمدِك ربِّ انّي ظلمتُ نفْسي فارحَمني إنّك خير الراحمين . اللهم لاإله إلّا أنت سبحانك وبحمدك ، ربِّ انّي ظلمتُ نفْسي فتُبْ عليَّ إنّك أنت التوّاب الرحيم » عن مجاهد ، وهو المرويّ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام [٣] .

وقيل : بل هي « سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلّا اللهُ ، واللهُ أكبر» .

وعن ابن مسعود[٤]: إنّ أحبَ الكلام إلى الله ماقاله أبونا حين اقترف السيئة : « سبحانك اللهم وبحمدك وتباركَ اسمك وتعالى جدّك ؛ لاإله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي ، إنّه لايغفر الذنوب إلّا أنت » .

---

١) المسند : ٣/٤١٩ .

٢) راجع مجمع البيان : ١/٨٩ .

٣) مجمع البيان : ١/٨٩ وجاء مايقرب من ذلك في تفسير القمي(٣٧) عن الصادق(ع) .

٤) الكشاف : ١/٢١١ .

وروي عن أهل البيت عليهم السلام [1] : « إنّ آدم رأى مكتوباً على العرشِ أسماء مكرّمة معظّمة ، فسأل عنها . فقيل له : هذه أسماء لأجلّ الخَلْق منزلةً عند الله تعالى والأسماء : « محمّد وعليّ وفاطمة والحسَن والحُسين عليهم السلام » فتوسّل آدم إلى ربّه بهم في قبول توبته » .

وعن ابن عباس [2] : قال آدم : يارب ألم تخلقني بيدك ؟ قال : بلى . قال : ألَم تنفخ فيّ الروح من روحك ؟ قال : بلى قال : ألم تسكنّي جنّتك ؟[3] قال : بلى قال : يارب إن تبتُ وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة ؟ [قال : نعم] .

* * *

أقول: وفي كلّ من هذه الأقوال إشارة إلى ماأوّلناه أوّلاً ، فإنّ روحَ التسبيح والتحميد إنّما يحصل للإنسان إذا توجّه بقلبه إلى عالَم التقديس والتحميد بالبرائة عن أدناس عالَم الطبيعة وذمائمها . وروح التوبة والإنابة انّما يحصل عند رجوعه إلى الحضرة الإلهيّة بالتجرّد عن ماسواها، وليس في تحريك اللسان والشفتين بتلك الأدعية والاوراد كثير فائدة ، مالم يكن معها حركة باطنيّة ورجوع معنويّ إلى الجنّة العالية التي كانت موطن أبينا المقدّس .

فالمعنى فيها : إن آدم ترك الخَلق وأمّ الحقّ ملتجئاً إليه باطناً وظاهراً ، باكياً ، طالباً منه التوبة والرجوع ، فتاب عليه ورجع .

وفيما روي عن أهل البيت عليهم السلام إشارة الى مقامات هؤلاء الاخيار، ودرجات هذه الذوات المكرمة والنفوس المطهرة في عالم عرش الله قبل بداية هذا الكون

١) مجمع البيان : ١ / ٨٩ .

٢) راجع المستدرك للحاكم : كتاب تواريخ المتقدمين ، ذكر آدم (ع) : ٢ / ٥٤٦ . والدر المنثور : ١ / ٥٨ .

٣) اضيف في المستدرك : « قال : أي رب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى » .

الدنيوي ، وبَعد رجوعهم عن هذه الدار ، واتّصالهم بتلك الكلمات التي لاتبيد ولا تنفد .

وفيما رُوي عن ابن عبّاس إشارة إلى أنّ المراتب اللاحقه هي أعيان المراتب السابقة ، وأنّ كل أحد يمكن وصوله إلى المقام الذي كان فيه بحسب الفطرة الأصليّة إن ساعَده التوفيق .

فقوله : «ألَم تَخلقني بيدِك» إشارة إلى مقامه السابق الربوبي الأسمائي . وقوله « ألَم تنفَخ فيَّ الروحَ من روحِك » إشارة إلى مقامه السابق الروحي في عالَم العقل المحض . وقوله : « ألَم تسكنّي جنّتك » إشارة إلى مقامه السابق النفسي في عالَم الحيوة النفسانيّ الجنانيّ ، وهو عالَم الجنّة والمغفرة .

وقال النخعي[1] : أتيتُ ابنَ عباس ، وقلتُ : ماالكلمات التي تلقّى آدمُ وحوّا من ربّه ؟ قال : علّم الله آدم وحوّاءأمْر الحجّ . فحجّا ، وهي الكلمات التي يقال في الحجّ ، فلما فرغا من الحجّ أوحى إليهما بأنّي قبلتُ توبتكما .

ورَوى[2] لما أراد الله أن يتوب على آدم طافَ بالبيت سبعاً ، والبيت يومئذ ربوة حمراء ، فلما صلّى ركعتين قال : « اللهم إنّك تعلَم سرّي وعلانيتي ، فاقبَل معذرتي . وتعلّم حاجاتي ، فاعطِني سؤلي . وتعلَمُ مافي نفسي ، فاغفر لي ذنوبي . اللهم إنّي أسئلك ايماناً يُباشر قلبي ، ويقيناً صادقاً حتى أعلَمَ إنّه لن يصيبني إلاّ ماكتبتَ [لي] والرضا بما قسمتَ لي » فاوحى الله إلى آدم : « يا آدم قد غفرتُ لك ذنبكَ ، ولم يأتني أحدٌ من ذريّتك فيدعوني بمثل الذي دعوتني به إلاّ غفرتُ ذنبه وكشفتُ همومَه وغمومَه ونزعتُ الفقَر من بين عينيه. وجاءته الدنيا وهو لايريدها »

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٤٧٠ .

٢) الدر المنثور : ١/ ٥٩ .

فصلٌ

قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أي : رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة فإن العبد كلّما توجّه بوجهه إلى الله توجّه تعالى بوجهه إليه « مَن كان لله كان الله له » . وفي الحديث الإلهي[1] : « مَن تَقرّبَ إليّ شِبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً » .

وإنّما رتّبه بالفاء على تلقّي الكلمات لتضمّنه معنى التوبة ، وهو الرجوع إلى الله بالقلب التقيّ ، والعِلم بقبح المعصية . وقد علمت إنّ توبةَ الربّ متوقّف على توبة العبد ، والإعتراف بالذنب والندم عليه ، والعزم على أن لايعود إليه .

وإنّما اكتفى بذكر آدم لأنّ حوّاء كانت تبعاً له في الحكم ، ولذلك طَوى ذكْر النساء في أكثر القرآن والسنن .

﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي : الرجّاع على عباده بالمغفرة ، أوالذي يكثر إعانتهم على التوبة . وأصل التوبة ــ كما مرّ ــ الرجوع .

قال القفّال [2] : « التوبة كالأوبة معنى . يقال : تَوبَ ، كما يقال : أَوبَ . قال تعالى ﴿ قَابِلِ ٱلتَّوبِ ﴾ [٤٠/٣] فقولهم : « تَابَ يَتوبُ تَوباً وتَوبَةً ومَتاباً ، فهوتائِبٌ وتَوّابٌ » كقولهم : « آبَ يَئوبُ أَوباً وأَوبَةً ، فهو آئِبٌ وأَوّابٌ » .

والتوبة لفظٌ مشترك فيها الربّ والعبد، فإذا وُصف بها العبدُ ، فالمعنى: رجع إلى ربّه . لأنّ كل عاصٍ هوفي معنى الهارِب من ربّه ، فإذا تابَ فقد رجع من هَربه ، فيقال : تابَ إلى ربّه ، والربّ تابَ على عبدِه . وقد يفارق الرجل خدمة رئيس فيقطع الرئيس معروفَه عنده ، ثمّ يراجع خدمته ، فيقال : فلانٌ عادَ إلى الأمير ، والأميرُ عادَ عليه بإحسانِه ومعروفِه » ــ انتهى كلامه .

---

١) المستدرك للحاكم : كتاب التوبة ، ٤/٢٤٧ .

٢) تفسير الفخر الرازي : ١/٤٧٢ .

فبالحقيقة رجـوعُ العبد إلى الحقّ عبارةٌ عن الخروج من قيد النفس بترك المعاصي والتعلّقات ، وتصفية القلب عن درن الشهوات ، ليستعدّ للقاء الله والجنّة . ورجوع الحقّ إلى العبد عبارةٌ عن كشف الحقيقة له بإفاضة الخيرات عليه ، وإنزال البركات إليه .

وبالجملة ـ كما انّ بُعد العبد عن الحقّ ـ وهو عبارة عن احتجابه عنه بالصفات الظلمانيّة والملكات الرديّة ، وهو يستلزم بُعد الحق عنه ـ مع إنّه مع كلّ شيء ، وهو أقرب إليه من كلّ قريب ـ فكذلك قُرب العبد من الحقّ برفع الحجب الظلمانيّة يستلزم قُرب الحق منه بتجلّي ذاته له بنور وجهه ، لا بمعنى أن يحصل له تغيّر وانتقال ـ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .

وهذا كما يقوله الفلاسفة في صيرورة الجوهر المفارق العقلي خزانةً لمعلومات النفْس بعد أن لم يكن من غير لزوم تغيّر في ذات تلك الخزانه ، بل من حيث كونها خزينة . وذلك لأجل تغيّر حدَث في النفْس . حيث استمدّت للاتّصال بها والاستفاضة منها .

و﴿الرَّحيم﴾ هو المبالِغ في الرحمة ، حيث يقبل التوبة من العبد وإن كانت المعصية شديدة والذنب عظيماً . وفي الجمع بين هذين الوصفين وعْـدٌ للتائب بالإحسان مع العفو ، واتيانهما بصيغة المبالغة دالٌّ على أنّ العبد لو تاب ثمّ عصى وتاب مراراً فيتوب الله عليه ويرحمه مراراً كما وردت به الآيات والأخبار والآثار ، وقام عليه الدليل العقلي .

[الآيات والأخبار في قبول التوبة]

أمّا الآيات : فمثل : ﴿تُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ تَوبَةً نَصُوحًا﴾ [٨/٦٦] ومعنى النصوح الخالص لله ، الخالي عن الشوائب . وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوابِينَ وَيُحِبُّ ٱلمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [٢/٢٢٢] وليس فيها تخصيص بوقتٍ دون وقت .

وأمّا الأخبار فكثيرة : منها قوله ﷺ [1] : «التائبُ حبيبُ الله» و: «التائبُ من الذنبِ كمَنْ لاذنبَ له» [2] .

ومنها مارُوي أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكليني في الكافي [3] مسنداً عن محمّد بن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : «يامحمّد بن مسلم ذنوبُ المؤمن إذا تابَ منها مغفورةٌ ، فليعمل المؤمنُ لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة . أما والله إنّها ليست إلّا لأهل الايمان» .

قلت : «فإن عادَ بعد التوبة والاستغفار في الذنوب ، وعاد في التوبة» ؟

فقال : «يا محمّد بن مسلم ـ أترى العبد المؤمن يندمُ على ذنبه ويستغفرُ الله منه ويتوبُ ، ثمّ لايقبل الله توبته» ؟

قلت : «فإنّه فعَل ذلك مِراراً ـ يذنبُ ، ثمّ يتوبُ ويستغفر» ؟

فقال: «كلّما عادَ المؤمن بالاستغفار والتوبة ، عادَ الله عليه بالمغفرة ، وإنّ الله غفورٌ رحيم ، يقبل التوبةَ ويعفو عن السيّئات ، فإيّاك أن تُقنّطَ المؤمنين من رحمة الله» .

وروي أيضاً في كتاب الكافي [4] حديثاً متّفقاً عليه عن أبي عبيدة ، قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام ـ يقول: «الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رَجل أضلَّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها ، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها» .

---

١) لم أجده بلفظه وجاء مضمونه في روايات أخر، وقال تعالى : إنالله يُحِبُّ التوابين ويُحب المتطهرين [٢/٢٢٢] .

٢) ابن ماجة :كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة : ٢/١٤٢٠ . الدرالمنثور: ١/٢٦١ .

٣) الكافي ،كتاب الايمان والكفر ، باب التوبة : ٢/٤٣٤ .

٤) الكافي ، الباب السابق : ٢/٤٣٥ .

وهذا الحديثُ ممّا هومنقولٌ في غيرهذه الطريقة عن رسول الله ﷺ بزيادة ألفاظٍ أخر ، وهو إنّه قال ﷺ [١] : « اللهُ [تعالى] أفرَحُ بتوبةِ عبدِه المؤمن مِن رَجُل نزَلَ في أرضٍ مُهلِكَة معَه راحِلته ، عليها طعامُه وشرابُه ، فوضَع رأسَه فنامَ نومةً ، فاستيقَظَ وقد ذهبَت راحلتُه ، فطلبَها حتّى إذا اشتدّ عليه الحرّ والعطَش ـ أو ماشاء الله ـ قال : « ارجعُ إلى مكاني الذي كنتُ [فيه]، فأقامَ حتّى أموت » فوضَع يده على ساعده ليموت ، فاستيقَظ فاذاً راحلته عنده ، عليها طعامُه وشرابه ، فالله أشدّ فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته » .

وفي بعض الألفاظ [٢] : فقال من [شدّة] فرحه إذا أراد شكر الله « أنا ربُّك ، وأنتَ عبْدي » .

وروِي أيضاً فيه [٣] مسنداً عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ الله تعالى أوحى إلى داود أن : ائتِ عبدي دانيال، فقل له : « إنّك عصيتَني فغفرتُ لك ، وعصيتَني فغفرتُ لك، وعصيتَني فغفرتُ لك . فإن أنتَ عصيتَني الرابعة لم أغفِر لك » فأتاه داود فقال: « يادانيال ـ إنّي رسول الله إليك ، وهويقول : يادانيال ـ إنّك عصيتني فغفرتُ لك، وعصيتني فغفَرتُ لك، وعصيتني فغفَرتُ لك . فإن أنتَ عصيتَني الرابعة لم أغفر لك» فقال له دانيال : « قد بلّغتَ يانبيّ الله » فلمّا كان في السحَر قام دانيال فناجىٰ ربَّه فقال : « ياربِّ ـ إنّ داود نبيّك أخبرني عنك أنّي قد عصيتك فغفرتَ ، وعصيتُك فغفرتَ ، وعصيتُك فغفرتَ لي . وأخبرَني عنك إن عصيتُك الرابعة لم تغفِر لي . وعزّتك وجلالك لئِن لم تعصمني لأعصينّك ، ثمّ لأعصينّك ، ثم لأعصينّك » .

ورُوي إن رجلا سئل أميرالمؤمنين عليه السلام عن الرجل ، يذنب ثمّ يستغفر ، ثمّ

---

١) صحيح مسلم : كتاب التوبة ، ١٧/ ٦١ .

٢) المصدر السابق : ١٧/ ٦٤ .

٣) الكافي : الباب السابق ، ٢/ ٤٣٥ .

يذنب ثمّ يستغفر ، ثمّ يذنب ثمّ يستغفر ؟ فقال عليه السلام : « ثمّ يستغفر أبداً حتى [يكونَ] الشيطان هو الخاسر . فيقول : لاطاقة لي معه » .

وقال عليّ عليه السلام : « كلّما قدرتَ أن تطرحَه في ورطة وتتخلّص ـ فافعَل » .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] : « إنّه لَيُغان على قلبي ، وإنّي لأستغفر الله في اليوم مأة مرة » . وفي رواية : « لَيُران » بدل « لَيُغان » . و« سبعين مرّة » بدل « مأة مرّة » .

* * *

واعلم إنّ « الغَيْن » شيء يغشى القلب فيغطّيه بعض التغطية ، وهو كالغَيم الرقيق الذي يعرض في الهواء ، فلايحجب عين الشمس ، ولكن يمنع ضوءها .

قال القاضي البيضاوي في شرح المصابيح : « الغَيْن : لغةٌ في الغَيم . وغَان كذا أي : غَطا عليه . وقال أبو عبيدة في معنى الحديث : أي يتغشّى قلبي مايلبسه . وقد بلغنا عن الأصمعي أنّه سُئل عن هذا الحديث ، فقال للسائل: عن قلب مَن تَروي هذا ؟ فقال: عن قلب النبي صلى الله عليه وسلم . فقال لو كان غير قلب النبي صلى الله عليه وسلم لكنت أفسّره لك .

والعلماءُ ذكَروا في تأويل هذا الحديث وجوهاً :

الأوّل : إنّ الله اطّلع نبيّه صلى الله عليه وسلم على مايكون في اُمّته بعده من الخلاف ومايصيبهم ، فكان إذا ذكر ذلك وجد غيناً في قلبه ، فاستغفر لاُمّته .

الثاني : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتقل من حالَةٍ إلى حالَة أرفع من الاُولى ، فكان الاستغفار لذلك .

الثالث : ـ وهو تأويل أرباب الحقيقة ـ إنّ الغَين عبارةٌ عن السُكر الذي كان يلحقه في طريق المحبّة الإلهيّة ، حتّى يصيرَ فانياً عن نفسه بالكلّية . فإذا عادَ إلى الصحْوِ بعد المحْو كان الاستغفار من ذلك الصَحْو .

---

١) الجامع الصغير : ١٠٤/١ . راجع أيضاً الكافي : ٤٣٨/٢ .

٢) تفسير الفخر الرازي : ٤٧٢/١ .

الرابع : وهو تأويل أهل الظاهر ـ إنّ القلبَ لاينفكُّ عن الخطَرات والخواطر والشهوات، وأنواع الميل والإرادات، فكان يستعين بالربّ في دفع تلك الخواطر» .

قال القاضي في ذلك الشرح : « ولله درّ الأصمعي في انتهاجه منهَج الأدب ، وإجلاله القلبَ الذي جعلَه الله موقع وحْيِه ومنزِل تنزيله ، فإنّه مشرَب سدّ عن أهل اللسان موارده ، وفتح لأهل السلوك مسالكه . وأحقّ مَن يُعرب أو يعبّر عنه مشايخ الصوفية ، الذين بارَك الحقّ أسرارَهم ، ووضعَ الذكرُ عنهم أوزارَهم ، ونحن بالنور المقتبَس من مشكوتهم نذهبُ ونقول :

لمّا كان قلبُ النبيّ ﷺ أتمّ القلوب صفاءً ، وأكثرها ضياءً ، وأعرَفها عرفاناً، وكان ﷺ معتنياً مع ذلك لتشريع الملّة وتأسيس السنّة ، مُيسّراً غير معسر، ولم يكن له بدّ من النزول إلى الرخص ، والالتفات إلى حظـوظ النفس ، مع ما كان ممتحَناً به من أحكام البشريّة ، فكان إذا تعاطى شيئاً من ذلك أسرعت كدورة مّا إلى القلب ، لكمال رقّته وفرط نورانيّته ، فإنّ الشيء كلّما كان أرقّ وأصفى كان ورود الكدورات عليه أبيَن وأهدى، وكان ﷺ إذا أحسّ بشيء من ذلك عدّه على النفس ذنباً فاستغفر منه » ـ انتهى كلامه .

ولايخفى إنّ التأويل الثاني والثالث أولى بأن ينسب إلى أهل الحقيقة ممّا ذكرَه وجعلَه منسوباً إليهم ، فإنّ النبي ﷺ من فَرط الجامعيّة وكمال المرتبة كان بحيث يسَع قلبُه الحقّ والخَلْقَ جميعاً ، ويفي قوّتُه بضبطِ الجانبين ، ولم يكن بحيث إذا تعاطى شيئاً من أمور السياسة أسرَعَ إلى قلبِه كدورةٌ ، لأنّ ذلك شأن ضعفاء العقول ـ أمثـالنـا .

فصـلٌ

وأمّا الدليل العقلي على أنّ الإنسان متىٰ تاب عن ذنبه لقد قبِل الله منه وغفَر له فهو مما يتوقّف اثبـاتُه على تحقيق معنى التوبة ، ومعنى وجوبها على الفورّ ،

ولنذكر نقاوةَ ماذكره المحققون من علماءِ الإسلام وحُكماء هذه الشريعة التي أتانا بها سيِّد الأنام ـ عليه وآله السلام والتحيّة والإكرام ـ في معناها ، وهو :

إنّ التوبةَ لايحصل إلاّ بأمور ثلاثة : أوّلها معرفة ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً بين العبد ومحبوبه ، وسموماً قاتلة لمن يباشرها .

فإذا عرف ذلك وتيقّنه حصل له من ذلك حالةٌ ثانية هي التألّم لفواتِ المحبوب والتأسّف مِن فعْل الذنوب . وهذا التألّم والتأسّف هو المعبَّر عنه بالندم .

وإذا غلب هذا التألّم حصَل حالةٌ ثانية هي القصد إلى أمور ثلاثة : أوّلهـا تعلّق بالحال والاستقبال والمضيّ . فالمتعلّق بالحال هو تركُ ماهو مقيمٌ عليه من الذنوب . والمتعلّق بالاستقبال هو العزمُ على عدَم العود اليها إلى آخر العمر . والمتعلّق بالماضي تلافى مايمكن تلافيه من قضاه الفوات والخروج من المظالِم ، فهذه الثلاثة ـ أعني المعرفة ، والندم ، والقصد إلى المذكورات ـ أُمورٌ مترتّبة في الحصول، وقد يطلق على مجموعها إسم التوبة . وكثيراً مّايُطلق على الثاني ـ أعني الندم ـ وحده ، وقد يُطلق على مجموع الأخيرين : الندم والعزم .

قال صاحب إحياء العلوم [١] : اعلم إن التوبة معنى منتظَم من ثلاثة أمور مترتّبة : عِلْمٌ وحالٌ وفِعْلٌ . . . أمّا العِلْم ـ وهو مَطلَع هذه الخيرات ، وأعني به الايمان واليقين . . . بأنّ الذنوب سمومٌ مهلكة . . . فيثمر نورُ هذا الايمان متىٰأشرَق على القلب نارَ الندم ، فيتألّم القلبُ به حيث يبصر بإشراق نورِ الايمان إنّه صار محجوباً عن محبوبه ، كمَن يشرقُ عليه نورُ الشمس وقدكان في ظلمة فسطَعَ النور بانقشاع سحابٍ او انصرافِ حجابٍ ، فرأى محبوبَه قد أشرفَ على الهلاك، فتشتعلُ نيرانُ الحبّ في قلبه ، فتنبعث بتلك النيران ارادتُه للانتهاض للتدارك .

فالعلمُ والندمُ والقصدُ المتعلّقِ [بالترك] في الحالِ والاستقبال ، والتلافي

---

١) احياء علوم الدين :كتاب التوبة ، الركن الاول : ٤/٣ .

للماضي ، ثلاثة معان مترتّبة في الحصول ، يُطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيراً مّايُطلَق على معنى الندم وحده ، ويُجعل العلم كالسابق والمقدّمة ، والترك كالثمرة والتابع . . . فيكون الندم محفوفاً بطرَفيه ، مثمرة بثمرته . فهذا معنى التوبة .

وأمّا اثبات وجوبها على الفور : فاعلم إن وجوب التوبة كما إنّه ظاهر بالآيات والأخبار، فهو واضح بنورالبصيرة عند من انفتحت بصيرتُه، وشرح صدره بنورالايمان ، حتى اقتدر أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلُمات الجهل، مستغنياً عن قائد يَقوده في كل خُطوة . فالسالك إمّا أعمى لايستغني عن القائد في خُطوة ، وإمّا بصيرٌ يهدي إلى أوّل الطريق ، ثمّ يهتدي بنفسه ، وكذلكالناس في طريق الدين ينقسمون هذا الإنقسام .

فمِن قاصرٍ لايقدرعلى مجاوزة التقليد في خُطوة ، فيفتقر إلى أن يسمعَ في كلّ قدَم نصّاً من كتاب الله ، أو سنّة نبيّه ، وربما يعوزه ذلك فيتحيّر ، فسيْر هذا ــ وإن طال عمرُه وعظُم جدُّه ــ مختصرٌ ، وخُطاه قاصرةٌ .

ومِن سعيدٍ شرَح الله صدرَه للاسلام فهو على نورمِن ربّه ، يتنبّه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوِصة ، وعقَبات متعِبة ، فيشرق في قلبه نور القرآن ونور الايمان ، وهو لشدّة نورباطنه يجتزىء بأدنى بيان ، وكأنّه ﴿يَكَادُ زَيْتُهَ يُضِيءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسّته نارٌ فهو ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهدِي ٱللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فهذا لايحتاج إلى نصٍّ منقولٍ في كلّ واقعة .

فمَن هذا حالُه إذا أراد أن يعرفَ وجوبَ التوبة فينظر أوّلاً بنورِ البصيرة إلى التوبةِ ماهي ؟ ثمّ إلى الوجوب مامعناه ؟ ثمّ يجمع بينهما ، فلايشكّ في ثبوته لها . وذلك بأن يعلمَ أنّ معنى الواجب ماهو واجبٌ في طريق الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك السرمد . . . ومعنى قول القائل «صار واجباً بالايجاب حديثٌ محضٌ» فإنّ مالاغرَض لنا عاجلاً وآجِلاً في فعلِه وتركِه فلامعنى لاشتغالنا به ، أوجبه

غيرُنا ، أو لم يوجبه .

فإذا عرف الوجوب ، وأنّه الوسيلةُ إلى سعادةِ الأبد ، وعلِم أنّ لاسعادة في دار البقاء إلاّ في لقاء الله عزّوجلّ ، وأنّ كلّ محجوب عنه فشقيٌّ لامحالة ، يَحول بينه وبين مايشتهيه ، محترقٌ بنار الفراق ونار جهنم ، وعَلِم أن لامبعد عن لقاء الله عزوجل إلاّ اتّباع الشهوات، والانس بما في هذا العالَم الفاني ، والإكباب على حبّ مالابدّ من فراقه ، وعلِم أن لامقرب من لقاء الله إلاّ قطع علاقة القلب عن زُخرف الدنيا، والإقبال بالكلّية على الله طلباً للانس بذكره ، والمحبّة بمعرفة جماله وجلاله على قدرطاقته ، وعَلِم إن الذنوبَ التي هي إعراضٌ عن الله واتّباعٌ لمحابّ الشياطين أعداءُ الله ، المبعدين عن حضرته بكونه محجوباً مبعداً عن الله ـ فلايشكّ في أنّ الانصراف عن طريق البُعد واجبٌ للوصول إلى القُرب ، وإنّما يتمّ الانصراف بالعِلْم والندم والعزم ، فإنّه مالم يعلَم إنّ الذنوب أسبابُ البُعد عن المحبوب لم يتألّم و لم يتندّم ، وما لم يتندّم ولم يتوجّع فلايرجع ، ومعنى الرجوع : الترك والعزم . فلاشكّ في أنّ المعاني الثلاثة ضروريٌّ في الوصول إلى المحبوب . فهكذا يكون الايمانُ الحاصلِ عن نورِ البصيرةِ .

وأمّا مَن لم يترسّخ لمثل هذا المقام المرتفع ذِروته عن حدود أكثر الخَلق ففي التقليد والإتّباع له مجالٌ رحبٌ يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله ﷺ والأئمة من بعده ، وقد سبَق بعضُ من الأخبار والأحاديث وهي كثيرةٌ لاتُحصى .

قال رسول الله ﷺ[1] حاكياً عن الله يقول لملائكته : «إذا همّ عبدي بالحسنةِ فاكتبوها له حسنةً ، فإنْ عملَها فاكتبُوها بعشرِ أمثالِها ، وإذا همّ بالسيّئةِ فعملَها فاكتبُوها سيّئةً واحدةً ، وإن تركها فاكتبوها له حسنةً» .

---

١) راجع البخاري : كتاب الرقاق : ١٢٨/٨ . المسند: ٢٢٧/١ و : ٢٣٤/٢ .

ورُوي(١) أن إبليس قال : ياربّ إنّك خلقتَ آدمَ وجعلتَ بيني وبينه عداوةً ، فسلّطني عليه . فقال الله تعالى : جعلتُ صدورَهم مساكنَ لك . فقال : ربّ زِدني . فقالَ : لايولد ولدٌ لآدم إلاّ وُلد لك عشرةٌ . قال: ربّ زِدني . قال: تَجري منه مَجرى الدمِ . قال: ربّ زدني . قال : اجلبْ عليهم بخيلِك ورِجْلك وشارِكْهم في الأموالِ والاولادِ .

قال : فشكىٰ آدمُ إبليسَ إلى ربّه ، فقال : ياربّ إنّك خلقتَ إبليسَ وجعلتَ بيني وبينه عداوةً وبغضاءً وسلّطتَه عليّ ، وأنا لاأطيقه إلاّ بك . فقال الله: لايولَد لك ولدٌ إلاّ وكّلتَ له ملَكين يحفظانَه من قُرناء السوء . قال : ربّ زدني . قال : الحسنةُ بعشر أمثالِها . قال : ربّ زدني . قال : لاأحجبُ عن أحدٍ من ولدِك التوبةَ مالم يُغرغر .

وبالجملة الأخبار كثيرة فيهذا الباب، والإجماع منعقدٌ من الأمّة على وجوبها لكن قد تدهش الغفلة عنه، فمعنى هذا العلْم إزالةُ هذهالغفلة ، ولاخلاف في وجوبها. ومن معانيها ترك المعاصي في الحال ، والعزم على تركها في الاستقبال ، وتدارُك ماسبق من التقصيرفي سابقِ الإحوال، وذلك لايشكّ في وجوبه . وأمّا الندم والتحزّن عليه فواجبٌ، وهو روحُ التوبة بعد العلم ، وبه تمام التلافي . فكيف لايكون واجباً بل هو نوع ألم يحصل لامحالة عقيب حقيقة المعرفة بما فاتَ من العمر وضاعَ في سخَط الله .

فإن قلت : تألّم القلب أمرٌ ضروري لايدخل تحت الاختيار ، فكيف يوصف بالوجوب ؟

فاعلم إن سببه تحقّق العلم بفواتالمحبوب . وللعبد سبيلٌ إلى تحصيل سببه ، وبمثل هذا المعنى دخَل العلمُ تحت الوجوب ـ لابمعنى إنالعلْمَ بخلقةِ العبدِ وحدوثِه

---

١) جاء مايقرب منه في الدر المنثور، ١/٥٥ . والشطر الثاني في الكافي : ٢/٤٤٠ .

في نفسه ، فإنّ ذلك محالٌ ، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادرُ كلّها من خَلْق الله وفعله ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦/٣٧] هذا هو الحقّ عند ذوي البصائر ، وماسوى هذا ضلالٌ ووبالٌ .

وقد مرّ مِراراً تحقيق نسبة الأفعال إلى الله ، وإنّ الكلّ بقضائه وقدره ، لابالمعنى الذي ذهب إليه الأشاعرةُ . ولابالمعنى الذي زعمه المعتزلةُ ولاالذي اشتهر من الحكماء . بل بالمعنى الذي هومحجوبٌ إلاّ على قوم شرّح اللهُ صدورَهم وباشَر قلوبهم نور الحقّ .

* * *

فإذا تقررتْ هذه المقدّمات فنقول : كلّ توبة إذا استجمعتْ شرائطَها فهي مقبولة لامحالة .

اعلم[1] إنّك إذا فهمتَ معنى القبول لم تشكّ في أنّ كلّ توبةٍ صحيحةٍ فهي مقبولةٌ، فالناظرون بنور البصائر، المستمدّون من نور القرآن علموا إنّ كلّ قلبٍ سليم مقبولٌ عند الله ، ومتنعّم في دار الآخرة في جوار الله ، ومستعدّ لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله . علموا إنّ القلب الإنسانيّ خُلِق في أصل الفطرة سليماً ، فكلّ مولودٍ يولَد على الفطرة وإنّما يفوته الاسلامُ بكدورةٍ ترهقُ وجهَه من غبرة الذنوب وظُلمتها ، وعلموا إنّ نار الندم تُحرق تلك الغبرة ، وإن نورَ الحسنةِ يَمحوعن وجه القلبِ ظلمةَ السيّئة ، وإنّه لاطاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات ، كما لاطاقة لظلام الليل مع نور النهار . بل كما لاطاقة لكدورة الوسَخ مع بياض الصابون .

فكما إنّ الثوب الوسِخ لايقبله الملِك لأن يكون لباسَه ، فكذلك القلبُ المظلَم لايقبله اللهُ تعالى لأن يكون في جوارِه، وكما إنّ استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسّخ الثوب، وغَسله بالصابون والماء الجاري ينظّفه لامحالة فكذلك استعمال القلب

١) احياء علوم الدين : ١٣/٤ .

في الشهوات بوسَخ القلب ، وغَسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظّفه ويطهّره ويزكّيه وكلّ قلبٍ زكيّ طاهرٍ فهو مقبولٌ ، كما إنّ كل ثوب نظيف فهو مقبولٌ ، وإنّما عليك التزكية والتطهير ، فأمّا القبول فمبذول وقد سبَق به القضاء الأزليّ الذي لامردّ له وهو المسمّى فَلاحاً في قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [١/٢٣] وقوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا﴾ [٩/٩١] .

ومن لم يعرف على سبيل التحقيـق معرفة أجلى وأقوى من المشاهدة بالبصر إنّ القلب يتأثّر بالمعاصي والطاعات تأثيراً (تأثراً ـ ن) متضاداً يُستعار لأحدهما لفظُ « الظُلمة » ـ كما يُستعار للجهل ـ ويُستعار للآخر لفظُ « النور » كما يُستعار للعلم وإنّ بين النور والظُلمة تضاداً ضرورياً لايتصور الجمع بينهما فكأنّه لم يعرِف من الدين [إلّا قشوره ، ولم يعلّق بقلبه] إلا أسمائه ، وقلبُه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين ، بل عن حقيقة نفْسِه . ومَن جهِل بنفْسه فهو بغيره أجهَل . وأعني به قلبه ، إذ بقلبه يعرفُ غيرَ قلبه . فكيف يعرف غيره ، وهو لايعرف قلبَه ؟

فمَن يَتوهّم إنّ التوبة تصحّ ولا تقبَل كمَن يتوهّم إنّ الشمسَ تطلعُ والظلام لايزول ، والثوبَ يُغسل بالصابون والوسَخ لايزول ـ إلا أن يغوص الوسَخ لطول [تراكُمه] في تجاويف الثوب وخلَله ، فلايقوى الصابون على قلْعه..

فمثالُ ذلك أن تتراكمَ الذنوبُ حتّى تصير طبعاً ورَيناً على القلب ، فمِثل هذا القلب لايرجع ولا يتوبُ ، نِعَم ـ قد يقول باللسان : « تُبتُ » فيكون ذلك كقول القصّار : « قَد غسلتُ الثوبَ » وذلك لاينظّف الثوبَ أصلاً مالم يغيّر صفة الثوب باستعمال مايضادّ الوصف المتمكّن منه .

فهذا حال امتناع [أصل] التوبة ، وهو غير بعيد ، بل هو الغالب على كافّة الخَلْق ، المقْبلين على الدنيا ، المعرِضين عن الله بالكلّية .

* * *

فهذا البيانُ كافٍ عند ذوي البصائر في قبول التوبة ، ولكنّا نعضد جناحَه بنقل الآيات والأخبار ـ كما مرّ ذكرُها ـ فكلّ استبصار لايشهد له الكتابُ والسنّة لايوثَق به .

فقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [٢٥/٤٢] وقال : ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [٣/٤٠] إلى غير ذلك من الآيات .

وقال ﷺ [١] : « لو عملتم الخَطايا حتّى تبلغَ السماءَ ثمّ ندمتم لتابَ اللهُ عليكم » .

وقال ﷺ أيضاً[٢] : « إنّ العبدَ ليذنبُ الذنبَ فيُدخله الجنّةَ » . قيل : وكيف ذلك يارسول الله ﷺ ؟ قال : « يكونُ نصبَ عينه تائباً فارّاً منه حتّى يدخلَ الجنّةَ » .

وقال ﷺ [٣] : « للهُ أفرَحُ بتوبةِ العبدِ ـ الحديث ـ » والفرَح وراء القبول ، فهو دليلٌ على القبول وزيادة .

وقال ﷺ [٤] : « إنّ اللهَ عزّوجلّ يبسط يدَه بالتوبةِ لمسيءِ اللّيلِ إلى النهارِ ، ولمسيء النهار إلى الليل ، حتّى تطلعَ الشمسُ من مغربها » فبسْط اليدِ كنايةٌ عن طلب التوبة . والطالب وراءَ القابل ، فربّ قابل ليس بطالب .

وقال ﷺ[٥]: « إنّ الحسناتِ يذهبنَ (تذيب ـ ن) السيئاتِ ، كما يُذهب الماءُ

---

١) ابن ماجة : كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة ، ١٤١٩/٢ : « لوأخطأتم حتى . . . ثم تبتم . . . » .

٢) قال العراقي (تخريج أحاديث الاحياء ـ ذيل احياء علوم الدين : ١٤/٤) : أخرجه ابن المبارك في الزهد . . .

٣) ابن ماجه : الباب السابق : ١٤١٩/٢ .

٤) جاء مايقرب منه في الجامع الصغير : ٧٤/١ : « إن الله تعالى يبسط . . . »

٥) قال العراقي : (١٤/٤) لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى ، وهو بمعنى « اتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذي .

الوسخ » . ويُروى [١] إن الله تعالى لمّا لعَن إبليسَ سأله النظرةَ . فأنظَره إلى يوم القيامة . قال : « وعزّتك لأ خرجتُ من قلب ابن آدم مادام فيه الروحُ » . فقال [تعالى] : « وَعزّتي[وجلالي]لأ مَنعتَه التوبةَ مادام فيه الروح » .

روى أبوسعيد الخدري [٢] ، قال النبي ﷺ : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتل تسعةً وتسعين نفْساً . فسأل عن أعلمِ أهل الأرض ، فدُلَّ على راهب . فأتاه فقال هل للقاتل من توبة ؟ فقال : لا . فقتلَه ، فكملَ به مأةً . ثمّ سأل عن أعلَم أهل الأرض فدُلّ على رجل عالِم . فقال له إنّه قتلَ مأة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعَم . ومَن يَحولُ بينه وبين التوبة ؟ انطلِق إلى أرض كذا وكذا ، فإنّ بها ناساً يعبدون اللهَ ، فاعبدْ معَهم ولاترجِع إلى أرضِك ، فإنّها أرض سوء . فانطلق حتى أتى نصفَ الطريق فأتاه المـوتُ . فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب . فقالت ملائكةُ الرحمة : جاءَ تائباً ، مقبِلاً بقلبه إلى الله تعالى . وقالت ملائكةُ العذاب : إنّه لم يعمل خيراً قطّ . فأتاهم ملَكٌ في صورة آدمي وتوسّط بينهم فقال : قيسوا مابين الأرضين ، فإلى أيّهما كان أدنى فهو له . [فقاسوه] فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد أن يسيرإليها ، فقبضته ملائكةُ الرحمة .

وعن رسول الله ﷺ إنّه قال[٣] : « إنّ عبداً إذا أصاب ذنباً قال : ياربِّ أذنبتُ ذنباً ، فاغفر لي . فقال ربُّه : إنّ عبدي علِم إنّ له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به . فقال له ربّه : غفرتُ لعبدي فليعمل ماشاء » ـ أخرجاه في صحيحهما ـ .

أبو أيّوب ، قال : كنتُ كتمتُكم شيئاً سمعتَ من رسول الله ﷺ يقول :

---

١) جاء مايقرب من معناه فى المستدرك للحاكم : كتاب التوبة : ٤/٢٦١ .

٢) مسلم : كتاب التوبة : ١٧/٨٤ .

٣) البخارى كتاب التوحيد : ٩/١٧٨ . مسلم : كتاب التوبة : ١٧/٧٥ . وفى اللفظ فروق يسيرة . راجع المستدرك للحاكم : ٤/٢٤٢ .

« لولا إنّكم تذنبون لخَلَق اللهُ خَلْقاً يذنبون ، ، ثمّ يغفرلهم » رواه مسلم [١] .

قال عبدالله[٢] : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجلٌ عليه كساء ، وفي يده شيء قد التفت (ظ : التفّ) عليه ، فقال : « يارسول الله ـ إنّي مررت بغيضة شجر ، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر ، فأخذتهن فوضعتُهن في كسائي ، فجاءت أمّهنّ فاستدرات على رأسي ، فكشفتُ لها عنهن ، فوقعتْ عليهن فلففتهن معها » .

فقال رسو لالله ﷺ : «ضعهنّ عنك» . فأبتْ أمّهن إلاّ لزومهن . فقال رسول الله ﷺ «أتعجبون [لرحم] أمّ الفراخ فراخَها» ؟ قالوا : «نعَم ـ يارسول الله» قال : « فوَالذي بعثني بالحق ـ لَلّه عزّوجلّ أرحم بعباده من أمّ الفراخ بفراخها ـ ارجع بهنّ حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمّهن معهن » فرجَع بهنّ .

وعن أبي إدريس الخولاني [٣] ، عن أبي [ذرّ] ، عن رسول الله ﷺ عن جبريل ، عن الله عزّوجلّ : ياعبادي ـ إنّي حرّمتُ على نفسي الظلمَ ، وجعلتُه محرّماً بينكم ، فلا تظالموا . ياعبادي ـ الذي تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولاأبالي ، فاستغفروني أغفرلكم . ياعبادي ـ كلّكم جائعٌ إلاّ من أطعمتُه فاستطعموني أطعمكم . ياعبادي ـ كلّكم عار إلاّ من كسوتُه فاستكسوني أكسيكم . ياعبادي ـ لوأن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على قلب أتقى رجُلٍ منكم لم يزد ذلك في مُلكي شيئاً . ياعبادي ـ لوأن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على قلب أفجَر

---

١) مسلم : كتاب التوبة ، ٦٤/١٧ .

٢) ابي داود : كتاب الجنائز ، الباب الاول ، ١٨٢/٣ . والراوي عبدالله بن محمد النفيلي .

٣) مسلم : كتاب البرّ والصلة : ١٣١/١٦ ، المسند : ١٦٠/٥ . وجاء اسم الراوي في النسخة « أبو مسلم الخولانى عن ابى » والصحيح ماأثبتناه مطابقاً للمصادر وما يجيء في آخر الحديث .

رجل منكم لم ينقص ذلك من مُلكي شيئاً . ياعبادي ـ لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألوني ، وأعطيتُ كلّ إنسان منكم ماسئل ، لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً إلاّ كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمْسة واحدة . ياعبادي ـ إنّما هي أعمالكم احفظها عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وَجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه .

قال : وكان أبو ادريس إذا حدّث بهذا الحديث جَثيٰعلى ركبتيه إعظاماً له .

وعن النبي ﷺ [1] ، قال : من استفتَح أوّل نهاره بالخير ، وختمه بالخير ، قال الله تعالى لملائكته : « لاتكتبوا علَى عبدي مابين ذلك من الذنوبِ » .

وروي[2] إن جبرئيل سمع إبراهيم عليه السلام يقول : ياكريم العفْو . قال جبرئيل : وتدري ماكريم العفو؟ فقال : لاياجبرئيل . قال : أن يعفو عن السيّئة ويكتبها حسَنة .

وفي الكافي [3] مسنداً ـ عن ابن أبي يعفور عن أبي عبدالله عليه السلام يقول : قال الله تعالى : « إنّ العبدَ من عبيدي المؤمنين ليذنب الذنبَ العظيم مما يستوجب[به] عقوبتي في الدنيا والآخرة ، فانظر له (فيها (المصدر)) بما فيه صلاحه في آخرته ، فأعجّل له العقوبة عليه في الدنيا لأجازيه بذلك الذنب ، واقدّر عقوبة ذلك الذنب واقضيه واتركه عليه موقوفا غير ممضي ، ولي في إمضائه المشيّة ، وما يعلم عبدي به . فأتردّد لذلك مراراً على إمضائه ثم أمسك عليه فلاأمضيه كراهة لمسائته ، وحَيْداً عن إدخال المكروه عليه فأتطوّل عليه بالعفـو عنه والصفح ، محبّة لمكافأته ، لكثير نوافله التي يتقرّب بها إليّ في ليله ونهاره فاصرف ذلك البلاء عنه وقد قدّرته وقضيته وتركته موقوفاً ولي في إمضائه المشيّة ، ثمّ اكتب له عظيم نزول أجر ذلك البلاء[4] ، وادخّره وأوفّره (اوفّر (المصدر))

١) الجامع الصغير : ١٦٣/٢ .

٢) الفخر الرازي : ٤٧٣/١ .

٣) الكافي: كتاب الايمان والكفر، باب نادر(بعد باب تعجيل عقوبة الذنب) ٤٤٩/٢.

٤) المصدر : ثم اكتب له عظيم أجر نزول ذلك البلاء .

له أجره ولم يشعر به ولم يصل إليه أذاه »وأنا الله الكريم الرؤوف الرحيم « .

وفي الكافي[١] أيضاً عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «مَن تابَ قبل موته بسَنة قبِل الله توبتَه . ثمّ قال : إنّ السنَة لكثير . من تابَ قبل موته بشهر قبِل الله توبتَه . ثمّ قال : إنّ الشهرَ لكثيرٌ، من تابَ قبلَ موته بجُمعة قبِل الله توبتَه . ثمّ قال : إنّ الجُمعة لكثيرٌ ، من تابَ قبلَ موتِه بيوم ، قبِل الله توبتَه . ثمّ قال : إنّ يوماً لكثيرٌ ، من مات قبلَ أن يُعاين قبِل اللهُ توبتَه .

فصــلٌ

اعلم إنّ المراد بقبول التوبة هو ماأشرنا إليه ، والمراد به عندالجمهور اسقاط العقاب المترتّب على الذنب ، وهو في الحقيقة من لوازم ماوقعت إليه الإشارة ، وسقوط العقاب بالتوبة الصحيحة ممّا أجمع عليه أهل الإسلام . وإنّما الخلاف في أنه هل يجبُ على الله ؟ حتّى لو عاقَب بعد التوبة كان ظُلماً . أو هو تفضّل يفعله الله سبحانه كرماً منه بعبده ؟

فالمعتزلة على الأوّل ، والأشاعرة على الثاني ، وإليه ذهب الشيخ أبو جعفر الطوسي ـ ره ـ في كتاب الاقتصاد [٢] ، والعلّامة الحلّي في بعض كُتبه الكلاميّة ، وتوقّف المحقّق الطوسي ـ طاب ثراه ـ في التجريد[٣] . وقال شيخنا البهائي ـ رحمه الله ـ في أربعينه[٤] : «إنّ مختار الشيخين هو الظاهر ، ودليل الوجوب مدخول » .

---

١) الكافي: كتاب الايمان والكفر، بابٌ فيما أعطى الله عزوجل آدم (ع) وقت التوبة : ٤٤٠/٢ .

٢) الاقتصاد : فصل في الكلام في الوعد والوعيد وما يتصل بهما : ١٢٤ .

٣) تجريد الاعتقاد : المقصد السادس ، المسئلة الثانية عشر .

٤) الاربعين للشيخ البهائي (ره) : الحديث الثامن والثلاثون .

أقــول : الوجوب بالمعنى الذي ذكرناه قطعيٌّ لاريب فيه .

فإن قلت [١] : مامعنى لوجوب قبول التوبة ؟ أتقول كما قاله المعتزلة بأنّ كذا واجبٌ على الله ؟

قلنا : إنّا لانعني به ولانريد إلّاما يريده القائل بقوله : «[إنّ]الثوب إذاغُسل بالصابون وجب زوالَ الوسَخ . وإنّ العطشان إذا شرِب وجب زوال العطش ، وإنّه إذا منع الماء مدة وجب العطش وإذا دام العطش ، وجب الموت » وليس في شيء من ذلك مايريده المعتزلة ، ولا مايريده الأشاعرة إذ لاعلاقة ولا سببيّة بين الأشياء عندهم . بل نقول خلَق الله الطاعة مكفّرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيّئة ، كما خلَق الماء مزيلاً للعطش ، والقدرةُ متّسعةٌ لخلاف ذلك، ولكن ماسبقت المشيّة إلّا بذلك، فلا واجب على الله ، لكن كل ماسبقت به إرادته الأزليّة فواجب كونه لامحالة .

فإن قلت : ما من تائب إلّاوهو شاكّ في قبول توبته ، والشارب لايشكّ في زوال عطشه ؟

قلنا : شكّه في القبول كشكّه في وجوب شرائط الصحّـة ، فإنّ للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقـة ، وليس يتحقّق وجود جميع شروطها ، كالذي يشكّ في دواء شَربَه للاسهال في أنه هل يسهّل، وذلك لشكّه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفيّة خلط الدواء وطبخه ، وجودة عقاقيره وأدويته ، فهذا وأمثاله موجبٌ للخوف بعد التوبة وللشكّ في قبولها .

هذا ماقاله بعض أكابر الكشف والتحقيق .

وأما ماقاله أبو علي الطبرسي في تفسيره المسمّى بمجمع البيان [٢] عند قوله تعالى : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ [٧/٤٠] : « إنّ في هذه الآية دلالةً

١) راجع احياء علوم الدين : ٤/ ١٥ .

٢) مجمع البيان : ٨/ ٥١٥ .

على أن اسقاطَ العقاب عند التوبة تفضّلٌ من الله إذ لو كان واجباً لكان لايحتاج فيه إلى مسئلتهم ، بل كان يفعله سبحانه لامحالة » ففيه نظرٌ ، لما مرّ من أنّ العبد ربما يشكّ في ذلك القبول مع أنّه كان واجباً ، لعدم احاطته بأسبابه ، إذ الضرورة الذاتيّة لشيء لاتنافي الشك والإمكان العقلي ، وهو تجويز العقل لخلافه . ولأن السؤال قد يكون للامر الواقعي، والغرض إظهارالإنكسار والمذلّة أوبسط الكلام مع المحبوب وعرض الافتقار لديه ، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْأَخْطَأْنَا﴾ [٢/٢٨٦] على بعض الوجوه [١] .

فصلٌ

في شروط التوبة

سئل ذو النون المصري رحمه الله عن التوبة ، فقال [٢] : « إنّها اسمٌ جامعٌ لمعانٍ ستة : أولُهنّ الندم على مامضى . والثاني: العزمُ على ترك الذنوب في المستقبل الثالث : أداءُ كلّ فريضة ضيّعتَها فيما بينك وبين الله . الرابع : ردّ المَظالم إلى المخلوقين في أموالهم وأعراضهم . الخامس : إذابة كلّ لحمٍ ودم نبتَ من الحرام . السادس : إذاقة البدن ألمَ الطاعاتِ كما ذاقَ حلاوةَ المعصية » .

وهذا الذي ذكره ذو النون من الأمور الستّة هوَ ممّا رواه الشيخ أبو علي الطبرسي في تفسيره عن أمير المؤمنين عليه السلام بهذه العبارة : « التوبة يجمعها ستّة أشياء :

---

١) قال في مجمع البيان (٢/٤٠٤) عند ذكر الوجوه في معني الاية : « الثالث إن معناه لاتؤاخذنا إن نَسينا ــ أي : إن لم نفعَل فِعلاً يجب فِعلُه على سبيل السّهو والغفلة ــ أوأخطأنا ــ أي : فعلنا فِعلاً يجب تركُه من غير قصدٍ ، ويحسن هذا في الدعاء على سبيل الانقطاع إلى الله واظهار الفقر إلى مسألته والاستعانة به ، وإن كان مأموناً منه المؤاخذة بمثله ... » .

٢) تفسير الفخر الرازي : ٤٧٥/١ .

على الماضي من الذنوب الندامة . وللفرائض الإعادة وردّ المظالم واستحلال الخصوم . وأن تعزم على أن لاتعود . وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربّيتها في المعصية . وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي » .

وأورد السيد الرضي في كتاب نهج البلاغة[1]: إنّ قائلاً قال بحضرته : «أستغفرُ الله » فقال له عليه السلام : « ثكلتْك أمّك . أتدري ماالاستغفار ؟ إنّ الاستغفارَ درجةُ العليين ، وهو اسم واقع على ستّة معانٍ ـ الحديث » .

وفي كلام بعض أكابر الكشف : « إنّه كما لايكفي في جلاء المرآة قطْعُ الانفاس والأبخرة ، كذلك لايكفي في جلاء القلب من ظُلُمات المعاصي وكدوراتها مجرّد تركها وعدم العود إليها . بل يجب محو آثار تلك الظُلُمات بأنوار الطاعات ، فإنّه كما يرتفع إلى القلب من كلّ معصية ظُلْمة وكدورة ، كذلك يرتفع إليه من كلّ طاعة نورٌ وضياء .

والأولى محوَ ظُلْمة كلّ معصية بنور طاعة يضادّها ، بأن ينظر التائب إلى سيّئاته مفصلة ، ويطلب لكلّ سيّئة منها حسَنة تقابلها ، فيأتي بتلك الحسَنة على قدْر ماأتى بتلك السيّئة ، فيكفّر استماعَ الملاهي مثلاً باستماع القرآن والحديث ومسَّ خط المصحَف جُنباً باكرامه وكثرة تقبيله وتلاوته ، والمكثَ في المسجد جُنباً بالاعتكاف فيه وأمثال ذلك . وكذا في حقوق الناس ـ كما يعالجُ الطبيبُ الأمراضَ بأضدادها .

---

١) نهج البلاغة : الحكمة : رقم ٤١٧ .

فصلٌ

ومن المسائل في باب التوبة إنّها هل يصحّ عن بعض الذنوب ، أم لايصحّ إلاّ عن الجميع ؟

واعلم أنّ هذا ممّا اختلفت أقوال العلماء فيه ، فقال كثيرٌ من العلماء منهم المحقّق الطوسي في التجريد ـ : « إنّ هذه التوبة غير صحيحة »(1) . وقال الآخرون : « إنّها صحيحةٌ » .

وقال صاحبُ الإحياء (2) : « إنّ المقام لابدّ فيه من تفصيل ، ولايجوز اطلاق الصحّة مجملة في شيء من الطرفين ، بل نقول ـ لمَن قال : « لاتصحّ » ـ : إن عنيتَ به إنّ تركَه بعضَ الذنوب لايفيدُ أصلاً ، بل وجودُه كعدمِه . فهذا خطأٌ بلاشبهة ، فإنّا نعلم إنّ كثرةَ الذنوب سببٌ لكثرة العقاب ، وقلّتها سبب لقلّته . ونقول ـ لمَن قال: «إنّها تصحّ» ـ : [إن أردت] إن التوبة عن بعض الذنوب توجِب قبولاً يوصل إلى النجاة والفوز ، فهذا أيضاً خطأٌ . بل استحقاق النجاة والفوز يكون بترك الجميع .

هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلّم في خفايا أسرار عفو الله .

اعلم أن القائل بأنّ « التوبة عن البعض غيرُ صحيحةٍ » حجّته إن التوبةَ عبارةٌ عن الندم عن المعصية لقُبحها ـ لالشيءٍآخر ـ وإلاّ لَماكانت توبة ، والقبْح مشترك بين جميع المعاصي ، فمن توجّع وندم عن السرقة لكونها معصيةً ـ لالخصوص كونها سرقةً ـ فاستحال أن يندم عليه دون الزنا ، لأنّ العلّة شاملةٌ لهما . إذ من يتوجّع على قتل ولده بالسيف ، يتوجّع على قتله بالسكّين ، لأنّ توجّعه بفوات محبوبه ـ سواءكان بالسيف أوالسكّين ـ فكذلك المعاصي توجِب للعبد فواتَ محبوبه ، والندم

---

1) تجريد الاعتقاد : المقصد الخامس ، المسئلة الحادية عشرة .

2) إحياء علوم الدين : ٤ / ٣٩ ملخصاً .

إنّما يكون على فعل مايوجب فوات محبوبه من حيث إنّه قبيح . فلامعنى للتندّم على بعض المعاصي دون بعض ، لاشتراكها في كونها حجاباً بين العبد ومقصوده .

هذا ماذكروه وهو بظاهره موجّهٌ ، إلاّ أنّ فيه تفصيلا ينكشف به الغطاء . فنقول : إنّ الأشياء قد يشترك في معنى واحد يتحقّق ذلك المعنى فيها على وجه الكمال والنقص ، والقوّة والضعف ، فيكون في بعضها أعظم وأشدّ ، وفي بعضها أصغر وأضعف . ومن هذا القبيل المعاصي والذنوب ، فإنّ الجميع مشتركةٌ في معنى واحد ـ هو القبح أو الظلمة أو الحجاب ـ لكن بعضها أكبر قبحاً وظُلمة وحجاباً ، وبعضها أصغر .

فإذا تقرّر هذا فنقول : التوبة عن بعض الذنوب إمّا أن يكون عن الكبائر دون الصغائر ، او عن الصغائر دون الكبائر ، او عن كبيرة دون كبيرة .

أمّا الأوّل فممكن . لأنّا نعلم إنّ الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقْته ، والصغائر أقرب إلى العفو عنها ، فلايستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندّم عليه بحسب استعظامه وكونه مبعّداً عن الله . وهذا مما ثبت وجودُه في الشرع ، فقد كثُر التائبون في الأعصار ، ولم يكن واحدٌ منهم معصوماً . فلاتستدعي العصمة . والطبيب قد يَحذّر المريضَ العسلَ تحذيراً شديداً ، ويُحذّره السكر تحذيراً أخفّ منه على وجهٍ يشعر بأنّه ربما لايظهر ضرر السكّر أصلا . فيتوب المريض بقوله من العسل دون السكّر . فهذا غير محال وجوده .

الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض ، وهذا أيضاً ممكن لاعتقاد أنّ بعض الكبائر أشدّ وأغلظ عند الله ، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم الناس، لعلمه بأنّ حقوق الناس لايترك ، ومابين الله وبينه يسارع العفو إليه . وكذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لاتتعلّق بالعباد دون [بعض] لكونها متفاوتة في أنفسها ، وفي اعتقاد مرتكبها .

الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر ، وهو مصرٌّ على كبيرة يعلم إنّها كبيرة ـ كالذي يتوب عن الغيبة ، وعن النظر إلى غير المحرّم ومايجري مجراه وهو مُصرّ على شُرب الخمر ـ فهذا أيضاً ممكنٌ . ووجْه امكانه إنّه مامن مؤمن إلّا وهوخائف على معاصيه ونادمٌ على فعْله ـ ندماً قويّاً ، أوضعيفاً ـ ولكن يكون لذّة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم الخوف منه لأسباب توجب ضعفَ الخوف ـ من الجهل و الغفلة وأسباب قوّة الشهوة ـ فيكون الندم موجوداً ، ولكن لايكون مليّاً بتحريك العزم ، ولاقويّاً عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه أو لم يعارضه إلّا ماهو أضعف فهذا الخوف غلبها وأوجب تركَ المعصية .

وقد تشتدّ ضراوةُ الفاسق بالخمر فلايقدر على الصبرعنه ، لعدم مقاومة خوفه ضراوته ، لضعف الخوف وقوّةالضراوة . ويكونله ضراوةٌ بالغيبة واستماع الملاهي والنظر إلى غير المحرّم ، وخوفه من الله قد بلغَ مبلغاً يقاوم هذه الشهوة الضعيفة ويقمعها ، ولايقاوم شهوةَ أقوى من هذه الشهوة ، كشهوة شُرب الخمر .

بل لهذا الفاسق أن يقول: « إن غلَبني الشيطان بواسطة غلبة هذه الشهوةالقويّة فلاينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلّية ، بل أجاهده في بعض المعاصي ، فعساني أغلب عليه فيكون قهري له في البعض كفّارةً لبعض ذنوبي .

ولو لم يتصوّر هذا لما صحَّ من الفاسق أن يصلّي ويصوم . وقيل له : « إن كان صلوتك لغير الله فلاتصحّ ، وإن كان لله فاترك الفسق لله . فإنّ أمرَ الله فيه واحدٌ، فلايتصوّر أن تقصد بصلوتك التقرّب إلى الله مالم تقترن بترك الفسق » وهذا باطل ، بل له أن يقول : « إنّ لله على أمرين ، ولي على المخالفة عقوبتان ، وأنا ملي في أحدهما بقهرالشيطان عاجز عنه في الآخر، فاقهرُه فيما أقدِرُ عليه ، وأرجوبمجاهدتي فيه أن يكفّرعنّي ماعجزت عنه بفرط شهوتي » فكيف لايتصور هذا . وهو حالُ كلّ مسلم . إذ لامسلم إلا وهو جامعٌ بين طاعة الله ومعصيته . ولاسبب له إلّا هذا .

وإذا فهم هذا فهم إنّ غلبةَ الخوف على الشهوة في بعض الذنوب ممكنٌ وجوده ، والخوف إن كان من فعل ماضٍ أورث الندم ، والندم يورث العزم . وقد قال ﷺ[1]: « الندمُ توبةٌ » ولم يشترط الندم عن كل ذنب . وقال ﷺ[2]: «التائبُ من الذنب كمن لاذنبَ له » ولم يقل : التائب من الذنوب كلّها .

وبهذه المعاني تبيّن [إنّ التوبة عن] أفراد الذنوب إذاكانت متماثلة في حق الشهوة وفي حقّ التعرض لسخط الله غيرممكن . نعم ، يجوز أن يتوبَ على الكثير دون القليل ، لأن لكثرة المعصية تأثيراً في كثرة العقوبة .

فصلٌ

إنّ في هذه الآية حثّاً على التوبة ، وتنبيهاً على أنّ العبد لابدّ وأن يكون دائم الرجوع والإنابة إلى الله تعالى ،كما إنّه دائم المغفرة والرحمة ، وإنّه مامن درجة في الخير والسعادة تحصّل للعبد إلاّ وينبغي له أن يتوب عنها بتحصيل درجة فوقها لذاته ، فإنّ الانسان جوهرٌ متجدد الذات ، له في كل وقت حجاب من هويّته . وقد قيل: « وجودُك ذنبٌ لايقاس به ذنبٌ » فيجب له في كل وقت توبةٌ عن ذنبِ وجوده، واستغفارٌ عن غشاوة هويّته .

قال بعض الحكماء : « إنّ لك منه غطاء فضلاً عن لباسك من البدن فاجهد أن ترفع الحجاب وتتجرّد ، فحينئذ تلحق فلاتسئل عما تباشره » .

وقال أيضاً : « انفذ إلى الأحديّة تدهش إلى الأبــد . وإذا سئلت عنها فهي قريب ، وذلك لأنّ مراتب القُرب إلى الله غيرمتناهية ، لعدم تناهي التجليّات الأسمائيّة الصفاتيّة ، والشئونات الإلهيّة ، ولكونه تعالى وراء مالايتناهي بمالايتناهي شدّة وقوّة

١) الجامع الصغير : ٢ / ١٨٩ .

٢) الجامع الصغير : ١ / ١٣٤ .

وهو مع ذلك العلوّ والرفعة والورائيّة رجّاعٌ إلى عبده توّاب رحيم عليه ، قريب إليه يسمع ندائه ، ويجيب دعائه ، ويقضي حاجاته ، ويقول : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [١٨٦/٢] وينزل كل ليلة في الثلث الأخير منه إلى سماء الدنيا ، فيقول : « هلْ من داع ؟ هل من مُستغفر ؟ » .

ويروي [١] إن في بني اسرائيل شابٌ عَبَد الله عشرين سنة ، ثمّ عصاه عشرين سنة ، ثمّ نظَر في المرآة فرأى الشيب في لحيته ، فسائه ذلك . فقال : «إلهي ـ أطعتك عشرين سَنة ، ثمّ عصيتُك عشرين سَنة ، فإن رجعتُ إليك أتقبلني ؟ » فسمع قائلاً يقول ـ وهو لايرى شخصاً ـ : « أحببتنا فأحببناك . وتركتَنا فتركناك . وعصيتَنا فأمهلناك وإن رجعتَ إلينا قبلناك » .

وقال ذو النون المصري [١] : « إنّ لله عباداً نصَبوا أشجارَ الخطايا نصبَ روامق قلوبهم ، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً ، فجَنوا من غير جنون ، وتبلّدوا من غير عمي ولابكم ـ وإنّهم لهم البلَغاء الفصحاء ، العارفون بالله ورسوله ـ ثمّ شربوا بكأس الصفا فورثوا الصبر على البلاء ، ثمّ تولّـت قلوبهم في الملكوت وجالَت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلّوا تحت رواق الندم وقرؤوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصَلوا إلى علوّ الزهد بسلّم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم في العُلا ، حتّى أناخوا في رياض النعيم ، وخاضوا في بحر الحيوة ، وعبَروا جسور الهوى ، وردموا خنادقَ الجزع ، حتى نزلوا بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة ، حتّى وصَلوا إلى رياض الراحة ومعدن العزّ والكرامة » .

وقال بعض الفضلاء في وصف السالكين إلى الله الراجعين إلى حضرة الجبروت

---

١) إحياء علوم الدين : ٤ / ١٥ .

كلمات مسجّعة تشير إلى مقاماتهم وأحوالهم ، وهي هذه: « لما جاءتهم عناية الفضل تركوا الفضول، وسافروا إلى منازل الوصول، وركِب الساداتُ على خيل السعادات واستعانوا في سفرهم على سلوك الطريق بزاد التقوى ، المعجونِ بماء التوفيق ، وراضوا خيلَهم في رياض الرياضة ، وضمروها والجموها بلجام منع الالتفات إلى غير مولاها ، وزجَروها وضربوا بسيوطِ الخوفِ ، وحرّكوها باعمال [أعمال] السوق ، وركَضوها إلى غاية المُنى في ميدان الشوق، وذبحوا نفوسَ الهوى بسيوف المخالفة وطعنوا فرسان الطبع برماح ترك العادات السالفة وطهّروها بماء الدموع الطهور [از] نجاسات الذنوب والعيوب وسائر الشرور، حتّى صحّت لهم العبادة المفتقرة إلى الطهارة كالصلوة ، وداوَوا قلوبَهم من أمراض حبّ الدنيا والجاه ، وأحرَقوا أشجار خشبها بنار حزن القلب الأوّاه ، وأحيوا ميتها بذكر الله .

واعجباً منّا ـ كيف نعرف تلك المواهب والأحوال ولا نتداوى من الداء العضال الذي بيننا وبينها حالَ . لقد عجزنا وملنا إلى الهوى وإلف العادةِ ، لم نخرج عن الرغوبات والطباع التي خرجت عنها السادةُ ، ولم نتّعظ بوَعظٍ لسوء حظّ لم تساعدنا السعادة » ـ انتهى كلامه .

أقول : بقيَ في هذا الزمان من هذه المعاني حكاياتُها ، ومن حقائق العلم واليقين ألفاظُها وعباراتُها، بقي أقوالٌ بلاأعمال ، وأشخاصٌ كالتماثيل بلاروح العلوم والأحوال .

وسُئل عن عابد حين يبكي : « مايُبكي العابد ؟ » فقال : « مالي لاأبكي ، وقد توعّرت الطريق ، وقلّ السالكون فيها . وهجرت الأفعال وقلّ الراغبون فيها وأهل الحق . ودَرَس هذا الأمْر ، ولاأراه إلاّفي لسان كلّ بطّال ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال وقد افترشَ الرخصة وتمهّد التأويل ، واعتلّ بزلل العاصين » . ثمّ جعل يقول : « واغمّاه من فتنة العلماء ! واكرّباه من حيرة الادلاء ! أين الأبرار من العلماء ؟ بل أين الأخيار من الزهّاد ؟ »

قوله جلّ اسمه :

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

لابدّ في تكرير الأمر بالهبوط من نكتة فذكروا في ذلك وجهين :

أحدهما : قول الجبائي ، وهو إنّ الهبوط الأوّل غير الثاني ، فالأوّل كان من الجنّة إلى سماء الدنيا ، والثاني من السماء الدنيا إلى الأرض .

الوجه الثاني : إنّ التكرير للتأكيد .

واعترض الإمام الرازي [1] على أوّل الوجهين من وجهين :

أحدهما إنّه قال في الهبوط الأوّل : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ . فلو كان الاستقرار في الأرض إنّما حصل بالهبوط الثاني لكان ذكره عقيبَ الأمر بالثاني أولى .

وثانيهما : إنّ ضمير ﴿ اهبِطُوا مِنْهَا ﴾ عائدٌ إلى الجنة : وذلك يقتضي كون الهبوط الثاني من الجنّة .

أقول : للمناقشة في كِلا البحثين مجالٌ : أمّا الأوّل فإنّ الاستقرار المذكور وإن لم يحصل إلاّ بعد الهبوط الثاني ، لكن يجوز ذكره سابقاً عليه لفوائد أخرى كالتشديد والمبالغة في الإخراج ، كمَن يقول لأحد يريد إخراجه من داره « أخرُج

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١ / ٤٧٦ .

فإنّك لاتليقُ بهذه الدار ، ومكانك ينبغي أن يكون في بلاد الهند » .

ويؤيّد قولَ الجبائي ماورَد في حكاية آدم وخروجه من الجنّة إنّه « لما أُمر بالخروج أتى إلى باب الجنة ليخرج منها ، فلمّا أراد أن يضعَ قدمَه خارجاً قال « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » فلمّا سمع جبرئيل منه أوقفه انتظاراً للرحمة ، فقال : «إلهي ارحم عليه ، فقد ذكَر كلمةً عظيمة » فأعاد الله الأمر بالهبوط ، ونبّه على أنّ له في هذا الأمر رحمة آجلة أعظم وأوسع من هذه الرحمة العاجلة » فالقصّة دالّة على على أنّه وقَع لآدم وقفة في سور الجنّة المضروب بينها وبين سماء الدنيا .

والمراد من السماء الدنيا على طريقة التوصيف مجموع عالَم السماء ، لأنّها بالقياس إلى الجنّة دانية ، فالأمر بالهبوط الثاني كان متعلّقاً بنزول آدم من السماء إلى الأرض بعد خروجه من الجنّة بالأمر الأوّل إلى بابها الذي هو في عالَم السماء .

وأمّا الثاني فعودُ الضمير إلى الجنّة إنما وقَع لأنّ ابتداء الهبوط كان منها ، وليس قوله ﴿مِنْهَا﴾ داخلاً في المأمور به .

ثمّ قال [١] : « وعندي وجهٌ ثالث أقوى من الوجهين ، وهو إنّ آدمَ وحواء لما أتيا بالزلّة أُمرا بالهبوط فتابا بعد الأمر بالهبوط . فأعاد الله الأمر بالهبوط مرّة ثانية ليعلما إنّ الأمر بالهبوط ماكان جزاءً على ارتكاب الزلّة حتى يزول بزوالها ، بل هو باقٍ بعد التوبة ، لأنّ الأمر بالهبوط كان تحقيقاً للوعد المتقدّم في قوله : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [٢/ ٣٠] .

وقيل : سبب التكرير اختلاف المقصود في الأمرين. فإنّ الأوّل دلّ على أنّ هبوطَهم إلى دار بليّة يتعادون فيها ولايخلّدون ، والثاني اشعر بأنّهم اهبطوا للتكليف فمن اهتدى نجى ، ومن ضلّ هلك، كما يقال: « اذهبْ سالماً معافياً ، اذهبْ مصاحباً » وإن كان الذهاب واحداً ـ لاختلاف الحالين .

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٤٧٦ .

وهيهنا وجهٌ آخر ، وهو أنّه يحتمل أن يكون الهبوط الأوّل إلى البدن ، والهبوط الثاني إلى الدنيا . ومنشأ الأوّل حاجةُ النفس لتكميلها إلى قواها ودواعيها كالشهوة والغضب التي في البدن ، ومنشأ الثاني حاجتُها بواسطة تكميل البدن ومنافعه ومضارّه إلى الأمور الخارجة عنه .

وممّا رُوي في الأخبار والحكايات : إنّ آدم عليه السلام اهبط بالهند وحوّا بجدّة ، وإبليس بموضع من البصرة ، والحيّة بإصبهان .

إشارةٌ قرآنيةٌ

[كراهيّةُ الإنسان للهبوط ثمّ للعروج]

ثمّ إنّ في الآية اشعاراً لطيفاً بأعجب أحوال الإنسان ، فإنّ من عجيب أحواله إنّ مفارقتَه عالَم القدس والرحمة وبُعدَه عن درجة المقربين وهبوطَه إلى دار الدنيا كان صعْباً عليه في أول الأمْر بمقتضى صفائه الذاتي وفطرته الأصلي ، ولم يرض بالكون في هذا العالَم بل استكرهه واستوحَشه ، حتّى صدَر الأمْر بهبوطه مرّة بعد أولَى ، ثمّ إذا وقع في هذه الدار ـ دار الغربة والوحشة ـ ومضَت عليه بُرهةٌ من الزمان ، نسى موطنه الأصلي وداره وأحبّائه وأحفاده الذين كانوا صحِبهم فيها ، وألِف هذا المنزل وتثبَّط فيه ، وكره الخروجَ منه واستأنسَ بأهل الدنيا واستصعب مفارقتَهم .

* * *

وللشيخ أبي علي بن سينا قصيدةٌ يومي إلى هـذا المعنى وإلى بعض أحوال النفس من تجرّدها وتعلّقها ، هذه بعض أبياتها [١] ـ قال :

---

١) القصيدة معروفةٌ تسمّى بالقصيدة العينية وكذا « القصيدة الطيرية » جائت في « لغت نامة دهخدا » و « نامة دانشوران » ومع شرح وجيز في « أسرار الحكم » للسبزواري : ٢٧٥ .

هَبطتْ إليكَ مِن المحلِّ الأرفَعِ * وَرْقاءُ ذات تعزّزٍ وتمنُّعِ
محجوبة عن كلِّ مقلةِ عارفٍ * وهي التي سفرَت[١] ولم تَتبرَقعِ
وصَلتْ على كُرهٍ إليكَ وربَّما * كَرِهتْ فراقَكَ وهي ذاتُ تفجُّعِ
أنِفتْ وما سكَنتْ فلمّا واصَلتْ * كَرِهتْ مُفارقةَ الخَرابِ البلقَعِ[٢]
وأظنُّها نَسيتْ عُهوداً بالحمىٰ * ومَنازلاً بفراقِها لمْ تقنَعِ

و « المحلّ الأرفع » هو العالَم الأعلى النوري المجرّد بالكليّة عن ملابَسة الأجساد ، وهو أرفع درجةً ومكانةً من عالَم الجنان ، لأنّ الجنّة جسمانيّة وعالَم النور المحض مجرّد عقلي .

وقد سبق إن النفس الآدمية كان معدنها الأصلي أوّلاً عالَم العلْم الإلهي والقضاء الربّاني حيث كان مقدّراً في علمه تعالى انّه جاعلٌ في الأرض خليفة ، والعلْم بالشيء هو نحوٌ من وجود ذلك الشيء ، ثمّ نشأت بقدرته تعالى في عالَم الأرواح العقلية حينما صارت منفوخاً فيها روح الله ، ومسجوداً لملائكته ثمّ سكنت بأمر الله في الجنّة وتناولت من ثمارها وأشجارها ثمّ هبطت بعد ذلك إلى القالِب ، وبالقالِب إلى هذا العالَم .

و«الوَرقاء» حمامة خضراء يشبه لونُه لونَ السماء . شبَّه النفسَ الإنسانية بالورقاء لكثرة استيناسه بصورة الإنسان وشدّة ميله بالعود إلى المحلّ المعتاد الذي يتحقّق به المعاد ، وأصل التشبيه لها بالطير مطلقاً لصفة تجرّدها عن البدن ، وهو بمنزلة القفَص للطير ، المشابهة لصفة الطيران . وإنّما شبّهت بالطائر الأخضر إشعاراً بأنّها من عالَم السماء وقد ورَد في الحديث[٣] : « إنّ الأرواح بعد البدن تكون في قوالِب طيور خُضر» وورَد ـ أيضاً في الحديث[٣] : « إنّها في قناديل معلّقة تحت العرش » .

---

١) في نسخة المصنف هنا « سترت » واثبتاها طبقاً لما يفسره قريباً وماجاء أيضاً في أكثر نسخ القصيدة .

٢) جاء في بعض المواضع : ألِفت مجاورة الخراب البلقع .

٣) راجع أبي داود :كتاب الجهاد ، باب في فضل الشهادة : ١٥/٣ ، وراجع أيضاً ماجاء في الكافي :كتاب الجنائز ، باب آخر في أرواح المؤمنين : ٢٤٤/٣ .

ويمكن أن يكون المراد بالأرواح ماهي أرفع من النفوس ، وهي العقول . والمراد من الطيور الخُضر النفوسُ التي في عالَم البرزخ ، ومن القناديل المعلّقة تحت العرش ماهي لما بمنزلة الأبدان هناك ، وهي المُثُل المعلّقة في عالَم الاشباح المثاليّة .

و « الكاف » في قوله : « إليكَ » إن اريد بها نفسك فيراد من « الورقاء » الروح . ومن « المحلّ الأرفع » عالَم القدس العقلي وإن اريد بها بدنُك فالورقاء هي النفس ، والمحلّ الأرفع هو عالَم الجنّة والثاني أنسب بما بعده .

و« السفر » في قوله : « سفَرت » كشفُ الوجه . و « التبرقُع » سترُه . وتقديم لفظ « الكلّ » عليها لرعاية الوزن . والمراد منه : ان النفسَ لتجرّدها محجوبةٌ متبرقعةٌ عن الأبصار ، ولنوريّتها واسفرار وجهِها مكشوفة على البصائر و« هي ذات تفجُّع » أي : ذات جزع وفزع .

و« البَلقَع » أي : الخالي . والمراد به عالَم الأجسام ، لخلوّها في نفسها عن الصوَر والهيئات ، لأنّها فائضة عليها من عالَم العقل والنفْس . أو البدن فإنّه من حيث هو خراب خالٍ عن القوى الروحانيّة والنفسانيّة .

وحاصل القول : إنّ العناية الإلهيّة قدجرت في الأزل وتعلّقت بهبوط النفس الإنسانيّة من عالَم الأرفع النوري إلى الهيكل المزاجي الإنسي ، بواسطة وجود الاعتدال فيه ، الذي هو ضرب من الوحده الحقيقيّة وظلٌ منها .

فنزلت النفس من جوّ الفضاء العقلي والمصعد الأعلى السماوي إلى مستوكر البدن الظلماني على سبيل الكراهة والصعوبة لأنّ مفارقة الوطن الأصلي ـ سيّما عالَم القدس النوري ـ تكون صعباً ، ومجاورة الأضداد والأعداء أصعب منها . لكن بحكم التقدير الأزلي والقضاء الإلهي ـ حيث لامردّ لقضائه ولامانع لحُكمه ـ فارقَت العالَم الأعلى كُرهاً وتعلّقت بالمستوكر الأدنى جبراً وقهراً . وانفصلَت عن الطهارات و

التقدّسات الروحيّة النوريّة ، وتعلّقت بالأدناس والألواث البدنيّة والقاذورات الطبيعيّة وهبطتْ في مقر السعيد الظّلماني ومهوى الحضيض الجسماني والجحيم النفساني ، مقيّدة بالسلاسل والأغلال في سجون التعلّقات ، أسيرةً بأيدي الشياطين والأغوال لشجون الأوهام والخيالات ، محترقة بنيران الشهوات ، ملسوعة بسموم العقارب والحيّات .

فلمّا قيّدت كالحمامة بشبكة البدن وحبوب القوى ، آنستْ بها بعد ماكَرِهتْها وألِفت بها بعدما أنِفَت ، ونسيتْ عالَمها بعد ما ذكَرت ، كما قال تعالى : ﴿نَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [٢٠/١١٥] وقوله : ﴿نَسُوا ٱلذِّكْرَ﴾ [٢٥/١٨] وقوله : ﴿نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [٩/٦٧] ورضيتْ بهذه الحيوة الدنيا واطمئنّت بها ويئسَت من الآخرة ، وأخلَدتْ إلى الأرض واتبّعت هواها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [١٠/٧] وقال : ﴿يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ﴾ [٦٠/١٣] .

فلما جهلت أبناء الدنيا عن أحوال الآخرة ومقاماتها اشتغلوا عند ذلك بطلب الدنيا ونعيمها ولذّاتها وشهواتها وتمنّوا الخلود فيها لأنّها محسوسة لهم يشاهدونها بحواسّهم ـ وتلك الدار ونعيمها ولذّاتها ومشتهياتها غائبة عنهم وعن إدراك حواسّهم ـ فتركوا البحث عنها والرغبة فيها والطلب لها والسعي إلى ذكْر الله وذكْر الآخرة ، فلاجرم احتاجت عند ذلك نفوسُهم الى من يذكّرها العهد القديم وتجدّد عليها الذكْر الحكيم ، وتشوقها إلى ماعند الله ويسوقها من دار الدنيا إلى الدار الآخرة

فالرحمة الإلهيّة أجادت بإرسال الرسل إليها وإنزال الكتب عليها ، فمنهم مَن آمن لبقاء نورالفطرة فيقلبه ، ومنهم من صد عنه لانطماس نورفطرته ومسخه وتراكم الظلمة على قلبه واسوداده بالمعاصي ، ولذلك قال : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ ـ الآيتين .

فصلٌ

[سرّ الإتيان هنا بحرف الشكّ]

« إنْ » للشرط ، و «مَا» مزيدةٌ أكّدت بها إن ، ولهذا حسُن تأكيد الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب ، وجواب الشرط الأوّل الشرط الثاني مع جوابه ، كقولك : « إن جئتَني ، فإن قدرتُ أحسنتُ إليك » والمعنى : « إن يأتينكم منّي هدىً بإنزال أوإرسال فمَن تبعَه منكم نجّى مِن قيْد الدنيا وعذاب الآخرة في الجحيم ، وفاز بالجنّة والنعيم ، ومن كفرو كذّب بالهدى والآيات فهو من أهل النار والعذاب الدائم» فقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾ ـ إلى آخره ـ عطفٌ على الجملة السابقة قسيمٌ لها ، فالمجموع بمنزلة قضيّة شرطيّة متّصلة ، تاليها بمنزلة منفصلة مانعة الجمع مركّبة من شرطيّتين متّصلتين .

* * *

وإنّما وقع الكلام بحرف الشكّ والتردّد ، والحال إنّ اتيان الهدى إلى كافّة الناس كائنٌ لامحالة ، لأن ذلك أمرٌ غير واجب ـ لا لما ذهبت إليه الأشاعرة من نفي الوجوب والايجاب العقليّين ـ بل لدقيقة علميّة هي إنّ أسباب الأكوان وغاياتها بعضها علل ذاتيّة ، وبعضها علل غيرذاتية لتلك الأكوان ، ويقال للقسمالثاني : « العلل الإتّفاقية » فكلّما لزمت من الصفات والأفعال للأنواع في أوائل طبيعتها الأصلية وبحسب كمالها الأوّل فهي ناشيةٌ منالأسباب الذاتيّة ، وكلّمالحقتها فيفطرتها الثانية وبحسب كمالها الثاني ، فهي من الأسباب الإتّفاقية كاستعداد مادّة ، او مصادفة حالة غريبة ، أو معاونة أمر مبائن .

إذا تقرّر هذا فنقول : إن الإنزال والإرسال ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوّعيد ،كلّها أمور غريبة طاريةٌ على أفراد الإنسان ، ليست ناشئة من عللها الذاتيّة

المقتضية لأصل ذاتها ووجودها ، وإلّا لَما انفكّ منها واحد من أفراد الناس . نِعم هي تفضّلات وإحسانات من قِبل الله إلينا ، بعد وجود المبادي والأسباب الذاتيّة ، وإن كان الكلّ من فضله وجودِه ، وهي نافلةٌ لوجوده ، لكنّ الكلام بعد تحقّق العلل الضروريّة وإن كانت الإتفاقيّات أيضاً منجرّة إلى اُمورضروريّة ، لكونها مستندةً إلى مافي علْم الله وعالَم قضائه الحتمي .

ولكن السببالذاتي لشيء قد يكون غريباً لشيءآخر، وكذا الشيء قد يكون بالنسبة [إلى] أسبابه القريبة اتّفاقياً ، وبالقياس إلى البعيدة لزوميّاً ـ كما مرّ في مسئلة اختيار العبد ـ وإذا كان الآمر غير ضروريّ حسُن الإتيان به بلفظٍ دالّ على الإمكان والشكّ ، فإنّ الشكّ في التصور بازاء الإمكان في الوجود .

ومن هذا يُعلم آن لايقين في الحوادث والمتغيّرات إلّا من جهة العلْم بأسبابها الذاتيّة الضروريّة ، ولهذا قالت الحكماء : « العلْم بذي السبَب لايَحصل [إلّا] من جهة العلْم بسببه » .

وقال صاحب الكشّاف في وجهِ المجيءِ بكلمة الشكّ[1] : « إنّه للايذان بأنّ الايمان بالله والتوحيد لايشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب ، وإنّه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً كان الايمان به وتوحيده واجباً بما ركّب فيهم من العقول ، ونصَب لهم من الآدلّة ، ومكّنهم من النظر والاستدلال » .

أقـول : ماذكَره يوجب تخصيص الهدى والإرسال والإنزال، وهوتخصيص بغيردليل ، لأنّ المراد منه كما ذكَره بعضهم كلّ دلالة وبيان ، فيدخل فيه غرائزالعقول وقيام الأدلّة ، والقُدرة على النظر والاستدلال ، وكلّ كلام نزل على كلّ نبي .

---

١) الكشاف : في تفسير الآية : ١ /٢١٢ .

فصلٌ

اعلم أنّ الآية تدلّ على أمور :

الأوّل : التنبيه على جليل عناية الله وعظيم رحمته في حقّ آدم وذريته . إذ كأنّه يقول: «إنّي وإن أهبطتكم إلى الأرض ، وأوقعتُكم إلى الدنيا من المنازل العالية فقد عظّمتُ عليكم الرحمة ، وأنعمت عليكم بما يؤدّيكم مرة أخرى إلى الجنّة على وجهٍ أتمّ وأدوم زماناً وأكثر عدداً ، لأنّ آدم وحوّاء لو لم يهبطا إلى الأرض ، وبقيا في الجنّة ابتداء من غير ابتلاء ، لكان كثيرٌ غير محصور من الكمالات والخيرات فيهما في حدّ القوّة ، من غير أن يخرج إلى الفعل ـ مع إمكان الخروج ـ ولم يدخل معها في الجنّة أعداد نفوس غير محصورة من أولادهما ، فعلم أن خروجهما من الجنّة متضمّن لخيرات كثيرة ونعمٍ جليلة لهما ولذرياتهما .

الثاني : إنّه تعالى بيّن أنّ من اتّبع هداه بحقّه عِلماً وعمَلاً ـ بالإقدام على مايلزم ، والإحجام عمّا يحرم ـ فإنّه يبلغ إلى منزلة لايعتريه فيها خوف عن المآل ، ولا حَزنٌ في الحال . وهذا متضمّن لجميع ماأعدّ الله لاوليائه ، لأنّ زوالَ الخوف يتضمّن السلامة من جميع الآفات ، وزوالّ الحزن يقتضي الوصول إلى كلّ اللذات والمرادات .

لايقال : هذا يستلزم أن يتساوى جميع أهل الهداية في السعادات ولا يتفاوت فيها بين الأنبياء والأمَم .

لأنّا نقول : كلّ واحد من أهل السعادة ينال جميع مايستلذّه ، ويسلم من جميع مايستكرهه ، وهم مع ذلك متفاوتون في السعادات ، لتفاوتهم في الشهوات وتفاوت ادراكاتهم للخيرات، وكلّ ينال بقدر قوّة وجوده وعلمه سعادة يليق بحاله وكماله .

الثالث : الآية تدلّ على أنّ المؤمن المتبّع للهُدى، المعرِض عن آفة الهوى

---

١) راجع تفسير الفخر الرازي: ١/ ٤٧٧ .

لايلحقه خوفٌ أصلاً ـ لافي القبر، ولاعند البعث ، ولاعند حضور الموقف ، ولاعند تطاير الكتب ، ولا عند نصْب الموازين ، ولا عند الصراط ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ [تُوعَدُونَ] ﴾ [١٠٣/٢١] .

ومنهم مَن استدلّ بعموم قوله : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [٢/٢٢] وسائر العمومات الواقعة في أحوال القيامة وشدائدها على أنّ أهوالها كما تصل إلى الكفّار والفجّار كذلك تصل إلى المؤمنين والأخيار .

والجواب إنّ قوله : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ خاصٌّ ، وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ وأمثاله عامٌّ ، والخاصّ مقدّمٌ على العامّ عند التعارُض .

والرابع: إنّ الهدى قد تثبت ولا اهتداء ، لأنّ الأوّل فضل الله ومنّته ، و لا تبديل لسنة الله . والثاني فعْل العبد ، وهو في معرض التجدّد والانفكاك . فلذلك قال : ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ .

والخامس : بطلان القول بأنّ المعارف ضروريّة .

السادس : إبطال التقليد فيها ، لأنّ الآية دلّت على أنّ الخلاص من الخوف والحزن إنّما يترتّب على اتّباع الهدى ، والمقلّد لايَصدق عليه إنّه اتّبعَ الهُدى ، لأنّ ذلك يتوقّف على البصيرة ، ولابصيرة في المقلّد .

السابع : إنّ بمجرّد اتّباع الهدى يحصل استحقاق الجنّة ، لأنّ قلبَ الإنسان في نفسه لطهارته الأصليّة صالحٌ للوصول إلى عالَم الجنان ، وإنّما عاقتْه عن ذلك كدورة الظلمات والجهالات وثقْل الأوزار والتعلّقات ، وباتّباع الهدى عادَ إلى فطرته الأصليّة مع زيادة نور العلْم والعبادة ، فيستحقّ الجنّة أتمّ استحقاق .

* * *

وقرىء « هدىَّ » على لُغة هذيل ـ بقلْب الألف ياءً ـ وقرء يعقوب ﴿ فَلَاخَوفَ عَلَيْهِم ﴾ بنصب الفاء في جميع القرآن . والباقون بالرفع والتنوين .

فصلٌ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا ـ الآية

قد جعل الله الكفر والتكذيب للآيات في مقابلة الاتّباع للهدى وعُلم إنّ المراد من الهدى الآيات ، وجَعل الكفار والمكذّبين قسيماً للمؤمنين المتّبعين للآيات ، فأوعَد هؤلاء بالعذاب الدائم والخلود في النار كما وَعَد أولئك بالأمن من العذاب والحُزن .

و«الآيَة» في اللغة العلامة . ومنه قوله تعالى ﴿ عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ﴾[٥/١١٤] أي : علامة لاجابتك دعائنا ، ويقال للمصنوعات من حيث دلالاتها على وجود الصانع وعلمِه وقدرته ، ولكلّ بعض من كتاب الله المتميّز بفصلٍ عنه غيره لدلالته على معرفة من معارف الله .

وهي مشتقّة من « أيّ » لأنّها تُبيّن أيّاً مِن أيّ ، أو من «أوَىٰ إليه» واصلها «أيَة» او « أوَية » كتمْرة ، فأبدلت عنها[1] على غير قياس او « أيِيَة » أو « أوِيَة » كرَمَكَة فأعلّت أو «آيية» كقائلة . فحذفت الهمزة ـ كذا في البيضاوي .

والمراد من الآيات : المنزَلة ـ كالكتب والرسل ـ او مايَعمّها والمعقولة . وعند التحقيق مرجعهما واحد ، لأن معاني الكتب عين البراهين العقليّة ، وذوات الرسل عين مباديها التي هي عقول بالفعل . والكلّ شواهد الجمال وآيات العظمة والجلال ، والإعراض عن معرفتها والاهتداء بها يوجِب العذاب والنكال ، والسقوط عن درجة الكمال والانحطاط إلى مَهوى الأرذال ومهبط النزال .

وأما الكلام في أنّ العذاب هل يَحسن من الله ، أم لا ؟ وبتقدير حُسنه : هل يحسُن على الدوام ، أم لا ؟ فقد مرّ ذكره في تفسير قوله : ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ .

---

١) البيضاوي : فأبدلت عينها ألفاً .

واعلم إن الله سبحانه بيـّن حالَ طائفتين من طوائف الناس بحسب العاقبة ، لكون كلّ منهما في طرف التضادّ من الآخر. إحديهما الكاملون في السعادة ، والأخرى الكاملون في الشقاوة ، ولم يبيّن حال الاوساط إمّا لأنّ حالهم يُستفاد من أحوال هاتين الطائفتين بوجه ، وإمّا لان المقام لايقتضي تفصيل مراتب الناس بحسب العاقبة ، لأنّ الكلام مسوقٌ هيهنا في أحوال مبادي نشأة الإنسان ، وأوائل فطرته ، وإنّما انجرّ إلى ذكر نبذ من أحوال النهايه تبعاً وإجمالا . والتفصيل فيها موكولٌ إلى مواضع أُخرى من القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿وَآخرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٩/١٠٦] وكقوله : ﴿وَآخرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٩/١٠٢] .

والحقّ إنّ الموجبَ للعذاب الدائم ضربٌ من الكفر، وهو الذي يكون مع أهل النفاق المكذّبين المعانِدين، حيث يتركّب فيهم الجهل مع الاستكبار والرسوخ فيه .

وأمّا الكفر بمعنى الصفة العدميّة هي عدم الايمان بالله ورسوله بواسطة قصور النفس عن درجة هذا الكمال ، وانحطاطها عن اكتساب هذا النور ، فلايوجب ذلك الدوام الكون في النار ، وعذابٌ أدنى من عذاب أهل الشرك والظلم ـ نعوذ بالله .

* * *

وهيهنا آخر الآيات الدالّة على أحوال مبادىء نِعم الله على الإنسان وكيفيّة تكوّنه أوّلاً في عالَم القدس والانس ونزوله ثانياً من أعلى المراتب إلى أدنى المنازل ليستعدّ بذلك النزول للبلوغ إلى السعادة القصوى ، والمملكة العظمي في النهاية .

ويُستفاد منه الدلالة على التوحيد والنبوّة والمعاد :

أمّا التوحيد فمن حيث إنّ المبدع المنشىء له في أكمل النشأة وأحسن التقويم ، والمردّد له في محالّ الجبروت ومنازل الملكوت والمقلّب له في أطوار

الخِلْقة وأحوال الفطرة ، قادرٌ، حكيمٌ ، فاطرٌ ، عليمٌ ، محيطٌ بكلّ شيء ، وله الخَلْق والأمْر .

وأمّا الدلالة على النبوّة فمن حيث أنّ محمداً ﷺ أخبَر عن هذه العلوم الغيبية التي عجزَت عن كُنه إدراكها عقول الحكماء المتفكّرين ، وقصرت أفهامُهم عن تحصيلها ــ من ماهيّة الروح الإنسانية ، وتردّدها في مكامن الغيب قبل مظاهر الشهادة ــ من غير تعلّم من استاد بشري ، بل بوحي إلهي وعلم لدنّي . وهؤلاء بدقّة أفكارهم لم يعلموا من الروح الإنساني إلّاماحدث عن مزاج البدن في الشهر الرابع من تكوّن النطفة في الروح ، ولم يعلموا من بقائها إلّا استمرار وجودها على نعتٍ واحد وجوهريّة واحدة ، غير مطّلعين على نشآتها السابقه على الكون في الرحم ، ولا على تمام نشآتها اللاحقة بعد الموت ، وتفاصيلها كالقبرِ والبعثِ ، والحشرِ ، والصراطِ ، والحسابِ ، والميزانِ ، والجنّةِ ، والنارِ والرؤيةِ ، واللقاءِ .

وأمّا الدلالة على المعاد　فمن حيث أنّ القادر الذي يخلق بدايات خِلْقة الإنسان لابدّ وأن يخْلق نهايات خلْقه وغايات (ظ : غاياته) فإنّ كلّ ماله بداية فله نهاية ، والإنسان لجامعيّـةِ ذاته وشموله على الطبع والحسّ والنفْس والروح والسرّ المنفوخ ، فله بحسب كلّ منها بدايات متتابعة ونهايات متلاحقة . وهذا بيان برهاني له شرحٌ وتفصيل سيأتي إن شاء الله .

وأمّا ما قيل في إثبات المعاد في مواضع عديدة « إنّه مَن قَدر على خلْق هذه الأشياء ابتداءً قَدر على خَلْقها إعادة » فهو بمجرّده لايثبت وجوب المعاد ـ بل امكانه ـ إلّا أن يضم به سائر الأدلّة .

قوله عزّ اسمه :

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾

لما عمّم الله تعالى جميع الخَلْق بالحجَج الواضحة الدلالةَ على التوحيد والنبوّة والمعاد ، وذكّرهم ماأنعم عليهم في أبيهم آدم عليه السلام ، ونبّهم على مكامن خِلقتهم ومبادي نشأتهم ـ عقّبها بإزالة شُبه المنكرين وقمْع أوهام المعاندين بإقامة الحجّة على طائفة مخصوصين، وهم اليهود الذين كانوا بالمدينة ، لأنّهم أكثرَ الناس إنكاراً للنبوّة ، كما إنّ كفار قريش كانوا أكثر الناس إنكاراً للتوحيد . وقيل: الخطاب لليهود والنصارى ، وهم جميعاً من أهل الكتاب ، المحجوبين عن الدين ، بل عن الحقّ مطلقاً واليقين .

فشرَع أوّلاً في ذكر الإنعامات الخاصّة على أسلاف اليهود وآبائهم ، تذكيراً لنعمه وعظيم منّنه عليهم ، واستمالة لقلوبهم، وتنبيهاً على مايدلّ على نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله من حيث إخباره عن المغيبات والأحوال الماضية والأديان السابقة ، ثمّ أمرهم بإيفاء عهد الله من الإقرار بالربوبيّة ، والاعتراف بتمام نعمته في بعثة نبيّه الخاتَم للرسل، وانزال كتابه الجامِع للكلِم ، والحاوي للحِكَم ، المفصِح المعرِب عن كلّ دقيق وجليل ، المصدّق لما بين أيديهم من التورية والإنجيل ، ليكافيهم الله بإيفاء عهدهم

من حسْن الجزاء وسعادة المسرى ، ثمّ حذّرهم ورهّبهم عن التعرّض لما يوجِب سخطَه ، ويحجب عن رحمته من إنكار الحقّ وكتمانه ، وتلبيسه بالباطل أو ترويج الباطل وإبرازه في صورة الحقّ لاتبّاع الهوى وطلب العاجلة وترك الآجلة .

فالكلام من هذه الآية إلى أوائل الجزء الثاني مسوقٌ مع طائفة أهل الكتاب ومتكلّمي اليهود والنصارى ، احتجاجاً عليهم وإنذاراً لهم على أبلغ وجه وآكَده . ومن تأمّل في تضاعيف ماذُكر في هذه الآيات من الإشعار بفنون نِعم الله العامّة والخاصّة لطائفة أهل الكتاب ، ثمّ إردافها بالترغيب البالغ بقوله : ﴿ وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ مقروناً بالترهيب البالغ بقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْماً لاَّتَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ﴾ ـ إلى آخر الآية ـ [علِم إن هذا هو النهاية في حسن الترتيب لمن يريد الدعوة وتحصيل الاعتقاد في قلب المستمع][1] .

ولنرجع إلى تفسير الألفاظ :

﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيل ﴾ : ياأولاد يعقوب . الإبْن والوَلَد والنسْل والذُريّة متقاربة المعاني ، إلاّ إن « الإبن » للذكَر، و « الولَد » يقع على الذكَر والأنثى و « النسْل » و « الذريّة » يقعان على جميع ذلك . وأصل « إبْن » من « البناء » ، وهو وضْعُ الشيء على الشيء،لأنّه يبنى على الأبْ لأنّهُ الأصل والإبن فرعٌ له منسوب إليه ،كما ينسب المصنوع إلى صانِعه . فيقال : « أبوالحَرب » وكأنّ إطلاق الأبْ على العلّة الموجِدة والإبن على المعلول في بعض ألسِنة القدماء من هذه الجهة لأن العلّة الموجِدة للشيء هي أصل وجوده ، ووجودُ المعلول فرعه ، فكانوا يسمّون المبادي بالآباء ، يقولون للباري جلّ مجده : « أبَ الآباء » أعني علّة العلل ، لابالمعنى الذي زاغت النصارىٰ لاجل ذلك وضلّت أفهامهم من قول المسيح عليه السلام : « إنّي ذَاهِبٌ إلَىٰ أبي وأبيكم » أي : ربّي وربّكم .

---

١) الاضافة من تفسير الفخر الرازي : ١/٤٧٨ .

وإسرائيل لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - على نبيّنا وعليهم السلام - وقيل: أصله مضاف ، معناه بالعبريّة : صفوة الله . أو: عبدالله . لأنّ «اسر» معناه : عبد و« ايل » هو : الله - في لغة العبرانيّين ، فصارمثل « عبدالله » مركّباً اضافياً ، وكذلك جبرئيل وميكائيل . والقراءة المشهورة « إسرائيل » مهموز ، ممدود ، مشبع الياء . وقرء « إسرأل » بحذف الياء . و« إسرايل » بقلب الهمزة ياء . و« إسرال » بحذفهما وإسرائين بالنون [1] . قال أبو علي : « العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه » .

و «الذِّكر» الحفظ للشيء . وضدّه النسيان . والحقّ إن الذِكر هو ادراك الشيء المحفوظ أوّلاً ، ولابدّ فيه من قوّتيـن باطنيّتين : الواهمة والحافظة و« الاسترجاع » أخصّ منه ، إذ لابدّ فيه من قوى ثلاث - هما والمتصرّفة - فالذاكرة من الإنسان وكذا المسترجعة ليست قوّة بسيطة ، بل قوّة مركّبة من القوّتين أو أزيد ، فلايلزم بسببها إثبات قوّة أخرى في الإنسان غير الخَمس الباطنيّة .

وربما يطلق « الذِكر » على جزْي لفظ الشيء على لسانك ، وهو ليس بذِكْر للشيء حقيقة ، كما إنّ لفظ الشيء ليس وجوده ، بل ذِكْر الشيء عبارة عن إحضار معناه في حضرة النفس . قال تعالى [2] « أنا جَليسُ مَن ذَكَرني » فلو كان المراد به ذِكْر اللسان دون القلب يلزم أن يكون اللهُ جليسَ هذا الجِرم المخصوص .

وأمّا القلبُ الذاكرِ للحقِّ فليس المراد به هذا العضو العنصري المتخصّص بالوضع والأين . بل الذي أشير إليه في الحديث الإلهي [3] : « لايَسَعني أرضي ولاسمائي ، ولكن يسَعني قلب عبدي المؤمن الوادع » .

و « الذكْر » قد يكون بمعنى مايتذكر ، فيطلق على الكتاب الذي فيه تفصيل

---

١) راجع المعرب للجواليقي : ١٤ .

٢) بحار الانوار : ٩٣/١٥٣ .

٣) قال العراقي (الاحياء: ٣/١٥) : لم أر له أصلا .

الدين ﴿إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [٤٣/٤٤] فكلّ كتاب من كتب الأنبياء ﷺ ذِكر .

و « الذِكْر » هو الصلوة والدعاء ، وفي الأثر : « كانَت الأنبياءُ إذا حزنَهم أمرٌ فزعوا إلى الذكر» أي : إلى الصلوة .

تقول : « وفيتُ بعهدِك وفاءً » و « أوفيتُ » لغة تهامة .

والعَهْد : الأمْر والوصيّة .

والرَهْبَة : الخوف . وضدها الرغْبة . وفي المثل[1] : « رَهبُوت خيرٌ من رحَموت » أي : لأن تَرهب خير من أن تُرحم .

فصلٌ

قوله تعالى : اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ

أراد بذلك النعَم التي أنعَم بها على أسلافهم من تكثيرالأنبياء فيهم والكتب ، وإنجائهم من فرعون وجنوده ، ومن الغرق على أعجب الوجوه ، وإنزال المنّ والسلوى عليهم ، وكون الملِك منهم في زمن سليمان ﷺ ، وغير ذلك .

وعدّ النعمة على آبائهم نعمةً عليهم ، لأنّ الاولاد يتشرّفون بفضيلة الآباء . وهذا كما يقال في المفاخرة : « قتلناكُم يومَ الفخار ، وهَزمناكم يومَ ذي قار ، وغَلبناكم يومَ النسار » .

وذكر النعمة بلفظ الواحد ، والمراد به النعم الواصلة اليهم مما اختصّوا به أواشتركوا مع آبائهم ، حتّى تناسَلوا فصاروا من أولادهم ، ومن ذلك خلقُه إيّاهم على وجه يمكنهم اكتساب المعرفة بالله ، والاستدلال على توحيده والوصول إلى مكاشفة أسمائه وصفاته وملَكوته وآياته ، فيشكروا نعمتَه ، ويستحقّوا ثوابَه وجنّتَه .

---

١) مجمع الأمثال : ١/٢٨٨ .

واعلم إنّ « النعمة » يعبّر بها عن كلّ خير ومنفعة ولذّة ، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة . و « الخير » هو المؤثّر المختار بحسب الواقع .

و « المنفعةُ » مايكون وسيلة إلى الخير بالذات ، فهي يكون خيراً بالعرض ، و« اللذّة » قد تُطلق بمعنى الشهوة ، وهي التي تكون مختصّة بإدراك الحواسّ ، كلذّة البطن ، والفرج ، والمال ، والجاه . وقد تطلق بمعنى إدراك الملائم سواء كان للعقل أو الحسّ . والأوّل لايكون خيراً ، إلاّ انها يمكن أن يكون منفعة ، وذلك إذا كانت على وجه يؤدّي إلى الخير الحقيقي .

وكلّ واحد من هذه المعاني الثلاثة يمكن أن يصدق على بعض أفراد الآخرين فإنّ الشيء يمكن أن يكون خيراً ولذيذاً ومنفعة ، كالعلم بمسئلة إلهيّة يؤدّي إلى العلم بمسئلة اُخرى منها ، فإنّ العلوم الإلهيّة كلّها خير ، لأنّه كمال عقليّ باق دائماً ، وكلّ موجود باق دائماً فهو خير، وهو أيضاً وسيلة إلى خير آخر فيكون منفعة ، وهو في نفسه لذيذ عند العالِم به ، وإن لم يكن لذيذاً عند فاقد القوّة التي بها تُدرك المعارف الإلهيّة . والله سبحانه أحبّ الأشياء عند العرفاء الأحباء ، وهم أيضاً أحبّ الأشياء عنده ، كما يدل عليه قوله ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه ﴾ [٥/٥٤] . وهو أبغض الأشياء عند المُبعدين المُنكرين وبالعكس ، كما في قوله ﷺ[1] : « مَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقائَه . ومن أنكَرَ لِقاءَ الله أنكرَ اللهُ لقائَه » .

وحدَّ القومَ « النعمة » بأنّها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، أمّا كونها منفعة فلأنّ المضرّة المحضة لايجوز أن يُعدّ نعمة ، وأمّا التقييد بكونها مفعولة على جهة الإحسان : فلأنّه لو كان نفعاً ولكن لم يقصد الفاعل نفعه - بل ضرّه - لم يكن نعمة عليه ، كمن أحسَنَ إلى أحدٍ وأراد به اختداعه أو استدراجه إلى ضرر .

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ جميع ماخلقه الله لعباده فهي نعمة منه ، لأنّها لايخلو عن أمرين : إمّا خيرٌ ، وإمّا منفعة - أي : وسيلة إلى ماهو الخير بالذات . أمّا الخير

١) الجامع الصغير(٢/١٦٠) : « . . . ومن كَره لقاء الله كَره اللهُ لقائه » .

بالذات : فيرجع حاصله مع انشعاب أقسامه إلى الايمان ، وحسْن الخُلق ، وينقسم الايمان إلى علوم المكاشفة ، وهي العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله وأوليائه وعالَم (ظ : علم) المعاد واليوم الآخر . وإلى علوم المعاملة : وهي تحصيل حُسْن الخُلق .

والأولى عدّ علوم المعاملة من جملة المنافع ، لأنّها وسيلة إلى حُسن الخُلق الذي هو عبارة عن سلامة القلب وطهارة النفس وصفاء الضمير ، وشيء منها ليس خيراً بالذات ، لأنّها عدميّة ، والعدَم لايكون خيراً بالذات ، وإنّما هو وسيلة إلى قبول الخير ، وهوصورة المطلوب ـ أي الحضرة الإلهية وأفعاله وآثاره ـ .

فعلوم المعاملة من المنافع المؤدّية إلى الخير الحقيقي والسعادة الأُخروية ، إذ لاسبيل إلى سعادة الآخرة إلاّ بالعمل والسعي في طريقها و ﴿ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَىٰ﴾ وليس لأحد في العقبى إلاّ ماتزوّد في الدنيا .

وهي تنقسم إلى عفّة ـ وهي سياسة قوّة الشهوة ، حتّى لاتكون مستولية ولامطموسة ـ وإلى شجاعة ـ وهي تعديل قوّة الغضب ، حتّى لايكون الإنسان من جهتها متهوّراً ولا جباناً مقهوراً ، بل يكون إقدامه وإحجامه بمقتضى العقل المنور بنور الايمان ـ وإلى حكمة ـ وهي إصلاح القوّة الإدراكية حتّى لاتكون جربزة مكّارة كالشيطان في استنباط دقائق الحيل في الدنيا ، والتفريعات الجزئية من العلوم التي ضرّها أكثر من نفعها . ولايكون أيضاً بليداً غير مروّ في الأُشياء النافعة .

وهذه الحِكمة غير الحِكمة التي أثنى عليها كتابُ الله بقوله : ﴿ مَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [٢/٢٦٩] فإنّها كلّما كانت أكثر فهي أجلّ وأشرف .

ومن تعديل هذه الثلاثة ـ أعني ملكة العفّة والشجاعة والحكمة ـ تحصّل للنفس ملكة أخرى تسمّى بالعدالة ، وهي ميزان أنزال الله تعالى على لسان رسوله ، إذ قال : ﴿ أَلاَّ تَطْغَـوا فِي ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَتُخْسِرُوا ٱلْمِيزَان ﴾ [٥٥/٩] فمن أخصى نفسه لترك شهوة الجماع وترك النكاح مع الاستطاعة والأمن

من الفاتلة ، او ترك الأكل حتّى ضعف عن العبادة والفكر فقد أخسَر الميزان ، ومَن انهمك في الشهوات فقد طَغى في الميزان ، وإنما العدْل أن يخلو الوزن والتقدير عن الطغيان والخسران، وتتعادل كلتا كفّتي الميزان ، وفي ذلك تحصل النجاة عن عالَم الأضداد وخلاص النفس عن أسْر عفاريت الظلمات وأفاعي الشهوات ، فإنّ التوسّط بين الأطراف بمنزلة الخلوّ عنها .

فهذه هي الفضائل والخيرات المحضة ، وهي سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له ، وسرور لاغم فيه ، وعلم لاجهل معه ، وغنى لافقر معه ، وهي النعمة الحقيقية . ولذلك قال ﷺ « لاعَيش إلّا في الآخرة » وصدَر هذا القول منه ﷺ مرّتين : مرّة في الشدة تسلية للنفس ، وذلك في وقت حفر الخندق[1] في شدّة الضرّ ، ومرّة أخرى في السرور منعاً للنفس من الرّكون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحداق الناس به في حَجّة الوداع [2] .

وقال [رَجل] : « إنّي أسئلك تمامَ النعمة » فقال ﷺ[3] : « وهلْ تعلَم ماتمامْ النعمة ؟ » قال : « لا » . قال : « دخولُ الجنّة » .

وأمّا المنفعة ـ أعني النعمة التي هي وسيلة إلى ماهـو خيرٌ حقيقي ـ فتنقسم إلى الأقرب الأخصّ بالخير، كفضائل النفس ، وهي كما مرّ : عفةٌ وشجاعةٌ ، وحكمةٌ وعدالة . وإلى مايليه في القرب ، كفضائل البدن ، وهو الثاني . وإلى مايلي هذا في القرب ، كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة ، وإلى مايَجمع بين

---

١) البخاري : باب ماجاء في الرقاق ، ٨/١٠٩ .

٢) راجع المسند : ٣/٢١٦ وأيضاً ماقاله العراقي في تخريج أحاديث الاحياء (ذيل أحياء العلوم: ١/٢٤٩) .

٣) في الترمذي (كتاب الدعوات ، باب ٩٤) : فإنّ من تمام النعمة دخولُ الجنـة والفوز من النار .

هذه الأسباب الخارجة عن النفس، وبين الحاصلة لها كالتوفيق والهداية.

فجميع نعم الله التي هي دون الخير الحقيقي، والشرف الذاتي وهو المعرفة بالله وأفعاله من ملائكته وكتبه ورسله ومعرفة النفس ومواطنها وغاياتها - المعبّر عنهما بالايمان بالله واليوم الآخر، كما مرّت إليه الإشارة - منحصرة مع عدم تناهيها وعدم إمكان العدّ والإحصاء فيها - كما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [١٤-٣٤] - في أربعة أنواع:

النوع الأوّل منها هي الفضائل النفسانيّة التي ترجع إلى سلامة القلب وطهارة النفس. وهي الأربعة المذكورة - العفّة، والشجاعة، والحكمة، والعدالة - وهذه الفضائل لاتتمّ إلا بالنوع الثاني منها، وهي الفضائل البدنيّة - وهي أيضاً أربعة: الصحّة، والقوّة، والجمال، وطول العمر - ولاتتهيّأ هذه الأمور الأربعة إلاّ بالنوع الثالث، وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن - وهي أربعة: المال، والأهل، والجاه، وكرم العشيرة - ولاينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجيّة البدنيّة إلاّ بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين مايناسب الفضائل النفسانيّة الداخلة - وهي أيضاً أربعة: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده - وقد مرّ شرح هذه المعاني في تفسير الفاتحة.

فمجموع هذه النعم ستّة عشر أقسام وهذه الجملة يحتاج بعضها إلى بعض، إمّا حاجة ضروريّة أو نافعة.

أمّا الحاجة الضروريّة كحاجة سعادة الآخرة إلى حُسن الخُلق وسلامة القلب، وكذلك حاجة الفضائل النفسانيّة - ككسب العلوم وتهذيب الأخلاق - إلى صحّة البدن ضروريّة.

وأمّا الحاجة النافعة على الجملة، كحاجة هذه النعم النفسيّة والبدنيّة إلى النعم الخارجيّة مثل المال والعزّ والأهل، فإن ذلك لوعدم ربما تطرّق الخلل إلى بعض

النعم الداخلية ، أولاترى إنّ الفقير في طلب العلم والكمال الذي ليس معه كفاية كساعٍ إلى الهَيجا بغير سلاح ، أوكَبازٍ يرومُ الصيد بغير جناح .

ولذلك قال ﷺ(١) : « نِعم المالُ الصالِح للرجلِ الصالح » وقال ﷺ(٢): «نعمَ العونُ على تَقوىٰ اللهِ المالُ» وكيف، ومَن عَدم المالَ مستغرقَ الأوقات في طلب القوت وتهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، ثمّ يتعرض لأنواع الأذى من الأدنى حتّى يشغله عن الفكر والذكْر ، ويحرم عن فضيلة الحجّ والصدقات وإفاضة الخيرات .

سُئل بعض الحكماء ، وقيل : ماالنعيم ؟ فقال : الغِنى ، فإنّي رأيت الفقير لاعَيش له . قالوا : زِدنا ؟ قال : الأمن ، فإنّي رأيتُ الخائفَ لاعيش له . قالوا : زِدنا ؟ قال: العافيةَ ، فإنّي رأيتالمريضَ لاعيش له . قالوا : زِدنا؟ قال : الشبابُ ، فإنّي رأيت الهرِم لاعيش له .

وكأنّ ماذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ، ولكنّه من حيث إنّه معينٌ على الآخرة فهو نعمة . ولذلك قال ﷺ (٣) : « مَن أصبَح مُعافىً في بدنِه آمناً في سِرْبه ، وله قوتُ يومه ، فكأنّما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما ، إذ قال ﷺ (٤) :

---

١) المسند : ٤/٢٠٢ .

٢) قال العراقي (ذيل احياء علوم الدين : ٤/١٠٤) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

٣) الترمذي :كتاب الزهد ، الباب ٣٤ : ٤/٥٧٤ . ابن ماجة ،كتاب الزهد : باب القناعة : ٢/١٣٨٧ . ولفظة «بحذافيرها» غيرموجودة فيهما .

٤) قال العراقي (ذيل احياء علوم الدين : ٤/١٠٤) « لم أجد له اسناداً » وجاء في الكافي (٥/٣٢٧) : «من سعادة المرء الزوجةُ الصالحة» .

« نِعْم العونُ على الدنيا المرأةُ الصالحة » . وقال في الولد [١] : « إذا ماتَ الرجُل انقطع عملُه إلاّ من ثلاث : ولدٌ صالح يدعو له ـ الحديث » .

وأمّا الأقارب فمهما كثُر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي .

وأمّا العزّ والجاه فَبِه يدفع الإنسان عن نفسه الذلّ والضيم ، ولا يستغني عنه مسلم ، فإنّه لاينفكّ عن عدوّ يؤذيه ، وظالم يشوش عليه عامّة عمله وفراغه ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله وانما تندفع هذه الشواغل بالعزّ والجاه . ولذلك قيل : الدين والسلطان توأمان﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[٢٥١/٢] .

ولامعنى للجاه إلاّ مُلك القلوب ،كما لامعنى للغِنى إلاّ مُلك الدراهم ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لامُلك لهم ولاسلطنة يراعون السلاطين ويطلبون [ما] عندهم وكذلك كان أئمّتنا سلام الله عليهم يتوجّهون إلى الأمراء ويقصدون التناول من خزانتهم والاستيسار والاستكثار في الدنيا بملاقاتهم ومعاشرتهم ، ولاتظنّن أن نعمة الله على رسوله ﷺ حيث نصَره وأكمَل دينَه وأعزّه في الأرض، وأظهرَه على جميع أعدائه ومكّن له في القلوب حتى اتّسع عزه وجاهه كان أقلّ من نعمته عليه حيث كان يؤذىٰ ويُضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة .

وأمّاكرم العشيرة فهوأيضاً من النعم الجليلة ، ولذلك منّ الله تعالى على بني اسرائيل في هذه الآية ، وفي قوله . . . [٢] ، وقال رسول الله ﷺ [٣]: «الأئمّةُ من قريش» ولذلك كان ﷺ من أكرم أرومة في نسَب آدم ﷺ ، ولهذا المعنى قال ﷺ [٤] :

---

١) الجامع الصغير : ٣٥/١ .

٢) كذا بياض بالاصل والاية : ٤٧/٢ و١٢٢/٢ .

٣) الجامع الصغير: ١٢٤/١ .

٤) ابن ماجة : كتاب النكاح ، باب الاكفاه : ٦٣٣/١ . وفي الكافي :كتاب النكاح ، باب اختيار الزوجة (٣٣٢/٥) : « اختاروا لنطفكم » .

« تخيـّروا لِنُطفكم » . وقال [١] : « إيّاكُم وخضراءَ الدمن » فقيل : « وما خَضراء الدمن ؟ » قال : « المرأةُ الحَسناء في المنبت السوء » .

فهذا أيضاً من النعم ، وليس المراد منه الانتساب إلى الأشرار والظلَمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى أكابر الاخيار كشخص رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام والعلماء والشهداء والصالحين .

فإن قلت : فما منفعة الفضائل البدنيّة وغناؤها ؟

فنقول : لاخفاء في شدّة الحاجة إلى الصحّة والقوّة وإلى طول العمر ولذلك قال ﷺ [٢] : « السعادةُ طولُ العُمر في طاعةِ الله »

وإنّما يستحقر من جملتها أمرالجمـال فيقال : يكفي أن يكون البدنُ سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحرّي الخيرات . نعم ـ الجمالُ قليل الغِناء . ولكن لعمري إنّه من الخيرات إيضاً . أمّا في الدنيا فلايخفى نفعُه فيها ، وأمّا في الآخرة فمن وجهين :

أحدهما إنّ القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة ، وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدر أوسع ، فكأنّه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجّز حاجات لايقدر عليها القبيح ، وكلّ مُعين على حاجات الدنيا فهو مُعين على الآخرة بواسطتها .

الثاني إنّ الجمال في الأكثر يدلّ على فضيلة النفس ، لأنّ نور النفس إذا تمّ إشراقه ، تأدّى إلى البدن ، فالمنظّر والمخبّر كثيراً مايتلازمان ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن ، وقالوا : الوجهُ والعينُ مرآة الباطن ، ولذلك يظهر فيه أثرُ الغضب والسرور والغمّ ، ولذلك قيل : « طلاقةُ الوجهِ

---

١) الكافي : ٥/ ٣٣٢ .

٢) قال العراقي(٤/ ١٠٥) غريب بهذا اللفظ . وفي الترمذي(الزهد ، باب ٢١ ؛ ج ٤ ص٥٦٥) : سئل النبي (ص) « من الناس خير ؟ » قال : « من طال عمره وحسُن عمله » .

عنوان ما في النفس » .

واستعرض المأمون جيشاً ، فعُرِض عليه رجلٌ قبيح المنظر فاستنطقه ، فإذا هو ألكن . فأسقط اسمه من الديوان . وقال : « الروحُ إن أشرقت على الظاهر فصباحةٌ وإن أشرقت على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهرٌ ولا باطنٌ » وقد قال ﷺ[1] : « اُطلبوا الخَير عند حِسان الوجْه » . وقالت الفقهاء : « إذا تساوتْ درجاتُ المصلّين فأحسنُهم وجهاً أولاهم بالإمامة » وقال سبحانه ممتناً بذلك : ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [٢/٢٤٧] .

وليس المراد بالجمال مايحرّك الشهوة ، فإنّ ذلك أنوثة مذمومَة ، وإنّما يعنى به ارتفاع القامة في الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسُب الأعضاء وتناصف خِلْقة الوجْه ، بحيث لاتنبوا الطباع عن النظر إليه .

* * *

فإن قلت : كيف يكونَ المالُ والجاه والنسب والأهل والولد في حيّز النعم وقد ذمّ الله تعالى المالَ والجاهَ وكذا رسولُه صلى الله عليه وأهل بيته عليهم السلام وقال : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [٦٤/١٤] وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [٦٤/١٥] وقال : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [٤٩/١٣] وقال أمير المؤمنين عليه السلام[2] « الناسُ أبناءُ مايحسنون ، وقيمةُ كلّ امرء مايحسنه » وقيل : « المرءُ بنفسِه لابأبيه » فما معنى كونها نعمة ـ مع كونها مذمومة شرعاً ـ ؟ .

فاعلم إنّ مَن يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المأوّلة والعمومات المخصّصة

---

١) الجامع الصغير: ١/٤٤ .

٢) الاختصاص : ٢ : « . . . وقدر كل امرىء مايحسن » . وجاء الشطر الثاني في نهج البلاغة : الحكمه رقم ٨١ .

كان الضلال عليه أغلب، مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك الأمور على ماهي عليها ثمّ تبيّن النقل على وِفْق ماظهر له منها بالتأويل مرّة وبالتخصيص أخرى .

فهذه نِعم معينةٌ على الآخرة لاسبيل إلى جحدها ، إلاّإنّ فيها فتناً ومخاوف ، فمِثال المال مثال الحيّة التي فيها ترياق نافعٌ وسمّ ناقعٌ : فإن أصابها المعزّم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمّها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، وإن أصابها سواديّ فهي عليه هلاك وبلاء . وهو مِثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآلي فمن ظفَر بالبحر، فإن كان عالماً بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحترازعن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهل بذلك فقد هلك .

ولذلك مدَح الله المال وسمّاه خيراً [١] : ومدَحه رسول الله ﷺ فقال [٢] : «نعمَ العونُ على تقوى الله المال الطيب» وكذلك مدَح الجاهَ والعزّ، إذ منّ الله على رسوله ﷺ أن أظهره على الدين كلّه ، وحبّبه في قلوب الخلْق ، وهو المعنيّ بالجاه .

ولكن المنقول في مدحهما قليل ، والمنقول في ذمّهما كثير ، حيث ذمّ الرياء وهو ذمّ الجاه . إذ الرياء المقصود فيه اجتلاب القلوب ، ومعنى الجاه مُلك القلوب وإنّما كثرهذا وقلّ ذلك، لأنّ الناس أكثرهم جهّال بطريق الرقية لِحيّة المال وطريق الغوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم ، فإنّهم يهلكون بسمّ المال قبل الوصول إلى ترياقه ويُهلكهم تمساحُ بحرالجاه قبل العثور على جواهره ، ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصوّر أن ينضاف إلى النبوّة المُلك ـ كما كان لرسول الله ﷺ ـ ولا أن ينضاف إليه الغِنى ـ كما كان لسليمان عليه السلام ـ والناس كلّهم صبيان والأموال حيّات، والأنبياء والعارفون معزّمون وقد يضرّ الصبيّ مالايضرّ المعزّم .

فإذن النعم الدنياوية كلّها مشوبة ، وقد امتزج داؤها بدوائها، ومرجوّها بمخوفها

١) ٢/ ١٨٠ : إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين .

٢) احياء علوم الدين : ٤/ ١٠٦ .

ونفعها بضرّها ، فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يعرف منها فسادها ويستخرج دوائها ، وإلّافالفرار والفرار ، والبعُد كل البعُد عن مظانّ الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيء في حقّ هولاء ، وهم الخَلْق كلّهم إلّامن عصمه الله تعالى وهداه لطريقه .

* * *

فهذه مجامِع نعم الله وأجناسها الكلّية ، ولكل منها أعداد لاتحصى وأسباب لاتتناهي ، بل كلّ مايوجد من الله تعالى في الدنيا فهي ممايصدق عليه بوجه من الوجوه إنّه نعمةٌ ، لأنّه إمّا خيرٌ وإمّا وسيلةٌ إلى الخير. والشرّ مما لاذات له ، لأنّه إمّا عدم ذات اوعدم كمال لذات ، فالموت والكفر والجهل والفقر وأمثالها التي هي شرور بالذات أمور عدميّة ، وأمّا الظلم والجحود ، والقتل المحرّم والفسق والتكبّر والعناد والجهل المركّب وأمثالها ، فهي شرور بالعرَض ، لأنّها مؤدّيةٌ إلى ماهو شرٌّ بالذات ، أعني عـدم الحيوة الأخروية ، أوعدم كمال تلك الحيوة . ولهذا شرحٌ وتفصيلٌ يليق بموضع آخر غير هذا الموضـع .

هداية

[لماذا يُنسب الخيرُ إليه تعالى والشرّ إلينا ؟]

اعلم إنّ كلّ مايصل إلينا في كلّ وقت ولحظة من آناء الليل والنهار من النفع أو دفع الضرّ، فهو من الله تعالى على ماقال ﴿وَمَابِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [١٦/٥٣] وأمّا الشرور والآفات فهي من أنفسنا ومن قصور قابليّاتنا وسوء استعداداتنا التي هي ايضاً منتهيةٌ بوجه الخير إلى الله ، وبوجه الشر إلى الامكانات ولوازم الماهيّات الناشية من قصور الوجودات ، فإن وجود المعلول لاينفكّ عن نقص ، وإلّا لم يكن فرقٌ بين المفيض والمفاض عليه .

فجميع مافي العالَم ـ على التحقيق ـ إمّا نعمة ، أومتنعّم به نفع ، او منتفع به

خير ، أومايؤدي إلى الخير، بل يمكن أن يقال: إنّ جميع مافي العالَم - ممّا لاحدّ له ولاإحصاء - هي نعمة من الله في حقّ الإنسان ، إذ مامن شيء إلّا وله الانتفاع بها .

أمّا التي أودعها فينا من المنافع واللذات والجوارح والآلات فظاهر انتفاعنا بها ، لأنّا نستعملها في جرّ المنافع ودفع المضارّ الدنيويّة والأُخرويّة .

وأمّا التي خلقها الله تعالى خارجةً عنا فهي أيضاً إمّا نستلذّ بوجودها، اوننتفع لمعرفتها والاستدلال على وجود الصانع وحكمته وجوده ولطفه ، فهي كلّها منافع منتفع بها إمّا حالا أومآلا ، فإنّها وسائلُ إلىالمعرفة والحكمة ، وهي إمّا نفس السعادة واللذّة الدائمة أو وسيلة إليهما فصحّ انّ جميع مخلوقات الله نعم على العبد ، وهي غير متناهية لايمكن عدّها ولذا قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَاتُحْصُوهَا﴾ [١٤/٣٤] .

فإن قلت : إذا كانت النعم غير متناهية فكيف يمكن الانتفاع بها ؟ وأيضاً إذا كانت غير متناهية لم يمكن علم العبد بها فكيف أمَرَ الله إيّاه بتذكّرها في قوله : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ؟

والجواب عن الأوّل إنّ المراد بالنعمة ما يمكن الانتفاع به ـ سواءً انتفع به أحدٌ ، أم لا ـ فكلّ واحد من الأمور المخلوقة ممّا يمكن الانتفاع به للعبد ، فيكون نعمة في حقه .

وأمّا عن الثاني انّ الأشخاص غير متناهية ، والطبائع النوعيّة متناهية ، ويمكن لنا العلم بالطبائع والعنوانات ، والحكم بها على وجه يسرى في أشخاصها الغير المتناهية مجملة ، كما في القضايا الكلّية ، مثل قولنا : «كلّ إنسان له قوّة الكتابة» ففي هذا الحكم تصوّرنا طبيعة العنوان ـ أي ماهيّة الإنسان ـ بالكُنه ، وتصوّرنا أفرادَه كلّها بالوجه وحكمنا عليها بقوّة الكتابة . وهذا ضرْب من العِلم ، وهو يكفي للتذكّر الذي يفيد العلم بوجود الصانع وحكمته عن آثار صُنعه وأنوار حكمته .

فقد ثبت انّ جميع مافي العالَم من المخلوقات فهو نعمةٌ في حقّ الإنسان وقد مرّ إنّها كلّها خيرات بالقصد، شرور بالتبَع .

* * *

هذا على ماهومذهب أهل الحق ، وأما على مذهب أهل السنّة فيجوز من الله خلْق الشرور وايلام البري من غير أن يكون القصد فيه إلى إصلاح حالهم أومآلهم ثمّ اختلفوا [1] في أنّه هل لله تعالى نعمة على الكافر في الدنيا ، أم لا ؟

فمنهم مَن قال : هذه النعم في الدنيا لمّا كانت مؤدّية إلى الضرر الدائم في الآخرة لم يكن تلك نعمة ، فإنّ من جعَل السمّ في الحلواء لم يعدّ النفع الحاصل من أكْل الحلواءِ نعمةً ، لمّا كان وسيلة إلى الضرر العظيم . ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا انَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [٣/١٧٨] .

ومنهم مَن قال : إنّه تعالى وإن لم ينعم على الكافر بنعمة الدين ، لكن أنعم عليه في الدنيا ـ وهو قول الباقلاني ـ وهذا أقرب إلى الصواب .

* * *

لكن الإشكال المذكور في مثال الحلواء المسموم باق ، لايمكن حلّه بقوّة فكْر المتكلّم وصنعة وتلفيقه للكلام ، وإنّما ينحلّ وينكشف بقوّة نورالبصيرة الكاشفة لأسرارحكمة الله في خلق الكفّار وتنعيمهم مدّة لعمارة هذه الدار وتعذيبهم في دار القرار، فهذا التنعيم بعينه إمّا عين ذلك التعذيب ، أو منجرّإليه . قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوقِ رُءُوسِهِم ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَافِي بُطُونِهِمْ [وَٱلْجُلُودُ] * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ وقيل لهم : ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [٢٢/١٩-٢٢] .

أي الذين انقطعوا عن الله وعالَم ملكوته ، وأعرَضوا عن أصحاب القدس

---

١) تفسيرالفخرالرازي : ١/ ٤٨١ .

والتجريد، وأهل الروح والعقل باتّباع الهوى والشهوة والطبيعة ، قُطّعت لهم بتقطيع خياط القضاء ثياب من نار القَدَر على قدْر نفوسهم المحترقة بنار الهوى وكبريت الشهوة وحطَب الطبيعة ، وهي ثياب أخلاق ذميمة نُسجت من سُدي مخالفات الشرع ولُحمة موافقات الطبيعة . ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِم ﴾ ـ أي من مبدء الإفاضة عليهم ـ حميمُ الشهوات النفسانية لسوء قابليتهم لِمَاء الإفاضة فيصير حميماً في حقّهم ـ على ماقيل :

ومَن يكُ ذا فم مُرٍّ مريضٍ * يَجِد مُرّاً به الماءَ الزلالا

فيُذاب به مافي بطونهم وقلوبهم ، ويخرج مافي نفوسهم من الملكات والأخلاق من القوّة إلى الفعل يوم تُبلى السرائر ، فيصير مصوّرة بصوَر مؤلمة معذّبة للروح ، ولهم مقامع من حديد قلوبهم ، وهي الملكات الذميمة الراسخة ، كلّما أرادوا أن يخرجوا من دار الجحيم وسعير الهوى ونار الهاوية من غمّ ماهم فيه اعيدوا فيه بمقامع تلك الأخلاق لغلبة الجهل واستيلاء الحرص عليهم ، وقيل لهم : « ذوقوا عذابَ ماأحرقت منكم نار الشهوات ، وأذابت سموم الأخلاق المهلكات من محاسن الاستعدادات» كما قال ﷺ[1] : « الحسدُ يأكل الحسنات كما يأكل النارُ الحطب» .

ومما يدلّ على أنّ نعمة الله شاملةٌ للكفار آيات كثيرة في هذا الباب ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ـ الآية ﴾ [٢/٢٨] وقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [٢/٢٢] وقوله : ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا نصٌّ صريح في أن الله تعالى أنعم على الكفار ، لأنّ المخاطب بذلك هم كفَرة أهل الكتاب .

وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾

١) الجامع الصغير: ١/١٥١ .

إلى قوله : ﴿ثُمَّ أَنتُم تُشرِكُونَ﴾[٦/٦٢-٦٣] وقوله : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاكُمْ [فِي ٱلْأَرْضِ] وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [٧/١٠] وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ [٨/٥٣] وهذا صريح وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [١٤/٢٨] إلى غير ذلك من دلائل النعمة العامّة ، وشواهد الرحمة الواسعة التي وسِعت كلّ شيء من غير اختصاص بأهل الايمان .

وأمّا حديث العذاب الدائم والخلود في النار للكفّار فقد مضى لذلك ما فيه كفايةٌ للمستبصر ، وشكايةٌ للمحجوب المستنكر.

فصلٌ مشرقيٌّ

[فضلُ هذه الأمّة على بني إسرائيل]

اعلم إنّ في الآية أشعاراً لطيفاً بانحطاط درجة هؤلاء المخالفين من أهل الكتاب من منازل المحبّين والمقربين حيث خاطَبهم الله بذكر النعمة واستمالهم وجذبَ قلوبهم بهذه الملاذّ الدنيويّة والمقاصد النفسانيّة كإنزال المنّ والسلوى لهم في التيه ، وتظليل الغمام عليهم ، وتفجير العيون الإثناعشرية ، واعطاءهم الحجر الذي كرأس الرجل يسقيهم ماشاءوا من الماء متى أرادوه ، فإذا استغنوا عن الماء رفعوه ، فاحتبس ، واستنقاذَهم ممّا كانوا فيه من البلاء من فرعون وقومه ، وتخليصهم من العبودية ، وتنجيهم من الغرق، وجعلَهم ملوكاً بعد أن كانوا عبيداً لآل فرعون والقبط، وايراثهم أرضهم وديارهم كما قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [٤٠/٥٣] واعطائهم عموداً من نور ليضيء لهم الليل ، وكان رءوسهم لاتتشعّث، وثيابهم لاتبلى .

وهذه كلّها من النعم الدنياوية ، ولو كانوا من أهل القلوب المنورة بأنوار المحبّة والمعرفة لما احتاجوا في تعلّم مسالك الدين والاهتداء بهُدى المؤمنين إلى

تذكّر أحوال النعم ، بل كان المهمّ فيهم تذكّر أحوال المنعم وكيفيّة صفات جماله وجلاله ، وآيات ملكوته وجبروته ، وقد قال بعض العارفين : « عبيدُ النعم كثيرةٌ ، وعبيدُ المنعم قليلون» .

فانظرْ إلى التفاوت بينهم وبين هذه الأمّة المرحومة ، حيث قال لهم : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وقال لهذه الأمّة بقوله : ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [١٥٢/٢] ولم يقل : « فَاذكروا نعمتي » أو « اشكُروا نعمتي » أو « لاتكفُروا نعمتي » .

وفيه أيضاً إشارة إلى أن ذكر خواصّ هذه الأمّة لله من نتائج خواصّ ذكر الله إيّاهم في الأزل بوجهين : أحدهما إنّ ذكْره عبارة عن عمله ، وعلمه بالعبد متقدّم على ايجاده المتقدم على ذكْره لله . وثانيهما إنّه سبحانه أمَرهم بالذكْر مع « فاء التعقيب » فقوله : ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ فيه تقديم وتأخير معناه « أذكركم فاذكروني » وهذا كقوله : ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [١١٩/٥] فإنّ رضاؤهم عنه تعالى نتيجة رضاه عنهم ، وكقوله : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [٥٤/٥] .

[الذكْر ومراتبه وخواصّه]

واعلم أيّها الحبيب ـ إنّ للذكر مراتب . وللذاكر أيضاً مراتب ، ونتيجة كلّ ذكر بما يوازيه ويناسبه في الفضل والثواب ، ذكْر اللسان ، وذكْر الأركان ، وذكْر النفس ، وذكْر القلب ، وذكْر الروح ، وذكْر السرّ .

فذكْر اللسان الإقرار : فاذكروني أذكركم بالأمان . وذكْر الأركان باستعمال الطاعات : فاذكروني بالطاعات ، أذكركم بالكرامات . وذكْر النفس بالاستسلام للأوامر والنواهي : فاذكروني بالاستسلام ، أذكركم بنور الإسلام ، وذكْر القلب بتبديل الأخلاق الذميمة وتحصيل الملكات الكريمة : فاذكروني بالأحوال والمقامات

أذكركم بالاستغراق في المشاهدة . وذكْر الروح بالتفريد والمحبّة : فاذكروني بالتفريد والمحبّة . أذكركم بالتوحيد والقربة ، وذكر السرّ ببذل الوجود والفناء : أذكروني ببذل الوجود والفناء أذكركم بنيل الشهود والبقاء .

وهذا حقيقة قوله تعالى في الحديث الرباني [١] : « وَإن ذَكَرني في نفسِه ذَكَرتُه في نفسي » وهذا هو الذكْر الحقيقي أن يجعل الذاكر مذكوراً ، والمذكور ذاكراً . بل يكون الذكْر والذاكر والمذكور واحداً ، كما قال سبحانه : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [٤٠/١٦] كما قال قائلهم :

رَقَّ الزجاجُ ورقَّت الخمْر * فتشابَها وتشاكَل الأمْرُ
فكأنَّه خمرٌ ولا قدحٌ * وكأنها قدحٌ ولا خمرٌ

وهذا الدعوى - أي فناء العبد عن نفسِه وبقائه بنور الحقّ على ماهو مشهود العارفين بالعيان - ممّا اُقيم عليه البرهان ، وهو معلومٌ من علْم النفس وكيفيّة تطوّاراتها في الأطوار واتّحادها في مدارج الاستكمال بالعقل الفعّال ، كما هومذهب كثير من الحكماء الأقدمين منهم فرفوريوس ، مثالُه حال الفراش مع الشمع واشتعاله بشعلة الشمع ، فلمّا بذَل الفراشُ للشمع وجودَه نالَ من وجودِ الشمعِ مقصودَه ، كما قيل :

أنا مَنْ أهوى ومَن أهوى أنا * نحنُ روحان حلَلْنا - إلى آخره - .

ومثال آخر : الحديدة الحامية بالنار ، حيث إنّها لايزال تتقرب وتتشبه بالنار حتى تزول عنها الهويّة الحديدية ، وتصير فانيةً في هويّة الناريّة ، وتفعل فعلها من الإحراق والإضاءة .

فلاتتعجّب من النفس إذا استشرقت بنور الله واتّصلت بعالَم الربوبيّة وتخلّقت بأخلاق الله ، ففعلت مافعلت بقدرة الله - لابقدرتها - وسمعت بسمع الله ، وبصرت

---

١) المحاسن للبرقي (٣٩/١) : « اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي » .

ببصره ، فلها أن يقول (١) : « مَن رآني فقد رأى الحقّ » .

وهذا تحقيق قوله : « تخلّقوا بأخلاق الله » وقوله تعالى (٢) : « لايزال يتقرّب العبدُ إليّ بالنوافل حتّى أحببته ، فإذا أحبَبْتُه كنتُ له سمعاً وبصراً ويَداً ومؤيّداً . فبي يسمعُ ، وبي يَبصر ، وبي يَنطق ، وبي يَبطش ، وبي يَمشي » .

فصلٌ

قوله [تعالى] : وَأَوْفُوا بِعَهْدِي

هذا العهد هو عهد الإقرار بالربوبيّة المأخوذة عن الفطرة ـ وهو الايمان بالله وبتوحيده على وجه يُستعلم من دين محمد ﷺ والطاعة له ولرسوله ، فإنّ الايمان بالله واليوم الآخر من العبد وتقرّبه إلى الحضرة الإلهية كان مندرّجاً في الاستكمال من ابتداء الخلق إلى بعثة محمد ﷺ ، فعند بعثته ﷺ بلغ إلى حدّ الكمال الذي لاأكمل منه ، والتماميّة التي لاغاية فوقها ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [٥/٣] أي : دين الإسلام ونعمة الايمان .

فهذه النعمة التامّة الايمانية هي بعينها من جنس النعمة التي أمر الله بني إسرائيل بتذكّرها ، ليعلموا من تذكّرها إنّ كمالها وتمامها لايكون إلاّ بهذه الملّة البيضاء المحمديّة ، والنعمة الحقيقيّة الايمانيّة ، فإنّ درجات المعرفة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم [الآخر] كانت متفاوتة في كل زمان بحسب الكمال والنقص ، والقوّة والضعف ، وكلّما قرُب من عصر نبيّنا ﷺ كانت أكمل وأقوى وأنور وأصفى . فكانت هذه المعارف في الأمَم السابقة على هذه الأمّة ـ الذين هم خير الأمَم ـ

١) البخاري : باب التعبير ، ٩/ ٢٣ .

٢) الحديث معروف وجاء بألفاظ مختلفة ، راجع التوحيد للصدوق : ٤٠٠ . والبخاري: ٨/ ١٣١ .

مشوبة بالحسّ والخيال والوهم والعقل .

فكانت العقايد حسّية في زمن آدم عليه السلام وما يقربه لغلبة نور الحسّ على تلك الأمّة ، فكانوا أصحاب الأرصاد الفلكيّة والكوكبيّة ، وأكثرهم كانوا عبدة الأصنام ولم يقدروا على تجريد معارف الدين واصول اليقين عن الأجسام فكانوا يعبدون الله ويؤمنون به وبملائكته في قوالب الأصنام وأمثلة الأجسام .

وأمّا أمّة موسى عليه السلام فكانت عقائدهم خياليّة لغلبة نور الخيال على تلك الأمّة بقوّة كرامات موسى عليه السلام . وكان كتابهم الألواح التعليميّة ولم يقدر نبيّهم على تجريد عقائدهم عن الخيال ، ولذلك طلبوا منه رؤية الله ، وكان يبشّرهم برسول آخر الزمان صلى الله عليه وآله .

وأمّا أمّة عيسى روح الله عليه السلام فكان الغالب على أمّته نور العقل والحكمة والتجريد ـ ولانور الحقيقة والتوحيد ـ وكانوا يعرفون الله وملكوته مجرّداً منزّهاً عن العالَم وأعيانه ، والأجسام وأعراضه ، إلاّ إنّه لم يصل قوّة ايمانهم إلى حيث يجرّدون الله وملكوته عن التجسيم والتنزيه جميعاً ، وعن المزاولة والمزايلة مطلقاً ، كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام [١] : « مع كلّ شيء لابمزاولة ، وغير كلّ شيء لابمزايلة » .

فهذا نور الحقيقة وهو فوق نور الحسّ ونور الخيال ونور العقل ، وطوره وراء هذه الأطوار الثلاثة من الأنوار ، وأنواعها الفائضة ، كلّ منها على قوم ، وهي كلّها حجب إلهيّة نوريّة ، كما أشير إليها في قوله صلى الله عليه وآله [٢] : « إنّ لله سبعين حجاباً من نور » .

---

١) جاء في نهج البلاغة (الخطبة : ١) والاحتجاجات للطبرسي: (١٩٩) الشطر الثاني فقط هكذا : « مع كل شيء لابمزايلة » .

٢) قال العراقي (تخريج أحاديث الاحياء، ١/ ١٠١) : أخرجه ابو الشيخ بن حبان . . . « بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاباً من نور » وأسناده ضعيف .

وتلك الحُجب كانت كلّها موجودة في الأمم السابقة غير مرفوعة عنهم ، وهي موجودة في هذه الأمّة متفرّقة ، وبها افترقت إلى ثلاث وسبعين ،كما أخبر عنه النبيّ ﷺ بقوله [١] : « ستفترق أمّتي ـ الحديث » ، ولم يصل السالك إلى حجاب من تلك الحُجب ، إلاّ وظنّ إنّه قد وَصل .

وإليها الإشارة بقول إبراهيم الخليل ، وهو فاتح باب التوحيد وشيخ الموحّدين وأبو العارفين ـ على نبيّنا وعليه الصلوة والسلام ـ فعبّر عن نور الحسّ بالكوكب ، وعن نور الخيال بالقمر ، وعن نور العقل [بالشمس] ، ثمّ عبّر عنها وجاوزها جميعاً قائلاً : ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩/٦] وأشار إلى خواصّ هذه الأمّة في دعائه بقوله : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [١٢٨/٢] .

وبالجملة ـ كان هذا النور الأحمدي في أصلاب عقائد العقول المتقدّمة وأرحام استعدادات النفوس الماضية منتقلاً من طور إلى طور ، ومن حالة إلى حالة مبشّرين ومنذرين به ، حتى استقرّ إلى غايته وبلغ نهايته ، ووصَل إلى المبدء الذي فارَقه واتّصل به آخر القوس الصعودية من دائرة الوجود إلى مبدء القوس النزوليّة منها ، فكان قاب قوسين أو أدنى [٢] .

فهذا هومعنى العهْد الذي أخذالله الميثاق به على الأنبياء ﷺ ، وقد أثبت على

---

١) راجع بحار الانوار : كتاب الفتن والمحن ، الباب الاول : ٢٨/ ٤ .

٢) يعني أن الوجود كله بواسطة سريان هذا النور من أعلى المراتب إلى أدناها ، ومن أدناها إلى أعلاها صار كمقدار قوسين ، وهما نصفا دائرة ، فكان الوجود كدائرة ، بل كنقطة دائرة . لأن النقطة الراسمة لها هي كل الدائرة ، فما من نقطة من نقاطها المعقولة ، أو الموهومة ، أو المحسوسة ، إلاّ وهو عين تلك الفاعلة ـ فافهم واغتنم ـ منه عفى عنه (من حاشية نسخة الاصل) .

طبقه في الكتب المتقدّمة من وصف نبيّنا ﷺ وإنّه سيبعثه الله في آخر الزمان ـ على ماصرّح به في سورة المائدة : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ [٥/١٢] .

وقال في الأعراف : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [٧/١٥٦-١٥٧] .

قال ابن عباس : « إنّ الله تعالى كان عهد إلى بني إسرائيل في التورية إنّي باعثٌ من بني إسمعيل نبيّاً أميّاً ، فمَن تبعه وصدَّق بالنور الذي يأتي به غفرتُ له ذنبَه وأدخلتُهُ الجنَّة ، وجعلت له أجرَين : أجراً باتّباع ماجاء به موسى ، وجاءت به أنبياءُ بني اسرائيل ، وأجراً باتّباع ماجاء به محمد النبي الأمي من وُلد اسمعيل . وتصديق هذا في القرآن في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [٢٨/٥٢-٥٤] .

* * *

واعلم إنّه قد وقعت في كتب الأنبياء المتقدّمين المنقولة إلى العربيّة ، المشهورة بين أُممهم بشارات وإنذارات ناصّة على بعثة نبيّنا ﷺ .

فمنها[1] ماجاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس : «إنّ الربّ الهكم يُقيم لكم نبيّاً مثلي من بينكم ومن إخوانكم » .

وفي هذا الفصل : « إنّ الرب تعالى قال لموسى : « إنّي أُقيم لكم نبيّاً مثلك من بين إخوانكم ، وأيّما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤدّيها عني ذلك الرجل باسمي أنا أنتقم منه» والمراد بـ «بني إخوة اسرائيل» هوإسمعيل على ماهو المتعارف

١) جميع النصوص المذكورة هناك منقولة من تفسير الفخر الرازي : ١/ ٤٨٥ . . .

فلايصرف إلى من بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل ﷺ ، ولا إلى عيسى ، لأنّهم لم يكونوا من بني إخوتهم ، ولامِثل موسى في كونه صاحب شريعة مستأنفة فيها بيان مصالح الدارين . فتعيّن محمد ﷺ .

ومنها ماجاء في الفصل العشرين من هذا السفر : « إنّ الربّ تعالى جاء في طور سيناء وطلَع (أشرق ـ ن) لنا من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، وصفّ عن يمينه عنوان القديسين ، فمنَحهم العزّ وحبّبهم إلى الشعوب ، ودعا لجميع قديسيه بالبركة » .

يريد الإخبار عن إنزال التورية على موسى عليه السلام بطور سيناء وإنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام بساعير ، فإنّه كان يسكن من سيعير بقرية تسمّى « ناصرة » ، وإنزال القرآن على محمد ﷺ بمكّة ، فإنّ «فاران» في طريق مكّة قبل العدن بميلين ونصف وهو كان المنزل وقد بقي اليوم على يسار الطريق من العراق إلى مكّة .

قال اليهود : إنّ النار لمّا ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نار أيضاً ، وكذا من جبل فاران أيضاً ، فانتشرت في هذه المواضع .

وما ذكروه باطلٌ ، لأنّ الله لوخلَق ناراً في موضع فإنّه لايقال : « جاء الله من ذلك الموضع » إلاّ إذا تبع تلك الواقعة وحيٌ نزل في ذلك الموضع ، أو ماشابَه ذلك ، وعندكم إنّه لم يتبع ظهور النار وحيٌ ولا كلام إلاّ من طور سيناء فما كان ينبغي إلا أن يقال : « جاء الله من طور سيناء فقط » فأمّا أن يقال : « ظهَر من ساعير ومن جبل فاران » فلايجوز وروده ،كما لايقال : « جاء الله من الغمام » إذا ظهر في الغمام احتراق ونيران ـ كما يتّفق في الربيع .

وتصديق ذلك مافي كتاب حبقوق ، وهو : جاء الله من طور سيناء ، والقُدس من جبال فاران ، لقد انكشف السماء من بهاء محمّد ﷺ ، وامتلأت الأرض من حمده ، يكون شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعزّة ، تسير المنايا أمامه ، ويصحب

أسباع الطير أجناده ، قام فمسح الأرض ، وتأمّل الأمم ، وبحث عنها ، فتضعضعت الجبال القديمة ، واتضعت الرواث الدهريّة ، وتزعزعت سور أهل مدين ، ركبت الخيول ، وعلوت مراكب [١] الأبعار والفوت وسينزع في نسبك إغراقاً [١] ونزعاً ، وترتوي السهام بأمرك يامحمد ارتواء ، ويحرث [٢] الأرض بالأنهار ، ولقد رأتك الجبال فارتاعت ، وانحرف عنك شؤبوب السيل ، ونفرت المهاري نفيراً ورعباً ورهباً ، ورفعت أيديها وجلاً وخوفاً ، وتوقّفت الشمس والقمر عن مجراها ، وسارت العساكر في برق سهامك ولمعان نيازكك [٣] تدوخ الأرض غضباً ، وتدوس الأمم زجراً ، إلا انّك ظهرت بخلاص أمّتك وإنقاذ تراث آبائك » . ـ هكذا نَقل علي بن رزين الطبري إمام النصارى [٤] .

قال أبو الحسين في كتاب الغرر [٥] : وإنّي رأيت في نقولهم : « وظهَر من جبال فاران ، لقد نطقَت [٦] السماء من بهاء محمد المحمود ، وترتوي السهام بأمرك المحمود لأنّك ظهرت بخلاص أمّتك وإنقاذ مسيحك » .

فظهر إنّ المراد بقوله تعالى : « ظهَر الربّ من جبل فاران » ليس ظهور النار، بل ظهور شخص موصوف بتلك الصفات ، وليس إلا محمّد ﷺ ، فإن قالوا : المراد مجيء الله تعالى ، ولهذا قال في آخر الكلام « وإنقاذ مسيحك » .

قلنا : لايجوز وصف الله تعالى بأنّه يركّب الخيول ، وبأنّه جاء للمساعي القديمة . وأمّا قوله : « وإنقاذ مسيحك » فإنّ رسول الله ﷺ أنقذ المسيح من كِذب اليهود والنصارى .

(١ـ١) تفسير الفخر الرازي : الانقياد والفوت وستنزع في قسيك اغراقاً . . .
٢) تفسير الفخر الرازي : وتخور . ٣) تفسير الفخر الرازي : بيانك .
٤) تفسير الفخر الرازي : ٤٨٦/١ .
٥) أبو الحسين محمد بن علي الملقب بالطيب البصري الأصل والبغدادي المنشأ والمدفن متكلم معتزلي في القرن الخامس ، له كتاب غرر الأدلة توفي ٤٣٦ هـ .
٦) تفسير الفخر الرازي : لقد تقطعت .

ومنها ماجاء في السِفْر الأوّل : إنّه تعالى قال لإبراهيم عليه السلام : إنّ هاجَر تلِد ، ويكون من ولدها من يكون يده فوق الجميع ويدالجميع ، مبسوطة إليه بالخشوع .

ومنها ماجاء في كتاب أشعياء في الفصل الثاني والعشرين منه : قومي فازهري مصباحكِ يريد مكّة ، قد دنا وقتكِ وكرامة الله طالعة عليكِ ، قد تخلّل الأرض الظِلام وغطّى على الأمَم الضباب ، والربّ يشرق عليك إشراقاً ويظهر كرامته عليك ، تسير الأمَم إلى نورك ، والملوك إلى ضوء طلوعك ، ارفعي بصركِ إلى ماحولكِ وتأمّلي فإنّهم مستجمعون عندك ويحجونك ويأتيك ولدك من بلد بعيد وتتزين بناتك على الأرائك والسرر ، وحين ترين ذلك تسرين وتبهجن من أجل إنّه يميل إليك ذخائر البحر ، ويحجّ إليك عساكر الأمَم ، وتُساق إليك كبايش مدين ، ويأتيك أهل سبأ ويتحدثون بنعم الله ويمجّدونه ، وتسير إليك أغنام فاران ، ويدفع إلى مذبحي مايرضيني ، وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمداً » .

قوله : « وأحدث لبيت محمدتي حمداً » معناه إنّ العرب كان يُلبّي قبل الإسلام فيقول : « لبّيك لاشريك لك[إلا شريك هو لك »[1] ثمّ صار في الإسلام « لبّيك اللّهم لبّيك] لاشريك لك لبّيك » فهذا هو الحمد الذي جدّده الله لبيت محمدتي[2] .

ومنها إنّه روي السنان[3] في تفسيره : إنّ في السِفْر الأوّل من التورية « إنّ الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام فقال : « أجبت دعاءك في إسمعيل ، وباركتَ عليه ، فكبّرته وعظّمته جداً ، وسيلد إثني عشر عظيماً واجعله لأمّة عظيمة » .

ودلالة هذا الكلام انّه لم يكن في ولداسمعيل من كان لأمّة عظيمة غير نبيّنا صلى الله عليه وآله

---

١) أضيف في تفسيرالفخرالرازي : « تملكه وماملك »

٢) في تفسيرالفخرالرازي : محمدته .

٣) تفسيرالفخرالرازي : السمان .

ومنها دعاء إبراهيم وإسمعيل لرسولنا ﷺ وعليهما لما فرغا من بناء الكعبة ، وهو قولهما : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٢/١٢٩] ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول(1) : « أنا دعوةُ إبراهيم وبشارة عيسى » وهو قوله تعالى : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [٦١/٦] .

* * *

ومنها ماورد في الإنجيل :

فمنها ماورد في الإصحاح الرابع عشر منه : أنا أطلبُ لكُم إلى أبي حتّى يمنحكم ويعطيكم فارقليطا ، ليكون معكم إلى الأبد .

وروي بهذه العبارة : أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحقّ الذي لايتكلّم من قِبل نفسه ، إنّما يقول كما يقال له » وتصديق ذلك ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَايُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [٦/٥٠] وقوله : ﴿ قُلْ مَايَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَه مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَايُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [١٠/١٥] .

وقيل في تفسير فارقليط وجوه : أحدها : روحُ الحقّ واليقين .

وثانيها : الشافع المشفَّع .

وثالثها : قال بعض النصارى : معناه الفارق بين الحقّ والباطل ، وكان في الأصل «فاروق» ، كما يقال : « راووق » للذي يروق [به] . وأمّا « ليط » فهو التحقيق في الأمر ، وهو كـ « أسْت » في لغة العجم .

رابعها : إنّه مشتقٌّ من الحَمد .

وهذا الإسم ليس إلّا لنبيّنا ﷺ ، فإنّ اسمه محمّد وأحمد ومحمود ، ويقال:

1) في الجامع الصغير(١/١٠٨) : أنا دعوة ابراهيم وكان آخر من بَشّر بي عيسى ابن مريم .

إنّ صفته في التورية : انّ مولده بمكّة ، ومسكنه بطيّبة ، وملكه بالشام ، وامّته الحمّادون [١] .

ومنه مافي الإصحاح [٢] الخامس عشر : « فأمّا فارقليط روح القدس الذي يرسله أبي باسمي، هويعلّمكم ويمنحكم جميعَ الأشياء ، وهويذكّركم ماقلته لكم» . ثمّ قال : « وإنّي قد أخبرتكم بهذا قبل أن يكون ، حتّى إذا كان ذلك تؤمنوا به » . وقوله : « باسمي » يعني بالنبوّة .

ومنه مافي السادس عشر [٣] : « أقول لكم الآن حقّاً يقيناً إنّ انطلاقي عنكم خيرٌ لكم ، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط ، وإن انطلقت أرسلت به إليكم ، فإذا جاء هو يفيد أهل العالَم ويدينهم ويوبّخهم ويوقفهم على الخطيئة والبرّ» . ثمّ قال: «إذا جاء روح الحقّ واليقين يرشدكم ويعلمكم ويزيدكم بجميع الحقّ ، لأنّه ليس يتكلّم بدعة من تلقاء نفسه » .

ومنها مافي الزبور ، قال داود عليه السلام : « اللهم ابعث جاعلَ السُنّة حتّى يعلمَ الناس إنّه بشر » يعني : ابعث محمداً حتى يعلّم الناس إنّ عيسى بشر .

قال بعض العلماء : وأمثال هذا كثير في كتب الأنبياء المتقدمين ، يذكرها المصنفون الواقفون على كتبهم ، ولايقدر المخالف على دفعها أو صرفها إلى ملَك أو نبيّ آخر ، ولا على أن يكتمها ، ولقد جمع أبوالحسين البصري في كتاب غرر الأدلة ماتفرّقت من نصوص التورية على صحّة نبوة محمد صلى الله عليه وآله .

---

١) تفسير الفخر الرازي : ٤٨٨/١ .

٢) كان في النسخة في هذا الموضع والمواضع الماضية والآتية: «الصحاح» والصحيح ماأثبتناه . والنصوص منقولة من تفسير الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : « مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأتِي مِنْ بَعْدِي اِسْمُهُ أحْمَد » (٦/٦١) وقد نقله الفخر الرازي ممّا كان بيده من ترجمة انجيل يوحنا . والنصوص موجودة فيه بتغييرات في التراجم المختلفة .

٣) انجيل يوحنا : ١٦/٧-١٣ .

فصـل

قوله [تعالى] : أُوفِ بِعَهْدِكُمْ

المراد من هذا العهد عند المعتزلة هو مادلّ عليه العقل من أنّ الله يجب عليه ايصال الصواب إلى المطيع ، فصحّ وصف ذلك الوجوب بالعهد ، لأنّه بحيث يجب الوفاء به .

وأمّا عند الأشاعرة فحيث لاوجوب ولاايجاب عندهم على الله ، فإمّا أن يكون إطلاقه عليه تعالى تجوّزاً ، من باب صنعة المشاكلة ، كقوله ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُم ﴾ [١٤٢/٤] و ﴿مَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [٥٤/٣] وذلك لأن معناه الأمر بمعنى المأمور به ، والموصوف به هو العبد ، دون الله . أو يقال : إنّه لمّا وعد بالثواب - والكذب على الله محال - فكلّ ماوعد به استحال أن لايوجد ، لأنّه لو لم يوجد لانقلب خبره الصدق كذباً والمفضي إلى المحال محال . فايفاء ذلك العهد - أي : مدلول ذلك الخبر - واجب الوقوع . وذلك آكد ممّا ثبت باليمين[أ]والنذ[ر]. - هذا تلخيص ماذكره الإمام الرازي في تفسيره [١] .

أقول : فيه بحثٌ لأنّ نسبة الوجوب إليه تعالى إمّا على سبيل « عليه » أو على سبيل « عنه » . فالأوّل مذهب المعتزلة ، والثاني مذهب الحكماء . وشيء منهما لايقول به الأشاعرة . فقولهم : « لما أخبر تعالى بالثواب فيجب وقوعه » مامعنى هذا الوجوب ؟ إن كان أحد المعنيين المذكورين ، فلايصحّ إطلاقه عندهم على فعله تعالى ، وإن كان معناه أمراً ثالثاً غير ذينك المعنيين ، فما لم يبيّن لايمكن إثباته ولانفيه ، فالآية حجّةٌ عليهم .

والحقّ في تفسيره أن يقال : لما تقرّر وسبقت إليه الإشارة : إنّ المراد من

---

١) تفسير الفخر الرازي : ٤٨٨/١ .

هذا العهد هو النور النبويّ الربّاني ـ المعبّر عنه بالامانة المعروضة على السموات والأرض ، الذي كلّف الإنسان بتحمّله وكان ذلك النور محتجباً بالحجب الكونيّة في أوائل الخليقة ، ثمّ لايزال يظهر شيئاً فشيئاً بحسب ارتفاع الحجب الظلمانيّة والنوريّة في كل زمان ، وخروج النفوس الإنسانية من حدود القوّة إلى حدود الفعل في كلّ أوان ، حتى ظهر بعض ذلك النور في زمَن سائر الأنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وظهر تمامه في زمَن خاتَم الأنبياء عليه وآله السلام .

فايفاء العبد بهذا العهد هو معرفة هذا النور الذي أنزل الله على قلب رسوله صلى الله عليه وآله ، بل هو بالحقيقة رسول الله ، كما دلّ عليه قوله : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [٥/١٥] .

فالنور هو لوح ضميره الذي هو نورٌ من أنوار الله ، وسرّ من أسراره . وأمّا الكتاب فهو كلام الله النازل عليه، الدالّ على معرفة الحقّ الأوّل وآياته وملائكته وكتبه العقليّة والنفسيّة ، وأحكامه القضائيّة والقدريّة ، وكيفيّة تعلق علمه وقدرته بجميع الموجودات ، وكيفية عنايته وحكمته في خَلْق السموات والأرض وانبساط نور وجوده على صفحات الماهيّات وهياكل الممكنات ، ومعرفة المعاد وكيفية حكمه برجوع الأشياء كلّها يوم القيامة إلى الواحد القهّار ، والايمان بجميع هذه المعارف ايماناً يقينيّاً شهوديّاً .

فمَن آمن بهذه المعارف ايماناً بالغيب مع إصلاح الجزء العملي من القلب فقد سعد ونجّي من العذاب ، ومن عرفها عرفاناً شهودياً راسخاً فقد فاز فَوزاً عظيماً وكاد أن يكون من المقرّبين مشاهِداً لما هو الخير المطلق والحسن المطلق والجمال المطلق الحق منخرطاً نوره في سلك نوره .

وأما ايفاء الله عهدالعبد فهوافاضة أنوارالرحمة عليه في كل مرتبة من مراتب عبوديّته ، وبحسب كل مقام من مقامات سلوكه إلى الله ، حتّى إذا قطع المنازل و

المراحل الحسيّة والخياليّة والعقليّة وبلغ حدّ الأقصى فاض عليه من نور جماله الأزلي وصيّره من المحبوبين بعدما كان من المحبيّن، وجعله من الواصلين إلى العين، بعد ما كان من السامعين للأثر، فصار علمه عيناً وإيمانه عياناً وقرائته قرآناً وكلامه متكلّماً.

فصلٌ

قوله: وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ

معنى «الرَهْبة» هو الخوف والخشية، وهي حالة تحدث في القلب من قبيل الخواطر، وكذا الرجاء. والمقدور للعبد مقدماتهما.

والخوف عند العلماء [　　] على ظن مكروه تناله، والخشية نحوه لكن الخشية تقتضي ضرباً من الاستعظام والمهابة. وضد الخوف الجرأة، لكن قد يقابل بالأمن، فيقال: «خائفٌ وآمن» «خوفٌ وأمن» لأنّ الأمن يوجب الجرأة على الله فبالحقيقة الجرأة تضادّه.

قال المتكلّمون: الخوف منه تعالى هو الخوف [من عقابه] وأمّا أهل المعرفة: فالخوف عندهم كما يكون من العقاب يكون من القُرب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ [٢٨/٣٥].

والحقّ إنّ عذاب الآخرة إنّما يصل إلى الكفّار وأهل النار بواسطة إنّهم صاروا في الدنيا مبعدون عن مقام القُرب، فإذا بطلت هذه الحيوة الدنيا وانكشف الغطاء وبعثوا إلى الآخرة، وجاء الحقّ للحساب والميزان لم يتحمّلوا سطوة القهّارية فيتعذّبون بسطوع شمس الآخرة على رؤوسهم، ويعاقبون بنار الجحيم، وتذوب بها أبدانهم وجلودهم.

بل كلّ عذاب وألم ـ سواء كان في الدنيا أو في الآخرة ـ إنّما يرجع إلى عذاب القرب لمن لم يكن مستعدّاً له، لأنّ جميع مايعدّ عند الناس من جملة

المؤذيات والمولمات ، فإنّما هو من مظاهر رحمته وجوده ، ومن منازل عنايته وحكمته والتضادّ الحاصل بينها إنّما يقع من لحوق الأعدام والنقائص بها التي منشأها البُعد عن مقامات الإلهيّة . فما يتعذّب متعذّب ، أويتضرّر متضرّر من شيء مؤلم مضرّ إلّا بواسطة تضادّ بين المتألّم ومايؤلمه ، والمتضرّر ومايتضرّر به ، ومنشأ التضادّ بين الشيئين ـ كما علمت ـ فَقْد وجود أحدهما لما في وجود الآخر وقصوره عن رتبة الجمعيّة بينهما .

أوَلاترى إنّ كثيراً من الهيئات والكيفيّات المتضادّة والقوى المتخالفة قد اجتمعت في الحقيقة الإنسانيّة بواسطة القوّة الجمعيّة التي فاضَت على الإنسان من عالَم الأمر؟ فالنار والماء والأرض والهواء مع كونها أموراً متضادّة إلاإنّها قد اجتمعت في المركّب بواسطة الوحدة الاعتداليّة التابعة للصورة الوحدانيّة الحافظة للمزاج ، وكلّما كانت الصورة أقوى جوهراً وأقرب منزلةً إلى عالَم الأمر الواحد ، فهي أوسع جمعيّة للمتضادّات إلى أن ينتهي إلى العقل البسيط ، المدرك بذاته للأشياء التفصيليّة إدراكاً حضوريّاً ، وشهوداً نوريّاً ، وإحاطة جمعيّة شموليّة.

وهذا ماقاله بعض الحكماء : « إنّ العقل كلّ الموجودات » فالإنسان مالم يصل إلى مقام العقل يجوز في حقّه أن يتعذّب ببعض أنوارالقهاريّة وسطوات الإلهيّة ، ومن لم يعرف هذه المعاني صار يتعجّب من معنى عذاب القُرب وخوفه ، مع إنّ الحقّ تعالى محض الرحمة . وأمّا العلماء الراسخون فإنّهم يخشون الله ـ دون عقابه ـ ولايخشون شيئاً آخر، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ دلالة على الحصْر، وإنّ المرء يجب أن لايخاف أحداً إلا الله ، فكلّ خوفٍ يرجع إلى خوف جلاله .

وإذا ثبتَ هذا في الرَهبة والخَوف ثبت في الرَّغبة والرَّجاء ، فيجب أن لايرجو أحداً إلاّ [الله] ، لأنّ كلّ محبّة ورجاء يرجع إلى حبّ الله ورجاءه ، إذاكان المنظور إليه في كلّ شيء كونه أثراً من آثار قدرته ، ولمعة من لَمَعات نور جماله .

قال بعض العرفاء : الخوفُ خوفان : خوفُ العقاب وخوفُ الجلال . والأوّل نصيب أهل الظاهر ، والثاني نصيب أهل القلب . والأوّل يزول . والثاني لايزول .

أقول : وهكذا ينقسم الرجاء إلى رجاء الثواب ورجاء الله . الأوّل نصيب أهل الحجاب ، والثاني نصيب أهل اليقين . أمّا خوف أهل القلب فهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾ [٣٥/٢٨] وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [٩٨/٨] وقوله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾[٣/ ٣٠] وقوله : ﴿وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ﴾[٢/ ٤١] .

وقدجمع رسول الله ﷺ بين خوف العقاب وخوف الجلال وخوف الجمال ومقابل كل منها في دعائه ، حيث كان يقول [١] « اللّهمّ إنّي أعوذُ بعفوك من عقابك وبرضاكَ منْ سخَطك وبكَ مِنك » تنبيهاً على منازل الخلْق وتفاوت أحوالهم في الرغبة والرهبة .

وأمّا خوف أهل الظاهر ، فقوله ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ [مَقَامِي وَخَافَ] وَعِيدِ ﴾ [١٤/ ١٤] وأمّا رجاء أهل اليقين فقوله : ﴿يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [٣٣/ ٢١] .

وأمّا رجاء أهل الظاهر ، فقوله : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [٩/ ١٠٦] .

* * *

واعلم إنّ الخوف والرجاء يجب أن يكونا مجتمعين في القلب ، غير منفكّ أحدهما عن صاحبه .

فمن آيات الخوف هذه الآية ، وقوله ﴿وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ﴾ [٢/ ٤١] وقوله : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ﴾[٢٣/ ١١٥] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [٧٥/ ٣٦] وقوله : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَايُفْتَنُونَ ﴾ [٢٩/ ٢] وقوله ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ

---

١) في أبي داود : كتاب الصلاة ، باب الدعاء في الركوع والسجود : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . . . » ١/ ٢٣٢ .

يعمل سوءً يجز به ﴾ [٤/١٢٣] وقوله : ﴿ وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ﴾ [١٨/١٠٤] وقوله : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ [٢٥/٢٣] ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ [٣٩/٤٧] .

ومن آيات الرجاء قوله : ﴿لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [٣٩/٥٣] وقوله : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ [٣/١٣٥] ﴿ غافر الذنب وقابل التوب﴾[٤٠/٣] ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾ [٤٢/٢٥] ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ [٦/٥٤] ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ [٧/١٥٦] ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ [٢/١٤٣] .

وقال رسول الله ﷺ [1] : « يقولُ اللهُ عزَّوجلّ اخرجوا مِن النار مَن كان في قلبه مثقال ذرة مِن الايمان » ثمّ يقول الله : « وعزّتي وجلالي ــ لأجعلَ مَن آمنَ بي في ساعة من ليل أو نهار كمَن لايؤمن بي » .

ومن آياته اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء ، قال تعالى : ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ [١٥/٤٩-٥٠] لئلّا يستولي عليك الرجاء بمرّة ، وقوله ﴿شديد العقاب﴾ عقّبه بقوله : ﴿ذي الطّول﴾ [٤٠/٣] لئلّا يستولي عليك الخوف بمرّة .

وأعجب من ذلك قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ثمّ قال في عقبه : ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ [٣/٣٠] .

وأعجب من ذلك وألطف قوله تعالى : ﴿ مَن خشي الرحمن بالغيب ﴾ [٥٠/٣٣] علّق الخشية بالرحمن ، دون اسم الجبّار والمنتقم والمتكبّر ونحوه ، ليكون الخشية مع ذكر الرحمة لئلّا يكون الخشية تطير قلبك بمرّة ، فيكون تخويفاً في تأمين ، وتحريكاً في تسكين . وفي ذلك أيضاً إشارة إلى ماسبَق من وجوده تعالى

١) جاء مايقرب منه في المسند : ٢/١٧ . وابن ماجه : المقدمة ، باب ٩ .

رحمة للمطيعين وعذاب للعاصين كما قيل في الفُرس :

اى نوشِ لبان چو زهرِنابى بر من * اى راحتِ ديگران عذابى برمن

وقال سهل التستري : « الخوفُ ذَكَر ، والرجاء أُنثى » أي منهما يتولّد حقائق الايمان . وقيل [1] : « إنّ الله تعالى [جمَع] للخائفين مافرّقه على المؤمنين ، وهو الهدى والرحمة والعِلْم والرضوان ، فقال تعالى ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [١٥٤/٧] وقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ [٢٨/٣٥] وقال ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٨/٩٨] وقال رسول الله ﷺ [2]: « رأسُ الحكمةِ مخافةُ الله » . وروي عنه ﷺ : « إنّه كان داود النبيّ عليه السلام يعوده الناس يظنّون إنّ به مرضاً ـ وما به مرضٌ إلّاخوف الله والحياء منه » . وقال سهل : « كمال الايمان بالعلم ، وكمال العلم بالخوف» وقال أبوعلي الرودباري : «الخوفُ والرجاء كجناحَي الطائر ، إذا استويا استوى الطير وتمّ في طيرانه » .

فصلٌ

[أسباب الخوف والرجاء]

واعلم إنّ النظر في أفعال الله ومعاملاته مع الخلْق ، كما يؤدّي إلى الرجاء العظيم كذلك النظر فيها يؤدّي إلى خوفٍ شديد .

أمّا جانب الرجاء : فمن تأمّل لطائف نعم الله بعباده في الدنيا وعجائب حكمته التي راعاها في فطرة الإنسان ، حتّى أعدّ له كلّ ماهو ضروريّ له في دوام الوجود كآلات الغذاء والنموّ وغيرها ، وماهو محتاجٌ إليه في طلب الفضيلة ، وماهو زينة له كاستقواس الحاجبين وحمرة الشفتين ، وتقعير الأخمص من القدمين ، وغير ذلك

---

١) إحياء علوم الدين : ١٦٠/٤ .

٢) الجامع الصغير: ٢٠/٢ . راجع أيضاً البحار : ٤٥٣/٧٨ .

مما لاينثلم بفقده غرض مقصود ـ وإنّما يفوت به من جمال ـ فالعناية إذا لم يقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتّى لم يرض لعباده أن يفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة ، فكيف يرضى بسياقتهم إلى الهلاك المؤبّد ؟ فسنّة الله لاتجد لها تبديلا .

فالغالب إنّ أمر الآخرة على هذا القياس يكون ، فهذا إذا تأمّل أحدٌ قوى أسباب رجائه . وكذا التأمّل في أنّه يهب كفرَ سبعين سَنَة [بايمان سَنَة ، بل] بايمان ساعة .

وقوله : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَاقَدْ سَلَفَ ﴾ [٣٨/٨] .

وفي أنّه كيف عاتب إبراهيم عليه السلام في دعائه على المجرمين بالهلاك .

وكيف عاتب موسى عليه السلام في أمْر قارون ، فقال له : « استغاث بك مِراراً فلمْ تغثه ، فوَعزّتي لو استغاثَ بي مرّة لاغثته وعفوتُ عنه » [١] .

وكيف عاتب يونس في شأن قومه : « إنّك تَحزن على شجرة من يقطين أنبتّها في ساعة وأيبستها في ساعة ، ولا تَحزن على مأة ألف أو يزيدون » . ثم كيف قبِل عذرَهم وصرَف عذابَه الأليم عنهم بعد ماأضلّهم .

ثمّ كيف عاتَب سيّدالمرسلين فيما رُوي[٢] إنّه دخَل من باب بني شيبة ، فرأى قوماً يَضحكون . فقال لهم : « أتضحكون ! لاأريكم تَضحكون » حتّى إذا كان عند الحجَر رجَع إليهم القهقري وقال : « جائني جبرئيلُ فقال : « يامحمّد إنّ الله يقول: يامحمّد [لا] تقنط عبادي من رحمتي . نَبِّئْ عِبَادِي إِنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول[٣]: « اللهُ أرحَم بالعبدِ من الوالدةِ الشفيقةِ بولدِها» وفي الخبر المشهور عن النبي صلى الله عليه وآله [٢] « إن للهِ مأةَ رحمة ، فواحدة منها قسّمها بين الإنس والجنّ والبهائم ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وذخّر منها تسعة وتسعين

---

١) راجع تفسيرالقمي : قوله تعالى : وَيْكَأَنَّهُ لاَيُفْلِحُ الكَافِرونَ : ٤٩١ .

٢) الدر المنثور : ٤ / ١٠٢ . بفرق يسير .

٣) كنز العمال : ٤ / ٢٧٣ .

لنفسه يرحم بها عباده يومَ القيامة » .

وإذ قد أعطاك من الرحمة الواحدة كلَّ هذه العطايا الكريمة العزيزة من معرفته والكون من هذه الأمّة المرحومة . ثمّ غير ذلك من النعم الباطنة والظاهرة فمرجوّ من فضله العميم أن يتمّ ذلك الأمْر، فانّ من بدَء بالإحسان والإكرام فعليه الإتمام ، ويجعل لك من تسعة وتسعين رحمة الحظّ الوافر- نسئل أن لايخيّب آمالنا بفضله وكرمه .

وأمّا من جانب الخوف فأوّلاً إنّ إبليس عبدَه ثمانين ألف سنَة فلم يترك - فيما قيل - موضع قدَم إلّا وسجَد الله تعالى فيه سجدةً ، ثمّ ترَك له أمراً واحداً ، فطرده من بابه وضرَب بوجهه عبادةَ ثمانين ألف سنَة ، ولعنه إلى يوم الدين ، وأعدّ له عذاباً أليماً أبد الآبدين ، حتّى روي أنّ الصادق الأمين صلوات الله عليه وآله ، رأىٰ جبرئيل متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يتضرع : « إلهي لاتغيّر اسمي ، ولا تبدّل جسمي » .

ثمّ آدم صفيّ الله خلقَه بيده وأسجَد له ملائكتَه وحملَه على أعناقهم إلى جواره فأكلَ أكلَة واحدةً لم يؤذَن فيها ، فنودي « ألا لايجاورني من عصاني» فأمرَ الملائكة الذين حمَلوا سريره يرمونه من سماء إلى سماء ، حتّى أوقعوه بالأرض ، ولم يقبل توبته - فيما روي - حتّى بكى على ذلك مأة سنَة ، ولحقه من الهوان والبلاء مالحقَه وبقيت ذريّته في تبعات ذلك أبد الآبدين .

ثمّ أن نوحاً - شيخ المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين - احتمل في أمْر دينه مااحتَمل ، لم يقل إلّا كلمة واحدة على غير وجهها ، إذ نودي : ﴿ فَلَاتَسْئَلَن مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ اِنّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِين ﴾ [١١/٤٦] حتى روي في بعض الأخبار إنّه لم يرفع رأسَه إلى السماء حياء من الله سبحانه وتعالى أربعين سنَة .

ثمّ [إنّ] إبراهيم الخليل - صلوات الله عليه - لم يكن منه إلّا هفوةً واحدة ، فكمْ خاف وتضرّع وقال : ﴿ وَٱلّذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتي يَومَ ٱلدّين ﴾

[٨٢/٢٦] حتّى روي إنّه كان يبكي من شدّة الخوف ، ويرسل الله إليه الأمين جبرئيل فيقول : «ياإبراهيم هلْ رأيتَ خليلاً يعذب خليلَه بالنار» ؟ فيقول : «ياجبرئيل - إذا ذكرتُ خطيئتي نسيتُ خُلّتي »[1] .

ثمّ موسى بن عمران عليه السلام لم يكن منه إلاّ لطمة واحدة عن حدّة ، فكم خافَ واستغفرَ وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [١٦/٢٨] .

ثمّ في زمانه بلعم بن باعورا كان بحيث إذا نظَر يَرى العرش - وهو المَعنيّ بقوله [تعالى] : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ ﴾ [١٧٥/٧] ولم يقل: « آيةً واحدة » - مَالَ إلى الدنيا وأهلِها ميلةً واحدة ، وترَكَ لوليّ من أوليائه خدمة واحدة ، سلب عنه معرفته وجعله بمنزلة الكلْب المطروح ، فقال : ﴿ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ فأوقَعه في بحر الضلالة والهلاك إلى الأبد ، حتّى كان بعض العلماء يقول : «كانَ أمرُه بحيث يكون في مجلسه اثنيعشرألف محبرة من المتعلّمين يكتبون عنه، ثمّ صار بحيث كان أوّل من صنّف كتاباً « آن ليس للعالَم صانعٌ » - نعوذُ بالله ، ثمّ نعوذُ بالله منسخَطه وخذلانه - فانظر إلىالدنيا وشومها مايحدث للعلماء - فتنبّه .

ثمّ إنّ داود عليه السلام خليفته في أرضه وقَع منه شيءٌ ، فبكى على ذلك حتى نبَتَ العشْبُ من دموعه وقال: « إلهي أما ترحَم بكائي وتضرّعي ؟ » فأجيب : « ياداودُ - قد نسيتَ ذنبَك وذكرتَ بكائك » .

ونقَل مجاهد[2] إنّه بكى داودعليه السلام أربعين يوماً ساجداً - لايرفع رأسه - حتّى نبَتَالمرعى من دموعه ، حتّى غطّى رأسَه ، فنودي : « ياداود - أجائعٌ أنت فتُطعَم ؟ أم عار فتكسى » ؟ فنحَب نحْبَةً هاجَ العود فاحترق من حرّ خوفه . ثمّ أنزل الله عليه التوبة والمغفرة . فقال : « ياربّ - اجعل خطيئتي في كفّي » فصارت خطيئته مكتوبة في كفّه ، وكان لايبسط كفّه لطعام ولا لشراب ولالغيره إلا رآها فأبكته ،

---

١) احياء علوم الدين : ١٨٣/٤ .

٢) احياء علوم الدين : ١٨١/٤ .

وكان يؤتى بالقدح - ثلثاه ماء - فإذا تناول أبصر خطيئته ، فما يضعه على شفتيه حتّى يفيض القدح من دموعه .

وروي إنّه مارفع رأسه إلى السماء حتّى مات - حياءً من الله - وكان يقول : « ياالهي - إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقتْ عليّ الأرض برُحبها ، وإذا ذكرتُ رحمتَك ارتدّت إليّ روحي » .

ثمّ يونس غضب غضبَة واحدة في غيرموضعها فسجّنه في بطن الحوت تحت قعرالبحر أربعين يوماً ، وهوينادي ﴿لاإِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ وسمِعَت الملائكة صوتَه ، فقالوا : «إلهنا وسيّدنا - صوتٌ معروفٌ في مكانٍ مجهولٍ» فقال الله تعالى: « ذلك عبدي يونس » فشفّعت الملائكة . ثمّ مع ذلك كلّه غيّر اسمه فقال : ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [٨٧/٢١] فنسّبه إلى سِجنه ، ثمّ قال: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مليمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [١٤٤/٣٧] ثم ذكر منّته ونعمته فقال : ﴿ لولا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [٤٩/٦٨] فانظر إلى هذه السياسة أيّها المسكين - .

وكذلك هلمّ جرّاً إلى سيّد المرسلين - أكرم خلقه ﷺ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَاتَطْغَوا إِنَّهُ بِمَاتَعْمَلُونَ بَصيرٌ﴾[١١٢/١١] حتّى كان يقول : «شيّبتني سورة هود وأخواتها» قيل : عنى هذه الآية وأشكالها في القرآن ، قال الله تعالى : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[١٩/٤٧] إلى أن منّ الله تعالى عليه بالغفران ، فقال : ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [٩٤/٢-٣] وقال : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [٢/٤٨] .

فكان بعد ذلك يصلّي الليل حتّى تورّمت قدماه ، فيقولون: أتفعل هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخّر ؟ فيقول [1] : « أفلا أكون عبداً

١) البخاري : ٦٣/٢ . وراجع المعجم المفهرس : « شكوراً » .

شَكوراً» وكان يصلّي بالليل ويبكي ويقول في سجوده[1] : « أعوذُ بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخَطك، وبك منك، لاأحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» .

كان بعض العلماء يقول : « لاتأمَن مَن قطَع في ربع دينار خير عضو منك أن يكون عذابُه هكذا غداً » ـ نسأل الله الكريم أن لايعاملنا إلاّ بفضله ، إذ لاطاقة لنا بِعَدله .

وفي الأدعية السجاديّة في الصحيفة الكاملة [2] ـ على قائلها وآبائه السلام والتحيّة ـ : « اللّهم إن تشأ تعفُ عنا فبِفضلِكَ ، وإن تشَأ تُعذبنا فَبِعَدلِك ، فسهِّل لنا عفوك بمنّك ، وأجِرنا من عذابِك بتجاوزِك ، فإنه لاطاقة لنا بِعَدلِك ولانجاة لأحد منّا دون عفوك » .

* * *

قال صاحب كتاب الإحياء[3] بعد ذكر مخاوِف الأنبياء ﷺ : « فهذه مخاوِفُهم ونحن أجدَرُ بالخوف منهم ، لكن ليس الخوفُ بكثرة الذنوب ، بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة ، وإلاّ فليس أمْننا لقلّة ذنوبنا وكثرة طاعتنا ، بل قادَتْنا شهواتنا ، وغلبتْ علينا شقوتنا ، وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فلاقُربُ الرحيل ينبّهنا ، ولاكَثرةُ الذنوب تُحرّكنا ، ولامشاهدةُ أحوال الخائفين تُخوّفنا ، ولاخطر العاقبة يزعجنا ، فنسأل الله تبارك وتعالى أن يتدارك بفضله وجُوده أحوالَنا فيصلحنا ، إن كان تحريك اللسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد يَنفعنا .

ومن العجائب إنّا إذا أردنا المال في الدنيا زرَعنا وغرَسنا واتّجرنا وركبنا البحار والبَراري وخاطَرنا، وإن أردنا طلب رُتبةالعلم تفقّهنا وتعبنا في حفظه وتكراره

---

١) مضى في :

٢) الدعاء العاشر ، دعائه عليه السلام في اللجأ إلى الله تعالى .

٣) إحياء علوم الدين : ٤/ ١٨٨ .

وسهرنا ، ونجتهد في طلب أقواتنا ولا نثق بضمان الله ولانجلسُ في بيوتنا فنقول : « اللهم ارزقنا » ثمّ إذا طمحت أعيننا نحو المُلك الدائم المقيم ، قنعنا بأن نقول بألستنا : « اللهم [اغفر] لنا وارحمنا » والذي إليه رجاؤنا وبه اغترارنا [يُنا] دينا [و] يقول : ﴿ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَىٰ ﴾ فما هذه إلاّ محنةٌ هائلة إن لم يتفضّل الله علينا بتوبة نصوح . . . فنسأل الله أن يسوق إلى التوبة سرائرَ قلوبنا » .

تذكـرةٌ

اعلم إنّ في الآية دلالة على أنّ كثرة النعم يعظّم المصيبة (ظ : المعصية) وعلى أنّ تقدّم العهد يعظّم المخالفة ، وعلى أنّ الخطْب في العلماء والتشديد عليهم في باب الذنوب أعظَم ، وعلى أنّ رسول الله ﷺ كما كان مبعوثاً إلى العرَب ، كان مبعوثاً إلى بني اسرائيل .

وفي قوله : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ دلالةٌ على أنّ الكل بقضاء الله ، ولااستقلال للعبد في فعْله ، وإلاّ لوَجب أن لايخاف إلاّ من نفسه ، لأنّ مفاتيح ثوابه بيده ـ لابيد الله ـ .

وفيها أيضاً دلالة على وجوب معرفة الله على وجهٍ يعلم به كون الكلّ بقضائه، وأن لاتأثير لأحدٍ في حُكمه ولارادّ لقضائه ، وهذا متوقّف على علوم كثيرة ومسائل شريفة يجب الخوضُ فيها ، لأنّها ممّا لايتمّ هذا الواجب إلاّ بها ، ومقدّمات الواجب واجبة، فالعلم به تعالى وبصفاته وبكيفيّة أفعاله بقدر الطاقة واجبٌ والله أعلم بأسراره .

* * *

وقرء : « اذّكَروا » وهو من باب الافتعال . وقرء : « نعمتي » باسكان الياء واسقاطها في الدرج ، وهومذهب من لايحرّك الياءَ المكسورة ماقبلها . وقرء «اوَفّ» بالتشديد للمبالغة .

قوله جل اسمه :

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ (٤١)﴾

أمَرهم بالايمان بعد ماأمَرهم بايفاء عهد الله تنبيهاً على أنّه العمدة في ذلك، بل لأحد أن يقول : إنّ الايمان بما أنزل الله على رسوله هو عين الايفاء بعهد الله على التأويل الذي سبَق ذكره في معنى العهْد ، وهو النور الذي يتنـوّر به القلوب ، ويسلك به سبيل الآخرة ، وينكشف به حقائق الأمور ويطلع به الإنسان على الحضرة الإلهيّة وأفعاله وآثاره ولطفه وحكمته في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [٥/١٥] .

فالنور هو جنس معاني القرآن والكتاب آيات ألفاظه ، وهو أي القرآن مُنزَل من الله إلى قلب النبي ﷺ إن اريد به المعاني . ومنزَل من السماء الدنيا على سمْعه الشريف إن أُريد به ألفاظه .

وكلاهما عند غيبته عن إدراك هذه الحواسّ الدنيوية ، فإنّ السمع الذي كان به يسمع رسول الله ﷺ كلامَه ، والبصَر الذي كان يبصر به شخص جبرئيل ؑ كانتا بوجه غيرهاتين الحاسّتين العنصريّتين ، وإن كانتا بوجه عينهما .

أمرهم بالتصديق بهذا القرآن المنزّل ، وأخبرهم أن في تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتورية والإنجيل لأنّ الذي في القرآن مصداق لهما ، ومؤكّد للايمان بهما من حيث انّه مطابق لهما في القصص ، والمواعيد ، والدعاء إلى التوحيد ، والأمر بالعبادة ، والعدل بين الناس ، والنهي عن المعاصي والفواحش وفيما يخالفها من جزئيّات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح ، من حيث انّ كلّ واحدة منها حقّ بالإضافة إلى زمانه ، مراعى فيها صلاح الأنام ، ومَن خوطب بالكلام من الله ، حتى لو نزّل المتقدّم من الأحكام في أيّام المتأخّرمنها لكان على وفقه بأبلغ وجه ولذلك قال ﷺ [1] : « لو كان موسىٰ حيّاً لَما وسعه إلاّ اتّباعي » .

وقيل : معناه إنّه تصديق بالتورية والإنجيل ، لأنّ فيهما الدلالة على أنّه حق ، وأنّه من عندالله . وفيهما البشارة ببعثة محمّدﷺ وبيان نعوته وصفاته ، فكان الايمان بمحمّد ﷺ وبالقرآن تصديقاً للتورية والإنجيل ، وتكذيبه ﷺ تكذيباً لهما .

والتفسير الثاني أولى لأن يكون حجّة عليهم ، إذ على التفسير الأوّل لقائل أن يقول : التوافق في بعض المعاني لايوجب أن يكون القرآن من عند الله ، فلايلزم عليهم وجوب الايمان به .

وأمّا على الثاني فيلزم عليهم الايمان بحقّية القرآن وتصديق الرسول ﷺ إذا اشتمل الكتابان على كون محمدﷺ صادقاً ، فالايمان بهما يوجب الايمان بمايقوله ﷺ . ومعلوم إنّ الآية إنّما نزلت احتجاجاً عليهم ودلالة لهم على وجوب الايمان بمحمّد ﷺ . فبالجملة فالدالّ على اثبات نبوّته هيهنا وجهان :

أحدهما شهادة كتب الأنبياء ﷺ عليه ، وهي لاتكون إلاّ حقاً .

والثاني إخباره عمّا في كتبهم ولم يكن له معرفة بما فيها إلاّ من قبل الوحي .

---

١) راجع البحار : ١٦/ ٣٦٦ .

وقوله : ﴿ مُصَدِّقاً ﴾ حال منتصب بـ ﴿آمِنُوا ﴾ كأنه قال : «آمِنوا بالقرآن مصدّقاً » و ﴿ مَعَكُمْ ﴾ صلة ﴿لِمَا﴾ والعامل فيه الاستقرار ، أي للذي استقرّ معكم والضمير في ﴿ بِهِ ﴾ عايدٌ إلى الموصول في قوله : ﴿ بِمَا أنزَلْتَ ﴾ او في قوله : ﴿لِمَا مَعَكُم ﴾ على التفسير الثاني .

* * *

وقوله : ﴿وَلَاتَكُونُوا أوّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي : أول فريق ، أو فوج كافر به ، أو : ولايكن كلّ واحد منكم أوّل كافر به كقولك : «كَسانَا حلّة » أي : كلّ واحد منا . والمعنى : «لاتكونوا أوّل كافر من أهل الكتاب بالقرآن » لأنّ قريشاً قد كانت كفرت به بمكة قبل اليهود .

وعن أبي العالية : معناه « لاتكونوا السابقين إلى الكفر [به]، فيتّبعكم الناس . أي : لاتكونوا أئمة الكفر» وهذا متوجّه فإنّ الناس في المذاهب والملل يتّبعون أهل الكتاب والعلْم في أكثر الأزمنة . ومعلومٌ أنّ الخطاب في الآية مع أئمة أهل الضلال وعلمائهم ، الذين شأنهم كتمان الحق ، الذي في الكتب وتلبيسه بالباطل ، وتحريف الكلِم عن مواضعه ـ كما هو عادةُ علماء السوء ـ .

وعن أبي جريح : معناه : ولاتكونوا أوّل جاحدين صفة النبيّ ﷺ في كتابكم فعلى هذا تعود « الهاء » في ﴿ به ﴾ إلى النبيّ ﷺ .

قيل معناه ولاتكونوا مثل أول كافر به . يعني : مَن أشرك من أهل مكة ، أي : لاتكونوا وأنتم تعرفون مكتوباً في التورية والانجيل مثل من لم يعرفه وهو جاهلٌ مشركٌ لاكتاب له .

وقيل : ضمير ﴿بِهِ﴾ راجعٌ الى الكتاب . أي : لاتكونوا أوّل كافر بكتابكم . أي لاتكونوا أوّل مَن كذّب كتابَكم مِن اُمّتكم ، لأنّ تكذيبكم لمحمد ﷺ تكذيبكم لكتابكم .

وقيل : معناه ولاتكونوا أوّل من جحد مع المعرفة ، لأنّ كفر قريش لم يكن مع المعرفة .

وقيل : معناه لاتكونوا أوّل الكافرين به عند السماع ، بل تثبّتوا وراجِعوا عقولكم وتدبّروا في معانيه حتّى يظهر لكم حقيّته وصدقه .

وقيل معناه : لاتكونوا أوّل كافر به من كفّار اليهود ، لأنّ النبي ﷺ قدم المدينة وكانت بها القُريضة والنضير ، فكفَروا به ، ثمّ تتابعَت سائرُ اليهود على ذلك الكفر .

وقال المبرّد هذا الخطاب لقوم خوطِبوا به قبلَ غيرهم ، فقيل لهم : لاتكفروا بمحمّد ﷺ ، فإنّه سيكون بعدكم الكفّار ، فلاتكونوا أوّل الكفّار .

* * *

واعلم إنّه انّما عظم أوّل الكفر لأنّهم إذا كانوا أئمّة لهم وقدوة في الضلالة كانت ضلالتهم أعظم وكُفرهم أشدّ ، إذكما انّ السابقين إلى الايمان كانوا أعظم قدْراً في الثواب ، وأشدّ قُرباً من الله ، لقوله ﴿ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُون ﴾ كذلك السابقون إلى الكفر، كانوا أعظم ذنباً ممن بعدهم ، وأشدّ ضلالاً وأكثر بُعداً عن الحقّ .

ولِما رُوي عن النبي ﷺ[1] : « مَن سنّ سُنّة حسنة فله أجرُها وأجر من عَمل بها إلى يوم القيامة . ومَن سنّ سُنّة سيّئة كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عمل بها إلى يوم القيامة » .

وقيل : إنّ الأوّلية موجبةٌ لمزيد القبح والإثم ، وذلك لأنّهم إذا سبقوا إلى الكفر ، فإمّا أن يقتدى بهم غيرهم فيه أوّلاً ، فالأول يوجب أن يكون لهم وِزر ذلك الكفْر ووِزر من كفَر إلى يوم القيامة . والثاني يوجب أن يجتمع فيه أمران ، السبق إلى الكفر ، و التفرّد به ، ولاشكّ في أنّه منقصة عظيمة .

١) راجع كنز العمال : ١٥/٧٨٠ وأيضاً البحار : ٧١/٢٥٧ .

فصل

ليس في نهيه تعالى أن يكونوا أول كافر به دلالة على أنه يجوز أن يكونوا آخر كافر به ، لأنّ المقصود النهي عن الكفر على كلّ حال ، وخصّ الأوّل بالذكر لماذكر من عظم موقعه ، وكما إنّ قوله تعالى : ﴿رَفَعَ ٱلسَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [٢/١٣] لايدلّ على وجود عمَدٍ لايَرونها . و[قوله]:﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[٤/١٥٥][لاتدلّ على جواز قتلهم بحقٍّ]وقوله ـ عقيب هذه الآية :﴿ وَلَاتَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ لايدلّ على اباحة ذلك بالثمن الكثير . وكما قال الشاعر [1] :

مِن أُناس ليس في أخلاقِهم * عاجلُ الفحش ولاسوءَ الجزَع

وليس يُريد أنّ فيهم فحشاً آجلاً . فكذا هيهنا . بل الغرض من هذه السياقة التنبيه على استعظام كفر مَن قرء في الكتُب نعتَ محمّد ﷺ ، ثمّ جحَد به . ولأن في قوله : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ دلالة على أن كفرهم أوّلاً وآخراً مخطور ، لأنّ تحقّق وجود الشيء موقوف على ارتفاع جميع أنحاء عدمه أو ضدّه ، وكذا تحقق الايمان بما أُنزل في كلّ وقت متوقّف على ارتفاع جميع أنحاء الكفر في ذلك الوقت ، ولأنّ الايمان نوعٌ من نور اليقين ، فإذا حصل في القلب لايمكن رفعه فكلّ من آمَن أوّلاً ايماناً بالحقيقة فهو مؤمن أخيراً لايزال .

فصل

قوله : وَلَاتَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا

أي : ولا تستبدلوا الايمان بالرسول وتعلّم الحِكمة والاطّلاع على آيات الله بثمن قليل من مال الدنيا وجاهِكم الحقير عند أبنائها .

---

١) هو سويد بن أبي كاهل .

وفي الكشّاف [1] : « الثمن القليل هو الرياسة التي كانت لهم في قومهم ، خافوا عليها الفوات لوأصبحوا تباعاً لرسول‌الله ﷺ ,فاستبدلوها ـ وهي بدلٌ قليل ومتاعٌ يسيرٌ ـ بآيات الله وبالحقّ الذي كلّ كثير إليه قليلٌ وكلّ كبير إليه حقيرٌ . فما بال القليل‌الحقير! وقيل :كانت عامتهم يعطون أحبارهم من زُروعهم وثمارهم، ويهدون إليهم الهدايا ويرشونهم الرشا على تحريفهم الكلِم وتسهيلهم[لهم] ماصعُب عليهم من الشرايع ، وكان ملوكهم يدرّون عليهم الأموال ليكتموا ويحرّفوا ».

* * *

واعلم إنّ العادة جاريةٌ في كلّ زمان بأنّه إذا ظهر واحد من أهل‌الحقّ واولياء الله ، فأوّل من يسعى في ابطال حقّه ويريد إطفاءَ نوره في أكثرالأمْرهم العلماءُ السوء ورؤساءُ حمَلة الكتاب ، أو المغترّون بالشريعة التي كانوا عليها ، وذلك لأنّ ظهور حاله يوجب كشف نقائصهم وجهالاتهم على الناس ، وفي ذلك انحطاط منزلتهم عندالخلْق ، ونقصان جاههم وسقوطهم عن أعين السلاطين، وجميع ذلك هومَطمح أنظارهم في اكتساب العلوم والديانه .

فالله سبحانه أشار إلى أن محافظتهم على هذه الأُمورالدنياويّة في ترك متابعتهم الرسول ﷺ وإن كان ثابتاً ـ إلا إنّ لهم في ذلك تفويتٌ للسعادة الأُخروية بتحصيل مقامات العلم واليقين .

فإنّ كمال النفس الإنسانية بتحصيل ماعليه الواجب من صيرورتها جوهراً عقليّاً مضاهياً للجواهر القدسيّة والملائكة العقليّة ، فإذا ترك ذلك التحصيل واشتغل بتحصيل اللذّات الدنياوية وحفظ الرياسات الحيوانية ، فكأنّه باعَ الملَك واشترى الحَيوان ، وباعَ البهجة القصوى والسعادة الأبدية باللذة الحيوانية الفانية ولاشك إنّه

---

١) الكشاف : ١/٢١٣ .

باعَ أمراً جليلاً بثمن قليل ، لأنّ لذّة الدنيا بحذافيرها بالنسبة إلى نعيم الآخرة قليلة جدّاً ، بل كنسبة المتناهي إلى غير المتناهي .

* * *

والثَمَن والعوَض والبَدَل نظائرُ وبينها فروقٌ :

و«الثمَن» هو البدل في البيع ، وكذا «القيمة» . والبدَل أعمّ من ذلك . والفرق بين الثمن والقيمة إنّ الثمن قد يكون وِفْقاً ، وقد يكون بَخْساً ، وقد يكون زائداً ، والقيمة لاتكون إلّا مساوية من غير زيادة ولانقصان .

قال الفرّاء [1] : إنّما أُدخل الباء في « الآيات » دون « الثمَن » وفي سورة يوسف أدخلَه في الثمَن في قوله : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾[١٢/ ٢٠] لأنّ العُروض [2] كلّها أنت مخيّر فيها ، إن شئتَ قلتَ : « اشتريتُ الثوبَ بكساء » وإن شئتَ قلت : « اشتريت بالثوبِ كساءً » أيّهما جعلتَ ثمناً لصاحبه جاز . فإذا جئتَ إلى الدراهم والدنانير وضعت « الباء » في الثمن كقوله : ﴿ وَشَرَوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ لأنّ الدراهم ثمنٌ أبداً .

قيل : المعنى ﴿لاتَسْتَبدِلُوا بِآيَاتي﴾ أي : بما في التورية والإنجيل من بيان صفة محمّد ﷺ ونَعته ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي : عرضاً يسيراً من الدنيا .

ورُوى عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية إنّه قال [3] : «كان حيي بن أخطَب وكعبُ بن أشرف وآخرون من اليهود لهم مأكلة من اليهود في كلّ سنة ، فكرهوا بطلانها بأمر النبي ﷺ فحرّفوا لذلك آيات في التورية فيها صفتُه وذكره ، فذلك الثمَن الذي أُريد في الآية » .

---

١) مجمع البيان : ١/ ٩٥ .

٢) العُروض ـ بالضم ـ جمع « عرض » : المتاع وكلّ شيء سوى النقدين .

٣) مجمع البيان : ١/ ٩٥ .

ورُوي عن ابن عباس أيضاً[1] : إنّ رؤساء اليهود مِثل كعْب بن الأشرف وحيي ابن أخطب وأمثالهما كانوا يأخذون من فقراء اليهود الهدايا ، وانّهم لو اتّبعوا محمّداً لانقطعت عنهم تلك الهدايا ، فأصرّوا على الكفر لئلاّ ينقطع عنهم ذلك القدر المحقّر.

* * *

واعلم إنّ خطاب الله في القرآن ينبغي أن يحمل على العامّ الشامل لكلّ أحد وإن كان منشأ النزول مخصوصاً ، حتّى تكون علوماً كليّة باقية أبد الدهر فقوله : ﴿لَاتَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ أي بمعرفتها ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ يجب أن يكون حُكْماً عامّاً يكون به النهي عن صنْع كل مَن ترَك تعلّم آيات الحكمة واليقين بواسطة محافظته على دنياه وخوفه عن زوال جاهه عند الخلْق ، وسقوط منزلته لديهم .

فمِن هيهنا يُعلم إنّ كل من جهَد حقّاً من حقوق الله ، وأنكر عِلْماً من المعارف اليقينيّة والعلوم الربّانية حذراً من أن يلزم عليه اتّضاعٌ في أمر دنياه بظهور علم هو فوق علمه - كالعلْم الأعلى بالقياس إلى العلوم الجزئيّة - أو خمول في شهرته وصِيتِه او كساد في مجمع وَعظه ومدرسة علمه الناقص ، فهو داخلٌ في جنس اولئك المخاطَبين بهذه الآية .

فصلٌ

قوله : وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ

أي بالايمان واتّباع الحقّ ، والإعراض عن الدنيا ، ويقرب معناه ممّا تقدّم من قوله ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ .

والفرق بين الرهبة والتقوى بالتأكّد والضعف ، وكان الوجه إنّ الأُولى مقدّمة للثانية ولهذا اوردت الرهبة في الآية السابقة ، والتقوى في اللاحقة . وأيضاً لما عمّ

١) تفسير الفخر الرازي ٤ : ١/ ٤٩١ .

الخطاب في الآية الأولى العالِم والمقلّد جميعاً وقع الأمرفيها بالرهبة التي هي مبده السلوك وحيث خصّ أهلَ العلْم أمرَهم بالتقوى الذي هو منتهاه .

[العلماء السوء وما ورد فيهم]

واعلم إنّه قد وردت في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلّت على أنّهم أشدّ الناس عذاباً يومَ القيامة . والمراد بالعلماء السوء الذين قصدُهم من العلْم التنعّم بالدنيا والتوصّل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ، والأحاديث الدالّة على أنّ هؤلاء أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، وأنّ لزوم الحجّة عليهم أشدّ ـ كثيرة :

فمِن طريق أهل البيت عليهم السلام ماروواه محمّد بن يعقوب الكليني [١] رحمه الله بسنده المتّصل عن سليم بن قيس الهلالي ، قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يحدّث عن النبي صلى الله عليه وآله ، إنّه قال في كلام له : «العلماء رجُلان : رجلٌ عالِم آخذ بعلمه ، فهذا ناج . وعالِم تارك بعلمه [٢] فهذا هالك . وإنّ أهلَ النارِ ليتأذّون عن ريح العالِم التارك لعلمه .

وإنّ أشدّ أهل النار ندامة وحسرة رجلٌ دعا عبداً إلى الله ، فاستجاب له وقَبِل منه فأطاع الله ، فأدخله الله الجنّة . وأدخل الداعي إلى النار [٣] بتركِه علمه ، واتّباعه الهوى وطول الأمل . أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق . وطولُ الأمل ينسي الآخرة » .

وروي أيضاً [٤] عن عدّة من أصحابه ، عن أحمد بن محمّد بن خالد ، عن أبيه

١) الكافي : كتاب فضل العلم ، باب استعمال العلم : ١ / ٤٤ .
٢) المصدر : لعلمه .
٣) المصدر : وادخل الداعي النار
٤) الكافي : الباب السابق : ١ / ٤٥ .

رفعه ـ قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له خطب به على المنبر: « أيّها الناس ـ إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلّكم تهتدون . إنّ العالِم العامل بغيره ـ وفي نسخة : « بغيربصيرة » بدل : «بغيره» ـ كالجاهل الحائر لايستفيق[1] عن جهله ، بل قد رأيت انّالحجة عليه أعظم ، والحسرة أدوم على هذا العالِم ، المنسلخ عن علمه ، منها على هذا الجاهل المتحيّر في جهله ، وكلاهما حائرٌ بائرٌ » .

روى ايضاً[2] بسنده المتصل عن أبي جعفر عليه السلام قال : « من طلب العلْم ليباهي به العلماءَ ، أويُماري به السفهاءَ ، أويصرف به وجوه الناس إليه ، فليتبوّء مقعدَه من النار » .

وروى أيضاً [3] مسنداً عن حفص بن غياث ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « قال ياحفص ـ يَغفر للجاهِل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالِم ذنبٌ واحد » .

و بهذا الاسناد[3] قال : قال أبوعبدالله عليه السلام ، قال : قال عيسى بن مريم : « ويلٌ للعلماء السوء ، كيف تلظّى عليهم النار » .

وروى ايضاً [2] مسنداً عن جميل بن درّاج ، قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: « إذا بلغت النفس هيهنا ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالِم توبة » ثمّ قرء : ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [٤/١٧] .

وروي أيضاً [4] عن عليّ بن إبراهيم ، رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « طلَبة العلْم ثلاثة ، فاعرفوهم بأعيانهم وصفاتهم : صنفٌ يطلبه للجهل والمِراء ، وصنْف يطلبه للاستطالة والختَل [5] ، وصِنف يطلبه للفِقه والعقْل .

١) المصدر : الجاهل الحائر الذى لايستفيق . . .
٢) الكافي :كتاب فضل العلم ، باب المستأكل بعلمه : ٤٧/١ .
٣) الكافي :كتاب فضل العلم ، باب لزوم الحجة على العالم : ٤٧/١ .
٤) الكافي :كتاب فضل العلم ، باب النوادر : ٤٩/١ .
٥) استطال عليه : ترفع . والختل بفتح الخاء والتاء : الخدعة .

فصاحبُ الجهل والمِراء موذٍ ، ممارٍ ، متعرضٌ للمقال في أندية [1] الرجال بتذاكرالعلم وصفة الحلم ، قدتسربَل بالخشوع ، وتخلّى من الورع ، فدقّ الله من هذا خيشومَه ، وقطَع منه حيزومه [2] .

وصاحب الاستطالة والخَتَل ذوخِبٍّ ومَلَق[3] ، يستطيل على مثله من أشباهه ، ويتواضع للاغنياء من دونه ، فهو لحلوائهم هاضِمٌ ، ولدينه حاطِمٌ ، فأعمى الله على [هذا] خبره ، وقطع من آثار العلماء أثره .

وصاحب الفقه والعقل ذوكآبة وحزن وسهَر ، قد تَحنَّك في بُرنُسه [4] وقام الليل في حِندِسه [5] ، يعمل ويخشى وجلاً ، داعياً ، مشفقاً ، مقبلاً على شأنه ، عارفاً بأهل زمانه ، مستوحشاً من أوثق إخوانه ، فشدّالله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه» .

* * *

وأمّا من طريق غيرهم فوقع في الرواية عن النبي ﷺ إنّه قال [6] : «إنّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالِمٌ لم ينفعه الله بعلمه» .

وقال أيضاً [7] : «العلمُ علمان : علمٌ على اللسان ، فذلك حجةُ الله على بن

١) الأندية : المجالس والمجتمعات .

٢) الخيشوم : الأنف . الحيزوم : وسط الصدر .

٣) الخِبّ بكسر الخاء وتشديد الباء : الخدعة والغش . والمَلَق بالتحريك : اللطف الشديد باللسان دون القلب .

٤) تحنَّكَ : أدار العمامة تحت الحنَك . والبُرنُس بضم الباء والنون : قلنسوة طويلة كان يلبسها النسّاك في صدر الاسلام .

٥) الحِندِس بكسرالحاء والدال : الليل المظلم . والظُلمة .

٦) في الجامع الصغير (١/٤٢) : «... عالم لم ينفعه علمه» .

٧) الدارمي : باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله ١/١٠٢ .

آدم . وعلمٌ في القلب ، فذلك العلمُ النافع » .

وقال أيضاً [١] : « لأنا من غير الدجّال أخوفُ عليكم من الدجّال » فقيل : « وما ذاك ؟ » فقال : « أئمةٌ مضلون » .

وقال أيضاً ﷺ [٢] : «مَن ازداد علماً ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلّا بُعداً»

وقال عيسى عليه السلام [٣] : « إلى متى تصِفون الطريق للمدلِجين وأنتم مقيمون مع المتحيّرين ؟ ! »

فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطَر العلْم ، وأنّ العالِم إمّا متعرّض لهلاك الأبد اولسعادة الأبد ، وأنّه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم تدركه السلامة [٤] .

وأما الآثار [٥] : فقال الحسن : « لاتكن ممّن يجمع علْم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء » .

وقال أيضاً : « عقوبة العلماءِ موتُ القلب » وأنشد [٦] :

عجيبٌ لمبتاع الضلالة بالهُدى * ومن يَشتري دُنياه بالدين أعجبُ

وقال أسامة بن زيد [٧] : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يؤتى بالعالِم ، فيُلقى في

---

١) جاء في المسند ١٤٥/٥ بفرق يسير في اللفظ .

٢) في الجامع الصغير (١٦٢/٢) : «... ولم يزدد في الدنيا زهداً» وراجع أيضاً تخريج العراقي للحديث : ذيل احياء علوم الدين ٥٩/١ .

٣) إحياء علوم الدين : كتاب العلم ، الباب السادس .

٤) الظاهر ان الصحيح «السعادة» كما في الاحياء ٥٩/١ .

٥) راجع إحياء علوم الدين ٥٩/١ .

٦) كذا . وفي الإحياء : «وانشدوا» .

٧) البخاري : كتاب بدء الخلق ١٤٧/٤ . بفروق يسيرة .

النار، فتندلق أقتابه [١] ، فيدورُبها كما يَدورُ الحمارُ في الرحا . فيطوف به أهلُ النار فيقولون « مالكَ ؟ » فيقول : «كنتُ آمرُ بالخير ولا آتيه ، وانهي عن الشرّ وآتيه » .

وإنّما يضاعف عذاب العالِم في معصيته لأنّه عصى عن علـم ، ولذلك قال تعالى . ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [٤/١٤٥] لأنّهم تعدّوا بعد العِلم ، وجعَل اليهودَ شراً من النصارى، مع انّهم ماجعلوا لله ولداً، ولاقالوا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ ولكن كفَروا وأنكروا بعد المعرفة ، وقال تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ [٢/٨٩] وقال تعالى في قصّة بَلعم بن باعورا : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ حتّى [قال] ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [٧/١٧٦] فكذلك حُكم العالِم الفاجر، فإنّ بلعَم اوتيَ كتابَ الله فأخلَد إلى الشهوات فشبّهه بالكلب . أي : سواء أوتي بالحكمة أولم يؤت ، فهو مخلّد إلى الشهوات .

وقال [عيسى عليه السلام] [٢] : « مَثَل علماء السوء كمَثَل صخرةٍ وقعت على فَم النهر ـ لاهي تَشربُ ولا تترك الماء تخلص الى الزرع . ومثَل علماء السوء مثَلُ قناة الحشّ ظاهرها خضر وباطنها نتِن، ومثَل القبور ظاهرها عامرة وباطنها عظام الموتى».

وفي المثنوي للمولى الرومي رحمه الله أبياتٌ جيّدة في بيان حالهم وكشف عوارهم ، فهذه الأخبار والآثار تدلّ على أنّ العالِم الذي هو من أبنـاء الدنيا أخسّ حالاً وأسوء عاقبة ومآلا وأشدّ عذاباً من الجاهل السليم القلب . وأنّ الفائزين المقرّبين هم علماء الآخرة .

---

١) اندلق الشيء : خرج من مكانه . والأقتاب جمع قتب : المعي .

٢) إحياء علوم الدين ١/ ٦٠ . قوت القلوب ١/ ١٤١ .

فصل

[علامات علماء الآخرة]

فإن قلت : كيف يمكن لأحد أن يعرف علماء الآخرة حتّى يقتدي بهم ، والعلم الحقيقي حالة باطنيّة ؟ وبماذا يمتازون عن علماء الدنيا ؟

قلتُ : إنّ لهم علاماتٍ ذكرها بعض المحققين[1] :

منها أن لايطلب الدنيا بعلمه . فإنّ أقلّ درجات العالِم أن يدرك حقارة الدنيا وخسّتها وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، ويعلَمَ إنّهما متضادان ، وإنّهما كالضرّتين ـ مهما أرضيتَ أحدَهما أسخطتَ الأُخرى . . . وإنّهما كالمشرق والمغرب ـ متى قَرُبتَ من إحديهما بَعُدتَ عن الأُخرى إذ الآخرة عالَم النور والقصور ، والدنيا عالَم الظُلمة والقبور ، وإنهما ككفّتي الميزان مهما رَجُحت إحديهما خفّت الأُخرى ،كما قال أبونصر الفارابي في نظم له [٢] :

عابوا عليّ خَصاصَتي فأجبتُهم * حظٌّ وعلْمٌ كيف يجتمعان
رجحان ذا خسران ذا وكلاهما * يتخالفان ككفّتي ميزان
حازَ الجهول الرزقَ بالسبب الذي * وقع اللبيب به على حرمان

فمَن لم يعلَم حقارةَ الدنيا وكدورتها ، وامتزاج لذّتها بالمها ، ثمّ انصرام مايصفو منها ـ فهو فاسد العقل . فإنّ المشاهدة والتجربة تُرشد إلى ذلك ، فكيف يكون من العلماء من لاعقل له ؟ ! ومن لايعلم عِظَم أمرالآخرة ودوام نعيمها فهو كافر

---

١) الغزالي في احياء علوم الدين : كتاب العلم ، الباب السادس ١ / ٦٠ . ملخصاً . والظاهر ان الغزالي ايضاً اخذ جل ما قاله هناك من قوت القلوب لابي طالب المكي : «باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة» ١ / ١٤٠ .

٢) الأشعار غيرموجودة في الاحياء .

مسلوب الايمان ، فكيف يكون من العلماء من لاايمان له ؟ ! ومن لايعلم مضادّة الدنيا للآخرة ، وإنّ الجمع بينهما طمعٌ في غير مطمع ، فهو جاهلٌ بشريعة الأنبياء كلّهم ـ صلوات الله عليهم ـ بل هو كافر بالقرآن من أوله إلى آخره ، فكيف يُعدّ من زُمرة العلماء ؟ ! ومن علِم هذا كلّه ثمّ يؤثر الدنيا وجاهها ورياستها على الآخرة ، فهو أسير الشيطان مغلول بغلّه ، مقيّد بحبله ، قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته ، فكيف يُعدّ من أحزاب العلم من هذه درجته ؟ !

وفي أخبار داود [١] : « إنّ أدنى ماأصنعُ بالعالِم إذا آثر شهوتَه على محبّتي أن اُحرّمه لذيذ مناجاتي » .

وقال مالك بن دينار [٢] : « قرأتُ في بعض الكتب،إنّ الله عزوجل يقول : إنّ أهونَ ماأصنعُ بالعالِم إذا أحبَّ الدنيا أن أخرجَ [حلاوة]مناجاتي من قلبه » .

وقال عيسى عليه السلام[٢] : «كيف يكون من أهل العلم مَن مسيرُه إلى الآخرة وهو مقبلٌ على دنياه ؟ وكيف يكون من أهل العلم من يطلبُ الكلام ليخبر به ـ لاليعمل به ـ ؟ » .

وقال صالح بن حميان [٣] : « أدركتُ الشيوخ وهم يتعوّذون بالله من الفاجِر العالِم بالسنّة » .

وروى أبوالدرداء[٤] ، انّه صلى الله عليه وآله قال : أوحى الله إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقّهون لغير الدينِ ، ويتعلّمون لغير العملِ ، ويطلبون الدنيا بعمَل الآخرةِ ،ويلبسون

---

١) احياء علوم الدين ١ / ٦٠ ، قوت القلوب ١ / ١٤١ .

٢) احياء علوم الدين ١ / ٦١ .

٣) كذا فيالنسخة وفيالاحياء١ / ٦١ : «صالح بن كيسان» . وجاء في قوت القلوب: ١ / ١٤١ «صالح بن حسان» .

٤) قال العراقي (ذيل احياء العلوم ١ / ٦٢) أخرجه ابن عبدالبر بأسناد ضعيف .

مشوك الكباش ، وقلوبُهم كقلوب الذئاب ، ألسِنتُهم أحلى من العسل ، وقلوبُهم أمَرّ من الصبْر : « إيّايَ يخادعون ، وبي يستهزءون ! لأمتحننّ[١] لهم فتنةً تذر الحكيم حيراناً » .

وروى الضحّاك ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ إنّه قال[٢] : « علماءُ هذه الأمّة رجُلان : فرجُل آتاه الله علماً فبذله للناس ، ولم يأخذ عليه طمعاً ، ولم يشترِ به ثمَناً ، فذلك يصلي عليه طيرُ السماء ، وحيطانُ الماء ، ودوابُّ الأرض ، والكرامُ الكاتبون . يَقدمُ على الله سيّداً شريفاً حتّى يُرافق النبيّين . ورجُلٌ آتاه[الله تعالى] عِلماً في الدنيا فضنَّ به على عباد الله [عزّوجلّ وأخذ عليه واشترى به ثمَناً ، يأتي يومَ القيامة ملجّماً بلجام من نار، ينادي مناد على رءوس الخلائق : هذا فلان بن فلان آتاه الله تعالى في الدنيا علماً فضنَّ به على عباد الله تعالى] وأخذ عليه طمعاً ، واشترى به ثمناً قليلا . يعذّب حتى يفرغ الله من حساب الخلائق (الخلق ـ ن) .

وأشدّ من هذا ماروي:[٣] إنّ رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام ، فجعل يقول : « حدّثني موسى [صفي الله] حدّثني موسى نجي الله ، حدّثني موسى كليم الله » حتّى أثرى وكثُر مالَه ، ففقَده موسى ، فجعل يسأل عنه فلايحسّ له أثراً ، حتّى جاءه رجُل في يده خنزيرٌ وفي عُنقه حبل أسود . فقال له موسى : « أتعرف فلاناً » ؟ قال : « نعمْ ـ هو هذا الخنزير» . فقال موسى : ياربّ : أسئلك أن تردّه إلى حاله حتّى أسألَه فيما أصابه هذا . فأوحى الله إليه : « لو دعوتني بالذي دعا به آدم فمَن دونه ماأجبتُك . ولكن أخبرك لِم صنعتُ به هذا . لأنّه يطلب الدنيا بالدين » .

---

١) الاحياء : لأفتتحن .

٢) قال العراقي (ذيل احياء العلوم ١ /٦٢) «أخرجه الطبراني في الأوسط بأسناد ضعيف في الموضوعات» وجاء في قوت القلوب ١ /١٤٣ .

٣) إحياء علوم الدين ١ /٦٢ . وقوت القلوب ١ /١٤٤ .

وأغلظ من هذا ماورَدَ عن معاذ بن جبَل [١] : إنّ رسول الله ﷺ قال : فِتنة العالِم أن يكون الكلامُ أحبّ إليه من الاستماع . وفي الكلام تنميقٌ وزيادة ، ولايؤمن على صاحبه الخطأ ، وفي الصّمت سلامةٌ وعلم .

ومن العلماء من يخزن علمَه فلا يحبّ أن يوجد في غيره ، فذلك في الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان ، فإنْ يُردّ عليه شيء من علْمه او تهوّن بشيء من علْمه غضبَ ، فذلك في الدرك الثاني من النار . ومن العلماء من يجعل علمَه وغرائب حديثه لأهل الشرف ، ولايرى أهلَ الحاجة أهلاً له ، فذلك في الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من ينصب نفسه للفُتيا ، ويُفتي بالخطأ والله يُبغض المتكلّفين ، فذلك في الدرك الرابع من النار ، ومن العلماء من يتكلّم بكلام اليهود والنصارى ليغزر علمَه ، فذلك في الدرك الخامس من النار . ومن العلماء من يتّخذ علمَه مروّةً ونبلاً وذكْراً في الناس ، فذلك في الدرك السادس من النار . ومن العلماء من يستفزّه الزهو والعُجب ، فإن وُعِظ عَنف ، وإن وَعَظ أنِف ، فذلك في الدرك السابع من النار . فعليك بالصمت ، فيه تَغلبُ الشيطان ، وإيّاك أن تضحكَ من غير عجَب ، او تمشي في غير ارب .

وفي الخبر [٢] : « إنّ العبدَ ليُنشر له من الثناء مابين المشرق والمغرب ، وما يزن عند الله جناحَ بعوضة » .

السلاطين

وقال ﷺ [٣] : « العلماء أُمناء الرسل على عباد الله مالم يُخالطوا السلطان ،

١) داجع اللئالي المصنوعة :كتاب العلم ١ / ٢٢٣ . قوت القلوب ١ / ١٤٤ . وروى الصدوق في الخصال (باب السبعة : ١ / ١٢٩) مايقرب من الشطر الثاني من هذا الحديث بتقديم وتأخير واختلافات في اللفظ عن الصادق (ع) .

٢) احياء علوم الدين ١ / ٦٢ . قوت القلوب ١ / ١٤٤ .

٣) راجع اللئالي المصنوعة :كتاب العلم ١ / ٢١٩ ، وجاء بلفظ يقرب منه في الكافي: كتاب فضل العلم ، باب المستأكل بعلمه ١ / ٤٦ .

فاذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسلَ . فاحذروهم واعتزلوهم » .

وقال رسول الله ﷺ[١] : « شرار العلماء الذين يأتون الأُمراءَ ، وخيارُ الأُمراءِ الذين يأتون العلماء » .

وقال أبوذر لسلمة [٢] : « ياسلمة ـ لاتغش أبواب السلاطين ، فإنّك لاتصيب من دنياهم شيئاً إلاّ وأصابوا من دينك أفضل منه » .

وهذه فتنة عظيمة للعلماء ، وذريعة صعْبة للشيطان عليهم ، لاسيّما من له لهجةٌ مقبولة وكلامٌ حلوٌ، إذ لايزال الشيطان يلقي إليه أنّ في وعظك لهم ودخولك عليهم مايزُجرهم عن الظلم ويُقيم شعائرَ الشرع.إلى أن يخيّل إليه أنّ الدخول عليهم من الدين .

* * *

ومن علامات علماء الآخرة [٢] أن لايكون أحدُهم متسرّعاً إلى الفتوى ، بل يكون متوقّفاً محترزاً ماوَجَد إلى الخلاص سبيلاً ، فإنْ سُئل عمّا يعلمه تحقيقاً بنصّ كتاب ، أو بنصّ حديث ، أو إجماع ، أو دليل قاطع ، أجاب . وإن سئل عمّا شكّ فيه ، قال : « لاأدري » . وإن سئل عما يظنّه باجتهاد وتخمين احتاط ، ودفَع عن نفسه ، وأحالَ على غيره ـ إن كان في غيره غُنية ـ هذا هوالحزْم ، لأنّ تقلّد خطر الاجتهاد عظيم . وفي الخبر[٣] : «العلْم ثلاثة : كتاب ناطق، وسُنّة قائمة ، ولاأدري».

وقال الشعبي : «لاأدري نصف[العلْم] . ومن سكَت حين لايدري [لله تعالى] فليس أقلّ أجراً ممن نطَق ، لأنّ الاعتراف بالجهل (بالنقص ـ ن) أشدّ على النفس »

وهكذا كانت الصحابة.قال عبدالرحمن بن أبي ليلىٰ : « أدركتُ في هذا

---

١) إحياء علوم الدين ١ /٦٨ .

٢) إحياء علوم الدين ١ /٦٩ .

٣) قال العراقي ذيل الإحياء ١ /٦٩: أخرجه الخطيب في أسماء مَن روى عن مالك.

المسجد مأة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، مامنهم من أحد يُسئل إلّا ودّ أنّ أخاه كفاه ذلك » . وفي لفظ آخر : « كانت المسئلة تُعرض على أحدهم ، فيردّها إلى الآخر حتى يعود إلى الأوّل » .

كان ابن عمر إذا سُئل عن الفتوى قال : « اذهب إلى الأمير الذي تقلّد أمور الناس » وكان يقول : « تريدون أن تجعلونا جسراً تعبرون علينا إلى جهنّم » .

وقال ابن مسعود [١] : « إنّ الذي يُفتي الناس [في كل مايستفتونه] لمجنون » وقال : « جُنّة العالِم : لاأدري » .

وقال إبراهيم بن أدهم [١] : « ليس شيءٌ أشدّ على الشيطان من عالِم يتكلّم بعلْم ويسكت [بعلم] ، يقول : انظروا إلى هذا ، سكوتُه أشدّ علي من كلامه » .

ووَصف بعضهم « الأبدال » فقال [١] : « أكلُهم فاقةٌ ، وكلامُهم [ضرورةٌ] » .

ومرّ أميرالمؤمنين عليه السلام وعبدالله بن مسعود برَجلٍ يتكلّم على الناس ، فقال[٢]: « هذا يقول : اعرفوني » .

وقال بعضهم : « إذا كثُر العلم قلّ الكلام » .

* * *

ومن علاماتهم [٣] أن يكون أكثر اهتمامهم بعلْـم الباطن ومراقبة القلب ، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه ، والرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة ، والجلوس مع الله مَع حضور القلب بصافي الفكرة ، والانقطاع إلى الله عمّا سواه . فذلك مفتاح الإلهام ، ومنبع الكشف ، فكم من متعلّم طال بعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة ، وكم من مقتصر على

١) قوت القلوب ١ /١٥٤ .

٢) قوت القلوب ١ /١٥٥ .

٣) إحياء علوم الدين ١ /٧١ .

المهمّ في التعلّم ومتوفّر على العمل ومراقبة القلب فتح الله عليه من لطائف الحكم مايحار فيه عقول ذوي الألباب .

ولذلك قال رسول الله ﷺ[١] : « مَن عمل بما علِم ورّثه الله علْم مالم يعلَم ».

وفي بعض الكتب : « يابني إسرائيل - لاتقولوا : العلْم في السماء مَن ينزل به ؟ ولا في تخوم الأرض ، من يصعد به ؟ ولامن وراء البحار ، من يعبر فيأتي به ؟ العلْم مجبولٌ في قلوبكم ، تأدّبوا بين يديّ بأدب الروحانيين ، وتخلّقوا إليّ بأخلاق الصدّيقين . أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطّيكم » .

فكم من معانٍ دقيقة من أسرارالقرآن تخطر على قلب المتجرّد للذكْر والفكْر تخلو عنها كتب التفاسير ، ولا يطلع عليها أذكياء المفسرين . وإذا انكشف ذلك للمراقب ويعرض على المفسّرين استحسنوه وعلموا إنّ ذلك من تنبيهات القلوب الزكيّة ، وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجّهة إليه . وكذلك في علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق علم النفس وخواطرها وهواجسها ، فإنّ كلّ علم من هذه العلوم بحرٌ لايدرك غورُه ، وإنّما يخوضه كلّ طالب بقدر مارزق، وبقدر ماوفّق بحسن العمل .

وروي في الإسرائيليات [٢] إنّ حكيماً من الحكماء صنّف ثلاثمأة وستين مصحَفاً في الحكمة ، حتى وُصِف بالحكيم ، فأوحى الله إلى نبيّهم : « قُل لفلان قد ملأتَ الأرض نفاقاً، ولم تردني شيئاً من ذلك . وإنّي لاأقبل من نفاقِك شيئاً» فنَدم الرجل وترك ذلك وخالط العامة في الأسواق ، وواكل بني اسرائيل وتواضع في نفسه ، فأوحى الله اليه : « قل له : الآن وافقت رضائي » .

* * *

١) قال العراقي : أخرجه أبو نعيم في الحلية (ذيل الإحياء ١/ ٧١) .

٢) إحياء علوم الدين ١/ ٧٦ .

ومنها[1] أن يكون أكثر بحثه في علم الأعمال عمّا يفسدها ، ويشوّش القلب، ويهيّج الوسواس ، ويثير الشرّ . فإنّ أصل الدين التوقّي من الشر . ولذلك قيل :

عرفتُ الشرّ لاللشر لكن لتوقّيه * ومن لايعرفُ الشرّ من الناسِ يقع فيه

ولأنّ الأعمال البدنيّة لاتتمّ إلاّ بالقصود والنيّات ، وإنّما الشأن في معرفة مايفسدها ويشوّشها ، وهذا مما تكثر شعبه ويطول تعريفه ، وكل ذلك مما يغلب مسّ الحاجة إليه[2] ، وتعمّ البلوى به في طريق سلوك الآخرة .

وأمّا علماء الدنيا فإنّهم يتّبعون غرائب التفريع في الأقضية والحكومات ، ويتعبون في وضع صور تنقضي الدهور ولاتقع ، وإن وقع ذلك فإنّما يقع لغيرهم ـ لالهم ـ فإذا وقع كان في العالِمين به كثرة ، ويتركون مايلازمهم ويتكرّر عليهم آناء الليل و[أطراف] النهار من خواطرهم ووساوِسهم وأعمالهم .

وما أبعد عن السعادة من باعَ مهمّ نفسه اللازم بمهمّ غيره النادر ايثاراً للقبول والقرب من الخلق على القرب من الله ، وحرصاً على أن يسمّيه البطّالون من أبناء الدنيا فاضلاً ، عالماً بالدقائق . وجزائه من الله أن لاينتفع في الدنيا بقبول الخلق ، بل يتكدّر عليه صفوه بنوائب الزمان ، ثمّ يرد القيامة مفلساً متحسّراً على مايشاهده من ربح العاملين ، ونور المقرّبين . وهذا هو الخسران المبين .

فهذه عدّة علامات جليّة يمكن تعريفها لكلّ من أراد ، ذكرها صاحب كتاب الإحياء . ولهم علاماتٌ أخرى باطنيّة لايعرفها إلا ذو بصيرة كشفيّة .

* * *

ومن علاماتهم أيضاً ماذكر صاحب كتاب إخوان الصفا بقوله :[3]

---

١) إحياء علوم الدين ١/ ٧٧ .

٢) الإحياء : مسيس الحاجة .

٣) إخوان الصفا : الرسالة السابعة من النفسانيّات العقليات ٣/ ٣١١ ، بفروق يسيرة لم نتعرض لها .

فمن إحدى علامات أوليـاء الله المنبعثين من موت الجهالة ورقدة الغفلة ، المستبصرين بعين اليقين ونور الهداية ، العارفين بحقائق الدنيا : إنّهم قوم تستوي عندهم الأماكن والأزمان ، وتغاير الأمور وتصاريف الأكوان . فقد صارت الأيّام كلّها [عندهم] عيداً واحداً وجمعة واحدة ، وصارت الأماكن كلّها [لهم] مسجداً واحداً ، والجهات كلّها قبلة ومحراباً واحداً ، و(١ صارت حركاتهم كلّهم عبادة لله ، وسكناتهم كلّهم طاعة ١) ، واستوى عندهم مدحُ المادحين وذمّ الذامّين ، لايأخذهم في الله لومة لائم ، قياماً لله بالقسط (٢شهداء وهم على صلوتهم دائمون ، وتحقّقوا بقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ٢) [٢/١١٥] .

وإنّما استوت عندهم الأماكن كلّها [وصارت] محراباً ومسجداً وقبلةً واحداً لتصديقهم قولَ الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ وصاروا شهداء لمشاهدتهم له وتصديقهم قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٥٨/٧] .

وإنّما استوت عندهم الأيام كلّها فصارت كلّها جمعة وعيداً لمشاهدتهم يومَ القيامة الذي هو من أوّل البعث لمحمّد ﷺ إلى تمام ألف سَنة ،كما قال ﷺ(٣) : « بُعثتُ أنا والساعةَ كهاتين » .

وإنّما استوتْ عندهـم تصاريفُ الأحوال وتغاير الأمور لتصديقهم قولَ الله [تعالى] ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ

١-١) المصدر : وصارت حركاتهم كلها عبادة لله وسكوناتهم طاعة له .

٢-٢) المصـدر : « شهداء لله بالحق ، وهم على صلواتهم دائمون » . والآيـة غير موجودة فيه .

٣) الجامع الصغير ١/١٢٦ .

أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيٰكُم﴾[٥٧/٢٢-٢٣] وصار دعائهم مستجاباً لأنّهم لايسئلون إلّا مايكون، ولايكون إلّا ماقد كان[١] في سابق العلم . فقلوبهم في راحة من التعلّق بالأسباب ، وأبدانهم فارغة من التكلّف فيما لايعني، ونفوسهم ساكنة عن الوسواس، وأبدانهم في راحة[٢] من أنفسهم ، والناس منهم في راحة وأمان، لايريدون لأحد سوء ، ولايضمرون لأحد شرّاً ـ عدّواً كان أو صديقاً ـ كما قال علي عليه السلام[٣] : «والله مادنياكم عندي إلّا كعفطة عنز» .

---

١) المصدر : إلا ما قدر في سابق العلم .

٢) المصدر : وهم في راحة .

٣) الحديث غير موجود في المصدر المطبوع . وفي الخطبة الثالثة من نهج البلاغة : ولالفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز .

قوله جلّ اسمه :

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

عطفٌ على ماقبله ، وقوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ أمرٌ بترك الكفر والضلال . وقوله : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ إشارة إلى الأوّل ، لأنّه تشويش الدلائل على الحقّ . وقوله : ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ إشارة إلى الثاني ، لأنّه منع للوصول إلى الدلائل .

و « اللّبْس » : الخلْط .

و«الباء» التي في "الباطل" إما للاستعانة كقولك « كتبتُ بالقلم » وكان المعنى : « ولاتلبسوا الحقَّ بسبب إبداء الشبهات على السامعين» وإما للصلة كقولك : «لبّست كذا بكذا » وكان المعنى : « ولاتجعلوا الحقَّ ملتبساً عليهم بسبب الباطل الذي تكتبونه في خلاله ، أوتذكرونه في تأويله » . أو « لاتكتبوا في التورية ماليس منها ، حتى لايتميّز فيختلط الحقُّ المنزّل بالباطل الذي تخترعونه او تكتبونه » .

وقوله : ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ جزمٌ داخل تحت حكم النهي ، كأنّهم أُمروا بالايمان وترك الضلال، ونهوا عن الإضلال بالتلبيس على من سمع الحقّ ، والإخفاء على مَن لم يسمعه . أو منصوبٌ باضمار « أن » و « الواو » بمعنى الجمع ، أي :

« لاتجمعوا بين لبْس الحقّ بالباطل وكتمان الحق » كقولك : « لاتأكل السمك وتشرب اللبن » ويؤيّده إنّه في قراءة ابن مسعود : « وتكتمون » بمعنى « كاتمين » ، فإنّه إشعارٌ بأن استقباح اللَبس لما يصحبه من كتمان الحقّ ، ولاشكّ في أنّ كلّاً منهما ممّا يمكن وقوعُه وحداناً ، وإنّ الجمع بينهما أقبح ، وهم يفعلونهما جميعاً .

وذلك لأنّ النصوص الواردة في التورية والإنجيل في شأن محمّد ﷺ بعضها بحيث يمكن إخفاء دلالتها - إذ فيها نوع خفاء ، فكانوا يكتمونها - وبعضها في الجلاء والظهور بحيث لايخفى على العقول السليمة وجه دلالتها ، إذا لم يشوّشها شبهةُ مضلّ وتلبيس ملبّس مجادِل ، فكانوا يشوّشون وجهَ الدلالة على المتأمّلين الناظرين بسبب إبداء الشبهات والمجادلات . فهذا هو المراد بقوله : ﴿ وَتَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ وهو المذكور أيضاً في قوله : ﴿ وَجَادِلُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [٤٠/٥] .

وقوله : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ إشارة إلى القسم الأوّل . وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وقع حالاً . أي : عالِمين بأنّكم لابِسون ، كاتمون . فإنّه أقبح ، إذ الجاهل ربما يتصوّر له عذر . والتقييد به لايدلّ على جوازهما حال عدم العلْم . بل على أنّ الإقدام على الفعل الضارّ مع العلم بكونه ضاراً أفحش من الإقدام عليه عند الجهل بكونه ضارّاً . فلمّا كانوا عالِمين بما في التلبيس من المفاسِد ، كان إقدامهم عليه [أقبح] .

وبالجملة - الخطاب متوجّه إلى رؤساء أهل الكتاب ، وهم يجحَدون مايعلمون وجَحْد المعانِد أعظم من جحْد الجاهل .

وقيل معناه : « وأنتم تعلمون البعث والجزاء » . وقيل معناه : « وأنتم تعلمون ماأنزل وسينزل ممّن كذب على الله تعالى » . وقيل معناه : « وأنتم تعلمون مانزل

بني اسرائيل من المسخ وغيره» .

والآية دالّة على أنّ العالِم بالحقّ يجب عليه إظهاره ويحرم عليه كتمانه .

* * *

فإن قيل : كيف يجوز أن يكون هؤلاء عارفين بنبوّة محمّد ﷺ ، وذلك مبنيّ على معرفة الله تعالى ؟ وعندكم إنّ من عرف الله لايجوز أن يَكفُر . وهؤلاء صاروا كفّاراً وماتوا على كفْرهم ؟

قلتُ : للعلْم مراتب : الظنّ ، واليقين ، والمشاهدةَ . والعلْم الذي هو منشأ السعادة الأخرويّة والخلاص من العقاب الدائم هو اليقيـن الحاصل من البرهان الضروريّ الدائم ، وهوبذر المشاهدة الباطنيّة الدائمة ، وأماالظنّ فلايغنى من الحق شيئاً . ولكن يكفي لصحّة العمل ، وابلاغ الحجّة . فلايمتنع أن يكونوا عارفين بالله [و]بالتورية وبصفات النبي ﷺ على وجْه لايستحقّ به الثواب ، لأنّ الثواب مترتّب على العلْم إذا عمل بمقتضاه .

وعند بعض أصحابنا ـ القائلين بالموافاة ـ إنّ استحقاقهم الثواب على ايمانهم مشروطٌ بالموافاة ، فإذا لم يوافوا بالايمان لم يستحقّوا الثواب . فعلى هذا يجوزأن يكونوا عارفين ، وأن يكونوا مستحقّين للثواب ، لإبطالهم ذلك بالكفر . والمعتمَد هو الأول .

فصلٌ

[في ترهيب علماء السوء]

قال الإمام الرازي في التفسير الكبير[1] : «هذا الخطاب ـ وإن ورَدَ فيهم ـ فهوتنبيهٌ لسائرالخلق ، وتحذير من مثله ، فصارالخطاب ـ وإن كان خاصّاً فيالصورة

١) تفسيرالفخرالرازي : ١/ ٢٩٢ .

فإنّه عامّ في المعنى » ـ انتهى قوله .

واعلم إنّ أكثر من يوجد فيه تلبيس الحقّ بالباطل أوكتمانه من العلماء هم الفقهاء ، الذين غلبت على أنفسهم الأهواء ، كحبّ الجاه ، والتقرّب من الملوك والسلاطين ، وطلب المال . فإنّهم لما غلبت عليهم الأهواء وطلب المراتب عند الملوك تركوا المحجّة البيضاء ، وجنحوا إلى التأويلات البعيدة ، ليمشوا بها أغراضَ الملوك وأعراضَهم فيمالهم فيه هوى نفْس ، ليستندوا في ذلك إلى أمر شرعي مع كون الفقيه ربما لايعتقد ذلك ويفتي به .

وذكر الشيخ العارف المحقّق محيي الدين الأعرابي في الفتوحات : « إنّا رأينا جماعةً من الفقهاء والقُضاة على هذا الشأن » .

وقال : « لقد أخبرني الملِك ظاهر بن الملِك صلاح الدين ـ وقد وقَع بيني وبينه كلامٌ في مثل هذا ـ فنادى بمملوك وقال : جئني بالجرمدان [1] .

فقلت : ماشأن الجرمدان ؟ فقال : أنت تنكر علي مايجري في بلدي ومملكتي من المنكَرات والظُلم . وأنا ـ والله ـ أعتقد مثل ماتعتقد أنت فيه من ذلك . فعليهم لعنة الله . ولقد أفتاني فقيه هو فلانٌ ـ وعيّن لي أفضل فقيه عنده في بلده في الدين والتقشّف ـ بأنّه لايجب عليّ صومُ شهر رمضان هذا بعينه . بل الواجب عليّ شهرٌ في السَنة . والإختيار لي فيه أيّ شهر شئتُ من الشهور ـ قال السلطان : ـ فلعَنتُه في باطني ولم أظهَر له ذلك ، وهو فلان ـ وسمّاه لي رحِم الله جميعَهم .

وليُعلم إنّالشيطان قد مكّنه الله منحضرة الخيال وجعَل له السلطان فيها . فإذا رأيت الفقيه يميل إلىهوى تعرف انّه تردّي عندالله زيّنالله له سوءَ عمله بتأويل غريب يمهّد له فيه وجهاً ، فحسنه في نظره ، فإذا مهّدله هـذا السبيل جنح إلى نيل هواه

---

١) لم أجد اللفظ فيما عندي من كتباللغة . والظاهر إنه معرب منالفارسية وأصله « جامه دان » او « جرمدان » .

وشهوته بوجه شرعي في زعمه، فلايزال هكذا فعله » إنتهى كلامُه .

واعلم إنّ علماء العلوم الحقيقيّة آمنين سالِمين من هذه الأمراض والفِتن ، فإنّ علومهم وحالاتهم مختفيةٌ عن العوامّ والحكّام ، وإنّما يعرض هذه الأمراض والفِتن - أكثر مايعرض - للوعّاظ والفقهاء الذي اقتصروا على علْم الفتاوى والحكومات والمعاملات الدنيويّة الجارية بين الخلْق لمصالح المعايش ، وخصّصوا علْم الفقه بها وسمّوه علم المذهب وعلم الدين ، فربما ضيّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقّدوا الجوارح ، ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ، والبطن عن الحرام ، والرِجْل عن المشي إلى السلطان ، وكذا سائرالجوارح . ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبْر والحسد والرياء وسائر المليكات المهلكات .

قال الغزالي في كتاب الإحياء مُشيراً إليهم : « هؤلاء هم المغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل والآخر من حيث العلْم .

أمّا من حيث العمل : فمثَلهم كمثَل المريض ، إذا تعلّم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه - لا - بل مثَلهم كمثَل من به علّة البواسير أو البرسام ، وهو مشرفٌ على الهلاك محتاجٌ إلى تعلّم الدواء واستعماله ، واشتغل بتعلّم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً ، مع علْمه بأنّه رجُل لايحيض ولايستحيض، ولكن يقول : ربما يقع علّة الاستحاضة بإمرأة تسألني عنها . فذلك غاية الغرور .

فكذلك المتفقّه المسكين قد تسلّط عليه حبّ الدنيا واتّباع الشهوات ، والحسد والكبروالرياء - وسائرالمهلكات الباطنة، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي، ويلقى الله وهو عليه غضبان ، فترَك ذلك كلّه واشتغل بعلم السلم والإجارة ، والظِهار ، واللِعان ، والجراحات ، والديات ، والدعاوى والبيّنات ، وبكتاب الحيض . ولايحتاج إلى شيء من ذلك في عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيرُه كان للمفتين كثرةٌ .

فيشتغل بذلك ويحرصُ عليه لما فيه الجاه والرياسة . وقد دعاه الشيطان ولايشعر،

إذ المغرور يظنّ إنّه مشغول بفرض دينه ، وليس يدري إنّ الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ عن فرض العين معصية .

هذا لو كانت نيّته صحيحة كما قال ، وقد قصد بالتفقّه وجه الله ، وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظنّ إنّه علم الدين ، وترَك علم كتاب الله وسنّة رسوله وترَك أيضاً علم تهذيب [الأخلاق] وترَك الفِقه عن الله بادراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ، ويحمل على التقوى .

فتراه آمِناً من الله ، مغترّاً به ، متّكلاً على أنه لابدّ أن يرحمه ، فإنّه قوّمَ دينَه ، وإنّه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطّل الحلال والحرام ، فقد ترَك العلوم التي هي أهمّ ، وهو غافلٌ مغرور ، وسبب غروره ماسمع في الشرع من تعظيم الفِقه ، ولم يدر انّ ذلك الفقّه هو الفقه عن الله ، ومعرفة صفاته المخوّفة والمرجوّة ، ليستشعر القلب بلازم التقوى ، إذ قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم ﴾ [٩/١٢٢] .

والذي يحصل به الإنذار غيرهذا العلم ، فإنّ مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات . والمال في طريق الله آلة ، والبدن مَركب . وإنّما العلْم المهمّ هومعرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة . فهي الحجاب بين الله وبين العبد ، فإذا مات ملوّثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله .

فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصرمن سلوك طريق الآخرة على علم حرز الراوية والخفّ . ولاشك في أنّه لو لم يكن لتعطّل الحجّ ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحجّ في شيء .

ومن هؤلاء مَن اقتصر من علم الفقه على الخلافيّات ، ولم يهمّه إلاّ طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحقّ لاجل الغلبة والمباهاة ، [فهو] طول الليل

والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب ، والتفقّد لعيوب الأقران والتلقّف لأنواع الشبهات المؤذية للقلوب .

وهؤلاء هم سباع الإنس ، وطبعهم الايذاء ، وهمّهم السفَه ، ولايقصدون العلم إلّاللمباهاة . فكلّ علم لايحتاجون إليه في المباهاة ـ كعلم القلب ، وهوعلم سلوك الطريق إلى الله بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة ـ فإنّهم يستحقرونه ويسمّونه التزويق وكلام الوعّاظ .

وأمّا التحقيق فهو عندهم معرفة تفاصيل العربَدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل .

قوله عزّاسمه :

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

لمّا أمَرهم أوّلاً بما يتعلّق بالعلوم الدينية كالايمان بالمعارف الإلهيّة المنزّلة على النبي ﷺ في القرآن ، ثمّ نهاهم ثانياً عن الكفر بها طلباً للعاجل وعن المغالطة وتلبيس الحقّ بالباطل ، وكتمان دلائل النبوّة ، فكلّفهم بعد ذلك بالتزام الأعمال الشرعيّة ، وذكر من جملتها ماهو كالدعائم والأصول فيها ـ وهو الصلوة التي هي أعظم العبادات البدنيّة والزكوة التي هي أعظم العبادات الماليّة ـ أعني صلوة المسلمين وزكوتهم ، وانّ غيرهما كَلا صلوة ولا زكوة ، وبالجملة أمَرهم بفروع الإسلام العمليّة كما أمَرهم باصوله العلميّة .

وفيه دليلٌ على انّ الكفّارمأمورون بالفروع وإن لم يصحّ منهم إلاّ بعدالايمان .

[الصلـوة]

واعلم إنّ لفظ الصلوة من الأسماء الشرعيّة ، ولاشبهة في أنّها عربيّة ، فلايجوز أن يكون الشرع ارتجلها ابتداء من غير نقْل ، وإلاّفلم يصح قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [٢/١٢] فلابدّ أن يكون له في اللغة معنى آخر . فاختلفوا في أصله :

فقيل : الدُعاء . قال الاعشى [1] .

عليك مثلُ الذي صلَّيت فاغتمضي * نوماً فإنّ لجنب المرء مضطجعاً

أي : دعوت . وقيل : اللزوم . قال الشاعر [2] :

لم أكُن من جناتها ـ عَلِم * اللهُ ـ وإنّي بحرّها اليوم صالِ

أي : ملازم بحرّها . فكان معنى الصلوه ملازمة العبادة على الحدّ الذي أمَر اللهُ به .

وقيل : أصلها من « الصَلا » وهي : عظم العَجُز . لرفعه في الركوع والسجود .

وقيل : مأخوذة من « المُصَلّي » وهو الفرس الذي يتبع غيره .

وعلى القول الأول أكثر العلماء ، إذ لاصلوة إلاّ ويقع فيها الدعاء أو مايجرى مجراه . وربما تخلو صلوة عن متابعة الغير ، وإذا عمّ وجه الشبه في كلّ الصور كان أولى ممّا يختصّ ببعضها . وأيضاً اطلاق إسم الجزء على الكلّ أمرٌ شائع مشهور ، فالحمل عليه أولى .

قال بعض الصوفية [3] : اشتقاق الصلوة قيل من «الصَلى» . وهي النار . والخشبة المعوجة إذا أرادوا تقويمها تُعرض على النار ثمّ تقوّم . وفي العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمّارة بالسوء ، وسبَحات وجه الله الكريم التي لو كشف حجابها لأحرقت مَن أدركته ، يصيب بها المصلّي من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربّانيّة ما يزول اعوجاجه ، بل يتحقّق به معراجُه . فالمصلّي كالمصطلي بالنار . ومن اصطلى بنار الله وزال بها اعوجاجُه لايُعرض على نار جهنم . آة القسم .

---

١) جاء في تفسير الفخر الرازى « فاغتمضى » بد ...مضى» و« عيناً » بدل « نوماً » وقبله كما في مجمع البيان :

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا : * يارب جنّب أبي الأوصاب والوجعا

٢) هو الحارث بن عباد البكرى . ٣) عوارف المعارف : ١٥٩.

وروى أبوجعفر محمّد بن يعقوب الكليني ـ ره ـ في الكافي ، والصدوق في كتاب من لايحضره الفقيه [١] : إنّه قال رسول الله ﷺ : « مامن صلوةٍ يحضروقتها إلّانادىٰ ملَك بين يدَي الناس : أيُّها الناس ـ قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتُموها على ظهوركم ، فاطفؤها بصلوٰتكم » .

وقد ورَد : « إنّ الله اذا تجلّى لشيء خضَع له » ومن يتحقّق بالصلة في الصلوة تلمعُ له طوالعُ التجلّي فيخشع ، والفلاح للذين هم في صلوٰتهم خاشعون ، وبانتفاء الخشوع ينتفي الفلاح وشهِد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين .

وروى ابن عباس [٢] عن رسول الله ﷺ : « لمّا خلَق الله تعالى جنّة عدن ، وخلَق فيها مالاعينٌ رأت ولااذن سمعتْ ولاخطَر على قلبِ بشرٍ ، قال لها : تكلّمي . قالت : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ـ ثلاثاً » .

وعن رسول الله ﷺ [٣] : « إنّ العبدَ إذا قامَ إلى الصلوةِ فإنّه بينَ يدَي الرحمن ، فإذا التفتَ قال له الربّ : إلى مَن تلتفت ؟! إلى من هو خيرٌ لكَ منّي ؟ ابن آدم ـ أقبِل إليّ ، فأنا خير لك من أن يلتفت اليه » .

وأبصَر رسولُ الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلوة ، فقال له [٤] : « لوخشع قلبُ هذا خشعت جوارحُه » .

وقال بعضهم [٥] : « الصلوة في اللغة هي الدعاء . فكأنّ المصلّي يدعو الله بجميع جوارحِه ، فصارتْ أعضاؤه كلّها ألسِنة ، يدعو بها ظاهراً وباطناً ، وتشارك الظاهرُ والباطنَ بالتضرّع والتقلّب في الهيئات والتملّقات ، تملّق متضرّع سائل محتاج . فإذا

---

١) جاء الحديث في الفقيه (باب فضل الصلاة : ١/٢٠٨) وما وجدته في الكافي .

٢) راجع الدرالمنثور : ٥/٢ . ولم يرد فيه لفظة : « ثلاثاً » .

٣) راجع كنزالعمال : ٥٠٣/٧ الحديثين رقم : ١٩٩٧٤ و١٩٩٧٩ .

٤) الجعفريات : ٣٦ . ٥) عوارف المعارف : ١٦٠ و ١٥٩

دعا بكلّيته أجابه مولاه ، لأنّه وعد فقال : ﴿ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٤٠/٦٠] أمَرهم بالدعاء ، ووعَدهم بالإجابة ، وليس بينهما شرطٌ».

«والاستجابة والإجابة هو نفوذ دعاء العبد . وإنّ الداعي الصادق ، العالِم بمن يدعوه بنور يقينه تخرق دعوتُه الحجُب ، وتقف الدعوة بين يدي الله متقاضية للحاجة».

«وإذا كانت الصلوة للذكر فكيف يسَع فيه النسيان ، قال الله تعالى : ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [٤/٤٣] فمَن قال،ولا يعلم كيف يصلّي ــ وقد نهاه الله عن ذلك ــ فالسّكران يقول الشيء لابحضور عقل ، وكذلك الغافلُ الذي يصلّي لابحضور القلب فهو كالسّكران».

«وقيل في غرائب التفسير في قوله تعالى لموسى ﷺ ﴿ ٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [٢٠/١٢] أي : « همّك بامرأتك وغنمك » . فالإهتمام بغير الله سُكرٌ في الصلوة».

«وقيل : إنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرفعون أبصارهم يميناً وشمالا . فلمّا نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَوٰتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [٢٣/٢] جعلوا وجوهَهم حيث يسجُدون . وما رُئي بعد ذلك أحدٌ منهم ينظر إلّا إلى الأرض».

وخصّ الله هذه الأمّة بإنزال فاتحة الكتاب ، وفيها تقديم الثناء على الدعاء ليكون أسرع إلى الإجابة ، وهي تعليم الله عبادَه كيفيّة الدعاء . وفاتحة الكتاب هي السبع المثاني والقرآن العظيم .

وقيل : سمّيت مثاني لأنّها نزّلت على رسول الله ﷺ مرّتين . مرّة بمكّة ، ومرّة بالمدينة . وكان له ﷺ بكلّ مرّة نزلت منها فهمٌ آخر . بل كان له بكلّ مرّة قرأها ــ على الترداد مع طول الزمان ــ فهمٌ آخر. وهكذا أهل التحقيق من المصلّين من أمّته ، ينكشف لهم عجائب أسرارها ولوامع أنوارها ، ويقذف لهم كلّ مرّة دُرر بحارها .

وعن رسول الله ﷺ ، إنّه قال [١] : « إذا قام أحدُكم إلى الصلوة فليسكن أطرافه ولايتميّل تميّل اليهود ، فإنّ سكونَ الأطراف من تمام الصلوة » .

وقال رسول الله ﷺ[٢]: تعوّذوا بالله من خشوع النفاق . وقيل: وماخشوع النفاق ؟ قال : خشوع البدن ونفاق القلب .

* * *

واليهود يتميّلون في الصلوة . قال بعض الصوفية[٣]: سببه إنّه كان موسى عليه السلام يعامل بني اسرائيل على ظاهر الأمور ، لقلّة مافي باطنهم من نور المعرفة ، وكان يُهيّب الأمور في أعينهم ويعظّمها ، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى أن يُحلّى التورية بالذهب .

ووقع لي - والله أعلم - إنّ موسى عليه السلام كان يرد عليه الوارد في صلوته ومحالّ مناجاته ، فيتموّج به باطنُه كبحرٍ ساكنٍ يهبُ عليه ، فتتلاطم الأمواج ، فكان تمايل موسى عليه السلام لتلاطم أمواج بحر القلب إذا هبّت عليه نسيمات الفضل . وربما كانت الروح يتطلّع إلى الحضرة الإلهيّة ، فيهمّ بالاستعلاء ، وللقالب (القلب (مصور)) بها تشبّه وامتزاج ، فيضطرب القالب ويتمايل ، فيرى (اليهود) ظاهره ، فتمايلوا من غير حظّ لبواطنهم من ذلك .

ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ - إنكاراً على أهل الوسوسة : هكذا خرجت عظمته من قلوب بني إسرائيل ، حتى شهدت أبدانهم ، وغابت قلوبهم . لايقبل الله صلوة امرء لايشهد فيها قلبُه كما يشهد به بدنُه . وإنّ الرجل على صلوته دائم لايكتب له عُشرها إذاكان قلبُه ساهياً لاهياً.

---

١) الجامع الصغير : ١/٣٣ .

٢) كنز العمال : ٧/٥٢٦ . ٣) عوارف المعارف : ١٦٠

تنبيه

[فضل الصلوة]

واعلم إنّ الله تعالى أوجب الصلوة الخَمس وقد قال ﷺ [١] « الصلوةُ عِمادُ الدينِ » و [٢] « مَن ترَكَ الصلوةَ فقد كفَر » . وعنه ﷺ في طريق أهل البيت ﷺ[٣]: « ماتقرّب العبدَ إلى الله تعالى بشيءٍ بعد المعرفةِ أفضَل مِن الصلوةِ » فبالصلوة تحقيق العبوديّة وأداء حقّ الربوبيّة وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سرّ الصلوة .

قال سهل بن عبدالله التستري[*]: يحتاج العبد إلى السُنن الرواتب لتكميل الفرائض ، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السُنن ، ويحتاج إلى الآداب لتكميل النوافل ومن الأدب ترك الدنيا .

وقد ورَد في الأخبار[٤] : إنّ العبدَ إذا قام إلى الصلوة رفع الله تعالى الحجابَ بينه وبينه ، وواجَهه بوجهِه الكريم ، وقامَت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلّون بصلوته ويؤمّنون على دعائه ، وإنّ المصلّي لينثر عليه البرّ من أعنان السماء إلى مفرق رأسه ، ويناديه منادٍ : لوعلِم المصلّي مَن يناجي لَما التفت ـ أومَاانفتل » .

وقريب من هذا مارواه أبوجعفر محمد بن يعقوب الكليني [٥] ، عن محمد ابن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام ، إنّه قال : « للمصلّي ثلاث خصال : إذا هو قام في

---

١) الجامع الصغير : ٥١/٢ .

٢) الجامع الصغير : ١٦٨/٢ .

٣) الفقيه : باب فضل الصلوة ٢١٠/١ . *) عوارف المعارف : ١٦٠

٤) جاء مايقرب من الشطر الاول في كنزالعمال : ٢٩٨/٧ والشطر الثانى : ٢٨٦/٧ والشطر الثالث : ٢٨٩/٧ . وجاء في عوارف المعارف (١٦٠) لينتثر بدل لينثر ويمكن قراءة نسخة المصنف أيضاً كذلك.

٥) ماوجدت الحديث في الكافي ، وهو في الفقيه : باب فضل الصلوة ، ٢١٠/١ . وجاء مايقرب منه في الكافي عن الصادق (ع) : ٢٦٥/٣ .

صلوته حفّت به الملائكة من قدَمِه إلى أعنان السماء ، وتناثر البرّ عليه من أعنان السماء إلى مفرق رأسه ، وملك موكل به ينادي : لويعلم المصلّي مَن يناجي ماانفتل»

وقيل : قد جمَع الله تعالى للمصلّين في كلّ ركعة مافرّق على أهل السموات فلله ملائكة في الركوع مذ خلَقهم الله لايرفعون رءوسهم من الركوع إلى يوم القيامة وهكذا في السجود والقيام والقعود . والعبد المتيقّظ يتّصف في ركوعه بصفة الراكعين منهم . وفي السجود بصفة الساجدين منهم . وفي كلّ هيئة هكذا . ويصير كالواحد منهم وبينهم .

وقيل[1] : في الصلوة أربع هيئات ، وستّة أذكار . فالهيئات : القيام والقعود والركوع والسجود . والأذكار : هي التلاوة والتسبيح والحمد والاستغفار والدعاء والصلوة على النبيّ وآله . فصارت عشرة كاملة ، يتفرّق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة ، كلّ صفّ عشرة آلاف ، فيجتمع له في الركعتين مايتفرّق على مأة ألف من الملائكة .

* * *

وفي طريق أصحابنا الإمامية ـ رضوان الله عليهم ـ أحاديث كثيرةٌ في فضل الصلوة وأسرارها ، نقلَها جميعاً يؤدّي إلى التطويل :

منها إنّه قال النبي ﷺ [2] : « مثَل الصلوةِ مثَل [عَمود] الفُسطاط ، إذا ثبتَ العمود ثبتَت الأطناب والأوتاد والغِشاء ، وإذا انكسَر العمود لم ينفع طُنبٌ ولا وتَد ولاغشاء » . الغشاء (اصل)

وقال ﷺ [2] : « إنّما مثَل الصلوة فيكم كمثل السَرِيّ ـ وهو النهر ـ على باب أحدكم ، يَخرج إليه في اليوم والليلة ، ويغتسل منه خمس مرّات » .

وقال الصادق عليه السلام [2] : « مَن قبِل الله منه صلوة واحدةً لم يعذبه » .

---

١) راجع قوت القلوب : ٢/١٠٠ . والفقرات مأخوذة من عوارف المعارف : ١٦٠
٢) الفقيه : باب فضل الصلوة ، ١/٢١١ .

أقولُ : وذلك لأنّ الصلوة مشتملة على معرفة الله وصفاته وتوحيده واليوم الآخر ، وكلّ من أدّاها بشروطها عارفاً بأصولها وأركانها ، فهو من أهل القُرب والولاية ، فكيف تمسّه النار ، وهو في بحبوحة القُرب .

وقال الصادق عليه السلام [1] : أقرب مايكون العبدُ إلى الله عزّوجل وهو ساجدُ قال الله تعالى ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ ﴾ [١٩/٩٦] .

وقال أبو جعفر عليه السلام [1] : مامن عبدٍ من شيعتنا يقومُ إلى الصلوة إلاّ اكتنفته بعد من خلفه [2] ملائكةٌ يصلّون خلفه ، ويدعون الله عزّوجل له حتّى يفرغ من صلوته .

فصلٌ

[في الزكوة]

وأمّا الزكوة فهي جاءت في اللغة [بمعنى النماء]. قال : «زَكَى الزرع» إذا نَمى . وبمعنى التطهير ، قال تعالى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ [٧٤/١٨] أي : طاهرة وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّىٰهَا ﴾ [٩/٩١] أي : طهّرها . وقال : ﴿ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ [١٨/٣٥] أي تطهّربطاعة الله . ولعلّ إخراج نصف دينار من عشرين ديناراً ـ مثلاً ـ سمّي في الشرع «زكوة» نظراً إلى هذين الوجهين .

فعلى الوجه الأوّل : يستجلب الزكوة بركة في المال ، وفضيلة في النفس ، فهي نماء في المعنى وإن كان نقصان في الصورة ، لأنّ في هذا الإعطاء يدفع الله البلاء عن المال ، ويزيد في قوّة النفس بترك الحرص في الحال طلباً للثواب في المآل .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله [3] : «عليكَ بالصدقة ، فإنّ فيها ستّ خصال ،

١) الفقيه : باب فضل الصلوة ، ١/ ٢٠٩ .

٢) الفقيه : بعدد من خالفه .

٣) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٤٩٣ .

ثلاث في الدنيا وثلاث في الاخرة . فأمّا التي في الدنيا فتزيد في الرزق ، وتكثر في المال ، وتعمر الديار . وأمّا التي في الآخرة فتستر العورة ، وتصير ظلّاً فوق الرأس ، وتكون ستراً من النار .

وعلى الوجه الثاني فتَطهّر المال من الوسَخ والخبَث ، وتُطهّر النفسَ من الرذيلة والبخل . قال تعالى لنبيّه : ﴿ خُذْ من أموالهم صدقةً تطهّرهم وتزكّيهم بها﴾ [٩/١٠٣] .

* * *

واعلم إنّ سرّ الزكوة وعلّة وجوبها تطهير النفْس عن محبّة المال ، وفي كلام سقراط الحكيم : « محبّة المال وتَد الشرّ» وقال ﷺ[١] «حبُّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» وقرء بعض الفضلاء هذا الحديث هكذا : « حبّ الدينارِ أسُّ كلّ خطيئة »[٢].

وأمّا مواساة الفقراء : فهي واقعةٌ بالعرض ولاتضيق قدرة الله عن أن يرزقهم من وجه آخر ، غير ايجاب الزكوة على الأغنياء .

وروى أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني [٣] ـ رحمه الله ـ عن أبي عبدالله عليه السلام إنّه قال : « مانعُ الزكوة يطوّق بحيّة قرعاء تأكل من دماغه » . وذلك قول الله عزوجل : ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَابَخِلُوا بِهِ يَومَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ [٣/١٨٠] .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام [٤] : قال : قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه : « ملعونٌ كلّ مال لايزكّى . ملعونٌ كلّ جسد لايزكّى » .

وبرواية أخرى عن الصادق عليه السلام [٥] : « ملعونٌ ملعونٌ مال لايزكّى » .

---

١) الجامع الصغير : ١/١٤٦ .
٢) بجعل الدنيا « ديناراً » والرأس « أسّاً » وهو تصحيف يخالف المروي (منه ـ ره)
٣) الكافي : باب منع الزكوة ، ٣/٥٠٥ و ٥٠٢ .
٤) قرب الاسناد : ٣٣ .
٥) الكافي : باب منع الزكوة ، ٣/٥٠٥ .

وروي محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام [1] إنّه قال : «مامن عبد منَع من زكوة مالِه شيئاً إلّاجعل الله ذلك يومَ القيامة ثعباناً من نارٍ مطوقاً في عُنقه ، ينهش من لحمِه حتّى يفرغ من الحساب ، وهو قول الله تعالى : ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَابَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [٣/ ١٨٠] .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله [2] إنّه قال : « مَنْ آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكوتَه مُثّل له يومَ القيامة شجاعاً أقرع . له زبيبتان يطوّقه ، ثمّ يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثمّ يقول : أنا مالُكَ . أنا كنزكَ . ـ ثمّ تلا ـ : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ـ الآية﴾ [٣/ ١٨٠] .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله [3] . « مامن صاحب ذهبٍ ولا فضّةٍ لايؤدّي منها حقّها إلّا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فاحمي عليها في نارِ جهنّم ، فتُكوي بها جنْبه وجَبينه وظهره كلّما ردّت[4] اعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فيرى سبيله ، إمّا إلى الجنّة ، أو إلى النار .

وقال صلى الله عليه وآله : ـ ولاصاحب إبل لايؤدّي منها حقّها إلّا إذا كان يوم القيامة بطِح لها بقاعٍ قرقر [5] أوفر ماكانت ، لايفقد منها فصيلاً واحداً ، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلّما مرّ عليه أوليها ردّ عليه أخريها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتّى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إمّا إلى الجنّة . وإمّا إلى النار .

ولاصاحب بقر ولاغنم لايؤدّي منها حقّها إلّا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع

---

١) الكافي : باب منع الزكوة، ٣/ ٥٠٤ .

٢) البخاري : باب اثم مانع الزكوة : ٢/ ١٣٢ .

٣) مسلم : كتاب الزكوة : ٧/ ٦٤ .

٤) مسلم : كلما بردت .

٥) بطح : ألقي على وجهه . القاع والقرقر : كلاهما بمعنى الأرض المستوية .

قَرقَر لايفقد منها شيئاً ، ليس فيها عَقصاء ولاجَلحاء ولاعَضباء (١) تنطحه بقُرونها ، وتطأه بأظلافها ،كلّما مرّعليه اوليها ردّ عليه أُخريها في يوم كان مقداره خمسين ألف سَنة ، حتى يُقضي بين العباد فيرى سبيله ، إمّا إلى الجنّة ، وإمّا إلى النار» .

وروي أيضاً عن رسول الله ﷺ (٢) : «مامن رجُل يكون له إبلٌ اوبقَر اوغنَم لايؤدّي حقّها إلاّأُتي بها يوم القيامة أعظم مايكون وأسمَنه ، تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها ،كلّما جازت أخريها ، ردّت عليه أُوليها ، حتّى يُقضى بين الناس» .

* * *

واعلم إنّ هذه التمثيلات المشاهَدة يوم القيامة ،كما ورَد في هذه الأحاديث ـ كلّها حقٌ وصدق يجب الايمان بها، ولكنّي أراك ـ ياحبيبي ـ عاجزاً عن فهمها وسرّ حقائقها وروح معانيها ، لأنّكَ ونُظرائك عاكِفون على أصنام الأجسام الدنياويّة ، لاتتجاوزونها في باب الاعتقاد .

ولونظَرتم إلى هذه الأجسام الدنياوية المشاهَدة لهذه الحواس أيضاً لعلِمتم إنّ أصلَها نشأت من المعاني والجهات العقليّة التي اقتضت وجودُها اقتضاء ذاتيّاً ، كعلوم الباري جلّ ذكره ، أوادراكات المبادي المقوّمة إيّاها ، فهذه الأجسام كأنّها معانٍ تجسّمت وتكوّنت وانحصرت في مضائق الأبعاد والأحياز ، وكأنّها أرواح تجسّدت ، وعقول تشكّلت ، إلاّانّ بعضها وجدت على سبيل الحركة والاستعداد بمشاركة انفعال من الموادّ ، وبعضها نشأت على سنّة الإبداع في الايجاد .

وأمّا الدار الآخرة ـ وهي دارالقرار ودار جلال الله وكبريائه ـ فالقدرة فيها

---

١) العَقصاء: ملتوية القرنين . الجَلحاء : التي لاقرن لها . العَضباء : التي انكسر قرنُها الداخل .

٢) البخاري :كتاب الزكوة : ١٤٨/٢ .

أوسع وأقوى ، فبأن يتكوّن به الأشكال والأمثال والأبعاد والاجرام من المعاني والاعتقادات والافكار والملكات كان أليق وأولى .

فليعلم إنّ هذا الثعبان المطوّق في عنق مانع الزكوة ، والحيّة القرعاء التي تأكل من دماغه ، والشجاع الأقرع المتمكّن من أن يأخذ بلهزمتيه - المتمثّل له يوم الآخرة - وكذا الإبل والبقر والغنم التي ستطأ يوم القيامة بأخفافها وتنطحه بقرونها ليست بأمورخارجة عنذات الميّت - أعني ذات روحه لاذات جسده فإنّ الروح هي التي تتألّم وتتنعّم - بل هي ممّا كانت معه قبل موته متمكّنة من صميم باطنه : لكنّه لم يكن يحسّ بلذعها وكيّها ووطئها ونطحها ، لخدر وسكر كانا فيه لغلبة الشهوات والشواغل المُلهية عن ذكر الآخرة ، المنسيّة للقاء عالَم المعاني والحقائق المتمثّلة بصوَرها الأصليّة .

فإنّ لكل معنى صورة أصليّة هي مثال ذاتها بالحقيقة،وصورَة مجازيّة لها تعلّق مّابتلك الصورة الأصليّة ، فهي مِثال المثال .

فالأشكال الأخرويّة هي مِثالات المعاني والحقائق ، والأجسام الدنيويّة هي أمثالٌ وضعيّة تمثّلت بتوسّط الحركات والانفعالات ، فهي كالنسخة الثانية لكتاب الحقائق ولهذا ممّايقع فيها الخطأ في الحكاية عنها لمن قلّتْ ممارستُه لقرائة الكتب، فيرى الظُلمة نوراً ، والظلّ حَروراً ، والهاوية قصوراً ، والمحنة سُروراً ، والعذاب راحة ، والنقمة نعمة ، والقبيح حسَناً ، والحسَن قبيحاً .

فجميع ملاذّ الدنيا ينقلب آلاماً في الآخرة ، وذلك ممايشاهده أهل البصيرة بعيون قلوبهم الصافية عن غشاوة الشكّ والامتراء ، فهم يشاهدون كيف تتمثّل هذه الهيئات النفسانيّة وتتجسّم يـوم القيامة ، ويقرءون كتابهم وكتاب غيرهم قبل نشر الكتب ، ويحاسِبون أنفسهم قبل أن يحاسَبوا .

فيعلمون إنّ جميع ماورَد في باب مانع الزكوة حقٌّ وصدق ، ويعلمون سرّ

قوله تعالى : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [٣٥/٩] وسرقوله ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ [١٠٧/١٦] وقوله : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ـ الآية ﴾ [٢٠/٤٦] .

ولو كانت هذه الأمور المؤلمة المعذّبة عند الموت خارجة عن ذات الميّت كما يظنّه الظاهريّون ـ لكانت أهون ، إذ ربما يتصوّر أن ينحرف عنه الثّعبان ، أو ينحرف هو عنه ، أويقع بينهما حاجزٌ ، لا ـ بل هومتمكّن من صميم فؤاده يلذعه لذعاً أعظم مما يفهمه من لذع هذه الثعابين ، وهو بعينه صفته التي كانت معه في الدنيا ـ أي محبّته للمال التي منشأ تألّمه بفقده في المال .

فصلٌ

قوله [تعالى] : وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ

أي : صلّوا مع المصلّين المسلمين . فإنّ صلوة الجماعة تفضل صلوة الفذّ بسبع وعشرين درجة .

وفي رواية أصحابنا (١) : « صلوة الرجل في جماعة تفضل صلوة الفرد بأربع وعشرين صلوة . فيكون خمساً وعشرين صلوة » لما فيها من تظاهر النفوس .

وعبّر عن الصلوة بالركوع تسميةً للكلّ بأشهر أجزائه . لأن الركوع أوّل مايشاهد من الأفعال التي يستدلّ بها على أنّ الإنسان يصلّي . فعلى هذا لاتكرار لفظاً ولامعنى . لأنّ في الأوّل أمر باقامتها ، وفي الثاني أمربفعلها مع الجماعة .

وقيل : كأنّه كرّر لفظ الصلوة تأكيداً . ويحتمل أيضاً أن يكون الأوّل إشارة

---

١) وسائل الشيعة : أبواب صلوة الجماعة ، الباب ١ : ٣٧٠/٥ .

إلى مطلق الصلوة ، أوالصلوة التي تعرفونها . والثاني إشارة إلى الشرعيّة . وقيل : خصّ اللهُ الركوعَ بالذكر ، لأنّ صلوة اليهود لاركوع فيها . ففيه تكليفٌ لهم بصلوة المسلمين . وقيل : المراد من الركوع : الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الشاعر [1] :

لاتذلّ الضعيف [2] علّك أنْ * تركعَ يوماً والدهرُ قد رفعَه

فكأنّه تعالى لمّا أمَرهم بالصلوة والزكوة ، أمَرهم بعد ذلك بالانقياد والخضوع وترك التمرّد . كما قال الله تعالى في مقام المدح : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ﴾ [٥/٥٤] وقد وقع هكذا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [٥/٥٥] .

---

١) هو أضبط بن قريع . راجع خزانة الأدب : ٤/٥٨٩ .

٢) كذا . والظاهر انه محرف والصحيح : «لاتهين الفقير» راجع تهذيب اللغة : ١/٣١٢ ومغني اللبيب : الباب الاول : عل ، ١/١٥٥ .

قوله جلّ اسمه :

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤)

الهمزة للتقرير مع التقريع والتعجيب .

البِرّ ـ في اللغة ـ والإحسان والصِلَة نظائرُ. يقال: فلان بارّ، وَصول، مُحسِن . وضد البرّ : العُقُوق . والبِرّ والبُرّ لغتان . وقولهم : « لايَعرف الهِرّ من البِرّ » قال الأخفش : « معناه لايعرف من يهرّ عليه ممن يبرّ عليه » . وقال المازني : « الهِرّ : السنّور . والبرّ : الفأرة او دويبة تشبهها » .

والبرّ اسم جامع لأعمال الخير، ومنه « برّالوالدين » و« عملٌ مَبرور » . وقد يكون بمعنى الصدق ،كما يقال: « برّفي يمينه » أي : صدَق ولم يحنث . وقيل: البرّ التوسّع في الخير ، من البرّ ـ وهو الفضاءُ الواسع ـ يتناول كلَّ خير . ولذلك قيل : « البرّ ثلاثة : بِرٌّ في عبادة الله ، وبِرٌّ في مراعات الأقارب ، وبِرٌّ في معاملة الأجانب » .

والنِسيان والسَهو والغَفلة متقاربة في المعنى ، والتفاوت بينهما بالشدّة والضعف كما انّ للذكْر مراتب متفاوتة : مابالفعل ، وما بالقوة القريبة ، أو البعيدة .

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ أي تقرمون التورية وتدرسونها ، وتعلمون مافيها من الحثّ على أفعال البرّ والإعراض عن أفعال الإثم . أوأنتم من أهل التلاوة والدراسة

والمذاكرة للكتب العلمية ولستم من العوام والجهّال ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قُبْحَ ماتفعلون ؟!

والعَقْـل والفهم والمعرفة واللبّ نظائر . وضد العقْل الحُمق .

والعقْل في الأصل : الحبْس والرّبط . والعِقال : الرباط . يقال : « عقَلْتُ البعيرَ أعقله عقْلاً » إذا شدّدت يدَه بالعِقال . فسمّي به الإدراك الإنساني ، لأنّه يحبسه عن فعل مايقبح ويعقِله عن فعل مايحسن ، ثـمّ تسمّى به القوّة التي بها النفس تدرك هذا الإدراك .

وقيل: العقلُ مجموع علوم لأجلها يمتنع الحيّ من كثير من المقبحات ، ويفعل كثيراً من الواجبات . وإنّما سمّي تلك العلوم « عقلا » لأنّها تعقل عن فعل القبيح ولايوصف القديم تعالى بأنّه عاقل، لأنّه لايعقله شيء عن فعل القبيح ، وإنّما لايختاره لغِنائه عنه وعلْمه بقُبحه ، ولعلمه بوجوه الحكمة والمصلحة المقتضية لفعل الخير علماً ذاتياً .

وقيل : العقل هو العلْم الذي يزجر عن قبيح الفعل ، ومن كان زاجره أقوى فهو أعقل . وقيل : العقل معرفة يفصل بها بين القبيح والحسن في الجملة . وقيل : هو التمييز الذي فارَق الإنسان سائر الحيوان ـ وهذه الأقوال متقاربة المعاني .

* * *

ولفظ « العقل » يُطلق في عُرف الحكماء على معاني أخرى : منها قوّة في النفس تسمّى عقلاً نظرياً ومنها قوّة أُخرى فيه تسمّى عقلاً عملياً ـ ولكل منها مراتب أربعة يطلق عليها اسم العقل ـ ومنها جوهر مفارق في الوجود والتأثير عن الأجسام ومايتعلّق بها ، وهو أشرف أقسام الممكنات ولاواسطة بينه وبين الباري جلّ ذكره .

فصلٌ

واختلفوا في أنّ المراد من ﴿البِرّ﴾ في هذه الآية ماذا ؟

فعن ابن عباس : إنّها نزلت في أحبار المدينة ،كانوا يأمرون الناس سرّاً ـ من تصحبوه ـ باتّباع محمّد ﷺ ولايتّبعون .

وعن السدي : كانوا يأمرون بطاعة الله وينهونهم عن معصيته ، وهم كانوا يتركون الطاعة ويقدمون على المعاصي .

وعن ابن جريح : إنّهم كانوا يأمرون الناس بالصلوة والزكــوة ، وهم يتركونهما .

وعن الزجّاج : كانوا يأمرون الناس ببذل الصدقة ، وكانوا يشحّون بها : لأنّ الله تعالى وصفهم بقساوة القلوب وأكل الربا والسُحْت .

وعن أبي مسلم : إنّ جماعة من اليهود كانوا قبل مبعث رسول الله ﷺ يخبرون مشركي العرب إنّ رسولا سيظهر منكم ويدعوكم إلى الحقّ ، وكانوا يرغّبونهم في اتّباعه ، فلمّا بعث الله محمّداً ﷺ حسدوه وكفروا به .

وفيه وجوه أخرى مذكورة في التفسير الكبير وغيره(١)، واقتصرنا عنها بما هو أولى وأقرب .

* * *

وفي قوله : ﴿ أَفَلَاتَعْقِلُونَ ﴾ توبيخ عظيمٌ أي :كأنّكم في عدم تفطّنكم لقبح ماأقدمتم عليه ـ وهو غير خافٍ على أوائل العقول وبداياتها ـ مسلوبوا العقول . وإلاّ فلاوجه لصدور مثله عمّن يعقل ويميّز بين الحسن والقبح . ونحوه قوله تعالى ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَاتَعْقِلُونَ ﴾ [٦٧/٢١] .

---

١) راجع تفسير الفخر الرازي:١ / ٤٩٤ ، مجمع البيان : ١ / ٩٨ ، الدر المنثور:١ / ٦٤

وفيه حجّةٌ اعتزاليّةٌ وله جوابٌ أشعري . والتحقيق خارج عمّا يدركه كلٌّ من الفريقين بإحدى العينين .

وقيل معناه : أفلا تعلمون إنّ الله يعذّبكم ويعاقبكم على ذلك . وقيل : أفلا تعلمون إنّ مافي التورية حقّ ، فلِمَ لاتصدّقون محمّداً ﷺ ولاتتبعونه .

فصلٌ

[الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

ولك أن تقول : إذاكان فعل البرّ واجباً ، والأمر به واجباً ، فلِما ذا وبّخهم الله تعالى على الأمر بالبرّ ؟

والجواب : لم يوبّخهم على الأمر بالبرّ . وإنّما وبّخهم على ترك فعل البرّ المضموم إلى الأمر به ، لأنّ ترك البرّ ممن يأمر به أقبح من تركه ممن لايأمر به . كقول الشاعر :

لاتنهَ عن خُلْقٍ وتأتي مثلَه　*　عارٌعليك إذا فعلتَ عظيم

ومعلوم إنّه لم يرد به منعَه عن النهي عن الخُلْق المذموم ، وإنّما نهاه عن إتيان مثله فالمراد بالآية حثّ الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل ، ليقوم فيُقيم ، ويكمل فيكمل . لامنعُ الفاسق عن الوعظ ـ كما توهم ـ فإنّ الإخلال بأحد الأمرين المأمور بها لايوجب الإخلال بالآخر .

* * *

وقال بعضهم : ليس للعاصي أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، بل يجب أن لايكون الآمر والناهي مرتكباً للمحرمات ، واشترط العدالة محتجّاً بالنقل والعقل :

أمّا النقل: فهذه الآية ، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَالاَتَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٦١/٣] وما روي عن النبي ﷺ إنّه قال [١] : « مررتُ ليلة أسري بي بقوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : مَن أنتم ؟ فقالوا : كنّا نأمر بالخير ولا نأتيه . وننهى عن الشر ونأتيه » .

وأمّا المعقول : فهو إنّه لوجاز ذلك لَجازلمَن يزني بأمرأة أن ينكر عليها على كشف وجهها في أثناء الزنا . ومعلومٌ إنّ ذلك مستنكرٌ عقلاً . وإنّ هداية الغير فرع الاهتداء ، والإقامة بعد الاستقامة . ولهذا قيل : « إنّ الإصلاح زكوة نصاب الصلاح » .

والجواب : إنّ المكلف كما هومأمور بفعل المعروف ، مأمور بالأمر به للغير. وكما هو مأمور بترك المعصية ، مأمور بمنع الغير عن فِعلها مطلقاً . ثمّ المنع عن الجمع بين فعل المعصية ومنع الغير عنها أو أمرهم بالطاعة يتصوّر على وجهين ، لكونه ذا جزئين . وفساد المركب من الجزئين إمّا أن يكون لفساد أحد جزئيه بخصوصه ، أو لفساد انضمام أحدهما بالآخر .

فهيهنا ثلاثة احتمالات ، لكن أحدها ـ وهو كون المنع متعلّقاً بفعل الطاعة ـ ظاهر البطلان بالإتّفاق . فبقي احتمالان آخران : أحدهما أن يكون المنع متوجهاً إلى فعل المعصية ، كنسيان النفس فيما نحن فيه . والثاني أن يكون متوجّهاً إلى الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر مع فعل المعصية . فيكون المنع هيهنا عن ترغيب الناس بالبرّ مع نسيان النفس والحقّ في معنى الآية عندنا هو الأوّل ـ لاالثاني ـ فسقَط احتجاج الخصْم بالآيتين وبما تضمّنه حديث الإسراء .

وأمّا احتجاجه العقلي بما ذكره من المثال ، فلا نسلّم انّ مجرّد انكاره عليها على كشْف وجهها مستقبَح عقلا. بل الاستقباح والاستنكار على مجموع الزنا والإنكار عند التحليل يرجع إلى فعل الزنا ـ لاإلى ذلك الإنكار .

---

١) راجع الدرالمنثور : ٦٤/١ .

وأما حديث الفرعيّة ، فكلام شعريّ كما لايخفى .

وأيضاً : فالصغائر النادرة لاتخلّ بالعدالة ، ولفاعلها أن ينهي عن المنكَر بالاتّفاق مع اندراجه في الآيتين والحديث وما هو جوابكم فهو جوابنا .

وأيضاً : لو تمت دلائلكم لاقتضت عدم وجوب الأمر والنهي إلاّ على المعصوم فينسدّ باب الحسبة .

بقي في هذا المقام شيء ، وهو إن من أمَرَ بالخير ولايعمل به ، او نَهى عن الشر وأتى به ، قد عُلم من حاله إنّه متساهل في دينه ، ذو وهْنٍ في اعتقاده ، وإلاّ فما كان يفرغ من توبيخ نفسه إلى نصيحة غيره .

فصل

[الوعظ دون اتّعاظ الواعظ]

اعلم إنّ المقصود من الوعظ والترغيب بالطاعة ، والتحذير عن المعصية إرشاد الغير وهدايته إلى طلب الخير ودفع الشرّ وتحصيل السعادة ، والحذر عن الشقاوة . ولا شبهة لأحد من العقلاء في أن الإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير ، فمن وَعظ ولم يتّعظ ، ومن أمَرَ بالإحسان ولم يُحسن إلى نفسه فكأنّه أتى بفعل متناقض لايقبله العقل ، ولهذا قال : ﴿ أَفَلَاتَعْقِلُونَ ﴾ تعجيباً لأن يقع مثل ذلك عن العقلاء .

وأيضاً من وعَظ كان غرضُه أن يصير وعظُه مؤثّراً في القلوب ، والإقدام على المعصية مما ينفّر القلوبَ ، فكان من عصى كان مقصوده أن لايصير وعظُه مؤثّراً في القلوب . فالجمع بين الوعظ والمعصية جمع بين الضدّين ، وهوغير لائق بالعقلاء .

ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام [1] : « قصَم ظهْري رجُلان : عالمٌ متهتّك ،

---

١) جاء الحديث بألفاظ مختلفة راجع البحار ـ ٢/١١١ و١٠٦ .

وجاهلٌ متنسّك » وذلك لأنّ من وَعَظ وأظهَر علمَه للخَلْق ثمّ نَسي نفسَه ولم يتّعِظ وفعَل المعصية صار وعظُه واظهاره للعلم سبباً لرغبة الناس في المعصية ، لأنّهم يقولون : «إنّ هذا رجُل عالِم ، لو أنّه اطّلع على ضرر المعصية لماأقدم عليها ، ولولا انّه اطّلع على أنّه لاأصل لهذه التخويفات لَما اجترء على فعْل المعصية » .

فقد صار وعظُه داعياً للناس إلى التهاون بالدين ، والجرأة على المعاصي ، سيّما والنفوس مجبولةٌ علىالحرص بالمنكرات والشهوات إذا لم يكن رادعٌ شرعي أو عقلي ، فإذا كان غرض الواعظ الردْع والزَجْر ثمّ أتى بما يوجِب الرخصة والترغيب ، فكأنّه فعَل شيئاً متناقضاً ، وهو من العاقل موضع العجَب .

فصلٌ

[الوعّاظ الغير المتّعظون]

أكثر ماتعتري هذه الصفة ـ أي اصلاح الناس والأمر لهم بالبرّ مع نسيان النفس وإصلاحها وعدم تفقّد أحوالالقلب ـ للمقتصرين علىالعلوم الظاهرة منغير تحقيق فيها ، والناقلين للأخبار والروايات من غير دراية . لما فيها من جلْب خواطر الناس والشهرة وطلب الرياسة والإمامة .

فالواعظ يجد في وعظه وتأثّر قلوب الناس به حلاوةً ولذّة لايوازيها لذة ، فإذا غلب ذلك على نفسِه مالَ طبعُه إلى كلّ كلام مزخرَف يروّج عند العوام ـ وإن كان باطلاً ـ ويفرّ عن كلّ كلام يستثقله العوام ـ وإن كان حقّاً ـ ويصير معروف الهمّة بالكليّة إلى مايحرّك قلوب العوام ، ويعظّم منزلته عندهم ، فلا يسمع حديثاً وحِكمةً إلّا ويكون فرَحُه بها من حيث انّه يناسب أن يُنقل في محفل الناس اويُذكر على رأس المنبر .

وهذا فتنةٌ عظيمة، فمن لاباعث له في الوعظ والحسبة إلاّ طلب الجاه والمنزلة والتفاخُر فهو منافقٌ مطرود عن باب الله ، لأنّه باع آجِل آخرته واشترى به ثمَناً قليلا من عاجل دنياه ، ولو كان له حظٌّ من العلْم لعلِم إنّ لذّة الدنيا بالقياس إلى لذّة المعرفة بالله شيء حقيرٌ خسيس .

فمن اشتغل بالأمر والنهي يجب عليه أن يكون فرحُه بحفظ العلوم من حيث عرف بها طريق النجاة وطلب السعادة وطريق سلوك الدين ، ليعمل بها أوّلاً ، ويهذّب نفسَه ، ويحصل له اليقين . ثمّ إذا فرغ من أمر نفسه اشتغل بغيره ، شكراً لله بأن يقول : « إذا أنعم الله عليّ بهذه النعمة فأقضيها ليشاركني في نفعها إخواني » .

فمن لاباعث له إلاّ طلب الجاه والثروة ، فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه إلى أن يرتاض نفسه ويقوّى دينه ويقينه ، ويأمن عن فتنة نفسه ، فعند ذلك يشتغل بإصلاح غيره من وعظ أو قضاء أو تدريس .

فالمعلوم من حال من صرَف أوقاتَه لنقل الأقوال وحفظ الروايات ـ وغرضه عرْضها على الناس مع عدم إصلاح نفسه بتهذيب الأخلاق واقتناء العلوم الحقيقيّة التي ليست فيها شهرةٌ وتفاخر وكسبُ منزلة عند الناس ـ إنّه غير معتنٍ بأمر الدين ، ولا ذو اهتمام بتحصيل المنزلة عند الله بطلب المعرفة واليقين ، وتجريد النفس عن شواغل الهوى وشهوات الدنيا . ولهذا ورَد أخبارٌ كثيرة في مذمّة أمثاله :

قال أميرالمؤمنين عليه السلام في كلام له خطَب به [1] : « أيّها الناس إذا علمتم فاعملوا بماعلمتم لعلّكم تهتدون . . . وإنّ أنصحَكم لنفسه أطوعُكم لربّه ، وأغشّكم لنفسه أعصاكم لربه » .

وعن مسعدة بن صدقة ، عن أبي عبدالله عليه السلام ، و [علي بن ابراهيم عن أبيه ،

١) الكافي : باب استعمال العلم ، ١/ ٤٥ .

عن ابن محبوب ـ رفعه ـ عن] أمير المؤمنين عليه السلام إنّه قال[1] : « إنّ من أبغض الخَلْق إلى الله عزّوجلّ لَرجُلين : رجُلٌ وكّله الله إلى نفسه ، فهو جائرٌ عن قصْد السبيل ، مشغوف بكلامه بدعة ، قد لهج بالصوم والصلوة . فهو فتنةٌ لمن افتتن به ، ضالٌّ عن هدى مَن كان قبله ، مُضلٌّ لمن اقتدى به في حيوته وبعد موته ، حمّال خطايا غيره ، رهن بخطيئته .

ورجُل قمّش جهلاً في جهّال النّاس ، عانٍ بأغباش الفتنة ، قد سمّاه أشباه الناس عالِماً ولم يغن فيه يوماً سالِماً ، بكّر فاستكثر ، ماقلّ منه خير مماكثُر ، حتّى ارتوى من آجن واكتنز من غيرطائل جلَس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ماالتبس على غيره ، وإن خالَف قاضياً سبقَه لم يأمَن أن ينقض حكمه من يأتي بعدَه ، كفعله بمن كان قبله ، وإن نزلَت به إحدى المبهمات المعضَلات هيّأ لها حشواً من ربه[2] ثمّ قطع [به] .

فهو من لبْس الشُبهات في مثْل غزْل العنكبوت ، لايدري أصاب أو أخطأ . لايحسب العلم في شيء مما أنكر ولايرى انّ وراء مابلغ فيه مذهباً ، إن قاس شيئاً بشيء لم يكذب نظره ، وإن أظلم عليه أمرٌ اكتتم به لِما يعلم من جهْل نفسه ، لكيلا يقال له : « لايعلم » ثمّ جسَر يقضي . فهو مفتاحُ عشوات ، رَكّاب شُبهات ، خَبّاط جهالات ، لايعتذر مما لايعلم فيسلم ، ولا يعضّ في العلم بضرس قاطع فيغنم ، يذري الروايات ذَرو الريح الهشيم ، تبكي منه المواريث ، وتصرخ منه الدماء ،

---

١) الكافي : باب البدع والرأي والمقائيس : ٥٤/١ . وأورده الرضي في النهج (الخطبة : ١٧) باختلافات في الألفاظ .

٢) الكافي : حشواً من رأيه .

ويستحلّ بقضاءه الفرج الحرام ، ويحرّم بقضاءه الفرج الحلال [١] .

وروي عن رسول الله ﷺ إنّه قال [٢] : إنّ في النار رجلا يتأذّى أهلُ النار بريحه » . فقيل : « مَن هو يارسول الله » ؟ فقال : « عالِمٌ لاينتفع بعلمه » .

وقال ﷺ [٣] : « مثَل الذي يعلّم الناس ولا يعمل به كالسراج يضيء الناس ويحرق نفسه » .

وفي الخبر[٢]: « يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار، فيقولون لِمَ دخلتم النارَ وإنّما دخلنا الجنّة بفضل تعليمكم ؟ ! فقالوا : إنّا كنّا نأمر بالخير ولانفعله».

وقيل: « من وعَظ بقوله ضاع كلامُه . ومن وعَظ بفعله نفذت سهامُه » وقيل :

يامعشر الوعّاظ ياملح البلَد   *   مايُصلح الملحَ إذ الملحُ فسَدَ

وقال الثوري [٤] : « إنّ فتنةَ الحديث أشدّ من فتنةِ الأهل والمال والولد . وكيف لايخاف فتنته وقد قيل لسيّد البشر﴿لَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [١٧/٧٤] » .

وكتب رجُل [٤] إلى أخٍ له في الدين : « إنّك قد أُوتيت عِلْماً فلاتطفئن نور

---

١) جاء بعد هذه الفقرة في الكافي : « لامليء باصدار ماعليه ورَد ، ولاهو أهل لما منه فرط ، من ادعائه علم الحق » وفي النهج :

إلى الله أشكو من معشَر يعيشون جهّالاً ، ويموتون ضلّالا ، ليس فيهم سلعة أبوَر من كتاب الله إذا تُلي حقّ تلاوته ، ولا سلعة أنفق بيعاً ولاأغلى ثمَناً منه إذا حرّف عن مواضعه ، ولا عندهم أنكَر من المعروف ، ولاأعرف من المنكر .

٢) تفسير الفخر الرازي : ١/٤٩٦ .

٣) الجامع الصغير : ٢/١٥٤ .

٤) إحياء علوم الدين : ١/٦١ .

علمك بظلمة الذنوب ، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم » .

وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول لعلماء الدنيا : «ياأصحاب العِلم ـ قصورُكم قيصريّة ، وبيوتُكم كسْرويّة ، وأبوابُكم طالوتيّة ، وأخفافكم جالوتيّة ، ومَراكبُكم قارونيّة ، وأوانيّكم فرعونيّة ، ومذاهبكم شيطانيّة ، ومآتمكم جاهليّة . فأين المحمديّة ؟ وأنشد :

وراعي [الشاة] يحمي الذئب عنها * فكيف إذ الرعاة لها ذئاب

وقال سفيان بن عيينة : « أجهَل الناس من ترَك العملَ بما علِم ، وأعلمُ الناس من عمِل بما يعلَم ، وأفضلُ الناس أخشعُهم وأخشاهم لله » . وهذا قولٌ صحيح يحكم بأنّ العالِم إذا لم يعمَل بعلمِه فليس بعالِم ، فلايغرّنك تشدّقه واستطالته وحذاقته وقوّته في المناظرة والمجادلة ، فإنّه جاهل القلب عليم اللسان . وشرّه أعظم .

فصلٌ

[التعرّف بعلماء الآخرة]

إنّ العالِم في الحقيقة هو العارف الصوفي المخلِص لله دينه عن شوائب أغراض الدنيا وشهواتها ، فإن أردت تحقيق هذا أصوّر لك مثالاً ينكشف بها للمعتبِر فضلُ العالِم العارف بصفات نفسه على العالِم الظاهري المغرور بكثرة روايته : إذا دخل عالِم مجلساً وقعده ، وعيّن لنفسه مجلساً يجلس فيه كما في نفسه من اعتقاده بمحلّه وعلمه ، فدخل داخلٌ من أبناء جنسه وقعد فوقَه ، فانقبض العالِم وأظلَمت عليه الدنيا، ولوأمكنه لبطش بالداخل .

فهذا عارضٌ عرَض له ، ومرَضٌ اعتراه ، وهو لايفطن انّ هذه علة غامضة ومرض يحتاج إلى المداواة ، ولايتفكّر في منشأ هذا المرض، ولوعلِم منشأه لاشتغل

بمداواته وإنّما منشأ ذلك عدم ممارسته العلوم الحقيقيّة وعدم اطّلاعه على معرفة النفس وأحوالها ومراتبها - فإنّها أمّ الفضائل وأصل الحكمة ، ومفتاح سائر المعارف - وجهله بأنّ هذه نفسٌ ثارت وظهرت بجهلها وتفرعنت لوجود كبرها وبقايا كفرها وأنانيّتها برؤية نفسها خيراً من غيرها ، وتكبّرها بإظهار ذلك بفعل او قول .

وأمّا العالمَ الصوفي الزاهد فلايميز نفسه بشيء دون المسلمين ، فلايرى نفسه في مقام يميّزها بمجلس مخصوص مميّز. ولوقدر أن يبتلى بمثل هذه الواقعة، وينقبض من تقديم غيره عليه وترفّعه يرى حال النفس وظهورها ، ويرى انّ هذا داءً يحتاج فيه إلى الدواء ، وإنّه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس، صار ذلك بالرسوخ مرضاً مُهلكاً . فيرفع في الحال دائه إلى الله ويشكو إليه ظهور نفسه ، ويُحسن الإنابة بقطع دابر ظهور النفس ، ويرفع القلب إلى الله مستغيثاً من النفس ، ويشغله في طلب دوائها .

وربما أقبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع والانكسار تكفيراً لذنبه الموجود ، وتداوياً لدائه الحاصل .

فينكشف ويتبيّن بهذا الفرقُ بين الرجُلين ، وهذا من أوائل علوم الصوفيّة ومبادي أحوالهم . فما ظنُّك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم .

وفي وصايا لقمان لابنه : « يابنيّ لايستطاع العمل إلّا باليقين ، ولايعمل المرء إلّا بقدر يقينه ، ولايقصر عامل حتى يقصر يقينه فكان اليقين أفضل من العلم ، لأنّه أدعى إلى العمل ، وماكان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية ، وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحقّ الربوبية وإلى كمال الحظ من اليقين .

أقول: قد تبيّن من كلامه إنّ العلم هو الأوّل والآخر، والفاعل والغاية . وذلك لأن العمل يترشّح من العلم ، والعلم هو ثمرة العمل .

والعلماء الأخرويّون أدلّاء الأمّة ، وأعمدة الدين ، وسُرج ظلمات الجهالات

الجبليّة ، ونقباء ديوان الإسلام ، ومعادن أحكام الكتاب والسنّة ، وأمناء الله في خلقه وأطبّاء العباد من أمراض الجهالات . فهم ﴿ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ . وأما غيرهم من علماء الدنيا ، الراغبون إلى المناصب والترفّعات والرياسات فهم عبَدة طاغوت الهوى وأولياء الشيطان .

روي عن رسول الله ﷺ إنّه قال [١] : « سَيكون علَيكم أمراء تَعرفون منهم وتنكرون . فمَن أنكَر فقَد برِىء ، ومن كرِه فقد سلم . ولكن من رَضي وتابَع أبعَده الله » .

وقال سفيان [٢] : « في جهنّم وادٍ لايسكنه إلا القرّاء الزوّار للملوك » .

وقال حذيفة : « إيّاكم ومواقعَ الفتن » . قيل : « وماهو ؟ » قال : « أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير ، فيصدقه بالكذب ، ويقول مالبس فيه » .

وقد كان علماء التابعين فيهم مَن هو أقوم بعلْم الفتوى والأحكام من بعضهم . وكانوا إذا سئلوا عن فتوى أحالوه إلى غيرهم من الصحابة ، وكانوا يردون إليهم في علْم الفتاوي والأحكام ، فيعلّمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة ، لأنّهم كانوا أقوَم بذلك من التابعين . إذ قد صادفَهم طراوةُ الوحي المنزل وغمرَهم غريزُ العلم المجمَل والمفصّل .

روي إنّ عبدالله بن عمر كان إذا سُئل عن شيء يقول: «سَلوا سعيدَ بن المسيّب» وكان عبدالله بن عباس يقول : « سَلوا جابرَ بن عبدالله ، لو نزَل أهلُ البصرة على فتياه لوسعهم » . وكان أنس بن مالك يقول : « سَلوا مولانا الحسَن ، فإنّه قد حفظ ونسيناه » .

---

١) المسند : ٦/٢٩٥ . وليس في آخره « أبعده الله » .

٢) احياء علوم الدين : ١/٦٨ .

وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ[1] : « إنّ الشيطان ربما سبَقكم بالعلم » اقلنا : « يارسول الله ـ كيف يسبقنا بالعلم ؟ » قال: « يقول : اطلب العلم ولاتعمَل، حتّى تعلَم . فلايزال للعلم قائلاً وللعمل مسوِّفاً حتى يموت وما عمل » .

فصلٌ

[علماء الكشف وعلومهم]

واعلم إنّ هذه الآفات ونظائرها إنّما تعتري لعلماء اللسان وأرباب المناظرات والبحوث ، وأصحاب المنقولات وطلّاب الفتاوى والحكومات .

وأمّا علماء العلوم الكشفيّة والمعارف الإلهيّة ، فعلومُهم يؤدّي إلى الأحوال ، وأحوالهم مستتبع الآداب والأعمال ، لأنّهم تأدّبوا بين يدي الله بآداب الروحانيين وتخلّقوا بأخلاق الصديقين . فلذلك كان العلم المجبول في قلوبهم منكشفاً عليهم ، فحصروا نفوسَهم عن تقاضي جبلّاتها ، وقمعوها عن هواها بصريح العلم في كلّ قول وفعل . ولايصحّ ذلك إلّا لمن لطف سرّه وذكا روحُه ، وسلك به إلى الحضور بين يدي الله .

قال بعض أصحاب المعارف في العوارف [2]: « إنّ نفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ عمّا لابدّ لهم منه في أصل الدين وأساسه من الشرع ، أقبَلوا على الله وانقطعوا إليه ، وخلَصت أرواحُهم إلى مقام القرب منه ، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنواراً وتهيّأت بها قلوبهم لإدراك العلوم .

فأرواحهم ارتفعت عن حدّ إدراك العلوم الجزئيّة بعكوفها على العالَم الأزلي،

---

١) جاء في إحياء علوم الدين : ١/ ٦٤ . وفيه « يسوّفكم » بدل : « يسبقكم » .

٢) عوارف المعارف للسهروردي : الباب الثالث ص ٥٦ من الطبعة الملحقة باحياء علوم الدين . وفيه فروق يسيرة .

وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم ، وقلوبهم بنسبة وجهها الذي يلي النفس صارت أوعية وجودية ، فتألفت العلوم · وتألفتها العلومُ بمناسبة انفصال العلوم باتّصالها باللوح المحفوظ ، والمعني بالإنفصال انتقاشها في اللوح المحفوظ لاغير. وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس، فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتألّف ، فحصلت العلوم لذلك . وصار العالم الربّاني راسخاً في العلم . . . » .

« . . . [1] قال ابن مسعود : وليس العلم بكثرة الرواية ، انّما العلْم الخشية». وقال «إنّ الله لايعبأ بذي علْم ورواية ، إنّما يعبأ بذي فهْم ودراية » .

وقال صاحب العوارف أيضاً[1]: « علوم الوراثة مستخرجة من علوم الدراسة ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين ، ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه ، فلولم يكن لَبن ، لم يكن زَبد . ولكن الزّبد هو الدّهنيّة المطلوبة من اللبن ، والمائيّة في اللبن جسمٌ قائم به روح الدهنيّة . فالمائيّة به القوام . قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [٢١/٣٠] و[2] « الشّيء » يعمّ الموجودات كلّها . فعلوم الإسلام علوم اللسان ، وعلوم الايمان علوم القلب ، وله مراتب : علمُ اليقين ، وعينُ اليقين ، وحقُّ اليقين [2] .

وقال أيضاً بعد ماذكر جملة من تفاصيل علوم النفس [3] : « وهذا كلّه علوم من وراثها علوم عمل بها وظفر بمقتضاها علماء الآخرة . وحرم ذلك علماء الدنيا ، الراغبون فيها . وهي علوم ذوقيّة لايكاد النظر يصل إليها إلاّ بذوق ووجدان ، كالعلم

---

١) عوارف المعارف : ٥٧ .

٢-٢) غير موجود في المصدر والظاهر إنّه من المصنف ، وأورده تلخيصاً لكلام صاحب العوارف .

٣) عوارف المعارف : ٥٥ . بفروق في اللفظ .

بكيفيّة حلاوة السكّر ـ لايحصل بالوصف ، فمن ذاقه عرفه .

وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهّاد العلماء إنّ العلوم كلّها لايتعذّر تحصيلها مع محبّة الدنيا والاخلال بحقائق التقوى ، وربما كان محبّة الدنيا عوناً على اكتسابها لأنّ الاشتغال بها شاقٌ على النفوس ، فجبلت النفوس على محبّة الجاه والرفعة ، حتّى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمّل الكلف ، وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار، وتعذّر الملاذّ والشهوات . وعلوم هؤلاء القوم لاتحصل مع محبّة الدنيا ، ولاتنكشف إلاّ بمجانبة الهوى، ولاتندرس إلاّ في مدرسة التقوى. قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [٢٨٢/٢] جعل العلم ميراث التقوى وغير علوم هؤلاء القوم ميسّر من غير ذلك بلاشك .

فعُلم فضل علماء الآخرة ، حيث لم يكشف النقاب إلا لاولي الألباب . واُولو الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا . قال بعض الفقهاء : « إذا أوصى رجُل بماله لأعقل الناس يُصرف إلى الزهّاد ، لأنّهم أعقلُ الخلق » .

قال سهل بن عبدالله التستري : للعقل ألف اسم [ولكلّ اسم منه ألف اسم] وأوّل كلّ اسم منه ترك الدنيا » .

* * *

ثمّ ذكر حكاية لطيفه ، قال [1] : « حدّثنا فلان ، عن فلان ـ وذكَر السندَ إلى أبي عبدالله الخوّاص ، وكان من أصحاب حاتم الأصمّ ـ قال : دخلت معه الري ، ومعه ثلاثمأة وعشرون رجلاً، يريدون الحجّ ، وعليهم لباس الصوف ، ليس معهم جراب ولاطعام ، فدخلنا الري ليلة على رجُل من التجّار متنسّك يحب المتقشّفين فأضافنا تلك الليلة ، فلمّا كان من الغد قال لحاتم : ياأبا عبدالرحمن ـ لك

---

١) عوارف المعارف : ٥٥ . وجاء ايضاً في حلية الاولياء : ٨/ ٨٠ بفروق في اللفظ .

حاجة ؟ فإنّي أريد أن أعودَ فقيهاً لنا هو عليل ؟ فقال حاتم : إن كان لكم فقيهٌ عليلٌ فعيادة المريض لها فضل ، والنظر إلى الفقيه عبادة [فأنا أيضاً أجيء معك] ـ وكان العليل محمد بن مقاتل ، قاضي الري ـ قال : سِرْ بنا ياأبا عبدالرحمن .

فجاء إلى الباب ، فاذابابٌ مشرف حسَن . فبقي حاتم متفكراً يقول : « باب عالِمٍ على هذا الحال » ثمّ أذِن لهم فدخلوا . فإذن دار فوراء ، وإذاً بزّة وستور وغلمان . فبقي حاتم متفكّراً . ثمّ دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه ، فإذاً هو بفرش وطيئة وإذاً هو راقدٌ عليها وعند رأسه غلام و [بيده] مذبّة .

فقعد الرازي فسلله وحاتم قائمٌ ، فأومى إليه ابن مقاتل : [أن أقعد . فقال : لاأقعد .

فقال له ابن مقاتل :] لعلّ لك حاجة ؟ قال : نعم .

قال : وماهي ؟ قال : مسئلةٌ أسألك عنها .

قال : سلني . قال : فقُمْ واستوِ جالساً حتى أسئلكها .

فأمرَ غلمانه فأسندوه . فقال له حاتم : علْمك هذا ـ من أين جئتَ به ؟

قال : الثقاة حدّثوني [به] .

قال : عمَّن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله ﷺ .

قال : ورسولَ الله من أين جاء به ؟ قال : عن جبرئيل .

قال حاتم : فيما أدّاه جبرئيلُ عن الله إلى رسول الله ، وأدّاه رسولَ الله إلى أصحابه ، وأدّاه أصحابهُ إلى الثقات وأدّاه الثقاتُ إليك ، هل سمعت في العلْم من كان في داره أميرٌ أو منعته أكثر ، كانت له المنزلة عند الله أكثر ؟ قال : لا .

قال : فكيف سمعت ؟ قال : من زهّد فيالدنيا ورغب في الآخرة [وأحبّ المساكين ، وقدّم لآخرته] كان له عند الله المنزلة أكثر .

قال حاتم : فأنت بمن اقتديت ؟ بالنبيّ ﷺ وأصحابه ، أم بفرعون ونمرود ـ أوّل من بَنىٰ بالجصّ والآجر ؟ ! ياعلماء السوء ـ مثلكم يراه الجاهلُ ، الطالبُ للدنيا ، الراغبُ فيها ، فيقول : العالِم إذاكانَ على هذا الحال فلاأكون أنا شرّاً منه .

وخرج من عنده . فازداد ابن مقاتل مرضاً . فبلغ أهلالري ماجرى بينه وبين ابن مقاتل . فقالوا : « ياحاتم ـ بقزوين أكثر شيء من هذا » وأشاروا به إلى الطنافسي .

ـ قال : ـ فسار إليه متعمدّاً ، فدخلعليه ، فقال : رحمك الله أنا رجُلأعجمي أُحبّ أن تعلّمني أوّل مبتده ديني ومفتاح صلوتي ، كيف أتوضّأ للصلوة ؟

قال : نعم ـ وكرامة ـ ياغلام هات إناء فيه ماء ـ فأتي به فقعَد الطنافسي فتوضّأ حاتم ثلاثاً ثلاثاً ، حتّىإذا بلَغ غَسل الذراعين غَسل أربعاً . فقال له الطنافسي : « ياهذا ـ أسرفتَ » .

فقال له حاتم : « فيماذا أسرفتُ ؟ » قال : « غسلتَ ذراعيك أربعاً » .

قال حاتم : « ياسبحان الله ـ أنا في كفّ ماء أسرفت . وأنتَ في هذا الجمع كلّه لم تسرف ؟ ! » فعلم الطنافسي إنّه أراده بذلك ، ولم يرد منه التعلّم ، فدخل البيت ، ولم يخرج إلىالناس[٢] وكتَب تجار ري وقزوين ماجرى بينهما .

فلمّا دخَل بغداد ، اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا له : ياأبا عبدالرحمن ـ أنت رجُل ألكن أعجمي ليس يكلّمك أحدٌ إلاّقطعته .

قال : معي ثلاث خصال ، بهن أظهَر على خصمي .

قالوا : أيّ شيء هي ؟ قال : «أفرح إذاأصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ ،

---

١) الإضافة من المصدر .

٢) المصدر : ولم يخرج إلى الناس أربعين يوماً .

واحفظ نفسي أن لاأجهل عليه ».

فبلغ ذلك أحمد بن حنبل ، فجاء إليه فقال : « سبحان الله ماأعقله » . فلمّا دخلوا عليه قالوا : ياأبا عبدالرحمن ـ ماالسلامة من الدنيا ؟ » .

قال حاتم : ياأبا عبدالله ـ لاتسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : أن تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيساً . فإذا كان هذا سلمت . ثمّ سار إلى المدينة [1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [٣٥/٢٨] ذكر بكلمة « إنّما » فتنفي العلم عمّن لايخشى الله ، فلاحَ لعلماء الآخرة إن الطريق مسدودٌ إلى أنصبة المعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى . . . فبصفاء التقوى وكمال الزهد يصير العبد راسخاً في العلم .

قال الواسطي : « الراسخون في العلم هم الذين رسّخوا بأرواحهم في غيب الغيب ، وسرّ السر . فعرّفهم ماعرّفهم ، وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن . . . فنطقوا بالحكم » . . .

. . . وقال الخرّاز : « هم الذين كملوا في جميع العلوم ، وعرفوها ، واطّلعوا على هِمم الخلائق أجمعين» . وهذا القول من أبي سعيد لايعني به ان الراسخ في العلم ينبغي أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها . . . بل المراد إنّ المتّقي حقّ التقوى والخشية من الله ، صفا باطنه وانجلى مرآة قلبه ، ووقعت له محاذاة بشيء من اللوح المحفوظ . فادرك بصفاء الباطن امهات العلوم واصولها ، فيعلم منتهى همم العلماء في علومهم وغاية اقدامهم فيها . . . والعلوم الجزئية متجزئة في النفوس بالتعلّم

---

١) جاء بقية هذه الحكاية في حلية الاولياء : ٨/ ٨٢ .

والممارسة ؛ فلايغنيه علمه الكلي من أن يراجع في الجزئي أهله ، الذين هم أوعيته فنفوس هؤلاء امتلأت من الجزئي واشتغلت به ، وانقطعت بالجزئي عن الكلّي [1] .

والعالِم الربّاني بخلاف ذلك كماسبق ذكره - وكل ميسّر لما خلق له .

فقيل للشبلي - رحمه الله - عند النزع : « قل : لَاإلٰهَ إلاّ الله » . فقال :

إنّ بيتاً أنت ساكنه * غير محتاج إلى السرج

1) عوارف المعارف : ٥٦ .

قوله عزّ اسمه :

وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾

« الصَّبْر » في اللغة منْع النفس محابّها وكفّها عن هواها ، ولابدّ للصبر من قوّة في الإنسان بها يصبِر عن الملتذّات ، ويصبِر على المعاصي لأنّ لكلّ فعل وأثر مبدءً لامحالة ، ومبدء الأفعال والإنفعالات يسمّى عند أهل الحِكمة « قوّة » . ففي الإنسان قوّة تسمى بالصبر، تسميةً للشيء باسم سببه ، كما انّ له قوّةتسمّى بالشهوة ، وهاتان متقابلتان تقابل التضادّ ــ وسيأتي تحقيق التضادّ بينهما .

قال سهل[بن]عبدالله : الصبر انتظارالفرَج من الله ، وهو أفضل الخدمة وأعلاها وقال بعضهم : الصبر أن تصبِر على الصبْر بأن لاتطالع فيه الفرَج .

ومن أقسامه الصبر على المعصية ، بكفّ الصابر نفسَه عن الجزع ، ويقال : « فلان قُتل صَبراً » وهو أن يُنصب للقتل ويُحبس عليه حتى يقتل .

وفي الحديث[1] : «اُقتلُوا القاتلَ ، واصبروا الصابِرَ» وذلك فيمن أمسَكه حتّى قتَله آخر ، فأمِر بقتل القاتِل وحبس المُمسك .

والخشوع والخضوع والإخبات نظائر . وضد الخُشوع : الاستكبار ، و«خشَع الرجل» إذا رمى ببصره إلى الارض . و«اختشَع» إذا طأطأ رأسه كالتواضع

١) كنز العمال : كتاب القصاص ، الباب الاول : ١٥/ ١٠ .

وهو قريب المعنى بالخضوع إلاّ انّ الخضوع في البدن والأعضاء ، والخشوع في الصوت والبصر. قال سبحانه ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ [٦٨/٤٣] و﴿خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [٢٠/١٠٨] أي : سكنت .

* * *

واختلف [1] في مَن نزلت الآية ؟ فقومٌ قالوا : المخاطبون هم المؤمنون ، إذ لاصلوة لغيرهم ولاصبر يتصور لهم على أمور وعن أمور لم يعرفوا أحكامها عن دين محمد ﷺ .

وهذا ضعيفٌ، لتعبّد غيرهم بصلوة وصبر في الجملة وإن لم يتعبّدوا بهما على هذه الكيفيّة ، لأنّ كلّ أحد يعلم بعقله الذي هو حجّة الله عليه إنّ الصبرَ على مايجب الصبرُ عليه حسَن ، وإنّ الصلوةَ التي هي التواضعُ والتذلّل للمعبود الأوّل ، والاشتغال بذكره وعرفانه تُريح القلبَ عن محَن الدنيا وآفاتها .

وقوم قالوا : هم اليهود ، وتتناول المسلمين على وجه التأديب .

والأولى أن يكون خطابات القرآن غير مختصّة بقوم دون قوم ، ليكون قوانينه كليّة عقليّة - كما مر - .

فمَن خصّص الخطاب باليهود قال : إن حبّ الرياسة والترفّعات التي تكون لعلماء الدنيا ، الراغبين في المناصب - كالقضاء والحكومة والإمامة والشيخوخة والوعظ والحِسبة وغيرها - كانت تمنعهم عن اتّباع النبي ﷺ ، لأنّهم خافوا زوال الرياسة إذ اتبّعوه ، فأمَرهم الله تعالى بالاستعانة فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ على الوفاء بعهدي الذي عاهَدتكم في كتابكم عليه في طاعتي واتّباع أمري ، وترك مانهيتكم عنه ، والتسليم لأمري واتّباع رسولي محمّد ﷺ ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على ماأنتم فيه من ضيق المعاش وفوت الجاه الذي تأخذون الأموال من عوامكم بسببه .

---

١) راجع مجمع البيان : ١/٩٩ .

والمروي عن أئمتنا ﷺ انّ المراد بالصوم الصبر[1]. وجاء في الحديث[2]: «وهو شهرُ الصبر» لشهر رمضان ، لأنّ الصائم يصبر نفسه ويكفّها عمّا يُفسد الصيام ، فيكون فائدة الإستعانة به أن يذهب بالشَره وهَوى النفْس، فإنّ سدآفة الشهوة بالجوع يوجِب سدّ سائر الآفات ، كآفة الغضب والتكبّر وحبّ الجاه وغيرها إذ الجميع ممّا يتقوّى بقوّة البدن من الطعام والشراب .

ولذلك ورّد في الحديث عن النبي ﷺ إنّه قال[3] : «الصومُ وِجاءٌ» وقال[4] : «سدّوا مَجاري الشيطان بالجوع» إذ الشيطان مركبُه الدم ، كما ورد في قوله ﷺ[5]: «إن الشيطان [يجري] من ابنِ آدمَ مجرَى الدم» ولاشكّ في أنّ تقليل الغذاء يوجب تقليل الكيموس الصالح للدم ، وبقلّة الدم يضعف جنودُ الشيطان ، كالشهوة والغضَب والتكبر والرياسة وسائر المهلكات .

وفائدة الاستعانة بالصلوة انّ هذه الآفات كلّها منشأها الاحتجاب عن عالَم النور وما عند الله من الخَير والسعادة بالانكباب إلى عالَم الظلمة والزور ، وعند الاشتغال بالصلوة يتلى فيها مايذكّر العهد القديم ، ويرغّب إلى ماعند الله ، ويزهّد في الدنيا وحبّ الرياسة . قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [٢٩/٤٥] .

ولأنّها تتضمّن التواضع والتذلّل لله بوضع الجبهة التي أشرف الأعضاء على

---

١) الكافي : كتاب الصيام ، الباب الاول : ٤/ ٦٢ .

٢) الكافي : باب فضل شهر رمضان : ٤/ ٦٦ .

٣) ابن ماجة : كتاب النكاح ، الباب الأول : ١/ ٥٩٢ . وقال ابن الاثير (النهاية : ٥/ ١٥٢) : الوجاء أن ترضّ أنثيا الفحل رضّاً شديداً يذهب شهوة الجماع .

٤) جاء في الاحياء (١/ ٢٣٢) : « . . . فضيّقوا مجاريه بالجوع» .

٥) الجامع الصغير : ١/ ٨٢ .

الأرض ، فيدفع حبّ الجاه والرياسة عن القلب وكان رسول الله ﷺ [١] إذا حزبه أمر من أمور الدنيا يستعين بالصوم والصلاة ، ويقول [٢] : « أرحنا يا بلال » .

* * *

ومَن قال : « إنّ الخطاب بها للمسلمين » قال : المراد به ﴿اسْتَعِينُوا﴾ على تحصيل الآخرة وماتنجّز وعدُه للمؤمنين من الدرجات العالية والمقامات الرفيعة ، أو على مشقّة التكاليف الدينية ﴿بِالصَّبْرِ﴾ أي بحبس النفس على الطاعات ، وحبسها عن المعاصي والشهوات وبـ﴿الصَّلَوٰةِ﴾ لما فيهما من مجامع العبادات القلبيّة والبدنيّة من الطهارة البدنيّة عن الأخباث والأرواث ، والطهارة النفسانيّة عن نجاسة العقائد الفاسدة ، كالكفر وقصد الرياء ، وستر البدن بالثوب الساتر للسوئتين ، وكفّ النفس عن الأطيبين ، وصرْف المال في الطَهور والساتر ، والتوجّه بالبدن إلى بيت الله ، وبالقلب إلى وجه الله ، والعُكوف للعبادة بإخلاص النيّة وخشوع الجوارح واتعابها وتسخير القوى واستعمالها في سبيل الطاعة ، ومجاهدة جنود الشيطان وأبناء الظلمات في التقرّب إلى نور الأنوار ومناجاة الحقّ بخطابه وقرائة كتابه ، والتدبّر في آياته ، وذكر مصير الخلْق إليه ورُجوعهم إلى دار ثوابه أو دار عقابه ، والإقرار بتوحيده وحقيّة رسوله بالشهادتين والصلوة عليه وآله . فليس في العبادات شيءٌ أفضل من الصلوة لكونها أجمع للحسَنات والقُربات .

وقال بعضهم : ليس في أفعال القلوب أعظم من الصبر ، ولا في أفعال الجوارح أعظم من الصلوة ، فالأمر بالاستعانة بهما .

وروي عن جعفر الصادق عليه السلام إنّه قال [٣] : مايمنع أحدكم إذا دخل عليه

١) المسند (٥ / ٣٨٨) : «كان رسول الله (ص) إذا حزبه أمر صلى» . وقال ابن الاثير (النهاية ــ حزب) : أى اذا نزل به مهمّ ، أو أصابه غمّ .

٢) المسند : ٥ / ٣٦٤ و ٣٧١ .

٣) العياشي : ١ / ٤٣ .

غمٌ من غموم الدنيا أن يتوضّأ ، ثمّ يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو الله فيهما .
أما سمعتم قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وقوله : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ .

* * *

قيل في إعادة هذا الضمير وجوه : (١)

أحدها ـ وهو قول الأكثرين ـ : إنّه عائد إلى الصلوة لأنّها الأقرب ، ولعموم جدواها ، وشمول فرضها واستجماعها ضُروباً من الصبر ، وتأكيد حالها ، وتفخيم شأنهـا .

وثانيها : إنّه عائدٌ إليها ظاهراً . والمراد به الإثنان وإن كان الضمير واحداً ، ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [٩/٣٤] وقوله : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[٦٢/١١] وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوه ﴾ [٩/٦٢] وكقول القائل : « أنتَ بما عندك وأنا بما عندي راضٍ » .

وثالثها : إنّه عائد إلى الاستعانة التي يدلّ عليها قوله ﴿ وَاسْتَعِينُوا ﴾ .

ورابعها : إنّه عائد إلى جميع الأمور التي سبَق ذكرُها ممّا أُمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله : ﴿ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا ﴾ .

وخامسها : أن يكون عائداً إلى محذوف ، وهو الإجابة للنبي ﷺ ـ عن الأصمّ ـ أو مؤاخذة النفس بهما ، أو تأدية ماتقدّم ، أو تأدية الصلوة ، أو ضروب الصبر عن المعاصي . وهذه الوجوه الأخيرة ضعيفة ، لأنّه لم يسبق لها ذكْر .

وربما قيل : إن العرب قد يضمر الشيء اختصاراً ، ويقتصر فيه على الايماء إذا وثق بعلم المخاطب به ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا

---

١) راجع مجمع البيان : ١/٩٨ .

مَاتَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [٣٥/٤٥] ولاذِكْر للأرض . وكقول القائل : «ماعليها أفضل من فلان» يعني الأرض . أو كقوله : «مابين ساكنيها أعلم من فلان» يعني المدينة .

فصلٌ

في الكشف عن ماهيّة الصبر محاذياً لما ذكره بعض المحقّقين (١)

اعلم إنّ الصبرمنزل من منازل السالكين ، ومقام من مقامات الدين ، وجميع مقامات الصالحين إنّما ينتظم من ثلاثة أمور : معارفُ وأحوالٌ وأعمالٌ . فإنّ القلب الإنساني بمنزلة مرآة بالقوّة . فالأعمال بمنزلة تصقيلها وتنقيتها عن الريون والأخباث والطبائع والكدورات ، والأحوال بمنزلة صفائها ونقائها ومواجهتها للمطلوب ، والمعارف عبارةٌ عن حضور صوَر الحقّ المطلوب فيها . فالأعمال تراد للأحوال ، والأحوال تراد للمعارف ـ هذا نظر المحقّقين ـ .

وأمّا المحجوبين : فزعموا عكسَ ماذكرناه ، وهو إنّ تحصيل العلوم للأحوال ، وثمرةَ الأحوال الأعمالُ : لِما سمعوا إنّ العلم بدون العمل وبالٌ ، ومارَد في الخبر (٢) : «نعوذُ بالله مِن علمٍ لاينفع» وأمثال ذلك . ولم يعلموا إنّ المراد منه علومُ الأعمال ـ لاعلوم المكاشفات الحاصلة من الأحوال ـ ولم يتدبّروا في قوله تعالى : ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[١٥/٩٩] وقوله ﷺ : «ربّ زدني علماً» وقوله : «نعوذُ بكَ من أن أقولَ في العلم بغيرعلم ، وأن أعمَل في الدين بغيريقين» وقوله عليه السلام (٣) : «قصَمَ ظَهري رَجلان : عالِمٌ متهتّكٌ ، وجاهلٌ متنسّكٌ» .

١) إحياء علوم الدين : كتاب الصبر والشكر: ٤/٦٢، بتصرفات وإضافات من المؤلف .
٢) البحار : ٢/٣٢ . الترغيب والترهيب : ١/١٠٠ .
٣) مضى في ص

نعم ـ المعارف هي الأصول ، وهي تورث الأحوالَ . والأحوالُ توجب الأعمال . فالمعارف كالأشجار بقواها الأصلية ، كالغاذية والمنمية . والأحوال كالأغصان والألوان . والأعمال كالنتائج والأثمار .
ظ: الاوراق

وهكذا النظر في جميع مقامات الدين ومنازل السالكين ، واسم الايمان تارةً يخص بالمعارف ، وتارةً يُطلق علىَ الكلّ لاستلزامها الأحوال والأعمال .

فكذلك الصبْر . فإنّه لايتم إلاّ بمعرفة سابقة ، وبحالة قائمه ، وبعمل لاحق . والصبر على التحقيق عبارة عن الاولين والعمل كالنتيجة الحاصلة لهما ، بل الانتظام من الأمور الثلاثة حاصل في كلّ مقام من المقامات الحيوانيّة أيضاً ـ كالشهوة والغضب والتكبّر والرياسة والعُجب وغيرها .

فإنّ في الشهوة . مثلاً ـ علمٌ بالمشتهى كالتخيّل ونحوه ـ هذا بمنزلة المعارف ـ وفيها رغبة وميل إليه ـ وهذا من باب الأحوال ـ وفيها أيضاً حركة كالأكل والجماع ـ وهي من جملة الأعمال ـ واللائق باسم الشهوة هما الأوّلان ، والحركة من النتايج لهما .

وقد مرّت الإشارة إلى مثل هذا في الشكر ، من أنّ العلم بالمنعم وإنعامه هو أصل الشكر . وأنّ من عَلم إنّه يعجز عن الإتيان بشكر نِعم الله فقد أدّى غاية الشكر لله فأصل الصبر معرفة مالأجله الصبر على الشدائد ، ثمّ توطين النفس على ذلك ، ثمّ حبسها على الآلام وعن الشهوات . قال تعالى مخاطِباً لنبيّه : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِٱللَّهِ ﴾ [١٦/١٢٧] .

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام [١] : « أمرَ الله تبارك وتعالى أنبيائه عليهم السلام بالصبر ، وجعلَ الحظّ الأعلى لرسول الله صلى الله عليه وآله حيث جعل صبرَه بالله ـ لابنفسه ـ فقال : ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِٱللَّهِ ﴾ » .

---

١) عوارف المعارف : الباب الستون ، قولهم في الصبر . ٢٢٤ .

وما ذكرنا من الترتيب في باب معاني الصبر - أي : علمه وحاله وعمله - لايعرفه إلاّ مَن عرف الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم ، فانّ الصبر من خاصيّة الإنس ، ولا يتصوّر ذلك في البهائم والملائكة . أمّا في البهائم فلنقصانها . وأمّا في الملائكة فلكمالها .

فالملائكة مخلوقة من عقل بلاشهوة . والبهائم مخلوقة من شهوة بلا عقل . والإنسان بين شهوة وعقل . وقد خلقه الله ذا أطوار كما قال تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [٧١ / ١٤] ولم يقل : « ذوي أطوار » ليدلّ على أنّ انتقال الإنسان في أطواره الذاتيّة انتقال جوهريّ وحركة ذاتيّة معنويّة بنفسه في نفسه . وبيانه يفتقر إلى كلام طويل وخوض عميق في التحقيق لايناسب هذا المقام .

* * *

وبالجملة - فقد أعطاه الله قوّة له أن ينتقل بها من حدّ البهيمة إلى حدّ الملَك ويسمّى باعثاً دينيّاً .

وبيانه : إنّ البهائم سلّطت عليها الشهوات - كما ذكر - وصارت مسخّرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون ، إلا الشهوة الداعية له إلى المشتهيات وليس لها قوّة أخرى تصادم قوّة الشهوة وتسخّرها وتردّها عن مقتضاها ، حتّى يسمّى ثبات تلك القوّة في مقابلة مقتضي تلك الشهوة « صبراً » .

وأمّا الملائكة ، فإنّهم جرّدوا للمعرفة والشوق إلى الحضرة الربوبيّة ، والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم يسلّط عليها شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة مّايصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأماالإنسان فإنّه خلق في ابتداء الحداثة والصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يخلق فيها إلاّ شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه في حيوانيّته وحيوته الدنيا ، ثمّ تحدث فيه شهوة اللعب والزينة ، ثمّ شهوة النكاح على الترتيب ؛ ثمّ شهوة التفاخر

والتكاثر . قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [٥٧/ ٢٠] .

وليس له في الإبتداء قوّة الصبر ألبتّة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتصادم مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس في الصبيّ إلاّ جند الهوى كما في البهائم ، ولكن الله بفضله وسعة جوده كرّم ابن آدم وفضّله على كثير ممّن خلقه ، ورفع درجته عن درجة البهائم .

فوكّل عند تمام شخصه لمقارنة البلوغ ملَكين : أحدهما يهديه ، والآخر يقوّيه فتميّز بمعونه الملَكين عن البهائم . واختصّ بصفتين : إحديهما معرفةُ الله [ومعرفة رسوله] ومعرفة اليوم الآخر ومعرفة المصالح المتعلّقة بالعواقب والنجاة عن العذاب في الدار الآخرة ـ وكلّ ذلك حاصل من الملَك الذي إليه الهداية والتعريف ـ والبهيمة لامعرفة لها ولا هداية لها إلى معرفة العواقب ، بل إلى مقتضى شهوتها في الحال فقط ، فلذلك لاتطلب إلا اللذيذ ، وأمّا الدواء النافع مع كونه كريهاً مضرّاً في الحال ، فلاتعرفه ولاتطلبه ، فصار الإنسان يعرف بنور الهدايه إنّ اتّباع الشهوات لها معقبّات مكروهة في العاقبة .

ولكن لم تكن هذه الهداية كافيـة ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضرّ ، وحبس الشهوة عنها . فكم من مضرّ يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ولكن لاقدرة له على دفعه ، فافتقر إلى قدرة وقوّة يدفع بها في نَحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوّة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكّل الله به ملَكاً آخر يسدّده ويقوّيه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جنود الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجُند ، وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله عبده . كما إنّ نور الهداية أيضاً يختلف في الخلْق اختلافاً لايحصر .

فلنسمّ هذه الصفة التي بها فارَق الإنسانُ البهائمَ باعثاً دينياً . ولنُسمّ مطالبةَ

الشهوات بمقتضاها باعث الهوى وليفهم إنّ القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلبُ العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة ، الناصرين لحزب الله تعالى . ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لاعداء الله .

فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبتَ[حتّى] قهرَه واستمرّ على مخالفة الشهوة ، فقد نصَر حزب الله والتحق بالملائكة . وإن تخاذل وضعف حتّى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإنّ تركَ الأعمال المشتهاة عملٌ يثمرها حال يسمّى الصبر . وهو ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى ، وذلك الثبات حال يثمرها المعرفة بالله واليوم الآخر بعداوة الشهوات ومضادّتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة .

فإذا قوي يقينة - أعني المعرفة التي تسمّي ايماناً - وعلم بكون الشهوة عدوّاً قاطعاً لطريق الله قوي ثبات باعث الدين . وإذا قوي ثباته تمّت الأفعال على خلاف ما يتقاضاه الشهوة فلايتمّ ترك الشهوة إلأبقوة باعث الدين ، المضادّ لباعث الشهوة وقوّة المعرفة ، والايمان بقبح تبعة الشهوات [1] وسوء عاقبتها .

* * *

وهذان الملَكان هما المتكفّلان بهذين الجندين باذن الله [تعالى] وتسخيره إيّاهما ، وهما من الكرام الكاتبين ، وبهما الاستعانة في العِلم والعَمل ، والصوم والصلوة . أحدهما ملَك الصوم ، لأنّ بقوّته تكفّ النفس عن الشهوات المفطرات ، والآخر ملَك الصلوة ، لأنّ بهدايته تعرف كيفيّة الصلوة .

ولذا قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ تنبيهاً على أنّ

١) الإحياء : وقوة المعرفة والايمان بقبح مغبّة الشهوات .

الأصل في الصبر والصلوة خشوع القلب ويقينه بالآخرة ، وبالخشوع لله ، والرغبة إليه وإلى دار كرامته وجنّته والخوف منه ومن عذابه في دارنقمته وسجنه يصبر الإنسان عن الشهوات ، ويقهر عليها ، وبنور معرفته وعلمه بلقاء ربّه ورجوع الكلّ إليه يهتدي إلى محاربة الأعداء وقهر الشياطين لينخرط في سلك المقرّبين.

وإذا عرفت انّ رتبة الملَك الهادي أعلى من رتبة الملَك المقوّي، وانّ الصلوة أشرف من الصوم ـ ولهذا ورّد عن النبي ﷺ في الصلوة[1] : «إنّها معراجُ المؤمن» وفي الصوم[2] : «إنّه جُنّة من النار» . وقال النبي ﷺ[3]: «قرّة عيني في الصلوة» . وقال [4] : «الصوم وِجاء» ـ لم يخف عليك إنّ جانب اليمين الذي هو أشرف الجانبين من جَنبتي الربوبيّة ينبغي أن يكون مسلماً له ، فهو إذن صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال . وعند القيامة يتلاقيان كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [١٧/٥٠] .

ثمّ للعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرِضٌ عن صاحب اليمين ومسيء إليه ، فيكتب عليه إعراضه سيّئة ، وبالفكْر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية ، فهو به محسِن، فيكتب له حسَنة . وكذا بالاسترسال معرِض عن صاحب اليسار ، تارك للاستمداد منه ، فهو به مسيء إليه ، فيكتب له سيّئة ، وبالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيكتب له به حسَنة .

وإنّما تثبت هذه الحسنات والسيّئات بإثباتهما، ولهذا سمّيا «كرام الكاتبين» . أمّا الكرام فلكرامتهما وانتفاع العبد بكرمهما وبرّهما ـ والملائكة كلّهم كِرام بررَة ـ

١) هذا الحديث على شهرته غيرموجود في الجوامع التي بأيدينا .

٢) الكافي : باب ماجاء في فضل الصيام ٤ / ٦٢ .

٣) الخصال : باب الثلاثة : ١٦٥/١ .

٤) مضى في : ص٢٧٩ .

وأمّا الكاتبين فلاثباتهما الحسّنات والسيّئات .

وإنّما يكتبان في صحائف مطويّة في سرّ القلب ، ومطويّة أيضاً عن سرّ القلب ، حتّى لايطلع عليه في هذا العالَم لانغماره في البدن انغمار صحيفة مكتوبة في تراب الأرض واستتارها تحته عن الأبصار مالم يبرز عنه ، وكذلك صحيفة القلب ينشر يوم القيامة من غبار البدن على البصائر يوم كشف السرائر .

فالملَكان وكتبهما وخطّهما وصحائفها وجمله مايتعلّق بها من عالَم الغيب والملَكوت ـ لامن عالَم الشهادة ـ وشيء من الملكوت لاتدركه الأبصار في هذا العالَم ، ثمّ تنشر الصحائف عن القلب مرّتين : مرّة في القيامة الصغرى ، ومرة في القيامة الكُبرى .

وأعني بالقيامة الصغرى حال الموت ، إذ قال ﷺ [1] : « مَن مَاتَ فَقَد قامَت قيامته » . وفي هذه القيامة يكون العبد وحده . وعندها يقال : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[٦/٩٤] وفيها يقال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [١٧/١٤] .

أمّا في القيامة الكبرى ـ الجامعة لكافّة الخلق ـ لايكون وحده ، بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق ورؤوس من الأشهاد . وفيها يُساق المتّقون إلى الجنّة ، والمجرمون إلى النار زُمراً ـ لاآحاداً ـ وأهوالها أعظم . وسيأتيك بيانها إن شاء الله تعالى .

١) قال العراقي : «أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت . . . » (ذيل احياء العلوم : ٤/٦٤) .

فصـــلٌ

في تتمّة القول في الصبر وأقسامه

اعلم إنّ الصبر دواءٌ مُرّ ، وشَربة كريهة ، يجلب إليك كلّ منفعة ، ويدفع عنك كلّ مضرّة . فإذا كان هذا الدواء بهذه الصفة ، فالإنسان العاقل يكره النفس على شربه وتجرّعه ، ويصبر على مرارته وحِدّته ، وهو يقول : « مرارةُ ساعة ، وراحةُ سَنَة » .

وقيل [١] : « لكلّ شيء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر » .

والصبر جار في الصابر مجرى الأنفاس ، لأنّه يحتاج إلى الصبر عن كل منهيّ ومكروه ومذموم ظاهراً وباطناً . ولا يتمّ ذلك إلّا بالعلم .

وقيل[٢] : « أشدّ مراتب الصبر وأقسامه كفّ الباطن عن حديث النفْس » وإنّما يشتدّ ذلك على من يفرغ له ، بأن يقمع الشهوات الظاهرة ، وآثَر العزلة ، وجلَس للمراقبة والذكْر والفكر . فإنّ الوسواس لايزال يُجاذبه من جانب إلى جانب . وهذا لاعلاج له إلّاقطع العلائق بالكليّة بالفرار عن الأهل والأولاد والرفقاء والأصدقاء .

ولايكفي ذلك ايضاً مالم يجعل الهموم همّاً واحداً ـ وهو الله ـ ثمّ إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي مالم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صُنع الله ، وسائر أبواب معرفة الله ، حتّى إذا استولى ذلك على قلبه دفَع اشتغاله بذلك محادثة الشيطان ووسواسه .

وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الأوراد[٣] المتواصلة والصلوات والأذكار

---

١) راجع عوارف المعارف : الباب الستون ، قولهم في الصبر: ٢٣٤ .

٢) إحياء علوم الدين : ٤ / ٧٦ . بتصرفات من المؤلف .

٣) الإحياء : فلا ينجيه إلا الاوراد .

الظاهرة] المترتبة في كلّ لحظة ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور ، فإنّ التفكّر الباطني ومناجاة السرّ مع الله هو الذي يستغرق القلب في الشهود ، دون الأوراد الظاهرة .

ولذلك قال : ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي : استعينوا في طلب السعادة الحقيقية بالإنقطاع عن الخَلْق - وعن الدواعي الدنيوية والعلائق كلّها ، وبالمناجاة بالسرّ مع الله ، وهي روح الصلوة ، كما روي عنه ﷺ انّه قال : [1] « المصلّي مناج ربّه » .

فبالانقطاع عن العلائق كلّها يسلم له الوقت، ويقع له الفرصة ، فيصفوا القلب وتنشر الفكر ، وتحصل له المناجاة بالمكالمة الحقيقيّة مع الله ، وحينئذ ينكشف له من أسرار الله وخفايا نوره وحكمته في ملكوت السموات والأرض مالايقدر على شيء منه في زمان طويل ، لو كان مشغول القلب بالعلائق ، والانتهاء إلى هذا المقام غاية مايمكن تحصيله بالإكتساب ، وأن ينال بالجهد .

* * *

فأمّا مقادير ماينكشف ومبالغ مايرد من لطف الله في الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصيد . وهو بحسب الرزق ، والمعوّل فيه على جذبة من جذبات الحقّ - فإنّها توازي عمل الثقلين - ولامدخل للعمل والإختيار .

نعم - للاختيار مدخل في أن يتعرّض العبد لتلك الجذبة ، بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإنّ المجذوب إلى أسفل السافلين لاينجذب إلى أعلى عليّين . وكلّ منهوم بالدنيا فهو منجذب إليها . فقطع العلائق الجاذبة عن القلب هو المراد بقوله ﷺ [2] : « إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ، ألا - فتعرّضوا لها » .

---

١) راجع البخاري : ١/١٤٢ . والمسند : ٢/٢٧ .

٢) الجامع الصغير : ١/٩٦ .

وهو التهيئة لها ، وتنقية أرض القلب عن حشايش التعلّقات ، وبثّ بذر المعرفة والايمان فيها ، إنتظاراً لرحمة الله ، وتعرّضاً لمهابّ رياح الجود والكرَم في الأوقات الشريفة ومظانّ الإجابة واستدراراً لأمطار المكاشفات ، ولطائف مياه المعارف من خزائن الملكوت عند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وأيّام رمضان .

كما ينتظر الزارع الذي يصلح الأرض وينقّيها من الحشيش ، ويبثّ البذر فيها . إذ كلّ ذلك لاينفعه إلاّ بمطر ، ولايدري متى يقدر الله أسباب المطر ، إلاّ انّه يثق بفضل الله وتحريكه أسباب السموات للرزق بأمره على مَن يشاء ، إذ قال : ﴿وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [٥١/٢٢] .

* * *

فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل ، وهو آخر درجات الصبر ، وإنّ الصبر عن العلائق كلّها مقدّم على الصبر عن الخواطر . وأشدّ العلائق على النفس عُلقة [رياسة] الخلق وحبّ الجاه فإنّ لذّة الرياسة والإستعلاء والاستتباع أطيب اللذّات في الدنيا على نفوس العقلاء .

قال الغزالي [1] : «وكيف لايكون أعلى اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله [تعالى وهي الربوبيّة] والربوبيّة مطلوبة ومحبوبة بالطبع للقلب ، لما فيه من المناسبة للأمور الربوبيّة ، وعنه العبارة بقوله تعالى : ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [١٧/٨٥] وليس القلب مذموماً على حبّه ذلك ، وإنّما هو مذموم على غلَط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالَم الأمر ، إذ حسده على كونه من عالَم الأمر ، فأضلّه وأغواه .

وكيف يكون مذموماً عليه ، وهو يطلب سعادة الآخرة ، وليس يطلب إلاّ البقاء

---

١) إحياء علوم الدين : ١/ ٧٨ .

لافناء فيه ، وعزاً لاذلّ فيه ، وأمناً لاخوف [فيه] ، وغناء لافقر فيه ، وكمالاً لانقصان فيه . وهذه كلّها من أوصاف الربوبيّة .

وليس العبد مذموماً على طلب ذلك . . . ولكنّه آجل ، وقد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة . فجاء الشيطان وتوسّل إليه بواسطة العجلة التي في طبْعه ، فاستغواه بالعاجلة ، وزيّن له الحاضرة ، وتوسّل إليه بواسطة الحُمق ، فوعَده بالغرور في الآخرة ، ومناه مع مُلك الدنيا ملك الآخرة ، كما قال ﷺ (١) : « والأحمق مَن اتّبع نفسه هواها وتمنّى على الله » فأنخدع المخذول بهذا الغرور ، واشتغل بطلب عزّ الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [٧٥/ ٢٠] فالمؤمن باليوم الآخر يصبر عن اللذّة العاجلة .

قال الجنيد : « المسير من الدنيا إلى الآخرة سَهل على المؤمن ، وهجران الخلْق في جَنب(٢) الحقّ شديد ، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد . والصبر مع الله أشدّ » .

فذكّر شدّة الصبر عن شواغل القلب ، ثمّ شدّة هجران الخلْق ، لأنّ المراد به ترْك خاطر الجاه والرياسة على الخلْق . فأشار إلى أنّ الصبر عنه أشدّ من الصبر من شواغل الدنيا ، ثمّ شدّة الصبر مع الله ، لأنّ غلبة نوره يُدهش الروح ، ويذيب القلب ، كما تفعل نور الشمس بالأبصار الضعيفة وحرارتها بالجَمْد .

قيل : وقَف رجُلٌ على الشِبلي ، فقال : أي الصبر أشدّ على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله تعالى . فقال : لا . فقال : الصبر لله . فقال : لا . فقال : الصبر مع الله . فقال : لا . فغضب الشبلي ، فقال : ويحك أيش هو ؟

---

١) في الجامع الصغير : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني » : ٢/ ٩٨ .

٢) الاحياء : في حب الخلق .

فقال الرجل : الصبر عن الله . فصرَخ الشبلي صرخَة كاد أن يتلف روحه .

قال صاحب العوارف [١] : « وعندي في معنى الصبر عن الله وجه ، ولكونه من أشدّ الصبر على الصابرين وجهٌ . وذلك إنّ الصبر عن الله يكون في أخصّ مقامات القُرب والمشاهدة، يرجع العبد عن مولاه استحياءً وإجلالاً ، وينطبق بصيرته خجلاً وذوباناً ، ويتغيّب في مفاوز استكانته وتخفّيه لاحساسه بعظيم أمر التجلي .

وهذا من أشدّ الصبر ، لأنّه يودّ استدامة هذا الحال تأدية لحقّ الجلال ، والروح يودّ استدامة هذا الحال باستلماع نور الجمال [٢] ، وكما إنّ النفس منازعة في عموم حال الصبر ، فالروح في هذا الصبر منازعة ، فاشتدّ الصبر عن الله [تعالى] لذلك .

وقال أبو الحسن بن سالم : « هم ثلاثةٌ : متصبّر، وصابرٌ ، وصبّارٌ. فالمتصبّر مَن صبر في الله . فمرّة يصبر ، ومرّة يجزَع . والصابر من صبَر في الله لله ولايجزَع ، ولكن يتوقّع منه الشكوى وقد يمكن منه الجزع . وأمّا الصبّار فذلك الذي صبره في الله ، ولله ، وبالله . فهذا [٣] لو وقَع جميع البلايا لايعجز ولايتغيّر من جهة الوجوب والحقيقة[٣] ـ لامن جهة الرسم والخِلقة » وإشارته في هذا إلى ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة .

فصلٌ

قوله [تعالى] : وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ

الفناء في الله بالصبر عن النفس وهواها وجاهها ومآلها. والبقاء بالله بالصلوة والمناجاة معه صعب شديد إلاّ مع خشوع القلب وانكساره وافتقاره وعبوديته

---

١) عوارف المعارف : الباب الستون ، قولهم في الصبر : ٢٣٤ .

٢) المصدر : والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجمال .

٣-٣) المصدر : فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لايجزع ولايتغيّر من جهة الوجود والحقيقة .

لتصحيح نسبة الإمكان ، وهو قُصارى مجهود العابدين ، فإنّ كلّ سالك طبيعي أو إرادي لونظرت إليه لوَجدت انّ بناء انتقاله من حالة إلى حالة أُخرى ، وانقلابه من صورة إلى صورة أشرف وأقوى هو ضعف نشأته الأُولى وزوال رسوخه ، وشدة فعليّته وحصول حالة إمكانية استعداديّة شبيهة بالعدم .

فالعناصر مثلاً مالم تنكسر منها شدّة كيفيّاتها وتأكّد صورها النوعيّة ، حتّى صار كلّ منها كأنّه متوسّطة بين أن تكون ، وبين أن لاتكون ، فلم تقبل صورة أُخرى أشرف من صورها ـ وهي صورة الجماديّة ـ .

ثمّ من الجماديّات ماهو أقوى صورة ، فأبعد من أن ينقلب نباتاً ، كاليواقيت والفلزّات ومايتقلب منها نباتاً فهو كالبذور وغيرها التي يستولي عليها الوهْن والقصور في صورتها الجماديّة ، ويكاد أن يضمحلّ ويستحيل في مكانها عائدة إلى الفساد لولاعناية الله لها بالإمداد ، ونقلها إلى صورة النبات من حدود الجماد .

وكذا الحال في النطَف الصائرة حيواناً وإنساناً ، كلّ ذلك لأجل امكاناتها التي هي كصورة الخشوع والخضوع لما فوقها ولما يقهرها ويسخرها ، فحركاتها إلى الله ، وتوجّهها نحوه تعالى بالاضطرار والافتقار إلى الواحد القهار .

فكذلك الحكم في أفراد الإنسان ، فكلّ من خشَع قلبُه وخضَع لله بالمحبة والانقياد ، وجاوز عن حدّ نفسه وهواه طلباً لمولاه ، انفتح عليه أبواب الرحمة ، وفاضَ عليه أنوار الإلهية ، ووصل إليه خلع الكرامة ، وكلّ من وقف في مقام نفسه وانانيّته وطلب هواه ، فهو مطرود عن باب الله ، محجوب عن لقائه بيد سدَنة النيران وحجاب القهرمان .

فمن خشَع قلبــه لله سهل عليه ترك هوى النفس والصبر عن الدنيا وما فيها بالصوم عنها . كما قيل : «صُمْ عن الدنيا واجعل فطرَك الموت» وبالقدوم على الله بالصلوة التي روحها عرفان الحق والتعبّد له ظاهراً وباطناً .

وملاك الأمر كلّه معرفة الله ، ومعرفة النفس، وحشرها إليه تعالى ، والتصديق بلقاء الله ، ولذلك وصف الخاشعين بقوله عزّ اسمه :

ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

أي يتوقّعون لقاء الله ونيل ماعنده ، ويتيقّنون إنّهم يُحشرون إلى الله . فالظنّ هيهنا بمعنى العلم ،كما في قوله تعالى : ﴿إِنِّي ظَنَنتُ انّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه﴾ [٦٩/٢٠] ويؤيّده إنّ في مصحف ابن مسعود « يعلمون » وإنّ الظنّ هو الاعتقاد الراجح الذي يقارنه تجويز النقيض ، وذلك يقتضي انّ صاحبه غير جازم بيوم القيامة ، وذلك كفر فكيف يمدح الله لهم عليه .

وعلاقة التجوّز إنّه شابه العلم في الرجحان ، ولتضمين معنى التوقّع .

ومن حمل اللفظ على ظاهره وجعل ملاقاة الرب مجازاً عن الموت ، فإمّا أن يقول : المراد « الذين يظنّون الموت في كلّ لحظة فإنّهم لايفارق قلوبهم الخشوع فهم يتبادرون إلى التوبة ، لأنّ خوف الموت من دواعي التوبة » . وإمّا أن يفسّر « ملاقات الرب » بملاقاة ثوابه ، وذلك مظنون غير معلوم ، أو يقول : إنّ المعنى : «يظنّون إنّهم ملاقوا بذنوبهم» فإنّ الإنسان الخاشع لاوقع لطاعاته عنده ، فيغلب على ظنّه إنّه يلقى الله بذنوبه ، فعند ذلك يتسارع إلى التوبة والانابة والصبر والصلوة .

وهيهنا وجه آخر ، وهو إنّ العلم بكيفية المعاد وبأنّ أفراد الإنسان وغيرهم ملاقون ربّهم يرجعون إليه بالحقيقة علمٌ شريف غامض لايحصل لأحد على وجه اليقين إلا للكمّل من العرفاء ، وليس لعامّة أهل الايمان إلاّ مرتبة الظنّ به على

سبيل التخيّل والتسليم .

ولأجل غموضه وعلوّ سمْكه عن مدارك العقول كرّر ذكره في القرآن ، وكثر المنكرون له في كلّ زمان ، حتّى أنّك ترى كثيراً من العقلاء القائلين بوجود الصانع للعالِم وتوحيده منكرين للمعاد وحشر الخلائق إليه تعالى ، فالظنّ بسه حاصل لكلّ مؤمن خاشع لله ، وذلك الظنّ كافٍ في أن يبعث له على الصبر والصلوة وسائر العبادات .

وأمّا مرتبة علم اليقين بلقاء الله والرجوع إليه ، فهو ثمرة العبادات وغاية الصبر والصلوة .

فصلٌ

[كلام في رؤيته تعالى]

قال الإمام الرازي في تفسيره [١] : استدلّ بعض الأصحاب بقوله [تعالى] : ﴿مُلَاقُوا رَبِّهِم﴾ على [جواز] رؤية الله .

وقالت المعتزلة : لفظ « اللقاء » لايفيد الرؤية . والدليل عليه الآية والخبر والعرف :

أمّا الآية فقوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [٩/٧٧] والمنافق لايرى ربّه . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [٢٥/٦٨] وقال تعالى في معرض التهديد﴿ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾[٢/٢٣٢] فهذا يتناول المؤمن والكافر . والرؤية لاتثبت للكافر . فعلمنا إنّ اللقاء ليس عبارة من الرؤية .

وأمّا الخبر فقوله صلى الله عليه وآله [٢] : « مَن حلَف على يمين ليقتطع بها

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٤٩٩ .

٢) الجامع الصغير : ٢/ ١٧٠ بفرقٍ يسير.

مال امرء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان » وليس المراد « رأى الله » لأنّ ذلك وصف أهل النار .

وأمّا العرف فهو كقول المسلمين « مَن مات لقي الله » ولا يقولون : «رأى الله» وأيضاً : فاللقاء يراد به القرب ممّن يلقي على وجه يزول الحجاب بينهما ، ولذلك يقول إذا حجب عن الأمير : « مالقيته بعد ذلك » وإن كان قد رآه ، وإذا أذن له في الدخول عليه يقول : « لقيته » وإن كان ضريراً .

ويقال : «التقى فلانٌ جحداً شديداً » و« لقيت من فلان الداهية » و «لاقى فلان جماعة » . وكلّ ذلك يدلّ على أنّ اللقاء ليس عبارة عن الرؤية ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [١٢/٥٤] » .

ثمّ قال : « قال الأصحاب : « اللقاء » في أصل اللغة عبارة عن وصول أحد الجسمين إلى الآخر بحيث يماسّه بسطحه . يقال : « لقي هذا ذاك » إذا ماسّه واتّصل به ، ولمّا كانت الملاقاة بين الجسمين المذكورين سبباً لحصول الإدراك . فحيث يمتنع اجراء اللفظ على المماسّة وجَب حملُه على الإدراك ، لأنّ اطلاق لفظ السبب على المسبّب من أقوى وجوه المجاز ، فثبَت إنّه يجب حمل اللقاء على الإدراك .

أكثر مافي الباب إنّه ترَك هذا المعنى في بعض الصور لدليل يخصّهُ ، فوجب الإجراء في البواقي على الإدراك وعلى هذا التقدير زالت السؤالات . انتهى كلامه .

* * *

أقول : من أراد أن يقتنص حقائق المعارف الإلهيّة ـ خصوصاً العلم بهذه المسئلة الغامضة التي تحيّرت فيها مدارك أهل الفكر والنظر ، وعجزت عن إدراكها عقول الأوائل والأواخر إلاّ من أيّده الله بنوره وفتح بصيرته لمشاهدة عالَم الآخرة ـ بوسيلة الألفاظ الوضعية والاطلاقات العرفيّة ، فالضلال أسرع إليه من الهدى .

واعلم يقيناً إنّ من فارَق طريق التسليم والقبول والايمان بالغيب ـ كسائر

الضعفاء ـ وخاض في مثل هذه الأدلّة الكلاميّة في باب معرفة الله ومعرفة لقاء الله يوم الآخرة ، فقد تعرَّض لخطرٍ عظيم من سوء العاقبة ، فإنّه إذا جاء وقت حضور الموت وكشف الغطاء ظهر عليه بطلان ما اعتقده ، وفساد الأدلّة التي لفّقها ونسجها كبيت العنكبوت ، واعتمد عليها في حيوته تعصّباً وجهلا .

إلّا إذا جاوز من حدود معقولة إلى نور المكاشفة الذي يشرق في عالَم النبوّة [و] الولاية والقُرب ، ويقع إشراقه على قلب من توجّه بمرآة باطنه إلى باطن النبوّة وحاذى بها شطره ، وصحّح نسبته إلى النبي صلى الله عليه وآله بأحكام المحبّة وسلوك طريق المتابعة له ولآله عليهم السلام ، حتى نال شيئاً مما نالوه ووقف على شيء مما وقفوه ، و شرب من ماء عين اليقين كما شربوه . وحينئذ لاحَ له أحوال الملكوت وأسرار القيامة ولقاء الله ، ومعنى رجوع الكل ، وذلك هو الكبريت الأحمر والفاروق الأكبر ، لا يقع إلّا بيد ملوك الآخرة وسلاطينها ، وليس يحصل للأسراء المحبوسين في عالَم الحسّ والمحسوسات، المقيّدين بقيود التعلّقات إلا اسم ورسم فالإسم لعوامهم ، والرسم لعلمائهم ، لأنّهم المقتصرون على السمعيّات والرسوم ، وما يلفّقون بأفكارهم منها ، فلذلك أمرهم دائرٌ في هذة المسئلة بين اعتقاد رؤيته تعالى بهذا البصر الداثر في اليوم الآخر ، وبين حمل اللقاء على لقاء الثواب ، وكلٌ منهما بمعزل عما هو معلوم أولي الألباب .

واعلم إنّك لو أردت أن تكون عالِماً ربّانياً مفسّراً للكلام الإلهي من دون أن تتعب نفسك وتتداوم على الأمور المقرّبة للقدس ـ من الرياضة والخضوع والخشوع والصبر والصلوة ، وتجريد الذهن عن الخواطر وسدّ أبواب المشاعر ، ودوام النظر في الإلهيات ـ فقد حدّثت نفسك بممتنع أو شبيه بالممتنع .

والناس يجتهدون في طلَب أمر باطل أو تحصيل موهوم خياليّ غاية الاجتهاد ، ويرتكبون الأمور الشاقّة وترك المألوفات لا لغرض شريف . فقبيحٌ لطالب الحقّ أن

يرضى بالقعود ولايجتهد في السعي إلى ذكر الله ودرك ماعند الله .

فإن طلبت واجتهدت لاتلبث زماناً طويلاً إلاّ ويأتيك بارقةٌ نورانيّة، ثمّ تتوالي عليك حتّى يصير ورودُه لك ملكَة ، فتعلَم إنّ فيك نوراً شارقاً لذيذاً تعلـم بإشراقه إنّ جميع الأشياء متوجّهةٌ نحو الأوّل تعالى توجّهاً جبلياً ، سالكة إليه سلوكاً جوهرياً، ذاتياً، ولها رجوع إليه تعالى كما تكرّر ذكره في القرآن وساعَده البرهان .

وأنت قبل أن يحصل لك الإرتقاء إلى هذا المقام يجب أن تعتقد انّ جميع الموجودات بحسب مالها من الكمالات ـ عقليّةً كانت أونفسانيّةً أوطبيعيةً ـ طالبةٌ لكمالاتها الثانية ، ومتشبّهة بعللها ومباديها في تحصيل ذلكالكمال بحسب مايتصوّر في حقّ كلّ منها ويليق به ، وانّ لكلّ نوع من الأنواع المفارقة والأثيريّة والعنصريّة كمال مّا وعشق إلى ذلك الكمال ، وإن تصوّر فقدَ ذلك الكمال فشوق إراديّ لمالَه حيوة ظاهرة ، أوطبيعيّ لماليس له حيوة ظاهرة والكلّ عند أهل‌الله حيوان ، فاهِمٌ ، عاقلٌ . ولولا عشقُ العالي لانطمَس السافل .

* * *

وإذا ثبت هذا ، وثبت إنّ لكل موجود غاية في وجوده كما إنّ له فاعلاً ، وإنّ لكل فاعل في فعله غرضٌ ولفعله غاية ، ولو كان لكلّ غاية غايةً من غير أن تنتهي إلى غاية الغايات لتسلسل‌الأمر إلى لانهاية ـ وهومحال ـ ويلزم أيضاً بطلان الغاية بالكلّية كمالا يخفى ـ فلابدّ أن يكون لجميع الموجودات غاية أخيرة تنتهي إليها الغايات بأسرها ، ولابدّ أن يكون عين المبدء الأوّل للكلّ وإلاّلزم تعدّد الباري ، فإنّ الغاية الذاتيّة للشيء يجب أن تكون دائماً مقدّماً على وجوده ، وهي نفس ماهو الفاعل بالحقيقة .

وأمّا التقسيم الذي وقَع في كلام الحكماء « وهو إنّ مالأجله الشيء قد يكون في بعض الأمور في نفس‌الفاعل ،كالفرح والغلبة وقد يكون فيبعضها في غيرالفاعل

وذلك تارة في القابل مثل آخر الحركات التي تصدر عن فكر او طبيعة كصورة الكرسي في الخشب - وتارة في شيء ثالث - كمَن يفعل فِعْلاً ليرضى به فلان ، فيكون رِضى فلان غايةً خارجة عن الفاعل والقابل » والتحقيق أن هذا التقسيم إنّما يجري فيما هو غايةٌ بالعرض ، وأمّا الغاية بالذات فلا تكون خارجة عن ذات الفاعل أبداً . فإن من فعَل فِعْلا ليرضى به فلان إنّما غرضه الأصلي حصول راحة او لذّة تعود إلى نفسه ، وإلاّ لَما فعَله .

فالغاية الذاتيّة بالحقيقة مااتّصل بالفاعل أو وصل اليه الفاعل، فإنّ محصّل صورة الكرسي في الخشب بعَمل وقاصد رضاء فلان بفعل، ليس غرضُه إلاّطلب أولويّةٍ تعود إلى نفسه . وكذا الباني في بناء بيت للاستقرار او للأُجرة لايبنيه إلاّ لحصول غاية أخيرة ، وهي الأولوية العائدة إلى نفسه .

وممّا يجب أن تعلم إنّ في الغاية أشياء ثلاثة :

أحدها الغاية بمعنى مايجعل الفاعلَ فاعله ويسمّى «علّةغائيّة» وهي علّة فاعليّة لفاعليّة الفاعل . ولاشبهة في تقدّمه على الفعل - بل على الفاعل من حيث هوفاعل - وهذا في الفاعل الأوّل - أي صانع العالَم - عينُ ذاته ، فإنّ ذاته بعينه فاعل للأشياء وعلّة غائيّة ، لأجل علمه بوجوه الخير ، الذي هو الداعي لايجاد الخير في العالَم ، وذلك الداعي هوعين ذاته .

وثانيها الغاية بمعنى مايترتّب على الفعل وينتهي إليه الفعل ترتّباً وانتهاء ذاتيّاً - كصورة الخشَب والسيف التي انتهت إليه حركة النجّار والسيّاف .

وثالثها الغاية بمعنى الضروري اللازم لماهو الغاية الأخيرة من غير أن يتوجّه إليه الفعل والحركة ، كالدُكنة [1] الحاصلة في السيف مثلاً . والذبول والموت من

[1] الدُكنة - بضم الدال - لونٌ يضرب إلى السواد .

هذا القبيل ، فإنّ الحرارة مستولية على البدن للأفاعيل النباتيّة او الحيوانيّة لأجل الغايات المطلوبة منها ، فإذا استولت تقلّل الرطوبات الغريزيّة شيئاً فشيئاً لأجل تلك الغايات، فيحصل للمادة الذبول بالعرَض. وكذا يطرء على البدن الموت بهذا السبب ، أو لأجل تماميّة النفس وانصرافها وتوجّهها إلى النشأة الثانية . ويقال لهذا القسم : « غاية إتفاقيّة » .

وقد تكون الغاية الإتفاقيّة لشيء غاية ذاتيّة لشيء آخر ، فلها سبب اتّفاقي ، والسبب الإتّفاقي ـ يجوز أن يتأدّى إلى غاية ذاتيّة . وقد يجوز أن لايتأدّى ، مثل الحجر الهابط من الجبل إذا شجّ ، فربما هبّط إلى مهبط، وربما لم يهبط . فإن وصل إلى غايته الطبيعية فيكون بالقياس إليها سبباً ذاتيّاً ، وبالقياس إلى الغاية العرضيّة سبباً إتّفاقياً . وأمّا إذا لم يصل إليها كان بالقياس إلى الغاية الذاتيّة باطلاً .

والإتّفاق من حيث هو إتّفاق لايكون دائميّاً ولا أكثريّاً . بل يقع على سبيل الندرة ، لما علمتَ إنّ ماهو اتّفاق بالقياس إلى سبب فهو ذاتيٌّ بالقياس إلى سبب آخر فالأسباب الطبيعيّة أو الإراديّة متقدمّة على السبب الإتّفاقي ـ تقدّم مّابالذات على مابالعرَض ـ وجميع الأمور الطبيعيّة والإتّفاقية متوجّهة نحو غايات بالذات لابالعرَض، وانّ الاتّفاق طار عليها ، وانّ الغايات الإتّفاقية غايات بالعرَض وأمّا وجودها فهو بالذات ، وله غايةٌ أيضاً بالذّات .

فثبت وتحقّق إنّ وجود العالَم بأسره ليس على سبيل الإتّفاق، وإن كان للإتّفاق فيه مدخل ، وذلك بالقياس إلى بعض أفراد العنصريّات ، وحيث لايعتبر الأسباب المتقتضية المكتنفة ، ولايقاس إلى الأسباب القصوى للكل وإلى السبب الأوّل والغاية العظمى وغاية الغايات .

وكذا وجود العالَم خير كلّه ، وقع من فاعل هو خير محض . والشرّ واقع بالعرَض بعلّة عرضية منتهية إلى عدم أو نقص أو ذات ناقصة ،كابليس ونحوه .

* * *

فبطَل ماحكاه قوم عن انباذقلس أوذيمقراطيس من القول بالإتّفاق ، وكذا ماقالت الثنوية القائلة بوجود مبدء آخر للشرور بالذات ، وكذا مازعمته أقوام من أنّ الباري يفعل الأشياء ويتركها من غير نظام وغاية وداع . فانّ مازعموه يجري مجرى القول بالإتّفاق ، أو القدَر الذي قالته الثنوية ـ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

وقد ذكر الحكماء في كتبهم إبطال هذه المذاهب الخبيثة ببيانات ودلائل موضحة ، من جملة تلك الدلائل انّ البقعة الواحدة إذا سقط فيها حبّة بُرّ ، وحبّة شعير ، أنبت البُرّ بُرّاً ، والشعير شعيراً البتّة .

ومنها إنّ الغايات الصادرة عن الطبائع الأصليّة في حال مايكون غير معوّقة كلّها كمالات . وإنّها إذا تأدّت إلى اُمور ضارّة كان ذلك في الأقل . فلهذا مايقال : لِمَ لاينبت الشعير بُرّاً ؟ ولِمَ لايتولّد شجرة مركّبة من تين وزيتون ؟ ولِمَ لَم يبق الأنواع محفوظة على الأكثر .

ومنها إنّا إذا أحسَسنا بقصور من الطبيعة أعينها [ظ : نُعينها] بالصناعة . وإذا طرءَ وَهنٌ أو آفةٌ أو مرض يعوق الطبيعة عن فعلها . نُعالجها بالدواء ، كما يفعله الطبيب معتقداً إنّه إذا زال العارض وصلح القابل واشتدّت القوّة ، توجّهت الطبيعة إلى فعلها من الصحّة ، وليس للرويّة والفكر مدخل في حصول الغاية .

فليس إذا عدمت الرويّة وجب أن لايكون الطبيعة لفعلها غاية . فإنّ الروية لاتجعل الفعل ذا غاية ، بل لها مدخل في تعيين الفعل الذي يختاره من بين أفعال يمكن صدورها عنا لكل منها غاية تخصّه، فإنّ لكلّ فعل يلزمه غاية بالضرورة لابفعل فاعل ، وليس الفاعل يجعل الفعل ذاغاية ، بل الغاية ممّايجعل الفاعل ذا فعل يفعله لأجل تلك الغاية .

ولو كانت النفس مسلّمة من المعارضات لكانت يصدر عنها فعل متشابه على نهج واحد طلباً لماهو كمال لها ، وحال السماويّات وملكوتها هكذا ، لكونها سليمة عن

المعارضات والقواطع للطريق ، فلاجرم هي مؤدّية إلى غاياتها .

وقد علمت إنّ الغاية غير خارجة عن ذات الفاعل ، فيكون الفعل الصادر عن فاعله مؤدّياً وواصِلا إليه ، منقلّباً إليه ، بل منقلباً إيّاه وقد صار أعلى وأشرف ممّا كان .

وكذا الكلام في الغاية ، حيث أن لها غاية أيضاً . والكلام في غاية الغاية كالكلام في الغاية ، بل غاية الغاية إذا كان وجودها وجوداً إمكانياً أولى بأن يكون لها غاية ، كما انّها أولى بأن يكون لها فاعل . لأنّ وجودها أقوى وأشرف وأدوم . فكيف يكون عبثاً بلا غاية ، أو اتّفاقاً ، أوجزافاً ؟ فسلسلة الغايات تنتهي إلى واجب الوجود .

هذا في غير الإنسان . وأمّا في الإنسان فقد ينتهي بعض من أفراده من أدنى المراتب ألى أعلى الغايات لكونه مختصّاً من بين سائر الأنواع بالاستحالة إلى الحالات والتطوّر في الأطوار والنشآت ، فرجوع الأشياء إلى الباري نحو آخر ، ورجوع السالك الإنساني المجذوب إليه نحو آخر .

وذلك لأنّ سائر الأشياء ـ ماسوى الممكن الأشرف والعقل الأوّل ـ معنى انتهائها ورجوعها إلى الربّ تعالى إمّا عبارة عن انتهاء مباديها وغاياتها وأسبابها إليه تعالى . فهي راجعة إلى الوسائط ، والوسائط متأدّية إلى الممكن الأشرف المتوسّط بينها وبين سائر الممكنات ، وهو منتهٍ راجع إليه تعالى دائماً ، لأنّه تعالى غايته ولا غاية له سواه . وإمّا عبارة عن معيّة الحق الأوّل لكلّ موجود ـ معيّةً قيّوميّة ـ لشمول نور وجوده للأشياء .

وأمّا معنى رجوع العبد وعوده إليه تعالى فهو عبارةٌ عن وصوله إلى الحضرة الإلهيّة بعد طيّ منازله ومقاماته البعيدة والقريبة ، فمن إبتداء حركته الرجوعيّة إلى وصوله إلى لقاء الله تعالى قد قطَع جميعَ القوس العروجيّة ، وهي نصفُ دائرة الوجود من المادّة الأرضيّة إلى الحضرة المقدّسة ، وهو بازاء النصف النزولي منها ، وهو من الحضرة المقدّسة الهويّة الأولى إلى الهاوية السفلى .

* * *

والعجب من بعض الحكماء ـ كأبي علي وأتباعه ـ كيف أنكروا على بعض المتقدّمين فيما ذهب إليه من القول بأنّ النفس الإنساني متّحد بالعقل الفعّال عند الاستكمال. وقد بالغ الشيخ أبو علي في الردّ على مقدّم المشائين بعد أرسطو المسمّى بفرفوريوس [١] ـ وهو عندي أعظم تلامذة ذلك الحكيم الموحّد الربّاني لوثاقة قوله ومتانة رأيه وحُسن سماعه واهتدائه بكلام معلّم القوم بالتوحيد والمعاد مالم يسمع غيره ولم يهتد به مَن سواه مِن شركائه في التعليم والصناعة، كالإسكندر الافروديسي، وثامسطيوس، وغيرهما من شرّاح كلماته وأسراره، ونقلَة كتبه وأسفاره وحفظَة علومه وأخباره.

ووجه العجَب إنّه كيف خَفي الحالَ على مِثل أبي عليّ ومَن يحذو حذوَه حتى شنّعوا على القول باتّحاد العقل المنفعل بالعقل الفعّال؟! وقد شاهَدوا من الإنسان الانتقال في الصوَر والأحوال.

فكان قد أتى عليه شيءٌ من الدهر لم يكن شيئاً إلا القوّة والاستعداد، والحامل لها الهيولى التي هي أخسّ المواد، ثمّ اكتسى بصورة العنصريّة، بل الأرضيّة التي هي أظلم الأجساد ـ فإنّها الغالب على مادّة بدنه ـ ثمّ تصوّر بصورة المنويّة ـ وهي من أوهن الأشياء وأضعفها ـ وهكذا تدرّج في الاستكمال حتّى صار حيواناً سميعاً بصيراً. ثمّ استكمل وصار قابلا للاهتداء إلى طريق الحقّ ـ إمّا عارفاً مهتدياً، وإمّا جاهِلا ضالاّ ـ كما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٧٦/١-٣].

---

١) قال في الفصل العاشر من النمط السابع من الإشارات: وكان لهم رجُل يعرف بفرفوريوس، عمل في العقل والمعقولات كتاباً يثنى عليه المشاؤون، وهو حشَفٌ كله. وهم يعلمون من أنفسهم انهم لايفهمونه، ولافرفوريوس نفسه. وقد ناقضه من أهل زمانه رجل، وناقض هو ذلك المناقِض بما هو أسقط من الأوّل.

فمَن جوّز صيرورة اللاشيء ـ كالمادّة الأولى ـ شيئاً ـ أي صورة بناء ، على ماهو التحقيق من الإتّحاد بين المادّة والصورة المقوّمة إيّاها ، اتّحاداً في الوجود ، وإن كانا مختلفين في المعني والمفهوم كالإتّحاد بين الجنس والفصل ، لأنّ الجنس والفصل هما عين المادّة والصورة بالذات وغيرهما بالاعتبار ـ وكذا جوّز صيرورة الجماد كالنطفة حيواناً ، والحيوان جوهراً عاقلاً بالقوّة . كيف أنكر صيرورة العاقل بالقوّة عاقلاً بالفعل؟ أو صيرورة العقل المنفعل عقلاً فعّالاً ؟ ! فإنّ المباثنة هناك ليست بأقلّ من المباثنة هيهنا .

فإن قال قائل إنّ المادّة ماصارت صورة قبلتها ، فإنّ الإنسان من مبده تكوّنه في الرحم عند الشهر الرابع من حين استقرار النطفة فيه إلى آخر كماله في العلم والولاية شيء واحد بعينه في الوجود والجوهريّة بالذات ، وقد طرء عليه صفات وأعراض حتّى لم يكن فرقٌ بين أجهلِ الناس كأبي جهل وأعقلهم كمحمّد ﷺ فقد كابَرَ مقتضى عقله وفطرته .

بل الإنسان أبداً في التحوّل إلى النشآت والأطوار ، إلى أن ينقلب إلى الدار الآخرة . وهذا عامٌ لكلّ أحد ، سواء أتمّ حركته التحوّليّة في القوس الرجوعيّة ـ حتى إذا وصل منتهاه ، وبلغ إلى مناه ، وفاز بلقاء مولاه ـ أو قصّر في ذلك فضلّ عن الطريق ، وهوى في هاوية الهوى أو نزل إلى اُفق البهائم ، وترك الترقي إلى افق الملأ الأعلى وخانَ في الأمانة التي أودعها الله فيه ، وأنعم بها عليه .

بل هو أسوء حالاً من البهيمة ، لأنّها تتخلص بالموت ، وأمّا هو فلابدّ له من الرجوع . لأن عنده أمانة سترجع إلى مودعها ، وكانت تلك الأمانة في مبده الفطرة قبل نزولها إلى القالب مشرقةً زاهرة كالشمس ، فإذا هبطت إليه وغربت فيه مدة ستطلع من مغربها وستعود إلى مبدئها وبارئها ـ إمّا مظلمة منكسفة ، وإمّا مشرقة زاهرة .

والمشرقة غير محجوبة عن الحضرة الإلهيّة . والمظلمة أيضاً راجعةٌ إليه مع الحُجب الظلمانيّة . لما أشرنا إليه إنّ الأشياء كلّها راجعةٌ إليه ، صائرة إليه تعالى بوجه آخر، إذ المرجع والمصير للكلّ إليه . إلاّ انّ النفوس المجرمة الشقيّة ناكِسةٌ رؤُسها عن جهة ربّها إلى جهة الهَوى والهاوية ،كما قال تعالى : ﴿وَلو تَرَىٰ إذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رَؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [١٢/٣٢] فانقلبت وجوهُهم إلى أقفيتهم ، وانتكسَت رؤسُهم من جهة أعلى عليّين إلى جهة أسفل سافلين ، وذلك حكم الله فيمَن حرَمه التوفيق ، وأضلّه الهَوى عن طريق الهُدى ـ نعوذ بالله من سوء العاقبة .

فصلٌ

في زيادة الاستبصار في تحقيق المصير إلى لقاء الله في دار القرار

اعلم إنّه كما أفادنا النظر في الوجود وعلّله إثبات فاعل أوّل ، كذلك أفادنا فيه إلى إثبات غاية أخيرة له ويجب أن يكون تلك بعينها مافرضناه فاعلا ، إذ الغاية مايجعل الفاعل فاعلاً ويكمله إذاكان مما يعتريه قصورٌ أو نقص .

وأمّا الفاعل التامّ الذي فوق الكل ووراء الوراء فليس له كمال منتظَر يبلغ ، بل الأشياء مما يصير به تامّاً كاملاً ، إذ به تمام كلّ شيء ، وكمال كلّ ذي كمال ، فما سواه ناقص بذاته ،كامل به .

فالله هو الأوّل الذي لاأوّل له ، وهو الآخر الذي لاآخر له ، لَيسَ كَمِثْلِه شَيء لأنّه أصل الوجود ، ومنه ابتداء الأمر ، وإليه ينساق الوجود ، وهو العلّة الفاعليّة للوجود ، والعلّة الغائيّة له .

فإن قيل : كيف يكون ماهو العلّة الفاعليّة علّة غائيّة ، والعلّة الفاعليّة قبل

الشيء لينبعث منه الشيء ، والعلّة الغائية يجب أن تكون متأخّرة الوجود عن الشيء ليستتبعها الشيء ؟

فالجواب إنّ العلّة الغائيّة ـ إن تأمّلت ـ فهي في الحقيقة عين العلّة الفاعليّة دائماً ـ لافي هذا الموضع خاصّة ـ فإنّ الجائع إذا آكل ليشبع ، فإنّما أكل ليشبع لأنّه تخيّل الشّبع ، فحاول أن يستكمل له وجودُ الشّبع ، فيصير من حد التخيّل إلى حدّ العين . فهو من حيث إنّه شبعان تخيّلاً هو الذي يأكل ليصير شبعان وجوداً ، فالشبعان تخيّلاً هو العلّة الفاعلية ، والشبعان وجوداً هو الغاية .

فالأكل صادر من الشبع ، ومصدر للشبع ، فالشبع هو الذي كان علّة فاعليّة للأكل ، وعلّة غائيّة له ، ولكن باعتبارين مختلفين ، فهو باعتبار الوجود العلمي فاعلٌ ، وباعتبار الوجود العيني غايةٌ .

والأمر فيما نحن فيه على عكس ذلك بوجه . فإنّ الله عزوجل حيث أنبأنا عن غاية وجود العالَم ، قال : «كنتُ كنزاً مخفيّاً ، فأحببتُ أن أعرف ، فخلقتُ الخَلق لأعرف » . فدلّنا على أن غاية وجود العالَم هو الله معروفاً ، فهو موجوداً علّة فاعليّة للعالَم ، وهو مشهوداً علّة غائيّة .

فهذا وجهٌ من تحقيق هذا الكلام ، وهيهنا وجه آخر أدقّ من هذا ، فغاية الوجود هي لقاء الله عزوجل ، لذلك بنَي العالَم ، ولأجله نظّم النظام ، وإلى ذلك ينساق الوجود . و ﴿انّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [٥٣/٤٢] .

تتمّةٌ

[غاية سير الأشقياء والسعداء]

واعلم إنّ هيهنا غاياتٌ وهمية مجعولة للاوهام زيّنت لطوائف من الناس فهم سالكون إليها في لبس وعماية من غير بصيرة ولادراية ، وهم كلّ الناس ، إلاّ عباد الله المخلصين .

واعلم إنّ هؤلاء الطوائف ليسوا بمحلّ نظر وليّ الوجود ، ولايعبأ الله بهم ، فإنّهم مع وليّ الوجود في شقاقٍ بعيد ، فإنّهم متوجّهون إلى غيرما وجّه الله إليه الوجود ونظّم له النظام ، فهم في شقٍّ والوجود في شقّ . فهم ليسوا بعباد الله، ولاالله مولاهم وسيّدهم ، وإنّما أولياؤهم ماتولّوا إليه من الهوى والشهوات ﴿ قُلْ مَايَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لولاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾[٢٥/٧٧] وإذ لماهم عليه من الهوى نظامٌ جزئيٌ وهميٌ فله لامحالة وليّ وهو شيطان من الطواغيت. فإن شئتَ سمّهم عَبَدة الهَوى ، وإن شئتَ سمّهم عَبَدة الطّواغيت ـ فقد نزَل بكلّ ذلك القرآن .

فمَن تولّى الله وأحبّ لقاءه وجرى على [ما] أجرى عليه النظام الحقيقي ، تولّاهم وهو يتولّى الصالحين . ومن تعدّى ذلك فطغىٰ وتولّى الطواغيت ، واتّبع الهوى ـ ولكلّ نوع من الهوى طاغوت ـ ولّاه الله ماتولّاه ، فشخّص لكلٍّ معبوده ووجّه إليه .

وإنّك لتعلّم إنّ النظامات الوهميّة والغايات الجزئيّة تضمحلّ ولاتبقى حتّى هلك هذه الدار وانتقل الأمر إلى الواحد القهّار ، فمن كان وليّه الطاغوت ـ والطاغوت من جوهر هذه النشأة الدنيويّة ـ فكلما أمعنت هذه النشأة في العدم والدُثور ازداد الطاغوت في الاضمحلال .

فطاغوت الإنسان من حين مات الإنسان يأخذ متحرّكاً في العدم ، والإنسان يتبعه، لأن الله تعالى يولّي كلّاً ماتولّاه . وهذا منه عدْل فيذهب به الطاغوت ممعِناً في وروده العدم ، متقلّباً به في الدركات حتّى يحلّه دار البوار ـ لايموت فيها ولايحيى .

لايموتُ ، لأنّ ذلك عند خراب الدنيا بالكلّيه ، وإذا خرِبت فتح الله خزائن الحيوة ، وأفاض بكلّ النور ، ومسح به البريّة مسْحة التحم بها وجودُهم التحاماً لايداخلهم الفساد بعد ذلك . ولا يَحيىٰ لأنّه استقبل بوجهه الطاغوت ، والطاغوت عدمٌ وباطل ، والمسْحة النوريّة الوجوديّة إنما تأتيه من وراء ظهره ، وإنّما تأتي من

قِبَل الوجهِ عبادَ الله الذين استقبلوا اللهَ بوجوههم

فإذا حلّ دار البوار اشتعل فيه النار ، وأحاط به سرادقها . لأنّ نار النيران قد خلقها عزّوجل وأسكنها دار البوار . وهي نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة ، والعذاب الأكبر للذي قدم من ذنوبه العذاب الأدنى - فافهم ماتلوناه عليك فإنّه لُباب المعرفة .

[نتائج مامضى من التحقيق]

وبما حقّق به المقام وفسر به الكلام انفسح احتجاج المجسّمة بهذه الآية على تجسّم الإله - تعالى عن ذلك - من أنّ الرجوع إلى غير الجسم محال .

واضمحلّ أيضاً احتجاج التناسخيّة بها من أنّ الرجوع إلى شيء يقتضي السابقة إليه ، فدلّ على كون النفوس قديمة في عالَم الروحانيّات ، إذ قد علمت إنّ هذا الرجوع رجوعٌ معنويّ بعد تطوّر النفس في الأطوار ، وطيّ مراتب الأكوان في النشآت الطبيعيّة والحسيّة والخياليّة والوهميّة، والعقليّة . وإنّ هذا الرجوع رجوعٌ غائيّ وحكم السابقيّة فيه على محاذاة حكم اللاحقيّة .

غاية الأمر انّ للنفس نحواً من الحصول سابقاً - ولو باعتبار صورتها العقليّة أو العلميّة أو الاسميّة كما عليه العرفاء - وأين هذا من التناسخ ، وبينهما من الفرق كما بين الأرض والسماء والظُلمة والضياء . فظهَر فساد قول المجسّمة والتناسخيّة .

وظهَر أيضاً ضلال الثنويّة ، لما علمت إنّ توجّه الأشياء إلى ماهو الخير الحقيقي .

وقد علمتَ أيضاً فسادرأي القائلين بالبخت والإتّفاق . وظهَرلك أيضاً كذّب الطباعيّة والدهريّة من أوساخ البريّة القائلين بأن ليس لطبايع الأنواع كالأفلاك والعناصر ومافيهما غاية أخرى يؤدّي إليها .

ولما دريت امتناع « تكوّن الأشياء عنه تعالى حاصل من غير داع وغاية هي عين الفاعل الأوّل » علمتَ فساد رأي الأشاعرة النافين للداعي والحكمة .

وعلمت أيضاً بطلان رأي لاثباتهم الداعي له تعالى في فعله أمراً مغائراً لذاته ، كذات الوقت ، او الأصلح بحال العبد أو مايجري مجراهما ، وذهلوا عن أنّ ذلك يؤدّي إلى القول بنقصانه تعالى في ذاته عمّا هو الأولى له ، والأليق به ، واستكماله بالممكن ـ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ

* * *

فبقى أن يكون المذهب المنصور هو الذي عليه أهل الله وأهل اليقين ، المنتمون إلى أهل بيت الولاية والعصمة سلام الله عليهم أجمعين .

قوله جلّ اسمه :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ ﴾

إنّ الله تعالى قد كرّر الخطاب معهم وأعاد هذا الكلام عليهم مرّة أخرى توكيداً للحجّة وتفصيلاً بعد الإجمال لأنّه أوقع في النفوس، وتذكيراً لنعمة التفضيل الذي هو أجلّ النعم على الخصوص ، وتحذيراً من ترك اتّباع محمّد ﷺ .

قال القفّال [1] : النِعْمَة ـ بكسر النون ـ صفةَ المنعِم . اي ماينعم به الرجُل على صاحبه . قال [تعالى] : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا ﴾ [٢٢/٢٦] ـ وأمّا النَعْمَة ـ بفتح [النون]ـ فهو بمعنى ماينعم به في العيش . قال تعالى : ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ [٢٧/٤٤] .

وقوله : ﴿إِنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ منصوبُ المحل عطفاً على ﴿نِعْمَتِي﴾ أي اذكروا نعمتي وتفضيلي إيّاكم على العالَمين .

* * *

ولا يلزم أن يكونوا أفضل من محمّد ﷺ لوجوه :

أحدها ماذكر في الكشّاف [2] : «إنّ المراد به التفضيل على الجمّ الغفير من الناس ، كقوله تعالى : ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [٧١/٢١] وكما تقول : «رأيتُ عالماً

١) تفسير الفخر الرازي : ٥٠١/١ .

٢) الكشاف : ٢١٤/١ .

من الناس » والمراد منه الكثرة ـ لاالكلّ .

واعترض عليه في التفسير الكبير[١] بأنّ هذا ضعيف ، لأن لفظ « العالَم » مشتق من العلم . وهو الدليل . فكلّ ماكان دليلا على الله أو كان عالماً فكان من العالَم . وهذا تحقيق قول المتكلمين : « إنّ العالَم كلّ موجود سوى الله » وعلى هذا لايمكن تخصيص لفظ [العالَم] ببعض المحدَثات .

أقـول : وهذا غير وارد ، إذ ليس مراد الزمخشري انّ مدلول لفظ « العالَم » حقيقةُ مختصٌ ببعض المحدَثات ، بل إنّه اريد به كثير من العالَم مجازاً ، أو بحسب العرف الطاري .

وثانيهـا ماقاله ابن عباس [٢] : انّه أراد به عالمي زمانهم ، لأنّ امّتنا أفضل الأمم بالاجماع ، كما انّ نبيّنا أفضل الأنبياء . وبدليل قوله [تعالى] : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ اُمَّةٍ اخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [٣/١١٠] .

وثالثهـا انّ المراد تفضيلهم في أشياء مخصوصة ، وهو إنزال المنّ والسلوى وما أرسل الله فيهم من الرسل ، وأنزل عليهم من الكتب ـ إلى غير ذلك من النِعَم العظيمة ـ كتغريق فرعون ، والآيات الكثيرة التي يسهل معها الاستدلال ، ويهون بها المشاقّ . وتفضيل الله إيّاهم في أشياء مخصوصة لايوجب أن يكونوا أفضل الناس على الإطلاق .

وهيهنا وجه آخر لايبعد القول به : وهو إنّ هذا التفضيل من جملة النِعم العامّة عليهم وعلى غيرهم من أفراد نوعهم والتي جاء من بعدُ النِعم الخاصّة لهم ، فيكون اشارة إلى فضيلة البشريّة كما في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾

---

١) تفسير الفخر الرازي: ١/٥٠٠ .

١) مجمع البيان : ١/١٠٢ .

[٧٠/١٧] غاية الأمر ان كان المراد من العالّمين غير الملائكة والأشخاص الكريمة العلويّة ليكون على وفاق قوله : ﴿ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ .

واعلم إنّه قال في التفسير الكبير [١] : إنّ قوله : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يدلّ على أنّ رعاية الأصلح لاتجب على الله تعالى ـ لافي الدنيا ، ولافي الدين ـ لأن قوله : ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ يتناول جميع نِعم الدنيا والدين فذلك التفضيل إن كان واجباً لم يجز جعله مِنّة عليهم ، لأنّ من أدّى واجباً فلامنّة له على أحد . وإن لم يكن واجباً مع أنّه قد خصّص البعض بذلك دون البعض ـ فهذا يدلّ على أنّ رعاية الاصلح غير واجبة ـ لافي الدنيا ، ولافي الدين .

أقول : فيه نظر ـ لأنّ الوجوب من وجه لاينافي عدمه من وجه آخر .

ثمّ إنّا لانسلم انّ المؤدي للواجب إلى أحد لايجوز له المنّة على المؤدّىٰ إليه . فإنّ الأب يجب عليه تأديب الولد ونفقته وكسوته ورعاية أحواله ، ومع ذلك لو مَنَّ عليه بها لم يكن هذا قبيحاً منه . وكذا المعلّم لأحد في المعارف الإلهيّة لومنّ على من خرج بهدايته من ظلمة الضلالة وعمه الحيرة وجهنّم الجهالة إلى نورالهدى وبصيرة اليقين وجنّة العرفان ، لكانت المنّة له عليه عظيمة .

على أنّ الحق في هذه المسئلة ماذهب إليه المحققّون ، من أنّ الأشياء انّما يجب بايجاب الله تعالى ، لاانّ الأشياء وجبت عليها ، أو أوجبت شيئاً آخر عليها .

---

١) تفسيرالفخرالرازي: ١/٥٠١ .

قوله جلّ اسمه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قرء أهل مكة والبصرة ﴿لاتقبل﴾ بالتاء ، والباقون بالياء .

لما بيّن سبحانه نعمه العظام عليهم أنذرهم في كُفرانهم بيوم القيامة . واتّقاؤه عبارة عن اتّقاء مايكون فيه من الشدائد والأهوال ، وإلاّ فنفس اليوم لايتّقى . كيف ولابد أن يرده أهل الجنة والنار جميعاً ، ولكن ليس انتصابُه انتصابَ الظروف ، بل انتصاب المفعول به ، لأنّ معناه « اتّقوا هذا اليوم واحذَروه » وليس معناه « اتّقوا في اليوم » لأنّ يومَ القيامة لايؤمَر فيه باتّقاء شيء ، بل انما يؤمَر في غيره باتّقاءه أو اتّقاء مايقع فيه .

و « الجَزاء » عند أهل اللغة المكافأة والمقابلة . يقال : « جزى يجزي جزاء » و « جازاه مجازاة » ومنه الحديث انّه قال ﷺ لأبي بردة [1] في الجَذعة التي أمَره أن يُضحى بها : « ولاتجزي عن أحد بعدك » وقال ﷺ : « البقَرة تجزي عن سبعة » أي : تقضي وتكفي . فقوله : ﴿لاتجزِي نَفسٌ عَنْ نَفسٍ شَيْئاً﴾ أي لاتقضي عنها

---

١) المسند : ٤/ ٣٠٣ .

شيئاً مـن الحقوق ـ فيكون مفعولاًبه ـ أوشيئاً من الجزاء ـ فيكون نصبه على المصدريّة .

وقرىء : « ولاتُجزيء » من « أجزء عنه » إذا أغني عنه ، فعلى هذا لايكون إلّا مصدراً بمعنى شيئاً مـن الأجزاء . وقرء أبو السرار القنوي « لاتجزي نسْمةٌ عن نسْمة شيئاً »[1] .

وتنكير الجَزاء والجازي والمَجزي عنه للتعميم والإقناط الكلي عن غيرالله . والجملة منصوبة المحل صفة لـ« يوماً » والعائد فيها محذوف ، تقديره : « لاتجزى فيه نفس » ومنهم من لم يجوّز حذفَ الضمير المجرور ، لأنّك لاتقول « هذا رجلٌ قصدتُ » أو « هذه واد سكنتُ » وأنت تريد « إليه » أو « فيها » . فقال : اتّسع فيه فأُجري مجرى المفعول به ، فحذف عنه الجار ، ثمّ حذف الضمير كماحُذف في قوله : فما أدري أغيّرهم تناءٍ ❊ وطولُ العهد ، أم مالٌ أصابوا ؟

و«الشَفَاعةُ» أن يستوهب [أحد] لأحد شيئاً اويطلب له ، وهي بمعنى الوسيلة والوصلة ، والقربة . وأصلها من « الشَفْع » الذي هوضدّ « الوتْر » كأنّ المشفوع كان فرداً ، فجعله الشفيع شفْعاً بضمّ نفسه إليه .

والضمير في﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ راجعٌ إلى النفس الثانية العاصية أي : لوجاءت بشفاعة شفيع لايُقبل منها . ويجـوز عودة إلى الأولى اي : لوشفّعت لها لم تقبل شفاعتها ،كما لاتجزى عنها شيئاً .

و « العَدْل » هيهنا : الفِدية . وقيل : البدل . والفرق بين العَدْل والعِدْل إنّ العَدْل هو مِثل الشيء من جنسه ، والعِدْل هوبدل الشيء . وقد يكون من غير جنسه . قال سبحانه : ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [٥/٩٥] وأصله التسويه سُمّيت به الفدية لأنها سوّيت بالمفدى .

---

١) الكشاف : ١/٢١٤ .

ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ولو انّ لِلّذِينَ ظَلَمُوا مَافِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَه لَٱفْتَدَوا بِهِ مِنْ سُوءِ ٱلْعَذَابِ يَومَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ [٤٧/٣٩] وقوله تعالى: ﴿إِنّ ٱلّذِينَ كَفَرُوا لوأنَّ لَهُمْ مَافِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوم ٱلْقِيَامَةِ مَاتُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [٣٦/٥] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ﴾[٩١/٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلّ عَدْلٍ لَايُؤْخَذ مِنْهَا﴾ [٧٠/٦].

و«النُصْرَة» هي المَعونة، وقيل: النُصرة أخصّ من المعونة لاختصاصها بدفع الضرّ. قال القفّال: والنصْر يراد به المَعونة، وفيه معنى الإغاثة. يقول العرب: «أرضٌ منصورةٌ» اي: ممطورة. والغَيث ينصر البلاد إذا أنبتها، فكأنّه أغاث أهلَها. ويسمّى الإنتقام نُصرة وانتصاراً. قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ ٱلْقَوم﴾ [٧٧/٢١] قالوا معناه: فانتقمنا له.

فقوله: ﴿لايُنصَرُون﴾يحتمل هذه الوجوه. فإنّهم يوم القيامة لايُغاثون، وإذا عُذّبوا لم يجدوا مَن ينتقم لهم مِن الله. وبالجملة ـ النصْر يتضمّن دفع الشدائد، فأخبرَ تعالى إنّه لادافع هنالك عن عذابه.

والضمير في ﴿لايُنصَرون﴾ لما دلّت عليه النفس الثانية، لكونها نكرة واقعة في سياق النفي يعنى النفوس الكثيرة. وتذكيره لأنّها بمعنى العباد والاناسي.

فصلٌ

[حثّ الآية على العمل]

اعلم إنّه تعالى وصَف يوم القيامة بأشدّ الشدائد وأعظم الأهوال، وذلك لأنّه إذا وقعت على أحد واقعةً او دفع إلى كريهة وحاولت أعوانُه وأصدقاءُه دفاعَ ذلك

عنه ، بدأت بما في نفوسها الأبيّة من مقتضى الحميّة ، وذبّت عنه كما يذبّ الوالد عن ولده بغاية قوّته . فإن رأى مَن لاطاقة له بممانعته عادَ بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة فحاوَل بالملاينة ماقصُر عنه بالمخاشَنة، فإن لم يغن عنه الحالتان من الخشونة والمعونة لم يبق بعده إلاّ فداء الشيء بمثله من جنسه او ببَدله من غير جنسه . فإن لم تغن هذه الثلاثة تعلّل بما يرجوه من نصر الناصرين أو انتقام المنتقمين ، فأخبر تعالى إنّه لايغني في الآخرة شيء من هذه الأُمور عن المجرمين .

ففي هذه الآية أعظم تحذير للانسان عن المعاصي ، وأقوى ترغيب له في التوبة والتلافي ، لأنّه إذا تصوّر انّه ليس بعد الموت استدراك ولاشفاعة ولانصرة ولافدية علِم إنّه لاخلاص له إلا بالطاعة .

والآية وإن كانت في بني اسرائيل فهي بحسب المعنى تعمّ المكلّفين كلّهم ، لأنّ الأوصاف المذكورة فيها هي التي يوصف بها اليوم ، فيعمّ كلّ من يحضر في ذلك اليوم .

فصلٌ مشرقيٌّ

واعلم إنّ البيان الكشفي للسبب اللمّي والسرّ العقلي في إثبات هذه الأوصاف والأحكام ليوم الآخرة انّ المؤثّر على قسمين ، الأوّل أن يكون تأثيره بمشاركة الوضع ومصادفة المادّة بعضها بعضاً . والثاني أن لايكون تأثيره كذلك ، بل بمجرّد الذات ، والذي يؤثّر في الشيء بالذات ـ لابمشاركة الموادّ والأوضاع ـ إمّا السبب الفاعلي أوالغائي أوالصوري لأنه لاتأثير للسبب الماديّ بالاقتضاء والايجاب ، إذ ليس شأنها إلاّ القبول والانفعال .

إذا تقرّر هذا فجميع هذه الأُمور المعدودة في الآية ـ من المكافأة ، والشفاعة، والفدية ، والنصرة ـ هي من التأثيرات التي وقعت بين الأشخاص المتشاركين في

الأوضاع والأمكنة ، فيؤثّر فيهم هذه الأسباب المعدّة ، ولهم أيضاً جهة القبول والانفعال من جهة المادّة المنفعلة التي يؤثّر فيها كلّ شيء .

وأمّا الآخرة ففيها هذه الأسباب والأنساب منقطعة ، والذي يكون هناك معه المهمّات ويطلب منه الاقتراحات - أعني الباري جلّ ذكره - لايؤثّرفيه شيء ولاينفعل عن شيء ، لأنّه القاهر على كلّ شيء . فالمؤثّر هناك في شيء منحصر في سبب صوريّ للشيء أو فاعليّ له أو غائيّ له .

فالصورة كالايمان والكفر والخُلق الحسَن والخَلق الردي . وأمّا الفاعل فهو الله بلاواسطة أو بواسطة بعض عباده المقرّبين ، الذين هم بأمره يفعلون ، لأنّهم من عالَم الأمْر ويفعلون مايؤمَرون . وأمّا الغاية فهو الله بالحقيقة أو ماينعكس من نور جماله لمن يعجز عن إدراكه ، والعلّة الصورية معلولة للفاعل والغاية ، لأنّها العلّة المباشرة ، وهما علّتان مفارقتان .

فجميع اللذات الروحانيّة - كلقاء الله ومجاورة مقرّبيه - والجسمانيّة - كالجنّة والحور والقصور والأنهار والأشجار وغيرها - متسبّبة عن الله تعالى بواسطة صورة الايمان والإحسان . وجميع الآلام الروحانيّة والجسمانيّة - كالإحتجاب عن الربّ تعالى وملكوته ، والتعذّب بالجحيم والزقّوم والعقارب والحيّات وغيرها - متسبّبة عنها بواسطة صورة الكفر والإساءة .

فلاسبب ولا نسب هناك إلاّ ماذكرناه ، ولا وسيلة هناك لأحد عنده ولا شفيع ولاظهير ولامعاون ولانصير ، لعدم انفعاله وتأثّره عن الغير . ولامكافي له ولا مُمانع ولا مُدافع ولا مُنتقم منه ، إذ لامساوي له في القوّة ، إذ لاواجب الوجود غيره ، والوجود يفيض منه ويترشّح على غيره فكيف يساويه في القوّة او يزيد عليه حتّى يدافعه او ينتقم منه ، بل هو الغالب على أمره ، والقاهر فوق عباده .

وبالجملة - لاوسيلة لأحد من أحد في أمر ولارابطة بين أحد وأحد إلاّ بالروابط

الذاتية . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَاتَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [١٩/٨٢] وقال : ﴿وَاخْشَوا يَوْماً لَايَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَامَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ [٣٣/٣١] .

ثمّ هيهنا سؤالان :

أحدهما إنّ الباري ـ جل شأنه ـ كما انّه موجِد الآخرة وما فيها كذلك موجِد الدنيا وما فيها ، فما وجه إنّ الوسائط والأسباب هيهنا موجودة مؤثّرة ، والإنسان ينتفع بها في جلب الملاذّ ودفع المضارّ، وفيالآخرة لاتأثيرلها ولاوجود للوسائط؟

وثانيهما إنّ النصوص دالّة على أنّ الشفاعة ثابتة للملائكة والأنبياء والكاملين من أهل الايمان ، وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمَاً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [٤٠/٧] .

وبالجملة [١] ـ الأمّة مجتمعة على أنّ لمحمّد ﷺ شفاعةً مقبولةً في الآخرة ، وإن اختلفوا في كيفيّتها . فعند المحقّقين هي مختصّة بدفع المضارّ واسقاط العقاب عن مستحقّيه من مذنبي المؤمنين . وقالت المعتزلة هي في زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين . وهي ثابتة عندنا للنبي ﷺ ولأصحابه المنتجبين وللأئمة من أهل بيته الطاهرين ولصالحي المؤمنين والملائكة وينجّي الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين .

ويؤيّده الخبرُ الذي تلقّاه الأمّة بالقبول ، وهو قوله ﷺ [٢] : « ادّخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي » وما جاء في روايات أصحابنا ـ رضي الله عنهم ـ

١) مجمع البيان : ١٠٣/١ .

٢) راجع الحديث بألفاظه المختلفة في كنز العمال : ٦٢٨/١٤ .

مرفوعاً ، إلى النبي ﷺ إنّه قال[1]: « اشفَعُ يومَ القيامة فأشفَّع ، ويشفَع عليٌّ فيشفَّع ويشفَع أهل بيتي فيشفَّعون . وإنّ أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع في أربعين من إخوانه كل قد استوجب النار » .

وفي الحديث عنه ﷺ إنّه قال[2] : « يدخل الجنةَ بشفاعةِ رجُلٍ من امّتي أكثر من بني تميم » .

وقال ﷺ [3] : « إنّ من امّتي من يشفَع للفئام ، ومنهم من يشفَع للقبيلة ، ومنهم من يشفَع للعُصبة ، ومنهم من يشفع للرجُل ، حتّى يدخلوا الجنّة » .

وعن أبي جعفر عليه السلام [4] - في باب فضيلة النكاح - : « إنّ رسول الله ﷺ قال : تزوّجوا ، فإنّي مكاثِرٌ بكم الأمم غداً في القيامة ، حتّى أنّ السقط تجيء محبَنطِياً على باب الجنّة ، فيقال له : ادخُل الجنّة . فيقول : لا حتّى يدخلَ أبَواي »

فهذه النصوص تنافي الآيات الدالّة على نفي الشفاعة والنَصرة وما يجري مجراهما ،كما في مثل قوله : ﴿ وَلَايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ فإنّه نكرة في سياق النفي ، فيعمّ جميع أقسام الشفاعة . وقوله : ﴿ وَلَاهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ يدلّ على نفي النصرة . و قوله تعالى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَابَيْعٌ فِيهِ وَلَاخُلَّةٌ وَلَاشَفَاعَةٌ﴾ [٢/٢٥٤] تقتضي نفي الشفاعة بالكليّة .

* * *

والجواب عن الأوّل إنّ الدار الدنيا واقعةٌ في آخر منازِل الوجود ، فإنّ

---

١) مجمع البيان : ١/١٠٤ .

٢) المستدرك للحاكم : كتاب الايمان : ١/٧٠ .

٣) ترمذي : ٤/٦٢٧ . المسند : ٣/٢٠ - ٦٣ .

٤) جاءت الرواية في الفقيه (باب فضل التزويج : ٣/٣٨٣) ومعاني الأخبار (باب معنى المحبنطى : ٢٩١) عن أبي‌عبدالله (ع) .

الوجود نزل إلى جوهر ماديّ ينفعل عن كلّ مؤثّر يصادفه لكونه محض القوّة والاستعداد ، ومنه تنشأ الحركات والاستحالات ، وهي حالةٌ بين صرافة القوّة ومُحوضة [الفعل] .

فمبدء الحوادث في هذا العالَم هي الهيولى والحركة ، فإنّ الهيولى بأوضاعها المستفادة من الحركة تحدث فيها من المبدء الجواد والوسائط الوجوديّة موجودات حادثة في أزمنة معيّنة ، وتحصل منها سلسلة عرضيّة من المتجدّدات الزمانيّة والمكانيّة وأمّا الدار الآخرة فهي أقرب إلى الله من هذه الدار ، وما فيها من الموجودات ـ وإن كان جسمانيّة الحقيقة ـ لكنّها أشبه بالصورة بحسب وجودها منها بالمادّة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [١٩/٩٥] وقوله : ﴿ وَنَرِثُهُ مَايَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [١٩/٨٠] لأنّ ملائكة الموت قد توفّتها ونزعت أرواحُها وصورها عن هذه القوالب المادّيّة .

ولهذه الأرواح في النشأة [الثانية] قوالب مناسبة لأرواحها في الدوام والتجدّد ولايؤثّر فيها تأثيرٌ غريب . بل أرواح ذلك العالَم يؤثّر في أشباحها بالايلام والتنعيم بحسب ماكسبَت وحصَلت في الدنيا لنفوسها من صوَر الأخلاق وهيئات الملكات الحسَنة النوريّة ، أو القبيحة الظلمانيّة .

فكل مايصل من اللذّات والآلام إلى كلّ أحد ، فهو إنّما يَصِلُ إليه من نفسه بوسيلة ذاته من جهة العلل الذاتيّة ، لامن جهة الأسباب العرضيّة والعلل الإتّفاقيّة الكونيّة ، لكونها منقطعة مسلوبة يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا [وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ] * إِذْ تَبَرَّءَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [٢/١٦٥-١٦٦] وقوله : ﴿ فَلَاأَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَايَتَسَاءَلُونَ ﴾ [٢٣/١٠١] .

وقد تكرّر وتكثّر في القرآن ذكر هذا المعنى والتنبيه عليه ، كقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [٨٠/٣٤-٣٧] وقوله : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٧/ ٩٠] و قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٣٧/٣٨ -٣٩] وقوله ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥٢/١٦] وقوله : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [٥٣/٣٩-٤٠] وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٣٦/٥٤] وقوله : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٧/٤٣] إلى غير ذلك من الآيات .

وفي الحديث عن النبي ﷺ [1] : « إنّما هي أعمالكم تُردّ عليكم » .

كلّ ذلك إعلام وإشعار بأنّ الثواب والعقاب في القيامة بنفس الأخلاق والصفات التي ترسّخت أصولها في القلب بواسطة تكرّر الأعمال والأفعال الواقعة في الدنيا من أفراد الناس ، وسينكشف من ذي قبل كيفيّة تجسّم الأعمال في الآخرة عند تفسير بعض الآيات المشيرة إلى أحوال البعث .

* * *

وأمّا الجواب عن الثاني إنّ جميع ماورد في باب الشفاعة يوم القيامة يرجع إلى أسباب ذاتيّة وأمور داخليّة .

فإنّ معنى كون الرسول ﷺ شفيعاً إنّ الايمان بحقيته والإعتراف برسالته يوجب هيئة في النفس ، بها يستحقّ لنور الرحمة والنجاة من عذاب النار ، والمؤثّر في الشفاعة صورة النبي، الحاصلة في النفس العارفة به صلوات الله عليه وآله وليست أمراً منفصلا عن ذات المؤمن ، وكذا الحال في سائر الشفعاء والأخلّاء يوم الدين .

والمنفيّ في هـذه الآية وفي غيرها ـ كقوله تعالى : ﴿ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾

---

١) جاء في مسلم(كتاب البرّ والصلة : ١٦ / ١٣٣) : «إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم»

[٢٥٤/٢] وقوله « ولاشفيعٌ ولاحميمٌ »[1] وقوله : ﴿لَايَنفَعُ مَالٌ وَلَابَنُون * إِلَّامَنْ أَتَى ٱللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٢٦/٨٨-٨٩] وقوله : ﴿ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾- [٤٣/٦٧] عن الدارالآخرة من الشفاعة وما يشبهها غيرالثابت منها في الآيات والأخبار بالمعنى والحقيقة ، لأنّ المنفيّ منها أمورٌ خارجية ، والثابت منها أُمورٌ داخلية من باب الصوَر المشهورة للإنسان في عالَم الباطن .

فإنّ القيامة حضورها في داخل حُجب السماوات والأرض وباطنها ، لافي ظَهرها وخارجِها ، ورُؤية الأشياء هناك كرؤية الصوَر والألوان في باطن المرآة من جهة صقالة وجهها ورؤية الأشياء هيهنا كرؤية الصوَر والألوان على ظَهْر المرآة .

وبالجملة ـ الأسباب العرضيّة والاتّفاقية مسلوبة في القيامة ، والأسباب الذاتيّة الداخليّة ثابتة . فالآيات والأخبار الدالّة على نفي الشفاعة والوسيلة والقرابة وغيرها إنّما تحمل على نفي ماهومنها من قبيل القسم الأوّل . والتي تدلّ على إثباتها تُحمل على إثبات ماهو منها من قبيل القسم الثاني .

فمِن قبيل الأوّل مافي قوله تعالى ﴿مَالِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَاشَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [٤٠/١٨] وقوله : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [٢/٢٧٠] وقوله : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ﴾ [٧٤/٤٨] ومن قبيل الثاني المستثنى الواقع في قوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَامِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [١٠/٣] .

فالنفي متعلق بما هو من قبيل الأوّل . والاستثناء بما هو من قبيل الثاني . وكذا قوله : ﴿وَلَايَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [٢١/٢٨] وقوله : ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [٢/٢٥٥] فانّ لفظ « الإذن » أينما وقع في القرآن كان إشارة إلى السبب الفاعلي الذاتي ـ دون العرضي الجسماني ـ فافهم واستقم .

---

١) الإشارة إلى قوله تعالى : «وَمَا لِلظالِمينَ مِنْ حَميم وَلَاشَفيع يُطاع» [٤٠/١٨]

فصلٌ

[الخلود في النار ، والخلاصُ منها]

استدلّت المعتزلة [1] القائلون بخلود مرتكب الكبيرة ـ ولو مرّة واحدة ـ في النار بهذه الآية على انكار الشفاعة بوجوه ثلاثة :

أحدها بقوله : ﴿لاتجزي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ ولوأثرت الشفاعة فيإسقاط العقاب لكان قد أجزت نفسٌ عن نفس شيئاً .

والثاني بقوله : ﴿ وَلايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ لكونها نكرة في سياق النفي ، فيعمّ كما مرّ .

والثالث ﴿ وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ إذ الشفاعة ضربٌ من النصرة ، ونفي الأعمّ يستلزم نفيَ الأخصّ .

وأجيب بوجهين : أحدهما إنّ اليهود كانوا يزعمون انّ آباءهم يشفعون لهم فالآية نزلت فيهم . لايقال : العِبرة بعموم الحكم ، لابخصوص السبب . لأنّا نقول: خصوص السبب ممّا له مدخل في احتمال التخصيص، وذلك كاف في سند المنع .

والثاني إنّ الآية وإن كان ظاهرُها العموم إلاّ انّها قابلة للتخصيص .

* * *

واعلم إنّ مسئلة اثبات الوعيد لأهل الكبائر إذا لم يتوبوا موضعُ خلاف لأهل القبلة . فالمعتزلة والخوارج قاطعون بوعيدهم مؤبّداً . وطائفةٌ قاطعون بوعيدهم منقطعاً ـ لامؤبّداً ـ وهو قول البشر المُريسي والخالدي .

وذهب بعضهم بأنّه لاوَعيد لهم . وينسب إلى مقاتل بن سليمان المفسّر، وإليه

---

١) تفسيرالفخرالرازي : ١/٥٠٤ .

ذهب بعض المرجئة .

والذي عليه أصحابنا الإماميّة ، والمنقول عن أئمّتنا عليهم السلام ، وعليه رأي أكثر الصحابة والتابعين والصوفية ، ووافقهم الأشاعرة في إثبات العفو عن بعض العُصاة . والقطع بأنّ الله يعفو عن بعض السيّئات ، وإنْ لم يتب عنها ، وأنّه إذا عذّب أحداً من أصحاب الكبائر ، فلا يعذّبه أبداً . لكنّا نتوقّف في حقّ البعض المعفوّ عنه ، والبعض المعذّب على التعيين .

وقال بعض ضلّال المتفلسفة:إنّ الأرواح ـ وإن تكدّرت بقبائح أعمال الأشباح. إلا انّها بعد المفارقة ورجوع العناصر إلى أصلها تصير إلى حظائر القدس ولايزاحمها شيء من نتائج الأعمال إلاّ أياماً معدودة بقدر فطام الأرواح عن لبان التمتّعات الحيوانيّة . ثمّ يتخلّص من العذاب ويرجع إلى حسن المآب .

ومنهم من زعَم إنّ استيفاء اللذات الحسّية يقلّل التعلّقات الدنيويّة ، ويسهّل عروج الروح إلى عالَمه العلوي .

وطائفة من المتصوّفة زعَموا إنّ السالك إذا بلَغ حدَّ المعرفة التامّة لم يضرّه المعاصي .

وكلّ هذه الثلاثة خيالٌ فاسد ومتاعٌ كاسد، وإنّها قول [مَن] لم يجرّب نفسَه ، و لم يعرف مكر الله فأمن منه ، ولم يجد من نفسه أنّها كيف تتدنس بالأخلاق الذميمة البهيميّة والسبعيّة ، وكيف تتطهّر وتتصفّى بالأخلاق الحميدة الروحانيّة الملَكية ، فقد تصدّه مرآة القلب بحيث لايبقى فيه شيء من الصفاء الفطري ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فلايجلوها إلاّ مرورالدهور وكرورالأعصار وقد ينضمّ الكفر إلى تلك الأخلاق بأن يتأدّى رسوخ الصفات الظلمانيّة إلى حيث يزول عن القلب قابليّة نور الايمان والمعرفة ، فيبقى خالِداً مخلّداً في النار في ويل طويل وزفير وعويل ـ نعوذ بالله من الحَور بعد الكور .

واعلم إنّه يمكن أن يُتمحّل للقول الأوّل من هذه الثلاثة وجهٌ يندفع به فساده وهو إنّ المراد بالأرواح مرتبةٌ غير النفوس التي هي مورد المَقت والعذاب، وموضع الآلام والأسقام . فإنّ الروح إذا أُريد به جوهرٌ قدسيٌّ من عالَم الأمر له تعلّق بالنفوس البشريّة فهو سعيد في الدنيا والآخرة .

وقد وقعت الإشارة إلى هذا المعنى فيما سبق من أنّ نسبة الروح الحيواني إلى الروح النطقي كنسبة الدابّة إلى راكبها ، وأنّ التي قامت الحدود بها وتحسّ بألم القتل والضرب هي النفس الحسّاسة ، وان النفس الناطقة على شرفها مع عالَمها في سعادتها دائمة .

وقد سبقت أيضاً الرواية عن النبي ﷺ[١] إنّه قامت لجنازة يهوديّ فقيل له : «إنّها جنازة يهوديّ» فقال ﷺ : «أليستْ نفساً ؟» أراد ﷺ بها نفسَه الناطقة ، فقامَ تعظيماً لشرفها ومكانتها لأنّها منفوخة من روح الله ، فهيَ من عالَم القدس والطهارة لايكدّرها شيءٌ من الأرجاس . بل إنّ من النفس الحيوانيّة محلّ الشقاء في الدنيا والآخرة وهي في الانسان باقيةٌ بعد البدن ، محشورة في الآخرة ـ كما أُقيم عليه البرهان ، وهو من العرشيّات المختصّة بهذا العبد عناية من الله .

* * *

وأمّا ماذهَب إليه مقاتل بن سليمان وبعض المُرجئة « من أنّ عصاة المؤمنين لايعذّبون ، وإنّما النار للكفار » تمسّكاً بالآيات الدالّة على اختصاص العذاب بالكفار مثل قوله [تعالى] : ﴿ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا انّ ٱلْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [٢٠/٤٨] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوءَ عَلَىٰ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ [١٦/٢٧] فجوابهُ إنّ المراد من العذاب ماهو على وجْه الخلود . وكذا المراد من الخزي والسوء .

---

١) البخاري :كتاب الجنائز : ٢/١٠٨ .

وأمّا تمسّكهم بمثل قوله ﷺ[1] : « مَن قالَ لاإله إلاّ الله دخَل الجنّة » . وفي رواية : «وجبَ عليه الجنّة»[1] فهوضعيف ، لأنه إنّما ينفي خلودَ النار ـ لاالدخول فيها

واعلم إنّ الايمان إذا كان حقيقيّاً بالغاً إلى حد علم اليقين يمكن القول بعدم دخول صاحبه في النار ، ولكن قلّ مايحصل هذا المقام لأحد إلاّ مع اجتنابه عن الكبيرة ، وذلك لكونه متوقّفاً على صفاء كامل في القلب وتجرّد بالغ عن أغراض النفس ولذّاتها الحيوانيّة .

والذي يدلّ على أنّ الايمان القويّ يمنع صاحبه عن دخول النار ، ما جاء عن رسول الله ﷺ[2] إنّه يقال يوم القيامة : « اخرجوا مِن النار مَن في قلبه مثقال من الايمان ، ونصف مثقال ، وربع مثقال ، وشعيرة ، وذرّة » كلّ ذلك تنبيه على تفاوت درجات الايمان ، وأنّ هذه المقادير لايمنع دخول النار .

وفي مفهومه انّ مَن كان ايمانه يزيد على مثقال فإنّه لايدخل النار . وان من في قلبه ذرّة من الايمان لايستحقّ الخلود في النار ـ وإن دخلَها ـ .

ولاخفاء في أنّ درجات الايمان مختلفة في القوّة والنوريّة ، كالتفاوت بين الأنوار المحسوسة في الإضاءة والإشراق، فصحّ أن يقال ايمان واحد من الناس ـ كالنبي والوليّ ـ لو وُزن مع ايمان سائر الخلائق لرجَح .كما يصحّ أن يقال : « لو وزن نور الشمس بنور السرج كلّها لرجح » فايمان آحاد العوام نوره كنور السراج ، وايمان الاولياء والصديقين كنور القمر ونور النجوم ، وايمان الأنبياء كنور الشمس . وإليه الإشارة في قوله ﷺ « ليس شيءٌ خيراً من ألف مثله إلاّ الإنسان » إشارة إلى تفضيل قلب المؤمن العارف على غيره من العوام .

---

١) كنز العمال :كتاب الايمان ، فضل الشهادتين : ١/ ٦١ .

٢) جاء مايقرب منه في ابن ماجة : باب في الايمان : ١/ ٢٣ .

فصل

[أدلة المعتزلة على قولهم بالخلود وجواباتها]

وأمّا المعتزلة فاستدلّوا بالعمومات الواردة في وعيد الفسّاق ، وبالآيات الدالّة على الخلود المتناولة للكافر وغيره ، كقوله [تعالى] : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ [١٤/٤] وليس المراد تعدّي جميع الحدود بارتكاب المعاصي كلّها تركاً وإتياناً ، فإنّه محال،لما بين البعض من التضادّ ، كاليهوديّة والنصرانيّة والمجوسيّة . فيحمل على مورد الآية من حدود المواريث .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ [٩٣/٤]
وقوله : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [٢٠/٣٢] ومثل هذا مسوق للتأبيد ونفي الخروج .

ومثل قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [٨٢/١٤-١٦] وعدمُ الغيبة عن النار خلودٌ فيها .

وقوله : ﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٨١/٢] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [١٠/٤] .

وبالعمومات الدالّة على نفي الشفاعة ، كقوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [١٨/٤٠] والظالم هو الآتي بالظلم ، وذلك يعمّ الكافر وغيره .
وقوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ [٢٥٤/٢]
وقوله : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [٢٧٠/٢] ولو كان الرسول ﷺ شفيعاً من أمّته ، لكان ناصراً لهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [٢٨/٢١] والفاسق ليس

بمرتضى عند الله ، وإذا لم يشفع الملائكة فكذا الأنبياء ـ إذ لاقائل بالفرق .

وقوله : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ﴾[٤٨/٧٤] وبقوله تعالى:﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [٤٠/٧] ولو كانت الشفاعة حاصلة للفاسق لم يكن لتقييدها بالتوبة ومتابعة السبيل معنى .

وبالأخبار الدالّة على الوعيد ، كقوله ﷺ [1] : « مَن شربَ الخمرَ في الدنيا ولم يتب عنها ، لم يشرب في الآخرة » وقوله ﷺ[2] : « من قتَل نفساً معاهداً لم يرَح رائحة الجنّة » .

وقوله ﷺ[3] : « الذي يشربُ في آنيةِ الذهبِ والفضّة إنّما يُجرجِر في بطنِه نارَ جهنّم » . وقوله ﷺ[4] : « لايبغضنا أهلَ البيت رجُل إلاّ دخلَ النار » .

وقوله ﷺ [5] : « ياكعْب بن عجرة ـ أعيذك بالله من إمارة السفاه . إنّه سيكون أمراءُ من دخـل عليهم فأعانَهم على ظُلمهم ، وصدّقهم بكذبهم فليسوا مني ولستُ منهم ، ولن يردوا عليّ الحوض ـ الحديث ـ ياكعب ، لايدخل الجنّة لحمٌ نبت مِن حرامٍ » .

وعن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ[6] : « لألفين أحدَكم يومَ القيامة على

١) البخاري :كتاب الاشربة : ١٣٥/٧ «حرمها» بدل : لم يشربها .

٢) البخاري :كتاب الديات : ١٦/٩ .

٣) البخاري :كتاب الاشربة (١٤٦/٧) : الذى يشرب في آنية الفضة .

٤) المستدرك للحاكم (١٤٧/١) : . . . إلا أدخله الله النار .

٥) جاء الشطرالأول في المستدرك للحاكم (٧٩/١) وجاء بألفاظ أُخرفي الترمذي: باب ماذكر في فضل الصلوة : ٥١٣/٢ .

٦) راجع البخاري، ٩٠/٤ .

رقبته شاةٌ لها ثغاءٌ ، يقول : يارسول الله [أغثني]. فأقول : لاأملك لك من الله شيئاً . قد بلّغتك » .

وعنه ، قال ﷺ [١] : ثلاثٌ أنا خصيمُهم [٢] يومَ القيامة ، ومن كنتُ خصيمَه خصمتُه : رجلٌ أعطىٰ لي [٣] ثمّ غَدر . ورجلٌ باعَ حُرّاً فأكلَ ثمنَه . ورجلٌ استأجَر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفِ أُجرته » .

* * *

فهذه وجوه متمسّكهم في القطع بالوعيد ونفي الشفاعة ، والجواب عنها بالمنع من أنّ هذه الصيغ للعموم ، بدليل صحّة ادخال « الكلّ » أو« البعض» عليها . نحو : « كلّ من دخل داري فله كذا » أو « بعض من دخل داري فله كذا » ولايلزم منه تكريرٌ ولاتناقض . ولأنّ الأكثر قد يورد بلفظ « الكلّ » .

وبعد تسليم كون الصيغ للعموم فاحتمال المخصِّصات قائمٌ ، فانّ العموم غير مراد في الآية الأُولى ، للقطع بخروج التائب وأصحاب الصغائر، وصاحب الكبيرة الغير المنصوصة ـ إذا أتى بطاعات يزيد ثوابها على عقوباته ـ فليكُن مرتكب الكبيرة من المؤمنين أيضاً خارجاً بما سيجيء من الآيات والأدلة .

وبالجملة ـ فالعامّ المخرج منه البعض لايفيد القطع وفاقاً ، ولو سلّم فغايته الدلالة على استحقاق العذاب المؤبّد لاعلى الوقوع ـ كما هو المتنازَع فيه ـ لجواز الخروج بالعفو .

ويجاب عن الآية الثانية بأنّ معنى ﴿متعمّداً﴾ مستحلّاً قتله ـ على ماذكره ابن عباس ـ والتعمّد على الحقيقة إنّما يكون من المستحلّ . أو بأنّ التعليق بالوصف

---

١) ابن ماجة : كتاب الرهون ، باب أجر الاجراء : ٢/٨١٦ .

٢) ابن ماجة والمسند : . . . خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه .

٣) ابن ماجة والمسند . أعطى بي .

مشعر بالحيثيّة التعليليّة ، فيختص بمن قتل المؤمن لايمانه . أو بأنّ « الخلود » ، وإن كان ظاهراً في الدوام ، فالمراد هنا المكث الطويل ـ جمعاً بين الأدلّة .

لايقال : « الخُلود » حقيقة في التأبيد ، لتبادر الفهم إليه . ولقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [٢١/٣٤] . ولأنّه يؤكّد بلفظ التأبيد ، مثل ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [٧٢/٢٣] وتأكيد الشيء تقوية لمدلوله . ولأنّ العمومات المقرونة بالخلود متناولة للكفار ، والمراد في حقّهم التأبيد بالإتّفاق . وكذا في حقّ الفسّاق ، لئلّا يلزم إرادة المعنى المشترك ، أو المعنى الحقيقي والمجازي معاً .

لأنّا نقول : لاكلام في أنّ المتبادر إلى الفهم عند الإطلاق ، والشائع في في الاستعمال هو الدوام ، لكن قد يستعمل في المكث الطويل كـ « سِجن مُخلّد » و « حبس مخلّد » فيكون محتملاً . على أنّ في جعله لمطلق المكث الطويل نفياً للمجاز والاشتراك ، فيكون أولى .

ثمّ إنّ المكث الطويل ـ سواء جُعل معنى حقيقيّاً أومجازياً أعمّ من أن يكون مع دوام ـ كما في حقّ الكفار ـ أوانقطاع ـ كما في حقّ الفسّاق ـ فلامحذورَ في ارادتهما جميعاً . وحينئذ فلا نسلم انّ التأبيد تأكيد ـ بل تقييد ـ ولو سلّم ، فالمراد تأكيد لطول المكث . إذ قد يقال : «حبسٌ مؤبّد» و« وقفُ مؤبّد » .

ويجاب ـ عن الثالثة بأنّها في حقّ الكافرين المنكرين للحشر ، بقرينة قوله : ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [٣٢/٢٠] مع مافي دلالتها علىالخلود من المناقشة ، لجواز أن يخرجوا عند عدم إرادتهم الخروج باليأس أو الذهول ـ أونحو ذلك .

وعن الرابعة ـ بعد تسليم إفادتها النفي عن كلّ فرد ، ودلالتها على دوام عدم الغيبة ـ إنّها مختصة بالكفّار . جمعاً بين الأدلّة .

وكذا الخامسة والسادسة ـ حملاً للمحدود على حدود الإسلام ، ولإحاطة

الخطيئة على غلبتها بحيث لايبقى معها الايمان . هذا مع مافي الخلود من الإحتمال وعلى هذا القياس الجواب عن سائرأدلّتهم النقليّة على وجه التفصيل .

* * *

وللمعتزلة أيضاً أدلّة عقلية على ثبوت مذهبهم :

منها : إنّ الفاسق لودخل الجنّة لكان باستحقاق ـ لامتناع دخول غيرالمستحق كالكافر ـ واللازم منتفٍ لبطلان الاستحقاق بالإحباط أو الموازنة .

والجواب بمنع المقدمّتين ، وبطلان الإحباط والموازنة .

ومنها : إنّه لوانقطع عذابُ الفاسق ، لانقطع عذابُ الكافرقياساً عليه بجامع تناهي المعصية .

والجواب ـ على تقدير عليّة التناهي ـ بمنع تناهي الكفر قدراً ، ومنع اعتبار القياس في مقابلة النصّ في الاعتقادات .

ومنها : إنّ الوعيد بالعقاب الدائم لطفٌ بالعباد ـ لكونه أزجر عن المعاصي فإنّ منهم من لايكترث بالعذاب المنقطع عند الميل إلى المستلذّات ـ ثمّ لابد من تحقيق الوعيد تصديقاً للخبر وصَوناً للقول عن التبديل .

والجواب منع انحصار اللطف في وعيد الدوام ، فانّ من يكترث باللبث في الجحيم أحقاباً ، فلايستكثر الخلودَ فيها عقاباً ، وإذ قدكان كلّ وعيد لطفاً ، ولاشيء من الوعيد لطفاً للكلّ ، فليَكُن لطفُ الخلود في النار مختصّاً بالكفار ، وكفى بوعيد النيران ـ بل وعد الجنان ـ لطفاً ومزجراً لأهل الايمان .

فصلٌ

[احتجاجات القاطعين بعدم خلود أهل الكبائر]

قول الأصل

وأمّا القاطعون بنفي العقاب عن أهل الكبائر فاحتجّوا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَىٰ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ [٢٧/١٦] ﴿ يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [٥٣/٣٩] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [٦/١٣] ﴿ لَايَصْلَاهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَىٰ * ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [١٥/٩٢-١٦] .

وبالعمومات الواردة في الوعد ، مثل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ـ الآية ﴾ [٤/٢] حكَم بالفلاح على كلّ من آمَن .

وعورِض بعمومات الوعيد .

فصلٌ

[احتجاجات القائلين بعفو بعض العصاة]

وأمّا القاطعون بثبوت العفو في حقّ البعض ، والتوقّف في حق البعض ، وهم أصحابنا رضوان الله عليهم ، وأهل السُنّة فقد تمسّكوا بنحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [٤٨/٤] وبقوله عزّ من قائل حكاية عن عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [١١٨/٥] .

وظاهرٌ ان هذه الشفاعة وردَت في حق المسلم صاحب الكبيرة قبل التوبة ، إذ لو كان كافراً لايليق الشفاعة في حقّه لنبي ، ولو كان صاحب صغيرة ، أو تائباً عن الكبيرة ، لم يجز منه تعالى عذابه عقلاً . وإذا صحّت الشفاعة لعيسى عليه السلام صحّ القول بها في حقّ محمّد صلى الله عليه وآله بالضرورة .

وبقوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [١٤/٣٦] بمثل البيان المذكور .

ومما يؤكّد دلالة هاتين الآيتين على هذا المطلب مارُوي إنّ النبي ﷺ تلى قولَ إبراهيم : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقول عيسى : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ثمّ رفَع يدَيه وقال : « اللهم ـ أمّتي ، أمّتي » وبكى . فقال الله : « ياجبرئيل ـ اذهبْ إلى محمّد ـ وربُّك أعلم ـ فسلْه : « مايُبكيكَ ؟ » فأتاه جبرئيل عليه السلام، فسئَله . فأخبرَه رسولُ [الله] ﷺ ـ قال: ـ فقال الله : «ياجبرئيل ـ اذهبْ إلى محمّد ، فقل : إنّا سنرضيك في أمّتك ، ولانسُوْك » ـ رواه مسلم في صحيحه[١] .

ومما يدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَىٰ ٱلرَّحْمٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْدًا ﴾ [١٩/٨٥-٨٧] أي المجرمون لايستحقّون أن يشفع لهم إلّا إذا كانوا قد اتّخذوا عند الرحمن عهداً،فكلّ من اتّخذ عهداً عنده وجَب دخولُه في الآية ، وصاحب الكبيرة اتّخذ عند الرحمن عهد التوحيد والإسلام ، فوجَب أن يكون داخلاً . وأمّا اليهود فنترك العمل بها في حقّه لضرورة الإجماع .

ومن ذلك قوله تعالى في صفة الملائكة : ﴿ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [٢١/٢٨] بيانه إنّ صاحب الكبيرة مرتضى عند الله من حيث ايمانه وتوحيده ، وكلّ مَن هو مرتضى عنده بحسب هذا الوصف صدقَ عليه إنّه مرتضى عنده ، لأنّ مفهوم المطلق جزء مفهوم المقيّد ، فمتى صدق المقيّد صدق المطلق ، فثبت انّ المؤمن الفاسق مرتضى عند الله ، فهو داخل في شفاعة الملائكة ، ومَن دخل في شفاعتهم دخل في شفاعة النبي ﷺ ، إذ لاقائل بالفرق .

لايقال : إنّ الفاسق ليس بمرتضى من حيث فِسْقه ، وإذا لم يكن مرتضى من

---

١) مسلم : كتاب الايمان : ٧٨/٣ .

وجه لم يكن مرتضى ، فوجب أن لايكون أهلاً للشفاعة بالبيان المذكور .

لأنّا نقول : قد تقرّر في العلوم العقليّة إنّ المهملتين لاتتناقضان ، فقولنا : « الفاسقُ مرتضى » لايُناقض قولنا : « إنّه ليس بمرتضى » لجواز أن يكون مرتضى من وجه ، غير مرتضى من وجه آخر . فمتى ثبت إنّه مرتضى بحسب إسلامه ثبت كونه مرتضى ، وإذا كان المستثنى مجرد كون أحد مرتضى فوجب دخوله تحت المستثنى وخروجه عن المستثنى منه ، فثبت إنّه من أهل الشفاعة ـ وهو المطلوب .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[٦/١٣] ورُوي[١] إنّ النبي ﷺ لم يزل يسئل في امته حتّى [قيل] له : «أما تَرضى وقد أُنزلت عليك هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِم ﴾ وفي تفسير قوله : ﴿وَلَسَوفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [٩٣/٥] قال : « لايرضى محمّدٌ ﷺ وأحد من اُمّته في النار » .

وكان أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يقول[٢] : أنتم أهل العراق تقولون : أرجى آية في كتاب الله عزوجل قوله : ﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم ـ الآية ﴾ ونحن أهل البيت نقول : أرجىٰ آية في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ .

وأمّا الأخبار: فقد روي عنه ﷺ إنّه قال[٣] : « اُمّتي اُمّةٌ مرحومةٌ لاعذاب عليها في الآخرة ، عجّل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن . وإذاكان يوم القيامة رفع إلى كلّ رجُل من امّتي رجُل من أهل الكتاب ، فقيل : هذا فداؤك من النار » .

٦٣٦/١٤

١) قال العراقي (ذيل الاحياء : ١٤٧/٤) : لم أجده بهذا اللفظ . ورواه في كنز العمال

٢) الدر المنثور : ٣٦١/٦ . وفي مجمع البيان في ذيل الآية نسبه إلى محمد بن علي الحنفية .

٣) جاء الشطر الأول في الجامع الصغير : ٦٥/١ .

وفي الخبر [١] : « لو لم يذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون ليغفرَ لهم » وفي لفظ آخر : « لَذهبَ بهم وجاء بخَلْق آخر يذنبون فيغفر لهم ، إنّه هو الغفور الرحيم » .

وفي الخبر [١] : « لو لم تذنبوا لخشيتُ عليكم ماهو شرٌّ من الذنوب » قيل : « ماهو » ؟ قال : « العُجْب » .

وقال ﷺ [٢] : « والذي نفسي بيده لَلّه أرحمُ بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقةِ بولدِها » .

وفي الخبر : « ليغفرنّ اللهُ يومَ القيامة مغفرةً ماخطَرتْ قطّ على قلب أحد ، حتّى أنّ إبليس ليتطاولُ رجاءَ أن يصيبه » .

وفي الحديث الطويل [٣] : إنّ الأعرابي قال : يارسول الله مَن يلي حسناتِ الخلْق ؟ فقال : [الله] تبارك وتعالى . قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم . فتبسّم الأعرابي ، فقال ﷺ : ممَّ ضحكتَ ياأعرابي ؟ فقال : إنّ الكريم اذا قدر عفى ، وإذا حاسَب سامَح . فقال ﷺ : صدق . ألا ـ ولاكريم أكرم من الله ، هو أكرم الأكرمين ـ ثمّ قال : ـ فقه الأعرابي .

وفي الخبر المشهور [٤] : إن الله كتَب على نفسِه قبل أن يخلق الخلق : « إنّ رحمتي تغلب غضبي » .

وفي الحديث [٥] : « مَن كان آخر كلامه « لاإله إلاّ الله » لم تمسّه النار . و[٦] « مَن لقي الله لايُشرك به شيئاً حرمت عليه النار » .

---

١) جاء مايقرب منه في الجامع الصغير: ٢/ ١٣١ والدر المنثور : ٥/ ٣٣٢ .

٢) مضى في ص : ٢٠٧ .

٣) جاء الحديث في الإحياء(٤ / ١٤٩) وقال العراقي في تخريجه : «لم أجد له أصلاً» .

٤) المسند : ٢/ ٤٣٣ .

٥) الجامع الصغير ٢ / ١٧٩ : من كان آخر كلامه لاإله إلا الله دخل الجنة .

٦) الجامع الصغير ٢ / ١٨١ : من لقي الله لايشرك به شيئاً دخل الجنة .

وفي خبر آخر[١] : « لو علِم الكافرُ سعة رحمة الله ماآيس من جنّته أحد » .

ولما تلى [رسول الله] ﷺ[٢]: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ـ الآية﴾ فقال: « أتدرون أيّ يوم هذا ؟ يوم يقال لآدم : قم فابعثْ نصيب النار من ذريّتك .

فقيل : « مِن كمْ ؟ » قال : « من كلّ ألف تسعمأة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحداً إلى الجنّة»[٣].

ـ قال : ـ فأيس القوم وجعلوا يبكون يومهم وتعطّلوا عن الأشغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله وقال : « مالكم لاتعملون ؟ » قالوا : « ومن يشتغل بالعمل بعد ماحدّثتنا بهذا » ؟ قال : «كم أنتم في الأمَم ؟ أين يأجوج ومأجوج ـ أمم لايحصيها إلاّ الله تعالى ـ ؟ إنّما أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، وكالرقمة في ذراع الدابّة » .

وفي رواية أبي سعيد ، عن النبيّ ﷺ : «[٤] . . . ثمّ تضرب الجسر على جهنّم وتحلّ الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلّم سلّم . . . فيمرّ المؤمن كطرفة العين ، وكالبرق، وكالريح ، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب . فناجٍ مسلم ، ومخدوش

---

١) احياء العلوم: ٤ / ١٥٠ .

٢) جاء بألفاظ مختلفة : راجع الدر المنثور : ٤ / ٣٤٣ .

٣) وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدرى، قالوا يارسول الله وأيّنا ذلك الواحد؟ قال : ابشروا إن منكم رجلاً ، من يأجوج ومأجوج ألفاً . ثم قال : والذى نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة . فكبرنا ذلك . فقال أرجوا ان تكونوا ثلث أهل الجنه . فكبرنا . قال : أرجوا أن تكونوا نصف أهل الجنـة . فكبرنا . فقال : ما أنتم فى الناس الا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض . أوكشعرة بيضاء في جلد ثور أسود ـ منه ره .

٣) مسلم :كتاب الايمان : ٣ / ٢٩ . وفيه اضافات وفروق. وراجع أيضاً البخاري : ٩ / ١٥٩ .

مرسل ومكدوس [1] في نار جهنّم . حتّى إذا خلص المؤمنون من النار .

فوالذي نفسي بيده [2] مامن أحد منكم بأشدّ مناشدة في الحقّ وقد تبيّن لكم من المؤمنين [2] لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ، يقولون : ربّنا كانوا يصومون معنا ويصلّون ويحجّون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار . فيخرجون خلقاً كثيراً .

ثمّ يقولون : ربّنا مابقي فيها أحد ممن أمرتنا به . فيقول : ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه . فيخرجون خلقاً كثيراً . ثمّ يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فاخرجوه . فيخرجون خلقاً كثيراً . ثمّ يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه . فيخرجون خلقاً كثيراً .

ثمّ يقولون . ربّنا لم نذر فيها خيراً . . . فيقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع النبيّون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين . فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قطّ ، قد عادوا حمماً ، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنّة ـ يقال له : نهر الحيوة ـ فيخرجون كما تخرج الحبّة في حميل السيل . . . ، فيخرجون كاللؤلؤ ، في رقابهم الخواتم . فيقول أهل الجنة : هؤلاء عُتقاء الرحمن ، أدخلهم الله الجنّة بغير عمل عملوه ، ولاخير قدموه » .

ومما رواه الثقات بروايات مختلفة أخصرها لفظاً ، إنّه قال ﷺ [3] : « إذا كان يوم القيامة ماجَ الناس بعضهم في بعض . فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع إلى ربك . فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فانّه خليل الرحمن . فيأتون إبراهيم

---

١) كدست الخيل : ركب بعضها بعضاً . ونقله بعض الرواة بالشين المعجمة : مكدوش وكدشه كدشاً : ساقه .

٢ـ٢) مسلم : مامنكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين . . .

٣) مسلم : كتاب الايمان ، الشفاعة : ٣ / ٦٢ وفيه فروق يسيرة .

عليه السلام ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى عليه السلام ، فإنّه كليم الله . فيأتون موسى، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنّه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى عليه السلام فيقول : لست لها . ولكن عليكم بمحمّد صلى الله عليه وسلم .

فيأتونني ، فأقول : أنا لها . فاستأذنُ على ربّي ، فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لاتحضرني الآن . فأحمده بتلك المحامد ، وأخرّ له ساجداً . فيقال : يامحمّد ـ ارفع رأسك وقل تسمع ، وسلْ تعطه ، واشفع تشفّع .

فأقول : ياربّ أمّتي ، أمّتي .

فيقال : انطلق ، فاخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان .

فأنطلقُ ، فأفعلُ . ثمّ أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثمّ أخرّ له ساجداً . فيقال: يامحمّد ـ ارفعْ رأسك ، وقلْ تسمعْ ، وسلْ تعطه ، واشفع تشفّع .

فأقول : ياربّ ـ امّتي ، امّتي . فيقال : أنطلق واُخرج من كان في قلبه مثقال ذرّة أو خردلة من ايمان .

فأنطلقُ ، فأفعلُ . ثمّ أعودُ فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرّ له ساجداً . فيقال: يامحمّد ـ ارفعْ رأسَك، وقلْ تسمع ، وسلْ تعطه ، واشفع تشفّع . فأقول: ياربّ أمّتي ، أمّتي . فيقال: انطلق واخرج من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال حبّة خردل من ايمان ، فاخرجه من النار .

فانطلقُ فأفعلُ ، ثمّ أعود إليه الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثمّ أخرّ له ساجداً ، فيقال : يامحمّد ـ ارفع رأسَك ، وقلْ تسمع ، وسلْ تعط ، واشفع تشفّع .

فأقول : ياربّ ـ ائذن لي فيمن قال « لاإله إلا الله » قال : ليس ذلك لك . ولكن ـ وعزّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي ـ لأخرجنّ منها من قال: «لاإله إلا الله».

إلى غير ذلك من الأخبار الدالّة على ثبوت الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وثبوت العفو منه تعالى أكثر منها ، وهي أكثر من أن تحصى .

فصـلٌ

[توجيهات المعتزلة للنصوص]

إنّ المعتزلة [1] ـ القاطعين بنفي العفو والشفاعة ـ ذكروا في آيات الرجاء وأحاديث الشفاعة تمحّلات شديدة وتعسّفات عنيفة ، وقيّدوا الحكم في كثير من الآيات باشتراط التوبة ، وقالوا : في هذا الحديث ونظائره من أحاديث يوم القيامة وجوهاً من الايراد :

منها إنّ هذه الأخبار أخبارطويلة جداً ، فلايمكن ضبطها بلفظ الرسول ﷺ . فالظاهر إنّالراوي إنّما رواها بلفظ نفسه ، وعلى هذا التقديرلايكون شيء منها حجّة

ومنها انّها مشتملة على التشبيه وذلك باطلٌ ، فيتطرق بسببه التهمة إليها .

ومنها انّها وردت على خلاف ظاهر القرآن ، وذلك أيضاً مما يطرق التهمة إليهـا .

ومنها انّها خبرٌ عن واقعة عظيمة تتوفّر الدواعي على نقلها ، فلو كان صحيحاً لوجب بلوغه حدّ التواتر ، وحيث لم يكن كذلك تطرّقت التهمة إليها .

ومنها انّ الإعتماد على خبر الواحد الذي لايفيد إلا الظنّ في المسائل العلميّة غير جائز ، وهذه المسئلة علميّة لايعوّل فيها على الظنّ .

والجواب عن هذه المطاعن بأنّ كل واحد من هذه الأخبار ، وإن كان مرويّاً بالآحاد ، ولكن القدْر المشترك بين مجموعها ـ لأنّها كثيرة ـ فهو متواتر المعنى ، فيكون حجّة علميّة .

* * *

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٥١٢ .

وذكروا أيضاً [١] في استدلال القاطعين بثبوت الشفاعة بقوله ﷺ : « ادّخرت شفاعتي لاهل الكبائر من اُمّتي » وجوهاً من الاشكال :

أحدها إنّه خبر واحد على مضادّة القرآن ، فانّا بينّا انّ كثيراً من الآيات يدلّ على نفي هذه الشفاعة ، وخبر الواحد إذا ورَد على خلاف القرآن وجب ردُّه .

وثانيها إنّه يدلّ على أنّ شفاعته ليست إلاّ لأهل الكبائر ، وهذا غير جائز ، لأنّه يقتضي حرمان أهل الثواب عن هذا النصيب .

وثالثها إنّ المراد الاستفهام الإنكاري ، كقوله تعالى حكاية عن الخليل : ﴿هٰذَا رَبِّي﴾ [٦/٧٧] أي : « أهذا ربّي ؟ » فالمراد : ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من اُمّتي ؟

ورابعها إنّ لفظ الكبيرة غير مختصّ بالمعصية ، بل يتناول الشفاعة كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَىٰ ٱلْخَاشِعِينَ﴾ فلعلّ المراد منه أهل الطاعات الكبيرة .

وخامسها انّه يصدق عليهم بعد التوبة انّهم من أصحاب الكبائر ـ لأنّ صدق المشتقّ لايقتضي دوام الاتّصاف بمبدء الاشتقاق ، فنحن نحمل الخبر على أهل المعاصي الكبيرة بعد التوبة ، ويكون تأثير الشفاعة في أن يتفضّل الله عليهم بما انحبط من ثواب طاعاتهم المتقدّمة على فسوقهم هذه وجوه أجوبتهم وكلها تعسّفات .

[وجوه اُخرى في تأييد مسئلة الشفاعة]

واعلم إنّ هيهنا وجوهاً أخرى نقليّة وعقليّة يمكن التمسّك بها لهذا المطلب :

الأوّل : إنّ الآيات والأخبار الدالّة على أنّ المؤمنين يدخلون الجنّة ألبتّة كثيرة ، وليس ذلك قبل دخول النار إن كان ، فتعيّن أن يكون إمّا بعده ، وهو مسئلة انقطاع العذاب او بدونه ، وهو مسئلة العفو التامّ كقوله : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

١) تفسير الفخر الرازي : ١ / ٥١٠ .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ [٧/٩٩] و ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [٤٠/٤٠] .

وكقوله ﷺ : « من قال لاإله إلا الله دخل الجنّة » ومايجري مجراه .

وبالجملة إذا دلّت الآيات والأخبار على الوعد والوعيد فلابدّ من التوفيق بينهما ، فإمّا أن يصل العبد إلى دارالثواب ، ثمّ إلى دارالعقاب ـ وهو باطلٌ بالاجماع ـ أويصل إليه العقاب ، ثمّ ينقل إلى دار الثواب ويبقى مخلّداً ـ وهوالمطلوب هيهنا .

الثاني : النصوص المشعرة بالخروج من النار ، كقوله : ﴿ النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَاشَاءَ ٱللَّهُ﴾ [٦/١٢٨] فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنّة فقد فازَ

وكقول النبي ﷺ[1] : « يخرج من النار قوم بعد ماامتحشوا وصاروا فحْماً وحمماً (او حُمَماً) ، فينبتون كما ينبت الحبّة في حميل السيل » .

الثالث : إنّ مَن واظَب على الايمان والعمل الصالح مأة سنة ، وصدَرعنه في أثناء ذلك او بعده جريمةٌ واحدة ، كشُرب جرعة من الخمر ، فلايحسن من الحكيم أن يعذّبه أبد الآباد ، ولو لم يكن هذا ظُلماً فلاظُلم ، أولم يستحقّ بهذا ذمّاً ، فلاذمّ

الرابع : إنّ المعصية متناهية زماناً ـ وهو ظاهر ـ وقدْراً ـ لما يوجد من معصية أشدّ منها ـ فجزاؤها يجب أن يكون متناهياً ، بخلاف الكفر فإنّه لايتناهى قدْراً ، وإن تناهى زمانه .

الخامس : إنّ صاحب الكبيرة أتى بما هو أفضَل الخيرات ـ وهو الايمان ـ ولم يأت بما هو أقبح القبائح ـ وهوالكفر ـ فلايهدمه ماسوى الكفر من المعاصي .

ولهذا قال يحيى بن معاذ الرازي : « إلهي إذاكان توحيد ساعة يهدم كفر سبعين سَنة فتوحيد سبعين سَنة كيف لايهدم معصية سَنة ؟ الهي لمّا كان الكفر لاينفع معه شيء من الطاعات ، كان مقتضى العدل انّ الايمان لايضرّمعه شيء من المعاصي».

---

١) المسند : ٣/٥٦ . امتحش : احترَق . البخاري : ٨/١٤٤ .

وأمّا التمسّك بأنّ « الخلود في النار أشدّ العذاب ، وقد جعل جزاء لأشدّ الجنايات ـ وهو الكفر ـ فلا يصح جعله جزاء لما هو دونه كالمعاصي » فهو ضعيف ـ إذ ربما يدفع بتفاوت مراتب العذاب في الشدّة ، وإن لم يتفاوت في عدم الانقطاع .

فصلٌ

[سرّ الخلود في النار]

واعلم إنّ تكرُّر المعاصي إذا تأدّى إلى رسوخ ملكات سبُعية او بهيميّة أظلمت مرآةَ القلب بها ومنعت عن قبول نور الرحمة الإلهيّة أو نور الشفاعة النبويّة أمكن القول بأنّ صاحب هذه الكبيرة مخلّد في النار .

وهذا هو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾[٢/٨١] أي : صارت ملكة راسخة تصوّرت نفسه في القيامة بصورة حيوان غلبت عليه تلك الصفة فحشرت نفسه بصورة القِرَدة والخنازير .

وكذا صدور بعض المعاصي ـ ولو مرّة ـ كقتل المؤمن متعمّداً كاشف عن كون مرتكبه غير معتنٍ بشأن الدين ، ولامعتقد بأمر الآخرة .

فصلٌ

في سرّ معنى الشفاعة

إنّ نسبة إفاضة نور الوجود والرحمة إلى نور الأنوار ـ جلّت عظمته ـ كنسبة إفاضة النور المحسوس على وجه الأرض إلى الشمس . والقوابل[ط: القوابل] كالقوابل ، فهو سبحانه تامّ الفيض ، عامّ الجود ، فحيث لايحصل ، فإنّما لايحصل لعدم القابليّة .

فكما إنّ النور الحسّي الوارد من الشمس على سطوح الأجسام قد يكون

استقامياً ، وقد يكون انعكاسيّاً ـ الأوّل كوجه ظاهر الأرض في النهار . والثاني كداخل البيوت إذا انعكس شعاع الشمس إليه من سطح الماء أوالحائط الصقيل ، اوكوجه الأرض في الليل إذا كان البدر موجوداً ، فإنّ نور القمر من نور الشمس وقع فيه وانعكس منه على وجه الأرض ـ فكذلك فيض الرحمة الإلهيّة يقع على قوابل الماهيّات استقاميّاً وانعكاسيّاً .

فإنّ من الجائز أن لايكون الشيء مستعدّاً لقبول فيض الوجود عن واجب الوجود لبُعد مناسبته في ذاته ، إلاّ أنّه يكون مستعدّاً لقبول ذلك الفيض من شيء كان قبله عن الواجب جلّ ذكره ، فيكون ذلك الشيء كالمتوسّط بين الواجب تعالى وبين ذلك الشيء الأوّل . فأرواح الأنبياء ﷺ كالوسائط بين نور الأنوار وبين أرواح العوام من الخَلْق في وصول نورالرحمة إلى الأرواح العاميّة ، وهذا معنى الشفاعة .

فالايمان بشفاعة الأنبياء لأُممهم واجبٌ ، لأنّها ـ كما علمت ـ نورٌ يشرق من الحضْرة الإلهية على جواهر النبوّة ، وينتشر منها إلى كل جوهر استحكمت علاقة مناسبتها مع جوهر النبـوّة لشدّة المحبّة والمتابعة ، وكثرة المواظبة على السُنن ، وكثرة الذكر له بالصلوة عليه . وجوهر النبوّة هوبعينه جوهرالروح القدسيّ الإلهي المسمّى عند الفلاسفة بالعقل الفعّال .

فكما إنّ المناسبات الوضعيّة بين المُنير بالذات ، والواسطة ، والمُستنير بها تقتضي الاختصاص بانعكاس النورالحسّي ـ كما إذا وقع نورالشمس على الطست من الماء ، وينعكس منه إلى موضع مخصوص من حائط البيت ـ لاعلى غيره ـ لمناسبة بينه وبين الماء في الوضع ، وتلك المناسبة مسلوبةٌ عن سائرأجزاء الحائط ، وذلك الموضع هو الذي إذا خرج منه خطٌ إلى ظاهر سطح الماء وحصلت بينه وبين ذلك السطح زاوية ، هي بعينها مساوية لزاوية حصلت من الخطّ الخارج من

موقع ذلك الخطّ إلى قرص الشمس وذلك السطح ـ فكذلك المناسبة المعنويّة إذا حصلَت بين روح من الأرواح البشريّة وبين جوهر النبوّة وتقتضي حصول فيض الرحمة بواسطة ذلك الجوهر .

فمَن استولى عليه التوحيد والعرفان فقد تأكّدت مناسبته مع الحضرة الإلهيّة وأشرقَ عليه النور من غيرواسطة ، ومَن استولى[عليه]السنن والإقتداء بالرسول ﷺ وأهل بيت النبوّة والولاية ﷺ ومحبّتهم ، ولم يترسّخ قدمُه في ملاحظة الوحدانيّة لم يستحكم مناسبته إلاّ مع الواسطة ، فافتقر إلى واسطة في اقتباس النور. كما يفتقر الحائط الذي ليس بمكشوف للشمس إلى واسطة الماء المكشوف للشمس إلى مثل هذا .

فهذا هو سرّالشفاعة ـ والكلام وإن كان فيصورة التمثيل، لكنّه مما أقيم عليه البرهان ، ولاشبهة فيه لأهل اليقين والعرفان .

قوله جلّ اسمه :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٤٩)

لما قدّم تعالى ذكر نعمته على بني إسرائيل إجمالا في قوله ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بيّن بعد ذلك تفصيل تلك النعم ليكون أوقع في التذكير وأبلغ في الحجّة عطفاً عليه ،كأنّه قال : « اذكروا نعمتي ، واذكروا إذ أنجيناكم ، وإذ فرّقنا بكم البحر »كعطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة في قوله :﴿وَمَلَائِكَتِهِ [وَرُسُلِهِ] وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [٢/٩٨] .

والإنجاء والتنجية بمعنى واحد وهو التخليص . ولهذا قرىء :﴿وَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ ويقال للمكان المرتفع : « نَجْوة » لأنّ الصائر إليه ينجو من كثير من المضارّ ، ولأنّ المكان العالي بائنٌ مما انحطّ عنه ، فكأنّه متخلّص منه . وربما يفرق بينهما بأنّ الإنجاء [يستعمل في الخلاص قبل وقوعه في المهلكة ، و] [1] التنجية يستعمل في الخلاص بعد وقوعه في المهلكة .

---

١) الإضافة من تفسير مجمع البيان : ١/١٠٤ .

وفي الكشاف (١) : « أصل « آل » أهل . ولذلك يصغّر بأُهيل - أبدل هاؤه ألفاً - وخصّ استعماله بأهل الخطر والشأن كالملوك وأشباههم . ولا يقال : آل الأسكاف والحجّام » .

وحكى الكسائي (٢) : « أُويل » فزعموا انّها أُبدلت ، كما قالوا : « هيهات » و« ايهات » . وقيل : « لا - بل هو أصلٌ بنفسه » . وقال علي بن عيسى(٣): « الأهل أعم من الآل . يقال : أهل الكوفة . وأهل البلد . وأهل العلم . ولايقال : آل الكوفة . وآل البلد . وآل العلم » . قال أبو عبيدة : « سمعت أعرابياً فصيحاً يقول : آل مكة آل الله . فقلنا : مانعني بذلك ؟ قال : أليسوا مسلمين ؟ المسلمون آل الله » . وقال ابن دريد : « آل كلّ شيء شخصه . وآل الرجل أهله وقرابته » .

والظاهر إنّ الآل مأخوذ من الأوّل - وهو الرجوع - فكلّ من يَؤول إلى أحد بنسَب أو قرابة جسمانية أو معنويّة فهو آله . وأهله : كلّ من يضمّه بيته .

قال بعض الأفاضل : « آل النبي كلّ من يؤول إليه . وهم قسمان : الأوّل من يؤول إليه مآلا صوريّاً جسمانيّاً ، كأولاده ومن يحذو حذوهم من أقاربه الصوريين ، الذين يحرم عليهم الصدقة . والثاني من يؤول إليه مآلا معنويّاً روحانيّاً ، وهم أولاده الروحانيّون من العلماء الراسخين والأولياء الكاملين ، سواء سبقوا بالزمان اولحقوه .

ولاشكّ انّ النسبة الثانية آكد من الأولى ، وإذا اجتمعت النسبتان كان نوراً على نور ، كما في الأئمة المشهورين من العترة الطاهرة - صلوات الله عليهم أجمعين - .

وكما حرم على الأولاد الصوريّين الصدقة الصوريّة ، حرم على الاولاد

---

١) الكشاف : ١ / ٢١٣ .

٢) مجمع البيان : ١ / ١٠٤ .

٣) تفسير الفخر الرازي : ١ / ٥١٤ .

المعنويّين الصدقة المعنويّة ، أعني تقليد الغير في العلوم والمعارف » ـ انتهى كلامه تلخيصاً .

وآل الخيمة : عَمَده . وآل السفينة : ألواحه . وآل الجبل : أطرافه ونواحيه .

وفِرعون : اسم لملِك العَمالِقة . كما يقال لملِك الروم : قيصر ، ولملِك الفُرس : كِسرى ، ولملك التُرك : خاقان ، ولملك اليَمن : تبّع . فهو على هذا بمعنى الصفة . ولعتوّهم اشتق منه «تَفرعَن الرجُل» إذا عَتى . ويقال لهم : الفراعنة .

وقيل : إن اسم فرعون : مصعب بن ريّان . وقيل: هو ابنه . واسمه : وليد بن مصعب عن بقايا عاد . وفرعون يوسف : ريّان وكان بينهما أكثر من أربع مأة سنة . وقال وهب : « انهما واحد » وهو غير صحيح . وذكر ابن منبه : إنّ أهل الكتابين قالوا : اسمه قابوس . وكان من القِبط ، وربما ينسب إلى العلم ويسمّى « افلاطون القِبط » . وقال ابن اسحق : هو من أشدّ الفراعنة .

﴿ يَسومُونَكم ﴾ أي يبغونكم . من سامَه خسفاً إذا أولاه ظُلماً . وأصله من السوم وهو الذهاب إلى طلب السلعة .

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ : أفظَعه ، فإنّه يقبح بالقياس إلى سائره ، وهو مصدر «ساء ، يسوء » . ونصبه على المفعول . والجملة حال من الضمير في ﴿ أَنجَيْنَاكُم﴾ أو من ﴿آلِ فِرْعَونَ ﴾ لأنّ فيها ضمير كلّ منهما .

* * *

واختلف أهل التفسير في العذاب الذي نجّيهم الله تعالى منه[١]، فقال بعضهم : ماذكر في الآية ـ وهو قوله : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ بياناً لـ ﴿ يَسُومونَكُم ﴾ ولهذا لم يعطف .

وقال بعضهم : إنّه جعلهم خولا وخدماً ، وجعلهم في أعماله أصنافاً . فصنف

١) مجمع البيان : ١/ ١٠٥ .

كانوا يخدمونه ، وصنف يحرثون له ، وصنف يزرعون له ، ومن لا يصلح منهم للعمل ضربوا عليهم الجزية . وكانوا مع ذلك يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويدل عليه قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾[٦/١٤] فعطفه على ذلك دلالةٌ على التغاير. والمعنى: « يقتلون أبناءكم ويستبقون بناتكم » أي يدعونهن أحياء ليستعبدن وينكحونهن على وجه الاسترقاق ــ وهذا أشدّ من الذبح .

وإنّما لم يقل : « بناتكم » لأنّه سمّاهن بالاسم الذي يؤول حالهن إليه .

وقيل: إنّما قال ﴿نِسَاؤُكُمْ﴾ على التغليب ، فإنّهم كانوا يستبقون الصغار والكبار منهن .

وقرىء يذبحون ــ بالتخفيف ــ .

وقيل : أراد بقوله : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ الرجال البالغين دون الأطفال ، ليكون في مقابلة النساء لأنّهن البالغات وذلك لأنّهم الذين يخاف منهم الخروج والتجمع دون الأطفال .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالآية الأطفال ــ دون الرجال ــ وهو أولى بوجوه من التأييد : لحمل اللفظ على ظاهره . وللشهرة . ولتعذّر قتل جميع الرجال على كثرتهم ، ولحاجة فرعون وقومه إليهم في صنائعهم الشاقّة الصعبة ـ قال السدّي: كان قد جعلهم في الأعمال القذرة الصعبة ، ككنْس المبرَز ، وعمل الطين ، ونحْت الجبال ـ ولأنّه لو كان كذلك لم يكن لالقاء موسى عليه السلام في التابوت حال صِغَره معنى.

وأمّا وجه مقابلة الأبناء مع النساء فقد مرّت الإشارة إليه ، وهي إنّ البنات لمّا لم يقتلن ووصلْن إلى حدّ النساء صحّ عليهنّ إطلاق النساء حقيقة ومجازاً باعتبار مايؤلن . وأمّا البنين فلما قتلوا حال الطفولية ولم يبلغوا لم يصح اطلاق الرجال عليهم ــ لا في الحال ولا بحسب المآل .

فصلٌ

[سبب قتل الأبناء ، وسرّه]

لابدّ في قتل الأبناء من سبب صوريّ داعٍ لفرعون عليه ـ لأنّه كان من العقلاء والعاقل لايختارشيئاً إلاّ لمرجّح باعتقاده ـ ومن سبب حِكمي،فإنّ الله تعالى لايقضي بقتل طائفة إلاّ لحكمة :

امّا الأوّل فذكروا فيه وجوهاً :

الأوّل: إنّ فرعون رأى في المنام كأنّ ناراً أقبلَت من بيت المقدس حتّى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل . فهالَه ذلك ودعا السحَرة والكهَنة ، فسألهم عن رؤياه . فقالوا : إنّه يولد في بني إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال مُلكك وتبديل دينك . فأمَر فرعون بقتل كلّ غلام يولد في بني إسرائيل ـ عن السدّي .

الثاني قول ابن عباس : إنّه وقع إلى فرعون وتبعته ماكان الله وعَد إبراهيم أن يجعل في ذرّيته أنبياء ملوكاً . فخافوا واتّفقت كلمتهم على إعداد رجال معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل ، فلايجدون مولوداً ذكَراً إلاّ ذبَحوه . فلمّا رأوا أنّ كبارَهم يموتون وصغارهم يُذبحون فخافوا الفناء،فحينئذ لايجدون من يباشر الأعمال الشاقّة،فصاروا يقتلون عاماً دون عام . فوُلد هارون في السَنة التي لايذبحون فيها فترك . وولد موسى في السَنة التي يَذبحون فيها .

الثالث إنّ المنجمين أخبَروا فرعون بذلك ، وعيّنوا له السَنة ، فلهذا كان يقتل أبنائهم في تلك السَنة .

---

١) راجع مجمع البيان : ١/١٠٦ وتفسير الفخر الرازي : ١/٥١٧ .

وخير هذه الأقوال أوسطها ، لأنّ الذي يستفاد من علم التعبير وعلم النجوم لايكون أمراً مفصّلاً ، وإلاقدح في كون الإخبار عن الغيب معجزاً . بل يكون أمراً مجملا تخمينيّاً . والظاهر من حال الرجل العاقل أن لايقدم على مثل هذا الأمر العظيم بسببه .

فإن قيل : إنّ فرعون ـ مع كُفره ـ كيف أقدم على هذا الأمر بسبب إخبار إبراهيم عليه السلام ؟

يقال : لعلّه كان عارفاً بالله وبصدق رُسله ، إلاّ انّه كان كافراً ـ كفرَ الجحود والعناد ـ أو كان شاكاً في دينه ، مجوّزاً لصدق ذلك ، فَعل مافعَل احتياطاً .

* * *

وأمّا الثاني فقد أشار بعض أصحاب الكشف والمعرفة إلى هذه اللمّية بقوله في الفصّ الموسوي من كتابه المسمّى بفصوص الحكم [1] : «حِكمةُ قَتل الأبناء من أجْل موسى عليه السلام ليعود إليه بالإمداد حيوة كلّ من قُتل من أجْله ، لأنّه قُتل على أنّه موسى ـ وما ثَمَّ جَهل ـ فلابدّ أن تعود حيوته إلى موسى ، أعني حيوة المقتول من أجْله ، وهي حيوة طاهرة على الفطرة لم تدنّسها الأغراض النفسيّة ، بل هي على فِطرة « بَلىٰ » فكان موسى مجموع حيوة من قُتل على أنّه هو ، فكلّ ماكان مهيّئاً لذلك المقتول ممّاكان استعداد روحه له كان في موسى عليه السلام ، وهذا اختصاص إلهيّ بموسى لم يكن لأحد قبله » ـ انتهى كلامه ـ .

واعلم إنّ أرواح الكمّل من الأنبياء والأولياء كليّة ـ لابمعنى إنّها مفهومات كليّة ـ بل بمعنى إنّ كلّا منها مع شخصيّته ووحدته له مقام جمعي يجمع شؤُنات الأفراد ، لقوّة وجوده وكماله وتمامه ، فالوجود كلّما قرُب إلى الوحدة الجمعيّة الإلهيّة صار أكثر حيطةً وأجمع أعداداً ، كما إنّ الإنسان الواحد له نفسٌ واحدة

[1] فصوص الحكم : ١٩٧ .

جامعة لجميع القُوى النباتيّة والحيوانيّة ، وذلك لأنّ وجودها أعلى مرتبة من وجود النفوس النباتيّة والحيوانيّة ، فيحيط بها ويستحفظها ويستخدمها . وكذلك حال أرواح الأنبياء بالقياس إلى أرواح أممهم .

فإذا وقع في العالَم وباء أو موتان أو قتل عام ، يحدث عند ذلك شخص عظيم من عظماء النبوّة ، أو المُلك ، أو الحِكمة ، لرجوع قوى نفوسهم إلى قوّة نفس واحدة ، كما إذا وقع فساد في بعض القُوى الحسّاسة والمحركة في الإنسان ، يرجع قوّته إلى ماسواه من القُوى بالإمداد والجمعيّة ، بل الوجود كلّه من عين واحدة - يُجمع تارةً وينتشر أخرى - .

فهذه هي الحكمة [التي] ذكروها في هذا المقام . قال الشيخ العطار :

صد هزاران طفل سر ببريده شد * تاكليم الله صاحب ديده شد

* * *

قال بعض المحقّقين [1] : « اعلم إنّ التعيّنات اللاحقة للوجود بعضها كليّة كالتعيّنات الأوليّة اللاحقة للوجود بحسب الفطرة الأولى ، وهي التي يتعيّن بها أسماءُ الله الحُسنى أوّلاً ، سواء كانت جنسيّة او نوعيّة ، وبعضها شخصيّة كتعيّنات الطبائع النوعية الواقعة بحسب الفطرة الثانية في عالَم الحركات ، وهي التي منشأها اختلاف العوارض والاستعدادات اللاحقة للاعداد من جهة استعداد المواد .

والتعيّنات الأوّليـة تقتضي في عالَم الأرواح حقائق روحانيـّة مجرّدة وطبائع كليّة ، وأوّلها وأقدمها التعيّن الأوّل ، المسمّى بالعقل الأوّل ، وأمّ الكتاب والقلَم الأعلى ، والنور المحمّدي ، لقوله ﷺ [2] : « أوّل ماخلَق الله العقل »

---

١) الظاهر انالكلام مأخوذ مما قاله عبدالرزاق القاساني شارح الفصوص فى شرح الفص الموسوى .

٢) الفقيه : ٤ / ٢٦٥ : أول خلق خلقه الله تعالى العقل .

وقوله (1) ﷺ : « أوّل ما خلق الله نوري » .

وهو يتفصّل بحسب التعيّنات والتنزّلات الأوّلية الروحانيّة إلى العقول السماوية والأرواح العلويّة والكرّوبيين وأرواح الكمّل من الأنبياء والأولياء ﷺ .

فالعقل الأوّل تعيّن كلي يشمل جميع هذه التعيّنات التي كلّ منها أيضاً كلّي بالإضافة إلى مادونها ، ويمدّها ويُفيض عليها النور والحيوة ، وقياس إحاطته الوجوديّة لتلك العقول والأرواح الكليّة كقياس الإحاطة العموميّة لجنس الأجناس بالنسبة إلى سائر الأجناس والأنواع التي تحته .

وقد علمت إنّ الكليّة في هذا المقام تُستعمل بمعنى آخر، فلا تخلط ولا تخبط ، فإنّ الأرواح المتعيّنة بالتعيّنات الكليّة الأسمائيّة من المجردات العقليّة والنفوس الملكيّة والفلكيّة ، والأرواح النبويّة ، ممدّات ومفيضات لِما تحتها من الأرواح الجزئيّة المتعيّنة بالتعيّنات البشريّة وحاكمة عليها ، وسائسة لها سياسة الأنبياء ﷺ أممها . فنفوس الأمم بالنسبة إليها كالقوّى الجسمانيّة والنفسانيّة بالنسبة إلى أرواحنا المدبّرة لأبداننا .

وإذا تقرّر هذا فنقول : أرواح الأنبياء هي المتعيّنة بالتعيّنات الكليّة في الصفّ الأول ، وأرواح أممهم - بل كثير من الملائكة والأرواح والنفوس الفلكيّة - كالقوّى والأعوان والخدم بالنسبة إليهم . ومن هذا يُعرف سجود الملائكة لآدم أبي البشر ﷺ ، وسرّ طاعة الجن والإنس لسليمان ﷺ ، وسرّ إمداد الملائكة لمحمّد ﷺ في قوله :﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يمدّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ﴾[٣/١٢٤]

فعلى هذا كانت الأبناء الذين قُتلوا في زمان ولادة موسى ﷺ هي الأرواح التي كانت تحت حيطة روح موسى ﷺ وفي حكم أُمّته وأعوانه وخدمه .

فلما أراد الله تعالى إظهار آيات الكلمة الموسويّة ومعجزاتها وحكمها

---

١) البحار : ١/ ٩٧

وأحكامها قدّر الأسباب العِلوية والسِفلية من الأوضاع الفلكيّة والحركات العلويّة المعدّة للموادّ السفليّة والامتزاجات العنصريّة ، وكان علماء القِبط وحكمائهم أخبَروا فرعون وقومه انّه يولد في هذا الزمان مولود من بني إسرائيل يكون هلاك فرعون وذهاب مُلكه على يده . فأمَرَ فرعون بقتل كلّ من يولد في هذا الزمان من الأبناء حذَراً ممّا قضى الله تعالى وقدّر ، ولم يعلم أن لامردّ لقضائه ، ولامعقّب لحكمه .

فكان ذلك سبباً لاجتماع تلك الأرواح في عالَمها وانضمامها إلى روح موسى وعدم تفريقها وانبثاثها عنه بالتعلّق البدني، فيتقوّى بهم ويجتمع فيه خواصّهم . وكلّ ذلك اختصاص من الله لموسى، فما ولد موسى إلّا وهومجموع أرواح كثيرة باتّصال تلك الأرواح متوجّهة إليه بمحبّتها ونوريّتها ، خادمة له ، ولهذا كان محبوباً إلى كلّ من يراه ، لنوريّته ، بتشعشع أنوار تلك الأرواح منه » ـ انتهى كلامه .

* * *

أقول : ولا يتوهمنّ أحد إنّ المراد من هذا الكلام انّ أرواح المواليد المقتولين انتقل بعد القتل ، وصارت بعينها مجتمعة في عالَم الأرواح ، وحصَل من اجتماعها روح موسى عليه السلام ـ كما يوهمه ظاهر الكلام ـ فانّ ذلك ليس بصحيح ، إذ الأرواح ليست كالأجسام ـ تقبل الافتراق والاجتماع ـ وأيضاً انتقالها من أبدانهم إلى بدن موسى عليه السلام يقتضي التناسخ ، وهو مستحيل عندنا .

بل الغرض إنّ القوّة النوريّة الفائضة من الله تعالى بوساطة الأسباب العلويّة المنبسطة على الموادّ العنصريّة في كلّ زمان كأنّها مبلغ واحدٌ قوّة وشدّة ، لا كمّية ومقداراً .

وهذه القوّة إذا صادفت قوابل كثيرة واستعدادات مختلفة متفنّنة انصرفت بإذن [الله] إليها ، وتفرّقت تفرّقاً معنوياً ـ حسب تفريق الموادّ الصالحة لها ، وإذا بطلت الموادّ الكثيرة ، ورجعت قواها وأرواحها الجزئية إلى عالَمها ومرجعها ، ثُمّ حصل

في الوجود قابل صالح لفيَضان تلك القوّة النوريّة الوجوديّة ، انصرفت بكليّتها إليه فصارت القوّة الفائضة كأنّها مجموع تلك القُوى والأرواح ، لاانّها هي هي بعينها من حيث هويّاتها المتعيّنة الشخصيّة ـ وإلاّ لزم التناسخ كما علمت .

فصلٌ

قوله [تعالى] وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

﴿بَلَاء﴾ أي محنة ، إن اشير بـ «ذلكم» إلى صنيعهم من قتْل الأبناء واستحياء النساء ، لما في كلّ منهما من المحنة العظيمة . أو نعمة ، إن اُشير به إلى الإنجاء من الله .

وأصل البلاء الاختبار ، لكن لمّا كان اختبار الله عباده تارةً بالمحنة ، وتارة بالمنحة ، اُطلق على كليهما . فالمراد من ﴿ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ إمّا بتسليط فرعون وقومه عليكم . وإمّا ببعث موسى وتوفيقه لتخليصكم بايحاء الله إليه للإنجاء .

و ﴿ عَظِيمٌ ﴾ صفةُ بلاء .

* * *

وقيل : في هذه الآية تنبيه بليغ للعبد المؤمن على أنّ مايصيبه من خيرأوشر فهو إختبار من الله تعالى ، فعَليه بالقيام بالشكر على مسارّه وبالصبر على مضارّه ، ليكون من خير المختبرين ، وحاله أحسن الحسنين. وإيّاه والغرور بالمسارّ، والشكاية من المضارّ ليكون شرّ المختبرين ، وحاله أقبح القبيحين .

قوله عزّ اسمه :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

هذا هو النعمة الثانية من الله على بني إسرائيل، المذكورة في هذا الموضع .

قوله : ﴿فَرَقْنَا﴾ أي فلقناه وفصّلنا بين أبعاضه حتّى حصلت فيه مسالك لكم إذ الفَرْق هو الفصل بين شيئين إذا كانت بينهما فُرجة ، والفِرْق : الطائفة من كلّ شيء ومن الماء إذا تفرّق بعضه عن بعض، فكلّ طائفة من ذلك فِرْقٌ . ومنه قوله [تعالى] : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [٢٦/٦٣] وقُرىء :إذ فَرَّقْنَا ـ بالتشديد ـ قال ابن جني : فرّقنا أشدّ تفريقاً من فرَقنا . فمعناه : شقَقنا بكم البحر ، لأنّ المسالك كانت اثنتا عشرة على عدد الأسباط .

وقوله : ﴿ بِكُمْ ﴾ الباء إمّا للسببية الفاعليّة ، أي حصلت فيه فِرَقٌ ، ومسالك بسلوكهم فيه كما يُفرق بين الشيئين بما توسّط بينهما أو الغائيّة ، أي بسبب إنجائكم ولأجله . أو للملابسة ، ويكون في موضع الحال ، أي فرقناه متلبسّاً بكم ، كقـول الشاعر [١] : « تَدوسُ بِنا الجَماجمَ والتريبا » أي : تدوسها ونحن راكِبوها .

---

١) ديوان المتنبي بشرح اليازجي : ٢٠٠ .

كأن خيولنا كانت قديماً * تسقى في قحوفهم الحليبا

فمرّت غير نافرة عليهم * تدوس بنا الجماجم والتريبا

القحوف جمع قحف . وهو العظم الذي فوق الدماغ . والتريب : عظم الصدر .

والنجاة : ضد الغرق ، كما انّها ضدّ الهلاك . و « أغرق في الأمر » إذا جاوز الحدّ فيه .

والمراد من ﴿ آلِ فِرْعَون ﴾ هو وقومه ، فاختصر لدلالة الكلام عليه ، لأنّ الغرض مبنيّ على إهلاك فرعون وقومه ، كقولك : « دخل جيشُ الأمير » . ويكون الظاهر إنّه معهم . ويجوز أن يراد بآل فرعون شخصه ، كقوله تعالى : ﴿ آل موسىٰ وآل هٰرون ﴾ [٢٤٨/٢] يعني موسى وهرون .

وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي تشاهدون غرقهم ، وإطباق البحر عليهم . وهذا أبلغ في الشماتة وإظهار المعجزة ، أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذلّلة . وقيل : جُثثهم التي قذفها البحر إلى الساحل . وقيل : معناه ينظر بعضُكم بعضاً ، بحدوث الكُوى والروازن في فِرَق البحر . وقيل معناه : وانتم بمشهد ومنظر منهم ، حتّى لونظرتم إليهم لأمكنكم ذلك . وهو قول الزجّاج .

ولا يخفى ضعفه ، إذ لم يكن لأصحاب موسى عليه السلام مايشغلهم عن الرؤية ، فإنّهم قد جاوزوا البحر وأقوال المفسّرين متظاهرة على أنّهم رأوا إنفراق البحر والتطام أمواجه بآل فرعون حتّى غرقوا . فلاوجه للعدول عن الظاهر .

[قصّة غرق فرعون]

والقصّة ـ كما روي عن ابن عبّاس [١] ـ : إنّ الله تعالى أوحى إلى موسى أن يسري ببني إسرائيل من مصر . فسرى بهم ليلاً ، فأتبعهم فرعون في ألف ألف حصان سوى الاناث . وكان موسى في ستمأة ألف وعشرين ألفاً . فلما عاينهم فرعون قال: ﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [٥٤/٢٦-٥٦]

---

١) مجمع البيان : ١٠٧/١ .

فسرى موسى ببني إسرائيل حتى هجموا على البحر، فالتفتوا فإذا هم برهج[1] دوابّ فرعون فقالوا : « ياموسى ﴿ اوذينا من قبل أن تاتينا ومن بعد ماجئتنا ﴾ هذا البحر أمامنا ، وهذا فرعون قد رهقنا بمن معه » .

فقال موسى ﷺ : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم [في الأرض] فينظر كيف تعملون ﴾ [١٢٩/٧] فقال له يوشع بن نون : « بمَ اُمرت » ؟ قال : « اُمرتُ أن أضربَ بعصاي البحر » قال : « إضرب » .

وكان الله تعالى أوحى إلى البحر « أن أطِع موسى إذا ضرَبك » قال : فباتَ البحرُ أفكَل - أي رَعِدة - لايدري في أيّ جوانبه يضربه . فضرب بعصاه البحر فانفلق . وظهر اثنا عشر طريقاً ، لكلّ سبط منهم طريق .

فقالوا : « إنّا لانسلك طريقاً نديّاً » فأرسل الله ريح الصباح حتى جفّفت الطريق ، كما قال تعالى : ﴿ فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا ﴾ [٧٧/٢٠] فجَروا فيه .

فلما أخذوا في الطريق قال بعضهم لبعض « مالنا لانرى أصحابنا » ؟ فقالوا لموسى : « أين أصحابنا » ؟ فقال : « في طريق مثل طريقكم » فقالوا : « لانرضى حتّى نراهم » فقال موسى ﷺ : «اللهم أعِنّي على أخلاقهم السيّئة » . فأوحى الله إليه أن أشِر بعصاك هكذا وهكذا - يميناً وشمالا - فأشار بعصاه يميناً وشمالا ، فظهر كالكُوي ينظر منها بعضهم إلى بعض .

فلما انتهى فرعون إلى ساحل البحر - وكان على فرسٍ حصان أدهم - فهابَ دخولَ الماء ، تمثّل له جبرئيل على فرس اُنثى وديق[2] ، وتقحّم البحر . فلمّا رآها الحصان تقحّم خلفها ، ثمّ تقحّم قوم فرعون ، فلما خرجَ آخر من كان مع موسى من

---

١) مجمع البيان : « برهَج دواب فرعون » والرَّهَج : ماأثير من الغبار .

٢) ودقت ذاتُ الحافر : أرادت الفحل ، فهي وديق .

البحر ودخل [آخر] مَن كان مع فرعون البحر أطبَق الله عليهم الماء فغرقوا جميعاً ، ونجا موسى ومن معه .

فصلٌ

اعلم إنّ هذه القصّة قد تضمّنت نعماً كثيرة دنيويّة ودينيّة ، والدينيّة في حقّ قوم موسى وقوم محمّد صلى الله عليهما وآلهما .

أمّا الدنيويّة لهم :

فمنها نجاتهم عن الغرق ، وإهلاك عدوّهم وقومه .

ومنها اختصاصهم بهذه المعجزة الباهرة ، والكرامة الظاهرة .

ومنها استيصال عدوّهم من جهتهم . وأصل الخلاص من مثل هذا البلاء نعمة عظيمة ، فكيف إذا قورن بالإكرام العظيم وإهلاك العدوّ .

ومنها أن أورثَهم أرضَهم وديارَهم ونعمَهم وأموالَهم .

ومنها إنّه كما غرَق العدوّ وهلك غرق آله جميعاً وهلكوا، وإلاّ لكان الخوف بعد باقياً من حيث انّهم ربما اجتمعوا واحتالوا بحيلة وقع منها الضرر بهؤلاء، ولكن لما أهلكهم الله جميعاً فقد حسَم مادّة الخوف بالكليّة .

ومنها إنّه وقع ذلك بمحضر من الأولياء والأعداء جميعاً ، حتى لايخفى على أحد منهم ، وهذا يوجب ابتهاجاً عظيماً ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ - إلى غير ذلك من النعم الدنيويّة .

وأمّا النعم الدينيّة في حق قوم موسى عليه السلام :

فمنها إنّهم لما شاهَدوا تلك المعجزة الباهرة حصَل لهم العلم الضروري على وجود الصانع الحكيم ، وعلى صدق موسى عليه السلام ، وزالَت عنهم الشكوك ، فكأنّه تعالى رفع عنهم كُلفة النظر الدقيق والاستدلال الشاقّ . ومنها إنّهم لمّا عايَنوا ذلك

لزمهم الانقياد والطاعة لموسى عليه السلام وقبول قوله ، ولهم في ذلك سعادة الدارين .

ومنها إنّهم عرفوا إنّ الأمور كلّها جارية على قضاء الله وقدره ، فإنّه لاعزّة في الدنيا أكمل من عزّة فرعون ، ولاشدّة أشدّ ممّا كانت لبني اسرائيل ، ثمّ الله تعالى قلّب الأمْر في ساعة واحدة ، فجعل العزيز ذليلا ، والذليل عزيزاً ، وذلك يوجب انقطاع القلب عما سوى الله ، والاقبال بالكليّة إلى خدمته وطاعته والتوكّل عليه .

وأمّا النعم الحاصلة لهذه الأمّة المرحومة منها فكثيرة :

أحدها إنّها جائت حجّة لنا على أهل الكتاب ، لأنّه كان معلوماً من حال نبيّنا إنّه كان أمّياً لم يقره ولم يكتب . فإذا أخبرهم بما لايعلم إلاّ من الكتب علموا إنّه أخبَر عن الوحي ، فصار دينه حقّاً .

وثانيها إنّا إذا تصوّرنا ماجرَى لهم وعليهم من هذه الأمور العظيمة علمنا إنّ من أطاع الله فقد سعد في الدنيا والآخرة ، ومن خالَفه فقد استحقّ غضب الله عليه في الدنيا والآخرة ، فصار ذلك مقرّباً لنا من الطاعة ومبعّداً عن المعصية .

وثالثها إنّ أمّة موسى عليه السلام مع هذه المعجزات الباهرة والكرامات المحسوسة الظاهرة خالَفوه في أمور حتّى قالوا له : ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [١٣٨/٧] وأمّا هذه الأمّة فمع كون معجزتهم هي القرآن الذي خفي اعجازه ولايظهر إلاّ بالنظر الدقيق انقادوا للنبي صلى الله عليه وآله في كلّ الأحكام ، وماخالَفوه في شيء ألبتّة ، وهذا يدلّ على أنّهم أفضل من أمّة موسى عليه السلام .

وبهذا [١] يخرج الجواب عن إشكال ربما خطَر بالبال ، وهو أن يقال : كيف لم يعط الله تعالى نبيّنا صلى الله عليه وآله مثلَ ماأعطى موسى عليه السلام من الآيات الباهرات ، لتكون الحجّةُ أظهَر ، والشبهة أسقَط ؟

لأنّا نجيب بأنّ الله أعطى كلّ نبيٍ معجزة مناسبةً لقومه وعلى حسب صلاح

---

١) مجمع البيان : ١٠٧/١ .

حالهم ، فنصب الأعلام الباهرة والمعجزات القاهرة لاستصلاح أمّة موسى عليه السلام ، وقد كان في قومه من فَظاظة القلب وبَلادة النفْس وكَلالة الحدس مالم يمكنهم معه الاستدلال بالآيات الخفيّة والبراهين العقليّة . ألا ترى إنّهم لما عبَروا النهر وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ـ بعد ماشاهَدوا من هذه الآيات ـ : ﴿اِجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [١٣٨/٧] .

وكان في العرب والعجَم من أمّة نبيّنا صلى الله عليه وآله من جَودة القريحة وحدّة الفِطنة وذَكاء الذهن ماكان يمكنهم معه الاستدلال بالفكر واقتناص الحقائق بالنظر الدقيق ، والتفطّن بما يحتاج فيه إلى التأويل [١] والتدبّر ، والاستضائة بنور العقل الفعّال في ملاحظة الآيات ، فجائت آياتُهم مشاكلة لقرائحهم المتوقّدة ، ومجانسة لأذهانهم من الدقّة والحدّة .

على أنّ في جميعها من الحجّة الظاهرة ، والبيّنة الزاهرة ماينفي خِلاج الشكّ عن قلب الناظر المُستبين ، ويُفضي به إلى فضاء العلم اليقين ، ويوضح له مناهج الصدق ، ويولِجه موالِج الحقّ ، ومايستوي الأعمى والبصير . ولاينبّئك مثل خبير .

فصلٌ

وهيهنا سؤالٌ آخر : وهو إنّ فرعون ـ كما هو المشهور ـ كان من أهل الفكر والبحث ، وقد لقّب بـ « أفلاطون القِبْط » فلمّا شاهَد فلْقَ البحر ـ وكان من العقلاء ـ فلابدّ وأن يعلم إنّ ذلك من فعْل الله ، ومن فعْل عالِم قادرٍ لمايشاء ، مخالفٍ لسائر القادرين ، فكيف بقيَ على الكفر مع ذلك ؟

وأُجيب بأنّه كان عارفاً بربّه ، إلا انّه كان كافراً على سبيل الجحود والعِناد .

ورُدَّ بأنّه إذا عرف ذلك بقلبه فكيف استجاز تورّط نفسَه في الهلاك

---

١) مجمع البيان : التأمل .

واقتحم البحر؟ !

وأُجيب [١] بأنّ حبّ الشيء يعمي ويصمّ ، فحبّه للجاه والتلبيس حمله على اقتحام تلك المهلكة .

وهذا الجواب ليس بشيء . والأولى أن يقال : إنّ اقتحام البحر لم يكن باختياره ، بل وقع ذلك باقتحام حِصانه الذي ركبه ، كما مرّ في القصّة . أو يقال : إنّه لم يجزم بهلاك نفسه عند دخوله في البحر حتى إذا أدركه الغرق ، ولهذا قال عند الغرق : ﴿ آمَنتُ انَّهُ لاإِلٰهَ إِلاَّ ٱلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [١٠/٩٠] .

[ايمان فرعون مقبولٌ ، أم لا ؟]

واعلم إنّه للعلماء خلاف في أنّ ايمان فرعون حين موته مقبولٌ أم لا ؟ فذهب بعض المحقّقين على الأوّل ، والأكثر على الثاني ـ كما هو المشهور .

وقال الشيخ العربي في الباب [السابع] والستّون ومأة من الفتوحات [٢] :

« لمّا حالَ الغرقُ بينه وبين أطماعه ، لجأ إلى ماكان مستتراً في باطنه من الذلّة والافتقار . . . فقال : آمنتُ بالّذي آمنَتْ به بَنُوإسرَائيل [وأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ][٣] كما قالت السحرة ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِين * رَبِّ مُوسَىٰ وَهٰرُونَ ﴾ [٢٦/٤٧-٤٨] وقوله : ﴿ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ خطابٌ منه للحقّ ، لعلمه إنّه تعالى يَسمعه ويَراه ، فخاطبه الحقُّ بلسان العتب ، وأسمَعه ﴿ ٱلْآنَ ﴾ أظهرتَ ماكنتَ تعلمه ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في اتّباعك . وما قال : ﴿وَأَنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فهي كلمةُ بُشرى له عرّفنا بها لنرجو رحمتَه مع إسرافنا وإجرامنا ، ثمّ قال ﴿فَالْيَوْمَ

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٢٠ .

٢) الفتوحات المكية : ٢/٢٧٦ ، ملخصاً .

٣) آمنتُ انّه لاإِلٰهَ إلاّ الّذي آمنَت به بنوإسرَائيل وَأنَا مِنَ ٱلمُسلِمِينَ [١٠/٩٠] .

نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ فبشّره قبل قبض روحه ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ يعني : لتكون النجاة لمن يأتي بعدك انّه علامة .

وليس في الآية إنّ بأس الآخرة لايرتفع ، ولاانّ ايمانه لم يقبل وإنّما في الآية انّ بأس الدنيا لايرتفع عمن نزل به إذ آمن في حال رؤيته إلاّ قوم يونس . فقوله : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ إذ العذاب لايتعلّق بظاهرك [1] ، وقد أريت الخلق نجاته من العذاب ، فكان ابتداء الغرق عذاباً ، فصار الموت فيه شهادة خالصة بريّه [2] ، لم تتخلّلها معصية ، فقبضت على أفضل عمل ، وهو التلفّظ بالايمان ـ كلّ ذلك ـ حتّى لايقنط أحدٌ من رحمة الله . والأعمال بالخواتيم . فلم يزل الايمان بالله يجولُ في باطنه ، وقد حالَ الطابعُ الإلهي الذاتيّ في الخلْق بين الكبرياء واللطائف الإنسانية ، فلم يدخلها قطّ كبرياء .

وأمّا قوله تعالى : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ ايمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا﴾[٤٠/٨٩]فكلامٌ محقّق في غاية الوضوح ، فإنّ النافعَ هو الله ، فما نفعَهم إلا الله .

وقوله : ﴿ سُنَّةَ ٱللهِ ٱلّتِي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ ﴾ [٤٠/٨٥] يعني الايمان عند رؤية البأس الغير المعتاد . وقد قال تعالى : ﴿ وَللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوعاً وَكَرْهاً﴾ [١٣/١٥] فغاية هذا الايمان أن يكون كرهاً ، وقد أضافَه الحقّ إليه . والكراهة محلّها القلب ، والايمان محلّه القلب . والله لايأخذ العباد بالأعمال الشاقّة عليه من حيث مايجده من المشقّة فيها ، بل يضاعف له فيها الأجر . وأمّا في هذا الموطن ، فالمشقّة فيه بعيدةٌ ، بل جاء طوعاً في ايمانه ، وماعاشَ بعد ذلك كما قال في راكب البحر عند ارتجاجه ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [١٧/٦٧] فنجّاهم ، فلو قبضَهم عند نجاتهم لمَاتُوا موحّدين وقد حصلت لهم النجاة ، فقبض فرعون

---

١) المصدر : لايتعلّق الا بظاهرك .

٢) المصدر : بريئة .

ولم يؤخّر في أجَله في حال ايمانه لئلّا يرجع إلى ما كان عليه من الدعوى .

وأمّا قوله [تعالى] : ﴿ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [١١/٩٨] فما فيه نصٌّ انّه يدخلها معهم ، بل قال: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [٤٠/٤٦] ولم يقل : «أدخلوا فرعونَ وآلِه» ورحمةُ الله أوسع من أن لايقبل ايمانالمضطرّ إذا دعاه . وأيّ اضطرار أعظم من اضطرار فرعون حالَ الغرق ، والله يقول : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [٢٧/٦٢] وهذا آمَن بالله خالصاً ، وما دعاه في البقاء في الحيوة الدنيا خوفاً من العوارض ، أو يحال بينه وبين هذا الإخلاص ، فرجّح جانب لقاء الله على البقاء بالتلفّظ بالايمان ، وجعَل ذلك الغرقَ نَكال الآخرة والأولىٰ فلم يكن عذابُه أكثر من غمّ الماء الأُجاج وقبضه على أحسن صفة .

بهذا يعطى ظاهرُ اللفظ . وهذا معنى قوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [٧٩/٢٦] يعني في أخْذه نَكال الآخرة والأُولى . وقدّم ذكْر الآخرة ليعلم إنّ ذلك العذاب ـ أي الغرق ـ نَكال الآخرة ، وهذا هو الفضل العظيم » انتهى كلامه :

ويفوحُ من هذا الكلام رائحةُ الصدق، وقد صدَر من مشكوة التحقيق وموضع القُرب والولاية .

تنبيـهٌ

قد ذُكر هيهنا اشكال وهـو إنّ فلَقَ البحر بضرب عصا من موسى عليه السلام والدلالة على وجود الصانع وقدرته كالأمر الضروريّ ، فكيف يجوز فعلُه في زمان التكليف ؟

و الجواب امّا على طريقة الأشاعرة فظاهر . وأمّا على طريقة المعتزلة : فقد أجابَ الكعبي بأنّ عامّة بني اسرائيل كانتْ بعيدة العهد عن الفطنة والذّكاء ، ممنوّةً بالبَلادة والفَظاظة وقُصور الفهْم . فلاجرم احتاجوا في التنبّه على حقيّة الايمان بالله ورسله على معاينة الآيات العظام ، كفلَق البحْر ورفْع الطور فوقهم وإحياء الموتى .

ألا ترى إنّهم مع ذلك لم يقنعوا بهذه الدلائل الباهرة ، فتارة قالوا: ﴿إجْعَلْ لَنَا إلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [٧/١٣٨] وتارة قالوا : ﴿يَامُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [٢/٥٥] وأخرى ﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [٤/١٥٣] إلهاً لهم . وأخرى ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [٢/٦١] كلّ ذلك لغلبة الكثافة على طبائعهم ، والغشاوة على بصائرهم ، والطبع والرّين على قلوبهم .

وأمّا هذه الأمّة فلذكاء عقولهم وصفاء قلوبهم كانوا على خلاف ذلك، فلاجرم وقعَ الاقتصار معهم على الآيات الدقيقة والمعجزات العقليّة .

وأمّا على طريقتنا فنقول : ليس في فلَق البحر وقلب العصاء حيّة وما يجري مجراهما زيادة على الدلالة على صدق موسى عليه السلام في جميع مايدّعيه من إثبات الإله الحقّ وادّعاء النبوة وغير ذلك بالدليل العقلي، وأمّا كون ذلك من الضروريّات التي لاحاجة معها إلى البرهان النيّر العقلي فغير مسلّم ، كيف وقد ثبت في علم الميزان « إنّ المحسوس ـ بما هو محسوس ـ لايكون كاسِباً لشيء ولامؤدّياً إلى مطلوب » فليس في المحسوس حدٌّ لشيء ، ولابرهان على شيء ، كما ليس له حدّ ولاعليه برهان

وهذا أمرٌ محقّق عند أئمّة الحكمة والتحقيق، ولذا قال بعض: «الدين الحاصل بالمعجزة دين اللئام » وحاشا المؤمن المتيقّن أن يكون بناء ايمانه ويقينه على رؤية المعجزة الفعليّة من الرسول . بل بناء ذلك على البرهان العقلي ، أوالشهود الباطني الذي لايعتريه وصمةُ شكّ وشوبُ ريب . وأمّا انفلاق البحر وغيره فممّا للشبهة فيه مجالٌ ـ كما لايخفي على أهل البحث ـ .

ثمّ إنّ العلم الضروري والكشف الحاصل للإنسان يوم القيامة نحو آخر من العلم لم يحصل مثله من انفلاق البحر وغيره ، لأنّ ذلك مما يحصل برؤية الأسباب والعلل . ومشاهدتها وظهور الأسباب بأعيانها ليس مثل العلم بها من جهة آثارها .

قوله جلّ اسمه :

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

الوَعْد ، والموعِد ، [والوعيد] والعِدة ، والموعِدة مصادر · والفعل يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز الاقتصار على أحدهما . والمفعول الثاني فيه إمّا ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أوالمقدّر ، وهو أن يعطيه الله التورٰة ونحو ذلك ، لأنّه لمّا دخل بنواسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ، ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه ، وعَد الله موسى أن ينزّل عليهم التورية .

و ﴿ وَعَدْنَا ﴾ قرائة أهل البصرة وأبي جعفر ، وقرء الباقون ﴿ وَاعَدْنَا ﴾ ـ بالألف ـ وكذا في الأعراف وطٰه .

أما حجّة مَن قرء بغير الألف فواضحٌ ، لأنّ الوعد كان من الله ، والمواعِدة لاتكون إلاّ من الجانبين . وأمّا حجة الباقين فوجوه :

أحدها إنّ الوعْد وإن كان من الله ، فقبوله كان من موسى عليه السلام ، وقبول الوعد يشبه فعل الوعْد . وهذا كما يطلق أهل الميزان [النقيض] لكلّ واحدة من القضيتين اللتيـن أحدهما سلب للأخرى ، مع أن نقيض الشيء رفعه ، فيكون السالبة نقيضاً للموجبة ـ دون العكس ـ إلاّ انّه أُطلق عليهما المتناقضتان باعتبار انّ أحدهما رفع ، والأخرى مرتفعة به ، ففيها أيضاً معنى الرفع في الجملة ، وبهذا القدر صحّ اطلاق المتناقضتين عليهما وإن لم يصح اطلاق النقيضين على كلّ منهما بانفراده ، وكذا الحكم في

الزوجين والمتمّمين ، حيث انّ لكل منهما مدخلا في الزوجيّة والتتيم .

وثانيها إنّه لايبعد أن يكون الآدمي يَعِدُ الله تعالى ، بمعنى إنّه يعاهد الله .

وثالثها إنّ الله تعالى وعدَه الوحي ، وهو وَعَد الله المجيء للميقات إلى الطور وهذا أقوى . والقراءتان جميعاً قويتان .

و ﴿ مُوسَىٰ ﴾ اسمُ مركّب من اسمين بلغة القبط ، فـ « مُو » هو الماء . و « سي » الشجر [١] . سمّي بذلك لأنّ التابوت الذي كان جعلت أمّ موسى إيّاه فيه ـ حين خافت من فرعون ، وألقته في البحر ، فدفعته الأمواج بين أشجار عند بيت فرعون ـ فوجدته [ظ : وجدنه] جواري آسية امرأة فرعون عند الماء والشجَر، وقد خرجْن ليغتسلنَ بذلك المكان ، فسمّي عليه السلام باسم المكان الذي وجد فيه ، وهو الماء والشجر .

وهذا أصحّ الأقوال [٢] . وفيه وجهان آخران مقدوحان : أحدهما انّ وزنه «فُعلىٰ» ، والميم فيه أصلية من « مَاسَ، يَميس، موساً » إذا تبختَر في مشيه . وكان عليه السلام كذلك . وثانيهما انّ وزنه مُفعَل ، من « أوسيت الشجرة » إذا أخذت ماعليها من الورَق . فكأنه سمي بذلك لصلعه .

ووجه انقداحهما انّ بني اسرائيل والقبط ماكانوا يتكلّمون بلغة العرب، وأيضاً إنّ هذا الاسم عَلَمٌ ، والعلَم لايفيد معنى غير الذات الشخصيّة .

وهو عليه السلام موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث[٣] بن لاوي بن يعقوب

---

١) راجع المعرب للجواليقي : ٣٠٢ . والتعليق عليه من محقق الكتاب . والاقوال منقولة من تفسير الفخر الرازي: ٥٢١/١ .

٢) وقريب منه أيضاً ماجاء في التوراة (الخروج ، باب ٢ / ١٠) : وسمتها موسى لانها قال : أخذتها من الماء.

٣) كذا في مجمع البيان. وجاء في تفسير الفخر الرازي(١ / ٥٢١) وعرائس المجالس للثعلبي : قاهث .

ابن إسحق بن إبراهيم ـ صلوات الله على نبيّنا وعليهم أجمعين ـ .

وانتصاب ﴿أَرْبَعِينَ﴾ إمّا بالظرفية ، أو على أنّه مفعول ثان . والثاني أولى ، لأنّ الوعد ليس فيها كلّها ، كما في جواب « كمْ » ولا في بعضها كما في جواب «متى» بل يقضي الأربعين ، فيكون انتصابه بوقوعه موقع المفعول الثاني ، فالتقدير: وعدنا موسى انقضاء أربعين ليلة . أو تمام أربعين ليلة ـ على حذف المضاف ، كقولهم : « أربعين يوماً منذ خرج فلان » أي : تمام الأربعين .

و﴿ لَيْلَةً ﴾ منتصبة على التمييز للعدد الأربعين ، وهو شهر ذي القعدة وعشر ذي الحجة .

ويحتمل أن يكون المراد إنّه تعالى وعد موسى قبل هذا الأربعين أن يجيء إلى الموعد ـ أي الطور ـ بعد انقضاء هذا الأربعين ، حتّى تنزل عليه التورية ، ويحتمل أن يكون المراد إنّه أمر بأن يجيء إليه هذا الأربعين ، ووعد بأنّه ينزّل بعد ذلك التورية ، وهذا الثاني هو المؤيّد بالأخبار .

وعبّر عنها بالليالي ، لأنّها غُرر الشهور، فإنّ أوّل كلّ شهر إنّما يبيّن بليله الذي يظهر فيه هلاله . وقيل : لأنّ الظُلمة سابقة على النور ـ وفيه تأمّل .

فصلٌ

[كانت المواعدة ثلاثين ليلة أو أربعين ؟]

واعلم إنّ قوله تعالى هيهنا يدلّ أن المواعدة كانت من أوّل الأمر على الأربعين وفي الأعراف حيث قال : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾[١٤٢/٧] يفيد إنّ المواعدة كانت أوّلا على ثلاثين ليلة ، ثمّ بعد ذلك واعده بعشر ، فلابدّ في التوفيق بينهما من نكتة .

قال الحسن : ليس المراد أنّ وعده كان ثلاثين ليلة ، ثمّ بعد ذلك وعده بعشر ،

لكنّه وعده أربعين ليلة جميعاً ، وهو كقوله تعالى ﴿ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [٢/١٩٦] .

هذا مافي التفسير . وذكر بعض العلماء انّه روي انّ موسى عليه السلام وعد بني اسرائيل - وهم بمصر - انّ الله تعالى إذا أهلك عدوهم فرعون وقومه واستنقذهم من أيديهم ، يأتيهم بكتاب من عند الله فيه بيان الحلال والحرام ، والحدود والأحكام فلمّا فعل ذلك وأهلك فرعون سئل موسى ربّه الكتاب . فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوماً - وهو ذو القعدة - .

ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام في النهار وأكله بالليل . بل طوى الثلاثين من غير أكل . فلما تمّت ثلاثون ليلة أنكر خلوفَ فمه . فتسوّك بعود خرنوب فقالت الملائكة : «كنّا نشمّ مِن فيك رائحةَ المسك فأفسدتَه بالسواك» فأمره الله تعالى أن يصومَ عشرة أيّام من ذي الحجة . وقال له : «أما علمتَ إنّ خُلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك» ؟[١]

* * *

واعلم إنّه قد حصَل لموسى عليه السلام في هذه المدّة المضروبة له من الله استعداد المكالمة له مع الله بواسطة انقطاعه عن الطعام والشراب ، واجتنابه عن اللذات والشواغل الحسيّة .

وكذلك استفاضة العلوم اللدنيّة والمعارف الإلهية ، وهي ضرب من المكالمة - لأن حقيقة التكلّم إظهار مايدلّ على المعاني الغائبة عن الحواسّ ، سواء كان بخلق الألفاظ ، أو بافاضة صور الحقائق على النفس - لاتحصل إلاّ بتخلية المدارك والحواسّ عن الاشتغال بشواغل الدنيا وأغراضها ، وتخلية الجوف عن الطعام ، ومنع اللسان عن الكلام إلاّ بذكر الله ، وعدم اشتغال القلب بما سوى الحقّ ، فإن

---
١) عرائس المجالس للثعلبي : ١٧٧ ، عوارف المعارف : ١٢١ .

جميع ذلك مما يعدّ النفس الشريفة الزكيّة للمكالمة الحقيقية مع الله تعالى، وإفاضة صور الحقائق عليها .

ولايختصّ ذلك بمدّة دون أُخرى . غير أنّ تعيين الأربعين والحكمة في ذلك لايطّلع عليه إلاّ الأنبياء والكمّل من الأولياء عليهم السلام .

وذكر بعض العرفاء [1] نكتةً لطيفة في بيان ذلك وهي : «إنّ الله سبحانه لمّا أراد تكوين آدم عليه السلام من التراب ، قدّر التخمير بهذا القدر من العدد ، كما وردت «خمّرتُ طينةَ آدم بيده أربعين صباحاً» فكان آدم عليه السلام لما كان مستصلحاً لعمارة الدارين لكونه مركباً من جوهرين : أحدهما ملكوتي أُخروي وهو روحه ، والآخر ملكيّ دنيويّ وهوقالبه ، فأراد الله منه عمارة الدنيا وعمارة الجنّة ، فكوّنه من التراب تكويناً يناسب عالَم الحكمة والشهادة أوّلا ، ويناسب عالَم الغيب والرحمة ثانياً .

وما كانت عمارة النشأة الأولى تتأتّى منه إلاّ ويكون خلقته من أجزاء أرضيّة وقُوى سفلية ، بحسب قانون الحكمة . فمن التراب كوّنه ، وأربعين صباحاً خمّر طينته ، وأودع فيه بحسب كلّ تخمير مرتبة من القوى والآلات ، وطبقة من التجسّم والأعضاء والأدوات ، يوجب كلّ مرتبة وطبقة منها نوعاً من البعد عن الحضرة الإلهيّة في القوس النزوليّة .

فاحتجب عن عالَم القدس والوحدة بالتوجّه إلى عمارة الدنيا وزينة التركيب لبُعده بالتخمير أربعين صباحاً بأربعين حجاباً من الحضرة الإلهيّة ، كلّ حجاب معنى مودع فيه يصلح لعمارة الدنيا وزينتها ، من القُوى النفسانيّة والحيوانيّة والنباتيّة والطبيعيّة . ويتعوّق به عن مراتب القُرب .

ولو لم يتعوّق الآدمي بهذه الحُجب والكثائف عن عالَم القدس ومواطن القرب ماتعمّرت الدنيا . فمنشأ بُعده عن مقام القُرب لعمارة (بعمارة ـ ن) الدنيا ،

---

١) عوارف المعارف للسهروردي : الباب السادس والعشرين : ١٢١ .

وفي ذلك من لطائف صُنْع الله والحكمة مالايخفى .

فبالتبتّل إلى طاعة الله ، والإقبال إليه ، والرجوع عن أمر المعاش ، وما يتعلّق بالدنيا كلّ يوم يخرج عن حجاب من هذه الحُجب ، ويتّخذ منزلاً في القُرب في القوس العروجية من الحضرة الإلهيّة ـ التي هي مجمع العلوم ، ومنبع المكاشفات ومصدر الحقائق ـ فإذا تمّت الأربعون زالت الحجُب بالكلّية ، وانصبّت إلى قلبه أنهار العلوم والمعارف انصباباً .

ففي كلّ يوم بإخلاصه في العمل لله تعالى يكشف له طبقة من طبقات الحجُب الجسميّة والأغشية الظلمانيّة والنشآة الترابيّة الطبيعيّة ، ويزول عنه طور من الأطوار الكونيّة الخلقيّة المبعّدة له عن الله ، ويظهر عليه سلطان النشأة الأُخراويّة ، إلى أن ينكشف باستعمال الأربعين أربعين طبقة من أطباق حجابه وأطوار بُعده عن الله ، واشتغاله بعمارة الدنيا ، ولذلك ورَد في الحديث : « من أخلَص لله أربعين صباحاً ظهرتْ من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة » .

فهذا أصل يستفاد منه سرّ تعيين الأربعين في الخلوة والرياضة ـ والعلْم عند الله

عقـدةٌ وحـلٌ

[الغرض من تعمير الدنيا]

ولعلّك تقول : إنّ الحكمة في تعلّق الروح الإنساني بهذا القالب الكثيف لو كانت لمصلحة تعود إلى الكائنات الأرضيّة لكان يلزم منها استخدام العالي للسافل .

وأيضاً في تبعيد الروح الإنساني عن عالَم القدس والقُرب إلى عالَم الظُلمة والكُدورة والعاهـات ضرب من التعذيب له ، والتخريج عما فطر له من الروح والراحة . فأيّ فائدة في تعذيب أشرف الجواهر الحيوانيّة ، لأجل صلاح سائر المركبات الحيوانيّة والنباتيّة والمعدنيّة ؟ !

وهذا الإشكال ممّا لايخلو الجواب عنه عن صعوبة ، لتوقّفه على تحقيق مهيّة

الإنسان ومعرفة أطواره ونشآته ، وذلك متعلّق بعلوم كثيرة من علوم المكاشفات . وقد مرّت إشارة إلى سرّ نزول الروح الإنساني إلى هذا العالَم فيماسبق عند قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

والذي نذكرهيهنا في دفع هذا الإشكال هو أنّ المراد بتكوين الإنسان عامراً لهذه النشأة وزينة للكائنات هو تعميره على وجه تعود فائدة التعمير إليه ، فانّ الإنسان الكامل ذوأجزاء كثيرة وأطوارمتعدّدة ، له بحسب كل قوّة منها كماليّة وتماميّة لاتحصل إلاّ بها ، وليس الغرض من خلافته في الأرض وتعميره للدنيا إلاّ تبقية شخصه ونوعه وتكميل ذاته على وجه يصير مظهراً للأسماء الإلهيّة ، وجامعاً للحقائق الكونيّة والأسرار الربوبية ، خليفة لله في الأرض والسماء ، وزينة للنشأة الباقية بعد الأولى .

وأمّا تكوّن سائر الأكوان ـ من النبات والحيوان بسببه فهو إمّا لأجل انتفاعه بها واستخدامه لها ـ كما دلّ عليه قوله في حق الجميع : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَافِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [٢/٢٩] وقوله تعالى في باب الأنعام والدوابّ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُون ﴾ [٣٦/٧١-٧٢] وقوله في باب النباتات : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [١٦/١١] وقال في باب المعادن والجمادات : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ [١٦/٨١] وغير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المطلب .

وإمّا لأجل أن لايكون ضائعاً مهملاً مابقي من فضالة مادّة الإنسان وكثائف طينته التي صرفت لطائفه في تخمير قالبه ، فكما إنّ البنّاء يستعمل الخشَب في غرضه فما فضل لايُضيعه ، بل يتّخذه قسيّاً وخلالاً وغير ذلك ، فكذلك الغاية القصوى في

ايجاد هذا العالَم وتمامه خِلْقة الإنسان الذي من شأنه أن يعرج بالعلم والتقوى إلى جوار الله وملكوته .

وأمّا تكوّن سائر المكوّنات ، فلئلّا يفوت حقّ كلّ عنصر ومادّة ، ويصل إلى كلّ مخلوق من الخير والسعادة قدراً يليق به ، وشرح هذا المقام ممّا يطول .

فصلٌ

قوله [تعالى] : ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ

أي : اتّخذتموه إلهاً ومعبوداً ، لأنّ بمجرّد فعلهم لتصويره لايكونونظالمين، لأنّ فعل التصوير ليس بمحظور ، وإنّما هو مكروه عند أكثر الفقهاء . وأمّا الخبر الذي رُوي [1] «إنّه عليه وآله الصلوة والسلام لَعَنَ المصوّرين» فالمراد مَن شبّه الله بخلْقه ، أو اعتقد انّه صورة جسمانيّة .

وقوله ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي : من بعد خروج موسى وغيبته ، أو مِن بعد وعد الله ايّاكم بالتورية ، أو مِن بعد غرق فرعون وهلاك قومه ، أو مِن بعد مارأيتم من الآيات الباهرات .

﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ في اتّخاذكم العِجل معبوداً وإصراركم على ارتكاب الباطل ومتابعة الهوى والظّلمات .

* * *

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ [2] : كان السامري رجُلا اسمه موسى ابن ظفَر ـ وقيل : اسمه «ميحا» ـ وكان من قوم يعبدون البقر ، فكان حبّ عبادة البقر في نفسه ، وقد كان أظهرَ الإسلام في بني إسرائيل ، فلما قصَد موسى إلى ربّه وخلّف هرُون في بني إسرائيل ، قال هرُون لقومه : «قد حملتم اوزاراً من زينة القوم»

---

١) البخاري : كتاب البيوع ، باب موكل الربا : ٣/٧٧ .

٢) مجمع البيان : ١/١٠٩ . الدر المنثور : ٤/٣٠٥ .

ـ أي آل فرعون ـ « فتطهّروا منها ، فإنّها نجس » يعني : إنّهم استعاروا من القبط حليّاً واستبدّوا بها ، فقال هرُون : « طهّروا أنفسكم منها فإنّها نجسة » وأوقد لهم ناراً فقال : « اقذفوا ما كان معكم فيها » فيجعلون (ظ : فجعلوا) يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحُلي ، فيقذفون فيها .

وكان السامري رأى أثر فرس جبرئيل ، فأخذ تراباً من أثر حافره ، ثمّ أقبل إلى النار ، فقال لهرُون : « يانبيّ الله القي مافي يدي » ؟ قال : « نعم » وهو لايدري مافي يده . ويظنّ أنّه مما يجيء به غيره من الحُلي والأمتعة . فقذف فيها وقال : « كُنْ عِجْلا جَسَداً له خُوار » فكان البلاء والفتنة .

فقال : ﴿ هٰذَا اِلٰهُكُمْ وَاِلٰهُ مُوسَى ﴾ فعكفوا عليه وأحبّوه حبّاً لم يحبّوا مثله شيئاً قطّ .

قال ابن عباس : «فكان البلاء والفِتنة» لم يزد على هذا . وقال الحسن : «صار العِجْل لحماً ودماً » . وقال غيره : « لايجوز ذلك ، لأنّه من معجزات الأنبياء » .

ومن وافق الحسن قال: « إن القبضة من أثر الملَك، وكان الله قد أجرى العادة بأنّها إذا طرحت على أيّ صورة كانت حيّيت ، فليس ذلك بمعجزة ، إذ سبيل السامري فيه سبيل غيره » ومن لم يجز انقلابه حيّاً تأوّل الخُوار على أنّ السامري صاغ عِجْلا وجَعل فيه خروقاً يدخله الريح فيخرج منها صوت كالخُوار ، ودعاهم إلى عبادته ، فأجابوه وعَبدوه ـ كذا عن الجبائي .

تذكرةٌ

[السامريّ والعِجل]

ذكر بعض العلماء [١] ان هذه الواقعة على الوجه المنقول مما يأبى العقل عن

١) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٥٢٢ ؛

اذعانها ، لأنّ كلّ عاقل يعلم ببديهة عقله إنّ الصنم المتّخذ من الذهب الذي لايتحرك ولايحسّ ولايعقل يستحيل أن يكون إلهاً فيالسموات والأرض ، وهبْ انّه ظهر منه خُوارٌ ، ولكن هذا القدر لايصلح أن يكون شُبهةً في قلب أحد من العقلاء في كونه إلهاً .

ولا يمكن تصحيح هذه الواقعة إلّا على وجه ، وهو إنّالسامري ألقى إلىالقوم انّ موسى إنّما قدر على ماأتى به لأنّه كان يتّخذ طلسمات على قُوى فلكيّة ، فأنا أتّخذ لكم طِلسماً مثلَ طِلِسمه ، وروّج عليهم ذلك بأن جعله بحيث يخرج عنه صوتٌ عجيب ، فأطمعَهم في أن يصيروا مثل موسى عليه السلام في الإتيان بالخوارق ، ولعلّ القوم كانوا مجسّمة وحلوليّة ، فجوّزوا حلول الإله في بعض الأجسام .

وذكر العارف المحقّق محيي الدين الأعرابي في فصوص الحكم [١] : « إنّ من خصائص الأرواح انّها لاتطأ شيئاً إلا حيي ذلكالشيء وسَرَت الحيوة فيه ، ولهذا قبض السامري قبضة من أثر الرسول الذي هوجبرئيل عليه السلام ـ وهو الروح ـ .

وكان السامري عالِماً بهذا الأمر ، فلمّا عرف انّه جبرئيل ، عرف انّ الحيوة قد سَرَت فيما وطيء عليه ، فقبض قبضة من أثر الرسول ـ [٢]بالضاد والصاد ، أي : بملىء يده ، او بأطراف أصابعه [٢] ـ فنبذَها في العِجل ، فخارَ العِجل ، إذ صوت البقر انّما هو خُوار ، ولو أقامه صورة أخرى ، لنسب إليها اسم الصوت الذي لتلك الصورة ، كالرُغاء للإبل ، والثُؤاج للكباش ، واليُعار للشياة ، والكلام او النطق للإنسان[٣] . فذلك القدْر من الحيوة[٤] يسمّى « لاهوتاً » و « الناسوت » هو المحلّ القائم به ذلك الروح » ـ انتهى .

---

١) فصوص الحكم : الفص العيسوى ، ١٣٨ .

٢-٢) المصدر : بالصاد او بالضاد ، أى بملء او بأطراف أصابعه .

٣) المصدر : والصوت للانسان او النطق او الكلام .

٤) المصدر . فذلك القدر من الحيوة السارية فى الاشياء يسمى . . .

تبصرة

[بماذا نعرف الرسول ؟]

اعلم إنّ طريق الايمان بالله ورسله وآياته عند العرفاء وأرباب اليقين ليس مما يحصل بالنظر في المعجزة وخرقُ العادة الواقع من الرسل ، فإنّي قد آمَنت بصدق نبيّنا محمّد ﷺ في جميع ماأتى به،وبصدق موسى عليه السلام ، لابشقّ القمر وقلب العصا حيّة ، بل بإعلامات إلهيّة والهامات ربّانية في القلب التي لايتطرّق إليها شائبة شكّ وريب ، ولايعتريه وصمة شبهة وعيب .

وهي موزونة مع ذلك بميزان صحيح العيار من موازين القسط ليوم الحساب الذي وضعه الله من السماء العقليّة في أرض القلب الإنساني ، الموضوع تحت سماء العقل المرفوع ، وأمَر باقامته ـ كما دلّ عليه قوله [تعالى] : ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ * وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [٥٥/٧ـ١٠] .

وقد أقمتُ هذا الميزان الصحيح كما أمر الله به ووزنتُ به جميع المعارف الإلهيّة ، بل أحوال المعاد ، وسرّ حشر الأجساد ، وعذاب أهل الفجور ، وثواب أهل الطاعة ، فوجدت جميعها مطابقة لما في هذا القرآن الذي هو تنزيل من الله العزيز المنّان ، ولما في الأحاديث الواردة من النبي وآله ﷺ ، وتيقّنت انّ جميع ماصحّ عن رسول الله وآله ﷺ حقّ وصدّق .

وأمّا طريق النظر في المعجزة فذلك مما يتطرّق إليه التباس كثير ، فلايوثق به كلّ الوثوق بل من بَنى ايمانَه على قلب العصا ثعباناً يكفر بخُوار عجل السامري ، فإنّ التعارض في عالَم الحسّ والشهادة كثيرٌ جداً ، والعالَم الذي هو عالَم العصمة والطهارة عن الخبْط والغلَط ، هو عالَم القلْب ، وأمّا عالَم البدن فالخطأ والالتباس فيه كثيـر .

وأكثر الناس اعتمادهم على مايدركه الحواسّ، وعكوفهم على ماينتمي إلى الاوضاع الحسّية ، ولهذا يغلطون كثيراً ، ولو لم يكن لهم قائد يقتدون به يسلك بهم كمَن يقود الأعمى في الليل المظلم ، وإلاّ يقعون في الحميم ، ويسلكون طريق الجحيم ، وهؤلاء طائفةٌ لايعرفون الحق إلاّ بالرّجال .

وأمّا العرفاء الإلهيون فهم يعرفون أهل الحق بالحقّ، كما قاله أمير المؤمنين وإمام العارفين عليه السلام : « لاتعرف الحق بالرّجال ، اعرف الحقّ تعرف أهله » فكانت معرفة العارفين المحقّقين بصدق النبي صلى الله عليه وآله ضروريّة ، كمعرفتك إذا رأيت رجُلاً عربيّاً يدّعي الفقه ويناظر في مسئلة من مسائل الفقه ، ويحسن في البحث عنه ، ويأتي بالفقه الصحيح الصريح ، فإنّك لاتتمارى في أنّه فقيه ، ويقينك الحاصل بفقهه من مناظرته أوضح من اليقين الحاصل به لو قلّب ألف عصا ثعباناً ، لأنّ ذلك يتطرّق فيه احتمال السحر والطلسم والتلبيس بغيره ، ويحصل به ايمان ضعيف هو ايمان العوام والمتكلّمين ، فأمّا ايمان الناظرين من مشكوة الملكوت ، فلايتطرّق إليه تلك الاحتمالات ، وهذا النحو من العلْم والايمان إنّما يحصل بتعليم من الله ومن جبرئيل بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله .

وهذا أوضح من الاعتقاد الذي يحصل من النصّ أوبالمعجزة ، فإنّ ثلاثة أنفس لو ادّعوا عندك انّهم يحفظون القرآن ، فقلت : « مابرهانكم » ؟ فقال أحدهم : انه نصّ عليّ الكسائي أستاذ المقرئين . أو نصّ عليّ أستاذي فلان وأستاذي نصّ عليّ ، فكأنّ الكسائي نصّ عليّ . وقال الثاني : برهاني أنّي أقلّب العصاحيّة ـ وقد قلّب العصاحيّة ـ وقال الثالث : برهاني أن أقرء القرآن بين يديك من غير مصحَف ـ وَقَرَءَ ـ فليتَ شعري أيّ هذه البراهين أوضح ؟ وقلبُك بأيّها أشدّ تصديقاً ؟ لاشكّ انّك بالذي قرءَ القرآن ، فهو غاية البرهان ، وبه يحصل غاية الايمان إذ لايخالج فيه ريبٌ .

أمّا نصّ استاذه عليه ، ونصّ الكسائي على أستاذه ، فيتصوّر أن يقع فيه أغاليط ، سيما عند طول الأزمنة وبُعد الأسفار . وأمّا قلب العصاحيّة : فلعلّ ذلك لحيلةٍ وشَعبذة ، وإن لم يكن كذلك فغايته انّه فعَل أمراً عجيباً ، ومن أين يلزم أنّ من قدر على فعلٍ عجيب ينبغي أن يكون حافظاً للقرآن ؟ !

تنبيــه

[ذكر نكات تلمح إليها الآية]

اعلم ـ أيّها العاقل الفهيم ـ إنّ في هذه الآية تحذيراً بليغاً من التقليد والجهل بالدلائل والبراهين ، فإنّ اولئك القوم لوعرفوا الله بالحُجج الواضحة والشواهد الباطنة معرفة تامّة لما وقَعوا في شُبهة السامري .

وفيها أيضاً دلالة على أنّ أمّة محمّد ﷺ خير الأمم ، لأنّ اولئك اليهود مع انّهم شاهَدوا تلك المعجزات الباهرة اغترّوا بهذه الشُبهة الركيكة ، وأمّا هذه الأمّة فانّهم مع حاجتهم في معرفة إعجاز القرآن إلى الأدلّة الدقيقة لم يغترّوا بالشبهات القويّة ، وذلك يدلّ على أنّ هذه الأمّة أكمل عقلاً وأزكى خاطراً ، وأشدّ تعمّقاً في الحقّ من غيرهم .

وفيها أيضا تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يشاهد من مشركي مكّة والمنافقين وأمَر له بالصبر على مخالفتهم ، كما صبَر موسى عليه السلام في هذه الواقعة المنكرة من قومه ، وقد خلصهم عليه السلام من فرعون ، وأراهم المعجزات القويّة ، فاغترّوا بهذه الشبهة الركيكة .

وفيها أيضاً دلالة على مذمّة الاقتداء بالأسلاف والآباء من غير بصيرة ، فإنّ أشدّ الناس مجادلة مع رسول الله ﷺ وعداوة للذين آمنوا هم اليهود ، وكانوا

يتفاخَرون بأسلافهم ويلتزمون دين أشياخهم وآبائهم ، فكأنّه تعالى قال : « هؤلاء انّما يتفاخَرون بأسلافهم ويقتدون على آثارهم . ثمّ إنّ أسلافهم كانوا في البلادة وسخافَة العقل والغباوة إلى هذا الحدّ ، فكيف من يقتدي بهم ويقتفي آثارهم »؟ !

وفيها أيضاً تنبيهٌ يستفاد من قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ على أن ضرر الكفر والمعاصي لايعود إلا إلى صاحبه ، لأنّهم مااستفادوا بذلك إلا انّهم ظلَموا أنفسهم وحرّفوها عن جوار الله ودار كرامته إلى الهاوية ودارالهوان والعذاب ، وذلك يدلّ على أن جلال الله منزّه عن الاستكمال بطاعة العباد والانتقاص بمعصيتهم .

قوله تعالى :

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

العَفْو ، والصفح ، والمغفرة ، والتجاوز نظائر. قال [ابن] الأنباري: ﴿عَفَى اللَّهُ عَنكَ﴾ [٩/١٣] معناه : مَحَى الله عنك . مأخوذ من قولهم : « عفَت الريح الأثر » إذا درَسته ومحَته . فعفو الله محوه الذنوب عن العبْد .

والظاهر إنّ المراد من قوله : ﴿عَفَوْنَا عَنكُمْ﴾ تركنا معاجلتكم بالعقاب في الدنيا ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ اتّخاذكم العِجل إلهاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي : تعرفون الله ورسوله . فإنّ تمام الشكر بأفضل أجزائه ، وهو المعرفة .

لمّا وقعت إليه الإشارة سابقاً من أنّ كلّ مقام من مقامات الدين ينتظم بأمور ثلاثة ـ : العلم، وهوأعلاها ، والحال، وهوأوسطها . والعمل، وهو أدناها ـ فالشكر لله عبارة عن اعتقاد كونه خالقاً ورازقاً للعباد ومنعماً عليهم في الدنيا والآخرة بواسطة الملائكة والأنبياء . ويلزم ذلك الاعتقاد الفرح بذكر الله ومعرفته وحبّ لقائه وخلوص القلب عن الالتفات بغير الله وتصفيته عن كلّ خاطر ردي ، ويلزمه أيضاً العمل بالأركان والجوارح بقدر مايتيسّر ويُطاق .

واسم « الشُكْرِ » تارةً يقع على الثلاثة ، وتارةً يخصّ بالأول ـ نظراً إلى سرّه وروحه وباطنه ـ وتارة يخصّ بالآخر ـ نظراً إلى ظاهره المكشوف للحسّ .

كما انّ اسم الايمان تارةً يقع على الاعتقاد بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب

والرسل والأئمة عليهم السلام ، مع الاقرار باللسان ، والعمل بالأركان . وتارة يقع على نفس الاعتقاد الصحيح ، وهو النور الباقي للمؤمن إلى يوم القيامة ، يسعى بين يديه وعن يمينه .

وقالت المعتزلة - ومنهم صاحب الكشاف - : « معنى قوله : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ﴾ أي : غفرنا لكم بسبب إتيانكم بالتوبة التي هي قتلكم أنفسكم » . وفيه بحث من وجهين :

الأوّل : إنّ قبول التوبة واجبٌ عقلاً . وأداء الواجب لايكون إنعاماً . فلو كان المراد ذلك فلايحسن عدّه في معرض الإنعام والإمتنان . والآية مسوقة في تعديد نِعم الله على بني إسرائيل .

والثاني : إنّ العفو إسم لاسقاط العقاب عن المستحق ، فأمّا إسقاط مايجب إسقاطه فلايسمّى عفواً . فعُلم إنّ ذلك المعنى الذي حملوا الآية عليه ضعيف عقلاً ولغـةً .

تنبيـهٌ

اعلم إنّ هذه الآية دالّة على بطلان قول المعتزلة أن « لاعفو عن الكبائر » إذ لاكبيرة أكبر من اتّخاذ العِجل إلهاً ، وإذا ثبت انّه سبحانه عفى عن كفر قوم موسى عليه السلام ولم يؤاخذهم على شِرْكهم ، فبأن يعفو عن فسّق أمّة محمّد صلى الله عليه وآله كان أحقّ وأحرى .

تنبيـهٌ آخـر

قد دلّت الآية أيضاً على أن الله تعالى لم يرد من العباد إلاّ الخير والطاعة ، ولايريد منهم الشرّ والعصيان . فإنّه تعالى لما بيّـن إنّه إنّما عفى عنهم ولم يؤاخذهم لكي يشكروا ، فلم يرد منهم في هذا العفو إلاّ الشكر ، وهو أعظم الطاعات .

وأما ماذكره صاحب التفسير الكبير من قوله [1] : « لو أراد الله منهم الشكر لأراد ذلك إمّا بشرط أن يصل للشاكر داعية الشكر ، أو لا بهذا الشرط. والأوّل باطل، لأنّ تلك الداعية إن كانت من فعْل العبد لافتقر هذه الداعية إلى داعية أُخرى، والكلام فيها عائد . وإن كانت من الله فحيث خلَق اللهُ الداعي حصل الشكر لامحالة . وحيث لم يخلق استحال حصول الشكر منه من غير هذه الداعية . والثاني أيضاً باطل، وإلاّ فقد أراد منه المحال ، لأن حصول الفعل بدون الداعي محال، وطلبُ المحالِ محالٌ على أُصولهم » .

فمندفعٌ ، لأنّا نختار انّ حصول الشكر من العبد بالاختيار مشروط بحصول الداعية فيه ـ سواء كانت بالاختيار، فيستدعي داعية أُخرى ، او بالاضطرار، فيكون من فعْل الحقّ ، وعلى أيّ الوجهين ينتهي بالأخرة إلى حصول داعية ليست هي من فعْل العبد ، بل من فعل الله الحاصل في العبد اضطراراً .

وقد مرّ مراراً إنّ اختيار العبد ينتهي آخر الأمر إلى ماهو حاصل فيه بالاضطرار فإن علم الإنسان وداعيته مخلوقان لله بالاتّفاق ، والنزاع ليس إلاّ في ترتّب هذه الأمور وافتقار بعضها إلى بعض او في عدم الترتيب . فإنّ الأشاعرة ومَن يَحذو حذوهم أنكَروا حكمة الله في هذا الترتيب ، ونَفوا القول بالعلّة والمعلول ، ولهذا أسنَدوا القبائح والشرور كلّها إلى الله أوّلاً وبالذات ـ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .

حكمة قرآنيّة

[معنى « لعل » في القرآن]

اعلم إنّ في لفظة « لعلّ » ـ وهي من كلمات الترجّي والإمكان ـ إشارةً بليغة إلى أنّ فعْل الشكر إنّما يحصل من العبد باختياره ، فإنّ أفعال العباد من جهة نسبتها

١) تفسير الفخر الرازي: ١ / ٥٢٤ ملخصاً .

إلى مباديها القريبة واقعة باختياره على سبيل الاحتمال والامكان . ومن جهة نسبتها إلى السبب الأوّل ومباديها البعيدة ـ من قضاء الله وقدَره وعلمه وقدرته ـ واقعة من العبد على سبيل البتّ والوجوب .

ففعل العبد من جهة وقوعه باختياره يحكم عليه بـ « **القدَر والتفويض** » ـ أي : بكونه واقعاً بقدرتنا ، مفوّضة إلينا ـ ومن جهة وقوعه بمشيّة الله وقضائه وقدَره ، والوسائط المترتّبة المستندة ـ على ترتيبها في سلسلة العلل والمعلولات ـ إلى الله ، يحكم عليه بـ « **الجبْر** » كما سبق .

فلفظة « لعلّ » كلّما جائت في القرآن فهي بحسب الاعتبار الأوّل ، وهو وقوع الأمور من أسبابها القريبة .

فصلٌ

[الفرق بين الحمد والشكر]

اعلم إنّ العلماء فرّقوا بين الحمد والشكر ومعناهما وحكمهما ، وملخّص الفرق المستفاد من أقوالهم : انّ الحمد من أشباه الأذكار كالتسبيح والتهليل ، فيكون من المساعي الظاهرة ، والشكر من أشباه النيّات والأخلاق، كالصبر والتفويض والرضا . فيكون من المساعي الباطنة ، لأنّ الشكر يقابل الكفران . والحمد يقابل اللوم . ولأنّ الحمد أعمّ وأكثر ، والشكر أخصّ وأقل . كما قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [١٣/٣٤] فثبت انّهما معنيان متميّزان .

ثمّ الحمد ـ كما هو المشهور من كلام الجمهور ـ هو الثناء على أحد بالفعل الجميل . وأمّا الشكر فقد تكلّموا في معناه وأكثروا القول فيه :

فعن ابن عباس انّه قال : « هو الطاعة بجميع الجوارح لربّ العالمين في السرّ والعلانية » . وهذا كما اشتهر على ألسِنة الجمهور : « انّه عبارة عن صرف العبد جميع ماأنعمه الله فيما خُلق لأجله » وإلى نحوه ذهَب بعض المشايخ ، فقال :

« انّه أداء الطاعات في الظاهر والباطن » .

وقال بعضهم : « اجتناب المعاصي ظاهراً وباطناً » . وقال غيره : «الاحتراس عن اختيارمعاصي الله » . أي : تحترس على قلبك ولسانك وأركانك، حتى لاتعصى الله بشيء من هذه الثلاثة .

وقال آخر: « الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته ، على حد يمنعه من جفاء المنعم وكفرانه » . ولو قيل : « تعظيم المحسن على مقابلة إحسانه » ليصحّ أنيكون من الله الشكر للعبد المحسن .

* * *

فإن قلت : فما موضع الشكر؟

فاعلم إنّ موضعه النعم الدينيّة والدنيويّة مطلقاً . وأمّا الشدائد والمصائب الدنيويّة في النفس ، أو الأهل ، أو المال ، فقال بعضهم : لايلزم العبد الشكرعليها ، وإنّما يجب عليها الصبر . وأمّا الشكر فهو على النعمة خاصّة .

وقال بعضهم : لاشدّة إلاّ وفي جنبها نعم الله . فيلزم الشكر على تلك النعم المقترنة به ، دون نفس الشدّة .

وقال بعضهم ـ وهو الأولى ـ : إنّ شدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها ، لأنّ تلك الشدائد نعم بالحقيقة ، لأنّها تعرض للعبد بمنافع عظيمة ، ومثوبات جزيلة وأعواض كريمة في العاقبة تتلاشى في جنبها مشقّة هذه الشدائد . مثال ذلك من يسقيك دواء كريهاً مرّاً للداء الشديد ، فيؤدّي ذلك إلى صحّة النفس وصفوة العيش فيكون ايلامه إيّاك بمرارة الدواء منّة بالغة بالحقيقة ، وإن كان في صورة مكروهة .

فالحاصل من هذا الكلام رجع إلى أنّ البليّة والشدّة يجب الشكر عليها من حيث انّها نعمة ، لأنّها توجبها لامن حيث انّها بليّة وآفة ، فلاشكر على الشرور والأعدام ـ من حيث انّها شرور وأعدام .

هذا هو التحقيق ، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ[1]: «الحمدُ لله على كلّ حال» .

* * *

ثمّ إنّ النعمة قسمان : دنيويّة ، ودينيّة :

فالدنيويّة ضربان : نفعٌ ، ودفعٌ . فنعمة النفع ـ وهي المصالح والمنافع ـ ضربان : الخِلْقة السويّة في سلامتها وعافيتها ، وما سلامة البدن موقوفة عليها من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وغيرها من فوائدها . وأمّا نعمة الدفع فهي أن صرَف عنك المفاسد والمضار. وهي ضربان أحدهما في النفس بأن سلمك من زمانتها وسائر آفاتها وعللها . والثاني دفع مايلحقك من ضرر من أنواع العوائق أو يقصدك بسوء من إنس أو جنّ أو سباع أو هوامّ أو نحوها .

وأمّا النعم الدينيّة فضربان : نعمة التوفيق ونعمة العصمة ، فنعمة التوفيق أن وفقك الله أوّلاً للإسلام ، ثمّ الطاعة . ونعمة العصمة أن يعصمك أوّلاً عن الكفر والشرك ، ثمّ عن البدعة والضلالة ، ثمّ عن سائر المعاصي وتفصيل ذلك لايحيط به إلا السيّد الحكيم الذي أنعَم عليك كما قال جلّ جلاله ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَاتُحْصُوهَا ﴾ [١٤/٣٤] .

فصلٌ عرشيٌ

اعلم إنّ تحقيق الشكر والعلم بكيفيّة حصوله من الإنسان يستدعي معرفة أصول عظيمة عقليّة ، ومسائل شريفة علميّة ، منها معرفة النفس الإنسانيّة ، وهي أمّ الفضائل ومفتاح العلوم الحقيقية ، ولنذكر هيهنا استقصاءً يسيراً مما وجدناه من كتب العرفاء ،

١) الكافي :كتاب الايمان والكفر ، باب الشكر ، ٢/٩٧ : كان رسول الله (ص) إذا ورَد عليه أمر يسرّه قال : « الحمد لله على هذه النعمة » . وإذا ورَد عليه أمر يغتمّ به قال : « الحمد لله على كل حال » .

لما فيه من عظيم الجدوى[1].

فنقول : قد علمت سابقاً إنّ الشكر من جملة مقامات السالكين ، ومنزلٌ من منازل أهل الدين ، وكلّ مقام ومنزل لهم ينتظم من علم وحال وعمل . العلم هو الأصل ، فيورث الحال ، والحال يورث العمل .

أمّا العلم هيهنا فهومعرفة المنعِم وإنعامه . وأمّا الحال فيه فهوالابتهاج الحاصل فيه بإنعامه وأمّا العمل فيه فهو القيام بما هو مؤدّ إلى مقصود للمنعم وغاية إنعامه . ويتعلّق ذلك العمل بالقلب والجوارح واللسان . ولابدّ من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر .

فالأصل الأوّل العلم :

وهو متعلّق بثلاثة أمور : بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة في حقّه ، وبذات المنعِم ووجود صفاته التي بها يتمّ الإنعام ، وبصدور الإنعام منه عليه ، فإنّه لابدّ من منعِم ومنعَم عليه يصل إليه النعمة من المنعِم بقصد وإرادة .

فهذه الأمور لابدّ من معرفتها في حقّ غيرالله ، فأمّا في حق الله فلايتمّ إلّا بأن يعرف انّ النعم كلّها منه ، وهو المنعِم بالحقيقة ، والوسائط مسخّرون من جهته ، فهذه المعرفة هي معرفة أن « لامؤثّر في الوجود إلّا الله » وهو توحيد الأفعال . وهذه المعرفة وراء التقديس والتوحيد في الذات الواجبيّة ، إذ دخل هذا التوحيد والتقديس فيها ، بل الرتبة الأُولى في معارف الأيمان التقديس .

ثمّ إذا عرف ذاتاً مقدّسة عن النقائص الإمكانيّة ـ فضلاً عن المثالب الماديّة والمكانيّة ـ فيعرف انّه لامقدّس إلّا واحد ، وما عداه غير مقدّس ـ وهو التوحيد .

ثمّ يعلم إنّ كل ما في العالَم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، والكلّ نِعمة

1) إحياء علوم الدين : كتاب الشكر ، الركن الأول ، ٤ / ٨١ .

منه ، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة ـ أي بعد المعرفتين الأوليين ـ فينطوي فيها مع التقديس والتوحيد :كمال القدرة والانفراد بالفعل .

وعن هذا عبّر رسول الله ﷺ حيث قال [١] : مَن قال « سبحان الله » فله عشر حسنات . ومَن قال « لاإله إلاّ الله » فله عشرون . ومَن قال : « الحمدُ لله » فله ثلاثون حسَنة .

وقال ﷺ[٢] : أفضل الذكر « لاإله إلاّ الله » وأفضل الدعاء « الحمدُ لله » .

وقال ﷺ[٣] : ليس شي من الأذكار يضاعَف مايضاعَف الحمد .

ولاتظننّ انّ هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب . فـ « سبحانَ الله » كلمةٌ تدلّ على التقديس، و« لاإله إلاّ الله » كلمة تدلّ على التوحيد ، و« الحمدُ لله » على معرفة النعمة من الواحد الحقّ . فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أنوار الايمان واليقين .

واعلم إنّ تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمَن أنعَم عليه مَلِكٌ من الملوك بشيء فإن رأى المنعَمُ عليه لوزيره أو وكيله دخْلاً في تيسير ذلك وايصاله إليه فهو إشراك به في النِعمة ، فلايرى النِعمة من المَلِك من كلّ وجه ، بل منه بوجه ، ومن غيره بوجه . فيتوزّع فرحه عليهما . فلايكون موحّداً في حق المَلِك .

نعَم لاينقص عن توحيده في حقّ المَلِك وكمال شكر[ه أن يرى] النعمة

---

١) في المستدرك للحاكم (١/٥١٢) : « . . . إذا قال العبد « سبحان الله » كتب الله له عشرين حسنة . . . وإذا قال : « لاإله إلاّ الله » فمثل ذلك . وإذا قال « الحمد لله ربّ العالَمين » من قِبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة . . . » راجع أيضاً : المسند : ٢/٣٠٢ .

٢) الجامع الصغير : ٢/٤٩ .

٣) قال العراقي (ذيل احياء العلوم : ٤/٨٢) : لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي : يقال : إن الحمد أكثر الكلام تضعيفاً .

الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبَه بقلمه ، وبالكاغد الذي كتب عليه ، فإنّه لايفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ، لأنّه لايثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما ـ بل من حيث هما مسخّران تحت قدرة الملِك . وقد يعلم انّ الوكيل الموصل والخازن إيضاً مضطرّان من جهة الملِك في الايصال، وانّه لوردّ الأمرُ إليهما ولم يكن من جهه الملِك أمْر حتم وقضاء جزم لما سلّما .

فإذا عرف ذلك كان نظره [إلى] الخازن والوكيل كنظره إلى القلم والكاغد ، فلا يورث شركاً في توحيده من إضافة النعمة إلى الملِك .

فكذلك من عرف اللهَ وعرف أفعالَه علم انّ الشمسَ والقمرَ والنجوم مسخراتٌ بأمره ـ كالقلم مثلاً في يد الكاتب ـ وانّ الحيوانات التي لها اختيار مسخّرات في نفس اختيارها ، فإنّ الله تعالى هو المسلّط للدواعي عليه ، شاء[ت] أو أبت اي في حصول الداعي ـ كالخازن المضطر الذي لايجد سبيلاً إلى مخالفة الملِك ، لوخلّي ونفسه لَما أعطاك ذرّةً ممّا في يده .

فكلّ من وصل إليك نعمة الله [تعالى] على يده فهو مضطرّ، إذ سلّط الله عليه الإرادة ، وهيّج عليه الدواعي ، وألقى في قلبه انّ خيره في الدنيا والآخرة هو أن يعطيك ماأعطاك . وبعد خلْقِ الله له هذا الاعتقاد فلايجد سبيلاً إلى تركه ، فهو إذن إنّما يعطيك لغرض نفسه لالغرضك ـ ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك . فالمنعِم عليك بالحقيقة هوالذي سخّره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ماصار به مضطرّاً إلى الايصال إليك .

فإن عرفتَ الأمور كذلك فقد عرفتَ الله ، وعرفت فعله ، وكنت موحّداً ، و قدرت على شكره ، بل كنت بهذه المعرفة بمجرّدها شاكراً ، ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته : « الهي خلقتَ آدمَ بيدك ، وإذا سوّيتَه فنفختَ فيه من روحك وفعلت ، وفعلت ، فكيف شكرك ؟ » فقال: « علم انّ ذلك منّي ، فكانت معرفته شكراً

فإذن لاشكرَ إلاّ بأن تعرف انّ الكل منه ، فإن خالَجك ريبٌ فى هذا لم تكن عارفاً إلاّ بالنعمة - لابالمنعِم - فلا تفرح بالمنعِم وحده ، بل بغيره . فبقدر نقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح ، وبنقصان فرحك وابتهاجك بالمنعم ينقص عملك . فهذا بيان هذا الاصل .

الأصل الثاني :

الحال المستثمر من أصل المعرفة ، وهو الفرح بالمنعِم مع هيئة الخشوع والتواضع ، وهذا أيضاً شكر في نفسه ، كما انّ المعرفة شكر ، ولكن إنّما يكون شكراً إذا كان جامعاً لشروطٍ :

أحدها أن يكون فرحُك بالمنعِم - لابالنعمة ، ولابالإنعام - ومثاله : انّ الملِك إذا أنعم بفرس على إنسان ، تصور فرحه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أن يفرح به من حيث إنّه فرس ، وإنّه مال يُنتفَع به ، ومركوبٌ يوافق غرضَه وإنّه جوادٌ نفيسٌ ولو وجده في صحراء وأخذه لكان فرحُه مثلَ هذا الفرح .

الثاني أن يفرح به من حيث أنّه يستدّل به على عناية الملِك وشفقته عليه ، حتّى انّه لو وجده في صحراء لم يفرح به أصلا ، لاستغنائه عنه اولاستحقاره بالإضافة إلى ماهو مطلوبه من نيل المحلّ في قلب الملِك .

الثالث أن يفرح به ليركبه ويخرج به في خدمة الملِك لينال بخدمته رتبة القُرب عنه ، ويرتقي إلي درجة الوزارة من حيث أنّه لم يقنع بأن يكون محلّه في قلب الملِك أن يعطيه فرَساً ، ولايكتفي بهذا القدر من العناية، بل هوطالب لأن لاينعم الملِكَ على أحد إلاّ بواسطته ، ثمّ إنّه لايريد من الوزارةِ الوزارةَ إيضاً ، بل مشاهدة الملِك والقرب منه ، حتّى انّه لو خيّر بين الوزارة دون القُرب ، وبين القُرب دون الوزارة لاختار القُرب .

فهذه ثلاث درجات : فالأوّل لايدخل فيه معنى الشكر أصلاً ، لأنّ نظرَصاحبه مقصورٌ على الفرَس لابمعطي الفرس ـ فهذا حال كلّ من فرح بنعمة من حيث أنّهـا لذيذة وموافقة لغرضه ، فهوبعيدٌ من معنى الشكر .

والداخل [١] في معنى الشكر من حيث أنّه فرح بالمنعم ، ولكن لامن حيث ذاته ، بل من حيث معرفة عنايته التي يستحثّه على الإنعام في المستقبل ، و هذا حال الصالحين ، الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاة لثوابه .

وإنّما الشكر التامّ في الفرَح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعم الله من حيث أنّه يقتدر بها على التوسّل إلى القُرب منه ، والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هوالرتبة العلياء وأمارته أن لايفرح من الدنيا إلاّ بما هومزرعة الآخرة ومُعينة عليها . ويحزن بكلّ نعمة تُلهيه عن ذكر الله تعالي وتصدّه عن سبيلـه لأنّه ليس يريد النعمة لأنّها لذيذة .

ولذلك قال الشبلي : « الشكر رؤية المنعِم ـ لارؤية النعمَة » وقال الخوّاص « شكرالعامّة على المَطعم والمَلبس ، وشكر الخاصّة على واردات القلوب » .

وهذه رتبةٌ لايدركها كلّ من انحصرت عنده اللذّات في البطـن والفَرْج و مدركات الحواسّ ، وخَلا عن لذّة القلب ، فإنّ القلب ـ أعني الروح ـ لايلتذّ في حال الصحّـة والسلامة إلاّ بذكرالله تعالى ومعرفته ولقائه ، وإنّما يلتـذّ من غيره إذا مرض بسوء العـادات كما يستلذّ بعض الناس بأكل الطين ، وكمـا يستبشـع بعض المرضىْ الأشيـاءَ الحلوة ، ويستحلي الأشياء المرّة ، فإذن هذه شرائط الفرح بنعمة الله .

---

١) إحياء العلوم (٤/ ٨٣) : والثانية داخلة .

الأصل الثالث :

وهو العمل . وصرف الجوارح وسائر النعم في المصارف التي خلقها الله وأنعمها لأجلها ، وذلك لأمرين ، أحدهما لدوام النعمة . والثاني لحصول الزيادة .

فأمّا دوام النعمة فلأنّ الشكر قيد المنعِم ، به تدوم وتبقى ، وبتركه تزول وتحول ولما علمت انّ كلّ نعمة ـ بل كل عين أو صفة أو قوّة ـ فهي مخلوقةٌ لأجل غاية وفائدة هي مصرفها ، فإذا صرفت في مصارفها دامت ، وإلاّ زالت . كما قال الله تعالى ﴿إنّ اللهَ لايُغيّرُ مَابِقَومٍ حتّى يُغيّرُوا مَابِأَنْفُسِهِم﴾ [١٣/١١] .

وقال : ﴿فكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوفِ﴾ [١٦/١١٢] وقوله : ﴿مَايَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [٤/١٤٧] وفي الحديث انّه قال ﷺ : «إنّ النعم أوابد كأوابد الوحوش ، فقيّدوها بالشكر» .

وأمّا الزيادة فلأنّ الشكر لمّا كان قيد النعمة فهو يثمر الزيادة ، وصرف الشيء في مصرفه الطبيعي يوجب اشتدادَه وازديادَه كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [١٤/٧] وقوله : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى﴾[٤٧/١٧] ألاترى انّالسيد الحكيم إذا رأىالعبدَ قد قام بحقّ نعمة يَمنّ عليه بأخرى ويراه أهلاًلها، وإلاّ فيقطع عنه ذلك؟

تذييلٌ

فإن قلت : هل لنا أن نشكرالخلْقَ على احسانهم إلينا للنعم الواصلة إلينا من الله بأيديهم ـ وقد ذكر انّ الوسائط مسخّرون ولاتأثير لهم في الإفادة أصلا ـ ؟

قلنا : نعم ـ تأدّباً بأدَبالله وأدب رسولهﷺ، فإنّشكرالمحسن علىالإحسان والدعاء له من شِعار الصالحين وأخلاق العارفين ، وذلك منهم مع كمال توكّلهم على ربّهم وصفاء توحيدهم فيالأفعال ، وقطعهم النظر عن الأغيار فيالتأثير والآثار ورؤيتهم النعم كلّها من المنعِم الجبّار ، فإنّهم يفعلون ذلك اقتداء برسول الله ﷺ

كما ورد في كثير من الأحاديث والأخبار .

وبيان ذلك إنّ الناس على ثلاثة أقسام :

فالعامّة حجبوا عن الله بالخلْق في المنع والعطاء . والصوفيّون السالكون في الإبتداء حجبوا بالله عن الخلْق ورأوا الأشياء من الله ، حيث طالَعوا ناصية التوحيد وخرّقوا الحجاب الذي منع الخلْق عن صرف التوحيد ، فلم يثبتوا للخلق منعاً ولا عطاء .

وأما الكمّل من العلماء الإلهيّين فحيث ارتقوا إلى ذروة التوحيد شكروا الخلْق بعد شُكر الحقّ ، وأثبتوا لهم وجوداً وتأثيراً في المنع والعطاء ، بعد أن رأوا وشاهَدوا السبب الأوّل أوّلاً .

وذلك لسعة علْمهم وقوّة معرفتهم بحيث يسع علمهم للجانبين ، ولايحجب نظرهم بأحد من الخلْق والحقّ عن الآخر ، فلا يحجبهم الخلْق عن الحقّ كعامّة المسلمين الساكنين في مقام التسليم ، ولايحجبهم الحقّ عن الخلْق كأرباب الإرادة والمبتدئين من السالكين ، بل شاهَدوا الحكمة والترتيب ونفوذ نور الحقيقة في مطاوي الممكنات ومكامِن الماهيات ، فيشكرون الخلْق لأنّهم الوسائط والأسباب .

روي عن رسول الله ﷺ انّه قال [١] : « أوّل مايدعى إلى الجنّة الحمّادون ، الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء » وقال ﷺ : « من عطَس او تجشّى فقال : «الحمد لله على كلّ حال» رفعه الله بها عنه سبعين داء أهونها الجذام . وقال ﷺ [٢] : « مامن عبْد ينعم عليه بِنعمة فحمَد الله إلّا كان الحمدُ أفضل منها » .

فقوله ﷺ : « كان الحمدُ أفضل منها » يحتمل انّه رضى الحقّ بها شكراً ، ويحتمل انّ الحمد أفضل منها نعمة ، فيكون نعمة الحمدِ أفضل من النعمة التي حَمَد

---

١) جاء في الترغيب والترهيب بفرق يسير : ٣/ ٢٤٤ .

٢) جاء في الترغيب والترهيب بفرق يسير : ٣/ ٢٤٥ .

عليها ، فإذا شكروا المنعِم الأوّل يشكرون الواسطة المنعِم من الناس ، ويدعون .

وعنه ﷺ انّه إذا أفطر عند قوم قال[1]: « أفطَر عندكم الصائمون وأكَل طعامَكم الأبرارُ ، ونزلت عليكم السكينةُ والوقار » وعنه ﷺ : « من قال لأخيه : « جزاك الله خيراً » فقد أبلغ في الثناء[2] .

١) في الجامع الصغير (١/ ٥١) : أفطَر عندكم الصائمون ، وأكَل طعامَكم الأبرار ، وصلّت عليكم الملائكة .

٢) جاء ما يقرب منه في الترمذي : آخر أبواب كتاب البرّ : ٤/ ٣٨٠ .

قوله جلّ اسمه :

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٥٣)

هذا هو النعمة الرابعة عليهم من الله [تعالى]

[الفرقان والقرآن]

والفُرقان في اللغة مصدر فرّقت بين الشيئين فرقاً وفرقاناً ، يطلق على مابه يحصل الفرقان ، والمراد به هيهنا إمّا نفس التورية باعتبار كونه فارقاً بين الحقّ والباطل ، أو شيئاً داخلاً فيه أو خارجاً عنه .

فالأوّل قول ابن‌عباس . وإنّما صحّ العطف لتغائر اللفظين بل لتغائر المفهومين فإنّ مفهوم « الكتاب » يغائر مفهوم « الفارِق » فهو كقولك : « رأيت الغيث والليث » تريد الرجل الجامع بين الجود والشجاعة ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا ﴾ [٢١/٤٨] يعني الجامع بين هذه الأوصاف .

والثاني يكون إشارة إلى بعض مافي التورية ، كبيان أصول الدين وفروعه .

وأمّا الثالث ، فقيل : إنّ المراد به انفراق البحر الذي أتاه موسى عليه‌السلام .

وقيل : الفرق الحاصل بين أهل الحقّ ــ وهم موسى وأصحابه المؤمنون ــ وبين أهل الباطل ــ وهم فرعون وأصحابه الكافرون ــ وذلك بأشياء كثيرة منها نجاة هؤلاء ، وغرق هؤلاء ــ هذا بحسب الظاهر . وأمّا بحسب الباطن فهؤلاء نجَوا من غرق

بحر الطبيعة التي هي بحر مسجور ، فخلصوا من عذاب نيرانها في القيامة ، وهؤلاء غرقوا فيها واحترقوا بنار جهنّم في القيامة ، وقد قال سبحانه [١] : « هؤلاء للجنّة ولا أبالي وهـؤلاء للنار ولا أبالي » وهذا الفرق المعنوي بعينـه حاصلٌ إلى الآن بين المحقّين والمبطلين ، مشهود لأرباب الشهود الباطني .

وقيل : الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

وقيل : النصر الذي فرّق بينهم وبين عدوّهم ، كقوله : ﴿ يَومَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ [٨/٤١] يريد يوم بدْر .

وقيل : إنّ المـراد بالفرقان : القرآن ، ويكون تقديره : « وآتينا موسى التورية ، وآتينا محمداً الفرقان ، لكي تهتدوا به يا أهل الكتاب » . وهو قول الفرّاء وقُطرب وثعلب . وهذا تعسّفٌ شديد، لأنّ فيه حمل القرآن على مثل هذا المجازمن غيرضرورة ، مع انّه تعالى أخبَر انّه آتي موسى الفرقان [٢].

إشارةٌ

[الفرقان والقرآن عند أهل الله]

وههنا دقيقة أخرى لأهل الله في معنى الفرقان والتمييز بينه وبين معنى القرآن، وهو انّ للنفس الناطقة ضربين من العلوم الإلهيّة :

أحدهما مايقال له : « العلْم الإجمالي، والقضائي والعقلاني» ويسمّى عند قوم من الحكماء بـ «العقل البسيط» ويتّصف به العقْل الفعّال ، وهو من صفات المقرّبين ، ومن الملائكة المقدّسين ، والأنبياء والأولياء الكاملين .

وثانيهما مايقال له : «العلم التفصيلي، والقدَري والنفساني» ويتّصف به العقل

١) مضى في الجزء الثاني : ص٢٦٤ .

٢) مجمع البيان : ١/ ١١١ .

المنفعل ، وهو من صفات المتفكّرين في الآفاق والأنفس .

فإذا تقرّر هذا فنقول ، إنّ القرآن عند أهل الله خاصّة ـ وهم أهل القرآن ـ عبارةٌ عن العقل البسيط ، والعلم الإجمالي . والفرقان عندهم عبارة عن العلوم الإنفعالية التفصيلية الحاصلة من ذلك العقل البسيط ، فذلك العقل القرآني مبدء لحصول الصوَر العلميّة الفكريّة للنفس .

إذا علمت هذا فاعلم انّ الله خصّص نبيّنا حبيب الله ﷺ من بين سائر الأنبياء ﷺ بإنزال القرآن والفرقان جميعاً، ولهذا وصَف ماأنزل الله عليه بهما جميعاً، كما انّه ﷺ اختصّ من بينهم بإنزال الكلام وتنزيل الكتاب جميعاً ، والمنزّل على سائر الأنبياء ﷺ فرقان فقط وليس بقرآن، كما انّ المنزل عليهم كتابٌ فقط وليس بكلام .

ومن هذا الوجه يعلم فضيلة هذه الأمّة على سائر الامم ، لأن فائـدة الإنزال والتنزيل ترجع إلى الأمَم ، فبقدر فضيلة الكتاب يعلم فضيلة المنزل عليهم ، فتستفاد من هذا البيان أنّه يوجد في هذه الأمّة جماعة تكون درجتهم درجة إدراك العقل البسيط القرآني ، وأنّه لم يوجد هذه الدرجة في سائر الأمم ، بل في أنبيائهم خاصّة ، وإلا لكان كتابُهم المنزَل عليهم من مثل هذا القرآن ، وليس كذلك .

* * *

وقد مرّ الفرق ايضاً بين كلام الله وكتابه من أنّ الكلام من عالَم الأمر ، والكتاب من عالَم الخلْق . ومن أنّ الكلام منزّل على قلب حبيب الله ﷺ بالحقّ ، وكتُب سائر الأنبياء ﷺ نازلةٌ عليهم في الألواح والصحُف وبين الإنزالين بونٌ بعيد وفرقٌ عظيم .

وقد ذكرنـا أيضاً فرقاً آخراً بين الكلام والكتاب بأنّ أحدهما يكون صفة نفسانيّة وخُلقاً ، والآخر يكون فعلاً وأثراً مباثناً . وكذلك العقل البسيط الإجمالي

القرآني صفة ذاتيّة للعالِم به ، بل ربما يكون عين العالِم . وأمّا الصوَر والعلوم التفصيليّة فهي من قبيل الآثار والأفعال بالقياس إلى العقل الكامل الفعّال . فلهذا كان القرآن خُلق نبيّنا ﷺ كما هو المرويّ (١) .

* * *

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي بتدبّر الكتاب والتفكّر في آياته .

المسند : ٦/ ٩١ و ١٦٣ .

قوله جلّ اسمه :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

هذا هو الإنعام الخامس من الله لهم ، وذلك لأنّه نبّههم على عظيم ذنبهم ، ثمّ نبّههم على طريق تخلّصهم (التخلّص ـ ن) عن عذاب يوم القيامة ، وذلك من أعظم النعم في الدين ، ثمّ إنّه تاب عليهم قبل فنائهم بالكلّيّة ، فكان ذلك نعمة في حقّ الباقين .

يعني : اذكروا ياأهل الكتاب ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِه ﴾ الذين عبدوا العِجْل عند رجوعه من الوعد الذي وعده ربّه : ﴿ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي نقصتم أنفسكم الثواب الواجب بالإقامة على عهد موسى عليه السلام ، أو أضررتم بها حيث وضعتم العبادة غير موضعها ﴿ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ إلهاً .

والمفعول الثاني محذوفٌ لدلالة القرينة عليه ، فإنّ الظلم إمّا بمعنى النقص أو الإضرار الذي ليس بمستحقّ ولافيه نفعٌ ، ولا رفع مفسدة لا علماً ولا ظناً ، فلمّا عبدوا العِجْل فقد نقصوا أنفسهم عن تمام الإنسانيّة ، فإنّ الإنسان إذا كفر بالله انسلخ

عن الفطرة وانخرط في سلك البهائم والحشرات . أو كانوا أضرّوا بأنفسهم لأنّ لا ضرر أعظم مما يؤدّي إلى عذاب الأبد ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [١٣/٣١] .

﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي ارجعوا وأنيبوا إلى خالقكم بالطاعة والتوحيد .

والفرق بين «الباري» و «الخالق» انّ الباري هو المبدع المحدث ، والخالق هو المقدّر الناقل من صورة إلى صورة ، ومن حال إلى حال . وأصل التركيب في اللغة لخلوص الشيء عن غيره إمّا على سبيل التفصّي ، كقولكم : «برىءَ المريضُ من مرَضه ، والمديونُ من دَينه» أوعلى سبيل الإنشاء ، كقوله: «برَءَ اللهُ آدمَ من الطين»

* * *

سؤالٌ : لِمَ اختصّ هذا المقام بذكر هذا الإسم دون غيره من الأسماء الحسنى؟

جوابٌ : لأنّ الباري هو الذي خلَق الخلْق بريئاً من التفاوت لقوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [٣/٦٧] ومتميزاً بعضه من بعض بصوَر متباينة وأشكال مختلفة، فكان فيه تقريعٌ لهم بماوقع منهم من ترك عبادة العالِم الخبير الذي براهم بلطف حكمته على الأشكال والصور المختلفة وأبرياء من التفاوت إلى عبادة البقَرة التي هي مثَلٌ في الغباوة والبلادة ـ وفي أمثال العرب : « أبلَد من ثورة » ـ حتى عرَضوا أنفسَهم لسخط اللّه .

* * *

قوله : ﴿فَٱقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ تتميماً لتوبتكم، إمّا بترك الشهوات واللذات وإماتة القُوى الحيوانيّة بمنعها عن دواعيها ـ كما قيل : « مَن لم يعذّب نفسه لم ينعّمها، ومن لم يقتلها لم يحيها » وفي كلام بعض أعاظم الحكماء : « مُتْ بالإرادة تحيي بالطبيعة » وفي الحديث النبوي على قائله وآله أشرف سلام الله : « مُوتوا قبل أن تمُوتوا » وروي انّه قال أيضاً : « من أراد أن ينظر إلى ميّت يمشي فلينظر إليّ» - أوبالبخع[1]،

١) بخَع نفسه : نهَكها وكاد يهلكها من غضب أو غم .

أو بقتل بعضكم بعضاً ـ فإنّ الأقوال فيه مختلفة .

وقال قوم من المفسّرين ـ كالقاضي عبدالجبار وغيره ـ : لايجوز أن يراد به قتل كلّ من التائبين نفسه ، واحتجّوا عليه بوجهين [١] :

أحدهما إنّهم ماقتلوا أنفسهم بأيديهم ولو كانوا مأمورين به لعصوا بتركه .

وثانيهما إنّ القتل اسم لنقص البَنية بفعل مزهق للروح في الحال ، وأمّا مايؤدي إلى الزهوق وقتاً آخر فإنّما سمّي قتلاً على سبيل المجاز . فإذا كان كذلك فلايجوز من الله الأمر بقتل الإنسان نفسه ، لأنّ الأوامر الإلهية والتكاليف الشرعيّة إنّما وقعت لمصلحة للمكلّف به في المستقبل ، ولايتصوّر وجودها بعد عدمه .

وفي هذه المقدّمات مواضع نظر، على أنّ المصلحة لايجب أن يعود إليه ، بل ربما تعود مصلحة قتله لنفسه إلى غيره بأن ينتفع به ذلك الغير، ثمّ الله يوصل العوض العظيم إليه . ثمّ على تقدير عودها إليه لايلزم أن يكون في الدنيا بل يكون في العقبى .

سلّمنا إنّه يلزم عودها إليه في الدنيا . لكن لِم لا يجوز أن يكون علمُه بكونه مأموراً بهذا القتل وامتثاله للأمر مصلحة له في هذا الآن ، أو الزمان القليل ؟ كما انّه لو أُمر بأن يقتل نفسه غداً فإنّ علمه بذلك يصير داعياً له إلى ترك المعاصي من ذلك الزمان إلى ورود الغد، فالوجه الأوّل أقوى ، ولهذا عوّل عليه المفسّرون .

* * *

فعلى هذا يجب صرف الآية عن ظاهرها إمّا إلى ماذكرنا أوّلاً ، أو إلى غيره وهو إثنان :

أحدهما أن يقال : أمر سبحانه التائبين أن يقتل بعضُهم بعضاً وهو قول ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم [٢] وهذا كقوله سبحانه : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٢٧ .

٢) مجمع البيان : ١/١١٣ .

فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ [٦١/٢٤] أي ليسلّم بعضكم على بعض . وكقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [٢٩/٤] ومعناه لايقتل بعضكم بعضاً .

وتحقيق ذلك إنّ المؤمنين كنفس واحدة بخلاف غيرهم من الكفار والمنافقين فإنّهم ذو آراء متناقضة ومذاهب متخالفة وأخلاق متشتّتة بعضها بهيميّة ، وبعضها سبُعيّة ، وبعضها شيطانيّة . ولذلك حشروا إلى صوَرمختلفة بحسب ماغَلب واستولى على نفوسهم من الأخلاق كما هو معلوم من مباحث علم المعاد . أمّا نفوس أهل الايمان والتوحيد فقد ثبت في موضعه انّها ستّصل بعالَم القدس .

ومذهب بعض أئمّة الحكمة والتوحيد من الأقدمين إنّ النفس العارفة العاقلة عند خروجها عن القوّة إلى الفعل في باب العاقليّة والمعقوليّة تتّحد بروح القدس المسمّى عندهم بالعقل الفعّال ، فعلى هذا صحّ القول بأنّها كنفس واحدة .

وكذا على مذهب أفلاطـن ومن وافقه من عظماء الحكماء في باب انّ لكل نوع صورة مفارقة في عالَم الأرواح العاليـة هي حقيقة ذلك النوع وتمامه ، وهي جوهرٌ واحد قائم عند الله ماثلُين يديه . ومع وحدته هو تمام كلّ واحد من أفراد ذلك النوع ، وكذلك لنوع الإنسان وأفراده صورة واحدة في عالَم الربوبيّة هي تمام جوهر الإنسانيّة وإن أفراد الناس إذا لم ينسلخوا عن الفطرة الإنسانيّة بالكفر ونحوه يكونوُن متّحدين في تمام حقيقتهـم وكمال وجودهم العقلي الباطني بجوهر قدسيّ واحد ، هو نفس حقيقة الجميع ، وكان هذه النفوس البشريّة أجزاء لذلك الجوهر، لأنّه الأصل . وهذه هي الفروع الصادرة منه ، العائدة إليه عند تمامها وكمالها .

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِيخَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [١/٤] وقوله : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَابَعْثُكُمْ إِلَّاكَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [٢٨/٣١] ولذا قيل في قوله : ﴿وَلَاتَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [١١/٤٩] أي اخوانكم من المؤمنين . وفي قوله : ﴿لولاَ إِذْ سَمِعْتُمُوه ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [١٢/٢٤]

أي بأمثالهم من المؤمنين .

ثمّ قال المفسّرون القائلون بهذا القول : إنّ اولئك التائبين برَزوا صفّين فيضرب بعضهم بعضاً إلى الليل .

وثانيهما إنّ الله أمرَ مَن لم يعبُد العِجل أن يقتلوا العبَدَة وأمرَ التائبين أن يسلّموا للقتل ، وهذا أقرب هذين الوجهين .

وعن ابن إسحق والجبائي إنّ معنى ﴿ فَٱقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ استسلموا للقتل ، فجعل استسلامهم للقتل قتلاً منهم لأنفسهم على وجه التوسّع .

* * *

واعلم إنّ الروايات مختلفة في باب المأمورين بالقتل ، ففي بعضها [١] انّ موسى عليه السلام أمرَهم أن يقوموا صفّين ، فاغتسلوا ولبسوا أكفانهم ، وجاء هرون باثنى عشر ألفاً ممّن لم يعبد العِجل ، ومعهم الشِفار والمُرهَفة ، وكانوا يقتلونهم ، فلمّا قَتلوا سبعين ألفاً تاب الله على الباقين ، وجعل قتل الماضين شهادة لهم .

وفي بعضها، إنّ السبعين الذين كانوا مع موسى في الطور هم الذين قتلوا ممّن عبَد العِجل سبعين ألفاً ، فماتحرّكوا حتى قتلوا ثلاثة أيام ـ ذكره محمد بن إسحق .

وفي بعضها، [٢] ـ وهي رواية كلبي ـ : لمّا أمَرهم موسى عليه السلام أجابوا ، فأخذ عليهم المواثيق ليصبرنّ على القتل ، فأصبحوا مجتمعين كلّ قبيلة عليحدة .

فأتاهم هرون بالإثنى عشر ألفاً الذين ما عبَدوا العِجل ، وبأيديهم السيوف وقال التائبون : إنّ هؤلاء إخوانكم قد أتوكم شاهرين السيوف، فاتّقوا الله واصبروا ، فلعَن الله رجلاً قام من مجلسه ، أو مدّ طرْفه إليهم ، أو اتّقاهم بيدٍ او رِجْل ، يقولون « آمين » فجعلوا يقتلونهم إلى المساء ، وقام موسى وهرون يدعوان الله ويقولان :

١) مجمع البيان : ١/١١٣ .

٢) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٢٨ .

« البقيّة ، البقيّة ـ يا إلهنا » فأوحى تعالى إليه : « قد غفرتُ لمن قُتل . وتبتُ على مَن بقي » قالوا : وكان القتلى سبعين ألفاً .

وفي بعضها : إن بني اسرائيل كانوا قسمين : منهم من عبَد العجل ، ومنهم من لم يعبده ، ولكن لم يُنكِر على مَن عبَده ، فأمَرَ مَن لم يشتغل بالإنكار بقتل من اشتغل بالعبادة .

وفي الكشاف وغيره [1] : روي إنّ الرجل كان يبصر ولدَه ووالدَه وجارَه وقريبَه ، فلم يمكنهم المضيّ لأمرالله ، فأرسل الله ضَبابة وسَحابة سَوداء لايتباصرون تحتها، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم، فقُتلوا إلى المساء، حتّى دعا موسى وهٰرون، فقالا : «يارب هلكت بنو إسرائيل ، البقيّة البقيّة » فانكشفت السحابة ونزلت التوبة، وسقطت الشِفار من أيديهم .

* * *

وقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي : فعْل التوبة ، أوالقتل من حيث كونه طهارة عن الشرك ، أووصلة إلى الحيوة الأبديّة والبهجة السرمديّة ـ خيرٌ لكم عند خالقكم ، فإنّ حالتهم كانت دائرة بين ضرر الدنيا ونعيم الآخرة أبداً ، وبين التمتّع في الدنيا أيّاماً قليلة ، والعذاب فيالآخرة أبداً ، وضررالدنيا أولى بالتحمّل ، لأنّه متناه من ضرر الآخرة ، لأنّه غير متناهٍ ونعيم الآخرة أولى بالايثار من نعيم الدنيا لأنّه دائم وهذا منقطع . ولأنّ الموت واقع لامحالة ، فليس في تحمّل القتل إلاّ تقديم أمر ضروري الوقوع لامحالة ، وفي عدم تحمّله تأخيره ، وأمّا النجاة من العقاب الدائم والفوز بالثواب الدائم ، فهو سعادة لاأعظم منها .

وقوله : ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي : قبِل توبتكم .

واعلم إنّه قد تقرّر عند أهل المعرفة والشهود وثبَت بالأخبار المتكثّرة

---

١) الكشاف ١ : ٢١٦/١ .

المتظافرة انّ الإنسان كلّما قرُب من الحقّ قرُب هو تعالى منه ، و كلّما رجع إلى الله رجع إليه . وفي الحديث الإلهي : « مَن قرب إليّ شِبراً قربت إليه ذراعاً ، ومَن قرب إليّ ذراعاً قربت إليه باعاً » .

قوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي قابل التوبة عن عباده مرّة بعد أُخرى ، كثير العطوفة عليهم ، بمحو السيّئات ويغفر الخطيئات .

قوله جلّ اسمه :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

هذا هو الإنعام السادس عليهم من جهة مكافأتهم على ماقالوا في الدنيا بالصاعقة ثمّ إحيائهم بعد الموت ليتوبوا . ولأهل التفسير في هذه القضيّة قولان : [1]

الأوّل : إنّ هذه القضيّة كانت واقعة بعد أن كلّف الله عبدة العجل بالقتل .

قال محمد بن إسحق : لمّا رجع موسى عليه السلام من الطور إلى قومه ورأى ماهم فيه من عبادة العجل وقال لأخيه والسامري ما قال ، وحرق العجل والقاه في البحر ، اختار من قومه سبعين رجلا، فلمّا خرجوا إلى الطور قالوا لموسى عليه السلام : «سلْ ربّك حتى يسمعنا كلامَه» . فسئل موسى عليه السلام ذلك فأجابه الله إليه ، فلمّا دنا إلى الجبل وقع عليه عمودٌ من الغمام وتغشّى الجبل كلّه ذلك ، ودنا من موسى ذلك الغمام حتّى دخل فيه . فقال للقوم أدخلوا وعوا . وكان موسى عليه السلام متى كلّمه ربّه وقع على جبهته نورساطع لايستطيع أحد منهم النظر إليه وسمعوا كلام الله مع موسى عليه السلام ، يقول له : « إفعل كذا ، ولاتفعل كذا » فلما تمّ الكلام انكشف عن موسى عليه السلام الغمام الذي دخل فيه فقال القوم بعد ذلك ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم

---

1) تفسير الفخر الرازي : ١ / ٥٣٠ .

الصاعقة ، وماتوا جميعاً وقام موسى عليه السلام رافعاً يديه إلى السماء يدعو ويقول : إلهي اخترتُ من بني إسرائيل سبعين رجلا ليكونوا شهودي لقبول توبتهم ، فأرجعُ إليهم وليس معي واحد، فما الذي يقولون فيَّ ؟ ! فلم يزل مشتغلاً بالدعاء حتى ردّ الله إليهم أرواحهم . فطلب توبة بني إسرائيل من عبادة العِجل . فقال: «لا ، إلاّ أن يقتلوا أنفسهم»

القول الثاني : إنّ هذه الواقعة كانت بعد القتل .

قال السدّي : ولمّا تاب بنو إسرائيل من عبادة العِجل بأن قتلوا أنفسهم أمَرَ الله تعالى أن يأتيه موسى عليه السلام في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادتهم العِجل، فاختار موسى سبعين رجُلاً ، فلمّا أتوا الطور قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فأخذتهم الصاعقة وماتوا ، فقام موسى عليه السلام يبكي ويقول : « يـارِبّ ماذا أقول لبني اسرائيل ؟ فإنّي أمرتهم بالقتل ثمّ اخترت من بقيّتهم هؤلاء ، فلمّا رجعت إليهم ولايكون معي منهم أحد ماذا أقول لهم ؟ » فأوحى الله إلى موسى « إنّ هؤلاء السبعين ممّن اتّخذوا العِجل إلهاً » . فقال موسى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [٧/١٥٥-١٥٦] ثمّ إنّه تعالى أحياهم فقاموا ونظـرَ كلّ واحد منهم إلى الآخر كيف - يحييه الله تعالى ، قالوا: يا موسـى إنّك لا تسئل الله شيئاً إلاّ أعطاك ، فادعه لنجعلنا أنبياء . فدعا موسى عليه السلام بذلك . فأجاب الله بذلك .

واعلم انّ كل واحد من القولين محتملٌ ولا ترجيح لأحدهما على الآخر .

قال صاحب الكبير : [1] « وليس في الآية ما يدل على أنّ الذين سئلوا الرؤية هم المتّخذوا العِجل إلهاً أوغيرهم » .

أقول : وجدنا في التفسير المنسوب إلى مولانا حسن بن عليّ العسكريّ عليهما السلام مايدلّ على الثاني[2] لأنّه فيه انّ معنى قوله تعالى : ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي : « فليقتل

---

(١) الفخر الرازي : ١/ ٥٣١ .

٢) راجع التفسير المنسوب إلى أبي محمد العسكري (ع) : ١٢٠-طبعة طهران الحجرية.

بعضكم بعضاً . فقتل من لم يعبد العِجل من عبدَه» فظهَر انّالمقتولين هم العابدون للعِجل . فالسائلون للرؤية غيرهم .

وفي التفسير المذكور أيضاً [١] : « إنّ القوم كانوا ستماًة ألف ، كلّهــم قُتلوا إلاّ إثني عشر ألفاً ، وهم الذين لم يعبدوا العِجل » .

وقوله : ﴿ جَهْرَةً ﴾ أي : عياناً . قال صاحب الكشّاف[٢] : « هي مصدر من قولك : « جهر بالقراءة وبالدعاء » كأنّ الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية ، والذي يرى بالقلب مخافت بها . وانتصابها على المصدريّــة ، لأنّها نوع من الرؤية فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس . او على الحال بمعنى « ذَوي جَهــرة » وقرىء « جهَرة » ـ بفتح الهاء ـ وهي إما مصدر كـ « الغلبة » وإما جمع « جاهر» .

وقال القفّال[٣]: أصل الجهرة من الظهور. يقال : « جهرتُ الشيء » إذا كشفته ، و« جهرتَ البئر» إذا كان ماؤها يغطى بالطين فنقيّته حتى ظهر الماء . ويقال : « صوت جَهير » و « رجُل جَهوري الصوت » إذا كان صوته عالياً . وإنّما قالــوا ﴿ جَهْرَةً ﴾ لئلّا يتوهّم انّ المراد بالرؤية العلْم والتخيّل ، كما يراه النائم .

وفي هذا المقام موضع أبحاث عقليّة :

الأوّل: إنّ بعض المتكلّمين من أصحابنا الإماميّة ـ رضوان الله عليهم ـ وسائر المعتزلة استدلّوا بقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ ﴾ على امتناع الرؤية عليه .

تقريره انّها لو كانت جائزة فكانوا التمسوا أمراً مجوّزا ، فوجب أن لا ينزل عليهم العذاب ، كما لم ينزل بهم العقوبة لما التمسوا النقل من طعام إلى طعام .

---

١) المصدر المذكور : ١٢١ .

٢) الكشاف : ١/٢١٦ .

٣) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٣١ .

وقال بعضهم [١] : ماذكر الله سؤال الرؤية في كتابه إلاّ وقد استعظمه منها هذه الآية . ومنها قوله : ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَقَدْ سَئَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ - الآية - [٤/١٥٣] ومنها قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [٢٥/٢١] فالرؤية لو كانت جائزة لما كان سائله مستحقّاً للصاعقة ، ظالماً ومستكبراً في نفسه وعاتياً عتوّاً كبيراً . فدلّت الآيات على أنّ رؤية الله ممتنعة على عباده .

ولقائل أن يقول : لانسلّم دلالتها على امتناع الرؤية ، وليس كلّ عقوبة وجب أن يكون واردة على طلب أمرمحال في ذاته ، فربما كان سبب العقوبة كونهم ادّعوا لنفسهم منصباً عالياً يستحيل حصوله لهم لانحطاط درجتهم عن استحقاق لذلك غاية الانحطاط ، وإن كان الأمر في نفسه ممكناً .

ولأنّه لمّا تمّت الدلائل الباهرة والمعجزات الجليّة على صدق المدعي كان طلب دليل آخر زائد تعنّتاً ولجاجاً ، والمتعنّت اللجوج يستوجب المقت والعذاب .

ولأنّه يجوز أن يعلم الله في زجْر الخلق عن طلب الرؤية مصلحة مهمّــه ،كما علم انّ في إنزال الكتاب من السماء وإنزال الملائكة منها عليهــم مفسدة عظيمة ، لاجرم زجرهم عن ذلك واستنكره ، ولغير ذلك من الوجوه .

واستدلّ بعض المجوّزين للرؤية بأنّ الله قد أجرى إنزال الكتاب من السماء مجرى الرؤية في كون كلّ منهما عتوّاً ، فكما انّ إنزال الكتاب أمرٌ ممكن في نفسه فكذا الرؤية . ومن هذا القبيل استدلال بعضهم على إمكانها بأنّ الله علّق رؤيته على استقرار الجبل في قوله : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [٧/١٤٣] من أنّ استقرار الجبل أمرٌ ممكن في نفسه ، والمتعلّق على الممكن ممكن ، فإنّ المحال لا علاقة له

١) هو أبو الحسين البصري كما في تفسير الفخر الرازي : ١ / ٥٣١ .

بشيء ، فتكون رؤية الله جائزة .

والجواب انّ إنزال الكتاب على وجه اقترحوه أمرٌ محال لما حقّق في العلوم الحقيقية من كيفيّة نزول الكلام والكتاب ، وقد سبّق في المفاتيح مايوضح ذلك لاهل البصيرة [1] . وكذا نقول استقرار الجبل حين التجلّي أمر محال .

وأمّا الذي أجاب به بعضهم [2] « من أنّ الظاهر يقتضي كون كلّ واحد من نزول الكتاب والرؤية ممتنعاً ، لكن ترك العمل به في إنزال الكتاب فيبقى معمولاً به في الرؤية » ففي غاية السخافة كما لايخفى ، لأنّه ماأقام دليلاً على أنّ الاستعظام لايتحقّق إلا إذا كان المطلوب ممتنعاً ، وإنّما وقع التعويل على ضرب الأمثلة والمثال لايقنع به في هذا الباب ، والعمل بالظاهر إنّما يصح ـ حيث يصح ـ في الأحكام الفرعيّة ـ دون العقائد الأصليّة .

البحث الثاني :

إنّ الرؤية ـ على أيّ وجه كانت ـ هل هي ممكنة للعباد ؟ أم هي ممتنعة ؟ .

اعلم أنّ أكثر الناس يتنازعون في مسئلة لايعرفون بعد موضوعها ولامحمولها ، فقبل تحرير محل النزاع يخاصِم بعضُهم بعضاً ، ويكفّر بعضُهم بعضاً . وهذه المسئلة من هذا القبيل ، فإنّ الواجب أوّلاً على كلّ مسلم أن يعرف ربّه ويعرف نفسه ، ثمّ يتكلّم في هذا المقام .

وهذان العِلْمان من العلوم الغامضة التي لايتيسّر إلا بجهد جَهيد وخوض شديد ، مع ذهن صاف وصدر منشرح ، وقلب منور مشتعل في الصدر كالمصباح في القنديل . وأكثر الناس غِلاظ الطبائع قساة القلوب . فاذاً من حصل له علم بماهيّة

١) راجع المفتاح الأوّل من كتاب مفاتيح الغيب للمصنف قده .

٢) هو أبو الحسين البصري كما في تفسير الفخر الرازي : ١ / ٥٣٢ .

نفسه وعرف ربّه بصفاته اللائقة به ـ من العلْم ، والقدْرة والإرادة ، والحيوة ، وغير ذلك ـ وعرف الصفات على وجه تصحّ نسبتها إلى الذات الإلهية ، وعلِم تنزيه الله عن النقائص والعيوب والتشبيهات: ثمّ علم معنى الرؤية إذا نسبت إلى الحقّ ومعنى الرؤية إذا نسبت إلى الخلْق ، فحينئذ لم يبق له مجالُ شك ، ولا يسع لأحدٍ محل خصومة وخلاف في هذه المسئلة .

قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [٢/١٨٩] والقوم تركوا وصيّة ربّهم ، واستدلّوا على هذا المطلب الشريف الشامخ الإلهي بالعمل بالظاهر من الوقائع والحكايات والأمثال المشهورة ، وهذا بعينه إتيان البيت من ظَهره وسَطحه . ولذلك علومهم وكمالاتهم دائماً ظاهريّة سطحيّة ، وهم المسمّون عند أهل المعرفة الحقّة بالظاهريّين وعلماء القشر .

فإذا تقررت هذه المقدمات فنقول : رؤية الله تعالى إمّا أن يراد بها رؤيته بهذه الآلة المخصوصة ، أوبعين القلب . وكلّ منها إمّا أن يتعلّق بذاته تعالى من حيث ذاته اوبمظهر خاص من المظاهِر. فهذه أربعة أقسام بحسب الإحتمال العقلي قبل إقامة البرهان .

أمّا الأوّل ـ وهو أنْ يرى الإنسان بهذه الباصرة الدائرة ذاتَه الأحديّة ، فلاشبهة لذي بضاعة علميّة في أنّ ذلك من الممتنعات ، لأنّ الإحساس بالشيء حالة وضعيّة للجوهر الحاسّ بالقياس إلي المحسوس الوضعي ، ففرْض ما لاوضْع له ولاجهة له محسوساً ، كفرض ما لاجهة له في جهة ، أو ما لاوضع له ذا وضع ، وهذا فرض أمرين متناقضين ، فيكون المفروضُ ـ بل الفرضُ ـ محالاً .

وأمّا الثاني ـ وهو أن يرى بهذا البصَر الجسماني مَظهراً من مظاهـر ذاته ، ومَجلىً ومثالاً للحق تعالى ، سواء علِم كونه مثالا ومظهراً له ، أولم يعلم ـ فهذا أمر

جائز ، بل واقع ، لقوله ﷺ [١] : « مَن رآني فقد رأى الحقّ » . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [٤٨/١٠] وقوله ﴿ مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [٤/٨٠] .

وأمّا معنى كون الشيء مثالاً ومظهراً له تعالى- فيحتاج تحقيقه إلى علوم كثيرة باطنيّة ليس هيهنا موضع بيانها ـ وسنشير إلى لمعة منها .

وأمّا القسم الثالث ـ هو أن يرى بعين القلب مظهراً مثالياً . ولا ينفكّ هذه الرؤية من العلم بكون المظهر مثالاً له تعالى ، فهذا مما لايمكن وقوعه من العبد في الدنيا .

وأمّا ماروي عن النبي ﷺ أو عن غيره « انّه رأى في صورة كذا وكذا » فذلك لظهور سلطان الآخرة وتجرّد الروح عن الدنيا وما فيها ، فإنّ للنفس في ذاتها سمعاً وبصراً ويداً ورجْلا ، وجميع الحواسّ والجوارح المستورة عن مشاعر هذا العالَم ، وهذه الحواسّ والقشورحجُب وأغشية ظلمانيّة على تلك الحواسّ والقوى والأعضاء وهي المقبورة المحشورة من الخلْق عند قيام الساعة .

وأمّا القسم الرابع ـ وهو أن يرى بالعين الباطنة ذاتَ الله تعالى ـ فهذا مختصٌّ بالعلماء الراسخين ، سيّما الأنبياء والأولياء منهم ﷺ ـ سواء كانوا في الدنيا أو ارتحلوا إلى الآخرة ، فإنّ هذه رؤية بحقائق الايمان لابجوارح الأبدان .

والدليل على هذا ماروا ه محمّد بن يعقوب الكليني في الكافي[٢]، ومحمّد بن عليّ بن بابويه القمّي في كتاب التوحيد [٣] ـ طاب ثراهما ـ عن أبي عبدالله جعفر ابن محمّد الصادق عليه السلام إنّه قال : « جاء حِبْر إلى أميرالمؤمنين علي عليه السلام ، فقال :

١) راجع ماسيأتي في الصفحة ٤١٣ .

٢) الكافي : باب ماجاء في ابطال الرؤية : ٩٨/١ .

٣) التوحيد : باب ماجاء في الرؤية : ١٠٩ .

ياأميرالمؤمنين هل رأيتَ ربَّك حين عبدتَه ؟ قال : فقال : ويحك[1] ـ ما كنت أعبد ربّاً لم أره ؟ قال : وكيف الرؤية ؟ قال : ويلك لاتدركه العيون في مشاهدة الأبصار . ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان ».

والذي يدلّ أيضاً على تحقيق رؤية الله بالمعنى الثاني أو الرابع في الدنيا ، ماروي محمّد بن علي بن بابويه عليه الرحمة في كتاب التوحيد [2] مسنداً عن أبي بصير ، قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أخبرني عن الله عزوجل ، هل يراه المؤمنون يومَ القيامة ؟ قال : نعم ، وقد رأوه قبل يوم القيامة ؟ فقلت : متى ؟ قال: حين قال [3] : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ ثمّ سكَتَ ساعة . ثمّ قال : وإنّ المؤمنيــن ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة : ألستَ تراه في وقتك هذا ؟ قال أبوبصير : جُعلتُ فداك فأحدّثُ بهذا عنكَ ؟ فقال : لا ـ لأنّك إذا حدّثت به فأنكرَه منكرٌ جاهلٌ بمعنى ماتقولُه ثمّ قدّر أن ذلك تشبيه كفَر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين ، تعالى عمّا يقوله المشبّهون والملحدون .

البحث الثالث :

في معنى كون الشيء مثالاً ومظهراً لأمر :

اعلم إنّ الله منزّه عن المِثْل ، إذ لاماهيّة له،والمماثل للشيء هو المساوي له في النوع . ولأنّ كلّ ماسواه ممكن الوجود في ذاته مستفيد الوجود منه تعالى ، والبرهان قائم على أنّ أفراد ماهيّة واحدة لايمكن كون بعضها علّة ، وبعضها معلولاً .

ولكن لاينزّه عن المِثال وهو عبارةٌ عن أمر إذا عرف ، عرف الممثَّل له .

---

١) المصدرين : ويلك .

٢) التوحيد : باب ماجاء في الرؤية : ١١٧ .

٣) المصدر : حين قال لهم . . .

وإذا شوهد ، شوهد. وذلك لأجل رابطة وجوديه بينهما، فإنّ من رأى صورة رسول الله ﷺ فقد رأى حقيقته المقدسة ، فإنّ الشيطان لايتمثّل به ، كما ورَد في الحديث[1] عنه ﷺ . وليس المعني انّ من رآه رأى شخصَه الذي مات ودُفـن في روضة المدينة ، لاستحالة خروج شخصه الجسمانيّ من القبر وحضوره في مواضع كثيرة غير محصورة في لحظة واحدة ، إذ ربما رآه ألف نائم في أمكنة مختلفة بصوَر مختلفة في العِظَم والصِغَر ، والشيب و الشباب ، وغير ذلك في وقت واحد ، ووجود جسم واحد في مكانين ـ فضلاً عن الأمكنة الكثيرة ـ مستحيـل ، ومن جوَّز ذلك فقد خرَج عن حد العقل الإنساني ، ودخل في حدود البهيميّة .

فقد علم إنّ المراد من رؤيته في المنام رؤية حقيقته المقدّسة التيهي حامل جوهر النبوّة ، وحامل الرسالة ، في صورة مثاليّة يصدق عليها إنّها هي هو بعينه ﷺ . كما انّ من رأى زيداً فقد رأى الحقيقة الإنسانية ، التي هي ماهيّة كليّة عقليّة توجد في عالَم العقل وفي كل شخص إنساني ، فتوجـد تلك الحقيقة الواحدة في أماكن متعددة وأزمنة متخالفة ، وتتّحد بأشخاص غير متناهية ، فتكون عين تلك الأشخاص بوجه ، وغيرها بوجه لأنّها ليست من حيث هي هي متكمّمة ، ولامتحيّزة ، ولامشكّلة ولاملوَّنة ، ولافي أين ، ولا في زمان . ومع ذلك فهي موجودة بعين وجودات هذه الأشخاص كلّها،متّحدة بها مع اتّصاف الأشخاص بهذه الصفات الكونيّة والتضادّ الواقع بينها ،كالسواد والبياض والحرارة والبرودة والعلم ، والجهل، وغير ذلك .

والسبب في هذا انّ نحو وحدة الحقيقة الكلّية نحو آخر من الوحدة ، وكذا وجودها ضرب آخر من الوجود ، فلها سعة وجوديّة بها تسع هذه الوجودات الشخصيّة العدد مع عدم حاجتها في ذاتها إلى شيء منها .

---

١) في الجامع الصغير : (٢/ ١٧١) : « مَن رآني في المنام فقد رآني ، فإنّ الشيطان لايتمثّل بي » . وأيضاً : « من رآني فقد رأى الحقّ ، فان الشيطان لايتزايا بي » .

فعلى هذا القياس الحقيقة النبويّة ، لأنّ حقيقة النبي ﷺ حقيقة مقدّسة شريفة ، وله مقام كلّي مع الله لايسعه أحد - لاملك مقرّب ولانبيّ مرسل - كما ورد من قوله ﷺ : « لي مع الله وقت لايسعني فيه ملَك مقرّب ولا نبيّ مرسَل » - والذي كان له وقتاً صار له مقاماً ، إذ الفرق بين الوقت والمقام في عرف أهل الله كالفرق بين الحال والملكة النفسانيّين في عرف أهل النظر . فذات النبي ﷺ مع الله ألبتّة ، ولكن توجد مع ذلك في مظاهِر ومجالي بحيث من رأى مثال حقيقته فقد رآه بالحقيقة - لا بالمجاز - .

وكذلك ذات الله تعالى منزّه عن الشكل والصورة ، ولكن ينتهي تعريفه للعبد بواسطة مثال محسوس إلى حيث يصلح أن يكون مثالاً لجماله الحقيقي الذي لاشكل ولاصورة ولالون له ، ويكون ذلك المثال صادقاً حقّاً ، وواسطة في المعرفة . فيقول الرائي النائم : «رأيت الله في المنام» لابمعنى انّه رأى ذاته الأحديّة مجرّدة عن الأشباح والأمثلة . بل بمعنى انّه رأي مثال ذاته - والمثال غير المثل .

وهمٌ وإزالة

ولعلّك تقول : إذا أمكنت رؤية الله بضرب مثال ، فلماذا لمّا طلب موسى عليه السلام الرؤية لقومه أخذتهم الصاعقة ؟ ! ولمّا طلب لنفسه قال : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ ؟ ! فهلّا أظهر له - أو لهم - مثالاً صادقاً يرونه شاهدين ؟ .

فنقول : إنّ الرؤية المثاليّة له تعالى على أنحاء متفاضلة ، وفي عوالِم متفاوتة في القُرب والبُعد منه تعالى ، فربّ مثال بالنسبة إلى مثال آخر كالحقيقة بالنسبة إلى مثال . ألا ترى إنّ حقيقة جبرئيل حقيقة عقليّة ، وكان جبرئيل قد يتمثّل أحياناً في هذا العالَم بصورة شخص أعرابي ، وكثيراً ما كان متمثّلا بصورة دُحية الكلبي ، وكان رجُلا حسَن الوجه ، وقد يتمثّل له ﷺ في عالَم آخر بصورة هي بالحقيقة صورته وقد

طبّق الخافقين ، وذلك انّه سئله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته ، فواعده ذلك سحرا[1] ، فطلّع جبرئيل ، فسدّ الأفق إلى المغرب .

والمشهور انّه رآه بصورته الحقيقية مرّتين ، مرّة ما ذكرنا . ومرّة أخرى عند سدرة المنتهى كما دلّ عليه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [٥٣/١٣-١٥] وكان مايراه غالباً في صورة الآدمي .

فإذا تقرّر هذا فنقول : أمّا الذي طلبه موسى عليه السلام من رؤية الله فهو رؤية لايمكن تحققها إلّا بالصعق والإندكاك والموت ومايجري مجراه . ولذلك وقع النهي والعقاب لأنّ ذلك لايمكن بهذا العين البالية الدائرة .

فصلٌ

[في معنى الصاعقة]

قد اختلفوا في معنى «الصاعقة» : هل هي بمعنى الموت ؟ أو الشيء الذي هو سبب الموت ؟

فالقول الأوّل ـ وهو انّها هي الموت ـ قاله الحسن وقتادة ، محتجّين بقوله تعالى . ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [٣٩/٦٨] .

وحجّة القائل بالثاني ماوقع في سورة الأعراف : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [٧/١٥٥] وهذا أولى لوجوه :

أحدها قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ لامتناع كونهم ناظرين حين تحقق الموت . وثانيها قوله تعالى في حقّ موسى عليه السلام : ﴿فَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[٧/١٤٣] والإتّفاق حاصل على أنّه لم يمت حينئذ ، ولأنّه قال : ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ و « الإفاقة »

---

١) كذا . والظاهر انه : « بحراء » راجع مجمع البيان في تفسير قوله تعالى «وهو بالأفق الأعلى» : ج ٩ ص ١٧٣ .

تكون عن الغشي ـ لاعن الموت ـ وثالثها انّ الصاعقة هي التي توجب الصَعق ، فلو فرض كون معنى الصعق هو الموت ، فهي سبب الموت .

ولا يبعد القول بأنّهم لما طلَبوا الرؤية ، أخذَهم شِبْه الغشي والسقوط ، وكانوا ينظرون بعيون قلوبهم جمال الله في عالَم آخر مثالي ، ثمّ بعثهم الله بدعاء موسى عليه‌السلام عن هذا الصعق الشبيه بالموت ، ولفظ « الموت » ومرادفه قد يُطلق على مثل هذه الحالة من النوم وغيره ، كما في قوله [تعالى] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِٱلَّيلِ ﴾ [٦/٦٠] وكقوله تعالى في حق عيسى عليه‌السلام : ﴿ إِنّي مُتَوَفّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [٣/٥٥] وكذا لفظ « البعث » يطلق على مقابل هذا المعنى ،كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ [٦/٦٠] وكقوله في أصحاب الكهف : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [١٨/١٢] .

* * *

ثمّ القائلون بأنّ الصاعقة المراد بها ماهي سبب الموت اختلفوا في أنّها أيش كانت هي ؟

فمنهم مَن قال : « إنّها نار وقعت من السماء فأحرقتهم » . ومنهم من قال : « إنّه أرسل الله جنوداً سمعوا بحسيسها ، فخرّوا صعقين ميّتين يوماً وليلة » .

ولقائل أن يقول : الإنسان إذا مات قطع تعلّق النفس عن بدنه وفسد البدن عن صلاحيّة تعلقها . فإذا فرض إحياؤه كان ذلك بتعلّق النفس مرّة أخرى ببدن في هذا العالَم . فكان ذلك نسخاً والتناسخ محال، بخلاف الحشر ـ فإنّه في عالَم آخر ؟

والجواب : انّ التناسخ إنّما يلزم لو تعلّقت النفس من بدن إلى آخر مباين في هذا العالَم ـ كما ذكرت ـ ولكن البدن إذا كان واحداً ، وكان التعلّق متعدّداً فلايلزم ذلك. ولعلّ الأبدان ـ فيما نحن فيه ـ لم تفسد بالكلّية ، ولم تخرج عن صلوح تعلّق النفس بها .

فصـــلٌ

قوله : [تعالى] : ثمَّ بعثناكم

قال صاحب الكبير [١] : « فإن قلت : هل دخل موسى عليه السلام في هذا الكلام ؟ قلتُ : لا . لأنه خطاب مشافهة ، فلايلزم تناوله لموسى عليه السلام . ولأنّه لو تناوله أيضاً لوجَب تخصيصه بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ لأنّ لفظة « الإفاقة » لاتستعمل في الموت » .

أقول : قضيّة صعق موسى عليه السلام غير هذه القضيّة ، فلايجب هذا التخصيص . ولايلزم بطلان قول مَن قال كابن قتيبة : « إنّ موسىٰ قد مات » .

* * *

وقوله تعالى : ﴿ لعلّكم تشكرون ﴾ لفظ « الشكر » يتناول جميع الطاعات والتكاليف ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [١٣/٣٤] فالمراد بعثكم بعد الموت لتتمكّنوا من فِعْل الطاعات ، والتلافي لما صدَر عنكم من السيّئات .

* * *

وفي الكبير[٢]: « فإن قيل: كيف يجوز أن يكلّفهم الله وقد أماتهم : ولوجاز ذلك فلِم لايجوز أن يكلّف أهل الآخرة إذا بعثهم بعد الموت ؟

قلنا : الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة ليس هو الإماتة ثمّ الإحياء . وإنّما يمنع من ذلك لأنّه قد اضطرهم يوم القيامة إلى معرفته ومعرفة مافي الجنّة من اللذات ومافي النار من الآلام . وبعد العلْم الضروري فلاتكليف ، فإذا كان المانع هو ذاك فلم يمتنع التكليف في حقّهم ، ويكون موتهم ثمّ الإحياء بمنزلة النوم أو الإغماء » .

---

١) تفسير الفخر الرازي : ٥٣٣/١ .

٢) تفسير الفخر الرازي : ٥٣٣/١ .

قوله تعالى :

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

هذا هو الإنعام السابع لبني إسرائيل، وقد ذكره الله ههنا وفي سورة الأعراف بهذه الألفاظ .

والإظلال من الظلّة . وهي والغمامة والسترة نظائر .

و﴿ الْغَمَام ﴾ السحاب ، والقطعة منها غَمامة . وإنّما سمّي غماماً لأنّه يغمّ السماء ، أي : يسترها . وكل ماستَر شيئاً فقد غمّه ، والغُمّة : الغطاء على القلب ، من الغمّ . و« فلان في غُمّة من أمره » إذا لم يهتد له .

و﴿ الْمَنّ ﴾ أصله الإحسان إلى من لا يستثيبه ، والاسم : المنّة .

و ﴿ السَّلْوَىٰ ﴾ طائر كالسماني . قال الأخفش : هو للواحد والجمع كالدِفْلَى[1] . وقيل : واحدة « سلواة » .

والمعنى : جعلنا لكم الغَمام ظلة وسترة تقيكم حرّ الشمس في التيه ، وأنزلنا عليكم المنّ ـ وهو الترنجبين ـ وبعثنا إليكم السلوى .

روي انّه سخّر الله لهم السحاب ، يسير بسيرهم ، يظلّهم من الشمس ، وينزل

---

١) شجرة مرة يقال لها بالفارسية : خر زهره .

بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه ، وثيابهم لاتتّسخ ولاتبلى .

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ ﴾ وهو الترنجبين ،وكان ينزل عليهم مثل الثلــج من طلوع الشمس لكلّ إنسان صاع ، ويبعث الجنوب فتحشر عليهم السلْوى ـ وهي السماني ـ فيذبح الرجل منها ما يكفيه .

قال الطبرسيّ في مجمع البيان[١]« المنّ فيه وجوه :

أحدها : انّه المنّ الذي يعرفه الناس ، يسقط على الشجر - عن ابن العباس .

وثانيها : انّه شيء كالصمغ ، كان يقع على الأشجار ، طعمه كالشهد والعسل ـ عن مجاهد .

وثالثها : انّه كالخبز المرقّق ـ عن وهب .

ورابعها : انّه جميع النعم التيآتيهم الله مما منّ الله تعالى به عليهم مما لاتعب فيه ولانصَب .

والسلوى ، قيل: وهوالسماني . وقيل هوطائر أبيض يشبه السماني ـ عن ابن عباس » .

قوله : ﴿ كُلُوا ﴾ على إرادة القول .

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بأن كفروا هذه النعم . يعني : فظلَموا بأن كفروا هذه النعم ، وماظلَمونا ـ فوقع الاختصارلدلالة الكلام على هذا الحذف . وهذا دليلعلى أنّ الله لاتنفعه طاعة من أطاعه ، ولا تضرّه معصية من عصاه ، وإنّما تعود منفعة الطاعة إلى المطيع ، ومضرّة المعصية إلى العاصي .

* * *

وكيفيّة قصّتهم[١] انّه لما ابتلاهم الله بالتيه إذ قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [٥/٢٤] حين أمرهم بالسير إلى بيت المقدس

١) مجمع البيان : ١/١١٦ .

وحزب العمالقة ، فوقعوا في التيه ، فصاروا كلّما ساروا تاهوا في قدْر خمسة فراسخ أو ستّة ، فكلّما أصبحوا ساروا غادين ، فأمسوا فإذا هم في مكانهم الذي ارتحلوا منه كذلك حتّى تمّت المدّة ، وبقوافيها أربعين سنة ، وفي التيه توفّى موسى وهرون عليهما السلام ثمّ خرج يوشع بن نون، ولمّاحصلوا في التيه ندموا على مافعَلوا ، فألطف الله تعالى لهم بالغمام لما شكوا حرّ الشمس .

وممّا روى أصحابنا الإمامية[1] في هذه القصّة عن الصادق عليه السلام انّه كان ينزل عليهم المنّ من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فمَن نام في ذلك الوقت لم ينزل نصيبه ، فلذلك يكره النوم في هذا الوقت .

وعن ابن جريح[2] : وكان الرجل منهم إن أخذ من المنّ والسلوى زيادة على طعام يوم واحد فسَد، إلّا يوم الجمعة ، فإنّه لم يفسد إذا أخذوا منها ليوم الجمعة والسبت ، لأنّهم لايأتيهم يوم السبت .

وكانوا يخبزونه مثل القُرصة ، فيوجد لهم طعم كالشهد المعجون بالسمن ، وكان إذا وُلد فيهم مولود يكون عليه ثوبٌ يطول بطوله كالجلد[3] .

وفي هذه القصّة أسرار عجيبة ، وماأشبه حال قوم موسى عليه السلام في التيه بحال البقَر والغنم ـ والله أعلم .

---

١) بحار الانوار : باب ٩ من قصص موسى : ١٣/ ١٨٢ .

٢) كذا . والظاهر انه محرف « ابن جرير » كما في مجمع البيان . راجع أيضاً الدر المنثور : ١/ ٧١ .

٣) مجمع البيان : ١/ ١١٧ .

قوله تعالـى :

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

هذا هو الإنعام الثامن ، فإنّ الآية معطوفة على الآيات المتقدمة المذكورة فيها النِعم المتقدّمة التي آخرها تظليل الغمام عليهم ، وإنزال المنّ والسَلوى . فاردف بنعمة أُخرويّة .

* * *

والدّخول، والوُلوج ، والاقتحام نظائر. إلاّ أنّ الاقتحام دخولٌ على صعوبة .

والقَريَة والبَلدَة والمَدينة نظائر .

والسُجود : الانحناء الشديد .

و « حِطّة » مصدر ، كـ « ردة » و « جدة » . وهي خبر مبتدأ محذوف . أي سؤالنا حطّة الذنوب . وأصله النصب بمعنى حطّ عنّا ذنوبنا حطّة ، وإنّما رفعت لتعطي معنى الثبات ،كقوله تعالى : ﴿فَصَبْرٌ جميل﴾ [١٢/١٨] وقيل معناه : أمرنا حطّة . أي : أن نحطّ هذه القرية ونستقرّ فيها .

قال صاحب الكشاف : والأجود أن تكون تنصب بإضمار فعلها ، وينتصب محل ذلك المضمر بـ ﴿قُولُوا﴾ .

والغُفران والصَفْح والعَفو نظائر . والغَفْر في اللغة : الستر . يقال : « غَفَر الله له غفراناً » أي : ستر الله على ذنوبه . والخطيئة والزلّة والمعصية نظائر .

والمحسِن : الفاعل للاحسان ، او للحُسن . يقال : « أحسَن إلى غيره » و « أحسَن في فِعْله » . والفرق بينهما إنّ الأول لايقال إلّا في النفع بخلاف الثاني ، وحدّالحسن من طريقالحكمة هوالفعل الذي يدعو إليه العقل . وضدّه القبيح ، وهو الفعل الذي يزجر عنه العقل .

فصلٌ

[القرية التي اُمروا بدخولها]

اختلف المفسّرون في أنّ المراد من هذه القرية أيُّ قرية ؟ [1] فالأكثر على أنّها بيت المقدس . ويؤيّده قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ ادْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [٢١/٥] ولاشكّ انّ المراد منهما واحد .

وعن ابن عباس وابن زيد:إنّها « أريحا» وهي قرية قُرب بيت المقدس، وكان فيها بقايا من قوم عاد ، وهم العَمالقة ، رأسهم عوج بن عنق .

وقيل : إنّها نفس مصْر .

واعترض على الأوّل بأنّ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقتضي التعقيب ، فوجب أن يكون هذا التبديل وقع منهم عقيب هذا الأمر في حيوة موسى عليه السلام [2] .

والجواب بأنّه ليس في الآية مايدلّ على أنّ هذا القول من الله وقع على لسان موسى عليه السلام ، أو على لسان يوشع ، وإذا حملنا على لسان يوشع زال الإشكال .

* * *

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٣٤ . مجمع البيان: ١/١١٨ .

٢) لكن موسى (ع) مات في أرض التيه ولم يدخل بيت المقدس .

وقوله ﴿ كُلُوا ﴾ أمر إباحة . أي : كلوا منها أنّى شئتم ﴿ رَغَداً ﴾ اي : موسّعاً عليكم ، مستمتعين بما شئتم من طعام القرية بعد المنّ والسّلوى .

* * *

وأمّا قوله : ﴿وَادْخُلُوا ٱلْبَابَ﴾ فهو أمر تكليف حتم . ومن هيهنا يعلم انّه قوله : ﴿ ادْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أيضاً أمر تكليف لأنّ دخول الباب مشروط به ، وما لايتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب . وأيضاً قوله تعالى في المائدة : ﴿ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [٥/٢١] يدلّ على الوجوب . ولاشكّ انّ المراد من الدخول في الآيتين واحد .

قوله تعالى : ﴿وَادْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدَاً ﴾ اختلفوا في الباب على وجوه : فعن ابن العباس والضحّاك ومجاهد وقتادة : انّه باب يدعى « بابُ حطَّة » من بيت المقدّس . وحكى الاصمعي[1] عن بعضهم انّه عنى بالباب جهة من جهات القرية ومدخلاً إليها .

واختلفوا في المراد بالسجود . فقال الحسن : أراد به نفس السجود الذي هو وضع الجبهة على الأرض . وهو بعيدٌ ، لمعنى الحاليّة فيه ، فيمتنع الدخول حين السجود .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس : انّ المراد هو الركوع . لأنّ الباب كان صغيراً يحتاج فيه الانحناء للولوج . وهذا أيضاً بعيدٌ لعدم الحاجة فيه إلى الأمر[2] .

والأقرب انّ المراد الخضوع ، لأنّه لمّا امتنع حمله على حقيقة السجود فيجب

---

١) في تفسير الفخر الرازي ١/٥٣٤ : الاصم .

٢) لأنّه عند كون الباب صغيراً كان الداخل مضطراً إلى الركوع .

حملُه على التواضع ، لأنّهم إذا أخذوا في الخضوع تائبين ، والتائب من الذنب لايخلو عن خشوع واستكانة .

* * *

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فالوجه فيه إنّ التوبة صفة قلبيّة ، فلايطلع عليها الغير . وهي وإن كانت تتمّ من غير حاجة فيها إلى قول ـ كما في الأخرَس ـ لكن لأجل أن يعرف الغير عدوله من الفسْق إلى التوبة ، ولإزالة التهمة عن نفسه يحتاج فيها إلى القول، ألا ترى أنّ من كان معروفاً بمذهب باطل، ثمّ استبصر وعدَل إلى الحقّ ، فإنهّ لزمه أن يعرف إخوانه الذين عرفوه بالخطاء عدوله عنه ، لزوال التهمة ولعودهم إلى موالاته بعد مُعاداته ، ولنُصرة الحقّ وتقويته في إظهار شعائر الدين ، فلأجل ذلك أُمروا بأنْ يدخلوا الباب خاضِعين بقلوبهم ، ذاكِرين بلسانهم ، حتّى يكونوا جامعين بين عمل الجنان بالندم ، وعمل الأركان بالخضوع أوالانحناء ، وعمل اللسان بالاستغفار ـ وهذا أجود الوجوه .

وعن الأصمّ : انّ هذه اللفظة من ألفاظ أهل الكتاب ، لايُعرف معناه [ظ:معناها] في العربية .

وعن أبي مسلم الإصفهاني معنـاه : أمْرُنا حِطّةٌ . أي نحطّ في هذه القرية ونستقرّ فيها . وزيّفه القاضي بأنّ قوله : ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ يدلّ على أنّ الغفران متعلّق به ، ولو كان الوجه ماذكره لم يكن للمغفرة تعلّق بقولهم حِطّة . وفيه مالايخفى .

فصلٌ

هل كان التكليف بالتوبة متعلّقاً بذكر هذه اللفظة ؟ أم مطلق قول دالّ على الندم والخضوع ؟

فالمرويّ عن ابن عباس انّهم كانوا مأمورين بهذه اللفظة بعينها ، وهو محتمَلٌ، لكنّه بعيد من وجوه :

أمّا أوّلا فلأنّ هذه اللفظة عربيّة ، وأمّا ثانياً فلأنّهم كانوا مأمورين بالتوبة والخضوع ، والمقصود حاصل بغير هذه اللفظة . وأمّا ثالثاً فلأنّ التوبة تحطّ الذنوب ـ سواء قيل هذا اللفظ ، أم لا ـ فذكره بعينه لافائدة فيه .

وروي عن ابن عباس أيضاً : أُمروا أن يقولوا : « هذا الأمر حقٌّ » .

وقال عكرمة : أُمروا أن يقولوا : « لا إله إلّا الله » لأنّها تحطّ الذنوب . وبالجملة كلّ مايحط الذنوب فصحّ أن يترجم عنه بـ « حطّة » .

وروي عن الباقر عليه السلام انّه قال : « نحن باب حطّتكم »[1] .

* * *

قوله [تعالى] : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : مَن كان مُحسِناً منكم كانت كلمة الاستغفار له زيادة في ثوابه ، ومَن كان مسيئاً كانت له مغفرة لذنوبه .

وقيل : سنزيدهم على مايستحقّونه من الثواب تفضّلا ، كقوله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ [٣٥/٣٠] وكقوله : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [١٠/٢٦] .

---

١) مجمع البيان : ١/١١٩ .

وقيل : المراد به أن يزيدهم الإحسان على ماسلف من الإحسان بإنزال المنّ والسَلوى وتظليل الغمام وغيرذلك ، فإنّالزيادة الموعودة يمكن أن تكون من منافع الدنيا ،كما يمكن أن تكون من منافع الآخرة .

فصلٌ

القراءة في ﴿نَغفِر لكُم﴾ مختلفة . فقرء ابن المبارك [١] بالنون وكسر الفاء . ونافع بالياء وفتحها . والباقون من أهل المدينة بالتاء وضمّها وفتح الفاء . والحسَن وقتادة وأبو حيوة بالياء وضمّها وفتح الفاء .

قال القفّال [٢] : والمعنى في القراءات كلّها واحدة ، لأنّ الخطيئة إذا غفَرها الله فقد غُفِرت ، وإذا غُفِرتْ فقد غَفَرها الله . والفِعل إذا تقدّم الاسمَ المؤنث وحالَ بينه وبين الفاعل حائلٌ جاز التذكير والتأنيث .كقوله [تعالى] ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ﴾ [١١/٦٧] و : أخَذَت الذين .

فصلٌ

لأهل الإشارة أن يأوّلوا الآية : اُدخلوا أيّها السالكون إلى المنازل والمقامات حسَب تطوّراتالنفوس وتقلّبات القلوب هذه الأرض المقدّسة التي هي عالَمالقدس والملَكوت بقدم الصدق واليقين فيالعلّم والعمَل ، وكُلوا من طيّبات الأغذية العلميّة والأرزاق المعنويّة . وادخلوها من بابها الذي هو الحقيقة الإنسانيّة ، والإنسان المعنوي . فإنّه لايمكن الدخول إلى ذلك العالَم القدسيالإلهي إلاّ بالولوج في هذا

١) كذا . وفي تفسير الفخر الرازي ١/٥٣٦ : ابن المنادى .

٢) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٣٦ .

الباب الذي باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قِبَله العذاب . مخبتين ساجدين لله ، محبّين لجماله ، فانين في جلاله عن هذه الانانيّة ، قائلين : « حطٌّ يا إلهي عنّا أوزارَنا ، ونحِّ عنّا وساوس نفوسِنا الحيوانيّة ، واغفر لنا ذنوبَ وجوداتنا وجرائم قوانا المجرمة الظلمانيّة بنور تقديسك وتطهيرك » .

ويؤيّد هذا التأويل ماورَد من طريق أهل بيت النبي عليه وعليهم السلام انّهم قالوا [1] : « نَحن بابُ حِطَّتكُم » وقوله ﷺ [2] : « أنا مدينةُ العلمِ وعليٌّ بابُها » وروي أيضاً عن الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام انّه قال [3] : « مثّل الله على الباب مثال محمّد ﷺ وعلي عليه السلام وأمرهم أن يسجدوا تعظيماً لذلك المثال ، ويجدّدوا على أنفسهم العهد القديم من موالاتهما » .

---

١) مضى آنفاً .

٢) راجع مصادر الحديث في ملحقات إحقاق الحق : ٥ / ٤٦٩-٥٠١ .

٣) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) : ١٢٣ .

قوله تعالى :

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

قيل : الرِجْز - بكسر الراء - : العذاب في لغة أهل الحجاز، وهو غير الرجس . لأنّ الرجس : النتن [1] . وقال الزجّاج : « انّ الرِجز والرجس معناهما واحد [2] »

والظاهر انّ الرجز قد يجيء بمعنى العذاب ،كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِم ٱلرِّجْز﴾ [١٣٤/٧] يعني : العقوبة . وكذا قوله : ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [١٣٤/٧] وقد يجيء بمعنى الرجس ، كما في قوله : ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ [١١/٨] وهو نجاسة معنويّة . كما انّ التوبة طهارة قلبيّة . والرجْس في الأصل ما يعاف عنه .

والمعنى خالَفوا الأمر وبدّلوا ما امروا به من التوبة والاستغفار ، فلم يفعلوا ولم يقولوا قولاً دالّاً على التوبة طلباً لما اشتهوا من أغراض الدنيا ودواعي النفس والهوى . فقالوا غير ذلك ، فاستحقّوا العذاب . فأنزلنا عليهم العقوبة من السماء بظلمهم وفِسقهم .

---

١) مجمع البيان : ١١٩/١ .

٢) تفسير الفخر الرازي: ٥٣٧/١ .

ومن هيهنا علم انّ المأمور به لم يكن لفظاً بعينه ، وهو لفظ « الحطّة » فجاؤوا بلفظ آخر، وذلك لأنّه لو فُرض أنّهم جاؤوا بلفظ آخر يفيد هذا المعنى مستقلاً بمعنى ما اُمروا به لم يستحقّوا المؤاخذة والعذاب ، ولم يكونوا ظالمين بوضع لفظ في غيرموضعه .كما لوقالوا مكان لفظ « حطّة » : « نستغفرُك ونتوبُ إليك » أو : «اللهم اغفرلنا ذنوبنا واعفُ عنّا سيّئاتِنا » وما يجري مجراه .

واختُلف في ذلك الغير ، فقيل : إنّهم قالوا بالسريانية : « هطا شمقاثا »[1] .

في تفسير مولا الحسن بن علي العسكري عليه السلام : إنّهـم دخلوها مستقبليها بأستاهم وقالوا: « هيطا شمقاثا»[2] اي حنطة حمراء نتقوّتها أحب إلينا من هذا الفعل وهذا الأمر .

وقيل : قالوا : « حنطة » تجاهُلاً واستهزاء .

وقيل : كانوا قد أمروا أن يدخلوا الباب سجّداً ، وقد صغّر لهم الباب توطئة لذلك، فدخلوه راجعين على أستاهم، فخالَفوا في القول والدخول جميعاً[3].

وهـــمٌ

ومن الناس من يحتجّ بهذه الآية على وجوب التوقيف في الأدعية الواردة ، وعدم تبديلها بلفظ آخر .

والجواب : إنّهم إنمّا استحقّوا العذاب لتبديلهم القول إلى قول آخر مضادّ له في المعنى ، فمَن بدّل لفظاً بلفظ آخر مع بقاء المعنى لم يظهر من هذه الآية استحقاقه للذمّ .

---

١) في مجمع البيان : « قالوا بالسريانية : هاطاسماقاثا ، وقال بعضهم : حطاسماقاثا » وفي تهذيب اللغة ٣ /٤١٦ : « حنطة سمقاثا » .

٢) في المطبوعة من التفسير (١٢٣) وكذا في نسخة مخطوطة : « هطاسمقاثا » .

٣) مجمع البيان : ١ /١١٩ .

فصل

واعلم انّ هيهنا سؤالات :

الأوّل : لِمَ قال في سورة البقرة : ﴿إِذَا قُلْنَا﴾ وقال في الأعراف [٢] : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ ؟.

الثاني : لِمَ قال هيهنا : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا ﴾ وفي الأعراف : ﴿اسْكُنُوا﴾ ؟

الثالث : لِمَ قال هيهنا ﴿فَكُلُوا﴾ بالفاء ، وفي الأعراف : ﴿وَكُلُوا﴾ بالواو؟

والرابع : لِمَ قال هيهنا : ﴿نَغْفِرلَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ وفي الأعراف: ﴿نَغْفِر لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ ؟

والخامس : لِمَ ذكر قوله : ﴿رَغَدًا﴾ هيهنا ، وحذفه في الأعراف ؟

السادس: لِمَ ذكر هيهنا﴿ادخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ وفي الاعراف قدم المؤخر ؟

السابع : لِمَ قال هيهنا: ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ مع الواو . وفي الأعراف بدونها ؟

الثامن : قال في الأعراف : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِين ظَلَمُوا مِنْهم قَولاً ﴾ وهيهنا بدون لفظ ﴿ مِنْهم ﴾[٣] فما الفائدة في هذه الزيادة ؟

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٥٣٩ .

٢) سورة الاعراف ، الاية ١٦١ و١٦٢ : واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها رغداً حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون .

٣) كان في النسخ كذا : « قال هيهنا : فبدل الذين ظلموا منهم قولا . وفي الاعراف بدون لفظ منهم . . . » والصحيح ما أثبتناه .

التاسع : لِمَ قال هيهنا ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ رِجْزًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾ وفي الأعراف : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ ؟

العاشر : لِمَ قال هيهنا : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وفي الأعراف : ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ ؟

والجواب عن الأوّل : انّ الله تعالى صرّح في أوّل القرآن بأنّ قائل هذا القول هو الله إزالة للإبهام ، ولأنّه ذكر في أوّل الكلام : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ فالمناسب بهذا المقام أن يقول : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ وأمّا في الأعراف فلا يبقي إبهام هناك بعد التصريح المقدّم .

وعن الثاني : انّ الدخول مقدّم على السكون ولابدّ منه ، فذكر « الدخول » في السورة المتقدّمة و « السكون » في المتأخّرة .

وعن الثالث : انّ كل فعْل عطف على شيء وكان الفعل بمنزلة الجزاء وذلك الشيء بمنزلة الشرط عطف بالفاء دون الواو ، وأمّا إذا لم يكن مشروطاً به فعُطف بالواو. ولمّا كان الأكل منها هيهنا قبل الدخول فيها مشروطاً بحدوثه وبعده غير مشروط بحدوثه ـ بل بالكون فيها ـ لاجرم للإشعار بالمعنيين تارةً عطف بالفاء، وتارةً بالواو . كما في قوله تعالى : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا ﴾ فإنّه عطف في البقرة [٣٥/٢] بالواو ، وفي الأعراف [١٩/٧] بالفاء . فإنّ « اسكُن » قد يقال لمن لم يدخل داراً فيراد منه الدخول ، ويقال لمن دخل فيراد منه اللزوم والبقاء .

وعن الرابع : انّ الخطايا جمع الكثرة ـ دون الخطيئات لأنّها جمع السلامة ـ ففي البقرة لما أضاف القول إلى نفسه قرن به ما يناسب جودَه وكرمَه[1] .

وعن الخامس : مثل ما ذكرناه .

وعن السادس : انّ الواو للجمع المطلق ، والمخاطبون يحتمل أن يكون

---

١) وهو غفران الخطايا الكثيرة .

بعضهم مذنبين وبعضهم غير مذنبين ، والمذنب لابدّ وأن يكون اشتغاله بحطّ الذنب مقدّماً على اشتغاله بالعبادة ، لأنّ التخلية مقدّمة على التحلية ، فلاجرم كلّف المذنبين أن يقولوا أوّلاً : « حطّة » ثمّ يدخلوا الباب سجّداً . وأمّا غير المذنب ، فالأولى به أن يشتغل بالعبادة ساجداً لله أوّلاً ، ويقول « حطّة » ثانياً . فلمّا احتمل كون أولئك المخاطبين على هذين النوعين لاجرم ذكر حكم كل منهما في سورة أخرى .

وعن السابع : إنّ هيهنا أمران التوبة والعبادة ـ أعني مفادي لفظتي السجدة والحطّة ـ وذكر بازائهما جزاءان: المغفرة والزيادة . فقوله : ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بازاء التوبة التي هي الحطّة . وقوله : ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بازاء العبادة التي هي السجدة . فترك الواو يفيد كون كل واحد من الجزاءين متوزّعاً على واحد من الشرطين كما في الأعراف ، وايرادها يفيد كون المجموع جزاءاً واحداً لمجموع الفعلين .

وعن الثامن : انّ في الأعراف لمّا وقع في أول القصّة مايدلّ على التخصيص والتبعيض ، حيث قال : ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [١٥٩/٧] فعُلم إنّ منهم مَن هو على هذه الصفة . فلما عدّ صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم قال في آخر القصّة : ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ فذكر لفظ « من » التبعيض . كما ذكره في أوّل القصّة ، ليكون الآخر مطابقاً للأوّل ، فيكون الهادون من أمّة موسى عليه‌السلام غير الظالمين منهم . وهيهنا لم يذكر في الآيات السابقة مايدلّ على التخصيص ، ولم يذكر إلاّ الأمّة الجائرة ، فلاحاجة إلى هذا التبعيض .

وعن التاسع : إنّ الإنزال يفيد حدوثه في أوّل الأمر دفعة ، والإرسال يفيد الدوام والاستمرار ، ويشير إلى الإستيلاء عليهم والسلطنة الموجبة لاستيصالهم بالآخرة [١].

---

١) لم يذكر الجواب عن السؤال العاشر ، وجاء في تفسير الفخر الرازي (٥٣٩/١) في الجواب عنه « انّه تعالى لما بيّن في سورة البقرة كون ذلك الظلم فسقاً اكتفى بلفظ الظلم في سورة الأعراف لاجل ما تقدّم في سورة البقرة» .

قوله جلّ اسمه

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

الاستسقاء: طلب السُقيا . ويقال : « سَقَيتُه وأسقَيتُه » بمعنى . وقيل : أسقيتُه : دللتُه على الماء .

وعَصًى وعَصَوان وثلاث أعصٍ . وجمعه عِصِيّ ـ بكسر العين والصاد، وتشديد الياء ـ .

والانفِجار : الانشقاق . والانبجاس أضيَق منه .

والعَيْن: من الأسماء المشتركة ، ويمكن أن يكون استعمالها في بعض المعاني على سبيل المجاز والتشبيه . فالعَين في الحيوان مشبّهة بالعين في الماء في خروج الدمع منها كخروج الماء . وبالعين في الشمس في خروج الشعاع منها .

والأناس جمع لا واحد له من لفظه .

﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ اي : لا تفسدوا ولا تطغوا .

وقرىء : اثنتا عشرة ـ بكسر الشين وبفتحها ـ وهما لغتان ، أولاهما لغة أهل الحجاز . لكن القرّاء السبعة بأجمعهم على إسكان الشين لأنّه أخفّ .

* * *

والمعنى أذكروا نعمة اخرى أنعمها الله عليكم مضافة إلى النعم السابقة . وهي النعمة التاسعة منه تعالى على بني إسرائيل جامعة للنشأتين . أمّا الدنيـا فلشدّة حاجتهم إلى الماء عند الظمأ في التيه ، وأمّا الآخرة فلكونها من أظهر الـدلائل على وجود صانع عليم حكيم رؤوف رحيم ، وعلى صدق نبيّهم موسى عليه السلام .

﴿إِذَا ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ أي : سئل الله أن يسقي قومَـه ماء ، وذلك في الحال التي تاهوا في التيه ، فشكوا إلى الله الظمأ ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحجَر ، وهو عصاه المعروف ، وكان من آس الجنّة دفعه إليه شعيب ، وكان آدم عليه السلام حمله من الجنّة معه إلى الأرض ، وكان طوله عشرة أذرع على طول موسى ، وله شعبتان تتقدّان في الظلمة نوراً ، وبه ضرَب البحر فانفلق ، وهو الذي صار ثعباناً [١]

واللام في الحجَر إمّا للعهد والإشارة إلى حجَر معلوم ، إذ رُوي انّه حجَرٌ طوريٌّ حملَه معه ، وكان مربّعاً له أربعة أوجه تنبع من كل وجه ثلاثة أعين ، لكلّ سبط عين تسيل في جدول إلى ذلك السبط ، وكانوا ستّمأة ألف ، وسعة المعسكر إثنى عشر ميلاً [٢] . وكانوا لايرتحلون مَنقَلة إلاّ وجدوا ذلك الحجَر منهم بالمكان الذي كان به منهم في المنزل الأوّل [٣] .

وقيل: أهبطه آدم عليه السلام من الجنّة فتوارثوه حتى وقَع إلى شُعيب عليه السلام ، فدفَعه إلى موسى عليه السلام مع العصا .

وقيل : هو الحجَر الذي وضع عليه ثوبَه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ، ففرّبه فقال جبرئيل : يقول الله تعالى : « ارفَع هذا الحجَر ، فإنّ لي فيه قُدرة ، ولك فيه معجزة » فحمَله في مخلاته [٤] .

---

١) مجمع البيان : ١/ ١٢٠ .

٢) الكشاف : ١/ ٢١٨ . مجمع البيان : ١/ ١٢١ .

٣) مجمع البيان : ١/ ١٢١ .

٤) الكشاف : ١/ ٢١٨ .

وإمّا للجنس أي : اضرب الشيء الذي يقال له الحجَر . وعن الحسن : لم يؤمر أن يَضربَ حجَراً بعينه ـ قال : ـ وهذا أظهر في الحجَّة ، وأبيَن في القُدرة .

وروي انّهم قالوا : «كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة» فحمَل حجَراً في مخْلاته ، فحيث مانزلوا ألقاه . وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر ويضربه بها ، فييبس . فقالوا : لو فقد موسى عصاه مُتْنا عطَشاً . فأوحى الله إليه : «لاتقرَع الحجارة وكلّمها تطعك» [١] .

واختلفوا في صفته . فقيل : كان من رخام . وكان ذراعاً في ذراع . وقيل : مثل رأس الإنسان .

* * *

وقوله : ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ الفاء متعلّقة بمحذوف . أي : فضرب فانفجرت . أو : فان ضربت فانفجرت [٢] .كما في قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهي على هذا التقدير فاء فصيحة .

ولامنافاة بين قوله : ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ هنا ، وبين قوله : ﴿ فَانْبَجَسَتْ ﴾ في سورة الأعراف [٧/ ١٦٠] لأنّ الإنبجاس هو ضرب من الانفجار ، إلاّ انّه أقلّ . وقيل : إنّه لايمتنع أن يكون أول مايضرب عليه العصا كان ينبجس الماءُ ،ثمّ يكثر حتّى يصير انفجاراً . وقيل : كان ينبجس عند الحاجة ، وينفجر عند الحاجة . وقيل : كان ينبجس عند الحمل وينفجر عند الوضع [٣] .

وقوله : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أي : علِم كلّ سبط وكلّ فريق منهم موضع شُربهم . وإنّما علموا ذلك لأنّه كان بازاء كلّ عين جدول لسبط من الأسباط .

١) الكشاف : ٢١٨ .

٢) في الكشاف : (١ / ٢١٨) : فان ضربت فقد انفجرت .

٣) مجمع البيان : ١ / ١٢١ .

ولا يبعد كون كلّ جدول منقسماً إلى جداول صغار حسب تعدّد الطوائف والفِرق الداخلة تحت كلّ سبط . وكون كلّ إنسان مأموراً بأن لايشرب إلاّ من جدول معيّن، لئلّا يقع بينهم التشاحّ والتنازع .

وأمّا إضافة المشرب إليهم فإنّه لمّا كان الماء مباحَ الأصل وقد عُيّن لكلّ سبط وطائفة ماظهر من الشقّ الذي يليه ، والجدول الذي يخصّه صار ذلك كالمُلك . فصحّت الإضافة إليهم .

وقوله تعالى : ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ على إرادة القول . أي : قلنا لهم ، أو قال موسى لهم . وفي الكلام حذفٌ . أي : «كُلوا مِن المَنِّ والسّلوى واشربوا مِن ماء العيون» . أوالمراد : «كُلوا مايتكوّن من الماء من الأغذية ، ومايَنبت من الأرض من جهة سَقيِ الماء» فإنّه لما أنعم الله عليهم بإخراج العيون وجري المياه فقد أنعم عليهم بالمآكل الحاصلة منها .

وهذه الآية حجّةٌ للمعتزلة على أنّ الرزق هو الحلال ، لأنّ الأمر بالأكل من الرزق وقع من الله . وهذا الأمر إن لم يكن للوجوب، فلاأقلّ للاباحة . فلو تحقّق رزقٌ حرامٌ، لزم كونه مباحاً وحراماً . وهذا غير جائز .

وقوله : ﴿لَاتَعْثَوا﴾ أي : لاتتمادوا ولا تعتدوا حال أفسادكم . لأنّ العثي ليس إلاّ الفساد .

فصلٌ

في البحث العقليّ

لقائل أن يقول : كيف ينفجر ذلك الماء الكثير من ذلك الحجر الصغير ؟

والجواب : انّ اللهَ قادرٌ على جميع الممكنات ، وذلك من آيات الله الباهرة . والأعاجيب الظاهرة ، الدالّة على صدق أنبيائه ورسله ﷺ ، لكونها معجزة لهم لوقوعها عند سؤالهم . فيظهر منها أشدّ ظهور انّه هو المنشيء للأشياء ، الفاعل لِما

يشاء . الذي يتذلّل له الصعاب ، ويتسبّب له الأسباب ، فلا عجَب من ظهور أُمور غريبة في بعض الأزمنة دالّة على بدائع صُنعه وغرائب حكمته وصدق أنبيائه .

ومثل هذا الأمر الغريب بل أغرب وأعجب منه قد وقَع من نبيّنا ﷺ في بعض الغزوات وقد ضاق بهم الماء ، فوضع يده في ميضاة ففاز الماء بين أصابعه حتّى استكفوا [١] .

وإنّما قلنا هذه المعجزةُ أعظَم غرابة من معجزة موسى عليه السلام لأنّ نبوع الماء من الحجَر معهودٌ في الجملة بخلاف نبوعه من الأصابع .

فمن أنكَر أمثال ذلك من الملاحدة والدهريّة الذين ماعرفوا الصانع العالِم بالكلّيات والجزئيّات ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فالكلام معهم إنّما يكون في أصل اثبات الصانع وعلْمه وقدرته وشمول علمه لجميع المعلومات وسَعة قدرته لجميع المقدورات ، ولامعنى للتشاغل معهم في الفروع بعد ما خالَفوا في الأُصول .

* * *

بقي الكلام في إمكان هذا الأمر ، إذ المحال لايكون مقدوراً ، لأنّه لاشيئيّة ولا ذات له حتّى يكون مقدوراً . فنقول :

هيهنا أربعة شقوق: أحدها وجود ذلك الماء العظيم مع عظمه في باطن الحجَر والثاني وجوده فيه مع تداخل أجزائه بعضُها في بعض . والثالث تكوّنه فيه شيئاً فشيئاً وخروجه منه على التدريج . والرابع تكوّنه لامن أسباب طبيعيّة ومدد جسمانيّ ، بل من أسباب نفسانيّة وتصوّرات وهميّة . والشقّان الأُوليان باطلان ، والأخيران جائزان .

أمّا بطلان الشقّ الأول ـ وهو كون ذلك الماء مع عِظَمه مستكنّاً في ذلك الحجَر ، ثم ظهَر خارجاً عنه ـ فلأنّ الظرف الصغير لايحوي الجسم العظيم ،

---

١) راجع سنن الدارمي ١ / ١٤ .

لاستلزامه أن لايكون الكلّ أعظم من جزئه . وهو محال .

وأمّا بطلان كونه موجوداً فيه على نحو التداخل فلدلائل [ظ : فللدلائل] الدالّة على استحالة التداخل ، سيّما على وجه التضاعف .

وأمّا إمكان الشقّ الثالث فلأنّ مادّة العناصر قابلة لأن يتكوّن منها الصور الغير المتناهية على التعاقب ، فيجوز أن يستحيل بعض أجزاء الحجَر ماء أو ينقلب الهواء المجاور له إلى الماء بعد نفوذه إليه من المسامات الضيّقة ، كما يجتمع قطرات الماء على الطاس المكبوب على الجَمْد بسبب انقلاب الهواء إليه ، بحيث كلّما يزال عن ظهْر الإناء ينزل ويجري بدله لأجل برودة الإناء .

وأمّا امكان الشقّ الرابع فلِما بيّن في موضعه من تأثيرات النفوس القويّة في مادّة الكائنات بتصويرها أيّة صورة أرادوا لامن أسباب طبيعية واستعداد مادي ، بل بمجرّد إنشاء إختراعيّ يبرزمن مكمَن الغيب إلى عالَم الشهادة ـ كما بيّن وحقّق في مسائل النبوّات ـ .

ومَن اعتبر أحوال نفسه وبدنه هانَ عليه دفْع هذا الاستبعاد ، فإنّ مِن شأن مادّة بدننا وعالَمنا الصغير أن يحدث ويتكون فيها الحوادث الكونيّة من وجهين :

أحدهما على مجرى الأمور الطبيعيّة ، فيتكوّن فيه أمر من قِبَل أسباب على نحو الإعداد في مادّة قبل مادّة .

وثانيهما على سياق آخر غير مجرى الطبيعة ، بل من جهة فاعليّة وتصوير نفسانيّ تؤثّر في مادّة البدن . كالغضب الشديد . وهو هيئة نفسانيّة تؤثّر في تسخين البدن وتحليل الرطوبات ، وربما يحرق الأخلاط . وكالخوف فإنّه برودة في الأعضاء وربما تبطل بسببه الحرارة الغريزيّة ، وكالشهوة فإنّها تحدث ريحاً وماءاً ـ لاعن امتلاء طبيعيّ وانتفاخ طبيعيّ . فعلى هذا قياس نفس العالَم الكبير عند بدنه .

* * *

فإن قلت : كيف يكون الشقّ الأوّل ـ وهو وجود الجسم العظيم في المكان الصغير ممتنعاً غير مقدور، وقد روى محمد بن علي بن بابويه القمّي ـ ره ـ في كتاب التوحيد[1] ـ بسنده المتّصل ـ : انّه جاء رجُل إلى الرضا عليه السلام فقال : « هل يقدر ربُّك أن يجعل السمواتِ والأرض وما بينهما في بيضة ؟ » قال : « نعم . وفي أصغر من البيضة . قد جعلها كلّها في عينك ، وهي أقلّ من البيضة . لأنّك إذا فتحتَها عايَنتَ السماءَ والأرضَ وما بينهما ، ولوشاء لأعماك »[2] .

وروى أيضاً محمد بن يعقوب الكليني ـ ره ـ حديثاً آخر مثله عن أبي عبدالله عليه السلام ، عند سؤال عبدالله الديصاني عن ذلك[3] .

قلت : لامنافاة بين ماذكرنا وبين المرويّ عنهما عليهما السلام ، فإنّ كون الأجسام في المشاعِر والمرائي نحوآخر من الوجود ، والذي حكَمنا بامتناعه هو وجود العظيم في الصغيرفي نشأة . فإنّ وجود الأجسام المرئيّة في آلة النفس وجود إدراكيّ يختصّ ظهورها به للمدرك لها دون غيره ، بخلاف وجود الأجسام في موادّها الكونيّة .

وتحقيق هذا المقام يفتقر إلى تحقيق معرفة النفس وأحوالها ، وكيفيّة علم النفس بالأشياء الخارجة عن ذاتها . ومَن أمعَن في كيفيّة الإبصار ـ سيّما على الوجه الذي حقّقناه موافقاً للشواهد السمعيّة من الكتاب والسنّة ومحقّقاً لمسئلة المعاد وحشر الأجساد ـ لقضى آخر العجَب من ظهور قدرة الله وعجائب صنعه عليه ، وسيأتي ذكره عندكلامنا في تفسير آيات المعاد .

والذي يدلّ على صحة ماحمَلنا الرواية المذكورة عليه ماارواه ابن بابويه أيضاً في الكتاب المذكور[4] مسنداً عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : قيل لامير المؤمنين عليه السلام :

---

١) التوحيد : باب القدرة ١٣٠ .

٢) المصدر : لاعماك عنها .

٣) الكافي باب حدوث العالَم واثبات المحدث : ١ / ٧٩ .

٤) التوحيد : باب القدرة ١٣٠ .

« هل يقدر ربّك أن يُدخل الدنيا في بيضة من غير أن يصغر الدنيا أويكبر البيضة ؟ » فقال عليه السلام : « ان الله تبارك وتعالى لاينسب الى العجز ، والذي سئلتني لايكون » .

فهذا الحديث صريح في أنّ الذي سئله ذلك القائل ممتنع بالذات غيرمقدور ولاكائن . فلولم يكن معنى الرواية الأولى ماأوّلناها إليه لكان بين الروايتين تدافع ، وجلّت أحاديث أئمّتنا عليهم السلام أن يكون بعضها يناقض بعضاً ، لعصمتِهم عن الخطأ .

وروي أيضاً فيه (١) مسنداً عن أبي عبدالله عليه السلام انه قال : جاء رجلٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: « أيقدر الله أن يُدخل الأرض في بيضة ولايصغر الأرض ولايكبر البيضة ؟» فقال له : «ويلك . إن الله لايوصف بالعجز. ومن أقدر ممّن يلطّف الأرض ويعظّم البيضة » .

فدلّت هذه الرواية على أنّ دخولَ العظيم في الصغير في نشأة الدنيا لايمكن إلّا بأن يصغّر العظيم بالتكاثُف ، ويعظّم الصغير بالتخلخُل ، وأنّ تصغير الأرض إلى حدّ يكون مقدارها أقل من البيضة ، أو تعظيم البيضة إلى حدّ يكون مقداره أكبر من الأرض . غاية القدرة .

تنويرٌ فيه تنبيهٌ

ليس للمتفلسف أن يمنع تكوّنَ الماء من ذلك الحجَر في مقدار من الزمان متعاقباً بعد مايرى انّ الأرض لها مقدارٌ معيّن ممسوح بمساحة معلومة العدد بالذراعات والذي يتكوّن من الأرض على التعاقب من أفراد الإنسان وغيره من الحيوانات والنباتات لايمكن حصرُها وعدّها ، سيّما على مذهبه من قِدَم العالَم ، وتسَرمدالأنواع المتوالدة ، وعدم تناهي أفرادها في الجانبين . فلانسبة لما يتكوّن من الحجَر إلى الحجَر في جنب مايتكوّن من الأرض إلى الأرض .

---

١) التوحيد : الباب السابق ١٣٠ .

فإن قال قائلٌ : إنّ مايتكوّن من الأرض من المواليد الثلاثة فإنّها تعود جثتُها وأجسادُها إليها إذا استحالت تراباً ، فلاينقص مقدارها .

قلنا : وهيهنا أيضاً مثل ماذكرت على طريق الأولى .

تتمـــةٌ :

ذكر في التفسير الكبير (١) وجوه دلالة ذلك الإنفجار على الإعجاز :

أحدها : نفس ظهور الماء من الصمّاء .

وثانيها : خروج الماء العظيم من الحجَر الصغير .

وثالثها : خروجه بقدْرحاجتهم .

ورابعها : خروجه عند ضرْب العصا .

وخامسها : انقطاعه عند الاستغناء .

فالكلّ من أعظم الدلائل على قدرة الله وحكمته وتصديق رسله ﷺ .

١) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٥٤٢ .

قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١)

قرء أهلُ المدينة [النبيئين] بالهمزة ، والباقون بغير الهمزة .

والطَعام : مايتغذّى به . والطُعْم - بضم الطاء - : الأكل . والطَعم من الكيفيات المحسوسة بحاسّة الذوق ، والمراد من تلك الكيفيّات المسمّاة بالمحسوسات هي الموجودة في الخارج . وأمّا التي وُجدت منها في المشاعِر من صوَرها المطابقة لها فهي بحسب ذلك الوجود الصوري ليست عندنا داخلة في هذا الجنس - بل في جنس الكيفيّات النفسانيّة كالشهوة والغضب ، والإرادة والكراهة ، والعلم والجهل .

وفي ذلك سرّ المعاد وحشر الأجساد ، فإنّ لهذه الموجودات وأشكالها

ومقاديرها وألوانها وطعومها وروائحها وأصواتها وجوداً في عالَم النفس غير هذا الوجود المادّي الدنيوي الداثر الفاسد .

* * *

والدُعَاء أصله النداء . ويستعمل في قول القائل لمن فوقه : « افعَل كذا » .

والإنبات : إخراج النبات ، لكنّ الله لا يباشِر هذا الفعل الدنيّ إلا باستخدام بعض الملائكة الأرضيّة ، بعد استخدامه للملائكة السماويّة .

والبَقْل: ماينبت في الربيع من الخُضراوات التي ليس لها ساق . يقال: «بَقَلت الأرضُ » و « أبقلت » وهما لغتان فصيحتان .

و« القُثّاء » فيها لغتان : ضم القاف وكسرها. والثاني أجود لأنّه لغة القرآن . وقرىء في الشواذّ بالضم .

والفُوم : الحِنطة ــ عن ابن عباس وقتادة والسدّي . وهو المرويّ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام[1] وقال الفرّاء والأزهري : هوالحِنطة والخبُز. قال العرب : «فُوموا لنا» اي : اختبزوا لنا . وقال قوم : هوالحبوب التي تُخبز. وقال الكسائي: هوالثوم . أبدل «ثاؤه» «فاء» . قال الفرّاء : هذا أشبه بما ذكره بعده من البصَل . وقال الزجّاج : وهذا بعيد ، لأنّه لايعرف « الثوم » بمعني « الفوم » .

قال الطبرسي ــ ره ــ « وهو ضعيف . لأنّه قدروي في الشواذّ عن ابن مسعود وابن عباس : وثومها » .

وفيه نظر . لأنّ الذي روي من قرائة « ثومها » بدل « فومها » لا يدلّ على كونهما مترادفين قطعاً .

وقوله : ﴿ أدني ﴾ أي أقرب وأدون . فيكون من الدنوّ ، ويجوز أن يكون من الدنائة بمعني الخسّة .

والمِصْر : البلد العظيم . وأصله الحدّ بين الشيئين ، وقد يراد بـه العَلَم .

---

١) مجمع البيان: ١/١٢٢ .

وتنوينه وصرفه لسكون الوسط . أو على تأويل البَلَد . وقيل : أصله : مصيرائيم - باليائين فعَرِّب .

و﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِم ٱلذِّلَّة ﴾ أي : فُرِضت ووُضعت وأُلزموها ،كما في قولهم: ضَرب الإمامُ الجزيةَ على أهل الذمّة ، وضرَب الأميرُعلى الرعيّة الخراجَ .

و« المَسْكَنَة » مصدر المِسكين ، وهي الفاقة و الحاجة .

﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ﴾إي انصرفوا ورجعوا . أواستووا . من قولك : «باء فلان بفلان» إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له ومكافاته . أي صاروا أحقاء بغضبه . و « بَاءَ » لايُستَعمل إلاّ في الشرّ .

والنبي من « النبأ » بمعني الخبر ، أو من « نبأ » بمعني ارتفع أو منقول من « النبي » بمعني الطريق . والكلّ مناسب لمعناه العرفي . وهو إنسانٌ مبعوث من الله إلى عباده . فالنبي ﷺ مخبر عن الله ، مرتفع عنده . وهو طريق إلى وصول الحقّ ورضوانه .

* * *

والمعنى : وإذ قال أسلافُكم : يابني‌إسرائيل - بعد ماأنعَم عليهم من النِعم والإحسان التي‌منها المَنّ والسّلوى وهما من‌الأطعمة اللذيذة، قالوا من سوء الإختيار وكفْران‌النعمة - : ياموسى لن نصبِرعلى‌طعام واحد - اي مارزقوا في‌التيه - وهما وإن كانا اثنين ، لكن وحدتهما عبارة عن‌عدم تبدّلهما واختلافهماكقولهم : « مائدة الأمير واحدة » أي : لاتختلف ألوانها ، وإن كانت ألوانها كثيرة . ولذلك سمّوا . أوالمراد انّهما ضرب واحد ، فإنّهما معاً من طعام أهل التلذّذ والمترفين . ونحن قوم فلاّحون أهل زراعة ، ولانريد إلاّ ماألِفناه .

﴿ فَٱدْعُ لَنَا ﴾ أي : فاسئل ربّك لأجلنا ﴿ يُخْرِج ﴾ أي : يوجِد ويُظهِر ، مما تنبته الأرض من الخَضراوات .

فقال تعالى - أو قال موسى عليه السلام : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ﴾ أقرب منزلة وأدون قدراً : وأسهل وجوداً ، بالذي هو خير منه وأعلى قدراً ، وأعـزّ وجوداً ؟- يريد : أتستدعون الأدوَن بدلاً من الأفضل: - اهبطوا مصراً من الأمصار . وقُرِىء بضمّ الباء أي : انحدروا إليه من التيه . يقال: «هبط الوادي »إذا نزل و« هبَط منه » إذا خرَج .

وبلاد التيه مابين بيت المقدس إلى قنّسرين ، وهي إثنى عشر فرسخاً في ثمانية فرسخ .

ويحتمل أن يراد به العَلَم، وإنّما وقع منصرفاً مع اجتماع السببين - التعريف والتأنيث - مع سكون وسطه[1]. كقوله : نوحاً ولوطاً - وفيهما العُجمة والتعريف . فان أريد به البلد فما فيه إلاّ سبب واحد .

وفي مصحَف عبدالله ، وقرء به الأعمش [2] : « اهبطوا مصر » بغير تنوين . كقوله : ﴿ وَٱدْخُلُوا مِصْرَ ﴾ [١٢/٩٩] .

* * *

واختلفوا في قوله : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ فرُوي عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب ترك التنوين ، وقال الحسن : «الف» في مصراً زيادةٌ من الكاتب [3] . فحينئذ تكون معرفة - فيجب أن يحمل على ماهو المخصّص بهذا الإسم ، وهو البلد المعروف الذي كان فيه فرعون .

وأمّا الذين قرءوا بالتنوين فقد اختلفوا. فمنهم من قال : البلَد الذي كان فيه فرعون ، وانصرافه لما مرّ وقال الآخرون : أيّ بلد كان . فإنّ الـذي سألتُم من هذه الأمور يوجَد في الأمصار

١) الظاهر ان الأصح : « لسكون وسطه » كما في تفسير الفخر الرازي.

٢) تفسير الفخر الرازي: ١ /٥٤٥ .

٣) تفسير الفخر الرازي : « من الكتاب » .

إشارة

[قربُ أحوال القوم من الحيوانات]

قد تقرّر انّ الغذاء شبيه بالمغتذي ، ومن هيهنا أيضا يعلم مع القرائن الأُخر- كعبادتهم العِجل ، وكونهم أربعين سنَة في الصحراء ، وكون أبدانهم قابلةً لأن يُقرض منها أجزاءها بالمقاريض من غير أن يجرح لضخامة أبدانهم، وكون أثوابهم كالجلود كانت تزيد بزيادة قدّهم ، وغير ذلك - انّ قوم بني إسرائيل كانت خارجة في المزاج عن عرض المزاج الإنساني الذي نشأ في مابعد زمانهم، وكانت طبائعهم قريبة الشبه من طبائع الأنعام ، وأغذيتهم كأغذيتها مما تنبت الأرض من قُشور أغذية وكثافتها ونخالتها، كالعلَف والتِبن،لا من لُبوبها ولطافتها كالحبوب والأدهان والدّسومات والحلاوات التي يختصّ بالتغذّي بها الإنسان دون غيره من الحيوان .

ويؤيّد ماذكرنا قوله تعالى في تشبيههم بالحمار: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [٦٢/٥] .

فصل

واختلف في سؤالهم هذا: هل كان معصية ؟ فقيل : لم يكن معصية ، لأنّ الأوّل كان مباحاً ، فسألوا تبديله بمباح آخر. وقيل : بل كان معصية لأنّهم لم يرضوا بما اختاره الله لهم ، ولذلك ذمّهم . وهذا أوجه .

وربما رُجّح الأوّل بأنّه لو كان السؤال معصية لكانت الإجابة إليه معصية ، وهي غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام .

والجواب : لا نسلّم انّ موسى عليه السلام دعا ربه لإجابة مسئولهم عنه . بل لمّا أبوا شيئاً اختار الله لهم أعطاهم عاجلَ ماسَئلوا ، كما في قوله : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [٤٢/٢٠] .

ثمّ اختلف في الأمر في قولـه : ﴿ اهْبِطُـوا ﴾ للوجوب ، أو للندب ، أو للتخيير؟ والظاهر انّه للتخيير والإباحة . يعني : إذا لم تصبروا على ماهو خير لكم اهبطوا مصراً فانّ ماسألتم يوجد في الأمصار .

أمّا قوله : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي : صارت محيطة بهم ، مشتملة عليهم، كالقبّة المضروبة على جماعة . أو لزمتهم ضربة لازم ، كمـا يضرب الطين على الحائط ، فيلزمه . ولأجل هذا يكون اليهود أذلّاء صاغرين ، أهل مسكنة وخسّة . إمّا في الحقيقة ، وإمّا لتفاقرهم وتصاغرهم خيفَة أن يضاعَف عليهم الجزية .

ومن العلماء مَن عدَّ هذا من معجزات نبيّنا ﷺ ، لأنّه أخبَر من ضرب الذلّة والمسكنة عليهـم ، ووقـع الأمر على طِبْق ما أخبره ، فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً .

وأمّا الاستدلال بهذه الآية على فضيلة الأغنياء على الفقراء ، ـ لأنّه تعالى ذمّهم على الفقر ـ فغير موجّه ، لأنّ المراد به خسّة الذات وفقرالقلب وهَوانُ النفس . لأنّ كثيراً يوجد في اليهود مَياسير ومتموّلين ، ولكن لايوجد يهوديٌّ غنيُّ القلب مترفّع النفس . قال النبي ﷺ[1] : « الغِنى غِنى النفس » .

وقوله﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رجَعوا منصرفين متحمّلين غضبالله ، قد نزَل بهم العذابُ ، ووجبَ عليهم الغضبُ ، وحلَّ بهم السخطُ، لكونهم أحقّاء بذلك، فبدّلالله اليهود بالعزّ ذُلّا، وبالنعمة بُؤساً، وبالرضاء عنهم غضباً عليهم جزاءً بماكفروا بآياته ، وقتلوا أنبيائه ﷺ . وكُفرهم بآياتالله عبارة عنجحودهم حُجَج الله وبيّناته وانكارهم لما رأوا من الدلائل الباهرة ، والشواهد الظاهرة .

وقيل أراد بـ « آيات الله » مافي التورية والإنجيل والقرآن .

---

١) الجامع الصغير (١٣٥/٢) : ليس الغِنى عن كثرة العرض ، ولكن الغِنى غِنى النفس .

وقيل : آيات الله صفة محمّد ﷺ .

وقوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : بغير جُرم كزكريّا ويحيى وغيرهما .

فصلٌ

في هذه الآية سؤالات :

أحدها : لِمَ وقع تقييد القتل بكونه بغير الحقّ ، وقتل النبي لايكون إلاّ بغير الحقّ ؟

والجواب من وجهين : الأوّل انّ هذا خرَج مخـرَج الصفة اللازمة إشعاراً باللزوم ، كما في قوله [تعالى] : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ [٢٣/١١٧] ومعناه : انّ ذلك لايمكن أن يكون عليه برهان . وأمثاله كثيرةٌ في كلام العرب .

والثاني : انّ الإتيان بالباطل قد يكون الآتي به اعتقده حقّاً لشبهة وقعت له في قلبه ، وقد يأتي به مع علْمه بكونه باطِلاً . ولا شك انّ هذا القِسْم أقبح .

وثانيها : قوله : ﴿يَكْفُرُونَ﴾ داخل تحته قتل الأنبياء ، فلِمَ أعاد كرّة أخرىٰ؟

والجواب : إنّ الكفر بآيات الله معناه هو الجهل بها ، والجحود والإنكار لها ، فلا يدخل تحته قتل الأنبياء .

وثالثها : كيف يجوز التخلية بين الكفّار وقتل الأنبياء ؟

والجواب : إنّما جازذلك لينال أنبياء الله من رفيع الدرجات وسنى المقامات مالاينالونه بغير القتل ، وليس ذلك بخذلان لهم . كما انّ التخليـة بين المؤمنين والأولياء وبين قاتليهم ليست بخذلان لهم .

ورابعها : انّ الحق وقَع معرّفاً في هذه الآية وبغيرالتعريف في آل عمران ـ وهو قوله [تعالى] : ﴿ يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [٣/٢١] ؟

والجواب : انّ الحقّ المعلوم فيما بين المسلميـن الذي يوجب القتل ، كما في قوله ﷺ [1] « لا يحلّ دم امرء مسلم إلاّ بإحدى معان ثلاثـة : كفر بعد ايمان . وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حقّ » . فالحقّ المذكور بلام التعريف إشـارة إلى هذا . وأمّا الحقّ المنكر غيره . ففيه تأكيد . أي : لم يكن هنـاك حقٌّ ، لا هذا المعروف بين المسلمين ولاغيره أصلاً .

فصـلٌ

وأمّا قوله ﴿ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أي : ذلـك الغضب وضرب الذلّة والمسكنة لأجْل عصيانهم واعتدائهم في السبْت .

وقيل : المراد اعتدائهم في قتْل الأنبياء فهو تأكيد لتكرير الشـيء بغير لفظه الأوّل ، وهو كقول الرجُل لعبده ـ وقد احتمل منه ذنوباً سابقة فعاقبه عندآخرها ـ : «هذا بما عصَيتني، وهذا بما خالفتَ أمري ، وهذا بما تجرئتَ عليّ وهذا بكذا» فيعدّ عليه ذنوبَه المختلفة ، أو يعدّ عليه ذنوبَه بألفاظ مختلفة تبكيتاً .

ومعنى الاعتداء هيهنا : الظلم والتجاوز عن الحقّ إلى الباطل .

نكتـةٌ :

واعلم انّ درجات المعصية متفاوتة ، أقواها الكفْر بالله وبعده الكفر برسله وأنبيائه ، وبعدهما الظلم من أحد على نفسه ، وبعدها الظلم على غيره .

فاعلم انّه لما ذكر سبحانه إنزال العقوبة بهم ، بيّن سبب ذلك ، فبدَء أوّلاً بما فعَلوه في حقّ الله ، وهوجهلهم بآياته ، وكفرانهم لنِعمه . ثمّ ثنّاه بمايناوه في العِظَم وهو قتْل الأنبياء . ثمّ ثلّثه بما كان يصدر منهم من المعاصي التي تخصّهم . ثمّ ربّع ذلك بمايصدرمنهم ـ من المعاصي المتعدّية إلى الغيرمثل الاعتداء فيالسبت وغيره ـ وذلك في غاية حُسن الترتيب .

قوله جلّ اسمه :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ هَادُوا ﴾ بضم الدال . وقرىء بالفتح .

والقراءة المعروفة في ﴿ الصَّابِئين ﴾ وكذا ﴿ الصَّابِئون ﴾ باثبات الهمزة في كلّ القرآن . وعن نافع والزهري بترك الهمزة . وعن أبي جعفر بيائين خالصتين فيهما . وترك الهمزة يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من « صَبا ، يَصبُو » أي : مالَ إلى الشيء . والآخر : قلب الهمزة ياء .

واختيــار الهمزة أولى ، لأنّه قراءة الأكثر ، ولأنّه أقرب إلى معنى التفسير ، لأنّ أهل العلم قالوا : الصابي هو الخارج من دين إلى دين لم يشرع له ، فمن قرأه بغير الهمزة فيُحمل على قلب الهمزة .

واختلف في اشتقاق اسم « اليَهود » . فقيل: هو من «الهود» أي : التوبة لتوبتهم من عبادة العِجل . وقيل : انّما سمّوا بذلك لانتسابهم إلى « يَهودا » أكبر أولاد يعقوب . وقيل لأنّهم هادَوا ـ أي : مالوا ـ عن دين الإسلام . وقيل : لأنّهم يتهوّدون ـ أي يتحرّكون ـ عند قراءة التورية ، ويقولون : « إنّ السموات والأرضَ

تحرّكت حين آتى الله موسى عليه السلام التورية » . واليهود اسم جمع واحدهم «يهودي» كالزنج والزنجي .

و ﴿ النَّصارى ﴾ جمع نَصران ، كسَكران وسُكارى . ومؤنثه : « نَصرانة » والياء [في نصراني] [1] للمبالغة . واختلفوا في اشتقاقه . فعن ابن عباس : هو من « ناصرة » قرية كان يسكنها عيسى عليه السلام . وقيل : إنّما سمّوا بذلك لقوله عليه السلام : ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [٥٢/٣] .

و ﴿ الصَّابِئون ﴾ جمع الصابي . وهو مَن انتقل مِن دين إلى دين آخر . قال أبو علي [قال أبو زيد] [2] : صبأ الرجل في دينه يَصبو صبوءاً إذا كان صابئاً . وصَبأ نابُ الصبي ، يصبأ صبأ : إذا طلَع . وصبأت عليهم إذا طلعت عليهم وطرأت مثله . فمعنى الصابي التارك دينه الذي شرّع له إلى دين غيره ، كما انّ الصابيء على القوم تارك لأرضه ومنتقل إلى سواها ، لأنّهم تركوا دين التوحيد إلى عبادة روحانيّات النجوم وملائكة السموات، أو تعظيمها وجعلها وسائل وشفعاء لهم إلى الله .

وقال قتادة [3] : وهم قوم معروفون ، ولهم مذهب يتفرّدون به ، ومن دينهم عبادة النجوم ، وهم يقرّون بالصانع وبالمعاد ، وببعض الأنبياء . وقال مجاهد والحسن : الصابئون بين اليهود والمجوس لادين لهم . وقال السدّي : هم طائفة من أهل الكتاب يقرءون الزبور . وقال الخليل : هم قوم دينهم شبيه بدين النصارى، إلاّ انّ قبلتهم نحو مهبّ الجنوب حيال منتصف النهار ، يزعمون انّهم على دين نوح عليه السلام .

وعامّة الفقهاء يجيزون أخذ الجزية منهم ، وعند أصحابنا الإماميّة لايجوز ذلك لأنّهم لاكتاب لهم .

---

١) الإضافة من الكشاف : ٢١٩/١ .

٢) الإضافة من مجمع البيان : ١٢٦/١ .

٣) مجمع البيان : ١٢٦/١ .

المعنى :

واعلم انّ من عادة الله الرحيم بعباده إذا ذكر وعيداً عقّبه بضده لئلّا ييئس عباده من رحمته ، وإذا ذكر آية رجاء عقّبها بآية الخوف لئلّا يأمن عباده من مكر الله . فهيهنا لمّا ذكر أحوال كفرة أهل الكتاب ومانزل بهم من العقوبة أخبر بما وعد للمؤمنين من كل طائفة من الثواب الجزيل والأجر العظيم ، دالّاً على أنّه سبحانه كما يجازي المسيء باساءته يكافيء المحسن بإحسانه ،كما قال تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى﴾ [٥٣/٣١] فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

واختلفوا في المراد منهم [1] . فقال قوم : هم الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ، ثمّ لم يتهوّدوا ولم يتنصّروا ولم يتصبّأوا ، وانتظروا خروجَ محمّد صلى الله عليه وآله .

وقيل هم طلّاب الدين ، منهم : حبيب النجّار ، وقسّ بن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، والبراء الشني ، وأبو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ، وبحيرا الراهب ، ووفد النجاشي .آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله قبل مبعثه . فمنهم من أدركه وتابعه ، ومنهم من لم يدركه .

وقيل : مؤمنوا الأمَم الماضية . وقيل : هم المؤمنون من هذه الامة .

وقال السدّي : هو سلمان الفارسي وأصحابه النصارى ، الذين كانوا [ظ : كان] قد تنصّر على أيديهم قبل مبعث الرسول ، وكانوا قد أخبروه بأنّه سيبعث ، وانّهم يؤمنون به إن أدركوه .

وسبب هذه الإختلاف قوله تعالى في آخر الآية : ﴿مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإنّ ذلك يقتضي انّ المراد من الايمان في أوّل الآية غير المراد به في آخرها ونظير هذا قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [٤/١٣٦] .

---

١) مجمع البيان : ١/١٢٦ .

والأجود أن يكون معنى الايمان في الأوّل الايمان الظاهري المعروف بين الأمّة ، ومعناه في الثاني هو الايمان الحقيقي الذي هو عبارة عن عرفان الله بوحدانيّته وصفاته الإلهية وأفعاله المحكمة ، وعرفان اليوم الآخر ، وحقيقته رجوع الأشياء إليه ، وحشر الإنسان إلى الدار الآخرة ـ كلّ ذلك على وجه اليقين والتحقيق .

وهذا أمر في غاية العزّة والشرف ، وقـلّ من المعروفين بالايمان من تصوّر هذه الأشياء ، تصوّراً حقيقياً ، أو بوجه خاصّ رسمي . والقرآن مشحون بالإشعار بما ذكرناه ، كقوله : ﴿ وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [١٢/١٠٦] وقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَو حَرَصتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٢/١٠٣] وقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ [٤/١٣٦] .

فالايمان الحقيقي غير الايمان الظاهري المجازي . فعلى هذا لاحاجة إلى حمل قوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ على غير طائفة أهل هذه الملّة الإسلاميّة ، بل هذه الأقوال لو ذكرت في قوله : ﴿ مَنْ آمَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ لكان أولى بأن يقال : من الذين هم مؤمنوا بني إسرائيل ، ومَن هم مؤمنوا قوم عيسى عليه السلام ، ومن مؤمنوا جمـاعة الصابئين ومن المؤمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء الطوائف ، سواء كانوا في سابق الزمان قبل ظهور الإسلام ، أو في عهد الإسلام . ولكن الايمان بهذا المعنى الحقيقي أمر باطني لايعرف الموصوف به إلاّ الله وأنبيائه وأوليائه عليهم السلام .

ويؤيّد هذا التفسير قول سفيان الثوري ، حيث نقل صاحب الكبير عنه [١] : انّه تعالى لما ذكر في أوّل هذه السورة طريقة المنافقين ، ثمّ طريقه اليهود . فالمراد من قوله : [تعالى] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هم الذين يؤمنون باللسان دون القلب ، وهم المنافقون . فذكر المنافقين ، ثمّ اليهود والنصارى والصابئين . فكأنّه تعالى قال: و اولئك المبطِلون كلّ من أتى منهم بالايمان الحقيقي صار من الفائزين عنـد الله

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٤٩ .

بالأجر العظيم » .

ومن هيهنـا يعلم إنّ المقصود الأصلي من بعثة الأنبيـاء وإنزال الكتب هو الايمان بالمبدء والمعاد ، مع العمل الصالح ، حتّى لو فُرض أحدٌ لم يكن يرى نبيّاً من الأنبياء ولم يصل إليه خبره ، أوكان في أزمنه الفترات ، وهو مع هذا عالِم بالله واليوم الآخر،عاملً بالعمل الصالح لكان من السعداء الناجين .

وروي عن ابن عباس [1] انّ هذه منسوخة بقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [٣/٨٥] . وهذا بعيدٌ لان النسخ لايجوز أن يرد على الخبر الذي هومتضمّن للوعد . وإنّما يجوز دخوله في الأحكام الشرعيّة التي يجوز تغيُّرها وتبدّلها بتغيّر المصلحة ، فالأولى أن يُمنع صحّة هذا النقل عن ابن عباس .

وذهب بعضُهم إلى أنّ حكم الآية ثابت . والمراد بها : إنّ الذين آمَنوا بأفواهِهم ولم تؤمن قلوبُهم من المنافقين واليهود والنصاري والصابئين إذا آمنوا بعد النفاق، وأسلَموا بعد العناد كان لهم أجرهم عند ربّهم كمن آمَن في أول استدعائه إلى الايمان من غير نفاق ولاعناد ، لأنّ قوماً من المسلمين قالوا : «انّ من أسلَم بعد نفاقه وعناده كان ثوابُه أنقص ، وأجرُه أقلّ » فأخبرَ الله بهذه الآية انهّم سواء في الأجر والثواب .

فصلٌ

قوله : ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ متعلّق بقوله : ﴿ آمِنوا ﴾ أي : آمِنوا بتوحيد الله وعلمه وقدرته وسائر صفاته الكماليّة ، وصفاته التقديسيّة وعدله وحكمته .

وقوله : ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أي : بيوم القيامة والبعث والنشور والحساب والكتاب والجنّة والنار ، وقوله : ﴿ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي : عمل مابه يصلح لدخول الجنّة والقُرب من الله من الطاعات والعبادات . وإنّما لم يذكر ترك المعاصي لأنّ

١) مجمع البيان : ١/١٢٧ .

تركها من جملة الأعمال الصالحة .

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: جزاؤهم معدّ وموجود لهم . وهذا يدلّ على أنّ الأجر والثواب من النتائج اللازمة والغايات التابعة للايمان والعمل الصالح ،كما انّ الالم والعقاب من لوازم الكفر والمعاصي .

وقوله : ﴿ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ مضى تفسيره . وقيل معناه : لاخوف عليهم فيما قدّموا ، ولاهم يحزنون على ماخلّفوا . وقيل: لاخوف عليهم في العُقبى ، ولاهم يحزنون على فوات الدنيا .

فصلٌ

[ماهو الايمان ؟]

اعلم انّ هذه الآية دالّة على أنّ الايمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب ، لأنّه تعالى قال : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثمّ عطف عليه بقوله : ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ والعطف يدل على المغائرة . ومَن حمَل ذلك على التأكيد أوالفصل فقد تركالظاهر بلاحجّة ، وكلّ موضع يذكر فيه أمْر ثمّ يذكر فيه مايدخل تحته فهو محمولٌ على التوسّع والمجاز. مثل قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[٥٥/٦٨] وقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ وغيرهما [٣٣/٧] ولو لم يحمل على المجاز لقلنا : انّه ليس بداخل في الأوّل .

واعلم انّ من اعتبر في الايمان عمل الأركان كأنّه رأى انّ الايمان من لوازمه غالباً اتيان العمل الصالح ، أو أراد بالايمان الايمان الظاهري ، فمَن ادّعى الايمان وترك الصلوة والزكوة والحجّ وغيرها فلايعدّونه من جملة المؤمنيــن لكن الايمان الحقيقي يمكن أن يتحقّق بدون العمل ،كمن استبصر وتنوّرقلبُه بنورالعرفان وقضى نحبَه مقارناً بايمانه ، فهو مؤمنٌ عند الله حقّاً .

قوله جلّ اسمه :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« المِيثاق » مِفعال من الوثيقة إمّا بيمين أو بعهد أو غير ذلك في الوثاق [ظ : من الوثائق] كالعقل والفطرة .

و« الطُّور » في اللغة : الجَبل . وقيل: اسم جَبل بعينه ناجى الله عليه موسى عليه السلام . وهو المرويّ عن ابن عباس . وهذا هو الأقرب ، لأنّ لام التعريف حمله على معهود عرف كونه مسمّى بهذا الاسم . والمعهود هو الجبل الذي وقعت المناجاةُ فوقَه ، فقد يجوز أن ينقله الله إلى حيث هم ، فجعله فوقَهم وإن كان بعيداً منهم ، لأنّ القادر على أن يجعل الجبل فوق الهواء قادر على قلْعِه ونقلِه من موضع بعيد إليهم . وسيجيء إعادة الكلام في تحقيق هذا المرام .

وقال ابن عباس : أمَرَ الله جبلاً من جبال فلسطين ، فانقلَع من أصلِه حتّى قام فوقَهم كالظُلّة ، وكان المعسكر فرسخاً في فرسخ [1] .

و ﴿القُوّة﴾ هيهنا بمعنى القدرة . وهي في الأصل يقال لمبدء التغيُّر في شيء آخر من حيث هو آخر . سواء كان فعلاً أو إنفعالاً . وقد يقال لما به يمكن ان يصدر

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٥١ .

عن الشيء فعل أو انفعال وأن لا يصدر . وهي بهذا المعنى يقابل الفعل بمعنى الحصول والتحقّق . وقد يقال لما به يكون الشيء غير متأثّر عن مقاوم ، ويقابله الضعف والوهن . والقوّة الفعليّة إذا كانت مع شعور وإرادة تسمّى قدرة ، وهي المراد هيهنا .

واعلم إنّ أكثر المتكلّمين على أنّه ليست قدرة إلاّ لما من شأنه الطرفين : الفعل والترك . وأمّا الفاعل الذي يدوم فعله ـ وإن كان بمشيّته ـ فهم لا يسمّونه قادراً والحقّ خلافه . فإنّ من فعل بمشيّة وإرادة فيصدق عليه انّه او لم يشأ لم يفعل، سواء اتّفق عدم المشيّة ، أو لم يتّفق . لأنّ صدق الشرطيّة لا يتوقّف على تحقّق طرفيها[1] .

واعلم انّ القوّة الفعليّة قد يكون مبدء الوجود ، وقد يكون مبدء التغيّر ، والإلهيون من الحكماء إنّما يعنون بالفاعل مبدء الوجود ، والطبيعيّون يعنون به مبدء التحريك . والأحقّ باسم الفاعل مَن يطرد العدم بالكليّة عن الشيء بالكليّة ، وما هو إلاّ الواحد الذي بقوّته أخرج الأشياء من الليس المطلق إلى الأيس . وأبدع الأشياء من غير مثال . وأمّا الذي جعله الله واسطة للتهيّؤات والاستعدادات ، فالأولى أن لا يسمّى بالفاعل ، لكن بالمحرّك والسائق وما يجري مجراهما .

المعنى :

ثمّ عاد إلى خطاب بني إسرائيل بذكر إنعامه عليهم . وهذا هو الإنعام العاشر من الإنعامات الواقعة عليهم . فقال : اذكروا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي : عهدكم .

والمفسّرون اختلفوا في المراد من هذا الميثاق ماهو ؟ فذكروا وجوهاً :

الأوّل انّه ما أودع في العقول وارتكز في الفِطَر من الدلائل على وجود الصانع وقدرته وحكمته وما نصَب لهم من الحُجج الواضحة ، والبراهين الساطعة على ذلك وعلى صدق الأنبياء والرسل ﷺ . وهذا النوع من الميثاق أقوى المواثيق والعهود ،

---

١) راجع تفصيل الكلام في الأسفار الأربعة : الموقف الرابع من السفر الثالث ٦/ ٣٠٧

لأنّها لاتحتمل الخُلف والنقص والتبدّل بوجه ألبتّة .

والثاني انّ المراد به الذي أخذه الله على النبيّين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ الاية [٣/٨١] .

الثالث :ماروي عن عبدالله بن عوف بن أسلم [١] انّ موسى عليه السلام لمّا رجع من عند ربّه بالألواح قال لهم : « انّ فيها كتاب الله وحكمته ، فخذوها » قالوا : « لن نأخذ بقولك حتّى نرى الله جهرة فيقول : هذا كتابي » فأخذتهم الصاعقة فماتوا . ثمّ أحياهم ، ثمّ قال لهم بعد ذلك : « خُذوا كتابَ الله » فأبوا . فرفع فوقهم الطور وقيل لهم : « خذوا الكتاب وإلاّ طرحناه عليكم » فأخذوه .

فرفْع الطور هو الميثاق . وذلك لكون رفْعه آية باهرة عجيبة توجب الانقياد من التكذيب إلى التصديق . ومن الشكّ إلى اليقين . فأقرّوا لموسى عليه السلام لأجله - مضافاً إلى سائر الآيات - بالتصديق ، ولله بالعبوديّة والطاعة، واعطوا العهد والميثاق أن لايعودوا إلى ماكانوا من عبادة العِجل ، وأن يقوموا بالتورية . فأخذوا التورية وسجَدوا لله تعالى ملاحظين إلى الجبَل ، فمِن ثمّ يسجد اليهود على أحد شِقّي وجوههم .

وهذا هو معنى أخذ الميثاق ، لأنّه عهد موثق جعلوه لله . وكان في حال رفْع الجبَل فوقهم ، لأنّ في هذه الحال قيل لهم : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يعني: التورية بقوّة ، أي : بجدّ ويقين لاشكّ فيه . وهو قول ابن عباس والسدّي .

وقريب منه ماروى العيّاشي انّه سُئل جعفر الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أبقوّةٍ من الأبدان ، أو بقوّة القلوب ؟

---

١) الظاهر ان الصحيح : « عبدالرحمن بن زيد بن أسلم » كما في تفسير الفخر الرازي ١/٥٥٠ .

فقال : بهما جميعاً[1].

وقيل : أخذه بقوّة هو العمل بما فيه بعزيمة وجِدّ .

الرابع ان لله ميثاقين على عباده : الأوّل حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم . الثاني انه ألزم الناس متابعة الأنبياء . والمراد هيهنا هو هذا العهد . وهو قول ابن عباس . وعلى هذا يكون « الواو » في قوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ للعطف ، وعلى تفسير غيره للحال .

قال القفّال [2] : انّما قال : « ميثاقكم » ولم يقل مواثيقكم لأنّه أراد به الدلالة على أنّ شيئاً واحداً أخذ من كل واحد منهم [كـ]ـما أخذ من غيره . فلاجرم كان كلّه ميثاقاً واحداً . ولو قيل « مواثيقكم » لاشتبه أن يكون هناك مواثيق مختلفة أُخذت عليهم ـ لاميثاق واحد ـ .

* * *

وقوله : ﴿ وَٱذْكُرُوا مَافِيهِ ﴾ الضمير في « فيه » يعود إلى الموصول ـ يعني التورية ـ أي : احفظوا مافي التورية وادرسوه من أحكام الحلال والحرام ولاتنسوه ولاتغفلوا عنه .

فإن قلت : هلّا حمَلتموه على معنى أصل الذِكْر ؟

قلنا : لأنّ الذكْر الذي ضد النسيان هو من فعْل الله ليس بإرادة العبد . فكيف يجوز الأمر به ، ولذلك حمَلناه على المذاكرة والمدارسة والمحافظة عليه .

---

١) كذا في مجمع البيان (١٢٨/١) وفي العياشي (٤٥/١) : « أقوّة في الأبدان ، أم قوّة في القلوب ؟ قال : فيهما جميعاً » .

٢) تفسير الفخر الرازي : ٥٥١/١ .

فصــلٌ

[كيف يمكن رفع الجبل ؟]

من المتفلسفة من أنكر إمكان وقوف مثل الجبل ونحوه من الأثقال في الهواء من غير دِعامَة ولاعِماد. وأمّا مثل الصواعق وذوات الأذناب وغيرها ممّا فيه حرارة مُصعدة، أو أدخنة غليظة بقوّة حرارتها تقاوِم الهابط من الجوّ، فيمكن وقوفها زماناً في الهواء . وكذا الأرض معلّقة فيما بين الهواء لأنها متدافعة من جميع الجوانب لتكافؤ ثِقل أطرافها، فوقَفت بطبعها عند المركز. بخلاف وقوف الجبل في الهواء إذ لاسبب له .

والجواب من وجهين : أحدهما انّ أسباب وقوف الثقيل في الهواء ليست منحصرة فيما ذكَرتم من الدعامــة أو الحرارة المصعِدة أو تدافع الجوانب ـ أو مايجري مجراهما ـ فإنّ هيهنا أسباباً إلهيّة سماويّة أو نفسانيّة مقتضية لمثل هذه الأفاعيل الغريبة، فإنّ للنفس أن تُصعِّد الجسم الثقيل بمجرد الهمّة والعزم .

ومن هذا القبيل وقوف الطير في جوّ السماء . كقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [٦٧/١٩] ومن هذا الباب صُعود الحيوان إلى فوق بقوّة نفسانيّة ـ لابدعامة جسمانيّة ـ ومنه قلْع باب خيبــر ورفعه، فإنّه عليه السلام قال [١] : « قلَعتهُ بقوّة ملكوتيّة، لابقوّة جسمانيّة » فإنّ نسبة النفوس القويّة العالية إلى غير بدنها من أجسام هذا العالَم كنسبة سائر النفوس الضعيفة إلى بدنها، فلاجرم أثرت همّة نفس موسى عليه السلام بقوّة استفادها من الله في رفع الجبــل فوق قومه .

---

١) في البحار (٢٦/٢١) عن أمالي الصدوق : انّ أمير المؤمنين قال في رسالته إلى سهل بن حنيف رحمه الله : « والله ماقلعتُ باب خيبر ورميت به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوة جسدية ولاحركة غذائية، لكني أيدت بقوة ملكوتية ونفس بنور ربها مضيئة ... » .

وثانيهما انّ للأجرام والأعظام نحوين من الوجود : أحدهما وجود مادي متعلّق بمادّة واستعداد خاصّ . والآخر وجود صوريّ متعلّق بالفاعل غيرمتعلّق بمادّة قابلة للحركة والفساد .

والذي يراه الإنسان في هذا العالَم ويشاهده بحسّه الظاهر على وجهين : أحدهما الشائع المتعارف الأكثري ، وهو أن يأخذ الحسّ البصري صورة مايراه وينتزعها من مادّته . والآخر أن ينحدِر إلى حسّه من جهة الباطن ـ وهذا على سبيل النُدرة ـ ومن هذا القبيل رؤية النبي ﷺ وأصحابه تمثُّل جبرئيل عليه السلام لهم بصورة دُحية الكلبي ، وهذا باب من المعجزة . وقد يقع لبعض الكهَنة وغيرهم من هذا القبيـل رؤية بعض الأجسام بأسباب باطنيّة . ولهذا قد يصعب الفرق بين المعجزة والكهانة على النفوس العاميّة .

ومن وقَف على حكاية الجوهري رأى عجبـاً من هذا الباب ، حيث خرج بالعجين من بيته إلى الخبّاز ليطبخ له الخُبزَ في الفُرن ، وكانت عليه جنابة ، فجاء إلى شطّ النيل ليغتسل ، فرأى ـ وهو في الماء ـ مثل مايراه النائم ،كأنّه تزوّج في بغداد ، وأقام مع المرأة ستّ سنين ، وأولدَها أولاداً . ثمّ ردّ إلى حاله ـ وهو في الماء ـ ففرغ من غسله ، وخرج ولبس ثيابه وجاء إلى الفرن وأخذ الخُبز وجاء إلى بيته وأخبر أهلَه بما أبصره .

فلمّا كان بعد أشهر جاءت تلك المرأة التي رأى انّه تزوّجها في تلك الحالة تسأل عن داره ، فلما اجتمعت به عرفها وعرف الاولاد وماأنكرَهم . وقيل لها : متى تزوّج ؟ فقالت : « منذ ستّ سنين ، وهؤلاء أولاده مني » . فخرج في الحسّ مارآه في الباطن أوّلا [1] .

---

١) هذه الحكاية التي ذكرها المصنف ـ ره ـ في مفاتيح الغيب أيضاً (المشهد العشرون من المفتاح العشرون) أخذها من الفتوحات المكية (الباب الثالث والسبعون، السؤال الثاني =

وهذه إحدى المسائل السّتة التي أوردها ذو النون المصري ، التي تُحيلها العقولُ المتفلسفة ، والحكايات في هذا الباب كثيرة ذكرها يؤدّي إلى الإطناب . فعلَى هذا لم يبق شكّ في جواز رفع جبل طور فوق بني إسرائيل معجزة لموسى ﷺ ، فقد خصّ الله أولياءه بقُوى شريفة قويّة نورانيّة يقوى على مثل هذه الأحكام . فلاينكره إلاّ جاهل بما ينبغي للجناب الإلهي من الاقتدار .

وفي معراج رسول الله ﷺ كفاية في هذا المقام مع خَرقه للأفلاك ونفوذه في مسافاتها البعيدة التي قطعَها في الزمان القليل . كما سنوضح لك في تفسير سورة الإسراء إنشاء الله تعالى .

--- والسنون : ٢ / ٨٢) والمراد من ذكرها التمثيل ودفع الاستغراب ، وإلا فالمعارف الإلهية لايُحتاج في إثباتها إلى أمثال هذه الأساطير .

قوله عزّ اسمه

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

هذه الآية من أرجى الآيات وأقواها دلالة على رحمته وتجاوزه عن سيّئات عباده العاصين، لأنّ وقوع قوله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ إلى آخره عقيب ذكر هذه القبائح الشنيعة، والآثام الرديّة كعبادة العِجل، وكُفران النعمة، وجُحود النبوّة، وإنكار المعجزات الجليّة الواضحة، ونقض الميثاق المؤكّد من قِبل الله، وغير ذلك من صفات القلوب القاسية المظلمة ـ يدلّ على كمال رأفته وعفوه.

قال القفّال[1]: قد يعلم في الجملة انّهم بعد قبول التورية ورفْع الطور أعرَضوا عن التورية وترَكوا العمل بها ونزَلوا عنها بأمور كثيرة، فحرّفوا التورية، وقتلوا الأنبياء، وكفَروا بهم وعصَوا أمرَهم. ومنها ماعمله أوائلهم. ومنها مافعله متأخّروهم، ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلاً ونهاراً يخالفون موسى عليه السلام، ويعرضون ويلقونه بكلّ أذى ويجاهرون بالمعاصي في معسكرهم ذلك حتّى أنّه خسف الأرض ببعضهم وأحرقت النار بعضهم وعوقبوا بالطاعون. وكلّ هذا مذكور في تراجم التورية التي يقرّون بها.

---

١) تفسير الفخر الرازي: ١/٥٥٢.

ثمّ فعل متأخّروهم بالإخفاء به حتّى عوقبوا بتخريب بيت المقدس وكفروا بالمسيح وهمّوا بقتله . والقرآن وإن لم يكن فيه بيان ماتولّوا به عن التورية ، لكن الملّة معروفة[1].

وذلك إخبار من الله عن عناد أسلافهم ، فغير عجيب إنكارهم ماجاء به محمّد ﷺ من الكتاب وجحودهم لحقّه ، وقد ذكر تعالى من اوصافهم ما ذكر .

المعنى :

و ﴿ لَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بعد ما تولّيتم عن كتابه عقيب تلك الآيات والحجج ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة . ولكن فضله ورحمته أمهلكم وأدامكم لترجعوا إلى التوبة وتعودوا إليه لعلّكم تفلحون .

وقيل معناه : ﴿ فلولا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بالتوبة بعد أن نكثتم الميثاق الذي واثقتموه ونبذتم العهدَ الذي أخذناه عليكم وراء ظهوركم ، إذ رفع فوقكم الطور ، وأنعم عليكم بالإسلام ﴿ وَرَحْمَتُهُ ﴾ التي رحمكم بها ، فتجاوز عنكم بمراجعتكم إلى طاعة ربّكم ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ .

وقال أبو العالية[2] : فضل الله الايمان ، ورحمته القرآن ، فيكون معناه : لولا إقداري لكم على الايمان وإزاحة علّتكم فيه لكنتم من الخاسرين .

وقيل معناه : ﴿ فلولا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ في رفع الجبل فوقكم للتوفيق . واللطف الذي تبتم عنده حتّى زالَ العذاب عنكم وسقوط الجبل عليكم ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ أي من الهالكين الذين باعوا أنفسهم بنار جهنم .

ويحتمل أن يكون الخبر قد انتهى عند قوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

١) تفسير الفخر الرازي : فالجملة معروفة .

٢) مجمع البيان : ١/١٢٨ .

ثمّ قيل : ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ رجوعاً بالكلام إلى أوله . أي : لولا لطف الله بكم في إظهارتلك الآيات من رفع الجبل وغيره لدُمتم على ردّكم الكتاب ولكنه تفضّل عليكم ورحمكم ، فلطف لكم بذلك حتى تبتُم .

فصلٌ

[الخير من الله والشر ليس إليه]

قد تقرّر في الأُصول العقليّة إنّ الخير ذاتيّ له ، وهو المعبَّر عنه بالرحمة . والشرور ليست من قبل الله بالذات ، بل لأجل قصور بعض الذوات عن قبول الخير والرحمة وانحرافها عن مسلك الهداية ، ولذلك قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [٤/٧٩] .

فحينئذ لقائل أن يستشكل ويقول : انّ كلمة « لولا » يفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره ، فهذا يقتضي انّ انتفاء الخسران من لوازم فضل الله تعالى . فحيث حصَل الخسرانوجَب أن لايحصل هناك لطف الله ورحمته . وهذا يقتضي انّ الله لم يفعل بالكافرشيئاً منالطف والرحمة . وهذا يخالف ماحقّقه المحقّقون وماذهب إليه بعض المتكلّمين من أن لطف الله واجب ، واقع في حقّ المؤمن والكافر جميعاً .

والجواب المنقول من الكعبي [١] « انّه تعالى سوّى بين الكل في الفضل ولكن بعضهم انتفع به دون بعض ، فصحّ أن يقال ذلك كما يقول القائل قد سوّى زيد بين أولاده فيالعطيّة فانتفع بها بعضهم : «لولا أن أباك فضّلك لكنت فقيراً[٢]» وضعّفه صاحب الكبير[١] بأنّ « أهل اللغة نصّوا على أنّ لولا يفيد انتفاء الشيء

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٥٣ .

٢) كذا . والظاهر انّ الصحيح ماجاء في تفسير الفخر الرازي : كما يقول القائل لرجل وقد سوّى بين أولاده في العطيّة فانتفع بعضهم : لولا أن أباك فضّلك لكنت فقيراً .

لثبوت غيره ، وهو يقتضي انتفاء في نفسه ـ لاعدم الانتفاء به مع ثبوته . فكلام الكعبي ساقط » .

والذي به ينحلّ الإشكال أن يقال : إنّ الله فعله من قبله غير مختلف . فالخير نازل من عنده ، والجود مبذول ، والرحمة واحدة بالنسبة إلى الخلْق أجمعين لاتبديل لسنّة الله . ولكن الوصول مختلف ، لاختلاف الغرائز والفِطَر لطافةً وكثافة ، وسعَة وضيقاً . كالمعلّم يفيد تعليماً واحداً ويختلف غرائز المتعلّمين في قبول ذالك العلْم ، لتفاوت غرائزهم في الذكاء والبلادة ، والاستقامة والاعوجاج ، والشمس شأنها في التنوير واحد ، ومواضع الأرض مختلفة في قبول الضوء .

ففعْل الله ولطفه في المؤمن كفعْله ولطْفه في الكافر . لكن قلب المؤمن أبيَض وأجرَد ، وقلب الكافر أسوَد وأكدَر . ولفظ الجود واللطف والكرم ـ وما يجري مجراها ـ قد يراد بها ماعند الفاعل، وقد يُراد بها ماعند القابل ، والذي عند الفاعل واحدٌ لايختلف . والذي عند القوابل مختلفة .

فمَن قال : « إنّ لطف الله شامل للمؤمن والكافر » أراد به أنه تعالى لايمسك من جوده ولطفه على أحد . ولم يرد « ان لطفه واصل حاصل عند الكافر ، ومع ذلك لاينتفع به» . لأن ذلك محال، كما أن يقال: «انّ ضوء الشمس موجود في سطح من الأرض ، ولكن ليس بمستضيء » أو « أثر حرارة النار موجود في جسم كذا ، ولكن ليس بمستسخن » . ولاشكّ في بطلانه . فكذا مانحن فيه .

فعلم ان الخير مبذول ، والرحمة فائضة ، واللطف شامل . ألا ترى إلى قوله تعالى مخاطِباً لنبيّه ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَاتَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾[٢٨/٥٦] مع أنّ شأنه الهداية ﴿إِنَّكَ لَاتُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَاتُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[٣٠/٥٢] انّك لاتُسمع مَن في القبور[1] ـ مع انّ شأنه الإسماع .

---

١) يشير إلى قوله تعالى : ومآأنت بمسمع من في القبور (٣٥/ ٢٢) .

قوله جلّ اسمه

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

﴿ اعْتَدَوا ﴾ أي ظلَموا وجاوزوا ماحدّ لهم .

و ﴿السَّبْتُ﴾ من أيام الأسبوع . قال الزجّاج : السبْت قطعة من الدهر يسمّى به ذلك اليوم . وقال أبو عبيدة : سمّي بذلك لأنّه يوم سُبِت به خلْق كلّ شيء ، أي قُطِع وفرِغ . وقال قوم : إنّما سمّي بذلك لأنّ اليهود يسبتون فيه ، أي : يقطعون فيه الأعمال . وقال آخرون : سمّي بذلك لما لهم فيه من الراحة . لأنّ أصل السبْت هو السكون والراحة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ [٩/٧٨] ويقال للنائم « مسبوت » لاستراحته وسكون جسده .

والخاسي : البعيد المطرود : يقال للكلب إذا دنا : « إخسَأ » أي : تباعَد ، وانصرفْ صاغراً .

والكلام فيه حذف مضاف ، كأنّه قال : « ولقد علمتم اعتداء مَن اعتدوا في السَّبت » ليكون المذكور من العقوبة جزاء لاعتدائهم ، لأنّ الجزاء يكون للفعل لاللذّات .

* * *

وحقيقة الاعتداء غير مذكورة هيهنا . والذي يدلّ عليه اللفظ هيهنا انّه كان أمراً محرّماً فعلَه في السبت . وتفصيله مذكور في قوله تعالى : ﴿وَٱسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ الآية [١٦٣/٧] .

وعن ابن عبّاس[١] : إنّ هؤلاء القوم كانوا في زمن داود عليه السلام بـ « ايلة » على ساحل البحر بين المدينة والشام ، وهو مكان من البحر يجتمع إليه الحيتان من كلّ أرض في أشهر [٢] من السّنة ، حتّى لايرى الماء لكثرتها ، وفي ذلك الشهر في كلّ سبْت خاصّة . فحفَروا حياضاً عند البحر ، وشرعوا إليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد ، فذلك الحبس في الحياض هو اعتدائهم في السبْت ، ثمّ إنّهم أخذوا السمَك واستغنوا بذلك وهم خائفون من العقوبة، فلمّا طال العهد عليهم ونشأت الأبناء فعلت بسُنّة الآباء واتّخذوا الأموال ، فمشى إليهم طوائف من أهـل المدينة الذين كرهوا الصيد في السبت ونهوهم فلم ينتهوا وقالوا : « نحن في هذا العمل منذ زمان ، فما زادنا إلاّ خيراً » فقيل لهم : « لاتغترّوا فربما نزّل بكم العذاب والهلاك » فأصبح القوم وهم قِردة خاسئين [ظ : خاسئون] فمكثوا كذلك ثلاثة أيّام ثمّ هلكوا .

وعن ابن عبّاس أيضاً [٣] : وكانوا يتعاوون [وبقَسوا] ثلاثة أيام لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا ، فأهلكهم الله تعالى ، وجاءت ريح فهبّت بهم ، وألقتهم في الماء ، ولم يتناسلوا وما مسخ الله أُمّةً إلاّ أهلكها .

فهذه القِردة ليست من نسل أُولئك الممسوخين . واجماع المسلمين على أنّه ليس في القِردة والخنازير من هو من أولاد آدم ، ولو كانت من أولاد الممسوخين لكانت من بني آدم . خلافاً لأهل التناسخ . فانّهم زعَموا انّ من الحيوانات ـ كالكلب والخنزير والقِردة ماهو من أولاد الناس الممسوخين .

ومنهـم من زعَم انّ جميع الحيوانات نشأت من الإنسان . قالوا : انّه باب

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/ ٥٥٣ .

٢) تفسير الفخر الرازي : فى شهر من السّنة .

٣) مجمع البيان : ١/ ١٢٩ .

الأبواب . كل نفس تعلّقت أوّلاً ببدن إنسان ، فإن استكملت بالعلم والعمل تجرّدت إلى عالَم الملكوت . وإلاّ انتقلَت إلى بدن حيوان تُناسبه في الخَلق ، وتردّدت في الأبدان إلى أن يزول عنها الهيئات ، فنجَت إلى ذلك العالَم .

* * *

والغرض من ذكر هذه القصّة ـ والله أعلم ـ أمران : أحدهما معجزة رسول الله ﷺ ، لأنّه لم يخالط القوم ولم يقرء الكتب . فدلّ ذلك على أنّه عرف من الوحي.

والثاني الإنذار والتخويف ، لئلا يغترّ أحد بالإمهال والتأخير في إنزال العقوبة

وقوله : ﴿ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال صاحب الكشاف : « هما خبران . أي : كونوا جامعين بين القردية والخسؤ . وهو الصِغار والطَرد » .

فصلٌ

واعلم انّ الأمر من الله على ضربين : تشريعيٌّ ـ وهو المعروف ، كقوله [تعالى] : ﴿ كُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ [٩/١١٩] ـ وتكوينيٌّ ، كقوله : ﴿ كُنْ فَيَكُون ﴾ [٢/١١٧] . والمراد هيهنا المعنى الثاني . لأنّهم ما كانوا قادرين على أن يقلّبوا أنفسهم على صورة القِردة ، فيكون أمراً تكوينيّاً .

ومن هذا القبيل كلمة الله قد يكون ألفاظاً ، وقد يكون ذواتاً جوهريّة . كقوله: ﴿ وَكَلِمَتهُ أَلْقَيهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْه ﴾ [٤/١٧١] وقد مرّ في المفاتيح[1] تحقيق الكلمة والكلام ممّا لا مزيد عليه .

---

١) راجع الفاتحة الثالثة من المفتاح الأول .

فصلٌ

[هل الآية تنفي القول ببطلان التناسخ ؟]

وهيهنا بحث عقلي وهو أنّ التناسخ ممتنع بالبراهين القويّة كما أوردنا في الكتب الحِكمية . فهيهنا إن كانت النفس باقيةً والصورة متبدّلة فهو بعينه التناسخ ـ وهو محال كما عرفت ـ وإن كان الشخص الذي كان إنساناً قد عُدم ووُجد شخص من القِردة ، فكان إهلاكاً للبعض من الناس وإحداثاً للبعض من القِردة .

وقد يدفع الإشكال بما روي عن مجاهد[1] انّه سبحانه مَسَخَ قلوبهم ـ بمعنى الطبْع والختْم ـ لاانّه مسخ صوَرهم ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [٦٢/٥] ونظيره أن يقول الأُستاذ للمتعلّم البليد الذي لاينجع فيه تعليمه : «كُنْ حماراً» .

واحتجَّ على امتناعه بأمرين : الأول انّ الإنسان هو هذا الهيكل المشاهَد والبنْية المخصوصة المحسوسة : فإذا أبطلَها الله وخلَق في تلك الأجسام تركيب القِرد وشكله ، كان ذلك إعداماً للإنسان وايجاداً للقِرد . وكان حاصل المسخ على أنّه تعالى أعدَم الأعراض التي باعتبارها كانت تلك الأجسام إنساناً وخلَق فيها الأعراض التي باعتبارها كانت تلك الأجسام قِرداً . وبالجملة يكون إعداماً وايجاداً ـ ولايكون مسخاً.

الثاني : لو جاز ذلك لما آمنّا في كلّ مانراه قِرداً أو كلْباً أو خنزيراً انّه كان إنساناً عاقلا . وذلك يُفضي إلى الشكّ في المشاهدات .

وكِلا الوجهين في غاية السخافة ، ولايُدفع بهما إمكان التناسخ .

أمّا الأوّل : فلأنّ الإنسان ليس عبارة عن الهيكل والشكل المحسوس ، إذ كثيراً مايتبدّل الهيكل بالنموّ والذبول ، والسمْن والهزال . والشخص بعينه باقٍ

---

١) مجمع البيان : ١/ ١٢٩ .

لايتبدّل ، والباقي غير الزائل . فالإنسان وراء هذا الهيكل ، سواء كان أمراً جسمانياً سارياً في البدن ، أو مختصاً بعضو كقلب أو دماغ . أو أمراً غير جسماني كما يقوله الفلاسفة . وعلى التقادير فلاامتناع في بقائه مع تبدّل شكله إلى شكل آخر .

وأمّا الثاني فلأنّ القدح في اليقينيّات والشكّ في المشاهدات إنّما يلزم لوجوز أن هذا الكلب أوالقرد بالفعل إنسان عاقل . وأمّا كونه إنساناً في وقت ـ وقد انسلخ عن الإنسانيّة وصار كلباًأوحيواناً آخر . فهذا لايوجب الشكّ في المشاهدات كيف وهذا ـ أي القول بالنسخ ـ مذهب جمع كثيرمن الفضلاء ، وينسب إلى أفلاطن وسقراط والأقدمين .

وإن وجّهنا نحن [1] كلامَهم إلى غير مافهمه الجمهور منه ، من أنّ ذلك بحسب النشأة الآخرة ودارالقيامة والبعث ، لافي الدنيا ، فإنّانسلاخ النفس عن بدن طبيعي إلى بدن طبيعيّ آخر منفصل عن الأوّل ممتنع . وأمّا تقلّب القلوب وتحوّل الباطن بحسب رسوخ الأخلاق والملكات من نشأة بشريّة إلى نشأة ملكيّة أوشيطانيّة أو سبُعيّة أو بهيميّة جائزة عند العرفاء المحقّقين، والحكماء الكاملين . وعليه براهين كثيرة ليس هيهنا موضع بيانها .

ومَن لم يعرف حكمة الأقدمين من الحكماء الذين أنوارحكمتهم مقتبسةٌ من مشكوة النبوّة حمّل كلامهم في تناسخ الأرواح وتصوّرها في الآخرة بصور الأبدان المناسبة لأخلاقها المكتسبة في هذا العالَم على مذهبالتناسخيّة المعروف . وشأنهم أرفع من هذا ، بل مذهبهم يوافق مذهب الأنبياء عليهم السلام في أنّ النفوس الإنسانية تحشر في الآخرة على صوَر أعمالهم ونيّاتهم ، ويحشر الناس على صور مختلفة ، وعلى هذا يحمل آيات المسخ والأحاديث الدالّة على ثبوته . ولهذا قيل : « مامن مذهب إلاّ وللتناسخ فيه قدمٌ راسخ» .

* * *

١) راجع المبدء والمعاد للمؤلف : ٣٣٥ و٣٣٦ .

فإذا تقرر ماذكرناه فنقول : انّ ماذكره مجاهد ـ وإن كان غير مستبعد جدّاً وله وجهٌ حسن ـ لالماذكره بعض المفسرين كالإمام الرازي وغيره[1] : « بأنّه مجاز شائع ، فإنّ الإنسان إذا أصرّ على جهالة بعد ظهور الآيات ووضوح البيّنة فقد يقال في العُرف إنّه حمار وقرد . وإذا كان هذا المجاز من المَجازات المشهورة لم يكن في المصيرإليه محذورٌ ألبتّة » ـ بل لما أشرنا إليه من حقيقة المسخ بحسب الباطن والقلب ،كما وجّهنا إليه كلام الأقدمين من الحُكماء . ولكن مع ذلك لاحاجة بنا إلى العُدول إلى ماذكره عن الظاهر المتعارَف .

وذلك لمعنى لطيف نذكره ، وهو انّ مسخ الصورة وتبدّلها على وجهين : أحدهما أن ينتقل النفس من بدن إنسان مثلاً عند موته إلى بدن حيوان آخر حين ولادته وهو المسخ المعروف عند التناسخيّة ـ وهذا باطل عند المحقّقين .

والثاني أن يتحوّل شخص واحد من صورته إلى صورة حيوان آخر كما وقع في بني إسرائيل ـ وهذا جائزٌ لادليل على استحالته .

والسبب فيه انّ الأبدان تابعة للنفوس، والأشكال فائضة عليها من المبدء بوساطة النفوس ، ولهذا مانرى تغيّرات البدن عند تغيّرات النفس ، من الشهوة والغضب والخوف والفرح وغيرهما ، فإذن لااستبعاد من كون بعض النفوس في شدّة خلقها الرديّ وتأكّدها بحيث تؤثّر في البدن تأثيراً شديداً يُشكّل البدن بشكل يناسب ذلك الخلق ، فيكون بمسخ الظاهر تبعاً لمسخ الباطن على وجه الإتّصال .

وهذا ممّا كان في أمّة موسى عليه السلام ، وسبب هلاك ذلك الممسوخ زوال عقله ، فلايمكن تدبير بدنه بغذاء يناسبه ، فيموت بعد ثلاثة أيّام ونحوها .

ودليل استحالة التناسخ لايجري في هذا النحو من المسخ المتّصل، بل يجري في المسخ المنفصل .

---

١) تفسير الفخر الرازي : ١/٥٥٥ .

وإنّما لم يكن هذا المسخ في أمّة محمد ﷺ لعدم رسوخ صفاتهم الرديّة النفسانية على ذلك الحدّ ، أو لعدم قبول أبدانهم وأمزجتهم ذلك التحوّل في الشكل لاعتدال مزاجهم .

* * *

واعلم إنّ مسخ الباطن كثير في هذه الأمّة ، فترى الصوَر صوَر الأناسيّ ، والباطن انقلب إلى غير تلك الصوَر من ملك أو شيطان أو صورة بهيمة او سبُع ، وبالجمله صورة حيوان مناسب لما هو باطنه عليه من كلْب أوخنزير أوقرد أوأسد . وكلّ ذلك يخالف مافطَر عليه الإنسان في مقام بشريّته الطبيعيّة إما عالٍ أو سافلٍ .

ومسخ البواطن قدكثُر في هذا الزمان ، كما ظهَر المسخ في الصورة الظاهرة في بني إسرائيل ، حين جعلهم الله قِردة وخنازير .كما دلّت عليه هذه الآية وغيرها ، ولايجوز حملها على المجاز. وماذكرنا من مسخ الباطن في هذه الأمّة ممّا يشاهده العارف البصيرفيرىالصورة الأخرويّة بعين قلبه لذلكالممسوخ فيالباطن .

ولله في العالَم أعين شاهِدة لمثْل هذه الصورالمحجوبة عن أعين الناس ،كما نقلَه بعض الفضلاء ، عن أستاذه انّهكان في غلَبة الحال ، إذ دخل عليه شخصٌ من عُظماء البلد ، فقال لخادمه : « أخرِج هذا الحِمارَ منالبيت » فتعجَّب التلميذ وانفعل من ذلك الرجل . ثمّ سئل عن الأستاذ : « لِمَ قلتَ كذا وهو فلانٌ ؟ » فقال : « إنّي ماقلتُ إلّاكما رأيت» .

ويدلّ على هذا المسخ أيضاً ماورد في الحديث من قول النبي ﷺ يُخبرعن ربّه في صفة قوم من أمته[1] انّهم : «إخوان العلانية أعداء السريرة ، ألسِنتُهم أحلى من العسَل وقلوبُهم أمرّ من الصبْر» .

بسمه تعالى

الى هناتم ماكتبه المؤلف ـ نورالله مضجعه في تفسير سورة البقرة ويتبعه تعليقات الفيلسوف الالهي المولى علي النوري (ره) وكما ذكرت في القسم الثاني اني لم أجد نسخة مصححة من هذه التعليقات، فاضطررت الى استنساخها مما طبع على حواشي النسخة المطبوعة بطهران رغم ما فيها من الاغلاط والسقطات وليتنبه القراء الكرام ان وضع نقط كهذه (...) يدل على عدم امكان قراءة كلمة او كلمات بصورة صحيحة لكونها غير مقروءة او مطموسة بالكلية فالمرجو من الله الكريم التوفيق لاكمالها واستدراك ما فاتني هناك انشاءالله

ومن الله التوفيق وعليه التكلان

محسن بيدار فر

بسم الله الرحمن الرحيم

ص ٢٠ س ١٥ قوله : جوهر واحد ـ فإنها كلمات الله ، وكلام الله أمر واحد بالذات . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ [٥٤ / ٥٠] وتعدده وتكثره انما هو من جهة متعلقاته التي هي ماهيات الاشياء وأعيانها المختلفة بأنفسها . ومن وجه آخر تلك الارواح التي هي كلمات الهية مترتبة طولا ، ترتبها الطولي لكون المفيض البينونة (ظ : بينونة المفيض) هنا صفة لاعزلية ، تودي الى الوحدة المحضة ـ كما تقرر في محله .

٢ ص ٧٦ س ١٦ قوله : أيضاً موضع تأمل ـ اه ـ وجه التأمل هو انه يكون لكل نبي وولي فرعون يقابله، فالفرعون الذي يقابل الختم في الخلافة يجب أن يكون ختماً في الشقاوة ـ فلاتغفل .

٣ ص ٧٧ س ١٩ قوله : لان علم الله بالأشياء هو عين حقائقها ـ يعني ان علمه تعالى بها عين وجوداتها في العين التي هي حقيقتها التي يترتب عليها أحكامها وذلك العلم مع كونه عين وجود الاشياء في الخارج يكون سابقاً على وجود الاشياء ، ووجود الاشياء تبعاً له . سر ذلك هو كون الاشياء بحسب أنفسها وبقياس بعضها الى بعض كائناً حادثاً ، وبعد أن لم يكن متغيراً زائلا وثانياً (ظ : فانياً) غير باق . ولكنها

بالقياس اليه تعالى أزليات ، سرمديات ، ثابتات باقيات . ومن هيهنا قالوا : ان علمه تعالى الذي هو عين وجود الاشياء ـ بما هو علم أزلي سرمدي ـ غير متغير ، وأما العلوم التي هي أنفس الأشياء بعينها فهي متغيرات ، مداثرات (ظ : داثرات) ، حادثات ، ثانيات . وفيه سرقولهم : « انه تعالى يعلم الجزئيات المتغيرات بوجه الكلية ، بحيث لايعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولافي السماء ـ تلطف فيه فانه من المعارف التيصعب ، مستصعب منالها ، لايمكن . . . الا الاوحدي الفريد فيالله .

ص٧٧ س٢٠ قوله : الموافاة المنسوبة الى أصحابنا اي كون العبرة بالخاتمة انما يؤخذ عن علم الله بحاله انه يتوفى على الايمان او على الكفر .

ص ٧٩ س٣ قوله : الا انالملائكة الارضية ـ قد سبق منه قدس سره المقدس وجهآخر في هذا المقام الذيتحيرت فيه الأوهام واختلف فيه الافهام . محصل ذلك الوجه هوالتفصيل ، بأن يقال : ان اريد من آدم أبونا أبو البشر ومن هو من بنيه من سائر الانبياء الماضين ، فالمراد من الملائكةِ الملائكةُ الارضية . وان اريد منه آدم المحمدي ﷺ ووزيره العلوي وآلهما ﷺ فالملائكة المأمورون هم مطلق الملائكة ـ علوية كانوا أم أرضية سفلية . ولكن الظاهر حينئذ من رأيه قدس سره ان مراده من الملائكة السماوية التي هي الملائكة المدبرات، التي هم أرواح الابدان والاخر العلويات كلها ، فتأمل ـ يعم بحيث يشمل الارواح الالهية الكلية الماهية كما سيصرح به ، سيما روح القدس الاعلى ، المسمى بالمحمديه البيضاء ، وهو عقل الكل المحمدي ، وهو آدم الاول الذي من آدم أبي البشر منزلة الاب من الابن ، ومنزلة المعنى من الصورة ، والكنه والأصل من الوجه والكل والصنم والفرع .

وأما جمهورالحكماء ، فله ايضاً وجه موجه بالقياس الى أمثالنا من الادمي ، اي المنسوب الى الادم ، وبون بين ابن آدم والادمي . وربآدمي ليس بابن آدم بل ابن حمار أو بعير أو خنزير أوقردة . فالمشاكلة في الصورة لاعبرة به ، والا يلزم أن

يكون صورة الادمي في الجدار آدم ، وآدمنا ليس كذلك وذلك ظاهر لايخفى سره على اولي النهي .

ص ٨٠ س ١٢ قوله : وفيه صورة الاسماء كلها ـ يعني مقام روح القدس الأعلى الذي هو امام أئمة الأسماء الحسنى ، او مقام اللوح المحفوظ وام الكتاب ، التي فيها صور حقائق الأسماء ، وكلا المقامين عالم المعاني دون الصور ـ فتدبر .

ص ٨١ س ٣ قوله : عن الفطرة الاصلية ـ هي صورة الأسمائية التي هي فطرة التوحيد لله التي فطر الناس عليها ، وهي الادمية الاولى والادمية الحقيقية التي تسمى بالمحمدية البيضاء ، ومعرفتها بعينها معرفة الله تعالى في مقام الخلافة الالهية ـ فاحسن التأمل فيه .

ص ٨١ س ١٦ قوله : بخلاف صور الجنة الاولى ـ ان قلت : فالصور البداياتية ماذا؟ قلت: حسبما تقتضيه القواعد العلمية والمدارك البرهانية ، يمكن أن يقال انتلك الصور تمثلات المعاني التي تتضمنها الاعيان الثابتة ، متقررة في صقع من العلم الازلي ، فكل عين من الاعيان في عالمه الامكاني المقرر في ذلك الصقع الالهي لها هيئات وصفات ذاتية ، في قوس التنزلات ـ في كل منزل بما يناسبه ـ فافهم

ان هذا الذي احتملنا هيهنا من حال الصور البداياتية لاينافي ما سيجيء من المفسر ـ ره ـ من كون كل منزلة من الاخروية عين مايقابلها من المنازل الابتدائية ـ كما يعرفه أهل العلم .

ص ٨٢ س ٦ قوله : ويكاشف البرزخ ـ سر ذلك هو تمكينه من الانسلاخ عن جلباب الدنائس العنصري ، والعروج الى ملكوت هذه السموات الذي هو محل الهندسة القدرية ، المسمى بلوح القدر العملي وبلوح المحو والاثبات . فيقرء ويشاهد من ذلك اللوح النفساني المثالي مثال الرؤيا الصادقة ، يرى كل شخص بعين شهود الملكوتي الصوري الخيالي وذلك اللوح هو لوح خيال الكل ـ فتأمل جداً .

ص ٨٦ س ١١ قوله : واعلم ان كل شهادة مطابق ـ الى قوله ـ زوج تركيبي

ـ حسبما وجد في بعض النسخ الذي هو الاصح [1] ـ متصل بقوله . « واستقامت » وهذا الاتصال هو المناسب الملائم لرواية الحسن عن رسول الله ﷺ المنقولة سابقاً ـ كما لايخفى .

ص ٩٤ س ٢٠ قوله : كان الشيطان من جملة أسباب التقدير ـ اه ـ اشارة الى كون القضاء ملاك الخير لاغير ، والى كون القدر ملاكاً للشر الذي هو خير في نظام القضاء ، لكون القدر طفيل القضاء في النظام الاكبر . فالشيطان مطيع في القضاء عاص في القدر ـ فاحسن التدبر .

تو هر نيك وبديرا مى نزن دم * كه هم ابليس مى ماند هم آدم
از حكيم ايعزيز بدنايد * آنچه او كرد آنچنان بايد
ديدهٔ پاك اينچنين بيند * نازنين جمله نازنين بيند
پيرما گفت خطا برقلم صنع نرفت * آفرين برنظرپاك خطا پوشش باد

يعني ديدهٔ پير ديدهٔ قضا بين است ، قدر را مستهلك در قضا ديده است .

ص ٩٥ س ١ قوله : لايقبل الشركة ـ اه ـ نعم ماقيل :

بلى سلطان معشوقان غيور است * زشركت ملك معشوقيش دوراست
نميخواهدچه‌زانجام وچه زآغاز * درين منصب كسى را باخود انباز

ص ٩٥ س ٦ قوله مستصلحاً لعمارة الدارين ـ لكل نفس وجهان ، وجه يلي ربه ، يسمى في ألسنة الرمز بـ« داعي النور والحق » . ووجه يلي نفسه ، يسمى فيها « داعي الظلمة والباطل » المسمى بالشيطان كما وقع ونزل بلسان الوحي : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَانُ ﴾ [١٨/٦٣] فمن هنا قد يعبر عن انانية الانبياء ﷺ بالشيطان ،

---

١) الصحيح ماأشار اليه المحشي ـ ره ـ غيران المصنف ـ ره ـ أضاف هذه الفقرة في نسخته التي كتبها بيده الشريفة في الحاشية ، فاشتبه موضعها على بعض النساخ وأتوا بها في آخر هذا الفصل .

ومرجعه ماتقرر فيما قبل منه .

ص٩٦ س٩ قوله : من أجزاء أرضية سفلية ـ اه ـ اذ الأرض ضعيف الخلقة ، والسماء شديد الخلقة ، وقوة الخلقة وشدتها تنافي كونها مادة عمارة والاخرة (؟) اذ المادة مالايأبى عن وجود الصورة فهي ملاك صحة وجود الصورة وقوة الوجود وشدتها تأبى من التأثر والانفعال والانكسار. وأما الارض فلما وقعت في صف النعال من الكون ولاابائية لها . ومن هيهنا توصف السموات السبع بـ « السبع الشداد » .

ص ٩٦ س ١ قوله أربعين حجاباً ـ بأمر الحكمة البالغة اخذت فيضات تسع من العلويات وفيضة واحدة من المادة العنصرية ، فأدار تلك الفيضات العشر في مدارات أربعة ، الجمادي، والنباتي، والحيواني، والحيواني الانساني ـ صار حاصل ضرب العشرة في الاربعة أربعين صباحاً وحجاباً وقوة من القوى التي عمارة هي مبادى الاخرة ومباني عمارة الدنيا . حتى تنتج من العمارتين نتايج نشأتها فوق النشأتين . كما اشير اليها في قوله تعالى : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [١٢/٢٠] فكل من أراد أن يدخل الواد المقدس قبل أوانه الذي بعد خلع النعلين يطرد بجواب « لن تراني » الى أن يحين ويحضر وقته كما قال تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [٩/٥٣] فأين وأنى « لن تراني » من مقام « من رآني فقد رأى الحق » .

ص ٩٦ س ١٣ قوله : اذ لو لم يخرج عنها ـ اي كالملائكة الذين هم سكان عالم الجنة ولم يتعلق أرواحهم مثل الأرواح البشرية بالابدان العنصرية، ولم ينصلحوا لعمارة الدنيا ، بل ولم ينصلحوا لعمارة الاخرة ، مثل انصلاح آدم و . . . كما تقرر في محله .

ص٩٧ س٤ قوله : الى مقام ـ اه ـ ذلك المقام هو مقام أصل فتلك الحجاب ان لكل حجاب أصلا في العوالم الاعلى ثم لذلك الاصل أصلا في عالم الاسماء

وله في عالم حقيقة حقائق الاشياء التي هي أصل الاصول في الوجود ، وهو حضرة المعبود الحق ، الغني المطلق ، فكل فرع هو صنم أصله الذي يحكى عنه ويدعو اليه فكل حجاب عن حضرة الحق انما هو باب من أبواب الحق ، فاذا أخذته من وجهه يصل بك الى الحق والى قربه الذي هو ، وكذلك الأصلي .

ص ٩٩ س ٧ قوله : وحد ذلك العالم - هيهنا العالم النفساني ، المسمى في وجه بـ«الملكوت الصوري» و«الخيال الكلى» و«اللوح الصوري العلمي» وفي وجه آخر أعم مما ذكريعني عالم النفس الكل التي بمقاميها المترتبين في الوجود منزلتها من العقل الكلي وعقل الكل منزلة اللوح من القلم الاعلى ، ومنزلة حوا من آدم الاول المسمى بـ«المحمدية البيضاء» كما ان النفس الكل تسمى بـ«العلوية العلياء» . ومن هنا قال ﷺ : «ياعلي أنا وأنت أبوا هذه الأمة» يعني البرية والخليفة كلها . وكما ان للوح مقامين مترتبين ، كذلك للقلم المقام الأعلى وهو القلم الابيض . والمقام الاسفل وهو القلم الاصفر والدرة الصفراء . كما ان القلم الأبيض هو درة البيضاء فالفلك العرشي المحيط بالكل هو الوجود الثاني لعقل الكل المسمى بالقلم الاعلى ومنزلة وجود الثاني من الأول منزلة الجسد واللفظ من الروح والمعنى والفلك الكرسي المسمى بالفلك البروج (ظ : بفلك البروج) وفلك الثوابت وفلك المنازل كما هو المشهور بين الجمهور ايضاً هو الوجود الثاني لنفس الكل المسمى بام الكتاب والكتاب المبين ، واللوح المحفوظ ، والامام المبين ﴿وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ وأما السموات السبع والارضين السبع فهما بمنزلة نوع من التفصيل بالقياس الى العرش والكرسي . وشرح المقام لايكفي فيه أمثال هذا الاجمال . «لكل مقال مقام ، ولكل مقام منال» .

ص٩٩ س١٨ قوله : احتاجوا الى العمل من غير ارادة منهم - يحتمل رجوع الضمير الى من ساء عمله ، ويحتمل الاعم ولا يتجه الا بتأويل - فلا تغفل .

وعلى التعميم ينبغي أن يراد من الارادة المحبة التي تقابل الكراهة ، لاالارادة التي اريد منها في العمل الاختياري ـ سواء كان مع الكراهة والمشقة أصلا ، كما في حق تعالى . . . من الاولياء وأهل الله تعالى ـ أحسن التأمل .

ص ٩٩ س١٤ قوله : هو موضع الحساب ـ اي القيامة الوسطى التي هي تقوم بنفخة الفزع في كل اسبوع هو سبعة أيام من الايام الربوبية ، ويعاد الاجسام الدنياوية التي ماتت بمفارقة النفسانية الملكوتية عن الابدان العنصرية الى أرواحها ويبعث من الاجداث . وتنقلب الانفس الملكوتية الصورية الى الارواح اللوحية المدبرة ثم عند القضاء (ظ : قضاء) سبعة أسابيع ومدة خمسين ألف سنة تقوم القيامة الكبرى بنفخة الصعق ، وينقلب اليوم الربوبي الى اليوم الالهي الذي اليه ينظر قوله تعالى : ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ثم ينفخ نفخة ثانية يحيى بها كل من فنى بنفخه ، ويتجلى سبحانه بالتجلي الاعظم ويظهر المظهر الاعظم المسمى بالروح الاعظم ، ويفوض اليه أمر عبادة الاخرة التي هي دار الخلود وموطن الابود ، فيباشر ذلك الروح الاعظم ايصال أهل جنة الخلد اليها ، وأهل النار الى دار خلدها . ودار الخلود هي دار الجزاء الموعود والوعيد. هذا هو مشرب صدر المحققين صاحب هذا التفسير ، والامر على ما حصله وحققه خطر خطير ، قل من يتمكن من نيله كما هو حق مناله . . .

ص ١٠١ س ٦ قوله : وكقوله له : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ اي : شغلكم التباهي بالكثرة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ حتى اذ استوعبتم عدد الاحياء صرتم الى المقابر فتكاثرتم بالموتى أما قوله تعالى : ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [٢٠١/٨] فحاصله عن كل نعيم ، سيما عن رسول الله ﷺ وأهل بيته ، الذين هم جامع جوامع النعم ، نعماء الدنيا والآخرة ومعدنها الذي هو المبدء والمعاد ـ فلاتغفل .

ان عالمنا هذا هو عالم الكثرة ، المعبّر عنها بالمقابر ، فزيارة هذا العالم كائنة

بعد العالم يكون مسبوقة بالوجود في عالم آخر ـ فتدبر .

ص ١٠٢ س ١٤ قوله : والزعفران ـ كناية عن عالم الدرة الصفراء ، عالم رقائق المعاني ، المسبوقة بحقائق المعاني .

ص ١٠٣ س ١١ قوله : حبل شعاعهم ـ ذلك الحبل حبل الله المتين ، الذي هو تجليات أنوار الارواح الالهامات النبوية والولاية ، وتلك التجليات التي هي أشعة شموس بواطن الانبياء والاولياء الاوصياء ﷺ على بواطن أشياعهم الذين هم الاولاد الروحانية للانبياء ، انما هي روابط اتصالية ، ووسائط ارتباطية بين الانبياء وقلوب أتباعهم ، الذين هم أشعتهم ﷺ ، وتلك الروابط روابط ايجابية وافاضات ايجادية ... بواطن أصحاب القرب ، وبنشرح بها صدور أرباب الافئدة ، وهي خيوط . . . متدلية من ذروة عرش الولاية الى أرض قلوب أتباع الولاية ، وأشياع النبوة .

ص ١٠٧ س ٢ قوله : ففي الانسان كلمات الانسان ـ اي العقل الجزئي الذي هو رأس من رؤوس العقل الكلي الالهي المسمى بالمحمدية البيضاء . وهو آدم الاول والقلم الاعلى .

ص ١٠٧ س ٢ قوله وكلمات الانسان النفسي ـ اي النفوس الجزئية التي هو وجود نفس الكل ، المسمى بالعلوية العلياء ، وهي حواء الاولى ، واللوح الاول ، الذي هو ام الكتاب .

ص ١٠٧ س ٣ قوله : كلمتي ـ اي الكلمتين الكليتين الالهيتين اللتين احديهما آدم الاول والاخر [حوا] الاولى كما أشرنا .

ص ١٠٧ س ٨ قوله : كانت الملائكة ـ وفي وجه من الاعتبار ينبغي أن يقال : ان الملائكة الجبروتية العقلانية مأمورون لسجود الانسان العقلي ، والملائكة النفسانية الملكوتية مأمورون لسجود الانسان الملكوتي النفساني ، والملائكة السفلية الناسوتية مأمورون لسجود الانسان السفلي . والكل في وجه يسجدون حقيقة للانسان العقلاني

الذي يعبّر عنه برب النوع الانساني ، الذي هو آدم الاول ، والانسان الالهي .

ص ١١١ س ١ قوله : فلابد في تكثير هذا النوع ـ الى قوله : ـ من التوالد والتناسل وقع موقع الجواب عن قوله : «لما لم يجز وقوفها عند حد» الى آخره .

ص ١١١ س ٦ قوله : كان العقاب أبدياً والخلاص مستحيلا ـ هذا منه نوّرالله مضجعه الشريف مخالف صريحاً لماسبق منه في هذا الكتاب واشتهر منه حسبما اختار في كثيرة من كتبه المعروفة من البالغ الى مذهب محيي الدين المعروف من القول بانقطاع العذاب بمعنى الايلام والالم على طوائف الكفار المخلدين في دار النار فلا تغفل .

ص ١١٢ س ١٦ قوله : لكن النبي واجب الاتباع ـ ظاهرة كما يرى . اذ وجوب الاتباع بعد البعثة لاينافي حرمة الاتباع قبلها . لعل المراد منه انه لما صدق بعد البعثه ايضاً كونه مذنباً ايضاً في الجملة ، صدق حرمة الاتباع ايضاً كذلك. لعل سر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [٩٩/٨] وسر السر كون التدارك عن تقصيرها محالا . والتدارك بوجه التوبة يستلزم صرف نفس آخر من أنفاس العبد بدلا عن هذه النفس التي قصّر فيه وفي كل نفس يكون العبد مكلفاً بتكليف يختص به فيلزم من صرف نفس آخر موقع هذا . . . موضعه كما يختص به ـ كما لايخفى هيهنا ، اذ له قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ .

ص ١١٢ س ١٨ قوله : لقوله تعالى : ﴿ اِنْ جَائَكُمْ فَاسِقٌ ﴾ [٩/ ٦] الاية هذا ايضاً كما ترى ، اذا العصمة بعد البعثة يصحح قبول الشهادة بعد البعثة . نعم في المقام سر آخر يمنع عن الذنب مطلقاً كبيراً ، صغيراً ، عمداً ، سهواً . وهو كون فطرة الانبياء المبعوثين بالشرايع الالهية مستكفيه ، ملازمة لشهود البرهان النازل من عند ربهم الاعلى ، كما يشير اليه قوله تعالى : ﴿ لولاَ أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّه ﴾ [١٢/ ٢٤] ولكن شهود البرهان لايجعل الانبياء مضطربن في الطاعة حتى يكون صدور المعصية

عنهم محالا وممتنعاً بالذات ، بل بقي بعد كونهم مختارين .

ص ١٢٩ س ٩ قوله : وحقيقة الانابة - اي حقيقة الندم السير والسلوك الى عالم العند ، وذلك العالم هوعالم نوراقه . . . لجميع ظلمات الحجب الوهمية ، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [٥٣/١٦] والسدرة هي حبه الموسىٰ ، حُبة الكمل من الانبياء والاولياء والحكماء المتألهين .

ص ١٢٩ س ١٠ قوله : سبحانك وبحمدك - كأنه نزل منزلة النشر على الترتيب . وقوله « لاإله الآأنت » منزلة اللف قبل النشر . ومحصل النشر هوالجمع بين التنزيه والتشبيه ،كما هو وظيفة الانبياء . فالعارف ما لم يستغرق في شهود الجلال لم يتمكن من شهود الجمال . اذا التخلية مقدمة على التحلية .

قال ﷺ : ان الله تسعه وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة . وهي جنة المأوى: جنةالقرب . ولاأقرب من الله تعالى من محمد حبيبهﷺ الوارثين بكماله .

ص ١٣٠ س ١ قوله : مكتوباً على العرش - الى آخره - قال جل من قائل : ﴿ حمٓ ۞ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۞ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [٤٤ / ١ - ٥] حم : محمد . والكتاب المبين : أميرالمؤمنين . وليلة مباركة : فاطمة . فيها يفرق كل أمرحكيم : امام بعد امام من بطن فاطمة . والقرآن نزل من العرش الى الفرش . . . الفرقان . والعرش له منازل مترتبة نزولا . وهوالمظهر الجامع . ومحمد هوالظاهر الجامع ، وهواسم الله الاعظم وأئمه الاسماء الحسنى - فلا تغفل .

ص ١٣٠ س ٩ قوله : اشارة الى ماأولنا أولا - يعني اذ قال: « وتلك الكلمات كلمات الله التي لاتبيد ولاتنفد أبداً » الى آخره - توسل آدم بهم . . . الوسيلة التي اكتسبها آدم في هذه النشأة التي هي دار الكسب والاكتساب . وتلك الوسيلة هي الرابطة الاختصاصية التي قد يعبّر عنها بالمودة . كما قال تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ

[عَلَيْهِ أَجْرًا] إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [٤٢/ ٢٣] وقد يعبر عنها بالتولى بولايتهم وبما ضاهاها ـ فافهم .

ص ١٣١ س ٦ قوله : الم تخلقني بيدك ـ اعلم ان يدي الله هما الاسماء الجمالية والجلالية ، وآدم مخلوق بيديه تعالى ، ومنزلة الاسماء منزلة الربوبية ، وآدم مخمر بيديه وقال الصادق عليه السلام [1] : العبودية جوهرة كنهها الربوبية ـ فافهم .

ص١٣٢ س٣ قوله : توجه بوجهه ـ انالتوجه الى الله تعالى لهومحوالموهوم من قِبَل العبد . وتوجهه تعالي الي العبد لهو صحو المعلوم · ولقد جمع بينهما قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [١٧/٤٤] التسبيح تنزيه بمحوالوهم والحمد تشبيه بصحوالفهم . حاصله محو آيه الليل وصحوآية النهار. ولقد أنشدت فيه رباعية وهي هذه :

بر بام فلك طبل معما زده اند * طبلى بنواى لا والا زده اند
ازنكته محو وصحو گوياحرفى * درپردهٔ روز وشب بايمازده‌اند

ولقد تقرر في جملة ان البشرية في عين التشبيه هو سيرة الأنبياء . والتسبيح جلالي ، والتحميد جمالي . والتسبيح تجلية وتصفية .

ص١٣٣ س ١٢ قوله : للاتصال بها ـ وان شئت أن تتمكن من معرفة هذا الاتصال ومن تصويره وتصويره في عالم الصورة على وجه جرت المثال فاعتبر بحال المرايا المتعددة الموضوعة في مقابل الشخص الواحد حيث تتراءىٰ في كل مرآة من تلك المرايا صورة من الشخص المتجلي عليها ، فترى صوراً متعددة كل صورة في مرآة ، وذوالصورة الظاهر بهذه الصور الكثيرة واحد بالشخص غيرمتغير بتغير الصور وغيرمتكثر بتكثرها ، ولامتجزء حيث تكثرها وتعددها ، وغيرذلك مما ينافي وحدة الشخص وثباته وبقائه بحاله .

---

١) مصباح الشريعة : الباب المأة .

ولو تحققت بما ألقينا اليك في هذا الضرب من المثال لاقتدرت وتمكنت من رفع ما اعترض واورد الشيخ الرئيس ابن سينا وأمثالـه وأتباعة على هذا الاعتبـار والاتحاد الذي ... أساطين الحكمة وسلاطين ملك المعرفة . ولقد قرر ... وصدقهم ألسنة القرآن والتنزيل كما اوضحنا السبيل ، وأشرنا الى السر الدليل ، ولكن الحق درك حقيقة الاتصال وادراك كيفية حاله صعب مستصعب المنال . كيف لا وقد جهله وأنكره رؤساء القوم الذين هم أئمة الفلسفة المشهورة فلاتغفل .

والسر فيه ان للجوهر المفارق الفعال الفياض علينا بافاضة الصور العلمية على قلوبنا وجوداً وحصولا لنا . والحصول لنا هو اتصالنا واتحادنا به . ذلك الحصول الاضافي هو حصول الصور العلمية وصدورها عنه لنا وفينا . فوجود هذه الصور ـ النورية العقلية الفائضة عنـه عند صيرورتها ملكة جوهرية لنا يصير ملكـة اتصالنا واتحادنا به . فانا نتحد معه في الوجود . اي في الوجود الاضافي الفائض عنه علينا لافي وجوده الحق الحقيقي الذي هـو وجوده في نفسه الفياض علينا . اللهم عند صيرورتنا عقلا محضاً ، ونوراً صرفاً ، فعالا فياضاً ، بعد أن كنا جوهراً نفسانياً منفعلا مستفيضاً ، وعند ذلك يتحد معه في وجوده في نفسه . ويصير حينئذ جوهراً قدسياًالهياً عقلا فياضاً جبروتياً باقياً ببقاء الله تعالى . محشوراً لله سبحانه ، فانياً عن وجودنا ، خارجاً عن أنفسنا ، داخلافي عالم الحق وعالم أمره الذي هوخارج عن عالم الخلق والحاصل ان لنا أن نصعد بأرواحنا بوساطـة العلم والعمل الى عالم القرب ونحشر مع المقربين من الروحانيين الالهيين ، ونصير من زمرة العالين ـ فالحمد لله رب العالمين .

* * *

كمـا قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُـهُ ﴾ [٣٥/١٠] والصعود اليه تعالى هوذلك الارتباط والاتصال بالعقل الفعال الذي قال

به أساطين الحكمة . ولقد قل من وصل اواتصل الي حق مرادهم من مقالهم هـذا وأمثاله ، ودليل الوصول هو ماأشرنا اليه والهداية أمرمن لديه .

ص ١٣٧ س ٥ قوله : يران ـ من الرين . والاظهرهو« ليغان قلبي » اذ«الرين يلازم الرسوخ ، وهـو ﷺ منزه عنه . وأما « الغين » فكأنه من باب الخطورات والخيالات التي هي حجب عن الاستغراق في شهود الانوار. ليس المراد الوساوس الظلمانية الجهلانيه ، بل المراد خيالات عقلية وصور نورانية حاجبة عن شهود عالم المعاني ـ فلا تغفل

ص١٣٧ س١٦ قوله: فانالنبي من فرط ـ يشهد لما قال وأفاد ـ قدس الله روحه المقدس ـ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [٩٤ / ١ ـ ٣] اذذلك الوزر هـو يضيق عليه عن أن يسع الحق والخلق جميعاً . وعن أن تفى قوته وسعته . . . الجانبين معاً .

ص ١٣٩ س ٢١ قوله : ومعنى قول القائل ـ اه ـ كأنه تعريض ماذهب اليه الاشاعرة المنكرون للحسن والقبح العقليين .

ص ١٤٠ س ٩ قوله : بكونه محجوباً ـ كأنه بيان معنى اعراض عن الله .

ص ١٤٠ س٢١ قوله ﷺ فان تركها ـ هذا الترك بعينه الانابة الى الله . والتوبة هو معنى الانابة . ومن هيهنا ناسب ذكر هذا الحديث في مقامنا هذا .

ص ١٤١ س ٢١ قوله : لابمعنى ان العلم بخلقة العبد ـ . . . والحق الحقيق بالتصحيح والتصديق هو أن يقال : ان محصل معناه لايعني ان العبد بخلق العلم بذاته في نفسه ، وان ذلك ـ اي: كون العبد خالق العلم في ذهنه ونفسه ـ محال ضروري البطلان . بلى الخالق للعلوم والصور العلمية في ذهن العبد ونفسه ، وخالق سائر الاحوال والأعمال في نفس العبد وذاته : هو الله تبارك وتعالى ، ولكن على وجه يقول به أهل الحق الذين اقتبسوا أنوارعلومهم الحقيقية من مشكوة النبوة والولاية ، فحاصل ترجمة

العبارة «لا بمعنى ان العلم بايجاد العبد واحداثه اياه في نفسه وذهنه» وحينئذ ينبغي أن يقال بدل «وحدوثه» «واحداثه» .

وبالجملة فحق معنى هذه العبارة هو هذا ، بقرينة قوله : بل العلم والقدرة ـ الى آخره ـ الصريحة المصرحة بكون المراد هو هذا . وان سامح ووقعت المسامحة منه في حق العبارة ، ولم يأت بحق العبارة ، لكن . . . ظهور المدعى سهل ـ كما لا يخفى .

ص١٤١ س٢١ قوله : لابمعنى ان العلم بخلقة العبد وحدوثه ، فان ذلك محال هذا بظاهره كما ترى ، فلو كانت النسخة الاصل هذه لعل معناه ان ذلك العلم لما لم يكن له دخل وسببية وعلية لامثال هذه الاحوال والاعمال، فلايدخل تحت الوجوب الشرعي مقصود هيهنا لان هذه العلية والسببية محال بخلاف العلم الذي له دخل وعلية فانه يجب تحصيله شرعاً . . . . الحكماء هو كون الترتيب مؤدياً الى الوحدة اي الى كون العلة واحدة حقيقة ، وتلك العلة الواحدة هي ذاته تقدس وتعالى عن الشريك في خلقة الاشياء والاستعانة بها .

وأما قول أهل الحق هو الجمع بين الحقين ، والامر بين الامرين . ونيل ذلك الجمع كما هو حقه صعب مستصعب قل في الاعصار من يتمكن من أداء حقه . وقد مر مراراً في هذا الكتاب المستطاب اجمالا وتفصيلا .

ص ١٤٢ س ٥ قوله : زعمه المعتزلي ـ ان المعتزلي هو المشرك بالشرك الجلي . وأما الحكيم الجمهوري فهو تنزيهي فقط لايتمكن من الجمع بين التنزيه والتشبيه ، وبين الوحدة والكثرة . وأما الاشعري فعليه مفاسد لاتحصى أقلها انكار مقتضى بديهة العقل من جهات شتى لاتكاد تحصى ـ فلا تغفل .

ص ١٤٣ س ١ قوله : وغسله بماء الدموع ـ قلت فيه رباعية بالفارسية :

دل من آتش عشق افروز است　*　ماه شب تار وآفتاب روز است

بر باد ده خاك گناه است فردا * اين گريه كه روى آب امروز است(؟)

ص١٤٣ س٩ قوله : فكأنه لم يعرف ـ اه ـ وذلك كما هو سجية فطرة من أنكر كون الحسن والقبح في الاعمال وما يتعلق به الامر والنهي عقليين ، وكانه يقول بانه لاربط ولااتصال ولاارتباط عقلا بين الاعمال ونتائجها المقررة من عند الشارع بوجه اصلا ـ فافهم .

ص١٤٣ س٧ قوله : ان القلب يتأثر بالمعاصي ـ كيف لاوقد قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [٨٣/١٤-١٥] وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [٨٣/٧-٩] وقال في باب الطاعات وتأثر القلب بآثارها : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [٨٣/١٩-٢٠] .

ص ١٥٥ س١٥ قوله : ان لك منه غطاء ـ ان الغطاء الذي هو غير غطاء البدن المعروف عند العامة هو البدن المثالي الصوري . . . النوري الجناني الذي الانسلاخ والانخلاع عنه صعب مستصعب جداً . اذ الانسلاخ عن هذا البدن المحسوس العنصري ضروري الوقوع بحلول الموت وان كلف العبد بالانسلاخ عنه ايضاً بالارادة والاختيار ولكن المهم المعظم هو الانسلاخ عن البدن النوري المستصعب انسلاخه . لايتمكن (ظ: ويتمكن) العبد من الانسلاخ عنه بضرب من المجاهدة والرياضة الخاصة المختصة باهل السلوك الى الله تعالى . كما امر موسى بن عمران بقوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [٢٠/١٢] وبالجمله فالسالك الى الله لابد من طرح الكونين وخلع النعلين حتى يتمكن من الرجوع الى الله وينصلح للدخول الى عند الله ، التي هي لب لباب الحيات ، كما أضافها الى نفسه سبحانه في قوله : ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [٨٩/٢٩] وتلك الجنة الالهية هي الجنة الحقة الحقيقية

التي سائر الجنات [1] من الروحانية والجسمانيه ، وهي المتجلية بصورها ، فمنها مبدئها واليه مرجعها ، ومنزلتها منزلة امام الائمة في الأسماء - فلا تغفل .

ص ١٥٦ س ٣ قوله : في الثلث الاخير منه - وأما اختصاص النزول بالثلث الاخير هومنصوص بالنص انصلح (ظ : الصحيح) الصريح ، وقداشتهر بين الاصحاب بالتجربة في هذه الاجابة بهذه الساعة ، وقد تعرضوا لتعيين هذه الساعة بالتصريحات التي في تعيينها واردة في الاخبار هيهنا ويبنونها في تعيين كتبهم الفقهية وفي سائر الكتب الاختصاصية بهذه المقامات مثل الكفعمي والاقبال وأمثالهما .

ص ١٥٦ س ١١ قوله : فجنوا من غير جنون - الى آخره - فيه حكاية ماعن قول قبله العارفين علي عليه السلام بوجه من الله والصواب من الاشارة ، حيث قال في الكشف عن خصال الكلية الالهية المعبر عنها في ألسنة اخواننا بالعلوية العليا وشجرة طوبى وجنة المأوى و . . . الله العليا ، بقاء في فناء ، النعيم في شقاء ، غنى في فقر ، عزّ في ذلّ ، صبر في بلاء . وهذه الطريقة الوسطى الجامعة بين الأطراف المتباعدة المتضادة المتقابلة ، يعبّر عنه في باب السير والسلوك الى الله بالصراط المستقيم ، وقد فسر هذا الصراط بعلي أمير المؤمنين عليه السلام ، ويسمى بصراط التوحيد .

ص ١٦١ س ١٢ قوله حين صارت منفوخا فيهما روح الله - النفس المنفوخ فيها هي الجسد ... الصوري المثالي ، وهو القالب الجناني من آدم عليه السلام ... النفخة الروحية الالهية ، فهي الموجود بالوجود ... الاعلى ، المسمى بالجبروت ، فهما - اي الروح والقالب الملكوتي مخلوقان مترتبان . . . في العام بالدهر المطلق وان كان دهر الروح هو الدهر الايمن ، ودهر القالب هو الدهر الايسر والايسر هو المتأخر ، مع كون نفخه الروح في القالب فرع وجود القالب قبلا . ورفع الاشكال وحل عقدته هو كون القبل والبعد في الدهر واحداً - تثبت فيه ، فاين (ظ : فانه) مشكل جداً .

---

١) الظاهر وقوع سقط في العبارة .

ص ١٦١ س ١٣ قوله : وبالقالب الى هذا العالم ـ لو اريد من القالب هيهنا الملكوتي منه فلااستقامة له ، اذ هذا الهبوط انما هو بعد تناول ثمار الجنة ، فلابد ان مراده منه القالب الجنيني في رحم الام ، ويريد من الهبوط بالقالب الى هذا العالم الخروج [من] بطن الام الى فضاء الخارج عن الرحم ، ولكن توجيه بهذا الوجه لايستقيم في حق شخص آدم أبي البشر ، فقيد بترجمة ، وهو كون منزلة بني آدم عليه السلام من منازل نفس آدم كالولد سر أبيه ، فالحكم يسرى . وفي المقام سر آخر ألطف مما اظهرنا ، ولامجال هيهنا لبيانه .

ص١٦٥ س ٢ قوله : بعد وجود المبادي والاسباب ـ . . . البداء الذي قال به أصحابنا الامامية . . . لكل ماقال به أئمتنا وسادتنا الذين هم أئمة الكل في الكل وسادة الجل والقل عليهم السلام ، انما هو بيد من بيده مفتاح هذه الضابطة الموروثة عن أساطين العلم والحكمة . اذ اس الاسطقسات في بناء البداء وقاعدة البدائية الموروثة عن معادن العصمة والطهارة هو كون مجرى الاحكام البدائية على خلاف مجرى الأمور الطبيعية بالمعنى الذي قرره المصنف المفسر قدس الله مرقده في هذا المقام من التفرقة عن الأسباب الغريبة والعلل والاسباب الذاتية ، فمجرى البداء عند خواص أصحابنا ـ وهم أساطين العلم ، المقتبسين مصابيح علومهم من مشكوة النبوة والولاية الختمية ـ على جري الأمور الاتفاقية الغير الذاتية التي علمها مكنون مكتوم عن غير أهله ولايعلمه الا هو . وأما الكمل من الانبياء فقد يكشفون عنه ويخبرون بوحي الله تعالى واخباره لهم ، لكن مع احتمال البداء ـ تثبت فيه فان المقام مزلة الأقدام ، واستقم كما امرت .

ص ١٦٥ س ٣ قوله : لكن الكلام ـ اه ـ حاصله بيان التفرقة بين النظر القضائي الكلي الاحاطي ، وبين النظر القدري القابل للمحو والأثبات وبين النظرين والنظامين بون بعيد مثل بون بين الارض والسماء ـ فاعتبروا يا اولى الابصار .

ص١٦٧ س١٣ أقول : ان حق التقليد في الاركان الايمانية تقليد يكون ملاكه الظن والتخمين كما هو المعروف في الفنون الاجتهادية والعلوم الظنية العملية ، وتقليد يكون ملاكه الاعتقـاد الراسخ الثابت الغير المتزلزل عند هجوم الشبهات العادية وغير العادية ، كالشبهة المذكورة . فالاول باطل غير مجوز عند التحقيق . والثاني منه مجوزيجب تجويزه وصحته ببرهان باهر كاشف عن وجه كونه لابد منه .

ومن الشواهد على ما ادعينـا من كون كثير من المشاهير بالفضل والكمال [مقلداً] هو اعتراف العلامة الخوانساري قدس روحه في تعليقاته على الشفا بالعجز عن الجواب عقلا عن الشبهة المعروفة بشبهة ابن كمونة من تلامذة الشيخ المقتول ، وقال قدس روحه المقدس باستحالة اقامة البرهان القاطع الباهر العقلي على توحيد الله تعالى ، بحيث يحسم مادة تلك الشبهة المشهورة المعروفة باستصعاب حل عقدتها وهذا العلامة من أجلّة مشاهير علماء فنون علم الحكمة ، وهو الفريد في عصره ، بل في كثير من الاعصار ـ فضلا عن الامصار ـ وقد ذهب عجزاً واضطر الى القول بكون الاعتقاد والايمان بوحدانية الله تعالى وفردانيته وتوحده بالوحدانية وتفرقه في الفردانية تقليدياً بحتاً ، حاصلا بمجرد التصديق بقول الشارع ، ويقـول بعدم امكان اقامة البرهان الحكمي والحجة العقلية على الوحدانية الكبرى ، وهي ركن الاركان في الدين . ولايخفى على اولي النهى ان التقليد في اصل التوحيد الحق يلزمه القناعة بالتقليد في سائر الاصول الايمانية ، كيف وهو أصل الاصول ، وذلك من العلامة أجلة الفحول ، ومن الائمة في الاصول مع دعوى الوصول . وقد نزلت قدمه في هذه المنزلة العليا ، والمرتبة القصوى ، التي هي غاية الغايات في الدين .

ص ١٦٧ س ١٤ قوله : لان ذلك ـ اه ـ ذلك محل كلام عند المحققين في هذه المسئلة أهل الحل والعقد ، والمحقق هو المحق . كيف لا ـ وجل عوام الناس بل جل من المعروفين بأنهم من الخواص لو يعمق في أحوالهم المشهودة وأطوارهم

المحسوسة بقطع بكونهم من أهل التقليد في أمر الدين [و] التوحيد .

ص ١٦٨ س ١٦ قوله : مباديها - اي حقائقها . اذ حقائق الاشياء هي عللها الفياضة ومباديها المتجلية بها وبصورها ، اذ منزلة المعلولات من العلل منزلة الصور من المعاني ، ومنزلة الأظلة [و] الامثلة من الحقائق .

ص ١٧٢ س ٦ قوله : ومن تأمل في تضاعيفه - اه - بظاهره غير مستقيم ، فلابد في استقامته من تقدير الجواب والجزاء [١] ، ومن تأويل كونه عطفاً على « طائفة اهل الكتاب » اي هو . . . من أهل الآخرة . والثاني لايخلو من ضرب من العناية - فتأمل .

ص ١٧٢ س ١٤ قوله : على جميع ذلك - لعله رمز من الجميع بمعنى الجمع والمجموع . . . للواحد والاثنين .

ص ١٧٦ س ١١ قوله : وهي تنقسم - اي سلامة القلب وطهارة النفس .ولعل بين سلامة القلب وبين طهارة النفس بوناً ما. وقد ورد في سلامة القلب أن يلقى العبد ربه، وليس في قلبه سواه . وان أمكن أن يقال ان هذه السلامة ايضاً نوع من الطهارة ، فللفقهاء نشآت ومقامات متفاوتة جداً .

ص ١٧٦ س ١٤ قوله : بنور الايمان والحكمة - فاراد من الحكمة على ماءسس الحكمة العملية ، لأنها تنصلح للتوسيط والتعديل ، وأما الحكمة النظرية التي هي العلم بحقائق الاشياء كما هي فعلى الظاهر مسافة هيهنا ، بل على صريحه يلزم أن لاينصلح لهما ، ولايكون صالحة للاصلاح كما في الحكمة العملية ولكن في المقام تحقيق وهو الحري بالتصديق . محصله كون الامر بين الامرين والمنزلة بين المنزلتين وخير الامور اوسطها ، المعبر عن كل منها في وجه من الاعتبار بتعانق الأطراف المتباعدة من جهة واحدة مما لامفر و لامخلص من جريانه في العلوم الحقة

---

١) كان الجزاء ساقطاً وقد أتينا به في الكتاب تكميلا . فراجع المتن .

الحقيقية . كما قالوا : ان الجمع بين التنزيه والتشبيه لابد منه . . . علم التوحيد . وهو طريق الأنبياء الى غير ذلك من الاشارات والتصريحات الكاشفة عن الطريقة الوسطى في تلك العلوم الحقيقية .

ص ١٧٨ س ١ قوله : كالتوفيق والهداية ـ تمثيل لمادة الجمع بين الخارجة والداخلة . ولعل المراد من التوفيق تهيئة الأسباب الخارجة . ومن الهداية الاهتداء . فالجمع بينهما هو المثال ، لاكل منهما ـ فلاتغفل .

ص ١٧٨ س ٦ قوله : في أربعة ـ متعلق بقوله : منحصرة ـ كما لايخفى

ص ١٨٠ س ١٧ قوله : من أكرم ارومة ـ وفي الخبر الموثقة من طريق الخاصة في بيان فضل نسب النبي ﷺ وشرفه ما محصله ان الله تعالى اصطفى مادة فطرته وأصل خليقته ﷺ . . . . ظهوره بهذا الوجود البشري من أكرم ارومة تلك الدورة . كما قيل في مديحه ﷺ ومدحة نسبه وشرف مادة فطرته نظماً بالفارسية :

صاف مرواريدرا بيختنـد　　　　تاكه لوح سينه اترا ريختند

ويقرب منه ماقيل ايضاً فيه :

كتاب فضل توراآب بحر كافى نيست　　　　كه تر كنى سرانگشت وصفحه بشمارى

ص ١٨٤ س ١٨ قوله : الى الامكانات الناشية ـ اه ـ لابد في هذا الوجه من نوع اعتبـار واستبصار يتوجه بهما فحوى قوله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَا لِهَٰؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [٧٨/٤] فاعتبر واستبصر. وأحوال اعتبار . . . بين الوجود والماهية وكيفية المقابلة بينهما معيار لنظرك ومنظرك .

ص ١٩١ س ٢ قوله : الي بالنوافل ـ اه ـ ان مرتبة قرب النوافل عرضية للعبد طاربة بالسير والسلوك والمجاهدة ، وأما قرب الفرائض كما قالوا فهي ذاتية له ؛ ففضل قرب النوافل بصيرورة نوره سبحانه آلة للعبد، باصرة له ، وسامعة له ـ وهكذا.

وتحصل قرب الفرائض بكون العبد آلة للحق بصراً لله تعالى وسمعاه جل وعلا . وهكذا ـ ففي الاول كما يقول الحق في بعض الأحيان : بي يبصر العبد ، وبي يسمع ـ اه ـ وفي الثاني كأن يقول العبد : بي يبصر الحق وبي يسمع . كما قيل في « سمع الله لمن حمده » .

ص ١٩١ س ٨ قوله : على وجه يستعلم ـ اه ـ ان ذلك الوجه لهو الجمع بين الأطراف المتقابلة الذي قد يعبر عنه بتعانق الأطراف المتضادة ، وبالجمع بين التوحيد والتكثير والتنزيه والتشبيه ، والجمع والتفرقة والضيق والسعة . كل ذلك من جهة واحدة . وسر استقامة ذلك ينكشف لأهله من قول قبلة العارفين علي المرتضى أمير المؤمنين سيد الأوصياء عليه السلام ـ روحي له الفداء ـ : « توحيده تمييزه عن خلقه وحكم التمييز بينونة صفة ، لا بينونة عزلة » .

يعني كما قال : « مع كل شيء لا بمقارنة . وغير كل شيء لا بمزايلة » وقال : « داخل في الاشياء لا كدخول شيء في شيء . خارج عن الاشياء لا كخروج شيء عن شيء » الى غير ذلك من الكلمات القدسية الالهية التي صدرت عن معدن الولاية وورثته ، الذين هم اولياء الحكمة وخزائن العلم والمعرفة .

والسر الحكمي البرهاني في ذلك كما هو الموروث من أساطين الحكمة وسلاطين ملك المعرفة هو كون ما به الاشتراك بعينه عين ما به الامتياز . وذلك هو روح القول بالاشتراك المعنوي ، المعروف بين المحققين في باب الوجود وكمالات الوجود وأحوال الموجود بما هو موجود . كما تقرر في محله في مسفورات أرباب الكمال الذينهم غير أصحاب القيل .

ص ١٩٥ س ١٣ قوله : فانتشرت ـ اه ـ فانه لا يقال: جاء الله من ذلك الموضع الا اذا تبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع .

ص ١٩٥ س ٢١ قوله : لقد انكشف السماء ـ يعني ان انكشاف ملكوت

السموات على السلاك الى الله من الانبياء والاولياء والمتألهين من الحكمـاء انما هومن تجلي جمال كمال المحمدية البيضاء التي هي نور عقل الكل ، الذي هوالكل في الكل .

ص ١٩٦ س ٣ قوله : وسينزع في نسبك اغراقاً ـ ونزع يحتمل أن يراد منه ارتفاع النسب بصيرورته رفيعاً متعالياً عن مرتبة البشرية ، لامرتبة الحقانية والربانية . كما قال الله : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ.....وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [٩٤/١-٤] وكما قال سبحانه : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [٥٣/٩] والنزع : «بر كنده شدن از مراتب نازله بمقامات عاليه» اي : سينزع فيه من المنزل الادني الى المنزل الاعلى، الذي هومقام قاب قوسين أوأدنى . ويحتمل أن يراد منه المنازعة والاختلاف في القول بربوبيتك والهيتك ، بقرينة الاغراق ـ ولكنه بعيد جداً .

ص ١٩٧ س ٤ قـوله : قد تخال الأرض الظلام ـ يعني ان الظلام أحاط بالارض ، وصارت الارض مظلمة كما هو مقتضى قوله : « فازمـري مصباحك » وكذلك قوله هذا القول متصلا به : « وغطى على الامم الضباب » والضباب : نوع من السحاب . و غطى ـ بالغين المعجمة ـ من الغطاء وهي الغشاوة ـ هذا .

ص ١٩٨ س ١ قوله : ومنها دعاء ابراهيم واسماعيل ـ اه ـ هذا بظاهره غير ملائم العطف على ماتقدم من وجوه بشارات وقعت فـي كتب الأنبياء المتقدمين . اللهم الا أن يعم النقل الى العربية حتى يشتمل مانقل في القرآن . ولعل في العبارة سقطاً .

ص ٢١٤ س ١٧ قوله : انه يوجب الايمان بما يقـوله ﷺ وأما الوجه الاول فبعكس ذلك من كون الايمان به . . . للايمان بهما ، لمكان الموافقـة . فاذا قالوا بهما يلزمهم القول به على الوجه الثاني ـ بخلاف الوجه الأول . فان الموافقة فقط . ومجرد الموافقة لايلزمهم ولا يقوم حجة عليهم في القول به ﷺ وبما جاء به

حسبما قرره .

ص٢١٧ س١٩ قوله : عند أبنائها ـ متعلق بنفس الجاه . لابالحقير والحقارة ـ كما لايخفى .

ص ٢٢٦ س ١٢ قوله : خط وعلم كيف يجتمعان ـ لعله أراد من الخط عالم الصورة . ومن العلم عالم المعنى والصورة على خلاف المعنى . وبالعكس مثل مثال الشيء ونفس الشيء ـ لا يجتمعان في مرتبة واحدة من الوجود ، وان ظل الشيء هو ذلك الشيء بعينه ـ فافهم .

ص ٢٤٤ س ٦١ قوله : من ادركته يصيب بها . اي ينال بهـا المسيء من اشتعال نار السطوة الالهية والعصمة الربانية أثراً يزول باعوجاج النفس الامارة وانحرافاتها عن صراط الاستقامة المتادى بسالكه الى الغاية القصوى التي هي رد الأمانة الالهية التي لا يصلح لحملها الاالفطرة الادمية ، لكونها امين الله في تمام الخليقة .

ص٢٤٥ س١١ قوله : بين يدى الرحمن ـ اعتبار الاسم « الرحمن » في هذا المقام لعل سره هو سعة رحمته ، واطاعتها التي لايبقى معه شيء خارج عن احاطته سبحانه ، حتى ينصلح لان يلتفت منه عمت رحمة الله . كيف لا وهو جل وعلا منقطع الاشاراة ﴿ انّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [٤٢/٥٣] ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ [٥٤/٤١] ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ [٤/٥٧] و﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [١١٥/٢] فانتبه أيها المسكين ولاتكن من الغافلين .

ص٢٤٦ س١ قوله : فاذا دعي بكليته أجابه ـ ان دعاء المصلي بكليته وبشراشر وجوده باطناً وظاهراً ، لهو السؤال الحالي الموجب للاجابة لا مجرد القال، الخالى عن الحال . فكما ان كلية الاعيان الامكانية قبل وجودها بايجاده تعالى، لماسئلت بلسان الحال الكاشف عن حقيقة الحال وحقيقة السؤال نالت ثمرة السؤال وأدركت الاجابة

بلامهلة، فكذلك كل سؤال حال لا يتصور فيه تخلف الاجابة . اذ السؤال الحالي ليس الا الاستحقاق التام للاجابة . كيف لا - وهو المجيب اذ لاسائل . كما انه عالم اذ لامعلوم . وخالق اذ لا مخلوق . بصير ، سميع اذ لامبصر ولا مسموع . فسر عدم الاجابة في أكثر الموارد هو كون السؤال مجرد قال من دون حال . فمجرد القال في السؤال بمنزلة الجسد الخالي عن الروح . فلا يترتب على مجرد الصورة الجسدانية آثار الحيوة . والا فالنقش على الجدار يلزم أن يكون حياً ذاحس وحركة ارادية . وهو كما ترى - هذا .

ص ٢٤٥ س ١١ قوله : ان الصلوة هي الصلة . وصلة رحم الله يلزمه رفع الحجاب الفاصل القاطع المانع عن الصلة ، والحجاب هو جبل انيّة العبد ، وهواه المنحرف عن جهة الله ، و وجه الذي قال : ﴿ وَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ فهو المحيط في الحضور « يا من خفى من فرط حضوره ظهوره » فالحجاب ليس الا الوجود الأضافي الوهمي - فافهم .

ص ٢٥٤ س ١٦ قوله : والعذاب - اه - ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُ ﴾ [٢٤/٣٩] وعلى خلافهم ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [٢٤/٣٧] .

ص ٢٦٨ س ١٦ قوله : في وصايا لقمان - اه - . . . اي لقمان عليه السلام الحكيم العريف ، والصديق الواقف بسر الامر ، وبدون اليقين لايسمن ولا يغني العمل من جوع . ولكن تحصيل اليقين موقوف على محو الوهم . اي قتل النفس الامارة بالسوء . وقتل الناس لا يتيسر الا بالالتجاء الى الله ، والانقطاع اليه ، وطلب النجاة من لديه عن صميم القلب المنكسر المتضرع الخائف الخاضع المتخشع بين يديه مشتغلا بتلطيف السر ، كما جاء به الشرع النازل من لديه . والشرع ضروري

الصدق لولا حجاب سحاب . . . والسفاهة ، ان جعل انصاف العقل الفطري حكماً و . . . العقل الضروري سلماً . فافهم [1] .

ص ٢٦٩ س ٥ قوله : منهم تنكرون ـ «تنكرون» بصيغة الخطاب ـ لاالغيبة ـ مثل « تعرفون » والحاصل : انكم ثلاثة أصناف : صنف منكم تكونّ صحبة الامراء معروفاً عندهم ، ومخالطتهم محبوباً غير منكر . وصنف آخر منكم تكون صحبة الامراء ومخالطتهم منكرة غيرمحبوبة عندهم . وصنف ثالث تكون مصاحبة الامراء ومخالطتهم مكروهة غيرمحرمة ولاواجبة ولامستحبة . فالصنف الاول ـ وهم الذين تكون المصاحبة المذكورة معروفة غير منكرة ، ولا مكروهة أي واجبة أو مستحبة عندهم ـ أبعدهم الله حيث قال تعالى : ﴿ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [١١/٤٤] وأما الصنفان الأخران فحالهما حال البراءة من الظالمين والتبري منهم أو حال السلامة من ضرهم وشرهم .

ص ٢٦٩ س ١٢ قوله : وكانوا يردون اليهم ـ اي يردد الصحابي الى بعض التابعين ، ويرجع اليه في علم الفتاوى عند مس الحاجة ، فيعلمه حقائق اليقين ودقائق المعرفة وكيفية الطريقة الى الأخرة . لان الصحابة كانوا أقوم من التابعين في علم الأخرة . وكان دأب الصحابة في ورودهم على السابقين لحاجة تحصيل علم الاحكام الفرعية [و] تعليم التابعين في الخلوات علم الطريقة والحقيقة ـ رضي الله عنهم انشاء الله تعالى .

ص ٢٧٥ س ١٣ قوله : وخاضوا في بحر العلم بالفهم ـ اه ـ هو نور اليقين فما لم تتجرد النفس الناطقة القدسية اللاهوتية ، ولم تنسلخ عن جلباب الكونين ، و لم تخلع النعلين ، اي الصورة الدنياوية والصورة الاخروية لم يتيسّرلها دخول جنة عالم الحقائق واللطائف اليقينية ـ فضلا عن الدخول في الجنة الايقانية ـ بون بين

١) اشارة الى كون الفطرة سالمة عن عصبية الجاهلية وحمية الناصبية ـ منه ره .

اليقين والايقان ،كالبون بين كرسي الرب وعرش الرحمن .

ص ٢٧٥ س ١٣ قوله : في غيب الغيب - عالم الصور الملكوتية المحسوسة بحس الخيال والوهم ، الملازم للخيال و غيب الغيب عالم المعاني واللطائف الجبروتية التي مدركها العقل الروحاني المنسلخ عن جلباب العالم الصوري دنباوياً كان أواخراوياً .

وأما قوله : سر السر - فيحتمل أن يكون عطفاً تفسيرياً ، واحتمال كونه غير تفسيري غير بعيد ، لكون المراد من «السر» غيب الغيب ومن «سر السر» عالم حقيقة الحقائق . أو الحقائق التي هي فوق عالم اللطائف . وحقيقة الحقائق له مقام فوق الحقائق - فضلاعن اللطائف . وتلك العوالم الثلاثة الروحانية الالهية فوق عوالم الصور مطلقاً . وعالم الصورعالم القوالب والقشور. وعالم المعاني عالم الارواح واللباب .

ص ٢٧٥ س ١٦ قوله : لايعني به - اه - استدراك منه قدس سره من قوله « هم الذين كملوا في جميع العلوم» اذ ربما يتوهم من قوله جميع العلوم . اي خبر الجزئيات . فلدفع هذا الوهم قام بالاستدراك . فقال : «يقف به» الى آخره .

ص ٢٧٥ س ٢٠ قوله : والعلوم الجزئية - مرادهم من العلوم الجزئية العلوم العملية التي ثمرتها وفائدتها نفس العمل . والعمل هوتهذيب الظاهر والباطن وتطهيرهما بوجه يؤدي بالعامل السالك الى المقصد الاصلي الكلي ، الذي هو معرفة الله تعالى بالنورانية .

ص ٢٧٦ س ٥ قوله : بيتاً أنت ساكنه -اه- لعل قوله : «أنت» كناية منه عن شهوده لحضرة الحق ، واستغراقه في مشاهدة جماله في تلك الحالة التي هي وقت الانقطاع الى الله . يعني التشرف بشرف حضوره وشهوده يغني عن قول «لا اله الا الله» اذ القول هذا انما يصح عند الغيبة . فالالتفات من الحضور الى الغيبة في مثل هذه الحالة ينافي الانقطاع اليه تعالى والاستغراق في شهود جلاله . . . يمنع عن

رؤية ماسواه وينافي الألتفات الى شيء مما سواه ، وانكان الشيء هو قوله : «لا اله الا الله» فانهم فهم نور ، لاوهم زور .

ص ٢٨٢ س ١٦ قوله : علوم الاعمال ، لاعلوم المكاشفات ـ اه ـ قد مر ان العلم علمان : علم المعاملة ، وعلم المكاشفة . وفي الخبرالمؤيد بالبرهان الحكمي : «ان العلماء سادة ، والفقهاء قادة ، ومجالستهم زيادة» فالمراد من العلماء ـ الذين هم السادة ـ هم علماء الوراثه ، وعلماء الولاية ، وهم الحكماء المتألهون المتجردون عن جلباب الكونين بخلع النعلين . قال ﷺ : «انما العلم ثلاثة: آية محكمة ، وفريضة عادلة ، وسنة قائمة» أراد بالاية المحكمة : علم الحكمة المطلقة ـ وهو العلم بحقائق الاشياء كماهي . كما قال : «رب أرني الأشياء كما هي» والفريضة العادلة علم الاخلاق المعروف بعلم الطريقة . والسنة القائمة الى يوم القيامة : علم الاحكام ، والاعمال المعروف بعلم الشريعة . والحكمة هي المعروفة بعلم الحقيقة .

ص ٢٨٣ س ١ قوله : وهي تورث الاحوال ، والاحوال توجب الاعمال ـ اه ـ فكون الاعمال بمنزلة نتائج وأثماراً انما هي من جهة كونها لواحق باعتبار ، كما انها سوابق باعتبار آخر .

ص ٢٨٣ س ١٢ قوله : والحركة من النتايج لهما ـ اه ـ اي في مجرد حكم الاحقية وأما النتيجة المقصودة بالذات وبالاصالة هو العلم اليقيني الذي له مراتب . وأقصى مراتبه يسمي بحق اليقين ، المسمى بالحقيقة .

روي انه ﷺ قال : «الشريعة أقوالي ، والطريقة أفعالي ، والحقيقة حالي» فتقدم العلم على الأحوال النفسانية والملكات الداعية على الاعمال الصالحة المصلحة للنفس ، المعدة لها للترقي والعروج الى مقصد الحقيقة لاينافي تأخره عنهما من جهة الغاية . اذا العلم من الحقائق المشككة التي يقبل الشدة والضعف ، والتقدم والتأخر والكمال والنقص . كيف لا ، ويشهد له البرهان ، بل والقرآن كما قال خليل الرحمن

أبو الانبياء : ﴿ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ في الجواب عن سؤاله سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ﴾ [٢/ ٢٦٠] وغير ذلك مما كثر في الكتاب والسنة من . . . المرام .

ص ٢٨٣ س ١٤ قوله : ان العلم بالمنعم - الى آخره سر كل ذلك كون العلم الحق الحقيقي القيومي المطلق هو أصل اصول حقائق الأشياء ورقائقها ، لطائفها وكثائفها اي اللطائف والحقائق الروحية النورية ، والكثائف الكونية الظلمانية الجسمانية الهيولانية . فلو ادرك وعرف معنى الاصلية والفرعية بحق معناهما الذي لايعرفه الا الراسخ في العلم بحقائق الاشياء كما هي ، فلم يبق له حالة منتظرة في التصديق بكون منزلة العلم الحقيقي من كلية الأشياء بحقائقها ورقائقها ولطائفها وكثائفها منزلة الكنه والحقيقة من الوجه والصورة . فكون العلم أصل الحال والعمل ، وأصل الصبر والشكر وسائر الأمور المتحققة في متن الواقع بما هي امور متحققة ، موجودة ، نازلة من عند الله بقضائه وقدره - جل وعلا ... بناء كلمات أهل العلم في أمثال هذه المقامات على المجازات العرفية ، والتوسعات الجمهورية - فلا تغفل .

ص ٢٨٤ س ٢ قوله : من عرف الترتيب - يعني في الترتيب العروجي والصعودي ، كما سيصرح به . وذلك الاعتبار انما هو على طباق مقامه الذي ساق الكلام فيه - فتأمل فيه .

ص ٢٨٥ س ١٨ قوله : ملكا آخر - اه - فهو نوع من الملكة الراسخة الحاصلة الكائنة فيه تدريجاً ، الى أن يصير راسخة جوهرية ، وحينئذ بذاته يكون حالا غير راسخة وبالعمل يتقوى تدريجياً الى أن يصير الحال ملكة ، وهكذا في جانب الملك العلامة فهما ملكان علامة وعمالة تتجوهر بهما فطرة الانسانية تدريجياً ولهما مقامات ، في كل مقام حفظة وأعوان مانراها بحواسنا . اللهم الا بالقوة الوحدانية وبالقوة العقلية التي هي مستعمل كل من ذينك المسلكين بجنودهما . فهم الملائكة المسخرة للفطرة الادمية المطيعة الساجدة لها .

ص ٢٩٨ س ١٠ قوله : ومعنى رجوع الكل اليه سبحانه ألا انه بكل شيء محيط ـ فانتبه يامسكور حتى تشاهد. . . معنى قوله تعالى ﴿أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ حيث قال جل من قائل : «تصير» ـ بالصاد ـ ولم يقل : «تسير» ـ بالسين ـ . قال ﷺ : «كان الله ولم يكن معه شيء» لما ذكر هذا النبوي عند أبي ابراهيم موسى ابن جعفر عليهم أفضل الصلوات الزكيات . قال : «الان كما كان» . كيف لا ـ ولقد قال ﷺ : «من رآني فقد رآى الحق» . وفي النبوي : «خلق الله آدم على صورته» (ترجمة هذا منه قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فافهم ان كنت أهل الاشارة ، والافقم ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ . . .

ص ٣٠١ س ١٢ قوله : فهو ذاتي بالقياس الى سبب آخر ، وذلك السبب هو السبب . . . . اي اذا لوحظ مجموع الامور المؤدية الى الاثر الاتفاقي بالنظر الى بعض منها يصير الاتفاقي ذاتياً ـ فافهم .

ص ٣٠٢ س ٢ قوله : وكذا مازعمته ـ اه ـ ان هذا الزعم لراجع الى القول بالارادة الجزافية التي قال بها الاشاعرة . وأما القدر الذي قاله الثنوية من كون الاثباتات في لوح المراد صادرة من الخيّر والمحو بعد كل اثبات والفساد بعد كل كون بارزاً من ناحية الشرير.

ص ٣٠٢ س ٢ قوله : وكذا ماقال الثنوية ـ الى قوله : ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ان سر كون الثنوية وكون القدر الذي قال به الثنوية مؤدية الى البخت والاتفاق ، الباطل المبين بطلانه هو كون الثنوية هو . . . الاصلين في باب الوجود والايجاد ملزومة موجبة لكون كل من الاصلين الازليين بائناً عن الاخر بينونة العزلة فاقداً كل منهما لوجود الاخر . فصار كل محدوداً مقيداً في الوجود ، والوجود المقيد المحدود ـ كما تقرر في محله وبرهن عليه في مقره ـ ممكن محتاج . فيلزم كون وجود العالم الموجود ، الضروري الوجود بمجرد الطبيعة الامكانية والماهية الجوازية ،

ونتيجة علية مجرد الطبيعة الجوازية المعدومة في نفسه ، بانتفاء علتها ان هي الامجرد البخت والاتفاق ، الذين ملاك القول به - اي واحتماله - انما هوالسفسطة الملازمة بالسفاهة .

وبالجملة - أصل ملاك ابطال القول بالبخت والاتفاق في العالم وسائر الأقوال المؤدية اليه كالثنوية والقول بالارادة الجزافيه ، والمنع عن كون الحسن والقبح في الأمر والنهي التشريعيين ذاتياً . والقول بكونهما شرعيين غير عقليين هوقولنا بأن الشيء مالم يجب لم يوجد . ومنه يلزم بطلان القول بالبخت والاتفاق ، والارادة الجزافية ، والاولوية الذاتية والغيرية وسائر مايشرب من أمثال هذه المشارب الكدرة الواهية ، المنافية للقول بالتوحيد الحق ، وبدين التوحيد المطلق ، القائم به النبي الختمي ﷺ والحافظ له [و] آله الوارثين لكماله ﷺ والتابع فيه شيعتهم الذين هم خاصة أشعتهم ﷺ . «يك نكته از اين دفتر گفتيم همين باشد» .

ص٣٠٣ س٣ قوله : مؤدياً وواصلا - اه - كان الوصول كناية عن مرتبة التعلق والتشبه ، مثل تسخن الحديد في ابتداء مجاورته للنار لغلبة صفات الحديدية ، واضمحلال مشابهته في السخونة والحرارة بالنار واستهلاك هذه المشابهة والانقلاب اليه ، كأنه اشارة الى مرتبة تخلق الطبيعة الحديدية باخلاق النار ، ورسوخ الصفات النارية فيها بحيث تكاد أن تنتفي صفات الحديدية وتغلب صفات النارية باستهلاك صفات الحديدية في النارية ، بحيث لايكاد يبدو منها أثر أصلا . وأما الانقلاب اياه من دون توسيط الروابط الحرفية مثل حرف «الى» وغيره ، فكأنه رمز الى استحالة تجوهر الحديدية ، وانقلاب طبيعتها النارية ، بحيث لايبقى من الطبيعة الحديدية لاعين ولا أثر .

وهذه المنزلة العليا والغاية القصوى - المعبر عنها بالفناء عن الفناء ، ومحو المحو ، و الاتحاد طراً - انما هي خاصة سر الانسان المحمدي الختمي ، ومسلكه

الجامع للجوامع،لاحظّ ولا نصيب لغيره فيه أصلا . وهذا سر ستير مستور عن بصائر كثير من أفاضل الاعصار وأكابرهم الذين هم في الشهرة والاشتهار كالشمس في رابعة من النهار . ولب مغزاه هوما قال شاعر اخوان الصفا :

تواو نشوى ولى اگر جهد كنى ٭ جائى برسى كزتو توئى برخيزد

وذلك كماقال جل من قائل : ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [٤٠/١٦] فاعتبروا يااولى الابصار .

ص ٣٠٣ س ١٦ قوله : معية الحق الاول لكل موجود ـ ومن هيهنا قال جل من قائل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ [٤١/٥٤] وفيه نعم ماقيل ـ ولصاحب القول نصيب وحظ من المعرفة ـ :

گفتم بكام وصلت خواهم رسيد روزي ٭ گفتا كه نيك بنگر شايد رسيده باشى

وأما الانسان الكامل الجامع لجوامع الكلمات التامات، والمعلم بالتعليم اللدني بجوامع الأسماء الحسنى ، فهوالواصل الى مقام الخلافة الالهية التي يكاد يحل عبادته بخلافته العامة التامة المحيطة ، بل له مقام فوق ذلك ، وذلك هومقام البيان الذي قال سبحانه فيه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [٤٢/١١] تفطن .

كيف لا والانسان الجامع للجوامع كلها هووجه الله الباقي بعد فناء الاشياء جلّها وقلّها هذا .

ص ٣٠٨ س ١٤ قوله : فكلما أمعنت هذا النشأة ـ اه ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُ ٭ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ الاية [٢٤/٣٩ـ٤٠]كلية طبيعة الطاغوتيه راجعة الى الليسية ، ومن هيهنا صار اسم ابليس:اب ليس ـ اي : أبو الليسية.كما ان طبيعة الادمية المضادة للايسية (ظ: لليسية) راجعة الى الايسية كلما (ظ : كما) ينكشف ذلك عند الفحص عن بطون اسم آدم . فابليس في شق عدم أوعدمي . وآدم في شق وجود

أو وجودي لبني آدم أو آدمي ، وبون مابين آدم وآدمي ـ فافهم .

ص ٣٠٨ س ١٧ قوله : لأن الله تعالى ـ اه ـ فهو معنى قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [٢/١٤٨] كما أشرنا .

ص ٣٠٨ س ٢٠ قوله : و أفاض بكل النور ـ اه ـ هذه الافاضة انما هي النفخة الثانية بعد الأولى ، التي يسمي بنفخة الصعق وخراب الدنيا بالكلية ، وهو موت الانسان الكبير المسمى بالانسان المحمدي يترتب علىنفخة الصعق . ثم ينفخ نفخة ثانية يتفرع عنها ايصال أهل الجنة بجنة الخلد . وايصال أهل النار بنار الخلد المسماة بجهنم الكبرى .

ص ٣٠٨ س ٢٢ قوله : من وراء ظهره ـ اه ـ فيكون ضعيفاً و معرضاً عنه ، لاالتفات للملتفت الى العدم ، والمستقبل اليه الى عام الوجود والنور غير مستشعر به ولاشاعر . ولايستشعر الاالعدم والظلمة . وهما مضادان للوجود والنور ، وضدان لاصل الفطرة الادمية التي فطر الناس عليها ، وهي فطرة نور التوحيد ، لان اشراق (بقية الحاشية ساقطة) .

ص ٣٠٩ س ١٨ قوله : الى ماهو الخير الحقيقي ـ لما علمت من كون الغايات الوهمية باطلة كما قال عزمن قائل : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ [٢٤ ٤ فقوله سبحانه «ووجد الله عنده» صريح في كون معاد الكل هوالله تعالى ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ .

ص٣١٢ س٧ قوله وأما النعمة ـ خلاصة التفرقة البرهانيه بين معنى النِعمة ـ بالكسر ـ والنَعمة ـ بالفتح ـ هوالتفرقة بين العطية الامرية ، وبين العطية الخلقية . اذ العطية الامرية التي هي عين اعطاء المعطي تعالى ان هي الاصفة المعطي وأما العطايا الخلقية والنعماء الخلقية ان هي إلاّنعماء كائنة ومخلوقات موجودة بايجاده

تعالى ، وانه تعالى لا يوصف بخلقه كما في صريح حديث الكافي ، الوارد عنهم ﷺ . وسرهذه التفرقة العرشيه لا ينكشف الا للحكيم الراسخ في الحكمة العرشية ، فمن هنا قالوا في التفرقة بين الامر التكويني والايجادي، وبين الامر التشريعي . . . التكويني عين المأمور ، بل وعين إخبار المأمور كما قال تعالى : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٨٢/٣٦] فيكون الكاشف عن استحالة التخلف ، وذلك بخلاف الامر التشريعي . ـ فافهم .

ص ٣٢٦ س ٨ قوله : في سعادتها دائمة ـ كما في قوله تعالى : ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ [١٣/٥٧] بجملة الاسمية مع تقدم الظرف ـ فلا تغفل .

ص٣٢٥ س١٩ قوله : الامر و ـ الدهور وكرور الاعصار ـ فان لم ينضم اليه نوع من الكفر يكون مخلداً في النار ، فيفرغ نفس المعذب في النار بعد مرور الدهور عليه وكرور الاعصار من دار الاخرة ، فلا نجات له بوجه من الوجوه ، ولايمكنه الخروج منها ، وكلما أراد الخروج اعيد كما كان في دار الدنيا ، حيث كان أراد الخروج من الكفر وسائر الكبائر عاد اليها ، فهذه الحالة والخصلة التي كانت له في دارالدنيا يتصور ويتمثل له في دارالاخرة . . . في النار، انما هي أعمالكم وأحوالكم ترد عليكم من داخل أنفسكم .

ص ٣٢٦ س ١١ قوله : فهي من عالم القدس ـ اه ـ كيف لاوقد قال تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [١٣/٥٧] فالباطن الذي فيه الرحمة بتاً انما هو ذلك الروح القدسي اللاهوتي الالهي كما قال : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [٧٢/٣٨] فافهم واستقم .

ص ٣٢٦ س ١٤ قوله : وهو من العرشيات ـ اي كون النفس الحيوانية باقية محشورة في الاخرة ، ويحتمل أن يكون مراده كلا المطلبين من استحالة تكدرالروح القدسي ، وكون النفس الحيوانية باقية محشورة .

ص ٣٢٧ س ٥ قوله : لكونه متوقفاً ـ اه ـ هذا بظاهره ينافي احتمال حصول هذا المقام على الندرة لمن يرتكب الكبيرة من دون تصفية كاملة بالغة . اللهم الا أن يراد من الاحتمال المذكور وامكانه من دون التصفية البالغة الكاملة احتمال اهتزاز علوي وجذب الهي ينزع نزعاً به ينسلخ العبد من جلباب الكونين ، ويرفع إنّه من البين بلامين ولاشين . وذلك لكون فطرة ذلك العبد عنصر نوروجودها غالباً على ظلمة ماهيتها في بدء الفطرة . ولعل فيه سراً آخراً ، والحكمة الالهية لها زوايا، فيها خبايا ، لايحتمل دركها الا من شاءالله .

وحاصل كلامي ان الصفاء الكامل البالغ جداً ، الذي هو شرط حصول ذلك المقام ، قد يكون فطريا لاتعارض ولا يرفعه ارتكاب المعصية معارضة يعتد بها .

ص ٣٣١ س ٧ قوله : لئلا يلزم ارادة المعنى المشترك ـ واحتمال كون عبارة «ارادة المعنى المشترك تصحيفاً» ـ بأن كان أصل العبارة «ارادة معنيي المشترك» فصحف بالصورة الموجودة في هذه النسخة ونسخة اخرى رأيناها ـ غير بعيد كل البعد .

وبالجملة فلابد من ارتكاب تمحل وتكلف مّا حتى يستقيم الكلام كمالايخفى .

ص ٣٢٧ س ١٨ قوله : في قوله ﷺ ـ يعني من الانسان الكامل او جامع الجوامع ـ فتأمل فيه .

ص ٣٢٨ س ٦ قوله : ومن التضاد ـ والاضداد لايجتمع .

أقول : قالت أساطين العلم : «ان أنواع الكفر خمسة : كفر الجحود . وكفر التهور . وكفر النفاق . وكفر الاستبداد . وكفر تجوهر الكبائر بارتساخها في النفس وصيرورتها ملكات جوهرية راسخة بحيث لايبقى معها مثقال ذرة من نور الفطرة بانقلاب الفطرة الادمية الى البهيمية أو السبعيّة أو الشيطانية النكراوية ، وبطور التركيب منها ضروبه لانهاية لها . وقد تقرر في محله ان بعض المنافقين . . . دين الاسلام وهو . . . ورئيسهم كان مجمع جوامع تلك الانواع الخمسة ـ فلا تغفل .

ص٣٣٥ س١٠ قوله : واحد من امته ـاهـ يعني الامة امة الاجابة ، وهم الامامية الاثنا عشرية اللهم الا المتعذرين من انه الدعوة دون الاجابة ، وهم طوائف وقبائل لايكاد يحصى . وخلاصة مشرب الحق ان الموجب للخلود والابود في النار ودار البوار هو العناد والاستكبار لدين الحق وأهله بما هم أهله . ومن هيهنا يعلم كون غالب طوائف أهل الخلاف بالمعنى العام مآلهم ومآل أمرهم الى النجاة بتفاوت درجات النجاة وطبقات أهلها .

وبالجملة مدار الامر على ماأشرنا اليه في المقام تفصيل لايسعه هذا المجال .

ص ٣٣٦ س ٤ قوله : قال العُجب ـ السركون العُجب ـ وهو من رؤساء الملكات الرذيلة المهلكة ـ شراً من الذنوب التي هي من أعمال الجوارح والاعضاء كبيرة كانت أوصغيرة كونه ملكة رذيلة نفسانية مهلكة للنفس الادمية ، ومبدءاً للذنوب ومبدء الشرور هو شر الشرور ـ كما تقرر في محله .

ص ٣٣٧ س ١٣ قوله : مخدوش مرسل ـ اي : يخدش ويناقش معه ، ثم ينجي ويرسل ولا يحبس في النار . وأما المكروس : فهو الذي يحبس في النار ابوداً وانقطاعاً .

ص٣٣٨ س ٢ قوله ﷺ بأشد منا شدة في الحق ـاهـ لعله من المناشدة بالله والمسئلة المؤكدة بالقسم بالله . وقوله : « من المؤمنين لله » حينئذ متعلق بـ «أشد» فحاصل المعنى على هذا الاحتمال : مامن أحد منكم أشد مناشدة ومسئلة في الحق ـ اي في الله وفي سبيله ـ من المؤمنين لله . اي من الذين هم أهل الله . وقوله : «قد تبين لكم» معترضة وقع في البين . اي : قد ظهر ـ أو يظهر ـ لكم ماذكر يوم القيامة فهي جملة حالية ، وفيه تكلف لايخفى . ولعل في عبارة الحديث نوع اسقاط وتصحيف[1] بزيادة او نقصان ـ والله يعلم ـ ويحتمل أن يكون قوله : «من المؤمنين»

---

١) راجع مانقل في ذيل الصفحة (٣٣٨) من نسخة مصدر الحديث .

متعلقاً بقوله : «تبين» بصيغة مجهول المضارع . وفاعل «تبين» حينئذ مضمون قوله : يقولون -اه- فحينئذ ينبغي أن يكون معنى قوله : « بأشد مِنّا شدَّة » ليس أحد منكم بأشد شدَّة مِنّا - بكسر ميم «مِنّا» - اي منه ﷺ ومن آله ﷺ في الحق . اي في حق الشفاعة . بكون الالف واللام عوضاً عن المضاف اليه . اي مع كوننا كذلك تبين وتظهر من المؤمنين في الله ولله يوم القيامة - الى آخر ماأشرنا اليه احتمالا ثانياً . ولكن الحق هو احتمال وقوع التصحيف .

ص٣٣٩ س١٩ قوله : قال ليس ذلك لك - اه - حاصله ان كل مرتبة من مراتب الايمان سوى مرتبة التوحيد لها ضرب من التعلق والاختصاص وأما مرتبة التوحيد فهي حاجتى خاصة - فتفطن .

ص٣٤٢ س ١٥ قوله : لايتناهى قدراً - اه - يعني كيفاً . لصيرورته جوهرياً وكل جوهري اخروي دائمي غير زائل .

ص ٣٤٢ س ١٧ قوله : صاحب هذه الكبيرة - اه - اليه يرجع كفر التجاهر بالفسوق والفجور ، كما تقرر في باب الكفر : ان أنواعه خمسة : كفر الجحود قلباً ولساناً . وكفر النفاق ، اي قلباً لالساناً . وكفر التهور على عكس كفر النفاق . وكفر الاستبداد بالرأي . وكفر التجاهر بالفسق والفجور . كل كفر من هذه الأنواع الخمسة يوجب[الخلود] والابود في النار عند المحققين المحقين . فالحق ان احاطة الخطيئة كما قرره - قدس سره - خارجة عن محل النزاع - على ماتقرر في باب الكفر . ونقل عن المحققين المحقين - ومن رؤساء المحققين هو أنار الله برهانه - فنظره ايضاً اخراج صاحب الخطيئة المحيطة بصيرورتها جوهرية راسخة ذاتية احاطية عن دائرة أهل الايمان طراً ، وادخاله في زمرة أهل الطغيان والعداوة .

ص٣٤٢ س٢١ قوله : كان مقتضى العدل - اه - ذلك كما قال ﷺ : « حب علي حسنة لايضر معها سيئة » وعلى عكس ذلك بغض علي ؑ - نعوذ بالله منه .

ص ٣٤٤ س ١٢ قوله : بشفاعة الانبياء لاممهم ـ اه ـ أراد من امم الانبياء ﷺ الاجابة، لاامم الدعوة أعم من أن يكون من أهل الاجابة ، أم لا . ولعل في الامم الذين لم يفوزوا بفوز الاجابة تفصيلا كما هو مقرر عند المحققين ، اذ العبرة والاعتبار في ابود النار هو العناد والاستكبار والاستنكاف عن دين الحق ـ كما تقرر في محله .

ص ٣٦٥ س ٢٠ قوله : لان ذلك مما يحصل ـ اه ـ سر ذلك كون الاسباب والعلل الاخروية داخلية غير خارجة من ذات كل من يعاينها ويشاهدها . فهي كلها جوهرية ذاتية يتجوهر ويتقوم بها جوهر ذات كل شخص من أشخاص النشأة الاخروية غير واردة عليه من الامور الخارجة ، ولا من العلل والاسباب الاتفاقية ، كما يشاهد في عالمنا العنصري الدنياوي من تصادم العلل والاسباب من طريق البخت والاتفاق . ومن هيهنا يكون المعاملات الاخروية معنا من جهة عللنا دائمية ، بخلاف معاملات العلل والاسباب الكائنة الاتفاقية الحادثة بعد أن لم يكن . فانها ليست بدائمة ولا أكثرية كما تقرر في محله في الحكمة الحقة ـ وقد تقرر ان الذاتي لايختلف ولايتخلف . ومن هنا صار دار الاخرة دار القرار ، مع تفاوت مابين دار النعيم ودار النار ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [٤/٥٦] سر هذه التفرقة المرموزة ، وهو كون دار النار ودار البوار حقيقة دار الدنيا التي لاثبات لها ولاقرار فاعتبروا ياأولي الابصار .

ص ٣٦٩ س ١٢ قوله : أطيب عنده من ريح المسك ـ اه ـ سر كون تلك الرائحة الكريهة مطلوبة للملائكة كونه من مقولة نعيماً في شقاء ، وبقاء في فناء فلا تغفل .

ص ٣٦٩ س ١٩ قوله : لاتحصل الا بتخلية المدرك ـ اه ـ نازل منزلة الخبر لقوله : « وكذلك استفاضة العلوم اللدنية والمعارف الالهية » . وأما قوله : « وهي

ضرب من المكـالمة لان حقيقة التكـلم » الى آخره ـ فهي معترضة في البين بياناً لاحتياج التخلية باستفاضة العلوم اللدنية الى تخلية المدارك ـ الى آخره .

ص ٣٧٠ س ١٥ قوله : في القوس النزولية ـ مقتضى طبيعة قوس النزول وان كان البُعد عن غلبة حضرة النور ، اذ النزول هو الحركة الى قاعدة الظلمة والاكوار ولكن البُعد عنه في عين القرب منه بعيد في عين قربه ، قريب في عين بعده فاحتجب في عين المعرفة ، وتعرّف في عين احتجابه كما قال ﷺ : « حاضر غير محدود ، غائب غير مفقود » تعالى سبحانه عن ثنوية التقابل .لاضدله ولاند ـ تلطف .

ص ٣٧٦ س ٨ قوله : ميزان صحيح ـ/ قال قبلة العارفين علي عليه السلام مامحصله ان العلم ليس في السماء حتى ينزل عليكم ، ولا في الارض حتى يخرج اليكم ، انما هو مجبول في قلوبكم . فتروحوا وتخلقوا بأخلاق الروحانيين لكي يظهر لكم صدق ولي الله ـ روحي له الفداء .

ص ٣٧٦ س ٨ قوله : بميزان صحيح ـ اه ـ ذلك الميزان هو المستنبط والمستخرج من قوله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وما ضاهاه من الايات الكاشفة عن حقيقة ذلك الميزان من القسط . وعن كيفيته ، كما جاء به الشرع المقدس . بحيث لايبقى لكل سليم الفطرة شائبة اوريبة وعائقة شك وشبهة .

ص ٣٧٦ س ١٠ قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ ـ يعني رفع المحمدية البيضاء . ووضع العلوية العلياء مقامها . والمحمدية البيضاء هي عقل الكل . والعلوية العلياء هي نفس الكل .

ص ٣٨٠ س ٩ قوله : بواسطة الملائكة والانبياء ـ وساطة الأنبياء في الدنيا وساطة اعداد ظهراً ووساطة ايجاب وايجاد بطناً . وأما في الاخرة فهي ايجابية ايجادية لاغير . لان دار الاخرة ـ سيما دار نعيمها ـ دار فعل لاانفعال فيها . وهذا هنا لاينافي تالم أهل منها . وكذلك تنعم أهل الجنة . اذ شيء منها ليس من مقولة

أن ينفعل ، كما في الوجود الدنياوي . اذ الانفعال منوط ومربوط بوجود المادة الهيولانية ، والمادة الأخروية انما هي قوة الفاعلية وقدرتها على تصورات وتمثلات قائمة بنفس العبد وروحه ـ منعّماً كان أومعذّباً ـ قيام صدور ، لاقيام عروض وحلول ـ فافهم .

ص ٣٨٠ س ٩ قوله : بواسطة الملائكة والانبياء ـ ان وساطة الملائكة في سلسلة الايجاد . . . كما ان وساطة الانبياء في سلسلة الأعداد بالهداية والارشاد . وبعبارة اخرى تكون وساطة الملائكة في الوجود التكويني ـ فانهم رسل الله في تبليغ الامر والنهي التكوينيين . وأما الانبياء فانهم وسائط في الوجود التشريعي ، فانهم رسل الله في تبليغ الامر والنهي التشريعيين . والتفرقة بهذا الوجه الذي بيّناه لاينافي كون الملائكة مرسَلا الى الانبياء في الاوامر والنواهي التشريعية . اذ وساطة الملائكة هذه ايضاً طور من الوساطة التكوينية ، كما يراه أهل البيت الذين هم أهل فهم . . . يرون وساطة الملك . والامر التكويني وكذلك ماهيته (تهيئته ـ ن) لما كان عين الايتمار . كما ان الايجاد للشيء هو عين وجود الشيء لايتصور منه التخلف . كما قال تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ـ فافهم واستقم .

ص ٣٨٤ س ٥ قوله : من جفاء المنعم ـ وأما بنعمة ربك فحدّث .

ص ٣٨٤ س ١٣ قوله : فيلزم الشكر على تلك النعم ان أراد من النعم المقترنة بالنعم التي بينها وبين الشدة نوع اتصال عقلا، ويكون من لوازم تلك الشدة فله وجه موجه . وان أراد مجرد الاقتران الزماني ، فهو كما ترى .

ص ٣٨٤ س ١٩ قوله : في صورة كريهة ـ اشارة الى كون الملاذّ الاخروية و صورها المحبوبة الحسية المطلوبة الملذة ظاهرة في الدنيا بالصور الكريهة . وبالعكس الالام الاخروية والصور الكريهة ظاهرة في الدنيا بالصور الحسنة الملذة الغير . . .

ولولم يكن بناء أمر الاخرة والدنيا على هذه الوتيرة من التخالف لما كانت الطاعات مشقة تحتاج الى المجاهدة . والمعاصي راحة غير محوجة الى ارتكاب الرياضات الشاقة .

والسر في ذلك هو كون . . . النشأة الاخروية على مقتضى العقل الذي هو حزب الرحمن . . . الدنيا على اقتضاء الفطرة الجهل الذي هو حزب الشيطان . ومن ثمة يترجم العقل بما عُبِد به الرحمن . ويفصل الجهل بالنفس الامارة وبابليس الابالسة . وابليس محلل بـ« أبي ليس » معناه . أب ليس . وحقيقة الادمية التي هي طبيعة العقل الكلي ، اي الجامع لجوامع الكمالات والسعادات ينحل في ملاحظة بطون لفظه وبتباينها الى الايس والايسية . والايس معدن الخير والليس معدن الشر كما تقرر في محله .

ص ٣٨٨ س ١٧ قوله : بالحقيقة هي الذي سخره لك ـ اه ـ لعمر الهي ان أمر التوحيد ـ ذاتياً كان أووصفياً ، وصفتياً أوفعليا ـ ألطف وأخفى وأرفع وأعلى مما يتراءي من ظاهر هذا التمثيل وأمثاله . ولاينكشف عن حق سره وحقيقة أمره الأقول حضرة قبلة العارفين الموحدين ، أمير تلك الولاية ، سلطان سلاطين مملكة الخلافة على أمير المؤمنين عليه السلام ، حيث قال: «توحيده تمييزه عن خلقه ، وحكم التمييز بينونة صفة لابينونة عزلة » وقال عليه السلام : « مع كل شيء لابمقارنة ، وغير كل شيء لابمزايلة » ونيل حق معناه ودرك حقيقة مغزاه صعب مستصعب لايحتمله الاملك مقرب ، أو نبي مرسل، أومؤمن امتحن الله قلبه للايمان . نعم هذا التمثيل وأمثاله نوع تنبيه واعانة ، وفيه ضرب من الاشارة لاينالها الا الأوحدي الفريد في الدهر .

ص ٣٩٠ س ١٦ قوله : في الصحة والسلامة ـ سئل عن سلامة القلب قال : « أن تلقى ربه وليس في قلبه سواه » سرذلك هو كون كل شيء سواه راجعاً اليه تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ .

ص ٣٩١ س ٣ قوله : وذلك لامرين ـ يعنى ان الشكر العملى له و . . . بنعمه .

ص ٣٩١ س ١١ قوله : وصرف الشيء في مصرفه الطبيعي ـ اه ـ فالشكر حينئذ ان هو الا السير والسلوك الى التقرب بحضرة الحق والتحقق بصفاته العليا ، والتجوهر بأسمائه الحسنى . بأن ذلك السير على صراط الاستقامة ، كما جاء به الشريعةالمحمدية الختمية ، وهو صراط التوحيد ، المعبرعنه حينئذ بالطريقة المؤدية الى الحقيقة التي هي ذلك التخلق . والتحقق بالشكر بهذا الاعتبار انما هوالسفر من الخلق الى الحق في وجه . بل كل من الأسفار الاربعة يمكن أن يعتبر بوجه يكون شكرا له تعالى ﴿ فَٱعْتَبِرُوا يَاأُولِي ٱلْأَبْصَارِ ﴾ .

ص ٣٩١ س ٢٠ قوله : في التأثير والاثار ـ اه ـ ان سر استحقاق الوسائط للشكر وهو كون وساطة الوسائط منطوية في فعله تعالى ، راجعة اليه برجوع أنفس الوسائط اليه تعالى ، اذ فعل الوسائط وتأثيرها انما هو من مقامات فعله تعالى . . . بأمر خارج عنه ، خروج شيء عن شيء آخر غير راجع الى ذلك الاخر ـ احسن التدبر فيه .

ص ٣٩٢س ١٢ قوله . كأرباب الارادة ـ اه ـ هذه الارادة في مقابـل ذلك التسليم الاضطراري .

ص ٣٩٢ س ١٢ قوله : في مقام التسليم ـ اه ـ كأنه أراد من التسليم التسليم التقليدي الاضطراري في وجه من الاعتبار .

ص ٣٩٢ س ١٦ قوله ﷺ : ﴿ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ ﴾ كأنه يتضمن الاشارة الى لحاظ وساطة الوسائط . وكذا قوله : «على كل حال» ـ فأحسن التأمل فيه .

ص٣٩٣ س ٣ قوله ﷺ : ونزلت عليكم السكينة والوقـار ـ اي ببركة مصاحبة الصائمين والابرار، الذين هم حضروا معكم الافطار ، واجتمعوا معكم في

مصاحبة . ولذلك الاجتماع نوع من الوسائط في استنزال البركات ـ فافهم .

ص٣٩٦ س١٧ قوله : على قلب حبيب الله ﷺ بالحق ـ اه ـ اي : بالحقيقة من دون وساطة ملك ، كما في صورة انزال الكتاب على سائر الانبياء فانه لابد فيه من توسط الملك الحامل للوحي الكتابي اذ الروح الكلي الامري الكلامي ما لم يتصور ويتمثل ، ولم يتنزل من الموطن المعنوي الروحاني الى المنزل الصوري الجسداني لم يمكن أن يتوسط في نزول الوحي على الحس الباطن من النبي ، حتى يتمكن من استماع كلامه بسمعه الحسي الباطني فضلا عن السراية الى الحس الظاهري منه ـ فلا تغفل .

ص ٣٩٦ س ٢٠ قوله . بان أحدهما ـ اه ـ يعني ان كلام المتكلم صفته التي اتصف بها . وأما الكتاب بالنسبة الى الكاتب يكون صورة الكتابية فعل الكاتب الصادر عن الكاتب في المادة اللوحية التي انفعل بتلك الصور .

وفي تكلمنا البشرية اعتباران تكون الحروف والكلمات في لوح نفَسنا ـ بفتح الفاء - صادرة من نفْسنا ـ بسكون الفاء ـ فينفعل لوح نفَسنا ـ بفتح الفاء ـ من تأثير نفْسنا ـ بسكون الفاء ـ التي هي الكاتب ونوح نفَسنا ـ بالفتح ـ حينئذ يصير كتاباً مباثناً لوجود نفْسنا المفارقة عن المادة الخلقية من عالم الانفعال الذي هو صفة النفَس ـ بالفتح ـ وأما الاعتبار الآخر فهو اعتبار نزول النفْس ـ بسكون الفاء ـ الى مقام النفَس ـ بالفتح ـ وصيرورتها موجودة بعين وجود النفَس ـ بالفتح ـ فحينئذ تصير متكلماً بأن يكون الحروف والكلمات صفة للنفْس ـ بسكون الفاء ـ النازلة في مقام النفَس ـ بفتحه ـ المتحدة به في الوجود بعينه . ومن هيهنا قالوا : « ان كل كتاب كلام من وجه ، لابالعكس » . ـ لكن درك ما قالوا قل أهله .

ص ٣٩٩ س٥ قوله : والفرق بين الباري ـ اه ـ حاصل الفرق [ان] الباري هو جاعل الشيء وموجده ومبدعه لامن شيء ، والخالق هو جاعل الشيء ومكونه

من لاشيء ، الذي هو المادة القابله الحاملة لقوة وجود الشيء واستعداده . وهذا هو الفرق بين الابداع والتكوين .

وأما الاختراع : فهو برزخ بينهما كما اشتهر بين القوم . اذ العوالم ثلاثة أنواع : عقلي مفارقي بالمرة ، ونفساني برزخ بين العالمين، وخلقي هيولاني . فلكل اعتبار يسمى بحسب ذلك الاعتبار .

ص٤٠٩ س٦ لكن ترك العمل به في انزال الكتاب ـ يعني من ترك العمل هيهنا وترك القول باستحالة انزاله . فبقي القول بها في رؤيته تعالى على خلاف الأشاعرة .

ولايخفى ان هذا القائل التارك في انزال الكتـاب والقائل في باب الرؤية حسبما استند اليه من الاستناد بظاهر اللفظ الذي هو استناد ظني واجتهاد فقهي لم يتيسر له تحصيل القطع والعلم اليقيني والايمان الايقاني بالضروري من الدين المبين الذي هو مدلول نص الكتاب المحكم من قوله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ونظائره من الآيات البينات والمحكمات الباهرات ، فان الظن لايغني من الحق شيئاً فاعتبروا يا اولي الابصار .

ص ٤٠٩ س ٨ قوله : انما وقع التعويل على ضرب الأمثلة يعنـي من مواد مخصوصة يحتمل وجودها من المحامل التي لايبقي معهـا الوثوق والاعتماد فضلا عن يقين من الاعتقاد الذي يجب تحصيله في مثل هذا المقام .

وقد تقرر في محله ان قدر المرء بقدر نور ايمانه ويقينه وايقانه كما يشير اليه قوله تعالى : ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [١٠/٣٦] فلا تغفل .

ص ٤٠٩ س ١٨ قوله كالمصباح ـ قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ وَالْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [٢٤/٣٥] الآية ـ ان المشكوة لهي الصدر المعنوي المسمى بالنفس والقلب المعنوي المنقلب الذي ينقلب في بعض

الموارد الى أهله مسروراً ، وفي بعض آخريصير مصدوقة كريمة : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [٢٦/٢٢٧] وأما المصباح فهو العقل النوري الذي أصله هو العقل الكلي المحمدي ، هو شمس حقيقة حقائق الأشياء كلها . المسماة بالمحمدية البيضاء · وكل قلب نوراني معنوي منزلتـه من المحمدية البيضاء منزلة القمر البدري والهلالي بصوره المختلفة في الاستنارة ، المتفاوتة قدراً فيها ، حسبما تفيضه (ظ : تقتضيه) الأوضاع المختلفة . أما القلب الظلماني بتفاوت دركات ظلمته فهو بقدر حيلولة أرض النفس الامارة بالفحشاء والمنكر بينه وبين مواجهته وتوجهه واقباله الى شمس المحمدية البيضاء يصير منخسفاً بخسف تلك الارض ، ويعتمـد ويتكى عليها ، ويقطع رابطة اتصاله الفطري الذي فطر قلب الادمي عليـه بها طراً فيسقط القطع في الدركة التي هي أرضها الخاسفة به .

ص ٤١٠ س ٢١ قوله : مظهراً من مظاهر ذاته ـ اه ـ قال قبلة العارفين علي عليه السلام : « تجلى للاوهام بها وامتنع بها عنها » حاصله : انه سبحانه وصف نفسه تعرف لنا بنا في عين حجابنا عنه . وقد قيل فيه باطن لايكاد يخفي ظاهر لايكاد يبدو فانه سبحانه تعرف للحق بالخلق ، باطن في ظهوره ، ظاهر في بطونه .

ص ٤١١ س ١ قوله : بل واقع لقوله صلى الله عليه وآله : « من رآني فقد رأى الحقّ » أقول : في تحقيق هذا المقام وأمثاله قـال اولياء العلم والمعرفة ، وبذلك وردت الاخبارات الالهية ـ اي الايات الكتابيـة ، والبينات الايجابية ـ مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [٥٧/٣] وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ [٥٧/٤] وقوله : ﴿ فِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِـرُونَ ﴾ [٥١/٢١] وقوله : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [٤١/٥٣] وقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُـلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [٤١/٥٤] وغير ذلك من الايات الباهرات الكاشفات عن سرائر أسراره تعالى في أمثال مقامنا هذا .

ومحصل كلامهم هيهنا انه تعالى وصف نفسه بنا فاذا شهدنا هذه في مواقف قرب النوافل شهدنا أنفسنا في مشاهد سمعنا وبصرنا بما ورد : « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » واذا شهدنا في مواقف قرب الفرائض شهد نفسه في مشهد سمعه ، كما ورد في : «سمع الله لمن حمده» يعني يقص سمعنا الراجع اليه تعالى اي الى سمعه فيه . فيصير في مواقف الفرائض وبحسبه سمعنا سمعه ، وبصرنا بصره . الى غير ذلك مما يرجع منا اليه سبحانه .

والحاصل ان الأمر في المؤمنين بحسب نفسه كان كذلك لا بحسب وهمنا . فان وهمنا يحكم لو خلي بطبيعته وفطرته المضادة للعقل النوري القدسي الالهي على خلاف ماهو الامر في نفسه من رجوع الأمور اليه تعالى ، كما قال هو : ﴿ أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [٤٢/٥٣] قال ﷺ :«كان الله ولم يكن معه شيء » وقال ابنه أبوابراهيم موسى الكاظم ؏ عند استماع هذا النبوي وذكره في محضره ومسمعه : « الان كما كان » فتلطف وتثبت يا بني في كل ذلك ، فانه حرى بذلك .

ص ٤١١ س ١ قوله ﷺ : من رآني فقد رأى الحق - لعله صدر عنه ﷺ اشارة الى موقف جامع من قرب النوافل . وأما احتمال حمله على الاشارة الى طور قرب الفرائض فبعيد جداً . اذ المشاهد الرائي في قرب الفرائض هو الله - لاغيره - فافهم .

ص ٤١١ س ١٠ قوله : لظهور سلطان الآخرة -اه- فلعل تكلمه ومكالمته لبعض الانبياء في بعض الاحيان والأركان هذا المشهد الثاني مع كون النبي بعد في الدنيا بضرب من الانجذاب وفي سائر احوال الوحي النبي غير منفكة عن ضرب من الانجذاب، وان كان جذبة حال المكالمة فوق الانجذاب الذي يشاهد فيه الملك الحامل للوحي كما لايخفى .

رب ارنی مگوی وبر طور مرو ✻ از دور جواب لن ترانی مشنو

خواهی که بچشم حق ببینی حق را * باز آو حدیث من رآنی بشنو

ص٤١١ س ١٢ قوله : وأغشيه ظلمانية ـاه ـ لكون النشأة نشأة غلبة عنصر الفناء وتوابعه من الدثور والزوال والتقضي والانصرام كما هو مقتضى طبيعة النار .

ص٤١١ س١٢ قوله : وهذه الحواس ـاه ـ اذ نشأتها نشأة طبيعة النار لتخالطه بماء الهيولى، المسماة بالبحر المسجور. والطبيعة سيالة غير قارة ـ كما تقرر في محله .

ص ٤١٢ س ٩ قوله عليه السلام : ألست تراه في وقتك هذا ـ كأنه اشارة منه عليه السلام الى الثاني من الاقسام ، وقوله عليه السلام : « وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين » ـ الى آخره ـ اشارة منه عليه السلام الى الرابع منها .

ص ٤١٢ س ٩ قوله عليه السلام : في وقتك هذا ـ كأنه يشير الى نفسه حيث يكون قائمة بخلافة حضرة الحق الحقيقي الغني القيومي تعالى ، ومعلمة بجميع الأسماء الألهية متحققة بها ، وبذلك التعلم والتحقق بحقائق الاشياء التي هي مجالي ذاته الاقدس وصفاته العلياء وأسمائه الحسنى ، بل وهي أسمائه الحسنى في عين كونها مظاهرها . . . كلمة الجامعة لجوامع الكلمات التامات الألهية ، وخليفته الذي رؤيته هي رؤيته تعالى بذاته وبصفاته العليا وأسمائه الحسني . كيف لا ـ وأضاف سبحانه أنفسهم الى ذاته ـ جل شأنه ـ حيث حكى عن عيسى بن مريم وقال حكاية : ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [٥/١١٦] .

وقد فسروا عليهم السلام قوله ﴿نفسك﴾ بأمير المؤمنين قبلة العارفين عليه السلام ، ومن هيهنا سميت نفس الكل التي هي العلوية العليا بذات الله العليا ، ومن هيهنا قال ـ جل من قائل ـ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [٦/١١٢] والنفس الالهية والمكتوبة عليها الرحمة ان هي الا أنفسهم التي هي الكتاب المبين ، واللوح الكريم .

والطور * وكتاب مسطور * في رق منشور : ان الطور لهو عقل الكل ، والمحمدية البيضاء ، والقلم الاعلى ، وآدم الحق الاول . والكتاب المسطور لهو

اللوح المحفوظ ، والعلوية العليا ، وحواء الأولى .

وأما الرق فهو لوح القدر الزماني الذي هو مرتبة نازلة دون مرتبة اللوح المحفوظ ، وتلك المراتب لهم . بل وهم عليهم السلام - هذا .

اللهم أن ينقلب ملكه ملكوتاً ، وينجذب اليه انجذاباً ينسلخ عن جلباب الهيولانية . وذلك يتصور بوجهين : أحدهما بغلبة حكم ملكة الملكوتية الصورية على حكم الطبيعة الشهادتية والملكية ، بحيث يسرى حكم الى الظاهرة ويستره ويغفرله بأن يمحوه طراً . وثانيهما بانقلاب وانجذاب ينجذب به السافل الى العالى لانقطاع من النفس المتصلة المتحدة بالسافل بجذبه من العالي واهتزاز منه ينجذب وينقلب بهما السافل الى العالى وبسببه يكون العروج الجسماني .

ومعراجه صلى الله عليه وآله . . . العنصري الغالب عليه حكم الملكوتي في حقه صلى الله عليه وآله من هذا القبيل الثاني . كيف لا - وقد ورد عن اولياء العلم عليهم السلام : ان التراب لاياكل أبدان الكمل من الانبياء والاولياء الأصفياء عليهم السلام .

هذا هو ماخطر - ان كان حقا . . . الى الافاضة . وان كان باطلا فمن دعابة نفسي الكذابة ووهمي الحارف من ناحية الواهية .

ص٤١٢ س١١ قوله عليه السلام : وليست الرؤية بالقلب - لعله عليه السلام أراد من القلب هيهنا العقلاني، والقلب النفساني الملكوتي المثالي . فيعم حينئذ القسم الثالث والرابع كليهما معاً . وأما قوله عليه السلام : « كالرؤية بالعين » فيعني عليه السلام منه العين الدنياوية التي هي آلة جسمانية هيولانية ظلمانية ، وهي مثار الغلط والخطأ ، وهي دائرة زائلة يدركها الموت مثل سائر الحواس الظاهرة . . . للموت . ومعلوم ان بهذه الحواس الظلمانية الهيولانية لايدرك الا الامور الظلمانية الهيولانية ، لضرورة كون نشأة المدرِك والمدرَك واحدة ، كما هو مقتضى اتحاد الحاس بمحسوسه ، والعاقل بمعقوله كما رآه اولياء العلم والمعرفة .

ص ٤١٣ س ١٨ قوله : نحو آخر من الوحدة ـ اي الوحدة الاحاطية ، وبعبارة اخرى الوحدة الحقة بالنسبة الى وحدات آحادها الشخصية التي وحدة كل منها وحدة عددية لها ثانية في الوجود ، بخلاف الوحدة الحقيقية النوعية بالنسبة الى آحاد أشخاصها وليست وحدة شيء منها ثانية لوحدتها السارية فيها ، ومحيطة بها احاطة الاصل لفروعها ، والحقيقة لاصنافها وأمثلتها التي منزلتها من الحقيقة منزلة الصورة من حقيقة المعنى التي تجلت منزلته وتصورت بصورتها التي هي ظل الحقيقة . ودرك حقيقة الحال هيهنا صعب المنال لايناله [الا أهل] الاشارة الذين هم ليسوا بأهل العبارة ـ فتفطن ان كنت أهلا له فافهم .

ص ٤١٧ س ٤ قوله : خطاب مشافهة ـ يعني ان هـذا الخطاب بخصوصه خطاب مشافهة اختصاصية بقوم طلبوا الاراءة والرؤية من موسى ، وماكان موسى منهم ، بل كان خارجاً عنهم ومحل مناقشتهم ومنازعتهم في طلبهم منه عمل الاراءة ، كما لايخفى فاولى بتبديل قوله « فلايلزم » بـ « يلزم عدم تناوله له ﷺ » ـ . ولاتغفل

ص٤١٧ س٧ قوله : قضيه صعق موسى ـ عدم لزوم البطلان من جهة البينونة بين القضيتين ، فلا استبعاد في موت موسى في القصة الأخرى .

ص ٤١٧ س ١٨ قوله : وبعد العلم الضروري ـ اه ـ ان مراد أهل العلم من كون العلم الضروري الاضطراري مانعاً ومنافياً هو كون النفس الادمية بملكاته التي جبلت عليها وتجوهرت بها في مدة حيوتها الدنياوية متطورة بأطوار وآثار هي من تبعات تلك الملكات الجوهرية التي تجوهرت بها ، ولايتمكن من تبديلها بعد الموت فتضطر في معاينتها ومشاهدتها حين تصورت وتطورت بملكاتها الجوهرية ، وتمثلت بهذه الصور الحسية الملذة او القبيحة الموحشة المولمة تمثل روح الشخص بصورة قالبه الذي يلزمه شهودها بتفاوت حالتي القالب في الصحة والمرض ـ فافهم .

ص ٤١٨ س ١١ قوله : أصله الاحسان ـ اه ـ اعلم ان الرحمة الالهية رحمتان

رحمــة متبائنة غير مسبوقة باستحقاق وقابليــة واستعداد ، وغير منوط بسابقة سؤال استحقاقي . فمن هيهنا قيل :

داد حق را قابليت شرط نيست ✽ بلكه شرط قابليت داد اوست

اذ لو لم يكن مايشاء لايتصور شيء حتى يتصور أن يكون قابلاللفيض وجودي وغير وجودي من الاستحقاقات الذاتية ، فلا امتياز ولااستحقاق في الأعدام الصرفة ورحمة وجوبية استحقاقية ـ كما تقرر في محله ـ .

ص ٤٢٠ س ٢ قوله : عادين ـ بالعين الغير المعجمة كما في بعض النسخ . ولكن لفظة « غادين » بالعين المعجمة من الغدو . والغداة اي : السير في النهار ـ لعله أنسب ، بقرينة « فامسوا » كما لايخفى . فلو كان بالعين المهملة لابد أن تشتق من « العدو » .

ص ٤٢١ س ١٤ قوله : ورفعت ـ اي : بتبديل الفعليــة الى الاسمية لافادة الثبات والدوام .

ص ٤٢٢ س ١٦ قوله : في حيوة موسى وليس كذلك اذ هو عليه السلام قد [مات] في التيه ولم يبق معهم عند هذا البتة ، بل هذا هو وجه الاشكال ظاهراً . والجواب هو الحمل على لسان يوشع .

ص ٤٢٧ س ١ قوله : ظاهره من قبله العذاب ـ كما قال عز من قائل : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [١٩/٧١] اذ الوجود الدنياوي والكون الزماني داره دار بلاء ومحنة ، ودار شقاء ومشقة ، ولكن في حق السعداء . بتفاوت مقاماتهم في . . . ودرجاتهم في احتمال المحنة والمشقة شقاء في نعيم ، وفي حق الأشقياء نعيم وهماً شقاء عقلا . وأما باطن النفس الناطقة . . . انما هو عالم العقــل المضاد للجهــل ، والنور المضاد للظلمة ، والحيوة المضادة للموت ، والبقاء المضاد للفناء .

وسر ذلك هو كــون عالم العقل المضاد للجهل عالم الحق ، لايتطرق اليــه

الباطل بوجه من الوجوه ، فهو الباقي بالبقاء الحقاني ، والموجود بالوجود السبحاني وهذا لاينافي كون بعض نشآت الجنة صورية جسدانية ، اذ الأمثلة الجنانية انماهي تمثلات الحقائق الحقانية وأظلة الحقائق الالهية ـ فاحتفظ بما اومأنا .

ص ٤٢٧ س ٣ قوله : ذنوب وجوداتنا ـ كما قيل : « وجودك ذنب لايقاس به ذنب » اذ تلك الاضافة الوهمية والنسبة السرابية حجاب شركي يمنع عن شهود الحق بالوحدانية الكبرى . والوجود الحقيقي انما هو أمانة الله التي عرضت على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ومن حملها . والانسان المحتجب بانّيته الوهمية وانانيته السرابية حملها جهلا يحسبه ماء حتى اذا جائه لم يجده شيئاً .

ص ٤٢٧ س ٧ قوله : على الباب مثال محمد ﷺ : خلق الله آدم على صورته . وآدم الحق الحقيقي هو الحقيقة المحمدية ﷺ .

ص ٤٢٩ س ١٢ قوله : راجعين ـ يعني راجعين عن المواجهة حال الدخول في الباب بأن استدبروا عن المواجهة ودخلوا الباب مستدبراً ، بجعل دبرهم موجهاً للباب . فبالغوا في اسائة الادب والاستهزاء .

ص ٤٣١ س ٥ قوله : والجواب عن الاول ـ وجه آخر في الجواب عن الاول ان القول بدلالة لفظة « اذ » لما كان قولا زمانياً كائناً بعد أن لم يكن كان قول ولي من اوليائه تعالى أسند الى نفسه سبحانه تقريباً لوليه منه تعالى في مقام خلافة الولي له تعالى وقيامه مقامه ، واسند ثانياً الى القائل الذي يتولى لولايته تعالى ويقوم بأمره الذي أمره به في هداية عباده . وهذا الجواب منوط بالضابطة المقررة الموروثة من أئمة أهل البيت ﷺ في حل عقدة اسناد العقاب والافعال الخلقية الكونية اليه تعالى فاحتفظ .

ص ٤٣١ س ١٠ قوله : والسكون ـ اه ـ وجه آخر هو ان الدخول رعاية حال

القالب ومايناسب طوره ، والسكون رعاية حال القلب بما يناسب شأنه اذ الدخول بلا طمأنينة قلبية معنوية صورة بلا روح .

ص ٤٣١ س ١٤ قوله : بل بالكون فيها ـ لايلائم قوله قبيل هذا « وأما اذا لم يكن مشروطاً به » كما لايخفي .

ص٤٣٢ س٤ قوله : ويقولوا حطة ثانياً ـ فيه انه مامعنى التخلية بعدالتحلية ؟ فيقال في حله · ان التخلية بعد التحلية يكون تداركاً عن نقصانات التحلية المتقدمه مثل النافلة بعد الفريضة .

ص ٤٣٤ س ٩ قوله : وله شعبتان تتقدان ـاهـ اي تتقدان في ظلمة الليل مثل نفوذ شعاع النير المنير للظلمات كان الشعبتين نيرين ، مثل الشمسين المنيرين .

ص ٤٣٤ س ١٣ قوله : لايرتحلون منقلة ـاهـ لعل لفظة منقلة سهو من القلم بل كان بلفظة «بنقله» بالباء بمعنى مع . اي : كانوا عند ارتحالهم ينقلون الحجرمعهم بوضع من الاوضاع الحسيه الذي كان الحجر منهم . ثم كانوا يجدونه مع أنفسهم عند انتهاء الارتحال من المنزل الاول في المنزل الاول بعين الوضع والاوضاع التي كان منهم فيه ـ فافهم .

ص ٤٣٤ س ١٧ قوله : ففر به ـ اي : فر الحجر بالثوب ليشاهد الاسباط كذب مارموه .

ص ٤٣٤ س ١٩ قوله : في نحلاته ـ [1] اي في عطياته التي أعطاها الله له عليه السلام اي جعل عطاه مفقوداً .

ص ٤٣٧ س ١٦ قوله : تكونه فيه شيئاً فشيئاً وخروجه ـاهـ اي على المجرى الطبيعي المعروف ، بانقلاب المواد العنصرية بصورها بعضها الى بعض عند تصادم

---

١) الظاهر وقوع تصحيف في نسخة المحشي (ره) والصحيح : « في مخلاته » كما أثبتّه في المتن .

الامور المتضادة الاتفاقية . فان التكونات العنصرية على المجرى الطبيعي وانقلابات موادها على الوجه العادي امور اتفاقية مستندة الى اسباب وامور كذلك ، حسبما اقتضاه النظام القدري الخادم للنظام القضائي . وقد يجرى الامور لا على المجرى الطبيعي ، بل على المجرى البدائي الذي هو مشرب أذواق أئمة أهل بيت النبوة والولاية عليهم السلام وهو مذهب شيعتهم الاثنى عشرية .

وأما تصرفات النفوس القوية مثل نفوس الانبياء والاولياء الاوصياء عليهم السلام ، بل ونفوس المتألهين من الحكماء الذين هم اولياء العلم والمعرفة ، فهي خارج عن طور البداء . وأمر البداء أمر الهي اختزاني من أسراره المخزونة ، المكتوم سرها في وجه من الاعتبار عن الانبياء والأوصياء عليهم السلام أيضاً ـ فاحسن التأمل .

ص ٤٣٨ س ٢١ قوله : نفس عالم الكبير ـ يعني نفس الكل ، التي هي خليفة الله في خليقته ، وهي المسماة بذات الله العلياء ، وهي لوح القضاء ، ولها لوح القدر بعد القضاء ، وتصرفات تلك النفس الكلية ، لا على المجرى الطبيعي ، فهي راسة قالت بها أصحابنا الامامية تبعاً لائمتنا وسادتنا سادة الكل في الكل .

كيف لا ـ وتلك النفس الكلية الالهية هي مقام العلوية العليا ، التي [هي] المسماة بذات العلياء ، كما ينظر اليه قوله تعالى حكاية عن عيسى بن مريم عليه السلام : ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [٥/١١٦] فان نفس الله الهي المحيطة بمحيطات سائر الانفس الكلية ، كأنفس سائر الانبياء التي رؤوس تلك النفس المحيطة بالكل ووجوهها المستفيدة منها والمفيدة لما تحتها من الرعية والأمة ـ فافهم فهم نور .

ص ٤٣٩ س ١٠ قوله : نحو آخر من الوجود ـ اه ـ أما في المشاعر الحسية ـ سيما الباطنية من المشاعر والحواس ـ فقيام الصور بها هو قيام صدور ، لاقيام عروض وحلول انفعالي عند تصور النفس الحساسة اياها ، صادرة عنها ، قائمة بها قيام الفعل بفاعله ، لاقيام الصورة بمحلها وقابلها .

وأما في باب المرايا المعروفة فقد تقرر في محله قيام الصور العكسية المرئية بوساطة المرايا قيام صدور بالعاكس الذي ينجلي عند مواجهته للمرآة عند المرآة بتلك الصور . فالمرآة مظهر لها . لامقام ولامحل ـ فاحسن التأمل .

ص ٤٣٩ س ١٧ قوله : تفسير آيات المعاد ـ والصور المعادية والاجساد الحشرية كلها قائمة بالنفوس المحشورة بها قيام صدور لاقيام حلول في المادة الانفعالية فاللذة والالم هناك انما فهما بادراك الملائم لجوهر النفس ، وغير الملائم لها ، اذ الملكات الحميدة الكريمة الشريفة الروحانية تتنزل وتتمثل وتتصور بصور كريهة موحشة مولمة ، مثل النفس الطاهر مع المعاد مثل العنوان (ظ : العيون) الصافية ينبع منها الماء الاجاج والعذب الفرات ، ومثل أنفس الخبيثة مثل العنوان (ظ: العيون) الكدرة المفننة المتعفنة ينبع منها الماء الاجاج القطاع للاحشاء والامعاء . فالحاصل كفي بنفسك اليوم حسيباً . « أي نور چشم من بجز ازكشته ندروي »

ص ٤٤١ س ٣ قوله : على طريق الأولى ـ لعل وجه الاولوية كون استحالة الماء على المجرى الطبيعي أسهل من الاجسام النباتية والحيوانية ، ولكن استحالة الماء بالحجر المعهود بعيد جداً .

ص ٤٤١ س ٣ قوله : على طريق الاولى ـ لعله قدس سره كان يريد من من استحالته الى الهواء المجاور بناء على كون هذه الاستحالة جارية على المجرى الطبيعي . وأما لو بنى أمر الاستحالة منها على مجرى الاهتزازات العلوية من باب خوارق العادات الطبيعية مثل ماذكرنا من تصرفات النفوس القوية ، فالامر ظاهر من دون اشكال وهذا هو اولى .

ص ٤٥٥ س ٢ قوله : وهذا يدل ـ اه ـ يعني ان بين الأيمان والعمل الصالح وبين جزائهما اتصال عقلي يمنع انفكاك كل منها عن الاخر ـ فأحسن التدبر .

ص ٤٥٧ س ٨ قوله : والقوة الفعلية ـ اه ـ أي مبدء التغيير المطلق حتى

يشمل مبدء التغيير من الليسية الذاتية الى الايسية الغيرية ان كان درك كيفية التغير من الليسية الذاتية الى الايسية الغيريه صعباًمستصعبالكون...الذاتي عن الذات وتبدله بالغيرى مستحيلاً كما هوالمعروف من ألسنة المحصلين .

ص ٤٥٧ س ١٢ قوله : جعل الله واسطة ـ اه ـ يعني من الواسطة الاعداد ، اي اعدادالمادة لصلوحها وانصلاحها لقبولالصلوة ، فهذه العلية مرجعها رفع وجود الموانع عن المادة القابلة فيتفرع عنها صحة وجود لشيء ، لانفس الوجـود . وأما علة الوجود حسبما اقتضاه عرف البرهان اللمـي في المشرب الالهيين ، فهي فياض الوجود ومعطيه برسم الابداع ، اي : لامن شيء أصلا . فالوسائط الابداعية تكون وساطتها من مراتب علية العلة الأصيلة ، التي هي علة العلل المحيطة بالكل في العلية ، اي لا تعرف عن علية مثقال ذرة من العلية . كما في باب أصل الوجود وساير صفاته الكمالية وفيه سر التوحيد الثابت في عين التكثيـر ذاتاً وصفة وفعلا وأثراً ـ فتامل فيه .

ص ٤٥٧ س ١٨ قوله : انه مااودع في العقول يعني العقل المطبوع ـ وهو الفطرة ـ فطرةالله التي فطرالناس عليها ، ولولا المطبوع منالعقول لاينفعالمسموع منها . اذ المطبوع بمنزلة البصر ، والمسموع بمنزلة ضوء الشمس . . . .

ص٤٥٨ س٤ قوله : وهذا النوع من الميثاق أقوى المواثيق ـ اه ـ كيف لا وهو مرجع المواثيق كلها ومبدؤها ومعادها .

* * *

تمّ والحمدُ لله

تم الكتاب بحمد الله

ويليه الفهارس

فهرس العناوين

فهرس الاحاديث

فهرس الاعلام

*****

الموضوعات والاصطلاحات

تمّ والحمد لله

فهرس الكتب